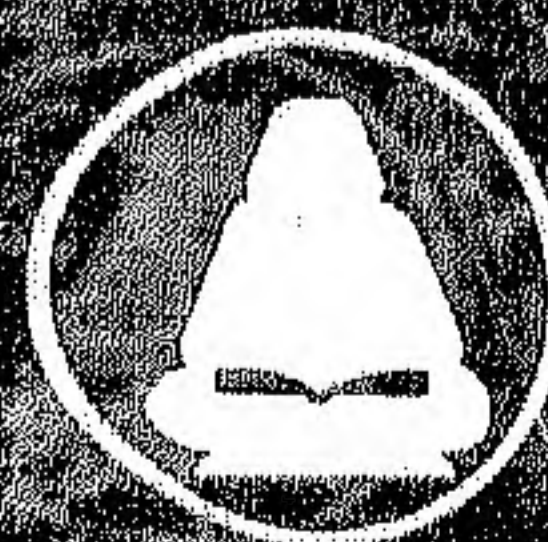
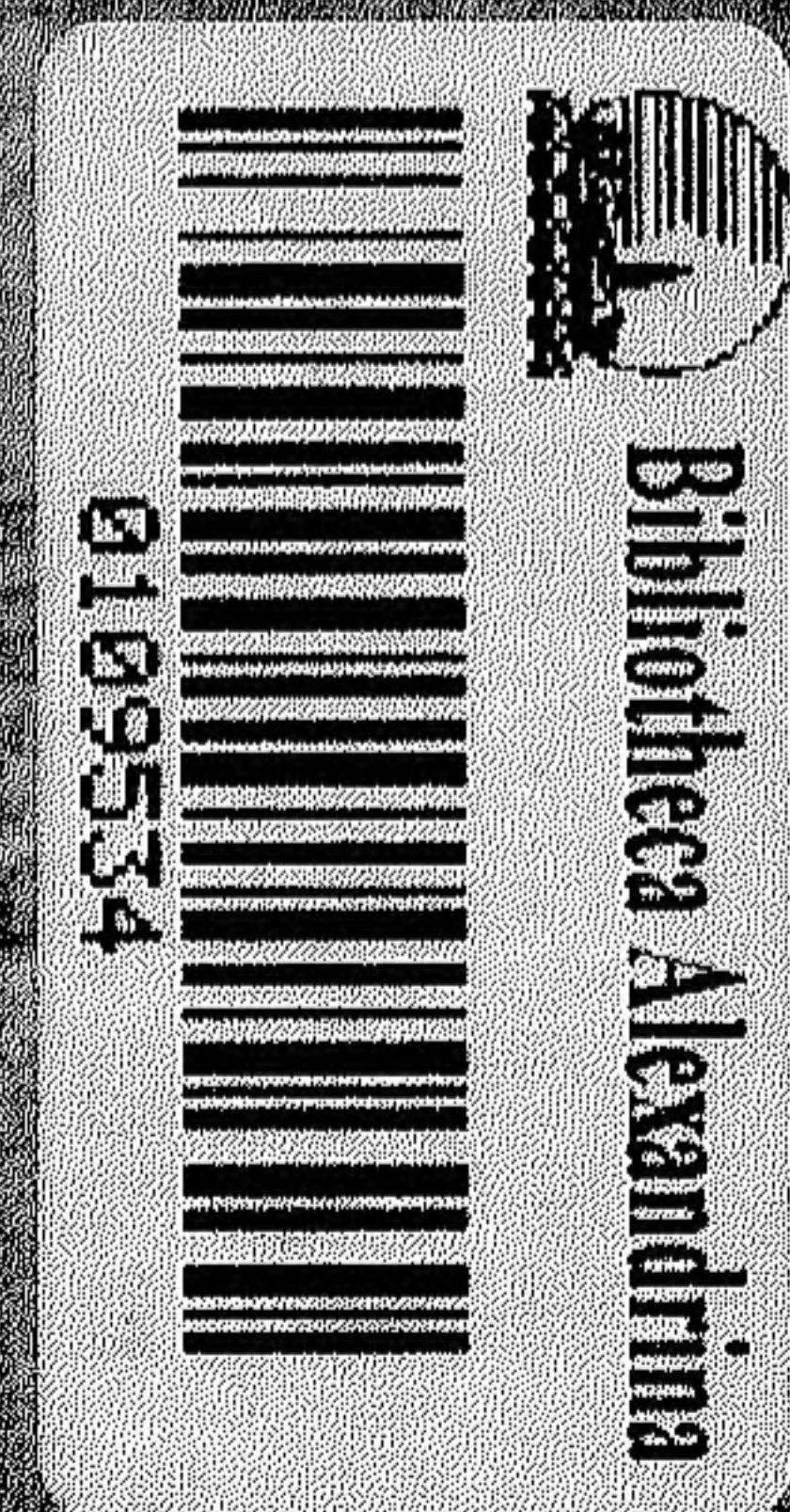


دراسات أدبية

الأسس النفسية للإبداع الأدبي

(في القصة القصيرة خاصة)

د. شاكر عبد الحميد



دراسات أدبية



الأسس النفسية للإبداع الأدبي

(في القصّة القصيرة خاصّة)



تأليف
د. شاكِر عَبد الحميد



المعهد القومي للدراسات والبحوث

١٩٩٢

الاهداء

الى استاذى الدكتور / مصطفى سويف صاحب البصمات الهامة فى
مجال الدراسة النفسية للأدب ، ورائد هذا المجال فى مصر والوطن العربى .
« شاكر عبد الحميد »

تقديم

بقلم الدكتور مصطفى سويف

يتناول هذا الكتاب موضوعا بالغ الأهمية سواء بالنسبة لعلماء النفس ، أو الأدباء ، أو النقاد . وهو موضوع الأسس النفسية للإبداع فى القصة القصيرة . ويعتبر المؤلف من خيرة الكتاب الذين يرشحهم تخصصهم وقلمهم للكتابة فى هذا المجال . فهو ، بالإضافة الى أن هذا الميدان يعتبر جزءا لا يتجزأ من تخصصه الدقيق . قد سبق له أن نشر كتابين يعالج فيهما موضوعين لصيقلين بموضوعين الكتاب الراهن ، أحدهما فى الإبداع فى التصوير ، والآخر فى الرسم عند الأطفال . ومع أن المؤلف وضع اللبنة الأولى للكتاب الذى نقدمه الآن قبل أن يشرع فى الأعداد للكتابين الآخرين ، ومع ذلك فقد عاد اليه بعد الفراغ من نشرهما فإضاف وحذف وعدل وراجع ، فكانت النتيجة هذا السفر بمضمونه القيم ، وصورته المتميزة .

يتناول المؤلف موضوعه فى هذا الكتاب من خلال ثمانية فصول ، تكون فى مجموعها جولة شديدة الخصوبة حول دراسات الإبداع المختلفة التى تناولت صناعة القصة القصيرة . وفى ثنايا هذه الجولة يعالج كثيرا من الأطر النظرية الذائعة بين علماء النفس ، كما يعالج موضوعين من أكثر الموضوعات جاذبية بالنسبة للأدباء والشعراء والفنانين عامة ، وهما

موضوعا الصور العقلية ، والخيال الابداعي ، ثم يقدم اسهامه العلمى.
الخاص فى الميدان ، وهو اسهام يتسم بالأصالة والتمكن والخصوبة .

واخيرا فان هذا الكتاب يقدم اضافة لها وزنها الى المكتبة العربية
للمؤلفات الرصينة فى علم النفس بوجه عام ، وفى الدراسات النفسية
للإبداع بوجه خاص .

تصدير

يعتمد هذا الكتاب الى حد كبير على أطروحة الماجستير التي تقدمت بها الى كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٨٠ م وبإشراف العالم الكبير الدكتور مصطفى سوييف ، وقد ظلت مخطوطة هذه الأطروحة غير منشورة رغم بعض العروض التي قدمت لنشرها منذ فترة ليست بالقصيرة ، لكنني كنت أشعر أن الثمرة ما زالت قابلة لأن تنضج أكثر مع الزمن ومرت سنوات ٠٠ وظل موضوع الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة خاصة أملا يلوح في أفق عقلي ، فهو باكورة أعمالي وأول إنجازاتي ، كان يومض ويخبو ، يتجلى ويختفى ، لكنه كان دائما يضغط على عقلي وقلبي ٠٠ وكانت هذه العمليات دائما بمثابة المثير أو المحرك الذي يثير دوما الرغبة في إعادة النظر في مخطوطة العمل ٠ وقد حدث ذلك فعلا فتحت اضافة الأجزاء التالية الى أصل العمل :

- ١ - إعادة كتابة المقدمة التعريفية الخاصة بالقصة القصيرة في الفصل الأول ٠
- ٢ - كتابة النظريات الأساسية المفسرة للإبداع بشكل أكثر كثيفا وتفصيلا في نفس الوقت وقد تم الاهتمام بشكل خاص بالعرض المفصل لنظرية الجشطالت في تفسير الإبداع الأدبي وتم الاهتمام أيضا بشكل خاص بتفسيراتها لعمليات الإدراك والالهام والاستبصار والشعور واللاشعور والتأمل والتعبير وغير ذلك من العمليات وذلك في الفصل الثاني ٠
- ٣ - تم الاهتمام باضافة بعض الدراسات الحديثة التي أجريت من منظور تحليلي نفسي أو من منظور سلوكي أيضا على شخصيات

بعض الأدباء أمثال ديستوفسكى كافكا وبلزاك وهمنجواى وادجار آلان بو وهرمان ملفيل وغيرهم مع الاهتمام أيضا بتوجيه الانتباه الى مواضع التشابه بين أسلوب الحياة وأسلوب الكتابة كلما كان ذلك ممكنا ، كما تمت اضافة ترجمة عربية حديثة قام بها المؤلف لدراسة فرويد الشهيرة عن ديستوفسكى وذلك فى الفصل الثانى أيضا .

٤ - تم الاهتمام باظهار العلاقات بين بعض النظريات النفسية وبعض الحركات الفنية كما فى حالة العلاقة بين التحليل النفسى من ناحية والسريرية من ناحية أخرى كما أضيف جزء خاص عن « تحقيق الذات والابداع » (فى الفصل الثانى أيضا) .

٥ (حدثت عملية اضافة وتزويد للفصل الثالث والذي يشتمل على تصور الكاتب الخاص لعملية الابداع وذلك من خلال اضافة أفكار وآراء جارثيا ماركيز الكاتب الكولومبى الشهير الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٢ م ولم تكن هذه الأفكار والآراء متاحة خلال كتابة المخطوطات من هذا الكتاب .

٥ - حدثت عملية اضافة وتزويد للفصل الثالث والذي يشتمل على الكتاب وهو الفصل الرابع الذى عنوانه « الصور العقلية والخيال الابداعى » وذلك نتيجة للوعى المتزايد لدى الكاتب بأهمية الصور العقلية والخيال فى الفن بشكل عام وفى الكتابة الابداعية بشكل خاص .

٧ - حدثت عمليات تكثيف للبيانات الرقمية والمنهجية والجداول والعمليات الاحصائية التى اشتملت عليها المخطوطة الأولى للكتاب لكن هذا التكثيف حدث أيضا من خلال الاحتفاظ بالأسس المنهجية الضرورية التى قامت عليها الدراسة الأساسية التى قام عليها هذا الكتاب .

٨ - تمت اضافة فصل جديد يشتمل على عملية تحليل لمسودة قصة « طيلة السحور » للكاتب العربى من مصر عبد الحكيم قاسم مع قراءة نقدية أدبية لهذه القصة ثم أعقب ذلك التحليل السيكلوجى لتطور عملية الابداع عبر مسودتى هذه القصة .

٩ - أجريت مجموعة حوارات جديدة مع مجموعة جديدة من الكتاب ، لم تتح الفرصة للكاتب فى مقابلتهم خلال المرحلة الأولى التى انجز فيها أطروحته وذلك خلال الأعوام ما بين ١٩٧٨ - ١٩٨٠ م ،

نتيجة لأن بعضهم لم يكن مطروحا على ساحة الكتابة الإبداعية بهذا الحضور أو نتيجة لنقص في معرفة الباحث في تلك الآونة ، وتشتمل الحوارات على مادة شديدة الأهمية والخصوبة ما زالت تحتاج الى مزيد من التحليلات .

١٠ - أعيدت كتابة الفصل الخاص بمناقشة النتائج في ضوء الخبرات المتزايدة للكتاب وأيضا في ضوء بعض التصورات الجديدة فتم الاهتمام بعمليات التمثيل (العقلية) والتجريد والتعبير بشكل خاص في تفسير الابداع في القصة القصيرة ، وهو اهتمام لم يكن حاضرا بنفس الوضوح في المخطوطة الأولى من الكتاب .

على كل حال ، هذا ما امكن انجازه في هذه الفترة ، وهو انجاز يعترف الكاتب برضائه النسبي عنه ، فما زالت الثمرة تحتاج الى مزيد من الانضاج ثم هو يتقدم بالشكر الى استاذة الدكتور / مصطفى سويف على اشرافه على انجاز البنية الأساسية لهذا الكتاب حين كان في شكل أطروحة أكاديمية ، والى روح الأستاذ الدكتور عبد المحسن بدر الذي كانت مناقشته الهامة لهذه الأطروحة ذات اثر كبير في التفكير نحو اعادة كتابتها وسد بعض الثغرات فيها ، وكذلك الى روح الأستاذة الدكتورة رمزية الغريب - استاذ علم النفس بكلية جامعة عين شمس على مناقشات الهامة والمفيدة لهذه الأطروحة أيضا ، ولا أنسى كذلك فضل الدكتور يسرى العزب بتربية بنها حين قام بتعريفى بعدد من الكتاب خلال المرحلة التمهيدية من الدراسة الميدانية التي اعتمد عليها هذا الكتاب ، كذلك أتقدم بالشكر لكل الكتاب الذين ساهموا بقليل أو كثير في هذا الكتاب وأيضا لزملائي وأساتذتي بقسم علم النفس بكلية الآداب جامعة القاهرة وبصفة خاصة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود السيد والأستاذ الدكتور صفوت فرج والأستاذ الدكتور مصرى عبد الحميد حنورة عميد كلية آداب المنيا والدكتور فيصل يونس والأستاذ الدكتور زين العابدين عبد الحميد درويش والأستاذ الدكتور محيى الدين أحمد حسين وكذلك الدكتور محمد نجيب أحمد الصبوة والدكتور معتز سيد عبد الله والدكتور عبد اللطيف خليفة والدكتور جمعة سيد يوسف وغيرهم من الزملاء والزميلات .

ما زال هذا الكتاب يحتاج الى مزيد من الانفتاح على الكتابة الإبداعية في اقطار الوطن العربى الآخر ، غير مصر ، وما زال يحتاج أيضا الى مزيد من الانفتاح على الأنواع الأدبية والفنية الأخرى كالشعر والموسيقى ، كما أن مادة الحوارات التى أجريت مع بعض الكتاب مازالت فى حاجة الى مزيد من التحليل الكاشف .

على كل حال ، هذه هي الاسس النفسية للابداع الادبي ، في القصة القصيرة خاصة ، فهل نضجت الثمرة ؟

في رأيي أنها ستظل دائما تشبه طائر الفينق ، رمز الابداع ، نارا تتجدد دائما وتنبثق من خلال الرماد .

شاكر عبد الحميد

القاهرة في نوفمبر ١٩٨٨ م

● الكتابة هي فن الایجاز .

تشیكوف

● ولكن واجب الكاتب ، واجبه الثوری اذا أردنا ذلك ، هو أن يكتب بشكل جيد .

جارتيا ماركيز

● أتحسب أنك جرم صغير ، وفيك انطوى العالم الأكبر ؟!

محيى الدين بن عربى

● ليست وظيفة الفن أن يدخل الأبواب المفتوحة ، بل أن يفتح الأبواب المغلقة .

أرنست فيشر

● انى أعرف كيف أتحدث باختصار عن الموضوعات الكبيرة .

تشیكوف

● يجب دفع القصة الى أقصى حد ، لتتجاوز كل واقع .

جارتيا ماركيز

الفصل الأول

القصة القصيرة ودراسات الابداع

مقدمة

يهدف هذا الكتاب أساسا الى دراسة العملية الابداعية فى القصة القصيرة كيف تبدأ ؟ وكيف تستمر ؟ وما هى جذورها ؟ وما هى أبعادها أو جوانبها المختلفة ؟ وكيف يترتب عليها فى النهاية ابداع عمل فنى ملاحظ. قابل للنقد والتقييم وقادر على التأثير فيمن يتعرضون له ، بعبارة أخرى نحن نهدف من وراء القيام بهذا البحث الى استكشاف العمليات الابداعية المختلفة المتضمنة أثناء النشاط الخاص بابداع القصة القصيرة ، سواء كانت هذه العمليات هى المعرفية أو العمليات الدافعية أو العمليات الاجتماعية ، أو تلك العمليات التطورية التكيفية التى يقوم بها المبدع والتى قد تشمل على كل العمليات السابقة .

وبالإضافة الى الهدف الأساسى السابق فإن هذا البحث يهدف أيضا الى استكشاف الظروف والعوامل التى قد تجعل الابداع ميسورا أو معاقا .

والابداع كما يذكر شتاين M. Stein هو عملية Process (١) وعلم النفس - كما يؤكد بعض العلماء - هو علم خاص بالعمليات (٢ ، ٣) والكائن البشرى - عموما - يتفاعل مع البيئات المختلفة والمواقف المتنوعة من خلال عمليات عديدة : صريحة ومضمرة ، ذهنية ودافعية ، مزاجية وإدراكية ، انعكاسية وتراكمية مؤجلة ، ارادية ولا ارادية ، متروية ومتسارعة ، بطيئة ومتلاحقة ، قليلة الأبعاد ، فالسلوك الانسانى هو سلسلة من العمليات المتنوعة والمتعددة والمختلفة الأغراض والوسائل والشدات وإذا تحرر مفهوم العملية - كما يذكر زيغلر L. Zigler - من أن يكون

مرتبطاً بنظرية معينة وبصفة خاصة فإنه يمكننا أن نعتبر علم النفس هو « العلم الذي يدرس التغير في السلوك كدالة Function للعمليات (٤) » .

لماذا العملية الإبداعية ؟

العملية الإبداعية هي البعد الدينامي النشط والموجه لمجال الإبداع ، وربما كانت هي أهم مكوناته فلولاها لظلت القدرات الإبداعية المختلفة من أصالة وطلاقة ومرونة ومواصلة للاتجاه وحساسية للمشكلات ونفاذ ... الخ في حالة كمون واسترخاء أو تعطل نسبي ، وربما طرأت عليها وهي في هذه الحالات انتكاسات أو انطفاءات نتيجة عدم استغلالها أو تنشيطها بطريقة مناسبة من خلال العمليات الإبداعية ، كما أنه بدون العملية الإبداعية لا تتاح الفرصة للنواتج الإبداعية الأصيلة والتكيفية والمناسبة أن تظهر إلى الوجود ، فالمبدع هو من يبدع ، ومن ثم فهو يتلقى رداً أو استجابة على التنبيه (الناتج الإبداعي) الذي أرسله إلى العالم الخارجي أو المحيطين به من البشر . « ورغم الوفرة التي صدرت بها دراسات الإبداع فإن موضوع عملية الإبداع كان نصيبه منها ضئيلاً ، خاصة فيما يتعلق بالدراسات التي تقصد بالفعل إلى تناول العملية في سياق معين كالشعر أو الرواية ... الخ مع استبعاد بعض ما يصدر من دراسات اسقاطية أو في مجال التحليل النفسي » (٥) .

وقد اتضح استمرار هذه الندرة في بحوث العملية الإبداعية خلال فحص أعداد مجلة الملخصات السيكولوجية Psychological Abstracts في السنوات الأربع السابقة على البدء الفعلي في هذا البحث ، خاصة سنوات ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، فقد كان عدد بحوث العملية الإبداعية هو ١٣ بحثاً فقط من مجموع بحوث الإبداع التي أمكن حصرها والتي بلغت ٦٦٤ بحثاً أي أن نسبة بحوث العملية الإبداعية - مع استبعاد الدراسات التحليلية النفسية والاسقاطية - هي ١.٩٦٪ فقط من مجموع البحوث النفسية للإبداع ، وهي نسبة ضئيلة دون شك ولا تتناسب مع الأهمية الكبيرة لهذا الموضوع ، وقد كانت معظم هذه البحوث - على ضآلتها - تكتفى بالإشارة العابرة أو غير المتعمقة للعمليات المختلفة التي تضمنتها العملية الإبداعية ، أو تقوم بالتركيز على جانب واحد من هذه العمليات وتهمل الجوانب الأخرى ، ونذكر فيما يلي بعضاً من هذه البحوث على سبيل المثال لا الحصر :

١ - في سنة ١٩٧٤ نجد بحثاً لشارلوت دويل C. Doyle اهتمت فيه بالمقارنة بين ندرة استخدام كلمتي « أمانة » ، « حقيقة » عند علماء

النفوس ، ووفرة استخدامها عند الفنانين ، وقد قامت الباحثة بإجراء مقابلات مع بعض الفنانين للتأكد من أهمية هذين المفهومين وتأثيرهما في العمليات النفسية الهامة في الابداع .

٢ - في نفس العام نجد أيضا بحثا آخر أجرى في تشيكوسلوفاكيا وقام به فلوريك H. Florek على ١٥ طالبا يدرسون الفنون الجميلة وقد كان الاهتمام الأساسي في هذا البحث هو قياس سرعة دقات القلب أثناء رسم هؤلاء الطلاب لبعض اللوحات الفنية ثم تقييمهم لها بعد ذلك .

٣ - في سنة ١٩٧٥ نجد بحثا واحدا قام به كل من هاوارد جريير وبول باريت H. Gruber & P. Barret عن عمليات التفكير والاتجاهات العملية عند تشارلز دارون C. Darwin وذلك من خلال العرض التاريخي والبيوجرافي لنمو آرائه ونظرياته وتفكيره عموما .

٤ - أما في سنة ١٩٧٦ فقد كان أهم الأبحاث هو ذلك البحث الذي أجراه كل من هيلافسا وكوبيولكا Hlavsa & J. Kobylka في تشيكوسلوفاكيا ، وهدفا من ورائه الى تحديد الحالات والتغيرات التي تكون موجودة أثناء العملية الإبداعية ، وذلك بتطبيق ٢٩٠ سؤالاً على ثلاثين فنانا مبدعا ، وثلاثين مهندسا ميكانيكيا مبدعا ، وقد طلب منهم أن يشيروا الى وجود أو غياب أو تغير حالات : التوتر ، والاسترخاء ، ومستوى التنشيط ، والتفكير ، والتخيل ، والذاكرة ، والدافعية ، والمثابرة ، والحالات العقلية المتعلقة بالوصول الى هدف معين ، والعادات ، والانفعالات والحاجات ، واحترام الذات ، والحاجات الاجتماعية ، والعلاقات الانسانية ، وسمات الشخصية ، والنواحي الجسمية ، وتوضيح مدى الاختلاف بين هذه الحالات في مواقف الابداع ثم في مواقف الحياة العادية ، وقد تم تحليل ١٨٠ بندا فقط باستخدام أسلوب كا ٢ حيث استقطبت البنود التي لوحظ وجودها لدى أقل من ١٦ فردا من العينتين ، كل على حدة .

وقد أظهرت النتائج وجود فروق معينة بين الفنانين والمهندسين خاصة في الإدراك البصري ، وظهرت أغلب التغيرات لدى الفئتين في مجالات الانتباه والدافعية ، والتفكير ، وفي النهاية استنتج الباحثان أنه أثناء الابداع تكون بعض الحالات نشطة ، بينما يكون بعضها الآخر في حالة أعاقة أو تعطل .

والملاحظ عموما على هذا البحث هو تركيزه الشديد على مفهوم « الحالة » وتفسيرها ، مع إهمال نسبي لدور المبدع في تغيير هذه الحالة أو الامتداد بها ، كما أنه لم يهتم فيه بتوضيح العلاقات المختلفة التي يمكن

أن تكون موجودة بين هذه الحالات ، ولا تأثيرها وتأثرها - أى تفاعلها - بعضها البعض ، وهذا هو ما يمكن أن يزودنا به مفهوم العملية :

٥. - وأخيرا فإننا نجد فى سنة ١٩٧٧ أن أهم الأبحاث هو بحث ستان بنيت S. Bennett عن عملية الإبداع فى الموسيقى وقد أجراه من خلال قيامه باستبارات مع ثمانية من المؤلفين للموسيقى الكلاسيكية أكدوا أهمية وجود فكرة أولية تعد نواة للعمل فى البداية ثم يظهر (تخطيط أولى) Sketch لهذه الفكرة ، وبعد ذلك تحلت عمليات التعديل والتهديب للمسودة الأولى من المقطوعة الموسيقية وحتى تكتمل ، وقد أكد هؤلاء المؤلفون الموسيقيون أن التأليف للموسيقى يكون أكثر قابلية للحدوث فى ظل ظروف الأمن ، الهدوء ، والاسترخاء .

وكما هو ملاحظ فإن معظم الأبحاث السابقة قد ركزت على جانب معين من العملية الإبداعية أو تناولت حالات خاصة منها ، أو اهتم بعضها بمفاهيم نوعية وحاول التحقق منها ، بينما سار البعض الآخر فى طرق هامشية فتناول جانبا صغيرا متناهيها فى الذرية ثم اعتبره جوهر العملية الإبداعية . ومن الملاحظ أيضا ، بالإضافة الى هذه الندرة والنظرة الجزئية فى التعامل مع العملية الإبداعية أن هناك خلطا شائعا فى استخدام بعض المفاهيم ، فيوحد بعض الباحثين مثلا بين استخدامهم لمفهوم التركيز بالمعنى الإبداعى والتركيز بالمعنى « اليوجى » أو كما يستخدم عند اتباع طريقة « الزن » الصينية ، بل لقد اتضح أيضا أن هناك أربعة استخدامات مختلفة لمفهوم التركيز قد يخلط البعض فى استخدامها فيجعلها مفهوما واحدا وهذه الأنواع الأربعة هى :

١ - أن يستخدم مفهوم التركيز لى يشير الى العمليات العقلية المتأزرة أو المتعاونة والهادفة الى الوصول لغرض معين ، وعادة ما يكون اتجاه التركيز هنا موجها الى الداخل أكثر من اتجاهه الى الخارج أى أن يكون متعلقا بالعمليات الذهنية الداخلية أكثر من تعلقه بالانتباه للموضوعات الخارجية ، كما أنه يتم بكفاءة فى ظل غياب التششت .

٢ - أن يستخدم مفهوم التركيز لى يشير الى عمليات مواصلة واستمرار الانتباه المتعلقة بموضوع خارجى وعادة ما يسمى هذا النوع « بتركيز الانتباه » .

٣ - أن يستخدم مفهوم التركيز لى يشير الى العجكة فى العمل الفنى ، أو كونه مكثفا غير مترهل ، متماسكا غير مندهج ، وهذا النوع من

التركيز هو في الواقع نتاج لعمليات تركيز الانتباه وتركيز التفكير السابق ذكرهما .

٤ - الاستخدام الرابع لمفهوم التركيز هو الشائع لدى اتباع مذهب « اليوجا » الهندي أو مذهب « الزن » الصيني وهو غالبا ما يختلط بالنوع الأول من التركيز (الذهني) فتستخدم كلمات مثل التأمل Meditation والاستغراق للإشارة إليه ، وقد تكشف لنا أن هناك عددا ليس بالقليل من الباحثين ، وخاصة في السنوات الأخيرة ، وخلال فحصنا لمجلة الملخصات السيكولوجية ، يهتمون بدراسة هذه الحالات وحالات أخرى كالتنويم المغناطيسي ويحاولون ربطها بعمليات الإبداع أما مفهوم التركيز الإبداعي فقد بدا وكأنه أهمل أو أشير إليه بطريقة عابرة أو اختلط عند البعض - كما يذكر سلفرمان R. E. Silverman بمفهوم التأمل المتعالى Transcendental Meditation الآتى من بلاد جنوب شرق آسيا (*)

هذا رغم أن التركيز الإبداعي - الانتباهي والذهني - هو تركيز على قضية حقيقية ، أو مشكلة تتجلى لصاحبه بطريقة ما في الواقع ، وهو يحاول أن يجدها لها حلا أو تجليا إبداعيا ومن ثم فهو يعمل جاهدا ويبدل أقصى ما في وسعه من أجل ذلك ، وعدم وصوله الى الإبداعات التي يرى ضرورة الوصول إليها لا يسلمه الى حالة « الترفانا » بل يوصله الى الضيق والقلق وعدم الاستقرار وقد عبر فان جوخ V. Gogh عن هذه الحالة بقوله في خطاب لأخيه ثيو Theo ان قلبه كان يتآكل من الألم المبرح الناجم عن وجود دافع للعمل دون التمكن الفعلي من القيام به ، وشبه نفسه بأنه « كالسجين في شيء ما مرعب » . وقد شاءت له الظروف أن ينكص الى حالة من العدم ، وفي قفص مخيف « (٦) فلدى المبدعين الحقيقيين تكون هناك دائما مشكلات حقيقية ومحيرة ، أو قضايا فعلية يحاولون أن يجدوا لها تجليا إبداعيا مناسبة من خلال التركيز عليها - انتباها وتفكيرا - وفهمها وتطويرها وخلق امكانيات جديدة للحياة الانسانية من خلالها ، هذا التركيز الإبداعي ليس تركيزا على ألغاز لا حل لها (كما في حالة « الزن » التي يهتم اتباعها أثناء التركيز بأسئلة من قبيل : ما هو صوت تصفيق اليد الواحدة ، مع علم الشخص أن مثل هذه الأسئلة لا يوجد حل لها) . (٧) فالتركيز الإبداعي

(*) يذكر سلفرمان أن هذا النوع من التدريبات قد انتشر في الولايات المتحدة في العقد الثامن من هذا القرن (١٩٧٠ - ١٩٨٠) ويتكون من جلستين كل منهما من ١٥ - ٢٠ دقيقة يوضع الفرد فيهما في وضع مريح مغلق العينين ويركز على صوت أو فكرة معينة ويسمح لذهنه بالتعامل الحر معها ويقال ان هذا يتيح للذهن أن يكون حرا في أن يتحرك أكثر الى المستويات الإبداعية من التفكير .

يتضمن محاولة لدفع موضوع الابداع الى الأمام الى النور والانتضاح ، والى الجودة والأصالة ، وهى محاولة للتغيير والتطوير الى الأفضل وليست محاولة للحفاظ على الوضع الراهن ، فالمبدع كائن ايجابي متفاعل متنبه متطور ومعايش لواقعه لا مفارق له أو متباعد عنه .

وخاصة ما سبق هو أن هناك ندرة واضحة فى بحوث العملية الإبداعية عموما ، كما أن هناك بعض الخلط الشائع فى استخدام بعض المفاهيم ، كما انه لازالت بعض مناطق العملية الإبداعية تحتاج الى الاستكشاف والتوضيح ، وربما ترجع هذه الندرة الواضحة فى بحوث العملية الإبداعية الى صعوبة دراسة العملية الإبداعية فى الواقع وأثناء نشاطها فهى بعكس السمات والقدرات أو النتائج الإبداعية لا يمكن دراستها فى أى وقت ووفقا لارادتنا فنحن لا نستطيع أن نجبر المبدع على أن يقدم لنا ابداعا معينا وبمواصفات خاصة نحددها له وفى وقت معين ، فعمليات الابداع الفعلية قد تستمر فى بعض الأحيان فترات طويلة وقد تصل الى عشرات السنين ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ربما كان هذا الاجداب فى بحوث العملية الإبداعية نتيجة طبيعية لسيطرة المنحى البنائى على دراسات الابداع عموما ، فجيلفورد J. P. Guilford مثلا - وهو أشهر أصحاب هذا المنحى - رغم تأكيدده على أهمية العمليات فى تصوره الخاص ببناء العقل Structure of Intellect. (٨)

فإن تركيزه الأساسى فى حالة عمليات التفكير الافتراقى كان على قدرات هذا التفكير من أصالة ومرونة وحساسية للمشكلات . . الخ وليس على نشاطات هذه القدرات أو عملياتها المختلفة ، ولعل وعيه بهذا هو ما جعله يبدى إعجابا شديدا بنظرية قدمها واحد من تلاميذه هو ميريفيلد P. R. Merrifield . (١٩) رغم انها تتعلق بسلوك حل المشكلات بصفة خاصة أكثر من تعلقها بالسلوك الإبداعى (*) بل لقد اعتبر هايز C. H. Hayes منحى جيلفورد بعيدا تماما عن تزويدنا بفهم كامل للعملية الإبداعية .

(*) تؤكد هذه النظرية على أهمية حالتين أو شرطين أو موقفين هما : موقف المشكلة وموقف الهدف باعتبار كل منهما مصدرا للمعلومات ، فالموقف الخاص بالمشكلة يزودنا بمعلومات علينا أن نبدأ منها ، أما الموقف الخاص بالهدف فيشتمل على معلومات متعلقة بنتيجة مرغوب فيها ، وتلعب عمليات التفكير الإبداعى دورها فى احداث التكامل بين هذين الموقفين .

ما القصة القصيرة ؟

يعترف « شلوفسكى » الناقد الروسى الشهير - بصعوبة تعريف القصة القصيرة وبصعوبة تحديد الخواص المميزة للقصة التى يجب أن تتمازج معا لكى نحصل على مبنى حكاىي Sujet مناسب ذلك أن وجود صورة ما ، أو وصف حادث معين ، لا يكفى - كما يقول - لكى يترسب لدينا انطباع بأننا أمام قصة قصيرة (١٠) .

لقد جاء لفظ قصة Story بشكل عام فى الانجليزية من الأصل Historia الذى يعنى التاريخ History والذى يشير الى العمليات الخاصة بسرد قصة أو حكاية أو مجموعة أخبار وكذلك طريقة سردها ويشير كذلك الى سلسلة من الوقائع . ان القصة يمكن أن تكون حقيقية أو مختلقة ، طويلة أو قصيرة ، كاملة أو ناقصة ، شفاهية أو مكتوبة ، ممكنة أو مستحيلة ، ان أى سلسلة من الأحداث التى ينظمها الناس باعتبارها تسجيلاً أو محاكاة للحياة أو تحويل لها وابتعاد عنها يمكن أن تعد - هذه السلسلة من الأحداث - قصة ، حتى عندما لا تستخدم الكلمات ، كما فى القصة التى ترسم فى فن التصوير الزيتى مثلاً دون كلمات ، وكما فى التمثيل الصامت (البانتوميم) أو فى السينما الصامتة . والقصة يمكن أن توجد فى الفنون الأدبية كلها : فى الشعر والرواية والمسرح والقصة القصيرة أيضاً بطبيعة الحال (١١) هذا عن مصطلح القصة بشكل عام ، أما مصطلح القصة القصيرة فهو يشير كما يقول نورثروب فراى N. Frye وثريدان بيكر S. Baker وجورج بيركنز G. Perkins عام ١٩٨٥ الى نوع من النشر الفنى القصصى أو الصكاىي الذى يقرأ بشكل مناسب فى جلسة واحدة ، ومن حيث الطول فان هذا النوع الأدبى يقع فيما بين القصة القصيرة جداً التى لا يقل عدد كلماتها عن ٢٠٠٠ كلمة وبين النوفلتية εἰρησέλιον أو القصة القصيرة الطويلة التى يصل عدد كلماتها الى ١٥ ألف كلمة رغم أن أى قص أو حكى مختصر هو بطريقة أو بأخرى قصة قصيرة ، فانه فى الاستخدام الأدبى الشائع غالباً ما يشير مصطلح القصة الى ذلك النوع من القص الذى ظهر فى القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين بشكل محدد .

ان القصة القصيرة - مثل غيرها من أشكال القص أو الحكاية هى عملية بناء وتركيب تصورى وتخيلى وكذلك هى بمثابة التنظيم لعناصر الخبرة فى تكوين فنى .

فى أحيان كثيرة تقوم القصة القصيرة بمحاكاة نسيج الحياة العادية القريبة من جو الأسرة كما فى قصص أنطون تشيكوف وكاترين مانسفيلد

وجون تشيفر وجون ابدايك وكذلك كما فى القصص الأمريكية ذات اللون المحلى التى ظهرت فى القرن التاسع عشر واهتمت باستكشاف الفروق بين سكان مناطق مختلفة عبر الولايات المتحدة وكما ظهر ذلك فى أعمال برت هارت وجورج واشنطن كابل ، وسارة أورن جيويت .

.. أما فى القرن العشرين فقد استمرت نفس الاهتمامات القديمة لكن مع اعلاء خاص لقيم أو عناصر الزمان والمكان واهتمام أكبر بالشخصية وأبعادها الأكثر عمقا كما ظهر ذلك فى أعمال وليم فوكنر وفلانيرى أوكونور، وقد ظلت مادة القصة القصيرة - بعد ذلك - أحيانا ما تظهر فى شكل وثيق الصلة بالواقع بحيث تحتاج فقط تغييرات قليلة فى طريقة الحكى كى تظهر لنا باعتبارها عملا فنيا يحكى حقيقة هذا الواقع ، هنا تكون القصة وثيقة الصلة بالسيرة الذاتية ، كما فى قصة Babylon Revisited لسكوت فيتزجيرالد .

فى أحيان أخرى تكون المحاكاة متعلقة بغرائب الحياة أو بجوانبها الغريبة أو بالمغامرات الخاصة فيها كما فى قصص روديارد كيلنج أو ارنست همنجواى فى أحيان ثالثة يكون الأساس التخيلى أو الخيالى هو السائد فى القصة ، فيقل الجانب الخاص بتقليد الحياة أو محاكاتها ويزداد الجانب التخيلى أو الجانب المتعلق بالاستغراق فى الذات وتأمل واستخراج بعض كوامنها وهواجسها التى قد تكون شديدة الغرابة كما فى قصص ادجار آلان بو وجورج لويس بورخيس وستانسلى ليم وغيرهم .

بشكل خاص تعد القصة القصيرة وثيقة الصلة بالشعر والمسرح (الدراما) ولكنها متميزة عنهما ومن ثم يمكن تعريف القصة القصيرة بأنها « قص مختصر فى شكل نثرى » ، والجانب النثرى المتضمن فى هذا التعريف يميز القصة عن القصص التى كانت تحكى أو تقص فى تلك الأشكال التى شاعت فى انجلترا وفرنسا وغيرهما فى أوربا خلال القرن الرابع عشر وما بعده والتى سميت بالموال أو الأغنية الشعبية Ballad (*) والتى هى حكاية شعرية أو قصيدة قصصية ذات مقاطع صغيرة ، تروى مع ، أو بدون الموسيقى . أما الجانب الحكائى أو السردى ، فهو ما يجعل القصة القصيرة تختلف عن المسرحية القصيرة ، فالقصة تحكى ولا تمثل رغم ذلك يظل هذان التمييزان (النثرى والحكائى) غير حاسمين فى تمييز

(*) المصطلح مشتق من المصطلح الفرنسى Ballade المشتق بدوره من المصطلح اللاتينى Ballare الذى يعنى « القيام بالرقص To dance » ، ويقصد به الإشارة الى أغنية بسيطة تروى شعريا أو سرديا (نثريا) ويصاحبها الرقص بشكل خاص ، لكن مع تطور هذا الشكل الفنى فقد صلت له المباشرة بالرقص لكنه ظل محافظا على صلاته الوثيقة بالايقاع (١٢٠) .

القصة القصيرة عن الشعر والدراما ، فهناك بعض الأعمال القصصية تكون صلتها بالشعر أكثر من صلتها بالنثر ، ويحاول بعض الشعراء التأكيد على هذا الجانب من خلال ابداع بعض القصص القصيرة في شكل شعري ، كذلك قد يسود الحوار والصراع الدرامي شكل القصة القصيرة فينتج بعض الكتاب قصصا ، كما يمكن قراءتها باعتبارها مسرحيات كما يسهل اعدادها للتمثيل على خشبة المسرح .

في واقع الأمر فان طول القصة القصيرة يشجع على تبني الجانبين الشعري والدرامي وعلى تحقيق الآثار المرجوة منهما ، كما أنه يدفع الكاتب في اتجاه الاستخدام الكثيف للغة المجازية أو الرمزية والاعتماد على الصوت والايقاع المميز بشكل خاص للشعر وكذلك الاعلاء من قيمة الواقع والمحور الدرامي له ، وهو المحور الذي تظهره عمليات التمثيل على خشبة المسرح .

القصة القصيرة اذن فن سردي حكاثي ، يخبرنا بقصة ، عند هذه النقطة هناك اتفاق عام ، أما الاختلاف فيحدث فيما يتعلق بما تتكون منه هذه القصة . في السنوات المبكرة من تاريخ القصة القصيرة ، كانت القصة تتمثل في سلسلة من الوقائع والأحداث التي تتكون من بداية ووسط ونهاية ، يحدث شيء ما ثم يحدث شيء آخر ثم تكون النتيجة هي «كذا وكذا» ، نتيجة لذلك فقد عرفت القصة بأنها أكثر قدما من أقدم سجلات تاريخ الانسان ، بل انها يمكن وفقا لذلك أن تكون أقدم الفنون الأدبية الانسانية على الإطلاق . كان الهدف القديم للقصة هو الهدف الحكائي أو السردى الانسانى القديم الذى هو الاخبار بالمعلومات والتعليم وتحقيق المتعة ، وذلك أيضا في تلك الأشكال المبكرة كحكايات القدماء والقصص الخرافية وحكايات الأمثال ذات المغزى والملاحم ، كما ظهر أيضا في قصص الرومانس (*)

Romance . في تلك الأشكال القديمة كان يتم تركيب الوقائع الطارئة في شكل مرتب ومتسلسل . بطبيعة الحال هناك بعض كتاب القصة القصيرة المعاصرين الذين يقومون بالتركيز على مثل هذه الوقائع الطارئة ولكن بشكل مختلف عن ذلك النمط القديم ولأنهم يركزون على الوقائع التي تحدث فيها ، فان فن القصة القصيرة الحديث قد أصبح مختلفا عن تلك الأجناس الأدبية القديمة ، ومن ثم أصبحت القصة القصيرة نوعا أدبيا متميزا .

هناك برديات مصرية قديمة منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد

(*) هي ضرب من القصص الشعرية أو النثرية التي شاعت في القرون الوسطى وكان قوامها الأسطورة وقصص الحب الشريف ومغامرات الفروسية ، أو كان قوامها الأحداث البعيدة من حيث الزمان والمكان وأبطالها الذين كانوا من نسج الخيال كان عليهم القيام ببطولات ومغامرات غير عادية (قاموس المورد ، ١٩٨٦ ، ص ٧٩٤) .

تحكى عن قصة الأخوين وما أحدثته زوجة أحدهما فى الايقاع بينهما ، بحيث قتل أحدهما - زوجها - الآخر ، ويشتمل العهد القديم على مستودع للقصص القديمة ، وتشتمل ملاحم كالادويه على قصص مستقلة يتسم تفصيلها فى شكل سير ذاتية ، وهناك مجموعات كاملة من القصص موجودة فى تاريخ العالم العربى وهناك حكايات ألف ليلة وليلة و « كليله ودمنة » وغيرها كما توجد حكايات مماثلة لدى شعوب الهند والصين واليابان ، وفى تاريخ العالم الغربى هناك « الديكاميرون » لبوكاتشيرو وكذلك لحكايات كانتربرى لتشوسر (التى ظهرت فيما بين عامى ١٣٨٧ - ١٣٩٥) .

كما تم الحفاظ على الحكايات الخاصة بأساطير الأبطال البدائيين فى أمريكا الشمالية والجنوبية وأفريقيا من خلال عمليات الانتقال الشفاهى التى تمت عبر الأجيال حتى تم جمعها وطبعها . كل هذه القصص تمثل محاولات قامت بها الانسانية لتفسير العالم وفهمه وكذلك تفسير وفهم علاقات الانسانية المختلفة بهذا العالم بكل ما يشتمل عليه ، تلك القصص القديمة قدمت باعتبارها نماذج للقصة القصيرة الحديثة ، التى ما زالت تقوم بنفس الوظيفة القديمة محاولة تفسير وفهم الانسان والعالم ولكن بشكل مختلف . لقد كانت نهضة التعليم وانتشار الطباعة ونمو الطبقة الوسطى هى العوامل الأساسية وراء ظهور القصة القصيرة الحديثة ، فقد اعتمد انتشار هذا الفن على الجمهور العريض من القراء الذى توفر لديه الوقت والاهتمام بمتابعة أشكال مختلفة من الخبرة والتعبير ، وفى القرن الثامن عشر كانت فصول الروايات التى اشتملت على أحداث يتبع بعضها البعض دون رابطة سببية ضرورية أو حبكة كما فى روايات الشطار أو البيكارسك تم دون كيشوت بعد ذلك وكذلك الروايات القصيرة أو حتى الروايات الملخصة المنشورة فى الصحف من العوامل الهامة التى مهدت الطريق لظهور هذا النوع الأدبى فى القرن التاسع عشر ، ازدهر هذا الفن بشكل كبير خاصة على يد واشنطنجتون ارمنج وادجار آلان ، فقد قام ارمنج بالمزج بين الأسلوب المتقن والمادة الشعبية الفولكلورية وتصوير المواقف الطبيعية والتحليل المتعمق للشخصية وكذلك الحبكة التى يتم تطويرها بمهارة كذلك قدم ناثانيل هورثون فى «حكايات تروى مرتين» وادجار آلان بو «حكايات الجروتسيك والأرابسك» Tales of grotesque and arabesque وقد ظهرت فى هذه القصص أبعاد جديدة خاصة بالمهارة الحرفية واللغوية وكذلك الكثافة المجازية والرمزية . بعد ذلك الازدهار المبكر أتبع هذا الشكل الأدبى عبر القرن التاسع عشر مع ظهور كتاب عظماء فيه فى قارة أوروبا

خاصة بروسبير ميريميه وجى دى موباسان وأنطون تشيكوف وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بالحبكة Plot يتراجع ويخلى طريقا للاهتمام بالشخصية ، كما فى قصص تشيكوف وهنرى جيمس ، وقد استمر هذا الاهتمام بدرجة كبيرة خاصة فى الأعمال القصصية التى كانت أقل اهتماما بالحدث فى ذاته وأكثر اهتماما بتأثير هذا الحدث على الشخصية .

خلال القرن العشرين أصبحت القصة القصيرة والرواية أكثر أشكال التعبير الأدبى سيطرة ، فالنمو الهائل للمجلات ، من مجلات التسلية الى المجلات المتخصصة ، ومن المجلات المحلية الى المجلات واسعة الانتشار ، كل ذلك قدم مساندة كبيرة لكتاب القصة القصيرة من كافة الأنواع ، كما أن بعض الحركات الأدبية القومية مثل حركة النهضة الأيرلندية (*) Irish Renaissance قد أعطت دفعة كبيرة لفن القصة القصيرة بشكل خاص .

وقد تكاثرت الأنواع الفرعية للقصة القصيرة خلال القرن العشرين وقد كانت هناك جذور لمعظم هذه الأنواع خلال القرن التاسع عشر كما يؤكد النقاد ومؤرخو الأدب ، فظهرت خلال القرن العشرين القصص البوليسية أو قصص الجريمة وقصص الغرب الأمريكى (الكاوبوى) وقصص المغامرات وحكايات الزعب وقصص الخيال العلمى والقصص الخيالية (الفانتازية) الأخرى وغير ذلك من أنواع القصة القصيرة ، وقد يولع كتاب بالقصص الواقعى فيهتمون بالوصف الدقيق للزمان والمكان والحبكة والشخصية مع الاهتمام الشديد بلحظة التنوير ، بينما يهتم البعض الآخر من كتاب القصة القصيرة بالرمز والمجاز أو العالم المتخيل الموازى لعالم الواقع كما فى قصص فرانز كافكا مثلا ، أو فى القصص الخيالية لدى بورخيس ودونالد بارتليم والعديد من كتاب أمريكا اللاتينية (١٣) خاصة

(*) يستخدم هذا المصطلح لوصف التاريخ الأدبى والسياسى لايرلندا بدءا من جوال عام ١٨٨٠ الى عام ١٩٣٠ ، وقد أدت هذه الحركة سياسيا الى قيام تمرد أو ثورة عيد الفصح ضد انجلترا عام ١٩١٦ ومن ثم تكوين جمهورية ايرلندا الحرة عام ١٩٢٢ ، أما فى الأدب فتمثلت هذه الحركة فى ابتعاد الاهتمام بالتراث الشعبى والأدبى المتبقى من الماضى ، إضافة الى محاولة وطنية لابتداع أدب ايرلندى جديد ، وظهرت عملية اهتمام كبيرة بتاريخ الأبطال الايرلنديين القدماء ، وكذلك جمع وترجمة وإعادة تفسير وابتداع أعمال جديدة ، وتم تكوين جمعيات أدبية وفكرية عديدة ، وكان الشاعر الكبير وليم يتلرييتس هو قائد هذه الحركة فى مجال الشعر ليس الايرلندى فقط بل والعالمى أيضا وقد أثرى اللغة الانجليزية باستخدامات ابداعية جديدة لمواد اسطورية قديمة ، كما كتب فى المسرح والقصة القصيرة ، وكان من أقطاب هذه الحركة أيضا الروائى جورج مور ، وجورج رسل وبادرايك كولام وشين أوكيزى وغيرهم (١٤) .

في تلك الحركة التجديدية الكبيرة التي ظهرت هناك في الرواية والقصة القصيرة خلال أربعينات هذا القرن بشكل خاص ، فقد كان عقد الأربعينات كما يقول الدكتور حامد أبو أحمد في مقدمة ترجمته لرواية « من قتل مولير » للكاتب ماريوفار جاس ايوسا (من بيرو) « هو الذي شهد بداية هذه الحركة التي استهدفت القيام بعملية تجديد شاملة في بناء النوع الأدبي المعروف بفن القصة ، وفي أسلوبهم بشكل عام ، ومثلما يبدأ كل جديد برفض الأساليب القديمة ، فقد بدأت الحركة التجديدية في أمريكا اللاتينية برفض الأساليب والتقنيات المستهلكة والتي كانت متمثلة في التيار الاجتماعي أو الواقعي الذي يعبر عن الواقع بطريقة سطحية اقليمية ، تاريخية سياسية متصلة بالعادات أكثر من اتصالها بالقيم الانسانية الحقيقية ، أو متمثلة في القصص ذات الاتجاه النفسي ، أو تلك التي كانت مفرقة في الفانتازيا (مسطحات الخيال أو الوهم) . . . والجدير بالذكر أن هذه الحركة التجديدية في أمريكا اللاتينية قد توافقت مع حركة التجديد العالمية في فن القصة ، أو ما يسمى بالقصة الجديدة والتي كان من أبرز علاماتها في القارة الأوروبية ميشيل بوتور وآلان روب جرييه وناتالي ساروت ولكن ثمة فارقا كبيرا بين الحركة التجديدية التي ظهرت في أوروبا والحركة التجديدية في أمريكا اللاتينية هو أن الأولى كانت حركة شكلية صارمة ، بينما ظل البعد الاجتماعي - وما زال - نابضا في أعمال قصاصي أمريكا اللاتينية . ولعل هذا الوجود الاجتماعي نابغ أساسا من اقتناع كتاب هذه القارة بأنهم ينسبون الى العالم الثالث الذي يكافح من أجل تغيير الأوضاع الاجتماعية غير العادلة التي يعيش فيها أبناؤه . . . ومن ثم فإن الرسالة الاجتماعية للفن تظل حية مهما حدث من تجديدات في التقنية والأسلوب والبناء والشكل » (١٥) .

هذه الحركة بدأت تجد أرضا خصبة لها ويتردد صداها بشكل خافت حتى الآن - في بعض الأعمال الابداعية الروائية والقصصية القصيرة التي ظهرت أخيرا على الساحة العربية والتي حاولت أن تعبر عن اتجاهات تجريبية جديدة في التعامل مع اللغة وفي محاولة استلها من الحلم والكابوس واللاوعي وحالات الجنون والقبح والابتذال واللامنطق وتحول الانسان الى شيء يتم التعبير عنه بشكل بارد ومحاييد ومحدد أو تحوله الى كائن مغاير مختلف يتحرك بكل حريته في آفاق الحلم والاسطورة والخيال هذه الاتجاهات المختلفة الحديثة تشير الى قدرة القصة القصيرة الفائقة على التعبير عن كل ما يتعلق بالانسان في علاقته بذاته وبالأخرين وبالواقع والحياة والكون بشكل يتسم بالعمق والتركيز اذا توفر عليه كاتب صادق مخلص وموهوب . وتشير الى أن هذا الشكل الابداعي الموجز الصغير قادر أيضا على أن يلم

بأطراف عالم متسع كبير ، عالم موار بالدلالات عظيم الحركة عميق المعاني ، فيه الانسان اما قطرة في محيط أو المحيط ذاته والقصة القصيرة ليست أقل من أى نوع أدبي آخر في قدرتها على الاحاطة بجوانب هذا العالم اذا انكب عليها مبدع حساس دقيق الملاحظة عميق الخيال .

ولماذا العملية الابداعية في القصة القصيرة ؟

بالاضافة الى الندرة - سألقة الذكر - الواضحة في بحوث عملية الابداع عموما ، فلا يوجد هناك اهتمام - ولو ضئيل - بدراسة العملية الابداعية في القصة القصيرة، فمن خلال فحص اعداد الملخصات السيكلوجية في السنوات الأخيرة وكذلك البحث والتنقيب في التراث الابداعي الكبير والمتراكم ، لم نجد بحثا واحدا تناول هذا الموضوع من قريب أو بعيد ، هذا رغم اكتساب القصة القصيرة لقدر كبير من الذيوع جعلها - كما يقول سومرست موم Maugham ملمحاً هاماً من ملامح الابداع الأدبي اليوم (١٦) ومن المؤكد أنه لو لم تكن الأعمال الفنية - والقصة القصيرة منها - تشبع بعض الحاجات الانسانية ، لما وجدت هذه الأعمال على الاطلاق (١٧) .

ان العمل الفني « هو نتاج نشاط حي ، فلكي نتفهمه يلزمنا أن نلقى الضوء على ما دار لدى الحي الذي أبدعه ، يلزمنا أن نتفهم عملية الابداع التي دفعت به حتى هيات له هذه الصورة التي ارتضاها الفنان أخيراً (١٨) فالعمل الابداعي الفني هو نوع من العمل الانساني ، العمل الذهني والانفعالي والبدني العنيف والمتواصل يصدر عنه انتاج مفيد لصاحبه وللآخرين ، فمهمة الفن كما يقول بودلير هي « ايقاظ الوعي وليس اسداء النصائح » (١٩) . الكتابة كما يذكر فرانك بارون F. Barron ربما كانت أكثر أشكال التخاطب التي تقدم كتفسيرات ابداعية فهما وذيوعا ، كما أن التأثير الاجتماعي للكتاب في بث الأفكار والتأثير في الرأي العام وتشكيل الذوق العام وتقدم الثقافة هو تأثير خطير للغاية (٢٠) وهي أيضا - كما يذكر هنري ميللر H. Miller « وسيلة للاقتراب من الحياة بطريقة غير مباشرة ومحاولة لاكتساب رؤية عامة وليست جزئية للعالم » (٢١) ويحاول الكاتب المبدع أن يخلق كل ما له قيمة في حياته الانسانية ممتدا بنفسه الى ما وراء المدى الملاحظ الى كل ما يمكن للخيال أن يصل اليه . . . وهو في حالته هذه يجب أن يحتفظ بحالة من حرية الرؤية في علاقته بالعالم (٢٢) . والقصة القصيرة هي انتاج فني له شروطه ومواصفاته . وكتابتها - كما يقول سومرست موم - ليست أمرا سهلا - كما قد يعتقد البعض - ، انها تتطلب ذكاءا - ربما ليس مرتفعا - لكنه ذكاء من نوع خاص ، كما انها

تتطلب احساسا خاصا بالشكل ، وقدرا كبيرا من الابداع (٢٣) . وعندما نفحص الأمر بجدية فإن القصة القصيرة - تبدو لي - هي الفن النثري الأكثر صعوبة وتنظيما ، (٢٤) . وتتميز القصة القصيرة - في مقابل الرواية - بأنها تقدم لمحة خاطفة بدلا من التلوين البطيء المطرد ، ولذلك فالإيجاز في الوسائل السردية والشخصيات ، والأحداث ، والأمكنة ، والأزمنة . . الخ يعطى الجانب الفني في القصة القصيرة الجيدة قدرا أكبر على الرؤية مما هو الحال في رواية جيدة (٢٥) . وهذا الإيجاز في التناول تفرضه دائما متطلبات ضبط الشكل بدرجة ما ولذلك يجد كاتب القصة القصيرة نفسه مضطرا الى الاقتصاد في الوصف والتعامل مع الجوهريات فقط . . الجوهريات في كل شيء (٢٦) وهذا الإيجاز أو الانضغاط الفني Artistic Compression هو أحد الشروط الجوهرية في القصة القصيرة الجيدة ، بل هو ما يميزها عن غيرها من الأشكال الفنية النثرية الأخرى (٢٧ ، ٢٨) وطول القصة القصيرة يسمح بمعالجة موضوعات لا يمكن أن تكون مثيرة للاهتمام في شكل أكبر (٢٩) ففي بعض الموضوعات تعتبر القصة هي أحسن الأشكال الفنية حقا - بل هي الشكل الأوحده الممكن - فالحدث الدرامي المفرد الكامل يمكن أن يصاب بالوهن والترهل اذا وضعناه في شكل مستفيض مثل الرواية ، كما أن الموضوع ذاته قد يكون مثيرا وخلابا بحيث ان التناول المسهب له قد يسلبه سحره وخبوئته . . وتختار التفاصيل في القصة القصيرة بدقة شديدة ، كما أنه ليست هناك حاجة للاستفاضة في غير المألوف من التفاصيل (٣٠) وفي رسائل تشيخوف A. Chekhov ومحادثاته ومذكراته - كما يقول يرميلوف - الكثير من العبارات التي تدل على إيمانه بطبيعة فن القصة القصيرة مثل قوله « الكتابة هي فن الإيجاز » و « ان تجيد الكتابة معناه ان تجيد الاختصار » و « انى أعرف كيف أتحدث باختصار عن الموضوعات الكبيرة » . . الخ (٣١) .

القصة القصيرة اذن هي عمل فنى نثرى يتميز بالبساطة والتكثيف ويتخير لحظة من لحظات الانسان فيعمقها ، أو زاوية من زوايا حياته فيركز عليها ويكشفها في شكل فنى يتميز بالتلميح والمواربة لا الاعلان أو التصريح ، فكما يقول تجان ماري جويو « ان ما يقوله الفن يستمد قيمته مما لا يقوله ، مما يوحى به . . الفن العظيم هو الذى يدرك روح الأشياء ، هو الذى يدرك ما يربط الفرد بالكل » وما يربط كل جزء من اللحظة بالديمومة الأبدية » (٣٢) .

ليس مطلوبا من الكاتب هنا أن يتتبع اللحظات أو الانفعالات منذ بدايتها حتى نهايتها فقد تكون اللحظة التي يبدأ فيها انفعال معين كالخوف مثلا نواة لقصة قصيرة جيدة وقد يشكل تطور هذا الانفعال قصة أخرى

أو مجموعة من القصص ، وقد تتشكل قصة أيضا في اللحظة التي يختفي فيها هذا الانفعال أو ينخفض ، وقد تتكون قصص أخرى بعد هذه اللحظة ، وهكذا يتوقف هذا كله على مدى طلاقة أفكار الكاتب واصالتها ومدى استيعابه لواقعه وتمثله لجزئياته وبلورته لها في أشكال فنية جيدة الاحكام تكون مكثفة غير متزيدة ، متماسكة غير مترهلة . فنحن أمام شكل عضوي يعتمد على معلومات قليلة بقدر الامكان ويتجنب المبالغة في العواطف ويواجه الواقع بشجاعة وجرأة ويتضمن تجربة جديدة في اللغة ، (٣٣) .

فالقصة القصيرة تحتاج اذن الى قدرة فائقة في التقاط الأحداث ، والهاديات والدلالات ، والتضمينات ، والتلميحات ، والمكنونات ، والخبايا واحساسات الفرد والتوحد ، الاغتراب ، ثم محاولة كشف أسرار ما استغلق فهمه للوهلة الأولى ، وصياغة ذلك كله في مركب متكامل أصيل يضم ولا يعلن ويكون في نفس الوقت محكما ، متقنا ، مكثفا ، موحيا ، متعاملا مع لحظات انسانية تموج بالدلالات .

« ان العمل الفني يمكن أن يكون عبارة عن شهادة جزئية للغاية بل وذاتية الى أبعد الحدود عن علاقة الانسان بالعالم في فترة معينة ، ومع ذلك فمن الممكن أن تكون هذه الشهادة أصيلة وعظيمة ، (٣٤) .

ورغم الأهمية الكبيرة لهذا الفن الأدبي ، أو بالأحرى لهذا السلوك الابداعي الانساني ، فانه قد لاقى اهمالا شديدا من جانب علماء النفس فلم تنطرق اليه بحوث عمليات الابداع ، وربما كان هذا راجعا - في المقام الأول - الى اهتمام علماء النفس بدراسة عملية الابداع في الأنواع الكبيرة كالرواية والمسرحية والموسيقى أو الاختراعات العلمية ، أما القصة القصيرة فربما - لأنها قصيرة - نظر اليها على انها فن سهل لا يحتاج لمجهود كبير ومن ثم فربما رسخ في بعض الأذهان أن الكاتب لا ينفق في تأليفها أكثر مما ينفقه القارئ في مطالعتها ، كما أن شيوع القصة القصيرة وانتشارها في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية أو الشهرية جعلها تبدو للكثيرين وكأنها فن للتسلية لتمضية وقت الفراغ ، وبالطبع تتصف هذه النظرة بالتعسف . ومجافاة الواقع ، فالقصة القصيرة فن يحتاج الى الكثير من الجهد والمثابرة سواء في تعلم التقنيات أو أساليب الكتابة الخاصة به أو في التقاط أفكاره وتهذيبها ثم محاولة وضعها في أشكال فنية مناسبة ، فهناك العديد من العمليات التي تدور في عقل الفنان المبدع وهي تحتاج بالتأكيد الى المزيد من اهتمام الباحثين (٣٥) .

مما سبق تطفو مشكلة أخرى من المشاكل البتى لابد أن تواجهه من يتصدى لدراسة عمليات الابداع عموما وهى محاولة تحديد مدى اسهام عامل مواصلة الاتجاه فى هذه العمليات ، وفى البحث الحالى تكون المشكلة أكثر وضوحا ، بمعنى : هل القصة القصيرة - لأنها قصيرة - لا تحتاج كى يتم ابداعها الى وجود عامل مواصلة الاتجاه Maintaining of direction بطريقة واضحة ومؤثرة كما تحتاج اليه فنون نثرية أخرى كالرواية أو المسرحية وكما وضع وظهر ذلك فى الدراسات التى أجريت فى مصر فى العقد الثامن من هذا القرن (*) .

ان تأكدنا من وجود هذا العامل خلال ابداع القصة القصيرة سيكون له أهمية كبيرة فى تصحيح كثير من المفاهيم الشائعة والخاطئة من عملية الابداع فى القصة القصيرة .

(*) المقصود هنا بالتحديد تلك الدراسات التى قام بها الدكتور مضرى عبد الحميد حنورة على الأسس النفسية للابداع الفنى فى الرواية وفى المسرحية ثم فى الشعر المسرحى بعد ذلك .

تعقيب :

من العرض السابق يمكن أن نلخص المشاكل المختلفة التى ينوى هذا البحث أن يتعرض لها أو يدخلها فى اعتباره وهى :

- ١ - ان هناك ندرة واضحة فى بحوث العملية الابداعية عموما .
 - ٢ - أنه ليس هناك بحث سبكيولوجى تناول عملية الابداع فى القصة القصيرة باعتبارها ملمحا هاما من ملامح الانتاج الأدبى النثرى اليوم .
 - ٣ - ان هناك عمليات ابداعية كثيرة لم يوجه اليها الاهتمام الكافى والجدير بها .
 - ٤ - أن هناك خلطا شائعا فى بعض المفاهيم ، كما أن هناك اهمالا واضحا فى التعامل مع مفاهيم أخرى .
- ولهذه الأسباب مجتمعة ، ولأسباب أخرى تتعلق بأهمية دراسات الابداع عموما وفائدتها للمبدعين أنفسهم وللمجتمع الذى يعيشون فيه وللعالم المحيط بهم ، كان القيام بمثل هذه الدراسة من الأمور المطلوبة لاستكشاف وفهم وتفسير مجال ابداعى شديد الخصوبة والأهمية ، لكنه لاقى اهمالا شديدا لا مبرر له .
- وستكون مناقشاتنا فى الفصول التالية من هذا الكتاب هي محاولة فى طريق هذا الاستكشاف والفهم والتفسير لهذه الظاهرة السيكلوجية شديدة الخصوبة والثراء .

الفصل الثانى

عملية الابداع
فى ضوء النظريات السيكلوجية الحديثة

تعريفات المصطلحات الأساسية :

أولا : معنى مصطلح « عملية » Process

مصطلح له مجموعة غنية متنوعة من المعاني في علم النفس ، ورغم تعدد المعاني فإن المصطلح يشتق جذوره من الأصل اللاتيني *Procesus* الذى يعنى التقدم للأمام *a going forward* والدلالة الأساسية للمصطلح تشير دائما الى سلسلة من الخطوات أو عمليات التقدم فى اتجاه هدف معين ، والمعاني المعقدة للمصطلح تشير الى :

١ - بشكل عام ، يشير مصطلح العملية ، الى أى تغير أو تعديل يحدث لشيء ما نهتم باتجاهه أو نقطة جوهرية فيه ، والمعنى المألوف هنا يتضمن أن شكل أو بنية كائن ما أو موضوع يتصف بالثبات أو الاستقرار النسبى وأن أى تعديل منتظم فى هذا الشكل أو البنية عبر الزمن يمثل بعض العمليات الأساسية ذات المعنى التى تؤدى الى شكل أو بنية مختلفة ، والعملية هنا ينظر اليها على انها نشطة وإيجابية بينما ينظر الى البنية على انها سلبية وتخضع للتغير ، وهذا المعنى العام يستخدم غالبا فى معظم مجالات العلوم الاجتماعية .

٢ - يشير مصطلح العملية الى الطريقة أو الشكل الذى يتم بواسطته حدوث تغير ما ، وعادة ما تتم الإشارة هنا الى العمليات التى ينجم عنها نتائج معينة ، مثل : عملية التعليم وعملية الانطفاء *Extinction*

(★) الانطفاء : فى نظريات التعلم يشير الى عدم حدوث الاستجابة المتعلمة أو انخفاضها .

٣ - فى علم النفس المعرفى يشير المصطلح الى أى عملية تكون بمثابة المكون Component فى تنظيم وتسجيل وتفسير المعلومات ، وما يسمى بالعمليات المعرفية يشتمل على الذاكرة والتفكير والتفسير وحل المشكلات والابداع وما شابه ذلك .

والاستخدامات الثلاثة السابقة لمعنى العملية تشير الى نشاط خاص يتعلق بالانهماك فى تنفيذ عمليات خاصة .

٤ - فى علم الفسيولوجيا يشير مصطلح عملية الى العمليات الأساسية الخاصة بالسلوك ويتضمن الاستخدام هنا تلك الحقيقة التى لا بد من معرفتها والتى لا خلاف عليها والقائلة بأن بعض العمليات الفسيولوجية والبيولوجية تكون مسئولة عن السلوك الذى نلاحظه .

٥ - فى مجال التشريح فان أى امتداد بسيط أو حركة من عضو أو خلية من محور الخلية Axon والشجيرات Dendrites هى عمليات .

٦ - فى نظرية « تتشنر » البنائية تشير العملية الى المحتوى الشعورى دون احالة أو رجوع لمعناه أو قيمته أو سياقه (١) (Reber, 1987, pp.)
الخلاصة أن المعنى العام الذى يتفق عليه علماء النفس لمعنى العملية .

هو انها نشاطات Activities (٢) أو هى ما يحدث ومن ثم فهى تقابل مع الشكل والبناء والثبات (٣) .

وكذلك تشير الى التغير الذى يحدث فى نشاطات الكائن والطريقة التى يحدث بها هذا التغير ومن ثم هذه النشاطات فى شكلها الجديد (٤) .
العملية اذن هى سلسلة من النشاطات المنتظمة الموجهة نحو هدف ، أو هى نشاط متصل أو سلسلة من المتغيرات تأخذ شكلا معينا ، فهى شئ ما يحدث ضد الثبات والاستقرار ويشير الى سلسلة من الخطوات المتتالية والمتصلة والمتفاعلة والتى يتم من خلالها الوصول الى هدف معين ، فما هى اذن عملية الابداع ؟

ثانيا : معنى « الابداع » Creativity

يستخدم مفهوم الابداع كى يشير الى العمليات العقلية التى تؤدى الى الحلول والأفكار والتصورات والأشكال الفنية والنظريات أو المنتجات التى تكون فريدة وجديدة (٥) .

وقد اختلف العلماء فيما يتعلق بنقاط التركيز التي اهتموا من خلالها بالابداع فالبعض نظروا اليه باعتباره القدرة على ايجاد شيء جديد لم يكن موجودا من قبل ، بينما نظر آخرون الى الابداع باعتباره ليس مجرد قدرة بل مجموعة من العمليات النفسية تظهر من خلالها منتجات جديدة وذات قيمة عالية ، هذا بينما نظر فريق ثالث الى الابداع باعتباره ليس قدرات وليس عمليات بل منتجات متميزة ، وتعريفات الابداع تتراوح وفقا لجوانب تركيز العلماء على القدرات أو العمليات أو المنتجات أو سمات الشخصية أو عمليات التنشئة الاجتماعية أو ما شابه ذلك من الجوانب المناسبة ، وتتراوح هذه التعريفات بدءا من النظر الى الابداع على أنه عملية بسيطة لحل المشكلات بطريقة مناسبة الى ادراكه على أنه عملية تحقيق وتعبير كامل عن امكانيات الفرد الفريدة والمتميزة فرايت D. S. Wright مثلا يعرف الابداع بأنه « حالة خاصة من حل المشكلات مع التأكيد على أصالة الحل وقيمته » (٦) وينظر ماكيلر P. McKeller الى الابداع باعتباره تعبيرا عن « تفاعل معقد بين التفكير الواقعي والتفكير الخيالي » (٧) وعرف شتاين M. Stein الابداع بأنه عملية ينتج عنها عمل جديد تقبله جماعة ما في وقت معين على أنه مرض أو مفيد أو مقنع (٨) أما فرانك بارون F. Barron فعرف الابداع بأنه طاقة يتم توظيفها للعمل بطريقة بنائية (٩) ولكن هذا التعريف فيما نعتقد ليس كافيا حيث ان العديد من النشاطات الانسانية هي طاقات يتم توظيفها للعمل بطريقة بنائية ومع ذلك فهي ليست نشاطات ابداعية ، فالجانب المميز للابداع أنه استجابة جديدة أو على الأقل غير شائعة هذه الاستجابة تكون توافقية وتخدم في عمليات التكيف الداخلي (فيما بين الانسان ونفسه) والتكيف الخارجي (فيما بين الانسان والبيئة الاجتماعية والفيزيائية) وربما يتفق مع ما أكدته وايتفيلد R. Whitfield من أهمية أن تكون الفكرة الابداعية متميزة بالجدة والبساطة المناسبة والدقة والاكتمال (١٠) وعندما نقول أن شخصا ما قد أظهر تفكيرا ابداعيا فان ذلك يتضمن أن ما أنتجه يتميز بالأصالة عندما نقارنه بالانتاجات السابقة عليه ، كما انه تكون له دلالاته وأهميته بالنسبة لأي انتاج يتلوه ، وهذا حقيقى سواء كان الانتاج اسلوبا في التعبير الفنى أو نظرية في العلم أو طريقة أصيلة في حل مشكلة ما كان لها حل آخر أقل أصالة (١١) • (N. Bolton, 1976, p. 18)

في عام ١٩٦٢ اقترح نويل وشو وسيمون أن حل المشكلة يسمى ابداعيا الى المدى الذي يتفق به هذا الحل مع واحد من الشروط التالية :

- ١ - أن ناتج التفكير تكون له جدته وقيمته (اما بالنسبة للمفكر أو بالنسبة لثقافته التي يعيش فيها) •

٢ - أن التفكير نفسه يكون غير تقليدي ، غير مألوف ، بمعنى أنه يتطلب ويشترط تعديلا أو رفضا للأفكار المقبولة سلفا .

٣ - أن هذا التفكير يتطلب درجة عالية من الدافعية والمثابرة ويحدث عبر فترة طويلة من الزمن (بشكل مستمر أو متقطع) أو من خلال الكشف أو التركيز المرتفع .

٤ - أن المشكلة تكون في عرضها أو حالتها الأولى غامضة أو سيئة التحديد بحيث تمثل عملية صياغة المشكلة نفسها ، بشكل مناسب ، أحد الجوانب الهامة في المهمة المطلوبة (١٢) (J. Hayes, 1978, p. 240)

من الواضح هنا أن نويل وشو وسيمون - أصحاب الأفكار الأساسية في منحى تشغيل المعلومات كانوا يحاولون التقدم خطوة أبعد من مجرد الاقتصار على سلوك حل المشكلات كما تعرفه الحاسبات الآلية ، انهم يضعون في اعتبارهم الجوانب المعرفية والمزاجية الدافعية والاجتماعية المختلفة لعملية الابداع .

هذا التنوع في مظاهر الابداع والظاهر في تعريف هؤلاء العلماء له كان ظاهرا أيضا بشكل أكثر اتساعا وعمقا عبر تاريخ الدراسات السيكولوجية للابداع ، فالملمح المثير للاهتمام في تراث الدراسات الابداعية كما يشير ستيوارت جولان S. Gollan في مراجعته النقدية لتراث دراسات الابداع - هو ذلك التنوع الكبير المثير في الدوافع والاهتمامات والمناحي المميزة للباحثين المختلفين ، فالابداع نظر اليه على أنه سمة موزعة توزيعا اعتداليا ، وعلى أنه استعداد شخصي وعلى أنه عملية داخلية وعلى أنه أسلوب للحياة ، وتم وصفه أيضا على أنه يوجد لدى كل الأطفال ولدى قلة فقط من الراشدين ، وتم وصفه أيضا على أنه هو الذي يؤدي إلى الابتكارات العلمية والمنتجات الفنية والأفكار الجديدة ؛ وتم وصفه كذلك على أنه يرتبط - أو يمثل أحيانا - الذكاء ، القدرة الانتاجية ، الصحة النفسية ، الأصالة ، وتم وصفه على أنه يتحقق من خلال تحقيق الذات والتسامح وقمع الاندفاعات التدميرية ، بالطبع هناك حاجة للتنظيم واحداث التكامل بين الاتجاهات السيكولوجية المختلفة في تعريف ودراسة الابداع ، ويشير جولان الى وجود أربعة جوانب أساسية يمكن تصنيف اتجاهات العلماء المختلفين إليها هي : التأكيد على أهمية النواتج الابداعية - التأكيد على أهمية عملية الابداع - التأكيد على أهمية عمليات القياس للخصائص والقدرات الابداعية ثم التأكيد على أهمية السمات الشخصية للمبدعين ، وتعريف الابداع من خلال النواتج أدى بالعلماء للاهتمام بالمحركات المحددة

للنواتج الابداعية وتعريف الابداع على أنه حصيلة سمات واستعدادات مركبة قاد العلماء الى محاولة الكشف عن وجود هذه القدرات من خلال أسلوب التحليل العامل وقادهم أيضا الى تطوير أدوات لقياس هذه السمات والقدرات ، وتعريف الابداع على أنه عملية تبلغ ذروتها فتنتج أفكارا واستبصارات جديدة أدى بالباحثين الى دراسة التقارير الاستبطانية كذلك ملاحظة المراحل الزمنية لحدوث فعل الابداع ، والنظر الى الابداع على أنه أسلوب للحياة ، أو هو الشخصية فى حالة فعل أو نشاط أدى بالعلماء الى الاهتمام بوصف وقياس شخصيات الأفراد الذين يعتقد أنهم مبدعون وخلال ذلك تم الاهتمام أيضا بدوافع الابداع ، ويقول جولان - ان تأكيد أهمية كل جانب من الجوانب السابقة ليس فى حاجة الى تبرير ، فالنواتج والعمليات والقدرات أو الاستعدادات وسمات الشخصية كلها جوانب هامة فى تفسير الابداع (١٣) .

الى مثل هذا الرأى يتجه أيضا تورانس مع بعض الاختلاف - فالابداع فى رأيه يمكن أن يعرف من خلال طرائق عديدة ، أنه يمكن أن يعرف من خلال الإشارة الى الشخص المبدع أو عملية الابداع أو المنتج الابداعى ، ثم أنه يمكن تعريفه فى ضوء الشروط الاجتماعية للابداع أيضا ، هذه الشروط الاجتماعية هى الجانب الذى لم يهتم به « جولان » كثيرا فى تحديده لمكونات الابداع ، وتورانس فيشير الى تعبير رودس الخاص عام ١٩٦١ الى هذه الأنواع الأربعة من التعريفات بأنها يمكن تلخيصها فى التعبير : Four P's of Creativity أى الحروف (P) الأربعة للابداع وذلك إشارة الى كلمات Person أى الشخص و Process أى عملية و Press التى استخدمها رودس للإشارة الى الضغوط الاجتماعية المتبادلة بين المبدع والمجتمع الذى يعيش فيه ثم كلمة Product كإشارة الى الناتج أو النواتج الابداعية ، وقد قام رودس أيضا بمحاولة الدمج بين هذه العناصر أو المناحي الأربعة فى تعريف الابداع بأن طرح تعريفا خاصا يقول بأن الابداع هو اسم يشير الى الظواهر التى يقوم من خلالها شخص معين بتوصيل تصور جديد (هو الناتج) وقال أيضا بأن النشاط العقلى (أو العملية) متضمن أيضا فى التعريف ، كما لا يمكن أن ندرك المبدع باعتباره يعيش أو يعمل فى فراغ ومن ثم يكون مصطلح الضغط أو التأثير Press موجودا من جانب المبدع ومن جانب المجتمع أيضا .

لعلنا لاحظنا أن التأكيد على أهمية انتاج شئ جديد متضمن فى كل تعريفات الابداع السابقة تقريبا ، وهذا ما أكدته أيضا شتاين حين أشار الى أن الابداع يجب أن يعرف فى ظل الثقافة التى يظهر فيها ، والجدة هنا

تعنى أن الناتج لم يوجد مسبقا بنفس الشكل ، أو قد يشتمل على إعادة تكامل ما بين مواد أو عناصر معرفة موجودة فعلا ، لكنه يجب أن يشتمل على عنصر جديد ، ويؤكد شتاين أيضا أهمية قبول الجماعة أو الثقافة للنواتج الإبداعية الجديدة في وقت ما على أنها مرضية أو مشبعة أو مقنعة .

كذلك حاول تايلور أن يوجد تسوية أو يقوم بعمليات تكامل ما بين الآراء المختلفة أو يقوم بعمليات تكامل ما بين الآراء المختلفة الخاصة بالإبداع فاقترح أننا نفكر في الإبداع من خلال مستويات مختلفة هي :

١ - الإبداع التعبيري **Expressive Creativity** ويتعلق الرأي هنا بالتعبير المستقل حيث تكون المهارات والأصالة وكفاءة المنتج غير هامة كما في رسومات الأطفال التلقائية .

٢ - الإبداع الانتاجي **Productive Creativity** ويتعلق ذلك بالنواتج الفنية أو العلمية حيث يوجد ميل لتقييد وضبط اللغز الحر وتطوير أساليب لإنتاج منتجات مكتملة .

٣ - الإبداع الاختراعي **Inventive Creativity** ويتعلق ذلك الإبداع بالمبتكرين والمستكشفين **Explorers** حيث تظهر البراعة في التعامل مع المواد والمناهج والأساليب .

٤ - الإبداع الابتكاري **Innovative Creativity** ويتعلق ذلك بعمليات التحسين المستمرة من خلال القيام بتعديلات تشتمل على مهارات تجريدية وتصورية (ابتكار نظريات جديدة في العلم والفن مثلا) ولكن من خلال الاعتماد على أفكار ونظريات موجودة سلفا .

٥ - إبداع الانبثاق **Emergence Creativity** ويتعلق هذا الإبداع بالمبدأ أو الافتراض الجديد كلية والذي تزدهر حوله مدارس جديدة . وقد أشار تايلور إلى أن عددا من الأفراد يكون هذا المستوى الخامس في أذهانهم عندما يتحدثون عن الإبداع ، وحيث أن هذا المستوى (الخامس) من التفكير الإبداعي نادر الحدوث إلى حد كبير ، فإن المستويات الأقل منه كانت هي المتضمنة عادة في معظم بحوث التفكير الإبداعي (١٤) (E. Torrance, 1983, pp. 5-6)

يؤكد تورانس أيضا أهمية جوانب الإبداع الأربعة (الشخص / العملية / الناتج / المجتمع) ويقوم بوصف التفكير الإبداعي بأنه يحدث خلال عملية الاحساس بالصعوبات والمشكلات والثغرات في المعرفة أي

الاحساس بالعناصر المفقودة ثم القيام بتخمينات أو صياغة الفروض من حولها وتنقيح هذه الفروض وإعادة اختبارها ثم أخيرا توصيلها للآخرين بعد ثبوت فاعليتها ، ويؤكد تورانس أن هناك حاجات انسانية قوية تظهر في كل هذه المراحل ، فإذا كان لدينا احساس بعدم الاكتمال أو بوجود شيء ما مفقود أو خارج المكان ، فإن التوتر يستثار بداخلنا ، ونتيجة لذلك نبدأ في فحص المشكلة وطرح التساؤلات وتناول الأشياء والقياس بالتخمينات وما شابه ذلك ، وقبل أن يتم اختيار التخمينات أو الفروض وتعديلها تكون في حالة من عدم الراحة ، وحتى عندما يتم الاختبار والتعديل يظل هذا التوتر قائما حتى نجد بعض الناس (أو أحد الناس) ونخبره بما اكتشفناه ، وخلال هذه العملية هناك محاولة للاستجابة بشكل بنائي للمواقف الجديدة ، وليس مجرد التوافق معها أو التكيف لها ، مثل هذا التعريف يضع الابداع في مملكة الحياة اليومية ولا يجعله متعلقا بمنطقة أثرية أو ذروة من قمم الابداع نادرة الحدوث (١٥) . (المرجع السابق) .

مرة أخرى نواجه محاولة لاحداث التكامل بين الجوانب المتعددة للابداع ، مرة أخرى نكتشف صعوبة ايجاد تعريف واحد جامع مانع صادق لوصف كل مظاهر الابداع ومجالاته ، مرة أخرى يظهر مفهوم صورة العائلة ويفرض وجوده على الساحة ، في قلب كل هذا نكتشف الملمحين الأساسيين البارزين اللذين تؤكد عليهما معظم الدراسات والاتجاهات النظرية والميدانية والتجريبية : الجودة والمناسبة ، فالابداع هو المحصلة النهائية الناتجة عن (سلوك جديد) يقوم به شخص معين بطريقة جديدة أو من خلال (عمليات جديدة) ويترتب عليه ظهور (نواتج جديدة) قد تكون في شكل أفكار أو تصورات أو أعمال علمية أو فنية أو نظريات أو أساليب حياة أو نواتج صناعية (جديدة) ، ومن خلال التفاعلات بين المبدع والمنتج لنواتج جديدة والمجتمع الذي يحيا من خلال نواتج (قديمة) ، من خلال التفاعلات والضغط المتبادلة المشتركة بينهما ، يهدف المبدع الى أن يصل خلال تفاعلاته مع مجتمعه الى أن يتقبل مجتمعه هذه النواتج أو الأفكار (الجديدة) ويتمثلها ومن ثم يحل نمط (جديد) من الحياة محل النمط والأسلوب القديمين ، ولكن كيف يمكن أن يقنع المبدع الآخرين أو المجتمع بنواتجه وأفكاره؟ هنا تطرح فكرة المناسبة ، فالجدة فقط ليست كافية ، لأن المنتجات الجديدة يمكن أن تكون شبيهة بهلاوس الفصامين أو بأفكار المرضى العقليين وهذيانهم مفككة غير مترابطة كما مادة أحلام النوم أو اليقظة ، كي يكون الابداع مناسبا لابد أن يتكئ على أرضية الواقع ويستند على أسس قوية من حياة البشر ، لابد أن يقدم لهم أساليب وتصورات (جديدة) لكنها (مفيدة) في الارتفاع بمستوياتهم الادراكية والتصورية والحياتية المختلفة . والآن فلنبدأ بعرض

بعض الأطر أو النظريات النفسية التي حاولت تفسير عملية الإبداع .

أولاً : الإطار الاستبطاني :

عملية الإبداع هي فعل أو نشاط نفسي اجتماعي كلى يقوم به الإنسان المبدع ويترتب عليه ظهور منتج إبداعي جديد يتميز بالجدة والأصالة والمناسبة وهذه العملية هي مزيج من النشاطات المعرفية والمزاجية والدافعية والأدائية والاجتماعية التي يقوم بها المبدع وهو في سبيله للوصول إلى هدفه وهو المنتج الإبداعي الذي يقوم به ذلك بتوصيله في شكل رسالة أو منتج إبداعي مناسب إلى الآخرين ، والعلماء الذين اهتموا بدراسة عملية الإبداع لاحظوا مجموعة من العمليات أو المراحل داخل العملية الإبداعية الكلية هذه المراحل « ماكينون » هي ما يلي :

(أ) فترة الإعداد Preparation خلالها يكتسب المرء عناصر الخبرة والمهارات المعرفية المناسبة التي تمكن المرء من مواجهة المشكلات وطرحها بأشكال مناسبة .

(ب) فترة من الجهد المكثف Concentrated effort لحل المشكلة التي قد تحل بسرعة دون ارجاء أو صعوبة ، أو قد تتضمن الكثير من عمليات الإحباط والتوتر والقلق والتي يمكن في حالة عدم وجود وعي مناسب بالحل تؤدي بالمرء إلى :

(ج) فترة من الانسحاب بعيداً عن المشكلة ، ابتعاد سيكولوجي عن المجال، فترة من التخلي المؤقت عن المشكلة وغالباً ما يشار إلى هذه الفترة باعتبارها فترة أو عملية الحضانة Incubation وتسبقها فترة أخرى هي :

(د) لحظة الاستبصار a moment of insight والتي يصاحبها احساس من الأبتهاج والفرح والانشراح (١٦) . (المرجع السابق)

ثم أضاف بوانكاريه بعد ذلك مرحلة التحقيق Verification وأبدل تسمية التشبيع وفضل عليها اسم الإعداد Preparation ، ثم عرض والاس كل ما سبق بعد ذلك بطريقة منظمة ، واعتبر ، متأثراً بوليم جيمس ، الحياة العقلية سلسلة من الوقائع المتفاعلة ، وقد تكون أي منها في أي لحظة بداية أو مستصلة أو نهاية لواقعة أخرى ، (١٧ ، ١٨) وعرض والاس المراحل الأربع في العملية الإبداعية كما يلي :

١ - الإعداد : وهي المرحلة التي تبعد فيها المشكلة من جميع الاتجاهات والتي يكتسب المرء فيها عن طريق الملاحظة والتذكر مجموعة من

الحقائق والكلمات وقواعد التفكير أو ما سماه هوبز بالتفكير المنظم Regulated thinking

٢ - الاختمار : ولا يحدث هنا تفكير ارادى أو شعورى ، بل ما يحدث هو سلسلة من الوقائع العقلية اللاارادية أو اللاشعورية ، وقد يقضى وقت هذه المرحلة فى عمل ذهنى شعورى أو نشاطات أخرى ، أو فى الاسترخاء دون أى مجهود عقلى شعورى ، وفى الأشكال الأكثر تعقيداً من التفكير الابداعى فان الاكتشاف العلمى مثلاً أو كتابة قصيدة أو صياغة قرار سياسى مهم يكون من المرغوب فيه - من أجل تحقيقه - ليس فقط التحرر من التفكير الواعى فى المشكلة الخاصة التى يثور بشأنها الاهتمام ، بل أن هذه الفترة يجب أن تقضى بطريقة ما بحيث لا يسمح لأى شىء بإعاقة النشاط الحر بلاشعور ، ومن ثم فإن هذه المرحلة يجب أن تشمل على كمية كبيرة من الاسترخاء ذهنى الفعلى .

٣ - مرحلة الاشراف : وفيها تظهر الأفكار بطريقة مفاجئة وغير متوقعة أى تحدث ومضة فورية لا تستطيع أن تؤثر فيها - كما يقول ولاس - بأى مجهود ارادى مباشر ، وهى تحدث بعد عدد كبير من المحاولات والتداعيات غير الناضجة .

٤ - مرحلة التحقيق : وهى تماثل مرحلة الاعداد فى انها شعورية ويستخدم المبدعون هنا القواعد المنطقية والرياضية للتحكم فى أفكارهم (١٩) .

وقد ثارت خلافات عديدة حول هذا التقسيم . ورغم اتفاق معظم الباحثين على أهمية فترتى أو مرحلتى الاعداد والتنفيذ فإنهم يختلفون بصدد ما قيل حول الاختمار والاشراف فمثلاً « فضل » و « دورث » التقسيمات اللاشعورية لمرحلة الاختمار وقال بأن ما يحدث خلال هذه الفترة هو السماح للوجهات الذهنية Mental sets الخاطئة بالذهاب بعيداً من خلال التقليل من تعب المخ ، ومن ثم تتاح للمفكر الفرصة أو الحرية فى أن يلقي نظرة جديدة على مشكلته وربما كان ما يحدث هنا هو اعطاء الفرصة للوجهات ذهنية جديدة فى أن تنمو من خلال المعلومات الجديدة التى يستقبلها الفرد من خلال هذه الفترة ومن خلال الهاديات التى تأتى من النشاط العقلى أثناء انشغال الفرد بنشاطات أخرى (٢٠ ، ٢١) .

وتقوم شكوك عديدة فيما يتعلق بضعف الدليل الإيجابى المؤيد للاختمار كعملية ، « فعلماء النفس يميلون إلى الحذر فى استخدام الأدلة

القصصية كشواهد ، حتى تلك التي ذكرها أشخاص مشهورون « (٢٢) ، وقد طالب جيلفورد بالتخلي عن المفهوم وقال بأنه « ليس الاختمار نفسه هو صاحب الأهمية الكبيرة ولكنها طبيعة العمليات التي تحدث خلال فترة الكون هذه ، وأيضا العمليات التي تحدث قبلها والتي تحدث بعدها ، وأيضا الفروق الفردية في كفاءة هذه العمليات » (٢٣) . أما بولتون فاعتبر أن مفهوم الاختمار له قيمة تفسيرية ضئيلة حيث انه يوحي بأن هناك شيئا ما يحدث فيما بين تحدد المشكلة والوصول الى حلها ولكنه لا يحدد ما الذي يحدث بطريقة دقيقة ومقنعة (٢٤) .

ورغم أن جهودا عديدة قد فشلت في اظهار الاختمار تجريبييا الا أن المؤيدين للرأى التقليدى - أى رأى والاس - يؤكدون أهمية الاختمار لكنهم يفشلون في اعطاء أوصاف تفصيلية للعمليات الابداعية التي تحدث خلاله .

هذا عن الاختمار ، فماذا عن الاشراق أو التنوير ؟

بعد فترة الاعداد والاختمار غالبا ما تأخذ فترة الاشراق شكل الصورة البصرية المضيئة شديدة الحيوية ، هذه الصورة تقوم بتمثيل الحل - الذى يبحث عنه المبدع - بطريقة مباشرة أو بطريقة رمزية .

وأحيانا ما تزود الصور الخيالية المبدع بالفكرة الأساسية لقصيدته أو لوحته أو قصته ، وتكشف السير الذاتية للشاعرين ولیم بليك وصمويل كولريدج عن أمثلة كلاسيكية فى هذا السياق ، ونجد مثالا حديثا أيضا فيما ذكرته انيد بليتون E. Blyton فى رسالة منها الى عالم النفس بيتر ماكيلر وصفت فيها كيف تحدث أفكار القصص لديها فقالت : « اننى أغلق عيني لدقائق قليلة ، واضعة آلتى الكاتبة الصغيرة على ركبتي ، وأجعل هلى صافيا وفى حالة انتظار ، ثم بعد ذلك وبالوضوح الذى يمكننى أن أرى من خلاله طفلا صغيرا حقيقيا ، تقف شخصياتى أمامى داخل عين عقلى . . . وتتحرك القصة بداخلى كما لو كانت هناك شاشة سينما خاصة هناك بداخلى . . . اننى لا أعرف مقدما ما يمكن أن يحدث . . . وأكون فى تلك الحالة المبهجة التى تمكننى من كتابة القصة وقراءتها للمرة الأولى فى نفس اللحظة ، .

والبحوث اهتمت بدراسة عمليات ونواتج الابداع فى ظل الظروف المرتبطة بالصور الخيالية هى بحوث قليلة بدرجة ملفتة للنظر ومن أمثلة هذه الدراسات دراسة فيليب كوبزانسكى P. Kubzansky عام ١٩٦١ حول تأثير العزلة الادراكية على الابداع حيث وجد ارتباطا بين حالة العزلة

والدرجات على بعض اختبارات جيلفورد للإبداع وكذلك دراسة هارمان Harman وزملائه عن تأثير عقار L.S.D. على الإبداع حيث وجد تزايداً في الصور البصرية وعمليات التهوية خلال تعاطي هذا العقار المهلوس واعتبر أن هذا شرطاً ضرورياً للإبداع لكنه لم يقيم باختبار ذلك على مبدعين حقيقيين ومن ثم ظلت نتائجه ناقصة (٢٥) .

ان فحص اعترافات المبدعين يدل على أن الحل يتم الوصول اليه بطريقة تدريجية أكثر منها مفاجئة ، بمعنى أن تلك اللحظات التي تعددت تسمياتها ما بين وحى ، الهام ، استبصار ، حدس ، تنوير . الخ . « نادراً ما تزور العقول التي لم تكن مهياً لها » كما يقول باستير ورغم أن هناك فكرة رومانتيكية فحواها أن الأفكار تقفز فجأة – وبدون مجهود ارادى – الى أذهان المبدعين الحقيقيين فان هناك أدلة كثيرة على أن هذا نادراً ما يحدث (٢٦) .

واذا جاء التنوير في فترة ما – قصيرة أو طويلة – نتيجة للتركيز المكثف على المشكلة فان افتراض وجود عمل لا شعورى مسبق يكون أمراً لا مبرر له (٢٧) ورغم ما فى قصيدة « كوبلاخان » مثلاً لكولريديج من صور وأسماء وأماكن غريبة ، فان لويس قد استطاع – كما يقول هايز – أن يتوصل سنة ١٩٢٧ الى أسس هذه المعرفة من خلال فحصه لكراسة الملاحظات التى كان كولريديج يدون فيها ملاحظاته ومقتطفاته من قراءاته . وبمقارنة هذه الملاحظات والمقتطفات بالصور الخيالية ، والكلمات الموجودة فى القصيدة استطاع لويس أن يحدد مصادرها ، فقرأت كولريديج عن نهر النيل ، مصر ، الحبشة ، كانت لها آثارها الكبيرة فى ابتكاره لصوره وأفكاره الواردة فى هذه القصيدة . ومن ثم فقد اختفى الكثير من الغموض أو الابهام الذى كان يحيط بإبداع كولريديج لقصيدته هذه ، هذا الغموض هو سمة واضحة فى تفكير أنصار الرأى التقليدى (الاستبطانى) . وهم غالباً ما يلجئون اليه فى تفسير الأعمال الإبداعية الكبيرة ، كما أنهم غالباً ما يحاولون اضافة تهويمات لاشعورية على هذه التفسيرات (٢٨) .

وتعليقاً على تقسيم والاس عموماً أكد جيلفورد « انه تقسيم سطحي من وجهة النظر السيكلوجية . . انه أكثر درامية منه موحياً بفروض قابلة للاختبار . . انه لا يخبرنا فى الغالب بأى شئ عن العمليات العقلية التى تحدث بالفعل . . فالمفاهيم لا تقود مباشرة الى اختبار الأفكار » (٢٩) وعلق ليشون على هذا التقسيم بقوله . « انه تقسيم يضع الأوجه المختلفة للعملية الإبداعية ويصفها بطريقة جامدة ، وفى مراحل وأجزاء منفصلة . . كما أن المراحل يتم فرضها على النشاط الإبداعى الحادث بطريقة متعسفة » (٣٠) واعتراض كرتشفيلد على مراحل والاس فقال « اضافة الى انها ليست محددة

تحديدا جيدا ، فانها لا تحدث في ذلك النمط التتابعى المنتظم ، الذى أشار اليه والاس ٠٠٠٠٠ وبدا من وصف العملية على هذا النحو فنحن محتاجون الى تحليل وظيفى يبحث أساسا عن التفسير المنطقى للطابع الخاص الذى تأخذه كل خطوة من خطوات التفكير الابداعى وكيف تتحدد وظيفيا بخطوات سابقة ، وما هى القنوات والضوابط للخطوات التالية » (٣١) . ويرى « فينيك » أن « الضعف الحقيقى فى النظر الى التفكير الابداعى على أنه يتضمن تسلسلا لمراحل محددة تحديدا صارما ليس فى أن هذه المراحل غير موجودة ، وإنما فى اعتبارها عامة ومتمايزة ومتتابعة بطريقة معينة ، مع أنه من الأفضل النظر اليها كما فعل « فرتهيمر » أى على أساس اعتبار التفكير الابداعى نمطا كليا من السلوك تتداخل فيه عمليات عديدة وتتفاعل فيما بين حدوث المنبه الاصلى لتشكيل السلوك الناتج . فمن المهم أن ندرك التفكير الابداعى على أنه نشاطات ديناميه متفاعلة أكثر من كونه مراحل منفصلة » (٣٢) وقد حاولت بعض البحوث التجريبية مثل بحوث « كانرين باتريك » التى درست الشعراء وغير الشعراء « كمجموعة ضابطة » والرسامين وغير الرسامين (كمجموعة ضابطة) ، وبحوث « ايندهوفن وفينيك » التى درست الرسامين أن تختبر ما اذا كانت هذه المراحل تحدث بصفة عامة ، وفى كل المستويات . وقد استطاعت « باتريك » أن تميز بين مراحل والاس الأربع ، ولكنها بينت أنها مراحل متداخلة متلاحمة ، كما وجد « فينيك » وايندهوفن « دليلا على المراحل وأكدا تفاعلها واقترحا أنها لم تكن مراحل على الاطلاق ولكنها تحتوى على عمليات ديناميه تتم أثناء الابداع » (٣٣) .

لكن الدراسات الميدانية هنا هى دراسات قليلة ، كما انها تدعم – غالبا – بتفسيرات استبطانية من المبدعين عن خبراتهم وطرق عملهم ، كما أن عينة العمليات الابداعية المتضمنة فى العملية الكلية ، وأن موقف الاختبار عادة ما يكون مصطنعا وغير مماثل للموقف الابداعى الطبيعى زمانيا أو مكانيا (٣٤) .

والملاحظ عموما على اقتراحات وتفسيرات « والاس » أنه كان يعطى دورا سلبيا للمبدع خاصة خلال عمليتي الاختمار والاشراق، وأنه كان يضع مقاليد أمور هاتين العمليتين فى يد « اللاشعور » ذلك الاسم الجميل الذى أطلق فى وقت ما لسيد الفراغات فى معرفتنا السيكلولوجية (٣٥) .

إضافة الى ما سبق فإن « والاس » كان يفترض ميكانيكية العمل الابداعى ، فعندما يشعر المبدع بالاجهاد – كما يرى والاس – فإن عليه أن يجلس ويبتظر هبوط الفكرة المبدعة ولا يفعل شيئا سوى هذا الانتظار (٣٦) متناسيا أن العمل الابداعى يتطلب الإرادة والانتباه والتركيز والانفعال العميق بموضوع الابداع .

ثانيا : نظرية التحليل النفسى :

١ - المفاهيم الأساسية :

نعرض فيما يلى أهم المفاهيم المستخدمة فى ميدان التحليل النفسى بشكل عام وفى التحليل النفسى فى تفسير الفن والابداع الفنى والأدبى بشكل خاص وسنقوم بالتركيز فقط على بعض المفاهيم التى يكثر استخدامها فى نظريتى فرويد ويونج بشكل خاص

(أ) الشعور . Consciousness

(أ) الشعور بشكل عام هو حالة من الوعي ، هذا هو الاستخدام الأكثر عمومية للمصطلح ، هذا المعنى يكون هو المقصود فى عبارة مثل « فقد ذلك الشخص وعيه » أى شعوره .

(ب) الشعور هو مجال العقل الذى يشتمل على الاحساسات والادراكات وعناصر الذاكرة التى يكون المرء واعيا بها بشكل مؤقت ، أى تلك الجوانب من الحياة العقلية الحالية التى يتنبه اليها المرء .

(ج) الشعور هو المكون العقلى الذى يكون موجودا خلال عملية الاستبطان وهذا المعنى موجود فى الكتابات القديمة للبنائين (أو البنيويين) أو أنصار طريقة الاستبطان فى علم النفس المبكر .

(د) فى مجال التحليل النفسى يشير هذا المصطلح الى الجانب العقلى الذى يشتمل على كل ما يكون المرء واعيا به ، ويتم التمييز بينه وبين الجانب اللاشعورى من العقل .

والمصطلح له تاريخه المتفاوت أو المتعدد الأشكال فقد مثل أحيانا البؤرة المركزية فى مجال علم النفس كما لدى المدرسة البنائية ، وفى وقت آخر تم استبعاده من مجال علم النفس باعتباره لا يمثل شيئا أكثر من ظاهرة ثانوية قليلة الأهمية تحدث نتيجة النشاطات الجسمية (كما لدى السلوكية فى شكلها المبكر الساذج) وينبع الاهتمام الحالى بهذا المصطلح من الاحساس الجارف المتزايد بأن الشعور (وكذلك الوعي) هو أحد الخصائص الأساسية المميزة للنوع الإنسانى ، وهذا يعنى أنه كى يكون المرء واعيا بشكل متميز ، فإنه لا يحتاج فقط الى أن يمتلك شعورا ذاتيا ولكنه أكثر من ذلك يجب أن تكون لديه القدرة الأكثر أهمية الخاصة بالاحاطة والمراجعة العقلية لما تكون واعين أو شاعرين به ، وقد انبعث الاهتمام بشكل

واضح بمصطلح الشعور في مجال علم النفس العلمى فى السنوات الأخيرة خاصة فى مجالات المعرفة واللغة وعلم النفس العصبى (أو النيوروسيكولوجى) (٣٧) .

(ب) عقدة أوديب : Oedipus Complex

هى مجموعة من الرغبات والمشاعر والأفكار اللاشعورية التى تقوم على أساس الرغبة فى امتلاك الوالد أو الوالدة من الجنس المقابل كالأم (بالنسبة للولد الذكر) أو الأب (بالنسبة للبنت الأنثى) وفى نفس الوقت إزالة الوالد (أو الوالدة) من نفس الجنس ، ووفقا لوجهة نظر فرويد المعروفة فإن هذه العقدة تظهر خلال المرحلة الأوديبية التى تقع فيما بين سن الثالثة والخامسة تقريبا وكان فرويد يعتقد أن هذه العقدة عالمية أى موجودة لدى كل أطفال العالم وهو ما رفضته الدراسات الانثروبولوجية التى أجريت بعد ذلك ، ووفقا لرأى فرويد فإن هذه العقدة يتم حلها بشكل جزئى من خلال قيام الطفل بالتوحد (أو التماهى) Identification المناسب مع الوالد من نفس الجنس ، ويتم حل هذه العقدة كلية بعد ذلك عندما تتم إعادة اكتشاف الوالد من الجنس المقابل من خلال علاقة جنسية ناضجة مع شخص راشد من الجنس المقابل . وقد نظر فرويد الى عقدة أوديب باعتبارها العقدة النوواة (أو النووية) فى كل الاضطرابات العصابية النفسية ، فكل أنواع التثبيت Fixation أو عدم النمو أو النضج النفسى وكذلك عمليات النكوص Regression والاضطرابات النفسية والجنسية ومشاعر الذنب كلها نتيجة لهذه العقدة .

الشيء المثير للاهتمام أن الأصل النظرى لهذه العقدة ، التى تشتق اسمها من شخصية أوديب الأسطورية ، قد جاء من خلال مسرحيتين للكاتب الأغريقى الشهير « سوفوكليس » فى هاتين المسرحيتين قتل أوديب دون أن يعرف أباه ثم تزوج بعد ذلك أمه ، وقد توصل فرويد لذلك من خلال تحليله الذاتى لنفسه بعد وفاة والده ، وفى البداية كان مصطلح « عقدة أوديب » يشير الى عقدة الشخص الذكر تجاه والديه ومصطلح « عقدة ألكترا » الى عقدة الأنثى تجاه والديها ، أما اليوم فيستخدم مصطلح عقدة أوديب ليشير الى هذه العقدة لدى الذكور والانات ، رغم اننا يجب أن نعرف ان خطايا ألكترا كانت من نوع يختلف عما فعله أوديب ، فبدلا من أن تقوم ألكترا بالقتل المباشر لوالديها ، فإنها ألحت على أخيها ودفعته للقيام بذلك . فى الوقت الخالى فإن النظرية التحليلية النفسية تعطى اهتماما أقل لهذه العقدة أكثر من ذلك الاهتمام الكبير الذى كان موجودا لدى فرويد وأتباعه

المباشرين ، وبدلاً من ذلك فإنه يتم التأكيد على دراسة العلاقات المبكرة بين الطفل وأمه ، وقد أصبح عديد من الباحثين ينظرون الآن إلى السلوكيات الأوديبية باعتبارها مشتقة من الخبرات والصراعات المبكرة (٣٨) . هذه العقدة والأفكار الخاصة بها كانت هي الجوهراً الذي استند إليه فرويد في تفسيره للنشاط الفني وغير الفني لدى أدباء أمثال شكسبير خاصة في هاملت وكذلك لدى دستوييفسكي في الأخوة كارامازوف .

(ج) اللاشعور : Unconsciousness

هناك ثلاثة أنماط من الاستخدامات القابلة للتمييز بينها فيما يتعلق بهذا المصطلح ، وكل استخدام من هذه يؤكد وجود عمليات تحدث خارج التحكم الواعي للفرد .

١ - اللاشعور هو حالة تتميز بافتقاد الوعي أو نقصه فتسمى حالته لاشعورية وهذا المعنى أقل تحديداً ويستخدم بشكل مماثل لاستخدامه في لغة الحياة اليومية ومن ثم يستخدم للإشارة إلى عمليات الآثار العقلية التي تحدث في حالات الغيبوبة والنوم العميق والاعماء أو نتيجة للتخدير العام .

٢ - اللاشعور هي حالة تتميز بنقص أو افتقاد الوعي بالعمليات الداخلية التي تحدث ، هنا يستخدم المصطلح للإشارة إلى العمليات الداخلية التي تسبق - بشكل مضمحل - الجانب الخارجى من الشعور .

ورغم أن الاستخدامين السابقين يغطيان كل العمليات التي تحدث خارج التحكم الشعورى أو الواعى للفرد ، وغالباً ما يشار هنا إلى العمليات المعرفية والانفعالية والدافعية ، أما العمليات الفسيولوجية التي تحدث إلى حد كبير دون وعى الفرد ، فنادر ما يتم الإشارة إليها خلال الاستخدام لمصطلح اللاشعور لاحظ أيضاً خلال الاستخدامين السابقين لم يتم تعريف مصطلح اللاشعور بشكل محدد ، وكل ما تم طرحه فقط هو إشارات إلى عمليات لاشعورية - تفتقد الوعي - ليست شعورية تحدث داخلياً أو ضمناً دون تحكم ارادى خاص من الفرد .

٣ - فى مجال علم نفس العمق Depth Psychology أو علم نفس الأعماق خاصة فى ميدان التحليل النفسى يستخدم المصطلح للإشارة إلى الموقع أو المكان أو الجانب النفسى الذى يشتمل على الوظائف المكتوبة الخاصة بالهو id (الجانب الخاص بالغرائز من النفس فى ضوء نظرية فرويد) فاللاشعور إذن يشتمل على الدوافع والرغبات البدائية وعلى الذكريات

والصور والنزعات التي تثير القلق الى حد كبير ولا يمكن قبولها عند مستوى الشعور ومن ثم يتم تحويلها الى منطقة اللاشعور وكبتها هناك (٣٩) .

(د) الكبت Repression

المعنى الاساسى هنا مشتق من الجذر الخاص بالفعل « يكبت » To Repress الذى يعنى الاخفاء والقمع والتحكم والرقابة والاستبعاد . . الخ . ومن ثم فانه فى كل علوم نفس الأعماق والتحليل النفسى بدءا من نظرية فرويد وما بعدها ، استخدم هذا المصطلح ليشير الى العمليات العقلية المفترضة التي تنشط من أجل حماية الفرد من الأفكار والانفعالات والذكريات التي يمكن أن ينتج عنها القلق والخوف والشعور بالذنب اذا أصبحت واعية أى فى مجال الشعور الشخصى . وقد تم النظر الى عملية الكبت باعتبارها نشطة عند مستوى اللاشعور ، أى انها لا تقوم فقط بإبعاد بعض المحتويات العقلية عن الوصول الى مستوى الشعور ولكنها أيضا تحدث فى مستوى بعيد عن مستوى الشعور . فى نظرية التحليل النفسى الكلاسيكية ، تم النظر الى هذه العملية باعتبارها وظيفة تقوم بها الأنا واعتبارها كذلك تشتمل على عديد من العمليات مثل :

(أ) الكبت الاساسى أو البدائى Primal Repression وفيه تحدث

عمليات منع واعاقة الاندفاعات والدوافع البدائية والمحركة من الوصول الى مستوى الشعور .

(ب) الكبت الأولى Primary Repression وفيه يتم ابعاد المحتوى

العقلى المنتج أو المثير للقلق بقوة بعيدا عن مجال الشعور ويمنع من الظهور مرة أخرى .

(ج) الكبت الثانوى Secondary Repression وفيه يتم كبت

العناصر التي يمكن أن تخدم فى تذكير ، أى جعل الفرد يتذكر تلك المادة التي قام بكبتها .

ان ما يعنيه التحليل السابق هو أن ما يتم كبته لا يخدم أو ينتهى أو يموت ، بل يستمر فى وجوده الحى عند مستوى اللاشعور ، انه يظهر ويكشف عن نفسه من خلال اسقاطه لنفسه فى شكل رمزي مميز خاصة فى الأحلام والأفعال اللاارادية والأمراض النفسية وكذلك فى الابداع الفنى (٤٠)

(ه) الاعلاء أو التسامى Sublimation

فى التحليل النفسى التقليدى ، فان التسامى يشير الى العملية التى يتم من خلالها تهذيب واعادة الدوافع والاندفاعات البدائية والغريزية والمحرمة فى شكل سلوكيات جديدة ومتعلمة وغير غريزية .

وبشكل نمطى يستخدم المصطلح من أجل فهم أن السلوكيات المتعلمة تكون سلوكيات مقبولة اجتماعيا ، بينما الاندفاعات والدوافع البدائية العميقة ليست كذلك ، وقد اعتبرت نظرية التحليل النفسى أن النزعات الابداعية والفنية هى تجليات أو مظاهر خاصة لعمليات الاعلاء أو التسامى (٤١) .

(و) العملية الأولية Primary Process

فى التحليل النفسى تشير العمليات الأولية الى تلك الوظائف التى تكون نشطة عند مستوى الهو id الغريزى ، وهنا يتم تصور العملية الأولية باعتبارها عملية لا شعورية ، لا عقلانية ، تجهل أو تتجاهل حدود الزمان والمكان ويتحكم فيها مبدأ اللذة والألم ، فخلال هذه العملية يندفع الفرد فى اتجاه اللذة ويتبعد عن الألم (٤٢) .

(ز) العملية الثانوية Secondary Process

فى نظرية التحليل النفسى تشير العمليات الثانوية الى النشاطات الشعورية العقلية والمنطقية ، وتم تصور هذه العمليات باعتبارها ترتبط بشكل وثيق بالآنا Ego ومبدأ الواقع ، فهذه العملية تتحكم فيها حدود الواقع المنطقية والمحددة زمانيا ومكانيا (٤٣) .

(ح) اللاشعور الجمعى : Collective Unconsciousness

المصطلح الذى استخدمه يونج كى يشير به الى ذلك الجانب من اللاشعور الذى يشترك فيه كل البشر . وقد افترض يونج أن هذا اللاشعور الانسانى موروث وينتقل عبر الأجيال ويترك آثاره على شكل مضمون المخ الانسانى وأنه غير فردى ولا شخصى بل جمعى ويتكون من المادة المتبقية رغم التطور الانسانى والمكونات الأساسية للاشعور الجمعى تسمى بالصور أو النماذج البدائية Archetypes وهى الأفكار والصور الموروثة اللاشعورية من تراث الأسلاف وعبر الأجيال مثل الصور والأفكار الخاصة حول الأب وحول الله والشيطان والخير والشر . الخ (٤٤) .

٢ - فرويد والابداع :

رأى فرويد فى الفن وسيلة لتحقيق الرغبات فى الخيال ، تلك الرغبات التى أحبطها الواقع اما بالعوائق الخارجية واما بالمشبطات الأخلاقية ، الفن اذن هو نوع من الحفاظ على الحياة ، والفنان هو أساسا انسان يبتعد عن الواقع لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن اشباع غرائزه التى تتطلب الابداع ، وهو يسمح لرغباته الشبقية الطموحة بأن تلعب دورا أكبر فى عمليات التخيل ، وهو يجد طريقة ثانية الى الواقع فى هذا العالم التخيلى بأن يستفيد من بعض المواهب الخاصة لديه فى تعديل تخيلاته الى حقائق من نوع جديد يتم تقويمها بواسطة الآخرين على انها انعكاسات ثرية للواقع وهكذا فان الفنان بطريقة ما يصبح هو البطل « الملك ، المبدع ، أو المحبوب الذى يرغب فى أن يكونه دون أن يتبع ذلك المسار الطويل الشاق الخاص باحداث تغييرات كبيرة فى الواقع الخارجى » (٤٥) . والفنان المبدع فى رأى فرويد هو انسان محبط فى الواقع لأنه يريد الثروة والقوة والشرف وحب النساء ، لكن تنقصه الوسائل للوصول الى هذه الاشباعات . ومن ثم فهو يلجأ الى التسامى بهذه الرغبات وتحقيقها خياليا (٤٦) . وهكذا فان الفن لدى فرويد هو منطقة وسيطة بين عالم الواقع الذى يحبط الرغبات ، وعالم الخيال الذى يحققها، وعالم الخيال نظر اليه فرويد على أنه مستودع يتم تكوينه أثناء عملية الانتقال المؤلمة من مبدأ اللذة الى مبدأ الواقع ، ومن أجل القيام بعمليات تعويض بديلة عن عمليات الكف للغرائز فى الواقع . والفنان كالعصابى ينسحب من الواقع غير المشبع الى عالمه الخيالى ، ولكنه على عكس العصابى يعرف كيف يسلك طريقه راجعا من عالم الخيال ، وأكثر من ذلك أن يثبت أقدامه فى الواقع . فابداعاته - أى أعماله الفنية - هى الاشباعات الخيالية للرغبات اللاشعورية ، ومثلها كالأحلام تكون على هيئة تسوية أو حل وسط حيث انها تجبر على تجنب أى صراع مباشر مع قوى الكبت ، ولكنها تختلف عن النواتج غير الاجتماعية والنرجسية الخاصة بالأحلام فى توجة من أجل استثارة اهتمام وتغاطف الآخرين كما انها تكون قادرة على إثارة واشباع نفس الاندفاعات الغريزية لديهم . ولكن الأمر المثير للاهتمام ، رغم كل ما سبق ، هو أن فرويد يقول فى أكثر من موضع ودون تحفظ ان تفسير طبيعة الموهبة الفنية يخرج عن طوق اطاره ، أو أن اطار التحليل النفسى ينبغى أن يسلم بالهزيمة أمام مشكلة الفنان (٤٧) لكن هذا الاعتراف بالفشل لا ينفى أن فرويد وغيره من المحللين النفسيين

قد اهتموا بمشكلة الابداع الفنى بدءا من اشارات فرويد غير المتوقعة فى كتاب «تفسير الأحلام» عن فن التصوير الى دراسات عن ليوناردو دافنشى ، ودستويفسكى وغيرهما ، وكذلك دراسات يونج C. G. Jung وهانز ساكس H. Sacks ، واوتورانك O. Rank ، وأوتوفينيكل ، وايريك فروم وغيرهم عن الفنان والابداع الفنى .

قال فرويد فى دراسة عن دستويفسكى انه يصعب أن نرجع الى محض الصدفة أن ثلاثة من الأعمال الأدبية الابداعية العظيمة عبر الزمن كانت تتعامل مع نفس الموضوع وهو جريمة قتل الأب ، هذه الأعمال هى «الملك أوديب» لسوفوكليس و «هاملت» لشكسبير و «الأخوة كارامازوف» لدستويفسكى ، وفى هذه الأعمال الثلاثة كلها كان هناك أيضا ذلك الدافع للقيام بأعمال ومآثر عظيمة وكذلك التنافس الجنىس حول امرأة بشكل واضح .

أكثر هذه الأشكال الأدبية تمثيلا لهذه الدوافع بشكل مباشر هو بالتأكيد الدراما المشتقة من الأسطورة الاغريقية ، فى تلك الأسطورة كان البطل هو الذى يقوم بالجريمة ولكن المعالجة الشعرية تكون مستحيلة دون التنكر والتظاهر بالرقّة Softening أما السماح المباشر للرغبة فى قتل الأب فيبدو غير مقبول دون اعداد تحليلى مناسب وقد أدخلت الدراما الاغريقية خلال احتفاظها أو تمسكها بهذه الجريمة نوعا من تلطيف حدتها من خلال طراز سائد من الاسقاط للدوافع اللاشعورية لدى البطل على الواقع فى شكل فكرة قهرية مهيمنة خاصة بالقدر المغترب عنه .

لقد قام البطل بالمآثر العظيمة بشكل غير مقصود وبطريقة تبدو أيضا أنها غير واقعة تحت تأثير امرأة معينة ، وهذا العنصر الأخير لابد أن يوضع فى الاعتبار خاصة فى الظروف التى يمتلك فيها البطل الملكة الأم بعد قيامه بأعماله العظيمة المتمثلة فى قتل الوحش (أبو الهول) الذى يرمز للأب بعد أن يتم الكشف عن مشاعر الذنب وتصبح هذه المشاعر شعورية ولا يبذل البطل أية محاولة لتبرئة نفسه لكنه يلجأ الى الخضوع المصطنع لسيطرة القدر . ويتم الاعتراف بالجريمة وعقابها كما لو كانت فعلا شعوريا تماما . وقد يبدو هذا غير دقيق أو غير عادل بالنسبة لعقولنا ، ولكنه يكون من الناحية السيكلوجية صحيحا تماما (٤٨) .

وقد حاول فرويد أن يجد تمثيلا آخر لهذه الفكرة فى دراسته عن شخصية دستويفسكى وعلاقته بوالديه لكن هذه الدراسة كانت تتسم بالكثير من مظاهر التعسف والقفز المفاجئ من مقدمات عابرة على نتائج

كبيرة وهى سمة وخاصية أساسية فى التحليل النفسى الفريريدى التقليدى الى حد كبير .

فى عام ١٩٨٠ قام سولر Suller بفحص الخبرة الابداعية فى ضوء مفاهيم فرويد حول العمليات الأولية والعمليات الثانوية . فتفكير العمليات الأولية يعرف بأنه لاشعورى وبدائى ، يتحرك من مبدأ اللذة ويهدف الى التخفيف من حالة التوتر ، ويتمركز تنظيم تفكير العملية الأولية داخل الذات ، ويدور حول Revolving around المعانى الانفعالية المرتبطة بالرموز والصور ، وهكذا يكون تفكير العمليات الأولية غير منسجم بالمنطقية أو النظام ، وكما أشار سولر فان هذا التفكير غالبا ما يكون مجازيا فى جوهره ، حيث إن التمييزات والحدود بين الأشياء يجعل كل الأشياء متساوية حتى فى حالة وجود مظاهر قليلة متباعدة من التشابه . وعلى عكس ذلك فان تفكير العمليات الثانوية يرتبط بشكل واضح بمبدأ الواقع ، فالتفكير يكون مرتبطا بالواقع والمبدأ الذى يكون عليه الواقع (مبدأ الواقع) ، فالموضوع يكون هو ذاته كما هو ليس بديلا لشيء آخر ويتم تنظيم الأفكار وفقا للعلاقات الفعلية الموجودة فيما بينها أكثر من تنظيمها وفقا لعلاقات بالذات المفكرة فيها ، وحيث ان تفكير العملية الثانوية مهتم أكثر بكيفية ارتباطات الموضوعات والأشياء الخارجية ببعضها البعض ، فان هذا يتطلب منه تفاعلا مستمرا مع البيئة .

وقد افترض فرويد وتبعه بعض الباحثين أهمية أن يشتمل الابداع على هاتين العمليتين من التفكير ، أى تفكير العمليات الأولية وتفكير العمليات الثانوية ، وكما أشرنا فان تفكير العملية الأولية نظر اليه باعتباره أكثر بدائية من تفكير العملية الثانوية ومن ثم فقد تم اطلاق اسم النكوص أو الارتداد Regression على عمليات العودة الى العمليات الثانوية ، واطلق على عملية العودة هذه أيضا مصطلح أو تعبير الارتداد فى خدمة الأنا Regression of the service of the ego عندما تحدث فى الكتابات التحليلية النفسية المبكرة كان ينظر الى تفكير العملية الأولية باعتباره ارتدادا نكوصيا كما كان الصراع النفسى الداخلى يلعب دوره الكبير خلال الابداع أيضا فقد تم اعتبار الصراع بمثابة القوة الدافعية التى تدفع المرء فى اتجاه التفكير النكوصى ، أما فى التفسيرات الأكثر حداثة فان الصراع يلعب دورا أقل فى نظرية الابداع ، وأصبح ينظر الى الاقتراب Access من تفكير العملية الأولية أو تفكير العملية الثانوية باعتباره تحت تحكم الفرد المبدع ، واقترح سولى أن دور الصراع والتأكيد المصاحب له على النكوص أو الارتداد ، يمكن أن يفسر بشكل مختلف فى ضوء أساليب الشخصيات

الابداعية المختلفة ، فمتلا قد يتكئ الفنانون أكثر من العلماء على الصراع الداخلي والصدمات المبكرة كقوة دافعة للابداع ، وكذلك فان التوازن ما بين قوى التفكير الأولية والثانوية في حاجة الى التفكير الابداعي في مجال الفن قد يكون مختلفا عن التوازن ما بين هذه القوى في مجال العلم مع تأكيد أكثر على تفكير العمليات الأولية في مجال الابداع الفني ، ان هذه التفرقة قد تبدو قريبة من تلك التفرقة التي سبق أن ناقشناها ما بين نصفي كرة المخ البصري التخيلي المكاني الكلي الذي هو أقرب الى تفكير العمليات الأولية وبين النصف الأيسر التحليلي المنطقي المنظم الذي هو أقرب الى تفكير العمليات الثانوية ، مع ضرورة أن نضع في اعتبارنا أن معظم أفكار فرويد واتباعه كانت تقوم على أساس التفكير التأمل الاستبطاني وأن الدراسات الحديثة حول التخصص الدماغي أو تخصص كل نصف من نصفي المخ في وظائف معينة تقوم في جوهرها على أساس المنهج العلمي والاجراءات الدقيقة والأدوات المضبوطة . على كل حال ، فان سولر قد أكد أهمية الاحتفاظ بالتوازن بين تفكير العمليات الأولية وتفكير العمليات الثانوية ، وفي رأيه أن الأفراد الذين يدافعون ضد سيطرة عمليات التفكير الأولية عليهم (العصابين) أو الذين يخضعون كلية لهذه العمليات (الذهانيين) ليسوا جميعا من المرشحين الجيدين لأن يكونوا من الشخصيات المبدعة كذلك فان غياب أي من العمليات الثانوية أو الأولية يمكن أن يكون في صالح العمل الابداعي ، فالتوازن بينهما مطلوب ، مع تأكيد أكثر على العمليات الثانوية بالنسبة للابداع الفني وعلى العمليات الأولية بالنسبة للابداع العلمي ، وكما أشار سولر أيضا فان كون المرء منفتحا ومستقبلا للأفكار والخبرات الجديدة ، وكونه قادرا على التحكم في التعقيدات المعرفية التي تفرضها هذه الأفكار والخبرات هو جوهر عملية الابداع (٤٩) . (B. Farisha, 1983)

والآن فلنقرأ مثالا تطبيقيا لاستخدام التحليل النفسي في دراسة الأدب والابداع الأدبي وسيكولوجية المبدع . هذا المثال تتضمنه ترجمتنا التي نعرضها في القسم التالي لمقالة فرويد نفسه عن دستويفسكي ، الكاتب الروسي الشهير ، ثم نختم هذه المقالة المترجمة بتعليق مختصر عليها .

دستويفسكي وجريمة قتل الأب :

بقلم : سيجموند فرويد .

هناك أربعة جوانب أو وجوه أساسية يمكن تمييزها داخل شخصية دستويفسكي الخصبة المتنوعة فهناك : الفنان المبدع وهناك العصابي وهناك رجل الأخلاق The Moralist ثم هناك الخاطيء .

فكيف يمكن للمرء أن يجد طريقه وسط هذا التعقد المربك ؟

ان الجانب الخاص بالفنان المبدع هو أقل هذه الجوانب إثارة للشك ، فموضع دستويفسكى فى مسيرة الأدب العالمى لا يبتعد كثيرا عن الموضع الذى يقف فيه شكسبير ، وتعتبر « الاخوة كارامازوف » هى أعظم رواية كتبت حتى الآن، أما حكاية المفتش العام The Grand Inquisitor هى واحدة من قمم الأدب العالمى ، فيمكن بالكاد اعتبارها فى مثل سمو ورفعة أعمال دستويفسكى . وأمام مشكلة الفنان المبدع لابد للتحليل من أن يعلن انسحابه فى مثل حالة كحالة دستويفسكى هذه .

أما الجانب الأخلاقى فى شخصية دستويفسكى فهو الجانب الذى يمكن مهاجمته بسهولة ، فإذا حاولنا أن نضع دستويفسكى فى مرتبة أخلاقية مرتفعة من خلال تذرعنا بالقول بأن الانسان الذى ذهب الى أعماق الخطيئة واجتازها هو فقط الذى يمكنه الوصول الى القيمة الأخلاقية السامية، فإننا حينئذ لانستطيع أن نتجاهل ذلك الشك الذى يظهر ويتبدى ، فرجل الأخلاق أو الفضيلة هو ذلك الانسان الذى يجابه الاغواء بمجرد شعوره به داخل قلبه ، دون أن يستسلم له ، فالانسان الذى يخطئ بشكل متكرر ثم خلال ندمه يقوم بوضع معايير أخلاقية قاسية لنفسه يجعل نفسه عرضة لمشاعر تأنيب تذكره بأنه قد جعل الأشياء سهلة أمام نفسه بدرجة كبيرة . ان هذا الانسان لم يصل بعد الى جوهر الأخلاق أو الفضيلة : نكران الذات ، ذلك أن السلوك الأخلاقى فى الحياة يتمثل فى الاهتمام الانسانى الحقيقى أو الواقعى . ان هذا الانسان يذكرنا ببرابرة (أو همج) الهجرات الكبيرة الذين كانوا يرتكبون جرائم القتل ويكفرون عن جرائمهم بطرائقهم الخاصة ، حتى أصبح التكفير هو الأسلوب الفعلى لجعل القتل أمرا ممكنا ، لقد كان ايفان الرهيب يسلك نفس الطريقة تماما ، وفى واقع الأمر فإن مثل هذه المصالحة مع الفضيلة هى خاصية روسية مميزة حقا ، ولم تكن الحصيلة النهائية لعمليات الكفاح الأخلاقية لدى دستويفسكى أكثر عظمة من ذلك . فبعد أعنف نضال من أجل التوفيق ما بين المطالب الغريزية الخاصة بالفرد وبين دعاوى المجتمع ، حط دستويفسكى رحاله فى قلب الوضع القهقرى أو المنتكس الخاص بالخضوع لكل من السلطة الدنيوية الزائلة والسلطة الروحية أيضا ، أى الوقوع فى براثن التبجيل والاجلال للقيصر ولاله المسيحيين وكذلك لفكرة محدودة القيمة حول القومية الروسية ، وهو وضع يمكن أن يصل اليه الأشخاص أصحاب العقول المحدودة بمجهود أقل . هذه هى النقطة الضعيفة فى هذه الشخصية العظيمة .

لقد ضيع دستويفسكى فرصة أن يصبح معلما ومحررا للبشرية وجعل من نفسه واحدا من سجانيتها • ان مستقبل الحضارة الانسانية سيشعر بالامتنان القليل تجاهه • ويبدو أنه من المحتمل أنه كان محكوما عليه بهذا الفشل من خلال عصابه Neurasis الخاص • ان عظمة ذكائه وقوة حبه للانسانية كانا من الممكن أن يفتحا أمامه طريقا آخر ، مضادا ، للحياة •

ان النظر الى دستويفسكى باعتباره خاطئا أو مجرما لابد أن يستثير معارضة قوية ، هذه المعارضة يجب ألا تتكىء على ذلك التحديد المحافظ أو القديم للمجرمين • ان الدافع الواقعى لهذه المعارضة سيصبح الآن واضحا •

هناك سمتان جوهريتان لدى المجرم : الذاتية المفرطة والتوق الجامح للتدمير ، ومن الأشياء المألوفة أو المشتركة مع هاتين السمتين ، والتي تمثل شرطا ضروريا للتعبير عنها ، نجد غياب الحب ونقص التذوق أو التقبل العاطفى للموضوعات (الإنسانية) • ان المرء يمكنه أن يتذكر فى الحال أن كل ما هو عكس ذلك موجود لدى دستويفسكى فهناك حاجته الكبيرة للحب وكذلك قدرته الهائلة على الحب ، ويمكننا أن نلاحظ ذلك فى تلك المظاهر الدالة على العطف أو الشفقة البالغة والتي جعلته يحب وأن يساعد فى مواقف كان من حقه فيها أن يكره وأن ينتقم ، كما يظهر ذلك ، مثلا ، فى علاقاته مع زوجته الأولى ومع عشيقها • فاذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن نتساءل عن جدوى ذلك الاغراء الذى يدفعنا فى اتجاه وضع دستويفسكى بين المجرمين • وتكون الاجابة هى أن هذا ناتج عن اختيار دستويفسكى لمادته ، والتي تفردت من بين كل الشخصيات الفنية الأخرى بأن كانت عنيفة ، قاتلة ، متمركزة حول ذواتها ، وهذا يشير الى وجود نزعات ممائلة داخل دستويفسكى نفسه ، كذلك تأتى الاجابة من بعض الحقائق الخاصة فى حياته ، مثل ولعه بالقمار وكذلك اعترافه الممكن بقيامه بالاعتداء الجنسى على فتاة صغيرة (*) •

ان هذا التعارض يتم حله من خلال ادراكنا بأن غريزة التدمير شديدة القوة لدى دستويفسكى - والتي كان يمكن أن تجعل منه بسهولة مجرما فعليا - قد تم توجيهها أساسا فى حياته اليومية نحو شخص دستويفسكى

(*) يقول فرويد فى أحد هوامش دراسته هذه أن موضوع الاعتداء الجنسى على فتاة صغيرة يظهر عدة مرات فى كتابات دستويفسكى خاصة فى بعض كتاباته التى نشرت بعد وفاته مثل : « اعتراف ستافروجين » ، وكذلك « حياة خاطيء كبير » (المؤلف) •

نفسه (أى انها وجهت الى الداخل بدلا من توجيهها الى الخارج) ومن ثم وجدت هذه الغريزة تعبيرا لها فى شكل ماسوشية Masochism (*) واحساس بالذنب + رغم ذلك فقد ظلت شخصية دستويفسكى تحتفظ بسمات سادية (**) بدرجة كبيرة ، وقد كشفت هذه السمات عن نفسها فى مشاعره الزائدة بعدم الاستقرار ، وفى حبه للقلق والعذاب ، فى عدم تسامحه حتى تجاه الأشخاص الذين أحبوه ، كذلك تظهر هذه السمات أيضا فى تلك الطريقة التى يتعامل من خلالها - كمؤلف - مع قرائه . وهكذا فقد كان دستويفسكى ساديا تجاه الآخرين فى الأشياء الصغيرة ، بينما كان ساديا تجاه ذاته فى الأشياء الكبيرة ، ومن ثم كان ميله نحو الماسوشية ، أى أن يكون شخصا متواضعا رحيما معينا للآخرين أمرا محتملا .

لقد انتقينا ثلاثة عوامل من شخصية دستويفسكى المركبة ، أحدها كيميا ، أما العاملان الآخران فيتسمان بالكيفية : فهناك كثافة حياته الانفعالية غير العادية وهناك استعداد الغريزى الفطرى المرتكس perverse والذي جعله يتميز بطريقة حتمية بأن يكون ساديا - ماسوشيا أو مجرما . ثم هناك موهبته الفنية غير القابلة للتحليل .

هذا المركب أو التكوين يمكن أن يوجد بشكل جيد تماما دون عصاب، فهناك أفراد يتسمون بالماسوشية الكاملة دون أن يكونوا عصابيين . ومع ذلك فإن التوازن الخاص بالقوى بين مطالب دستويفسكى الغريزية وبين عوامل الكف المشبطة والمعارضة لها (اضافة الى اساليب الاعلاء المحتملة) قد يجعل من الضرورى تصنيف دستويفسكى تحت الفئة المسماة الشخصية الغريزية ، لكن الوضع هنا ينتابه الغموض والابهام من خلال الحضور المتزامن للعصاب ، هذا العصاب ، لم يكن أمرا حتميا خلال تلك الظروف السابقة التى تحدثنا عنها ، لكنه جلب معه ومهد الطريق لذلك التعقد الخصب الذى سيطر على الأنا لدى دستويفسكى .

ان العصاب هو أولا وقبل كل شيء علامة على أن الأنا قد فشلت فى الوصول الى التركيب والتكامل ، وعلى انها خلال محاولتها للوصول الى ذلك قد فقدت وحدتها بدرجة كبيرة . كيف يمكن اذن أن يكشف هذا العصاب عن نفسه ؟ لقد اعتبر دستويفسكى نفسه مصابا بصرع ونظر الآخرون له

(*) الماسوشية = الاستمتاع بتعذيب أو إيذاء الذات لنفسها من خلال قيام الآخرين بذلك .

(**) السادية = الاستمتاع بتعذيب وآلام الآخرين .

على أنه كذلك . وذلك من أجل تفسير النوبات الحادة التي كان يصاب بها والتي كان يصاحبها فقدان الوعي والتشنجات ثم الاكتئاب بعد ذلك .
والآن، أصبح من المحتمل بدرجة كبيرة أن هذا الموضوع المزعوم كان مجرد عرض للعصاب الذي كان موجودا لدى دستويفسكى ومن ثم يجب تصنيف هذه الحالة نتيجة لذلك على أنها صرع هستيري Hystero-epilepsy
أى باعتبارها هستيريا حادة ولسنا فى وضع البقن الثام من هذه النقطة
لسببين : الاول : هو أن المعلومات السابقة والمذكورة حول المرض والخاصة بحالة دستويفسكى المزعومة هى معلومات ناقصة وليست جديرة بالثقة ،
والسبب الثانى : هو أن فهمنا للحالات المرضية المصاحبة للنوبات ذات الشكل الصرعى مازال غير تام .

ولننظر الى النقطة الثانية أولا : فليس من الضرورى هنا أن نعيد انتاج الحالة المرضية الكلية للصرع حيث انها من الممكن - لو أنتجت - ألا تلقى ضوءا حاسما على هذه المشكلة ، لكن هذا الأمر يمكن ذكره أيضا على كل حال ، فالقديم مازال دليلا يؤخذ به كوحيدة كLINIYIKIYة ظاهرية (غير حقيقية) ، فهذا المرض الغريب يتسم بنوباته التشنجية غير المتوقعة التي تحدث دون تنبيه أو استفزاز واضح وكذلك تغييره للشخصية فى اتجاه القابلية للاستشارة والعدوانية ، وأيضا يقوم هذا المرض بالخفض المتتابع أو المتدرج لكل الملكات العقلية . لكن الخطوط المحيطة بهذه الصورة مازالت ناقصة تماما فى دقتها . فالنوبات التي تتسم بالضراوة الشديدة عنه ظهورها والتي يصاحبها عض اللسان وعدم التحكم فى البول ، والتي تستمر أيضا خلال الحالة الصرعية الخطرة بمخاطرها الخاصة المتمثلة فى الحاق الاصابات البالغة بالذات هذه النوبات ، يمكن مع ذلك ، أن تقل أو تختزل الى فترات قصيرة من الغياب عن الوعي ، أو نوبات الدوار أو الدوخة التي تمر بسرعة ، أو قد تحل محلها فترات زمنية قصيرة يقوم خلالها المريض بأشياء لا تتفق مع شخصيته ، كما لو كان قد وقع تحت تحكم لاشعوره .

هذه النوبات ، على عكس ما تقرره قاعدة هـ بطريقة لا نفهمها ، من خلال اللجوء فقط الى الأسباب العضوية ، قد تكون - هذه النوبات - رغم ذلك - راجعة فى ظهورها الأول الى سبب عقلى خالص تماما (الرعب ، مثلا) أو قد تنشأ فى مواقف أخرى كرد فعل لعمليات الاستشارة العقلية ، وأيا كان الضرر أو الخلل العقلى الحادث المميز للأغلبية العظمى من المرضى هنا ،

فإننا نجد حالة واحدة على الأقل (هي حالة هلمهولتز) (*) لم ينداخل فيها المرض مع الاتجاه العقلي الفائق . (والحالات الأخرى التي ذكر حولها نفس التأكيد إما أنها قابلة للتنفيذ أو قابلة للشكوك كما في حالة دستويفسكى نفسه) .

إن الأشخاص الذين يقعون ضحايا للصرع قد يعطون انطبعا بالتأخر العقلي وتوقف الارتقاء حيث إن هذا المرض غالبا ما تصاحبه بلاهة واضحة ومظاهر نقص كبيرة في المنح ، رغم أن هذا ليس مكونا ضروريا من مكونات الصورة الكلينيكية للمرض . لكن هذه النوبات ، بكل تبايناتها ، تحدث أيضا لدى الأفراد الذين يظهرون ارتقاء عقليا كاملا ، والذين تكون لديهم أيضا دلائل على حياة انفعالية متطرفة وغير متحكم فيها - كقاعدة - بطريقة تتسم بالكفاءة . ولا عجب في مثل هذه الظروف بأن نجد أنه من المستحيل أن نظل متمسكين بأن الصرع هو وحدة كلينيكية واحدة أو مفردة . إن التشابه الذي نجده ما بين الأعراض الظاهرة يبدو أنه هو الذي يستدعي نظرة وظيفية لهذه الأعراض ، إن الأمر هنا كما لو كان هناك ميكانيزم خاص بالتخفف الغريزي المرضي قد قام بالاستقرار بطريقة عضوية وبحيث يمكن استخدام هذه الطريقة في ظروف مختلفة تماما ، وفي الحالة الخاصة باضطرابات النشاط الدفاعي الراجعة إلى حالات تحلل الأنسجة أو حالات التسمم ، وكذلك في حالة وجود تحكم لا يتسم بالكفاءة في الامكانيات العقلية وفي الأوقات التي تنشط فيها الطاقة بطريقة واضحة في العقل ، تصل الأزمة إلى قيمتها فيما وراء هذه الثنائية يمكننا أن نلقى نظرة خاطفة على هوية الميكانيزم الأساسي الخاص بالتخفف الغريزي Instinctual discharge فلا يمكن أن يظل هذا الميكانيزم بعيدا عن العمليات الجنسية والتي هي في جوهرها ذات أصل سمي Toxic (أو تسمى) وقد وصف الأطباء الأوائل الجماع Coition باعتباره صرعا صغيرا ومن ثم تعرفوا في النشاط الجنسي على عمليات التخفف من الألم وعمليات التكيف الخاصة بالأسلوب الصرعي في التخفف من المنبهات المثيرة .

إن رد الفعل الصرعي The epileptic reaction - كما يمكننا أن نسمى هذا العنصر الشائع - يكون أيضا دون شك في متناول العضاب الذي يكون جوهره بدوره هو التخلص أو التخفف بواسطة وسائل جسمية من كميات الاستثارة التي لا يمكنه التعامل معها نفسيا . هكذا تصبح النوبة

(*) عالم الفسيولوجيا وعالم النفس الذي قام بدراسات هامة مبكرة على عدد من الوظائف النفسية (المؤلف) .

الصرعية عرضا للهستيريا ويتم تكييف هذه النوبة وتعديلها من خلال الهستيريا مثلما يحدث ذلك في حالة العملية الجنسية العادية الخاصة بالتخفف من الطاقة تماما *

من أجل هذا فإنه يبدو أنه من الأصوب أن نميز بين الصرع العضوي organic والصرع « الوجداني » Affective epilepsy والأهمية لهذا التمييز هي أن الشخص الذي يعاني من النوع الثاني يكون من النوع العصابي *

في النوع الأول تكون الحياة العقلية للشخص خاضعة لاضطراب غريب يأتي من خارج هذه الحياة نفسها ، أما في النوع الثاني فإن الاضطراب يكون تعبيرا عن حياة الشخص العقلية نفسها *

من المحتمل تماما أن صرع دستويفسكي كان من النوع الثاني ، وهذا لا يمكن اثباته مباشرة ، فلكن نعمل ذلك لابد أن نكون في موضع يمكننا من اقتحام الحالة الأولى التي ظهرت فيها هذه النوبات ثم التذبذبات التالية التي نجمت عنها في مسار حياة دستويفسكي العقلية ، ومن أجل هذا فإن ما نعرفه حول هذا الأمر هو النذر اليسير *

ان وصفنا للنوبات نفسها لا يخبرنا بشيء ، ومعلوماتنا حول العلاقات بين هذه النوبات وخبرات دستويفسكي الخاصة هي معلومات ناقصة ، بل ومتناقضة غالبا * ان الافتراض الأكثر احتمالا هو أن هذه النوبات تمتد بجذورها الى طفولته ، وأن هذه النوبات قد بدأت أولا من خلال أعراض بسيطة وأنه لم يتم طرح الافتراض الخاص بأن هذه النوبات هي نوبات صرعية الا بعد تلك الخبرة الخاصة التي أرهقت أعصاب دستويفسكي حد تحطيمها حين كان في عمر الثامنة عشرة ، ففي تلك الآونة قتل أبوه *

قد يكون من المناسب تماما بالنسبة لنقطتنا هذه لو استطعنا أن نقيم الدليل الثابت على أن هذه النوبات قد توقفت تماما خلال سنوات نفى دستويفسكي في سيبيريا ، لكن هناك تفسيرات أخرى تناقض هذا الدليل (*) *

(*) فالعديد من المصادر بما فيها دستويفسكي نفسه تؤكد على العكس من هذا بأن المرض كان مسلما بصحته أي بطبيعته الصرعية الأخيرة خلال سنوات النفي في سيبيريا فقط ويقول فرويد ان لسوء الحظ هناك مبررا لعدم الثقة في البيانات الخاصة بالسير الذاتية للعصابيين فالخبرة تظهر أن ذاكرتهم تقدم تزييفات من أجل اعاقه العلاقات السببية غير المقبولة ، ومع ذلك فهناك أدلة على أن احتجاز دستويفسكي في سجن سيبيريا قد قام بتغيير حالته المرضية بدرجة كبيرة * (المؤلف) *

ان تلك العلاقة الواضحة ما بين مقتل الأب في الأخوة كارامازوف وبين المصير الذي لاقاه والد دستوييفسكى نفسه قد اجتذبت إنتباه العديد من كتبوها سيرة دستوييفسكى الذاتية * وأدت بهم الى الإشارة الى « مدرسة معنية في علم النفس » * ومن جهة نظر التحليل النفسى (انها هي المقصودة بذلك) فأننا نشعر بالاغراء لأن نرى في هذه الواقعة أكثر الصدمات قسوة وأن ننظر الى رد فعل دستوييفسكى تجاهها باعتبارها نقطة التحول في تاريخه العصابى * لكننى اذا أخذت على عاتقى مهمة تأسيس هذه الوجهة من النظر بواسطة التحليل النفسى ، فأننى لابد وأن أغامر بالمخاطرة لأئننى لن أكون واضحاً بالنسبة لكل هؤلاء القراء الذين لا تتوفر لديهم الألفة الكافية بلغة ونظريات التحليل النفسى * ان لدينا نقطة بداية واحدة مؤكدة ، اننا نعرف معنى النوبات الأولى التى عانى منها دستوييفسكى فى سنواته المبكرة ، قبل حدوث « الصراع » بفترة طويلة ، هذه النوبات كان لها دلالة الموت : لقد كانت مطبوعة بالخوف من الموت وتكوّنت من حالات من السبات والخدر ، لقد هاجمه هذا المرض بينما كان مازال صبياً ، فى شكل وجوم أو انقباض مفاجئ عام بلا مبررات ، وهو شعور ، كما أخبرنا صديقه « سولوفيف » بعد ذلك ، كان يجعله يشعر كما لو كان على وشك الموت فى الحال * ثم يعقب ذلك فى حقيقة الأمر حالة شبيهة تماماً بالموت الحقيقى : ويخبرنا أخوه أندريه ، أنه حتى عندما كان فيودور (*) صغيراً تماماً كان معتاداً على أن يترك حوله بعض الملاحظات Notes الصغيرة قبل أن يذهب الى النوم وكان يقول انه خائف من الوقوع فى براثن النوم الشبيه بالموت خلال الليل ومن ثم كان يتوسل ويلج على ضرورة تأجيل جنازته لمدة خمسة أيام .

اننا نعرف المعنى والقصد من وراء مثل هذه النوبات الشبيهة بالموت، انها تشير الى توحيد ما (أو تماهى identification) مع شخص ميت ، اما مع شخص ما قد مات فعلاً أو مع شخص ما زال حياً ، ولكن الشخص المصاب بهذه الحالة يتمنى موته فعلاً ، والحالة الأخيرة هى الأكثر دلالة ، ان النوبة حينئذ يمكن أن تكون لها قيمة العقاب .

لقد رغب امرؤ أن يكون شخص آخر ميتاً والآن يصبح هذا المرء هو الشخص الآخر ويميت نفسه * عند هذه النقطة تستحضر لنا النظرية التحليلية النفسية ذلك التأكيد بأنه بالنسبة لصبي صغير فإن هذا الشخص الآخر يكون هو أبوه نفسه وتكون هذه النوبة (التى تسمى هنا نوبة

(*) الاسم الاول لدستوييفسكى * (المؤلف)

هستيرية) هكذا نوعا من العقاب الذاتى نتيجة مشاعر الرغبة فى الموت التى وجهت ضد أب مكروه .

ان جريمة قتل الاب parricide ، وفقا لوجهة من النظر معروفة جيدا ، هى الجريمة الأساسية والأولية للانسانية ككل وكذلك للفرد الانسانى (انظر كتابى الطوطم والتابو ، عام ١٩١٢ - ١٩١٣) أنها فى أية حالة هى المصدر الرئيسى للشعور بالذنب ، رغم أننا لا نعرف ما اذا كانت هى المصدر الوحيد أم لا : ولم تستطع البحوث حتى الآن أن تكون قادرة على الوصول بطريقة يقينية الى تحديد المصدر أو الأصل العقلى للشعور بالذنب وللحاجة الى التكفير عن الذنوب ، لكن ليس من الضرورى بالنسبة له أن يكون له مصدر وحيد .

ان الموقف السيكولوجى هنا مركب ويحتاج الى مزيد من التوضيح .

ان علاقة الصبى ، أى صبى بأبيه هى كما قلنا علاقة متناقضة وجدانيا Ambivalent ، فبالإضافة الى الكراهية التى تبحث عن التخلص من الأب باعتباره منافسا ، هناك دلائل مألوفة واضحة على أن مشاعر الرقة والحب الموجهة نحو الأب تكون موجودة أيضا ، وهذان الاتجاهان العقليان يندمجان معا لينتجا عملية التوحيد أو التماهى مع الأب ، ان الولد يريد أن يكون فى موضع أبيه لأنه معجب به ويريد أن يصبح مثله ، كما أنه يريد أيضا أن يبعده عن الطريق . هذا الارتقاء الكلى يجلب معه الآن عقبة كئودا . ففى لحظة ما يصل الطفل الى الفهم بأن أية محاولة لابتعاد أبيه عن طريقه باعتباره غريبا له ستتم معاقبتها من خلال الخصاء . وهكذا فان دستويفسكى ونتيجة لخوفه من الخصاء واهتمامه بالمحافظة على ذكورته ، قد ألق عن رغبته فى أن يمتلك أمه ويتخلص من أبيه . وبقدر ما تظل هذه الرغبة موجودة فى اللاشعور بقدر ما تشكل الأساس القوى للاحساس بالذنب ، ونحن نعتقد أن ما تم وصفه الآن هو مجرد عمليات طبيعية ، انه القدر الطبيعى المسمى « عقدة أوديب » ومع ذلك فان هذا القدر العادى أو الطبيعى يتطلب أيضا توضيحا أكثر أهمية .

ان تعقدا أكثر من ذلك يظهر عندما يرتقى ذلك العامل التكوينى الجسمى المسمى بالثنائية الجنسية Bisexuality بدرجة قوية نسبيا لدى طفل ما . من ثم فانه تحت تأثير التهديد الذى تتعرض له ذكورة الولد من خلال الخصاء فان ميله لأن يفترق فى اتجاه الأنوثة يصبح أقوى ، انه يضع نفسه بدلا من ذلك فى موضع أمه ويضع على عاتقه القيام بدورها فى حب أبيه . لكن الخوف من الخصاء يجعل هذا الحل مستحيلا تماما .

ويفهم الطفل أنه يمكن أن يقع تحت طائلة الخصاء اذا أراد أن يحبه

والله كامرأة • وهكذا فان كلا الدافعين ، أى الخوف من الأب ، والوقوع فى حبه ، يتم كبتهما •

هناك تمييز سيكولوجى خاص تتضمنه حقيقة أن كراهية الأب يمكن أن يتم الاقلاع عنها نتيجة الخوف من خطر « خارجى » (الخصاء) أما الوقوع فى حب الأب فيتم النظر اليه باعتباره خطرا غريزيا ، رغم أنه يرجع - هذا الخطر الغريزى - الى نفس مصدر الخطر الخارجى •

ان ما يجعل كراهية الأب مرفوضة هو الخوف من الأب ، فالخصاء مرعب سواء كعقاب أو كتمن للحب ، ومن بين العاملين اللذين يقومان بكبت الكراهية للأب ، نجه أن العامل الأول ، أى الخوف المباشر من العقاب والخصاء هو ما يمكن أن نطلق عليه اسم العامل الطبيعى (أو العادى) ويبدو أن شدته المرضية تحدث فقط نتيجة اضافة العامل الثانى ، أى الخوف من الاتجاه الأنثوى اليه • وهكذا فان الاستعداد الثنائى الجنى القطرى القوى يصبح واحدا من الشروط السابقة أو المدعمة للعصاب ، ويفترض وجود مثل هذا الاستعداد بالتأكيد لدى دستويفسكى وقد كشف هذا الاستعداد عن نفسه بشكل حى أو قابل للنمو (كجنسية مثلية كامنة) فى الدور الكبير الذى لعبته صداقات الذكور فى حياة دستويفسكى ، وفى تجاهه المترفق الرقيق بدرجة غريبة نحو منافسيه فى الحب ، وكذلك فى فهمه الملحوظ للمواقف القابلة للتوضيح فقط من خلال جنسية مثلية مكبوتة ، كما تظهر ذلك نماذج عديدة من رواياته •

أعترف ، فأنا لا أستطيع تغيير الحقائق ، اذا كان هذا العرض لاتجاهات الكراهية والحب نحو الأب وتحولات هذه الاتجاهات تحت تأثير الخوف من الخصاء ، يبدو للقراء الذين لا تتوفر لهم ألفة كافية بالتحليل النفسى ، بغضا من الناحية الأخلاقية ولا يصدق ، أننى يجب أن أتوقع - أنا نفسى - أن عقدة الخصاء هى تماما ما يمكن أن يرتبط بتلك الحالة العامة من الانكار أو الرفض ، لكننى يجب أن أصر على أن الخبرة التحليلية النفسية قد وضعت هذه الأمور بشكل خاص فيما وراء مستوى الشك كما أنها - هذه الخبرة - قد علمتنا أن نتعرف فى مثل هذه الأمور على مفتاح كل عصاب •

هذا المفتاح ، اذن ، هو ما يجب أن نطبقه على هذا الصرع المزعوم لدى مؤلفنا ، كم هى غريبة بالنسبة لشعورنا تلك الأشياء التى تتحكم فى حياتنا العقلية اللاشعورية • لكن ما قلناه لا يستنفد ، بأى حال من الأحوال ، تلك النتائج المترتبة على كبت مشاعر الكراهية نحو الأب والتى تحدث

خلال عقدة أوديب • وليس هناك شيء جديد يمكن أن يضاف : أى أنه بالرغم من كل شيء فإن عملية التماهى مع الأب دائماً ما تتبوأ مكاناً دائماً لنفسه داخل الأنا • ويتم استقبالها داخل الأنا • ولكنها ترسخ أقدامها هناك باعتبارها قوة مستقلة فى مقابل كل ما تشتمل عليه الأنا غيرها من قوى ، ثم اننا بعد ذلك نعطي لها اسم الأنا الأعلى Super Ego وننسب اليها ، باعتبارها الممثل القمعى لتأثير الأب ، معظم الوظائف الهامة • فإذا كان الأب صارماً ، عنيفاً ، قاسياً ، فإن الأنا الأعلى تأخذ على عاتقها القيام بهذه الخصال بدلاً منه ، ومن ثم فإنه خلال علاقة الأنا الأعلى بالأنا ، تتاح الفرصة لإعادة تأكيد السلبية التى يفترض أنه قد تم كبثها • لقد أصبح « الأنا الأعلى » سادياً وأصبح « الأنا » ماسوشياً ، أى فى السطح السلبى من الطريق الأنثوى وتظهر حاجة كبيرة للعقاب لدى الأنا وترتقى ، هذه الحاجة تعبر عن نفسها فى جانب منها باعتبارها ضحية للقدر ، أما فى جانبها الآخر فإنها تشعر بالرضا فى تلك المعاملة القاسية التى يعاملها بها الأنا (أى فى ذلك الشعور بالذنب) • إن كل عقاب هو فى النهاية نوع من الخصاء ، وهو أيضاً ، فى حده ذاته ، تحقيق للاتجاه السلبى القديم نحو الأب • وحتى القدر ، فى المحاولة الأخيرة ، هو فقط عبارة عن إسقاط projection متأخر للأب •

إن العمليات السوية لتكوين الضمير يجب أن تكون مماثلة للعمليات المرضية التى وصفناها هنا • لكننا لم ننجح بعد فى تثبيت خط الحدود ما بين هذين النوعين من العمليات •

وسوف نلاحظ هنا أن التشابه الكبير بين هذين النوعين من العمليات فى حصيلتهما النهائية ، إنما يرجع فى المقام الأول إلى ذلك المكون السلبى الخاص بالأنثوية المكبوتة •

وإضافة إلى ذلك فإنه من المهم أن نعرف ذلك العامل الخاص غير المقصود الذى يتعلق بما إذا كان الأب الذى يكون خائفاً فى كل حالة ، قد كان أيضاً ، وبصفة خاصة ، عنيفاً فى الواقع •

وقد كان هذا حقيقياً فى حالة دستويفسكى ، ويمكننا أن نقف على أثر حقيقة ذلك الشعور غير العادى بالذنب وكذلك مسلكه الماسوشى فى الحياة ونتيجة لمكون أنثوى قوى خاص •

وهكذا فإن الصيغة بالنسبة لدستويفسكى هى كما يلي : شخص لديه استعداد ثنائى الجنسية فطرى وقوى بشكل خاص ، وهو يمكنه أن يدافع عن نفسه بشدة خاصة الاعتماد بشكل خاص على والد قاس • هذه

الخاصية المميزة الخاصة بالثنائية الجنسية قد جاءت اضافة الى المكونات الخاصة بطبيعته والتي تعرفنا عليها فيما سبق .

وهكذا يمكننا أن نفهم أعراض النوبات الشبيهة بالموت لديه باعتبارها تماهيا (أو توحيدا) مع الأب تقوم به الأنا ، هذا التماهي تسمح به الأنا الأعلى كنوع من العقاب للأنا . « انك تريد أن تقتل أباك من أجل أن تصبح أنت بدلا منه ، والآن أنت أبوك ، لكنه أب ميت هذا هو الميكانيزم المنظم للأعراض الهستيرية . واطافة الى ذلك الآن يقوم أبوك بقتلك » وبالنسبة للأنا فان عرض الموت يكوم بمثابة الاشباع التهويمي للرغبة الذكورية وفي نفس الوقت هو اشباع ماسوشي ، وبالنسبة للأنا الأعلى هو اشباع عقابي . أي اشباع سادي . وكلا الاثنين ، أي الأنا والأنا الأعلى ، يقومان بتنفيذ دور الأب .

نوجز فنقول ان العلاقة بين الذات وموضوع الأب ، أثناء احتفاظها بمحتواها تتحول الى علاقة بين الأنا والأنا الأعلى ، وهو وضع جديد في مرحلة جديدة . وردود الفعل الطفلية الخاصة بعقدة أوديب الشبيهة بهذه يمكن أن تختفي اذا لم يتم الواقع بتغذيتها بشكل متزايد . لكن شخصية الوالد تظل هي نفسها ، أو بدلا من ذلك ، أو قد تتدهور عبر السنين ، ومن ثم فقد تم الاحتفاظ بكراهية دستويفسكي لأبيه وكذلك استمرت رغبته الموت الموجهة ضد هذا الوالد الشرير ، وحيث ان التحقيق الواقعي لمثل هذه الرغبات المكبوتة يكون محفوفًا بالمخاطر فان الخيال (أو التهويم) يصبح هو الواقع ومن ثم يتم تعزيز أو تدعيم كل العمليات الدفاعية .

من المفترض أن المدعى به الآن أن نوبات دستويفسكي كانت من النوع الصرعى ، ومع ذلك تظل هذه النوبات دون شك تشير الى توحيده مع أبيه باعتباره نوعا ما من العقاب ، لكن هذه النوبات قد أصبحت مرعبة ، مثل موت أبيه الذي كان موتا مرعبا أيضا . ما هو المحتوى الزائد الذي امتصته هذه النوبات وبصفة خاصة ، ما هو المحتوى الجنسي ، هذا أمر يروغ بعيدا عن التخمين .

هناك شيء واحد يمكن ملاحظته : فخلال الحالة المميزة السابقة على نوبة الصرع تكون هناك لحظة من البهجة أو السعادة الصافية aura يشعر بها المريض ويمكن أن تكون هذه الحالة بمثابة التسجيل الجيد لمشاعر الفوز والتحرر التي قد نشعر بها عند سماعنا لأخبار الموت ، هذه الحالة يعقبها مباشرة في هذا الصرع أشد أنواع العقاب قسوة . لقد قدر علينا أن نمر عبر هذه السلسلة من الزهو والفجعة ، من الفرح الاحتفالي

والحزن ، نجد ذلك لدى الاخوة فى القبائل البدائية عندما كانوا يقتلون
أباهم ، ونجده يتكرر أيضا فى احتفالات التهام الطوتم .

إذا ثبت أن دستويفسكى كان متحررا من ربة نوبات الصرع خلال
نفه فى سيبيريا ، فان هذا سيكون فقط بمثابة التأكيد لوجهة النظر
القائلة ان هذه النوبات كانت بمثابة العقاب له ز انه لم يعد محتاجا لهذه
النوبات عندما كان يعاقب بطريقة أخرى . لكن هذا لا يمكن اثباته . كما
لا يمكننا أن نعتبر هذه الضرورة العقابية التى حلت أساسا بعدة
دستويفسكى العقلية وخبرته كافية لتفسير حقيقة أن دستويفسكى قد
اجتاز كل هذه السنوات من البؤس والاذلال سليما لم يمس . لقد كان
اتهام دستويفسكى والحكم عليه كسجين سياسى اتهاما غير عادل ، ولا بد
أنه كان يعرف هذا ، ومع ذلك فقد قبل هذا العقاب الذى لا يستحقه على يد
الأب الصغير ، القيصر ، كبديل للعقاب الذى كان يستحقه لخطيئته تجاه
أبيه الحقيقى . وبدلا من أن يعاقب نفسه ، فقد ترك نفسه يعاقب من خلال
وكيل أبيه أو نائبه فى هذه العملية . وهنا نجد لمحة سريعة من التبرير
السيكولوجى لأنماط العقاب التى ينزلها المجتمع بالناس ، فحقيقة الأمر
أن هناك مجموعات كبيرة من المجرمين يرغبون فى أن يعاقبوا . ان الأنا
الأعلى لديهم يتطلب ذلك ومن ثم يوفر على نفسه ضرورة أن يقوم هو نفسه
بمهمة انزال العقاب بأصحابه .

ان كل انسان على ألفة بالتحويلات المركبة للمعنى والتى تحدث من
خلال الأعراض الهستيرية سيفهم أنه لا توجد محاولة يمكن القيام بها هنا
لتعقب معنى نوبات دستويفسكى الا هذه المحاولة المطروحة (*) ويكفى هنا
أن نفترض أن المعنى الأصلى قد ظل ثابتا لا يتغير خلف كل هذه الاضافات
المتزايدة .

ويمكننا أن نقول ونحن على ثقة بأن دستويفسكى لم يتحرر أبدا من
مشاعر الذنب الناجمة عن رغبته فى قتل أبيه . وأن هذه المشاعر قد قامت
أيضا بتحديد اتجاهه فى مجالين آخرين كانت فيهما العلاقة بالوالد
واضحة ، هى سلطة الدولة وأيضا اتجاهه نحو الاعتقاد فى الله .

(*) ان أفضل تفسير لمعنى ومحتوى هذه النوبات قدمه دستويفسكى نفسه ، عندما
أخبره صديقه « ستراكوف » أن قابليته للاستشارة وشعوره بالاكثاب عقب كل نوبة صرعية
كانا يرجعان الى حقيقة أنه كان يبدو لنفسه فعلا على أنه مجرم وأنه لم يستطع أن يتخلص
من الشعور بأنه يحمل عبئا ثقيلا من الشعور بالذنب على كامله ، وأنه قد ارتكب بعض
الآثام الكبيرة التى أصابته بالغم الشديد ، وفى مثل هذه الاتهامات الموجهة الى الذات فان
التحليل النفسى يرى علامات على المعرفة بالواقع النفسى ومحاولات لجعل الذنب المجهول
معروفا أمام الضمير (فرويد) .

وبالنسبة للاتجاه الأول فقد انتهى به الأمر الى الخضوع التام لأبيه الصغير ، القيصر ، هذا الذي عندما قام مرة في الواقع بتمثيل كوميديا القتل والتي قامت نوباته غالبا بتمثيلها قبل ذلك خلال تلك «المسرحية» ، وصل الندم الى حده الأعلى .

في المجال الديني كانت هناك حرية أكبر أمام دستويفسكى ، فوفقا لما تذكره التقارير الموثوق بها حوله فانه قد تذبذب حتى اللحظة الأخيرة من حياته ما بين الايمان والالحاد . وقد كان من المستحيل بالنسبة لعقله الكبير أن يتجاهل أية صعوبات عقلية يقود اليها الايمان . ومن خلال تلخيصه الفردى للارتقاء الذي حدث في تاريخ العالم كان لدى دستويفسكى الأمل في أن يجد طريقا للخلاص وأن يجد تحررا من الذنب الموجود في التصور المسيحي ، وأيضا أن يستخدم مظاهر معاناته كدعاوى يلعب من خلالها دورا شبيها بدور المسيح . وحيث ان الأمر في كليته كان أن دستويفسكى لم يستطع الوصول الى الحرية وأنه أصبح رجعيا ، فان هذا كان بسبب الذنب البنوي (*) Filial guilt والذي يكون موجودا لدى الجنس الانساني بشكل عام وهو الشعور الذي يقوم عليه الاحساس الديني . وقد وصل هذا الشعور لدى دستويفسكى الى شدة فردية فائقة وظل من الصعب قهره حتى بالنسبة لذكاء دستويفسكى الكبير .

عندما نكتب هذا فاننا نترك أنفسنا عرضة للاتهام بأننا قد تخلينا عن موضوعية التحليل وأننا قد أخضعنا دستويفسكى لأحكام يمكن تبريرها من خلال وجهة نظر متحيزة ذات رؤية خاصة للحياة فقط .

فالشخص المحافظ يأخذ سميت (المفتش الكبير) ويحكم على دستويفسكى بطريقة مختلفة والاعتراض دقيق ، ويمكن للمرء فقط أن يقول من أجل التبرير الجزئي أو التلطيف من حدة هذه المسألة ان قرار دستويفسكى كان له نفس المظهر الخاص الذي حدده الكف العقلي الذي يرجع الى العصاب .

يمكننا بالكاد أن نرجع الى المصادفة أن ثلاثة من الأعمال الأدبية الخالدة في كل عصور وهي « الملك أوديب » لسوفوكليس و « هاملت » لشكسبير « الاخوة كارامازوف » لدستويفسكى ، كلها يجب أن تتعامل مع نفس الموضوع ، قتل الأب . وفي كل هذه الأعمال ظل الدافع للقيام بعمل معين أو مائة معينة وكذلك المنافسة الجنسية حول امرأة موجودا بطريقة جلية .

(*) نسبة الى مشاعر البنوة وطاعة الوالدين (المؤلف) .

ان أكثر هذه التمثيلات مباشرة ووضوحا نجده دون شك في الدراما المستقاة من الأسطورة اليونانية ، ففي هذه الدراما يظل البطل هو نفسه الذى يقوم بارتكاب الجريمة . لكن المعالجة الشعرية تكون مستحيلة دون التخفيف والتفنع (أو التنكر) ، والتصريح المباشر بالنية المبيتة على قتل الأب ، كما نصل اليه من خلال التحليل ، يبدو غير محتمل دون تمهيد تحليلي ، وبينما تحتفظ الدراما اليونانية بالجريمة ، فانها تقدم أيضا النغمة الخافتة التي لاغنى عنها بشكل سائد من خلال اسقاط الدوافع اللاشعورية للبطل على الواقع فى شكل الخضوع للقدر الذى يكون غريبا بالنسبة له . ويقوم البطل بالمآثر دون قصد ويظل يبدو متحررا ظاهريا من نفوذ المرأة ، وهذا العنصر الأخير يوضع فى الاعتبار ، على كل حال ، فى الظروف التي يتمكن فيها البطل من الوصول الى امتلاك الملكة الأم بعد أن يقوم بتكرار مآثره أو أعماله الكبيرة فى مواجهة الوحش الذى يرمز للأب . وبعد أن يتكشف بالذنب ويصبح شعوريا لا يقوم البطل بأية محاولة لتبرئة نفسه من خلال اللجوء الى التذرع المصطنع بالخضوع للقدر . ويتم الاعتراف بجريمة البطل ويتم عقابه كما لو كانت جريمة كاملة وواعية ، ويبدو لنا هذا الأمر لو كان بمثابة الظلم بالنسبة لعقلنا ، لكنه يبدو أيضا من الناحية السيكلوجية صحيحا تماما . فى المسرحية الانجليزية يكون العرض أقل مباشرة أكثر من ذلك ، فالبطل لم يرتكب الجريمة بنفسه ، لقد نفذها شخص آخر ، فبالنسبة له لا تعد الجريمة جريمة قتل للأب ، ولذلك لا يكون الدافع المحرم الخاص بالتنافس الجنسى حول امرأة فى حاجة للتفنع وأكثر من ذلك فاننا نرى عقدة أوديب لدى البطل ، كما كانت ، فى ضوء معكوس ، من خلال معرفة آثار جريمة الآخرين عليه . لقد كان عليه أن يشار ممن ارتكبوا الجريمة ، لكنه وجد نفسه ، بطريقة غريبة تماما ، عاجزا عن أن يقوم بذلك . ونحن نعرف أن احساسه بالذنب هو الذى قام بشل حركته ، ولكن حدثت عملية ابدال للشعور بالذنب وحل محله ادراك العجز عن القيام بالمهمة المطلوبة منه . وهناك علامات على أن البطل كان يشعر بهذا الذنب على أنه ذنب يفوق قدرة الفرد وأن احتقاره للآخرين لم يكن أقل من احتقاره لنفسه « استخدم كل انسان بعد أبوته ، ومن يمكن أن يخلو من ضرب الشياطين ؟ » تذهب الرواية الروسية خطوة اضافية فى نفس الاتجاه . فجريمة القتل يرتكبها شخص آخر كذلك ، وهذا الشخص الآخر ، على كل حال ، تكون علاقته بالرجل المقتول هى نفس علاقة البنوة التي تربط البطل بهذا الرجل المقتول أيضا .

هناك نجد أن « ديمتري » ، فى قضية الشخص الآخر هذه ، يكون دافعه الخاص بالتنافس الجنسى موجودا بطريقة واضحة ، أنه أخ للبطل ، ومن الحقائق الجديرة بالملاحظة أن دستويفسكى قد قام أولا بعملية نسب

مرضه الخاص ، أى ذلك الصرع المزعوم ، الى « ديمترى » ، كما لو كان يريد الاعتراف بأن الجانب الصرعى ، العصابى بداخله عبارة عن جريمة قتل الأب . ثم ، ثانيا ، خلال الكلام الخاص بالدفاع أثناء المحاكمة هناك تهكم شهير فى علم النفس فحواه أن علم النفس هو « سكين ذات حدين » وهى قطعة فريدة من التقنع ، لأنه يكون فقط علينا أن نعكسها كى نكتشف المعنى العميق لرؤية دستويفسكى للأشياء . انه ليس علم النفس الذى يستحق التهكم ، لكنها الاجراءات الخاصة بالتحريى أو التحقيق القضائى . ان اللامبالاه هى فقط التى ارتكبت الجريمة . ان علم النفس يهتم فقط بمعرفة من الذى كانت لديه الرغبة فى القيام بها انفصاليا ، وأيضا من قام بالترحيب بها عندما نفذت فعلا .

من أجل هذا فان كل الاخوة : الشهبوانى المنذفع ، والكلبى (*) المتشكك ، والمجرم الصرعى ، كلهم — ماعدا شخص اليوشا النقيض لهم — مخططون بدرجات متساوية . فى « الأخوة كارامازوف » هناك مشهد كاشف بشكل خاص ، فخلال حديثه مع ديمترى يعرف الأب زوسىما أن ديمترى قد قام بالتخطيط لجريمة قتل الأب ، ثم ينحنى راكعا على قدميه ، ومن المستحيل أن يكون هذا من أجل التعبير عن الإعجاب . انه يجب أن يعنى أن هذا الرجل التقى يقوم برفض غواية الاحتقار أو المقت لهذا القاتل ومن أجل هذا السبب فانه يقوم باذلال نفسه أمامه . ان تعاطف دستويفسكى مع المجرم ، هو فى حقيقة الأمر ، بلا حدود ، ان هذا التعاطف يذهب الى ماوراء حدود الشفقة التى تكون من حظ الانسان البائس أو التعيس ، وهو يذكرنا بتلك « الرهبة المقدسة » التى كان ينظر بها الى المرضى الصرعيين والى المصابين بحالة جنون القمر (**) Lunatics فى الماضى ، ان المجرم فى نظره هو غالبا بمثابة المخلص الذى يحمل على عاتقه الذنب كله الذى يجب أن يحمله الآخرون أيضا فلم تعد هناك أية حاجة لدى أى شخص كى يقتل ، حيث انه « هو » قد قام فعلا بالقتل ، وأئنا يجب أن نشعر بالامتنان له ، فبدونه ، كان يمكن أن يكون المرء مضطرا للقتل . هذه ليست عاطفة الشفقة الرحيمة ، انها تماه أو توحد على أساس دوافع القتل المتماثلة ، وهى فى واقع الأمر نرجسية — قد تم ابدالها بدرجة طفيفة (عندما نقول هذا ، فنحن لا ندحض القيمة الأخلاقية لهذا النوع من الشفقة الى العطف) .

(*) الكلبى Cynic هو الشخص المؤمن بأن السلوك الانسانى تسيطر عليه المصالح الذاتية وحدها وهو يعبر عن موقفه عادة بالسخرية والتهكم . (المؤلف) .

(**) حالات الهياج والعنف التى تصيب بعض الناس عندما نكتمل استدارة القمر . (المؤلف) .

ربما كان هذا بشكل عام تماما هو الميكانزم الخاص بالتعاطف الممتزج بالشفقة مع الآخرين ، وهو ميكانزم يمكن تمييزه بسهولة خاصة في هذه الحالة المتطرفة لدى روائي يتحرر من الذنب . فمما لاشك فيه هو أن هذا التعاطف من خلال التماهي كان عاملا حاسما في تحديد اختيار دستوففسكى لمادته ، لقد تعامل أولا مع المجرم العادي (الذي تكون دوافعه ذاتية) ومع المجرم السياسي والديني ، ولم يعد الى الجريمة الأصلية أو الأولية ، وهي جريمة قتل الأب ، الا في نهاية حياته ، ومن ثم فقد استخدمها في عمل فني ، كى يدلى باعترافه . ان نشر أوراق ووثائق دستوففسكى بعد وفاته وكذلك مذكرات زوجته قد قامت بالقاء ضوء ساطع على فترة واحدة من حياته ، أى تلك الفترة التى عاشها في المانيا ، حين تسلط عليه هوس القمار . هذا الهوس لا يمكن أن نعتبره الا نوبة - لا يمكن الخطأ بشأنها - خاصة بحالة انفعالية مرضية . وقد توفرت تبريرات كافية لهذا السلوك الملحوظ والسيئ ، وكما يحدث غالبا لدى العصاةيين ، فان احساس دستوففسكى بالذنب قد أخذ شكلا ملموسا تمثل في أن يزرع تحت وطأة الديون المتراكمة ، ومن ثم أصبح قادرا على أن يحتمى خلف ذريعة أنه كان يحاول من خلال مكاسبه على الموائد أن يجعل الأمر محتملا بالنسبة له حتى يتمكن من العودة الى روسيا دون أن يقبض دائنوه عليه . ولكن هذا لم يكن الا ذريعة ، وقد توفر لدستوففسكى التوقد الذهني الكافي الذى جعله يعرف الحقيقة ويعرف بها بأمانة كافية ، لقد عرف أن الشيء الرئيسى كان هو المقامرة من أجل المقامرة ذاتها (Le Jeu pour Le Jeu) ويظهر لنا هذا كل تفاصيل مسلكه الاندفاعى اللاعقلانى هذا ، كما يظهر لنا شيئا آخر أكثر منه . فلم يهدأ دستوففسكى حتى فقد كل شيء ، فبالنسبة له كانت المقامرة أسلوبا لعقاب الذات كذلك . وقد وعد دستوففسكى زوجته مرة بعد أخرى وأعطاهما كلمة شرف ألا يعود الى اللعب مرة أخرى ، أو ألا يعود الى اللعب مرة أخرى فى يوم معين ، لكنه كان دائما ، كما تقول ، يحنث بقسمه ولا يفي بوعوده . وعندما وصلت به خسائره ووصلت بزواجه معه الى حد الحاجة الواضحة فانه كان يشتق الشعور بالاشباع من هذه الحالة . لقد كان يستطيع حينئذ أن يوبخ نفسه ويقوم باذلالها أمام زوجته ويطلب منها أن تحتقره وأن تشعر بالأسف لأنها تزوجت من هذا الخاطيء العجوز ، ثم عندما يتخفف من خلال ذلك من هذا العبء الذى يثقل ضميره ، فان العملية كلها كانت تبدأ ثانية فى الأيام التالية ، وقد عودت زوجته الصغيرة نفسها على هذه الدورة وذلك لأنها لاحظت أنها الشيء الوحيد الذى يمكن أن يقدم أملا حقيقيا فى التحرر من هذه العبودية ، أى عندما يفقدان كل شيء ويقومان برهن آخر ممتلكاتهما . وبطبيعة الحال لم تفهم هذه الزوجة العلاقة . فعندما كان يتم اشباع شعوره بالذنب من خلال عمليات العقاب

التي يوقعها بنفسه ، فان تأثير الكف على عمله يصبح أقل قسوة ، ومن ثم يسمح لنفسه بأن يخطو خطوات قليلة على مدرج النجاح .

ما هو الجانب الخاص من طفولة المقامر المطمورة منذ زمن بعيد الذي يشق طريقه نحو التكرار في ذلك القهار الدافع نحو اللعب ؟

ان الاجابة قد يمكن أن نكتشفها حلسا دون صعوبة من خلال قصة كتبها واحد من كتابنا الشباب (*) هو ستيفان زفايج S. Zweig الذي قام بالمناسبة بدراسة عن دستويفسكي نفسه عام ١٩٢٠ وقد ضمن زفايج مجموعته القصصية التي كانت بعنوان « اختلاط المشاعر » Confusion of feelings قصة بعنوان « أربع وعشرون ساعة في حياة امرأة » وهذه القطعة الفنية الرائعة يبدو ظاهريا أنها كتبت فقط من أجل اظهار مدى عجز المخلوق المسمى بالمرأة عن تحمل المسئولية وأيضا من أجل اظهار ذلك التطرف الذي يمكن أن تقودها اليه خبرة غير متوقعة ومثيرة للدهشة والغرابة بالنسبة لها شخصيا . لكن القصة تخبرنا بأشياء أكثر من ذلك . فاذا قمنا باخضاعها للتأويل التحليلي فانه يمكننا أن نكتشف أنها تمثل (دون أية نية خاصة للدفاع عن المعتقدات المسيحية) شيئا مختلفا تماما ، شيئا انسانيا عاما ، أو بالأحرى شيئا ذكوريا . ومثل هذا التأويل بالغ الوضوح لدرجة أنه لا يمكن مقاومته أو التغلب عليه .

من بين الخصائص المميزة لطبيعة الابداع الفني أن المؤلف ، الذي هو صديق شخصي لي ، قد أكد لي ، عندما سألته ، أن التأويل الذي قدمته له كان غريبا تماما بالنسبة لعرفته ولقصده أيضا ، هذا رغم أن بعض التفاصيل المنسوجة داخل القصة يبدو أنها صممت كي تعطى الماعنا هاديا clue يقود الى السر المخبوء .

في هذه القصة تحكي امرأة من الطبقة الراقية للمؤلف خبرة مرت بها منذ أكثر من عشرين عاما ، كانت هذه المرأة قد تزلت حين كانت مازالت صغيرة وكانت أيضا أما لولدين لم يعودا الآن يحتاجان اليها . وبينما كانت في الثانية والأربعين من عمرها ، لا تتوقع شيئا جديدا من الحياة ، حدث أنها قامت خلال واحدة من رحلاتها التي بلا هدف بزيارة صالات القمار في مونت كارلو ، وهناك ومن بين الانطباعات الجديدة

(*) كان فرويد يقول ذلك ما بين عامي ١٩٢٧ - ١٩٢٨ حين كتب هذا المقال وقد اشتهر اسم ستيفان زفايج بعد ذلك باعتباره أحد الكتاب الكبار على مستوى العالم كما اهتم بكتابة دراسات حول شخصيات بعض المشاهير ثم انتحر بعد ذلك في البرازيل حوالي عام ١٩٤٢ . (المؤلف)

بالملاحظة التي أفرزها المكان أصبحت هذه المرأة مفتونة بمشهد يدين كانتا
نفسيان كل أسرار مشاعر مقامر تعيش الحظ بشكل مخيف في دقته
وشدته . كانت اليدين لشاب وسيم ، وقد قام المؤلف ، كما لو كان ذلك
بطريقة غير مقصودة ، بجعل هذا الشاب في مثل سن الابن الأكبر للمرأة
التي تحكى له هذه الحكاية ، وقد ترك هذا الشاب صالات القمار بعد أن
خسر كل شيء وهو في حالة عميقة من اليأس مع ما يدل على النية الواضحة
على انتهاء حياته التي بلا أمل في حديقة الكازينو ، وقد دفع شعور ما من
التعاطف الذي لا يمكن تفسيره هذه المرأة الى أن تتبع هذا الشاب .
وتبذل كل محاولة لانقاذ حياته ، وقد أخذها هذا الشاب الى بعض النساء
السيئات المعروفات هناك وحاول أن يتخلص منها ، لكنها ظلت معه ووجدت
نفسها مدفوعة بأكثر الطرائق الطبيعية الممكنة ، أن تلحق به في غرفته
بالفندق ثم في النهاية ، تشاركه فراشه . وبعد ليلة الحب غير المخطط
لها هذه ، تمكنت من أن تجعل هذا الشاب - الذي أصبح الآن مستريحاً
بطريقة واضحة - يقسم بأغلظ الايمان أنه لن يعود ثانية الى اللعب .
وقد زودته المرأة بالمال من أجل رحلة العودة الى بيته وواعدته أن تقابله
في المحطة قبل رحيل القطار . الآن ، على كل حال ، بدأت المرأة تشعر
بالعاطفة الجياشة تجاه الشاب وكانت مستعدة لأن تضحي بكل ما تملكه
من أجل أن تحتفظ به ، ومن ثم فقد عقدت العزم على أن تذهب معه بدلاً من
أن تودعه ، لكن مظاهر عديدة على سوء الطالع قامت بتأخيرها لدرجة أن
القطار فاتها ، وبينما هي في شوق شديد لرؤية الشاب الذي فقدته ،
عادت مرة أخرى الى صالات القمار ، وهناك ، أصيبت بالرعب ، فقد رأت
مرة أخرى اليدين اللتين أثارتا في البداية تعاطفها ، فالشاب قد حث
بقسمه وعاد مرة أخرى الى اللعب ، وذكرته بوعدده ، لكنه بينما كان
خاضعاً لتأثير انفعاله نعتها بالترف الفاسدة ، وطلب منها أن تنصرف ثم
طرح النقود التي حاولت أن تنقذه بها خلف ظهره بعنف واضح . وقد
أسرعت المرأة بالانصراف في حالة من الخزي العميق ثم علمت بعد ذلك
انها لم تنجح في انقاذه من الانتحار .

هذه القصة البارة التي تتحرك بشكل سليم هي بطبيعة الحال كاملة
بذاتها ومن المؤكد أنها تحدث تأثيراً عميقاً لدى القارئ . لكن التحليل يظهر
لنا أن الابتكار الخاص بهذه القصة يستند في جوهره على أساس رغبة
تهويمية تنتمي الى فترة البلوغ ، ويتذكرها الناس فعلاً بشكل شعوري ،
ويجسد هذا التهويم الولد في أن تبادر الأم نفسها بدفعه نحو الحياة
الجنسية من أجل أن تنقذه من الأضرار المروعة الخاصة بالاستمناء (العديد
من الأعمال الإبداعية التي تتعامل مع موضوع الفداء أو التخليص) من

الخطيئة) لها نفس المصدر أو الأصل • فان وذيلة الاستنماء يتم استبدالها بادمان القمار • وذلك التوكيد الواضح على النشاط الانفعالي لليدين يفشى سر هذا الاشتقاق • وفي حقيقة الأمر فان ذلك الهوى أو الميل الدافع نحو اللعب هو أمر مكاني لهذا الاجبار أو الدافع الغلاب في اتجاه الاستنماء (*) • و « اللعب » هي الكلمة الفعلية التي تستخدم في غرفة نوم الطفل أو في حضائنه كى تشير الى نشاط اليدين حول الأعضاء التناسلية • ان طبيعة الغواية التي لا يمكن مقاومتها وعقد العزم المقدس والذي دائما ما ينهار على ألا يفعل المرء ذلك والمتعة المحذرة وكذلك الضمير القاسى الذى يخبر المرء بأنه انما يقوم بتدمير نفسه (القيام بالانتحار) كل هذه العناصر تظل ثابتة لا تتغير خلال عملية الابدال Substitution • الشيء الحقيقى طبعاً هو أن قصة « زفايج » تحكى من خلال الأم ، وليس الأب ، انه لما يشبع غرور الابن أن يفكر بأنه « اذا كانت أمى تعرف تلك الأخطار التى يمكن أن تلحق بى نتيجة الاستنماء ، فانها ستحاول بالتأكيد أن تنقذنى من هذه الأخطار بأن تسمح لى بأن أوجه ميولى اليها » ان مساواة الأم بالغانية كما حدث بالنسبة للشباب فى القصة مرتبط بنفس التخيل (أو التهويم) • انه يجعل المرأة صعبة المنال متاحة بأسهل الوسائل الممكنة • ويقوم الضمير الذى لا يكف عن الازعاج والتدخل والذي يصاحب التهويم باحداث النهاية غير السارة للقصة • ومن الأشياء الجديرة بالاهتمام أيضا أن نلاحظ كيف أن الواجهة (أو المظهر الكاذب) Façade التى أعطاها المؤلف للقصة قد حاولت أن تقوم بوضع قناع ما على معناها التحليلي • حيث انه من الأمور المثيرة للشكوك أن تكون الحياة الجنسية للنساء خاضعة للاندفاعات المفاجئة والغامضة • وعلى العكس من ذلك ، فان التحليل يكشف لنا عن دافع كاف للسلوك المفاجئ لهذه المرأة التى كانت حتى الآن بعيدة عن الحب • فليكونها مخلصه لذكرى زوجها المتوفى ، قامت بتحصين نفسها ضد كل عوامل الجاذبية الماثلة ، ولكنها – وهنا يكون التخيل الخاص بالابن صحيحاً – لم تستطع كأم أن تهرب من عملية الطرح أو التحول Transference اللا شعورية التامة والخاصة بعشقها لابنها • وقد كان القدر قادرا على أن يأخذها على حين غرة وهى موجودة فى هذه المنطقة العارية من الحماية •

اذا كان ادمان المقامرة ، مع تلك المحاولات الفاشلة للنضال من أجل كسر هذه العادة والخلص منها ، ومن ثم تتاح الفرص لعقاب الذات ، واذا كان هذا بمثابة التكرار لقهار أو قسر الاستنماء ، فاننا لن ندهش اذا وجدنا

(*) فى خطاب من فرويد الى فلايس بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٨٩٧ أشار فرويد الى أن الاستنماء هو ادمان أولى : تكون كل مظاهر الادمان التالية هى بدائل له (المؤلف) •

مثل هذا الأمر يحتل مثل هذه المساحة الكبيرة في حياة دستويفسكى .
وأكثر من ذلك فأننا لا نجد حالات من العصاب الشديد لم يلعب فيها
الاشباع الجنسي - الذاتى الخاص ، بفترتى الطفولة المبكرة والبلوغ ،
دورا ما ، كما أن العلاقة بين الجهود التى تبذل لقمع هذا الاشباع وبين
الخوف من الأب معروفة تماما ولا تحتاج منا لحديث أكثر من هذا (٥٠) .

تعقيب على الدراسة :

كما رأينا فان هذه المقالة تشتمل على جزئين متميزين : الأول
يتعامل مع شخصية دستويفسكى بشكل عام فيشخصه على أنه مصاب
بالماسوشية والرغبة الشديدة في عقاب الذات والحق الأذى بها ، ويصفه
أيضا بأنه تسيطر عليه مشاعر ذنب مرضية وأن نوباته الصرعية كانت
نوبات مدعاة ومزعومة وغير حقيقية ، وأنها كانت تعبيرات هستيرية عن
صراعات عصابية داخلية ناجمة عن علاقة دستويفسكى غير السوية
وصراعاته التى لم تحل حتى موته مع فكرة الأب والسلطة والله ، ومن ثم
كان ذلك الاتجاه المزدوج المميز لعقدة أوديب لدى دستويفسكى والذي
استفاض فرويد في تفسيره ، أما القسم الثانى من المقالة فيتناول نقطة
خاصة في حياة دستويفسكى وشخصيته وهى نقطة خاصة بالجذور الكامنة
والعوامل الدفينة المسئولة عن سلوك المقامرة لديه ، وقد لجأ فرويد من
أجل تفسير هذه الحالة الى القيام بتحليل خاص لقصة قصيرة كتبها
« ستيفان زفايج » وهو تحليل يتحرك من خلال مفاهيم فرويد الخاصة وبه
قدر ليس باليسير من التعسف في تحليل هذا العمل الأدبى ، فالقصة
تقبل تفسيرات أخرى ليس هذا موضع طرحها ، وقد أشار ثيودور رايك
T. Reik في مقالة كتبها تعليقا على مقالة فرويد هذه في مجلة Imago
عام ١٩٢٩ الى أن هذه المقالة غير متماسكة من حيث شكلها وتفتقد التجانس
أو التوازن العضوى حيث ان القسم الذى كتبه فرويد عن قصة زفايج كان
متناسبا مع موضوعه الرئيسى الذى بدأ به وهو دستويفسكى ومن ثم بدأ
الموضوع كموضوعين وليس موضوعا واحدا وأصبحت له نهايتان وليس
نهاية واحدة ، وقد رد فرويد على هذا النقد من خلال تأكيديه بأن المساحة
التي أعطاها لقصة زفايج في المقالة لا تتفق مع العلاقة بين زفايج
ودستويفسكى ولكنها تتفق أكثر مع العلاقة بين الاستمناء والعصاب ومن
ثم فليس هناك خلل عضوى في رأيه في طريقة بناء أو شكل المقال (٥١) .

يلاحظ أيضا أن فرويد كان قد بدأ مقاله هذا بالحديث عن الوجوه
أو الجوانب الأساسية الأربعة لشخصية دستويفسكى الثرية هي : الفنان
المبدع - العصابى - رجل الأخلاق - الخاطيء . ونلاحظ بشكل خاص أن

الجانبين السلبيين : العصابي - الخاطيء هما اللذان استأثرا بجل اهتمام فرويد . أما الجانبان الايجابيان فلم يوجه فرويد أى اهتمام لهما ، مكتفيا فقط بالقول بأن مكانة دستويفسكى الفنية ليست موضعا للشك أبدا وأنه يقف فى تاريخ الأدب العالمى على قمته وبجوار شيكسبير ، ثم يحاول عكس الحقائق الخاصة بالجانب الأخلاقى لدى دستويفسكى ثم يتفرغ بعد ذلك لاطهار كل الجوانب السلبية المرضية فى شخصية هذا الكاتب الكبير ، هذا الأمر يذكرنا تماما بما فعله فرويد أيضا مع فنان كبير آخر ولكن فى مجال آخر من مجالات الابداع الانسانى ، هذا الفنان هو ليوناردو دافنشى ، الرسام والمصور الإيطالى الشهير ، لقد قام فرويد بدراسة على هذا الفنان وانتهى منها بتشخيصه لشخصية دافنشى ووصفها بأنها - أى هذه الشخصية - تضع صاحبها قريبا من النمط الوسواس القهرى المصاب بفقدان الارادة ، والجنسية المثالية ، والكسل الجنسى وغير ذلك من التفسيرات التى تستند الى معلومات ضعيفة أو حقائق عابرة ضئيلة القيمة ثم يقوم فرويد بعد ذلك باقامة بناء شاهق على أساسها (٥٢) .

بشكل عام هذه مثال رأينا أن نضعه أمام القارئ العربى حتى يعرف حدود هذا الأسلوب التحليل النفسى وحتى يعرف ما له وما عليه ، ومن ثم يمكنه أن يختار بعد ذلك ما بين الخيال البخسب الذى يجمع بصاحبه بعيدا عن أرض الواقع المملوءة بالحقائق ، وبين التفكير العلمى الذى نحن أحوج الناس اليه - حتى فى دراسات الابداع الفنى - بينما نحن فى المرحلة الراهنة من تاريخ وطننا العربى بكل ما تشتمل عليه من مشكلات .

٣ - يونج والابداع الفنى :

ولد كارل جوستاف يونج فى سويسرا فى ٢٦ يوليو عام ١٨٧٥ ومات فى ٦ يونية عام ١٩٦١ عن عمر يناهز السادسة والثمانين ، بعد حياة حافلة بالممارسة العلاجية والبحوث والنظريات التى تناولت موضوعات عديدة خاصة بالديانات والأحلام والأساطير والأمراض والفنون الانسانية ، كان يونج متسما بالفهم فى قراءاته الأدبية والفلسفية ، وكانت درة جوته الشهيرة « فاوست » ذات تأثير مبكر وعميق عليه ، فمن خلالها اهتم يونج ببحث الانسان عن الحقيقة والتفرد ومن خلالها عرف قوة الشر فى علاقاتها بعمليات استبصار الذات وتطهرها كذلك كان لنيتشه تأثيره القوى على يونج أيضا ، واعتقد يونج أن نيتشه وفرويد هما الموضوعان الكبيران للحضارة الغربية ، القوة والجنس ، لكنه شعر أيضا أن الرجلين قد استغرقا فى هذين الموضوعين الحيويين حتى سيطرا عليهما واعمياهما عن موضوعات

أخرى فى الحياة الانسانية (٥٣) لذلك قرر يونج أن يمتد بعقله الى آفاقه أخرى .

اهتم يونج بالتأمل حول أسباب اهتمام الانسان بصورة معينة ، وقام بتقسيم الابداع الى نوعين :

(أ) الفن السيكلوجى (أو النفسى) Psychological art

الذى يتعامل مع المشتقة من واقع الشعور الانسانى أو مع دروس الحياة ، أى مع خبرات الحياة فى العالم الخارجى وموضوعات الحب والأسرة والبيئة .

(ب) الفن الكشفى Visionary art

الذى يشتق وجوده من « الأرض المجهولة داخل عقل الانسان » ، الزمن الأسطورى الذى يفصلنا عن عصور ما قبل الانسان ، أو يستثير بداخلنا عالما انسانيا يشتمل على تضاد النور والظلمة » .

واهتم يونج بشكل خاص بالنوع الثانى من الفن واعتبر أبرز مثال عليه رواية « موبى ديك » لهرمان ملفيل التى تتعرض للصراع الانسانى مع المجهول والقدر ، وواصل يونج اهتمامه « بصور الرؤى » التى تذكرنا بالاحلام والأخيلة واعتبرها يونج رؤية خاصة بعالم آخر ، انها الرؤية الظلامية الخاصة بأعماق الروح ، تلك الأعماق التى تمتد الى بدايات الأشياء ، قبل عصر الانسان ، أو الى نهاياتها التى تمتد الى الأجيال المستقبلية التى لم تولد بعد واعتبر يونج أن هذه الصورة الأولية أو البدائية هى التغييرات الرمزية الحقيقية ، انها تعبر عن شيء ما موجود وحقيقى لكنه غير معروف ، هذه الصورة فى رأى يونج ليست أقل حقيقية من الواقع الموضوعى ، فهناك فى رأى يونج الواقع النفسى الذى لا يقل صدقا وحقيقة عن الواقع الملموس المحسوس ، وبدلا من أن يقوم بالتنظير حول الصور الكشفية باعتبارها هدفا للنشاط الابداعى ، قال يونج ان هذه الصور غالبا ما تأتى بشكل غير مفهوم وغير خاضع لتحكم الأنا ، وشعر يونج أن الفنان هو الذى يستطيع فى مناسبات خاصة أن يرى هذه المشاهد التى تتم على ساحات الأرواح والشياطين وآلهة عالم الليل ، وأن الفنان عندما يرسم شكلا شبيها بالماندالا Mandala (*) ، فإن هذا الوصف يكون

(*) الماندالا هى شكل تمثيلى تخطيطى رمزى ، متخيل أو مرسوم ، غالبا ما يكون على شكل دائرة تشتمل على مرجع مع وجود رمز داخل على هيئة انسانية أو حيوانية ، وترمز الماندالا الى الوجود أو النسق الخاص بالتأمل البصرى (٥٤) ويشيع استخدامها =

وصفا موضوعيا للخبرة الدلخية مثلما تكون صورة الطائر واقعا أيضا وقال يونج ان هذه الأشكال والتصميمات ، مثلها مثل الأساطير ، هي التعبيرات الحقيقية الواضحة عن الخبرات الداخلية فبالخبرات البدائية الأولى في رأيه هي مصدر إبداعية الفنان ، انها لا يمكن سبر أغوارها ومن ثم فهي تتطلب دائما صورا وتخيلات أسطورية كي تعطيها شكلها الخاص المناسب . ان هذه الخبرات تحتاج الى صور غريبة كي تعبر عن نفسها ، هذه الرؤى هي التعبيرات عن العقل الجمعي موجودة داخل الجسم ، يرثها كل فرد ولها طابع بدائي ، وعندما يتمكن فنان من الرؤية والتعبير عن هذه المشاهد والرؤى فانه يقوم بالتعالى والارتقاء من المستوى الكلي الجمعي ، انه يتحدث كجنس بشري الى الجنس البشرى وليس كفرد بشري الى هذا الجنس ويعتقد يونج أن الفنان يكون متلبسا بدافع يعمل بداخله يدفعه نحو الابداع ، ويكون للعمل الفني حياته الخاصة ، كما لو كان شخصا فريدا وعندما يبدع الفنان عملا فنيا ، يصبح هذا العمل قدره المحدد لارتقائه النفسى التالى ، من خلال هذا يقترب الفنان من القوى المفقودة والمخلصة والشفافية من العقل الجمعي . ويكون هذا بمثابة العودة الى حالة المشاركة الأسطورية من الخبرة التى يعيش فيها الانسان وليس الفرد ، وهكذا فان يونج يعتقد أنه اذا أراد النوع الانسانى صورة خاصة تعينه على النمو والشفاء فان هذا لابد أن يتم عن طريق الفنان الذى يصبر عن هذه الصور من خلال ابداعه الفني (٥٧) .

ان تمييز يونج بين اللاشعور الفردى الذى هو جماع مكتسبات الانسان خلال حياته كفرد واللاشعور الجمعي والذى هو جماع حياة الجنس البشرى والذى يشتمل على الأساطير والأفكار والدوافع والصور الخيالية التى يتجدد ظهورها عبر الأجيال وتترك آثارها على شكل ومحتوى الجنس البشرى هذا التمييز هو ما يقف وراء تمييزه بين أعمال فنية سيكولوجية وأعمال فنية كشفية أو رؤيوية ، فالأعمال السيكولوجية تشتق مادتها من اللاشعور الفردى أما الأعمال الكشفية فتتحد مادتها فى اللاشعور الجمعي الذى هو القاعدة الأساسية فى رأيه لنفس الانسان وشخصيته . وذلك

= فى الديانات الهندية والصينية ، وتمثل المكان المقدس والكلية وعقل العالم والتكامل ، وتمثل المربعات المتغيرة بداخلها المباني الثنائية ، لكنها المنكاملة للعالم ، كالنور والظلام مثلا (٥٥) وتعتبر الماندالا لدى يونج رمزا للكفاح من أجل الوحدة الكلية للذات الانسانية ، واستنتجت سوزان لانجر أن الشكل الدائرى للماندالا ليس مشتقا من محاولات رسم الزهور أو ما شابه ذلك لكنه - كما قال يونج أيضا - نمط أولى نشأ داخل النفس الانسانية ذاتها (٥٦) .

لأن النماذج الأولية هي الصور التي يستخدمها اللاشعور الجمعي بطريقة متكررة ، هذه الصور تكون محملة بالعواطف القوية وتظهر خلال الأساطير والرموز الدينية والاجتماعية (٥٨) .

ان سبب الابداع الفنى الممتاز وفقا لما أكده يونج هو تقلقل اللاشعور الجمعى فى فترات الازمات الاجتماعية مما يقلل من اتزان الحياة النفسية لدى الفنان ويدفعه للحصول على اتزان جيد ، بالطبع يمكننا القول هنا انه ليست الأزمات الاجتماعية فقط هي التي تعمل على قلقلة اتزان الحياة النفسية للفنان ، فالأزمات النفسية الخاصة بالفنان أيضا بصرف النظر عن الأزمات الاجتماعية قد تعمل أيضا على هز استقراره واتزانه النفسى مما يدفعه الى استعادة ذلك الانزان المفقود وقد أشار يونج أيضا الى أن الفنان الأسيل يطلع على مادة اللاشعور الجمعى بالحدس ولا يلبث أن يسقطها فى رموز ، « الرمز هو أفضل صيغة ممكنة للتعبير عن حقيقة مجهولة نسبيا » (٥٩) .

فالأحلام والرموز لدى يونج هي مادة ثرية لدراسة الفن الانساني لأنها المادة التي تتجسد فيها الأنماط الأولية للاشعور الجمعى فى أبلغ صورها ، والأحلام وفقا ليونج هي تلك التخيلات المفككة ، المراوغة غير الجديرة بالثقة المبهجة والمتقلبة والحلم يعبر عن شىء خاص يحاول اللاوعى أن يقوله ، وأبعاد الحلم فى الزمان والمكان مختلطة جدا ، وافهمه ينبغي علينا أن نتفحصه من كل مظهر تماما ، مثلما نأخذ شيئا ونقلبه مرارا حتى نكون على معرفة بكل تفصيل من شكله ، ولتخصص الأحلام تركيباتها الخاصة المختلفة عن قصص الوعى ، فصور الأحلام تبدو متعارضة ومضحكة ، تحتشد فى رأس النائم ، والحس العادى بالزمن المفقود ، والأشياء المألوفة قد تتخذ مظهرا آسرا مهددا . ويميل العقل اللاوعى الى ترتيب مادته فى الحلم بشكل مختلف جدا عن الشكل المنظم الذى نستطيع أن نفرضه على أفكارنا فى حياة اليقظة ، وتكون الصور المنتجة فى الأحلام شديدة الحيوية ومثيرة أكثر بكثير من المفاهيم والخبرات التي تماثلها فى اليقظة ، وصور الحلم هي صور رمزية لا تصرح بالواقع بطريقة مباشرة ، بل تعبر عن القصد منه بشكل غير مباشر بواسطة المجاز ، والحلم مشحون بالطاقة الانفعالية ورمزيته تملك من الطاقة النفسية ما يجعلنا ننتبه اليها بشدة . ووظيفة الأحلام العامة عند يونج هي إعادة اتزاننا السيكولوجى عن طريق انتاج مادة حلم تعيد بطريقة حاذقة تأسيس التوازن النفسى الكلى ، وهو يربط ذلك بسلوك الحالمين فى الحياة . فالذين يملكون أفكارا غير واقعية ، أو اعتقادات عالية جدا خاصة بأنفسهم ، أو يصنعون خططا تتسم بالمبالغة ولا تتناسب مع كفاءاتهم يخلعون بالطير . ان الحلم يعوضهم عن نقائص شخصياتهم ،

وفقر واقعهم والحصار المضروب حول حريتهم فى الحركة والحياة ، والأحلام عند يونج دور النبوءة والاخبار بالمستقبل ، فهى ليست حارسه للنوم ومحقة لرغبات أحبطت فى الواقع كما هى الحال لدى فرويد ، انها وسيلة لتحقيق التوازن ولاستشراف المستقبل ولابداع الأعمال الفنية العظيمة التى سماها يونج بالأعمال الكشفية . وقد ميز يونج بين الإشارة والرمز على أساس ان الإشارة دائما أقل من المفهوم الذى تمثله فى حين أن الرمز دائما أكثر من معناه الواضح والمباشر . والرموز عند يونج هى نوانج طبيعية وعضوية كالأحلام ، والأحلام كالرموز تحدث بعفوية ولا تبتدع . وكل رمز عند يونج يحدث بعفوية ولا يبتدع ، والأحلام هى المدخل الرئيسى لكل معرفتنا عن الرمزية ، ويقول يونج : من السهل أن نفهم لماذا ينزع الحالمون الى اهمال ، أو حتى انكار رسالة أحلامهم . ان الوعي يقاوم طبيعيا كل شىء لا واع ومجهول (٦٠) ، لكن هذا الافتراض من يونج يتجاهل ان مسيرة الانسان الطويلة عبر تاريخه وتطوره هى بحث دائم واستكشاف مستمر للمجهول والبعيد ، والا ظل الانسان فى غياهب الظلام السحيقة التى استبقى منها يونج معظم مادته . ويلاحظ أن أغلب الأدلة التى حاول يونج أن يثبت بها أفكاره كانت من خلال شواهد أنثروبولوجية مستقاة من مجتمعات بدائية وكان هذه كل المادة المتاحة . فماذا بشأن الانسان الحديث والحضارة الحديثة ؟ هل يتصف الانسان الحديث بتلك الحالة التى سماها يونج « الميسونية » (أى الخوف العميق والخرافى من الحداثة) ؟ والتى قال بأنها واضحة لدى الانسان البدائى والانسان الحديث من خلال اقامته لعوائق سيكولوجية ليصون بها نفسه من صدمة مواجهة شىء جديد . ان هذه القضية تبدو لدى يونج غير واضحة خاصة . انه لا يفرق بشكل حاد بين تجنب الانسان صدمة معرفة الداخل ، وصدمة معرفة الخارج . وهل هناك بالفعل صدمة دائما عند محاولة المعرفة ؟ وهل منعت هذه الصدمات الانسان من معرفة الداخل أو الخارج ؟ ان هذه القضية تبدو لدى يونج غير واضحة خاصة اذا نظرنا اليها من وجهة نظر أخرى خاصة بالسلوك الابداعى الواضح لدى الانسان فى القرون الأخيرة بصفة خاصة وفى مجالات الفن والعلم والحياة عموما . هل لو كانت هذه « الميسونية » أو الخوف من الحداثة موجودة مستأثرة بالانسان ، هل كان يمكن أن يتقدم وبحرز كل هذه الانجازات الهائلة الواضحة فى كل مظاهر حياته ؟ لا اعتقد . لكن الملاحظ بشكل واضح هنا هو استشارة المجهول باهتمام يونج وانتباهه . ودراساته كلها ليست محاولة لكشف هذا المجهول بل لتاكيد ايضا ، وقد أضاف الى اللاوعى الفردى عند فرويد اللاوعى الجمعى ومادته ، الرموز الأصلية أو الأولية الموروثة عبر آلاف السنين والتى حاول من خلالها أن يقسم نسقا سيكولوجيا موازيا للنسق الذى أقامه دارون فى مجال البيولوجيا .

والأمر الذى يجدر بنا أن نذكره الآن هو أن يونج أكد على أن الجانب الابداعى للحياة الذى نجد تعبيره الواضح فى الفن يعوق كل المحاولات التى نحاول صياغته عقليا ، فالنشاط الابداعى فى رأيه سوف يروغ دائما من محاولة الانسان لفهمه . انه يمكن فهمه فقط من خلال تجلياته أو مظاهره ، كما أنه يمكن الشعور به بطريقة مبهمه أو غامضة . لكن عملية الوصول الكلى اليه غير ممكنة . أى أن يونج مثله مثل فرويد قد وصل فى النهاية الى ما سبق أن وصل اليه فرويد من الشعور بالعجز أمام مشكلة الابداع الفنى، فلم يحاول تفسيرها ، رغم تأكيد الكبر والتميز للطابع الابداعى للحياة وللذات ، ورغم تأكيد الكبر على أهمية الجوانب الاجتماعية والمكونات الثقافية والحضارية التى أغفلها فرويد الى حد ما ، ورغم ما ظهر فى كتاباته من اطلاع كبير ومعرفة عميقة بعالم الفن والأدب .

كانت لأفكار يونج تأثيراتها الواضحة على أفكار ودراسات الناقده ومؤرخ الفن الانجليزى الشهير هربرت ريد وكذلك الفيلسوفة الأمريكية سوزان لانجر والنقاد الكندي نورثروب فرانس ، وكذلك على عالم الأساطوريات جوزيف كامبل ، ذلك الذى أكد بطريقة توضح تأثيره بيونج أن للأسطورة أربع وظائف أساسية هى :

١ - التوفيق ، أو حل الصراع بين الوعي والشروط السابقة على وجوده الخاص ، خاصة المتعلق منها بالنواحي الغريزية والقطرية والخوف والاندفاعات وعمليات الشعور بالذنب والأسف التى يعانىها الانسان بكثرة خلال حياته .

٢ - تشكيل صورة للعالم وصياغتها ، صورة كونية ، من خلالها وداخل نطاقها تنتظم الأشياء المتعلقة بالزمن والحياة كلها .

٣ - التصديق على نظام اجتماعى معين والمحافظة عليه ، انها تؤكد السلطة العالية لرموز المجتمع الاخلاقية بوصفها تكوينات تقع فيما وراء النقد أو التصحيح الذاتية .

٤ - الوظيفة الأولى للأسطورة هى وظيفة سحرية أو ميتافيزيقية ، والثانية توصف بأنها كونية ، والثالثة الاجتماعية ، أما الوظيفة الرابعة ، التى تكمن جذورها فى الأنواع السابقة ، فهى الوظيفة السيكلوجية للأسطورة ، أى كيفية تشكيل الأفسراد وتركيبهم الخاص من حيث المثل والأهداف الخاصة التى يحملونها منذ الطفولة حتى الموت ، وخلال ميحري الحياة ، ويعتقد كامبل أن الأنظمة الكونية والاجتماعية قد تغيرت كثيرا عبر

التاريخ ، أما الجوانب السيكلولوجية فيعتقد أن لها بعض الجذور البيولوجية المتأصلة الموروثة المستمرة منذ آلاف السنين (٦١) وفي هذه النقطه يصبح كامبل شديد الصلة بأفكار يونج ، بخاصة ما يتعلق منها بالاشعور الجمعي والأنماط الأولية تظل الأعمال الكشفية في واقع الامر هي انتظم منتجات العقل الابداعي الانساني ، تلك الأعمال الغريبة التي نشق وجودها - كما قال يونج من اكتشافها للأرض المجهولة في عقل الانسان ، والتي تشير الى زمن الماضي السحيق ونرى فينا عالما انسانيا خاصا ، يتضمن سراع النور والظلمة ، خبرة أولية تفلت دائما من محاولات الفهم الانساني الحلي لها ، رقيمة الخبرة وقوتها معطاة من خلال ضخامتها وفداحتها ، انها نشق من الأعماق اللازمانية الملتبسة الغريبة متعددة الأبعاد ، وهي تجاوز معاييرنا الانسانية للقيمة والشكل الجمالي ، وتسمح لنا بالدخول الى عوالم أخرى لم يسبق لنا اكتشافها (٦٢) ، ونحن نجد أمثلة لهذه الأعمال الكشفية في سفر الرؤيا ، وفي موبى ديك للمفيل و « الاطلانطيد » لبير بنوا (التي كان يونج يشير اليها كثيرا في كتاباته ، بل وحتى في خطاباتة (٦٣) خاصة الجزء الثاني ، « قلب الظلام » لكونراد و « فاوست » لجوته و « الملك لير » لشكسبير ، والعجوز والبحر لهمنجواي ومائة عام من العزلة لجارثيا ماركيز ، وفي بعض قصص تشيكوف وادجار آلان بو وكاترين آن بورتر القصيرة ، في « جيرنيكا » القدر « لبيتهوفن وفي « الدب » لفوكنر و « يوليسيس » لجيمس جويس ، في « رامة والتنين » لادوار الخراط وبعض أعمال زكريا تامر ، في الحاقات والمسافات والصباء واليهام لإبراهيم عبد المجيد ، « وفي ليلة القدر » للطاهر بن جلون وبعض قصص محمد مستجاب ويحيى الطاهر عبد الله ومحمد خضير أمين صالح القصيرة وكذلك كثير من الأعمال الغربية الحديثة التي ينطبق عليها بشكل أو بآخر مصطلح الواقعية السحرية ، أو الواقعية الجديدة وكل المحاولات الجديدة لاكتشاف الانسان والواقع من جديد تلك الخبرة العميقة الخادسة والكلية في نفس الوقت .

ان العمل الفني عند يونج أشبه بالحلم ، على الرغم من وضوحه البادي ، انه لا يفسر نفسه ، وهو ليس غير غامض أبدا ، الحلم لا يقول أبدا « ينبغي لك » أو « هذه هي الحقيقة » بل يعرض صورة بنفس الطريقة التي تتيح فيها الطبيعة للنبات أن ينمو ، ويبقى علينا نحن أن نستخلص نتائجنا منه (٦٤) .

كتب يونج ذات مرة في أحد خطاباتة « من المحتمل أننا ننظر الى العالم من الجانب الخاطئ ، ومن الممكن أن نصل الى الاجابات الصحيحة إذا قمنا بتغيير وجهة نظرنا وقمنا بالنظر الى العالم من الجانب الآخر ، أي

ليس من خارجه ولكن من داخله (٦٥) ، وقد كانت هذه المحاولة للنظر الى العالم والانسان من الداخل هي المحرك الاساسى لكل افكار يونج ونظرياته ، وربما كانت هي السبب أيضا فى أن هذه الأفكار والنظريات تفتقد جانبا هاما من صورتها الكلية حتى تكتمل ، ربما كان هذا الجانب يتعلق أكثر بالحياة والحضارة الانسانية المعاصرة ، فقد اهتم يونج بالماضى على حساب الحاضر ، وبالدخل على حساب الخارج ، وبالفرد كبوتقة للمجتمع أكثر من اهتمامه بالمجتمع كبوتقة لجميع الأفراد .

والآن نحاول الحديث عن بعض العلاقات الخاصة ما بين التحليل النفسى والابداع الفنى بشكل عام والابداع الأدبى بشكل خاص كما نعرض لبعض المحاولات واضحة التأثير بالتحليل النفسى فى تفسير عملية الابداع وشخصيات المبدعين .

٤ - التحليل النفسى والسريالية :

يقول هربرت ريد « اننى أشك فى أن السريالية كان يمكن أن توجد فى صورتها الراهنة لولا سيجموند فرويد ، فهو المؤسس الحقيقى للمدرسة ، فكما يجد فرويد مفتاحا لتشابكات الحياة وتعقيداتهما فى مادة الأحلام ، كذلك يجد الفنان السريالى خير الهام له فى نفس المجال ، أنه لا يقدم مجرد ترجمة مصورة لأحلامه ، بل ان هدفه هو استخدام أية وسيلة تمكنه من النفاذ الى مستويات اللاشعور المكبوتة ، ثم يخرج هذه العناصر حسبما يتراءى له بالصور الأقرب الى الوعى ، بل أيضا بالعناصر الشكلية فى انماط الفن المألوفة » (٦٦) ان الفنان السريالى يدرك أن الحياة - خاصة الحياة العقلية - توجد عند مستويين : أحدهما مرئى ومحدد الاطار والتفاصيل ، والآخر ، وربما كان هو الجانب الأهم من الحياة ، محجوب ، غامض ، غير محدد ، والانسان ينحرف خلال الزمن مثل جبل جليدى عائى يطفو بشكل جزئى فوق مستوى الوعى ، وهدف السريالى سواء كان شاعرا أو مصورا أن يجرب ويدرك بعض أبعاد وخصائص العالم الخفى وبفعله هذا فإنه ينجأ الى أنواع مختلفة من الرموز ، وهدف الفنانين السرياليين كما قال المصور ماركس أرنست ليس هو الاقتراب من اللاشعور ثم رسم محتوياته بطرائق وصفية أو واقعية ، وليس هو أيضا مجرد أخذ عناصر مختلفة من اللاشعور بواسطتها يتم بناء عالم منفصل من الوهم ، لكن هدفه بدلا عن ذلك هو تحطيم القيود الجسدية بين الشعور ، بين العالم الداخلى والعالم الخارجى ثم ابداع عالم سريالى ، عالم متفوق تتقابل فيه وتمتزج الجوانب الواقعية والجوانب غير الواقعية ، التأمل والفعل ، وتسبطر على كل حياة الانسان (٦٧) ان الطريق الملكى لللاشعور كما يؤكد المحللون النفسانيون

وكذلك أنصار الاتجاه السريالي في الفن هو الأحلام فالأحلام تسمح لنا ببعض لمحاتها الثرية أثناء العمل والأحلام بالنسبة لفرويد هي أساسا اشباعا رمزية لرغبات لاشعورية ، وهي تظهر في أشكال رمزية حيث انه اذا تم التعبير عن مادتها بشكل مباشر فانها قد تكون صدمية ومسيئة للاضطراب بشكل يكفى لايقاظنا ، ومن أجل أن نحصل على بعض النوم فان اللاشعور ينعم علينا ويكشف بشكل مرهف ومحرّف عن المعاني التي يحويها. وهكذا تصبح أحلامنا نصوصا رمزية تحتاج لمن يفك فعاليتها وتظل الأنا القائمة بالمراقبة في حالة عمل حتى أثناء الحلم ، تراقب صورة هنا أو تخلط رسالة هناك ، ويضيف اللاشعور الى هذا ومن خلال اشكال نشاطاته الخاصة مزيدا من الغموض ، ومن خلال تنظيمه الخاص للمادة فانه سوف يكشف معا مجموعة من الصور في جملة مفردة واحدة ، أو يقوم بإحلال معنى موضوع ما محل معنى موضوع آخر يرتبط به الى حد ما ، وهذا التكثيف والإحلال أو الإبدال المستمر للمعنى يتفق كما يقول تيرى ايجلتون T. Eagleton مع ما حدده رومان ياكوبسون R. Jacobson على أنه عمليتان أساسيتان أوليتان للغة الانسانية وهما : الاستعارة (تكثيف المعاني معا) والكنائية (إحلال أحد المعاني محل معنى آخر) وقد كان هذا هو مادفع المحلل النفسي الفرنسي المعروف جاك لاكان J. Lacan للكي يقول بأن « اللاشعور مركب بشكل مماثل للغة » ، وان نصوص الأحلام هي أيضا نصوص خفية سرية ملغزة (٦٨) .

ان كل فرد على معرفة بالأدب الحديث يعرف جيدا تعريف أندريه بریتون للسريالية في الاعلان الأول (المانفستو) لها عام ١٩٢٤ الذي قال فيه أن الحركة النفسية التلقائية في أنقى حالاتها والتي يمكن للمرء أن يعبر عنها لفظيا ، بواسطة الكلمة المكتوبة ، أو أى شكل آخر ، هي النشاط الحقيقي للفكر ، ان التعطيل المؤقت للوعي يمكن الوصول اليه أساسا من خلال الحث والاستكشاف للأحلام والهلاوس ومن خلال الكتابات التلقائية (الاتوماتية) التي تظهر الصور فيها باعتبارها العلامات الارشادية الوحيدة للعقل » وخلال هذه العمليات يختفى التمييز بين تحرير اللاشعور والجنون ، وقد كان بریتون يميل الى الاعتقاد بأن المجانين ، هم الى حد ما ضحايا لخيالهم ، وهي نظرة كانت شائعة أيضا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فهذا الخيال يدفعهم الى عدم الاهتمام بالقواعد البدنية السائدة ، ويقول أندريه بریتون « اننى استطيع أن أقضى عمري كله فانحأ عيني على اتساعهما محذقا في أسرار الجنون » (٦٩) لم يكن أصحاب الحركة السريالية يهتمون كثيرا بالمدى المتسع من الأعراض المرضية التي تظهر في حالات الذهان حيث ان الجانب الذي أثار اهتمامهم أكثر من غيره كان

يتعلق بالهلاوس التي هي في رأيهم صور النشاط الحقيقي للعقل وقد اعتبروها النواتج الأكثر تطرفا وجراًة للعقل اللاشعوري ، وفي هذا السياق فان المبدأ السريالي الخاص بالجوانب اللاعقلانية للسلوك والفن تضمن مناقضا مع اهتمامهم بالقضايا الاجتماعية والسياسية ، وذلك لأن الفنان السريالي أراد كما يقول البير كامى استخلاص العقل من اللاعقل وأراد تنظيم اللاعقلاني غير المنظم ، فالسريالية بعد رامبو أرادت أن تقيم قواعد للجنون وللتدمير الذى يبدو بلا قواعد ، وقد اختلفت آراء بريتون عبر البيانات المختلفة المتتالية للحركة ، لكنه فى واقع الأمر لم يذهب بعيدا كثيرا عن المبادئ الأساسية التي اشتمل عليها الاعلان أو البيان الأول فعند استمرار يوضح أهمية التلقائية النفسية واستمر كذلك يشير الى تلك العمليات التي يمكن أن تنتج عن توحيد وانصهار العمليات الشعورية مع العمليات اللاشعورية ، كما وصفها البيان الأول ، وقد قال بريتون « اننى اعنف فى الحل المستقبلي لهاتين الحالتين ، الحلم والواقع ، اللتين تبدوان مختلفتين تماما ، الى نوع من الواقع المطلق ، سريالي ، اذا كان يمكن للمرء أن يتحدث كذلك » وفى البيان الثانى قام باعلان حزبه لحقيقة أنه لم تبذل جهود منتظمة ورأسخة مثل التي طالبت السريالية بها فى مجال الكتابة التلقائية وفى وصف الأحلام ، وقد كان نقده الأساسى لممارسى الكتابة التلقائية هو فشلهم فى «ملاحظة الذات » والنقص الواضح لديهم فى « الوعى » ، وهذه العمليات الواعية هي عمليات داخلية أساسية فى الجماليات السريالية وفى تمردهم الاجتماعى على العقلانية ، واهتمام السرياليين بما سماه بريتون « مشكلة الفعل الاجتماعى » ترتبط بشكل وثيق بموقفهم الجمالى ، وهذا يذهب الى ما هو أبعد من ذلك الالتزام المبكر لمعظم السرياليين بالماركسية ، وكذلك خلاف بريتون وغيره وانفصالهم عن الحزب الشيوعى الفرنسى عام ١٩٣٣ فالعقيدة الأكثر اتساما وأكبر بقاء من تمسكهم بالعنف الثورى والعدمية المشتتة كانت هي اعتقادهم بأن «التلقائية النفسية» يمكن أن تستعيد الطبيعة ، والحقيقة ليس للفن فقط ولكن للمجتمع أيضا ، وهذا الأمر جوهرى وهام فى رأيهم لحرية الانسان وتحريره . وفى عام ١٩٥٣ قام بريتون بتلخيص المبادئ الجمالية الكبيرة للسريالية وهدفها من « اعادة اللغة الى الحياة الحقيقية » وعاد مرة ثانية الى هذا الموضوع بقوله انه بدلا من العودة من الشئ الدال الى السلامة التي يتركها بعده ، والتي قد تكون أكثر من ذلك ، مستحيلة فانه من الأفضل الذهاب فى وثبة واحدة الى مكان ولادة ذلك الشئ الدال ، وفى الشعر الخاص الذى أنتجه بريتون وأراجون وإيلوار وديسنوس وغيرهم من السرياليين تم ادراك هذا المبدأ بطرائق مختلفة ، وهذا الابداع قسام فى أساسه من خلال ابداع الصور التي توحد بين مستويات ومناطق الخبرة

المختلفة ، بل والمتناقضة أيضا ، وكما قالت ماري أن كور M. A. Cows عند مناقشتها لشعر ايلوار فان الشيء الدال في شعره هو أنه ليست هناك ثغرة بين البصرى والعقلى لديه ، فرؤيته الشعرية تقوم كلها على هذه البساطة الخاصة للمشهد والفكرة ، وكذلك عمليات التوحيد وإعادة التوحيد للعناصر المشتتة وغير المنظمة » (٧٠) .

وقد ظهر للسرياليين أعداء ومناهضون كثيرون لعل من أبرزهم في المسرح أنطوان أرتو الذى قال « ان السرياليين يحبون الحياة بينما أنا أمقتها تماما » وقد انفصل عنهم عام ١٩٢٦ عندما انضموا للحزب الشيوعى واعتبر ذلك ابتعادا منهم عن مبادئهم الأساسية وانسحابا من البحث عن الحقائق الداخلية الى الحقائق الخارجية وحاول فى ابداعه المسرحى الخاص كما قال أن يبحث عن أساليب خاصة من « الصراع مع اللغة ضد الشائع ومع ما دبر خلف اللغة ، خلف الصورة ، خلف الرمز مع الحقيقة الجوهرية ، هذا ما بحث عنه السرياليون وساهموا به وعندما ابتعدوا عنه ، ابتعدت عنهم » (٧١) .

لقد حاول أصحاب المدرسة السريالية أن يكشفوا عن تلك المحتويات التى قال عنها يونج بأنها لا يمكن اشتقاقها من محتويات أى عقل واع ، فهى ليست محتويات عادية ، ومن الواضح أنها نواتج نشاطات عقلية لا ارادية لم تعرف من قبل أو يمر الانسان بخبرة مشابهة لها ، انها مختلفة بشكل عميق عن نواتج العقل العصابى التى لن يحكم أى ملاحظ مستول عليها بأنها ذات طبيعة جنونية ، انها تظل بعيدة عن متناول الوعى ، كما انها تبتعد بشكل أو بآخر عن الشعور الخاص بالآنا ، وهى أقرب من غيرها الى الخبرة المرضية الذهانية ان ما يحدث هنا هو أن اللاشعور اللاواعى يأخذ دور الآنا الواعى ، والنتيجة الحتمية لتبادل الأدوار هى الفوضى والتدبير ، وذلك لأن اللاشعور ليس شخصية ثانية ذات نشاط منظم ومركز ولكنه على العكس من ذلك مجموعة من العمليات العقلية اللاعقلانية والمتناقضة والتى توجد معا ، ولكن بينما يظهر الذهان الوجود الممكن لعقل لاشعورى مستقل فان المرء يجب الا يقنع بالرأى الخاص القائل بأن أى شكل من أشكال الاستقلال اللاشعورى هو فقط جنون (٧٢) ويصف يونج لغة العمليات الحدسية اللاشعورية النشطة لدى احدى مريضاته وصفا يقترب كثيرا من وصفه لعمليات الحدس فى الفن فيقول عنها « انها ليست «وجهة بواسطة العقل الواعى ، الذى يكون فى مجالات أخرى أحد أساليب الانسان الهامة فى التعامل ، ان عمليات الحدس اللاشعورية تلقائية ودينامية وماكرة بطريقة هائلة ، انها تقوم بصهر تفاعلى لوجهات النظر العقلية المختلفة ،

داخل الرؤى الحدسية ، كما تدمج القيم الأخلاقية بالاندفاعات الانفعالية ، ان النشاط النفسى المتضمن فى هذه العملية هو نشاط غير متمايز بدرجة كلية ، انها مثل فوران الحمم البركانية الذى تختلط فيه كل أنواع المعادن وتنطلق فى نيار متوهج واحد مندفعه من أحشاء الأرض ، ليس هناك استخدام للنشاط العقلانى أو الذهنى فى هذه العملية ، ومن يجد نفسه وقد هاجمته مثل هذه الأفكار والخيالات والرؤى يكون اما محاصرا بواسطة خوف لا يمكن مقاومته بأنه سيصبح مجنوناً أو يعتقد بأنه عبقرى . وفى الحالتين فإنه سينعزل فى الحال عن قرنائته الذين سيكونون بالطبع غير قادرين على فهم هذا الأمر بشكل جيد (٧٣) مثل هذه الأفكار وغيرها كان لها تأثيرها بشكل أو بآخر على الفنانين ذوى التوجهات الفنية السريالية أو شبه السريالية وإن كان تأثير يونج قد جاء متأخرا عن تأثير فرويد ، بل ربما أمكننا القول أيضا بأن تأثيرات يونج كانت قد بدأت تمارس دورها حين بدأت الحركة السريالية فى شكلها الأول فى التفكير والانشطار ، لكن هذا لا يمنعنا من القول بتأثيره البارز على حركة النقد الفنى السريالى خاصة تأثيره البالغ على هربرت ريد الذى يكثر من استخدام مفاهيم يونج عن الانماط الأولية والعقد والقناع وغيرها فى نقده الأدبى والتشكيلى وكذلك الناقد والمفكر الفرنسى المشهور جاسنون باشلار الذى يقوم كتابه « جماليات الحلم » فى جوهره على أساس مفاهيم يونج عن الانميما (العنصر الأنشوى داخل الرجل) والانيموس (العنصر الذكري داخل المرأة) وغير ذلك من المفاهيم » (٧٤) .

ان مصطلح السريالية يشير بشكل خاص الى التعبير الفنى الذى ينقدم من مستويات الوعى التى تكون مرتبطة عادة بالجوانب المنطقية المعقولة فى الحياة اليومية ، وقد اهتم السرياليون أكثر من غيرهم بالجوانب الخيالية اللامنطقية المضطربة الهائجة وهم يشعرون أن الجمال الأصيل يكمن فى التالى المعطى للحواس فى الأعمال المنفذة بهذه الطريقة ، لقد وجدت السريالية دائما قبل ذلك (فى حكايات الأطفال حول الجنيات مثلا) ولكن التعرف الواعى عليها كفلسفة جمالية فى العصر الحديث يعود الى زمن الحرب العالمية الأولى ، وجنودها المباشرة وجدت فى حركة فنية سابقة هي الدادية Dadaism وفى الفنون المختلفة ففن النشاط السريالى الكبير تمثل فى مجالات الأدب والتصوير والسينما ، والحركة تنقسم بشكل عام الى فرعين أساسيين : التعبير عن الأحلام والتعبير عن الاندفاعات التلقائية (الاوتوماتية) والرواد البارزون للاتجاهين فى التصوير هم سلفادور دالى وجوان ميرو وزينيه مرجريت ومارك شناجال وغيرهم ، وقد رسم دالى الأحلام فى كل أنماطها اللامنطقية بل والجنسية بشكل شديد الحماس لها كما فعل

سيجمنوند فرويد في سياق آخر أما جوان ميروفانه فيجسد نفسه من كل نشاط عقلي منطقي ومرتزن ويتيح الفرصة للأشكال كي تظهر في خطوطه وأشكاله بشكل تلقائي بالاعتماد على وجود دوافع وحاجات سيكولوجية داخلية ملحة وفنه متسابه لعمليات تركنا للقلم يتحرك بحرية ويتجول ويشرد على مجموعة أوراق ثابتة بينما نقوم بالحديث في التليفون ، هذا هو الرسم التلقائي ، وإن كان بعض السرياليين يعترضون على ذلك بقولهم إن هذا الرسم رغم إمكانية كشفه عن حياة باطنية ثرية فإنه يتم من خلال يد فنان حساس ومن ثم فليست هناك تلقائية تامة ، يؤكد أنصار هذه الحركة أيضا أهمية فنون الأطفال باعتبارها تجليات لاواعية للأعماق الباطنية في حالات تفتحها الأولى مثلها مثل فنون الكبار وإن اختلف مستوى الأداء والانجاز باختلاف مستويات النضج ، كذلك يحاول السرياليون تأييد النسق العام للحركة من خلال الإشارة إلى الفن الخيالي في القرن الخامس عشر على يد الفنانين الألمان الكبار وبصفة خاصة بوش Bosch وكذلك « أليس في بلاد العجائب » و« ونشيد الأناشيد » والفن البدائي وفيما بعد فإنهم أشاروا إلى الحالة المرضية البائسة للعالم اليوم التي هي مضادة للعقل إلى حد كبير بل تقوم أيضا باننهاكه (٧٥) .

إن عالم الجنون لدى السرياليين لا يشتمل على حالة فردية خاصة بإنسان واحد يحلم ويهلوس ويهذي ويتجول ، بل هو عالم أكبر متسع وفسيح الأرجاء ، يتخبط ويضطرب ، يحلم أيضا لكنه يسقط أكثر في براثن كوابيس الحرب والدمار والتخريب والأمراض والأوبئة والشروط الكثيرة المتفاقمة المتجولة بحرية ، توشك أن تنال كل شيء .

تعقيب عام على نظرية التحليل النفسي :

انتقد « ناجل » سنة ١٩٥٩ نظرية التحليل النفسي ليس بسبب تعامله مع مفاهيم نظرية ، ولكن بسبب عدم التحديد أو التعريف الإجرائي لطبيعة هذه المفاهيم أو للقوانين التي تربط بينها وبين السلوك ، كما أن الإطار لا يؤدي إلى تنبؤات جديدة وهذا يرجع إلى أن اللغة التي صيغت بها النظرية هي لغة مجازية شعرية ذات نسيج مفتوح ، كما أن هناك انتقادات كثيرة توجه إلى النظرية من وجهة نظر اجتماعية أو انشروبولوجية أو من وجهة نظر منطقية خاصة فيما يتعلق بغموض وتناقض العديد من مفاهيمها . ويعزى سوء تفسير الإطار التحليلي النفسي للمبدعات الفنية من ناحية إلى جنوحها إلى النظر إلى الأثر الفني كما لو كان بحسب من قبيل الألفاظ التي لا يتيسر قط فهم معناها بطريق مباشر ، كما يرجع من ناحية أخرى إلى إعادة النظر إلى الأعمال والرموز الفنية على أنها علامات مجردة جامدة تقليدية تجد شروحا في قاموس أو مرجع أو بالأحرى في كتاب

الأحلام . وقد اتهم هاويز A Hauser هذا الاطار بالرومانسية وقال بأن الطابع الرومانسى لمنهج التحليل النفسى فى الفن يظهر فى أوضح صورة له فيما يعزوه الى الملكات اللاعقلية والحدسية من دور كبير فى مضمار الابداع الفنى ، وقال أيضا بأن كلا من التحليل النفسى والرومانسية يشتركان فى النظر الى اللاشعور بوصفه مصدرا لصورة من صور الحقيقة الواقعية وأسلوب التداعى الحر يمثل نمطا آخر من أنماط الصوت الباطنى الذى نادت به الرومانسية (٧٦) .

لقد قامت الاطارات التحليلية النفسية بالتركيز على الجوانب الوجدانية والدافعية للظاهرة الفنية ، لكن تركيزها كان أقل على الجوانب الادراكية والمعرفية وقد نظر فرويد الى عملية الابداع الفنى على أنها عمليات تمويه واخفاء ومسارات فرعية للدوافع البيولوجية ، وأى محاولة لتمثيل أو تصوير أو تأويل الوجود الانسانى تم النظر اليها على أنها موجهة لخدمة الدافع الجنىسى ، ولذلك فانه يتم تحريفها بالضرورة . وقد أكد يونج على أهمية اللاشعور الجمعى والنماذج البدائية التى لولها - فى رأيه - لما تمكن « ملفيل » من ابداع رواية « موبى ديك » ، التى اعتبرها عملا كشفيا ، وقال بأنها أعظم رواية فى تاريخ الأدب الأمريكى ، كما أكد على أهمية الحدس والاسقاط وغيرهما من العمليات الغامضة التى تفتقد التحديد الاجرائى لمضمونها .

ثالثا : نظرية الجشطت والابداع الفنى :

مقدمة :

لم تكن نظرية الجشطت مجرد اطار سيكولوجى ، بل كانت عبارة عن اتجاه كلى حول لانساق والتنظيمات سواء كانت بيولوجية أو فيزيائية . ورغم أن تطبيقاتها الكبيرة فى علم النفس كانت فى مجال الادراك حيث كانت أكثر اقناعا ، فإن القليل من الوظائف السيكولوجية هو الذى لم يوضع فى الاعتبار داخل اطار هذه النظرية . لقد جاء اطار الجشطت بمثابة الاحتجاج أو الاعتراض الشديد ضد ما يسمى بالمنحنى الذرى ، أو الجزئى لدى الترابطيين والشرطيين بعد ذلك ، ذلك المنحنى الذى يؤكد على الخصائص أو الوظائف الخاصة المنعزلة ، وقد أكد أقطاب اطار الجشطت كوهلر W. Kohler وكوفكا K. Kaffka ، وفرتيهر M. Wertheimer بأن الفرد يدرك الموقف ككل . فلكل مميزاته وخواصه التى ليست للاجزاء ، ولا نستطيع أن ندرس خواص الكل من الجزء ، كما لا يمكننا دراسة خواص الماء من

مجرد دراسة خواص الأكسجين والأيدروجين اللذين يدخلان في تركيبه . (٧٧) .

لقد ظهرت هذه المدرسة كتعبير عن موجة جديدة من الامتزاج بين فلسفة الطبيعة والرومانتيكية في ألمانيا ، والتي بعثت بطريقة انفعالية قوية الشعور بالأسرار العظيمة للكائن الانساني ، والقوى الخلاقة للطبيعة في مقابل الآثار الضارة للعقلانية المفرطة في الصرامة التي حاولت تأكيد الانفصال بين العقل الانساني والحياة الطبيعية . وقد كان التفكير الجشطلتي ذا علاقة وثيقة ببعض الشعراء والمفكرين في الماضي ووضح مثال على ذلك هو جوته (٧٨) .

أما بعد ذلك وفي مجال التصوير فقد كان كاندنسكى هو أقرب الفنانين الى النظرية . ويؤكد هذا الاطار أهمية مفهوم « الاستبصار » وهو كما يذكر كوفكا مؤكداً ليس قوة تخلق الحلول بطريقة سحرية ، فالموقف يجبر الكائن على أن يتصرف بطرق معينة رغم أنه لا يمتلك الادوات الخاصة بهذا النشاط مسبقاً ، ويتم ذلك من خلال عمليات التنظيم وإعادة التنظيم . وكل تنظيم له جوانبه المختلفة مثل الاستقرار ، التصلب ، التعقد ودرجة التشكل وغيرها من الخصائص وينتج التنظيم عن التفاعل ، وإعادة التفاعل بين الكائن والبيئة . الاستبصار اذن هو تغير مفاجيء في ادراك الكائن لمشكلة ما ، وهو عند الانسان يشتمل على تنظيم أو توفيق للمعلومات بطريقة ذات معنى ، أو هو تحقيق الفهم الكامل للأشياء . وهو ليس دائماً نشاطاً فجائياً ، بل يمكن أن يكون تدريجياً ، انه عملية يدرك فيها الفرد العلاقات المختلفة التي بالموقف ويحاول تنظيمها وإعادة هذا التنظيم في وحدات جديدة تؤدي الى تحقيق الهدف المطلوب (٧٩) .

وقد امتد اطار الجشطلت بمفاهيمها ومحاولاتها التفسيرية الى مجالات عديدة من السلوك الاجتماعي ، والتعليم ، والنشاط الفني ، وغير ذلك من المجالات ، وقد تعرضت هذه النظرية لبعض الانتقادات بعد ذلك فالدراسات السيكلوجية الحديثة للادراك قامت بالقاء الضوء على عملية ادراك الشكل دونما حاجة للجوء الى المجالات الافتراضية الخاضعة بالدوائر العصبية الكهربائية التي افترضها الجشطلتيون ، كما وجه بيترمان B. Peterman وناجل وغيرهما بعض الانتقادات اليها على أساس فلسفة العلم ، وكان أغلب الانتقادات موجهة الى المحاولات التي قدمها علماء الجشطلت لتحديد طبيعة الجشطلت الحقيقي ، وعن علاقة الكل بالأجزاء والشكل بالأرضية وغير ذلك من التصورات (٨٠) .

لكن على كل حال فإن الأمر الجدير بالذكر هو أنه من خلال اطار الجشططت جاء تعاطف قوى وفهم عميق للفنان ، « فمن خلال تنظيم الحقائق الطبيعية وفقا لقوانين الاتضاح Pragnanz والوحدة Unity والعزل Segregation والتوازن Balance وغيرها يمكن للفنان أن يكشف عن التناغم والنظام ويدين بوعيه التنافر والفوضى فى كل شىء (٨١) »

١ - المفاهيم الأساسية :

(١) الجشططت : Gestalt

كلمة ألمانية ليس لها مقابل دقيق فى اللغة الانجليزية وقد اقترحت مصطلحات عديدة لهذه الكلمة مثل « الشكل » Form والنشكيل أو الصياغة Configuration أو الهيئة Shape وكذلك الجوهر Essence والطريقة أو الطراز manner ، ورغم عدم وجود ترجمة تتسم بالكفاءة التامة فإن المصطلح قد شاع فى الانجليزية ، بدرجة كبيرة وحدث نفس الأمر فى اللغة العربية والبؤرة المركزية للمصطلح هو أنه يستخدم للإشارة الى « الكليات » الموحدة والبنىات Structures الكلية أو الكاملة التى لا يفهم الكشف عن طبيعتها ببساطة من خلال تحليل عناصرها المنفصلة المكونة لها على حدة ، والفكرة هنا هى أن الكل مختلف عن مجموع أجزائه انه ليس مجرد جمع الأجزاء ، ويشكل هذا المبدأ جوهر حركة علم نفس الجشططت وهى الحركة التى نشأت فى ألمانيا حوالى عام ١٩١٠ وما بعدها فى مقابل علم النفس الذى كان يهتم بتحليل العمليات والنشاطات النفسية الى عناصر ومكونات فرعية حيث كان ذلك سائدا لدى اتباع المدرسة البنيوية (أو البنائية المبكرة فى علم النفس ، لدى تيتشنر مثلا) فى ألمانيا أيضا ، وينمى علماء نفس الجشططت بأن الظواهر النفسية يمكن أن تكون قابلة للفهم فقط اذا تم النظر اليها باعتبارها كليات منظمة ذات شكل خاص ، فالتفاحة مثلا ليست مجرد تجميع للعناصر الأساسية المكونة للتفاح مثل اللون الأحمر ، الشكل الخاص ، الصلابة ، الاستدارة « الرائحة » الخ فالكل الذى يكون شكل التفاحة أو جوهرها « ليس مجرد ناتج عملية جمع هذه العناصر » (٨٢) ويوجد هذا الكل فى كافة نشاطات الانسان كالاستماع للموسيقى والادراك والتعليم والتفاعل الاجتماعى والابداع وغيرها ، هذا الكل يتم الوصول اليه كثيرا من خلال عمليات التنظيم ، إعادة التنظيم لهذه العناصر المكونة لهذا الكل ، ومن خلال عمليات خاصة بالاستبصار والتوازن والادراك والتعبير وغيرها وهى العمليات التى نعرض لها فى مواضع تالية من هذا الفصل .

(ب) الاستبصار : Insight

يشير هذا المصطلح بشكل عام الى عملية الفهم أو الادراك الحدسى للطبيعة الداخلية لشيء ما ، وهناك معان عديدة أكثر تحديدا منها اثنان يرتبطان بالاستبصار الشخصى هما :

(أ) أى عملية وعى ذاتى ، أى معرفة ذاتية أو فهم ذاتى فى مواقف الحياة العادية .

(ب) فى مجال العلاج النفسى يشير المصطلح الى عملية فهم المرء لحالته العقلية أو الانفعالية التى لم يكن يفهمها من قبل بمثل هذا القدر من الوضوح .

هنا نلمح تمييزا بين الاستبصار العقلى الذى هو نوع من الفهم النظرى لحالة المرء أو لعملياته ونشاطاته السيكولوجية ، ومع ذلك يمكن أن تظل هذه العمليات والنشاطات غريبة أو مغتربة عن ذاته - وبين الاستبصار الانفعالى الذى يعتبر الفهم الحقيقى العميق لهذه الذات .

وهناك معنيان آخران يرتبطان بالاستبصارات البيئية أو الموقفية .

(ج) التفهم الواضح الجديد المفاجئ لحقيقة شيء ما يحدث دون مصدر واضح من مخزون الخبرات الماضية فى الذاكرة .

(د) داخل علم نفس الجشطالت - وهو المعنى الذى يعنينا أكثر من غيره من المعانى السابقة ، يشير هذا المصطلح الى العملية التى يتم من خلالها حل المشكلات ، هنا يتميز الاستبصار بحدوث عمليات تنظيم وإعادة تنظيم أو إعادة تركيب مفاجئة لنمط معين من المشكلات أو حتى للجوانب الجوهرية منه ، مما يسمح للمرء بالتقاط العلاقة المناسبة للحل ، هنا يمثل الاستبصار نوعا من التعلم ، ويتميز بأنه يحدث من خلال الشكل المسمى : الكل أو لا شيء ، فالاستبصار أما أن يحدث أو لا يحدث كذلك فإن عمليات الفحص الدقيقة للسلوك الاستبصارى تكشف عن أنه يحدث تدريجيا خطوة من خلال التنظيم وإعادة التنظيم ، أما الخطوة الأخيرة فى طريقة الحل فهى ما تحدث بشكل مفاجئ وتصاحبها الدهشة (٨٣) .

(ح) التشاكل : Insomorphism

فى مجال الرياضيات يشير هذا المصطلح الى العلاقة الوثيقة - نقطة بنقطة - بين نظامين رياضيين .

أما لدى علماء نظرية الجشططت فيشير هذا المصطلح الى مثل العلاقة المفترضة بين مجال الاثارة العصبية في قشرة المخ وبين الخبرة الشعورية لاحظ أن الاتفاق ليس مفترضا هنا بين المنبه الطبيعي وعمليات المخ بين عملية ادراك هذا المنبه الطبيعي وعمليات المخ (٨٤) . ولاحظ بعد ذلك كيف امتد علماء الجشططت بهذا المصطلح لتفسير العديد من النشاطات الانسانية ومنها الابداع الفنى خاصة فى نظريتهم عن التعبير .

(د) الاتزان : Balance

ان أية حالة يتم فيها معادلة أو مساواة القوى المتعارضة تسمى حالة اتزان ويشيع استخدام المصطلح فى علم الجمال وفى دراسات التفاعل الاجتماعى والحالات الانفعالية (٨٥) .

(هـ) الجشططت الجيـاء :

أى شكل أو تشكيل أساسى مستقر ، تتحقق فيه خصائص الكلية والاتزان والوضوح والنظام (كما فى حالة الأشكال الهندسية مثلا) كمثال مبسط .

ويتعلق هذا بالمبدأ الجشططتى الخاص بالتنظيم والذي يقرر أن الأشكال المدركة أو المحسوسة تميل الى أن تكون ذات بنية أكثر تماسكا ، أى أكثر تحديدا وأكثر تناسقا (أو تناغما) وأكثر استقرارا وأكثر بساطة وذات معنى أكبر (٧٣) .

٢ - الادراك والتمثيل :

يقرر علماء الجشططت انه من بين الاحتمالات العديدة التى تكون متاحة لتجميع المادة الخام الخاصة بموضوع معين وتشكيله فى شكل كلى خاص يقوم المرء فقط باختيار ذلك الاحتمال و ذلك النشاط الذى ينتج عنه « أفضل بنية ممكنة وأن هذه الملامح الخاصة المميزة لبنية الكل الأساسية الخاصة بالشكل أو الصيغة الناتجة تشتمل على حالة (أو نزعة) تجعلها تبرز أو تظهر ومن ثم يتم ادراكها أولا » (*) .

(*) نظر بعض علماء الجشططت - مثل « مايل » Maille الى الكل باعتباره « المعلومة » أو البيان النفسى الأساسى أو الجوهرى ، فالخصائص المميزة للكل لا يمكن استنتاجها من الأجزاء المنفصلة ، وتحدد هذه الأجزاء نفسها وكذلك مواضعها داخل الكل من خلال الطبيعة الخاصة أو التنظيم الخاص لهذا الكل ، لكن ما يلى اختلاف مع منظرى الجشططت الذين استخدموا كلمات « جشططت » ، وشكل Form وبنية Structure =

هذا يعنى أن اختيار أو تمييز الأفراد الفعلية من الصيغة الكلية قد حدث اعتماد على الوظيفة البنائية (أو التركيبية) لهذه الأجزاء (٨٦) .

ان هذا يتم من خلال ذلك الميل الى الاتزان Balance الذى هو بالنسبة لارنهام وكذلك علماء الجشططت كافة - خاصية دينامية أساسية موجودة فى المخ الانسانى ، فعمليات هذا المخ تميل الى اتوازن فى علاقات تفاعلية مجالية مركبه ، لكننا يجب الا ننظر الى عمليات التوازن الجسمية وعمليات الاتزان الادراكية على انها متماثلة أو باعتبارها نفس العمليات ، حيث ان الاتزان الادراكي له قوانينه الخاصة التى قد تسير أيضا بشكل يناظر تلك العمليات الخاصة بالتوازن الجسمي أو الفيزيقي (٨٧ ، ٨٨) وفى حقيقة الأمر فان نشاط هذه القوانين فى مجال المنبهات البيئية أو الفيزيكية يكون له تأثيره الواضح على المجال السيكولوجي ، فمثلا يقوم الاتزان باستبعاد الغموض والتشتت من مجال القوى السيكولوجية ، وعلى العكس من ذلك فان نشاط هذه القوانين (أى قوانين الغموض والتفكك وعدم الاتزان والاختلاف أو التنافر) فى المجال السيكولوجي يميل الى تحقيق الاتزان فى مجال الفن بشكل عام حيث ينشط الفنان للتغلب على هذه العوامل التى تعمل ضد الاتزان وتجاوزها ، ويهتم علماء الجشططت هنا بشكل خاص بقوانين فقدان الاتزان وكذلك قوانين البحث عن الاتزان وتحقيقه فى شكل تكوينات فنية ، فكل العمليات الحيوية اذن ينبغى ادراكها باعتبارها عمليات دينامية نشطة تواقة للوجود ، انها تكون فى حالة صيرورة وتغير ، كما أنها تظهر جهدا مستمرا لتنظيم القوى المتصارعة فى المجال الادراكي أو حتى العقلي للفنان فى نوع من الاتزان ، هذا السعى نحو الاتزان التكويني الذى يظهر فى النشاط الفنى يعكس نزعة ربما كانت هى الباعث الرئيسى فى كل أنماط النشاط الانساني ويتمثل هذا الباعث - أو الدافع - فى البحث عن الاتزان والنظام ، ان القوى السيكولوجية الأساسية ، أى قوى الادراك والتفكير والذاكرة والصورة والتمثيل العقلية تكون فى حالة دائمة من التنظيم وإعادة التنظيم ، ومن بين كل أنماط وأشكال وتشكيلات هذه العمليات يلتقط الفنان شكلا واحدا فى لحظة ما ويعرضه (٩٠) .

ورغم أن التجارب التى قام بها علماء الجشططت قد أظهرت أنه اذا تم اضعاف تأثير الشكل المنبه من خلال العرض السريع أو الاضاءة الخافتة أو البعد (المسافة) الزماني والمكاني . . الخ فانه يتم ادراك الأشكال

= وكل Whole باعتبارها مترادفة ، ومن ثم قام بالتمييز بين الشكل ، أو الجانب الشعوري الظاهري من ادراك الكل وبين بنية هذا الشكل التى لا تكون متاحة بشكل مباشر لكنها تصف الطراز المألوف الذى تنتظم من خلاله الأجزاء معا (٨٩) .

بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تم من خلالها ادراك هذه الأشكال سابقا ، وهى فى حالة اكتمالها ، ولا يكون هذا الاختلاف واضحا فى نقص اكتمال هذه الأشكال فقط ولكن أيضا فى ظهور أنماط تمثل بنية النموذج الأصلي بطريقة أكثر بساطة ، من خلال أشكال منتظمة وغالبا متناغمة أو متناسقة ، وفى حالات كثيرة لم تكن هذه الأشكال موجودة أصلا فى النماذج الخاصة بالأشكال الأصلية .

يفسر أرنهايم هذه النتائج من خلال قوله ان الأمر يبدو كما لو كان هامشى الحرية - حرية الادراك والتفكير والتخيل طبعا - الذى توفر نتيجة التقليل من تحكم المنبه الأصلي ، قد قام - هذا الهامشى بتعزيز أو ابتعاث نزعة خاصة فى أعضاء الحس لدى هؤلاء الأفراد لانتاج أشكال بسيطة منتظمة بشكل تلقائى . هذه النزعة يمكن أن تكون أساسية فى كل العمليات الإدراكية بشكل عام ، وهى يمكن أن تظهر خلال النشاط الفنى مثلا فى شعور الفنان بالمشكلات والأشياء الناقصة الغامضة بعيدة المنال المؤلمة المتناقضة فى الواقع ومن ثم تكون محاولاته من خلال الابداع لانتاج الأعمال الفنية البسيطة والمنظمة هى محاولته الخاصة للتغلب على هذه المشكلات الخاصة التى يدركها موجودة فى الواقع ، ان عملية الادراك ربما كانت تتكون من تطبيق الفئات الإدراكية Perceptual Categories كالاستدارة والاحمرار ، والصغر ، والكبر ، والتناسق والأفقية ، والرأسية ، وكذلك الفئات العقلية أو الجمالية أو حتى الأخلاقية كالخير والحق والجمال والصدق والعدالة والمساواة . . الخ على المدى الكبير المنبه للفنان الذى هو الواقع فى تمثيلاته العيانية ثم ان ناتج عملية التطبيق هذه ينتج عنه تكوين تصور خاص أو رؤية خاصة أو تمثيل (*) عقلى خاص يتوصل اليه الفنان تدريجيا ثم يقوم بالتعبير عنه فى شكل عمل فنى . ان تطبيق مثل هذه الفئات الإدراكية أولا على الوقائع المنبهة المحيطة بالإنسان عامة - والفنان خاصة - يمكن ان تستشعر بداخله بنية خاصة جديدة يتم تمثيلها والتعامل معها عقليا . مع التأكيد مرة أخرى على أن بنية الشكل المعطى ادراكيا فى البداية تلعب دورا هاما كبيرا فى اثاره مثل هذه البنية العقلية التمثيلية - حتى فى شكل مجرد - وتكوينها .

(*) التمثيل كما يستخدم فى علم النفس الحديث هو العملية التى يحل من خلالها شئ محل شئ آخر أو يرمز اليه كبديل له ، وقد تكون عملية التمثيل هى بمثابة الخريطة العقلية المباشرة لموضوع معين ، أو قد تكون رمزا عقليا له فى شكل صورة أو فكرة أو قد تكون بمثابة عملية تجريد عقلية للخصائص المميزة للموضوع (٩١) وتكون بمثابة التقرير للقواعد الأساسية التى يحتفظ المرء من خلالها بالواقع التى تواجهه ، هذه الانتقائية تعمل على تكوين مثال أو نموذج لشيء ما ، فنحن لا نضع فى التمثيل كل ما يتعلق بالشيء الاصل وقد يكون مادة احتفاظنا بتمثيلاتنا العقلية هى صورة أو كلمة أو أى اشكال رمزية أخرى =

اننا عندما نرى وجهها انسانيًا ، هناك ، حتى للمرة الأولى ، هل نقوم في البداية بالتسجيل السلبي أو الكامن أو حتى المستتر أو غير الفعال لكل أو بعض خصائص هذا الوجه كاستدارته وأحجامه وألوانه وما يشتمل عليه اما من خلال تجميع هذه المكونات أو من خلال ادراك الكل ؟ ألا تعني رؤية وجه ما عملية خاصة بانتاج نمط يشتمل على الخصائص العامة المميزة استقامة الحاجبين وبروز الأنف وزرقة أو سواد العينين مثلاً ؟ ان ما ندركه يكون عبارة عن تكيف – أو مناسبة – الخصائص الادراكية المميزة مع البنية التي أوحى بها المادة المنبهة أكثر من ادراك هذه المادة نفسها ، فهذه الأنماط الكلية من فئات الشكل والحجم والنسبة والتناسب واللون .. الخ مع التعبيرات التي تحملها هي ما نتوصل اليه عندما نرى ونتعرف ونتذكر هذه الوجوه هذه الفئات الادراكية هي الشروط المسبقة الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها حيث انها هي التي تسمح لنا بفهم ما ندركه أو بأن نفهم ادراكيا ما نواجهه .

ان الفئات الادراكية يمكن وصفها باعتبارها عامة ويمكن وصفها باعتبارها مجردة أيضا وذلك لأنها ليست مقصورة على موضوع محدد ولكنها يتم اكتشافها ومن ثم تطبيقها على أي موضوع يتناسب معها .

ان هذه الفئات الادراكية في ضوء التصور الجشطالتي ليست نواتج تقديرية تم الحصول عليها من خلال الخبرة التي تراكمت نتيجة التفاعل مع عدد كبير من الحالات الفردية ، ولكنها بدلا من ذلك (اذا استعرنا مصطلحات كانط) « أشكال خالصة من الادراك الحسي » تتسم بالتلقائية ، وتكون ممكنة التفسير في ضوء تلك النزعة الخاصة نحو البساطة البنائية وهي النزعة التي تحدث بشكل خاص في قشرة المخ البصرية Visual Cortex كاستجابة لعمليات التنبيه ، ان الشكل المنبه الفردي يدخل فقط الى قلب عملية الادراك عندما يستثير نمطا خاصا من الفئات الحسية العامة ،

مناسبة (٩٢) التمثيل اذن هو العملية التي تصبح من خلالها المعرفة في متناول الذهن ومن خلالها كذلك تتكون الصور التي نفكر فيها أو من خلالها ويعرف جان بياجيه التمثيل بأنه العملية التي يتم من خلالها احضار وعرض شيء ما ليس حاضرا أمام الحواس (٩٣) . ويعترف ريتشارد ولهيم R. Walheim بوجود اختلافات كبيرة بين العلماء في تحديدهم للمصطلح وفقا لمواقفهم النظرية ، فالبعض يفترض تماثلا كبيرا بين التمثيلات العقلية والموضوعات الواقعية ، بينما يفترض نظرية المعلومات ان هذا المفهوم يشير الى حالة عقلية تشتمل علم المعلومات التي تشتمل عليها نفس الموضوعات الواقعية لكنها لا تقتصر عليها فقط ويخلص ولهيم الى ان تحليل عمليات التمثيل يجب ألا يشتمل فقط على ما هو موجود بين شكل صورة محددة ، ولكن أيضا ما يمكن رؤيته من خلال تحويل هذه الصورة أو التمثيلات أثناء نشاط الخيال (٩٤) .

هذه الفئات هي البدائل العقلية للمنبهات الحسية كما هو الحال عندما يقدم وصف علمي لشبكة من المفاهيم العامة باعتباره مكافئاً لظاهرة معينة موجودة في الواقع (٩٥) . ومتلماً تكون طبيعة المفاهيم العلمية مانعة لهذه المفاهيم من أن تمسك بهذه الظاهرة « نفسها » بشكل مباشر ، كذلك تكون الفئات الإدراكية غير قادرة على أن تشتمل على المادة المنبهة ذاتها أما بشكل كلي أو بشكل جزئي فالوصف العلمي الأقرب للتفاحة مثلاً يمكن أن يعطى من خلال قياس وزنها ، وحجمها ووضعها في المكان (أفقى / رأسى) ، وطعمها . الخ .

أما الفئة الإدراكية الأقرب لهذه التفاحة فيمكن أن تتعلق أكثر بالنمط النوعي المتعلق بخصائصها الحسية كالاستدارة والتقل والطزاجة والاحمرار والاختصار . الخ . ان هذا يعنى أن العمليات الأولية الأساسية في نشاط الإدراك ليست مجرد عمليات تسجيل سلبية للمنبهات الحسية ، ان الإدراك يشتمل على نشاطات إبداعية خاصة بالوصول الى - أو اقتناص - البنية الأساسية المميزة لموضوع معين أن ما يحدث عند مستوى العمليات العقلية العليا ويتم وصفه باعتباره فهماً أو استبصاراً .

ان الإدراك يشتمل على تجريد من حيث انه يقوم بتمثيل الحالات الفردية من خلال أشكال أو تشكيلات خاصة من الفئات العامة فالتجريد اذن يبدأ ويوجد عند أكثر مستويات المعرفة تمهيدية أو أولية ، أى مع اكتساب المعلومات الحسية . هذه الوجهة من النظر تتطلب منا أيضاً أن نتحدث عن المفاهيم الإدراكية **Perceptual Concepts** فمثلاً يكون علينا أن نميز بين المفهوم الإدراكي « الوزن » مثلاً الذى يشير الى الخبرة العضلية الخاصة بالشعور بالتقل وبين المفهوم العقلي الخاص بالوزن باعتباره يشير الى القوة التى تقوم بها الأرض بجذب موضوع معين . ويتفق هذان الاستخدامان مع المتطلبات الأساسية للمفاهيم من خلال كونهما خصائص عامة قابلة للتطبيق على حالات خاصة أو نوعية (٩٦ ، ٩٧) .

ان عملية الإدراك اذن فى ضوء التصوير الجشطلتي هي عملية نشطة ايجابية انتقائية تختار وتقوم بالتحديد ، ليست عملية سلبية كما نظر اليها بياجيه وليست مرحلة أولى فى العمليات المعرفية كما نظرت اليها مدارس عديدة فى علم النفس لكنها عملية كلية تستند على مفاهيم وفئات إدراكية كلية خاصة بها هي عملية قادرة على الاختيار والاستبعاد ، على الاشتمال والتضمن لكل ما هو جوهرى وأساسى فى تكوين البنيات أو الأشكال أو الصيغ الكلية وعلى الترك والتجاهل لكل ما يتناقض مع هذه البنيات الجشطلتية أو يعمل ضدها .

٣ - المفاهيم التمثيلية :

تستعمل سيكولوجية التجريد الفنى على مشكلات أخرى غير مشكلات الإدراك ، وتتعلق هذه المشكلات - الأخرى - أساسا بعمليات التمثيل ، فإدراك الشيء ليس معناه تمثيله عقليا • ومع ذلك - كما يقول أرنهايم - فإن قدرا كبيرا من الكتابات حول نظرية الفن تستند على افتراض ضمنى بأن التمثيل (خاصة فى مجال الفنون التشكيلية) هو عملية محاكاة أو نسخ لعملية الإدراك وأحيانا ما يتمسك هؤلاء المنظرون بأن الفئة الإدراكية (المدرك) الخاصة بموضوع معين أو بنموذج (موديل) له • هى المادة الخام لعمليات التمثيل التى يتم اشتقاق الشكل النهائى للعمل منها من خلال نوع من النشاط الذى يشتمل على مجرد اضافة أو حذف بعض العناصر ، من خلال التغيير أو التحريف أو من خلال التفكيك أو التجميع • ويؤكد أرنهايم أن ما يسميه بالمفهوم الإدراكى ليس مشتقا من الشكل المنبه من خلال مجرد عمليات الاختيار والتجميع وإعادة التنظيم لكنه بدلا من ذلك هو مكافئ بنائى له ، أى نمط من الفئات الإدراكية وبنفس الطريقة فإن التمثيل التشكيلى (الصورى) ليس نسخة متكررة أو معالجة للمفهوم الإدراكى • اننا عندما لا نستطيع أن ننتج شيئا ما بشكل مباشر ، أو عندما يكون الانتاج المباشر مشتملا على أخطاء أو أفكار غير مقبولة فاننا نقوم بتطوير المكافئ البنائى من خلال الوسائل التى يقدمها لنا وسيط التمثيل الذى تستخدمه وهو اللون والخط لدى المصور وهى اللغة لدى الشاعر والمصور وهى النغمات الموسيقية لدى المؤلف الموسيقى • الخ •

فاذا كانت عمليات الإدراك تشتمل على خلق أو ابداع أنماط من الفئات الإدراكية التى تتسم بكفاءة التعامل مع الأشكال المنبهة ، وإذا كان عمل الفنان يشتمل على تمثيل لمثل هذه الأنماط ، فانه يكون عليه فعلا أن يبتكر شكلا (على هيئة لوحة - قصة - قصيدة • الخ) لا يمكن رؤيته أو اكتشافه ببساطة بشكل مباشر من خلال مجرد قراءة أو فحص المفهوم المدرك • ان هذا يعنى أن الفن هو نشاط يهتم فى جوهره باكتشاف أشكال وصيغ جديدة ، فالانتاج الآلى الخاص بموضوع ما من خلال كاميرا مثلا أو من خلال سرد ما حدث فعلا سيسمح بشكل عام بتحديد الموضوع ، واستخلاص بعض خصائصه المميزة ، لكن شكله سيكون - على الأقل جزئيا - متسما بالفوضى أى غير مفهوم اذا تمت مقارنته بالتمثيل الأصلى للنموذج باعتباره نمطا خاصا بشكل جيد التحديد •

ان التمثيل يشتمل على عملية خاصة برؤية نمط خاص داخل الشكل المنبه وبطريقة تتناسب مع بنيته (أى بنية هذا الشكل المنبه) وغالبا

ما تكون هذه مشكلة شاقة أو حتى غير قابلة للحل – وتشتمل عملية التمثيل كذلك على عملية خاصة لابتكار المكافئ أو المقابل أو النظر الفنى المطابق بهذا النمط ، ويمكن القيام بهذا من خلال طرائق عديدة مختلفة ، لكنها متساوية الصلاحية أيضا ، فالخطوط المتعرجة أو المتموجة التى استخدمها « فان جوخ » مثلا لتمثيل أشجار السرو * لم تكن موجودة فى الشكل المنبه ولا فى النمط الإدراكى الذى انتجه الفنان كاستجابة لعملية التنبيه التى تكونت نتيجة لضربات الفرشاة المتموجة ، وبدلا من ذلك فان هذه الضربات أو اللمسات المتموجة كانت هى المكافئ البصرى (أو الصورى) لهذا المفهوم الإدراكى ، أى المحاولة التى تم من خلالها تحويل هذا المفهوم الإدراكى الى شكل محسوس أو واقعى ، أى ترجمة لهذا المفهوم من خلال وسيط تشكيلى بدلا من كون الأمر إعادة انتاج لذلك المفهوم الإدراكى الخاص (٩٨) .

وهكذا فان عملية التمثيل تشتمل على عملية ابداع ، من خلال وسائل وسيط خاص لمكافئ للمفهوم الإدراكى . فالدائرة مثلا مشتقة بشكل مباشر من الوسيط الخاص بالرسم الذى تكون وسائله الأساسية هى الخطوط وأحادية البعد One-dimensional Lines ، والمفهوم الإدراكى الذى ساعد على ظهور أو انتاج الدائرة يمكن أن يؤدي الى تمثيل مختلف اذا قمنا بمحاولات مختلفة لتمثيله من خلال فرشاة الوان مائية مثلا أو من خلال أقلام مكعبة الشكل Cubic أو من خلال الصلصال . أو غير ذلك من وسائط تمثيل التمثيل (**).

وأيا كان الوسيط سيكون هناك تماثل بنائى ما بين التمثيل والمفهوم الإدراكى مثل هذا التماثل أو التشابه بين التشكيلات أو الأشكال من خلال وسائط عديدة (أو بين التمثيل الداخلى والتمثيل الخارجى له) هو ما أطلق عليه علماء الجشطالت اسم التشاكل أو وحدة الشكل . ويظهر ذلك بشكل بارز ومباشر بشكل خاص عند حديثهم عن التعبير (٩٩) .

ان التمثيل الفنى غالبا ما نظر اليه باعتباره نوعا من الجراحة التشكيلية التى تجرى على المادة الخام للخبرة ، وهكذا يقال ان الشاعر يقوم فقط بحذف أو اضافة العناصر يغير أو يحرف فيها ، يفكك أو يجمع ما قام

(*) شجر من الفصيلة الصنوبرية .

(**) المقصود هنا أن عمليات وضع أو تمثيل الدائرة على الورقة هى عمليات خاصة بمحاولة استخراج التمثيل الذهنى الداخلى – لدى الطفل مثلا – ورسمه أو تنفيذه ، هنا يكون التمثيل الخارجى – على الورق تمثيلا – أو ممثلا – لناتج عمليات التمثيل الداخلية فى الذهن .

بملاحظته ، لكن مثل هذه الوجهة من النظر كما يقول ارنهايم تهمل أو تتجاهل ذلك التمييز الأساسى بين الخبرة وبين تمنيلها من خلال وسيط فنى أن الرؤية الأصلية لموضوع مثل السطح اللامع لشلال من المياه يمكن أن تكون دقيقة تماما فيما يتعلق بالخصائص الإدراكية والتعبيرية المميزة لهذا المشهد . لكن مثل هذه الخبرة لا تتكون فى جوهرها من خطوط وألوان يمكن نقلها ببساطة الى سطح اللوحة أو تتكون من كلمات يمكن تسجيلها ببساطة على الورق على هيئة قصيدة مثلا .

لقد أشار هنرى برجسون فى « مقدمة للميتافيزيقا » الى أن هناك طريقتين مختلفتين تماما للوصول الى شىء ما أو امتلاكه ، الأولى هى أن ندور حوله والثانية هى أن ندخل اليه ، والأسلوب الثانى يشير الى الرؤية المباشرة الحدسية لطبيعة الموضوع ، بينما يشير الأسلوب الأول الى المهمة الطويلة والشاقة الخاصة بتكييف الخبرة مع وسائل مناسبة (للتمثيل تقدمها لنا وسائط خاصة كمفاهيم اللغة العلمية أو الأدبية وليس هناك من تحويل مباشر للخبرة الى شكل ، بل ما يوجد هو بحث عن الرموز المكافئة (١٠٠) .

ان الخصائص النوعية المميزة للوسائط الفنية المختلفة هى المسئولة الى حد ما عن تلك التأثيرات المختلفة التى نحصل عليها من خلالها . فالرسام قد يمثل « المقبرة » من خلال تقديم صورة لمظهرها البصرى المرئى وخلال قيامه بذلك يقوم بالتأكيد على بعض الخصائص التعبيرية للموضوع كالحزن أو السكون المحيط بهذا المكان . وقد قام المؤلف الموسيقى سانت ساينز Saint-Saens فى مقطوعته « رقص المقابر » Dance Macabre أو « رقصة الموت » بمحاكاة بعض الخصائص الصوتية النوعية الخاصة مثل خشخشة (أو طقطقة) العظام أو اصطكاكها وصياح الديك وغير ذلك من الأصوات ، وإضافة الى هذه العناصر التصويرية قام هذا المؤلف بأداء أو بعزف الطرب الكئيب المخيف الخاص برقصة الموت من خلال ايقاع وصوت « مجرد » بطريقة تحدد النغمة التعبيرية والشعورية لخبرته . انه لم يقم بتحديد فناء الكنيسة أو مساحتها كما قد يفعل مصور (ما لم يكن هذا المصور يقوم بعمله من خلال شكل لا يتقيد بموضوع عيائى محدد) . فلم يقم هذا المؤلف الموسيقى بتصوير خبرة خاصة بشىء محدد من خلال موسيقاه ، وكان معظم عمله يشتمل على اشارة أو احالة الى مدى أو نطاق ممكن من المواقف والحالات الجسمانية والنفسية التى تتناسب مع البنية الموسيقية عندما يقول الكاتب « مقبرة » فانه يقوم بالتماهى (أو التوحيد) ما بين مكان طبيعى محدد وبين اسم معين اسم يمكن أن ينطبق على مجموعة من المقابر وليس مقبرة بعينها انه لم يحدد هنا لا الخصائص الإدراكية

ولا الخصائص التعبيرية لهذه المقبرة أما كلمة ظلام أو « ظلمة » فهي تحدد خاصية ادراكية وتحدد كلمة « خوف » خاصية أو رد فعل عقلي في مواجهة هذا المكان . ولا توجد أية كلمة من الكلمات الثلاث السابقة – رغم قدرة كل كلمة منها على انارة نوع المحتوى الشعوري أو العقلي المحدد والخاص بالكلمتين الآخرين قادرة على أن تستثير هذه الحالات بشكل صريح أو في حد ذاتها فالمقبرة يمكن أن ترتبط بالخوف لكنها يمكن أن ترتبط أيضا بالسكينة والخلود الى الراحة الابدية ، والظلام – أو الظلمة – قد يرتبط بالمقبرة أو ترتبط بخشبة المسرح ، والخوف قد يرتبط بالظلام أو بالضوء .

ان الكلمات التي هي أحجار البناء في اللغة ، اما أن تقوم بتحديد خصائص عامة دون أن تشير الى الموضوعات التي ننتمي اليها هذه الخصائص، أو تقوم بتحديد الحالات الفردية مجموعات الاشياء دون تحديد خصائصها أو صفاتها (١٠١) في مجال الشعر يبدو أنه من الصحيح أن نقول ان الشاعر يقوم بشكل متكرر باستخلاص خبرته والتعبير عنها من خلال تأكيده على الخصائص الادراكية التي تجعل هذه الخبرة تنسم بالتعبيرية .

عند تسمية الانسان للأشياء فانه يقوم بتحديد الحالة الفردية ونسبتها الى مجموعة أو فئة من الموضوعات والفن مشتملا على الشعر يقوم بوظيفة مماثلة من خلال كشفه عن الطبيعة العامة للأشياء وليس من خلال تسجيل التجليات الفردية لها ، ان الفنان من خلال تجريده للمظهر الطبيعي للخبرة والأشياء في اتجاه القيم التعبيرية الأساسية يقوم بابتعاث العام في الخاص والكشف عنه (١٠٢) .

٤ - الخصائص الفراسية : Physiognomic characteristics

اضافة الى ذلك التأكيد الكبير لدى منظري الجشطالت على الخصائص الكلية العامة الاجمالية للموضوعات المدركة هناك تأكيد آخر لا يقل أهمية عما يسمى بالخصائص الفراسية أو التعبيرية للموضوعات .

لقد لاحظ العلماء الذين قاموا بدراسة لغة الطفل أن الكلمات المبكرة لديه تكون محملة بالمعاني العاطفية والانفعالية أكثر من تحميلها بالمعاني العقلية ، وقد فسر العالم فيرنر Werner ذلك خلال أربعينات هذا القرن من خلال قوله بأن ذلك يحدث نتيجة الخاصية الفراسية لادراك الطفل وتصورات ، فالشكل الفراسي للادراك يفترض أنه يستخدم بكثرة بواسطة الحيوانات والأطفال البدائيين ، ويستثار كذلك بشكل أساسي من خلال الحقيقة القائلة بأن الموضوعات تدرك أولا وبشكل جوهري من خلال الاتجاهات الحركية الانفعالية للقائم بالملاحظة أو الادراك والذي يقوم

باسقاط حالته الحركية والبصرية على هذه الموضوعات ، ومن ثم يتم ادراك الموضوعات من خلال خواصها الدينامية المنسوبة اليها وذلك فى مقابل عمليات الادراك التى تتم من خلال الخواص الهندسية أو الواقعية المحددة للموضوعات . وحيث ان الطفل يستخدم غالبا اللغة المعبرة عن متباعره وحالاته الحركية لوصف الأشياء ، وهى فى حالة حركة فانه يقال ان تفكيره احيائي Animistic ، وقد أرجع فيرنر ميل الأطفال الى تشخيص الموضوعات والأشياء أو « شخصيتها » وجعلها كالأشخاص الحية الى ذلك الشكل الفراسى للادراك والمعرفة ، كما انه نظر الى « الاحيائية » باعتبارها شكلا متطورا وأكثر تفصيلا لهذه النزعة (١٠٣) .

ان التعبير عن هذه الخصائص كما استنتج « سوييف » فى دراسته الرائدة عن الشعر هو أهم ما يميز الكتابة الأدبية على الاطلاق (١٠٤) .

من الوسائل التى يستطيع الشاعر — كما يقول أرنهايم — أن يعطى من خلالها تعبيرا واقعيا (عيانيا) للأفكار أو الظواهر الطبيعية أو النفسية هى ما يسمى باللغة البدائية ، فالشاعر لا تتكون مهمته فقط من تحديد الأشياء والوقائع ولكن يكون عليه أيضا أن ينقل الخبرة الحية الخاصة بالقوى المتفاعلة فى مجاله بشكل تعبيرى . هذه القوى تكون نشطة أساسا من خلال الحواس ، فقد يخبرنا أحد الأشخاص بشكل صحيح ولكن بطريقة غير شعرية أن التكرار المستمر لحركة موجات البحر يوحى بالزمن بشكل مختلف عما توحى به حركة العمل والكدح اليومية للإنسان ، أما الشاعر ت . س اليوت فقد أعطانا فى إحدى قصائده (الرباعية الثالثة من قصيدة : رباعيات أربع) الواقع الفنى لهذه الفكرة من خلال وضعه لحركة البحر فى شكل ضربات جرس مؤثرة ادراكيا وكذلك من خلال تجسيده كدح ونضال الإنسان اليومي فى صور نساء مراهقات قلقات متبرمات .

ان خبرات الشاعر الأولية قد تشتمل على شعور دقيق بالخصائص الادراكية التى تحمل التعبير الحاسم ، ومع ذلك فانه خلال بحثه عن المكافئ المقابل لهذه الخبرة فى شكل وسيط من الكلمات ، فانه غالبا ما يميل أولا الى استخدام الأسماء الأكثر تجريدا من الناحية الواقعية أو العملية ، وهى تلك الأسماء التى يمكن أن تسترعى الى الذهن أشياء ولكنها لا تحمل الخصائص المميزة المحملة بالتعبير والانفعال (١٠٥) .

نتيجة لذلك يلجأ الشاعر — وكذلك المبدع بشكل عام — الى الحركة فيما وراء الأفكار والمفاهيم ، هذه الحركة غالبا ما تعود به الى واقع الأشياء ، والواقع الحركى والانفعالى لها ، ان الشاعر — كما يؤكد أرنهايم — قد اعتاد

على أن يتكئ على نمط من القرابة أو العلاقة الادراكية لم يوضع بعد في تصورنا العلمى الحديث للعالم ونادرا ما نستخدمه أو نعبر عنه في لغتنا العملية . ففي واقع الأمر نحن نستخدم دون تردد - تعبيرات مثل « نغمة ناعمة » فنطبق خاصية لمسية على الصوت أو نقول « لون بارد » فنربط بين الحرارة والظواهر البصرية ، ولكننا لانفعل ذلك على كل حال ، لاننا نعرف بشكل واع بوجود مظاهر تشابه بين عمليات الادراك المشتقة من حواس مختلفة ولكن لأن كلمات مثل : بارد - حار - مرتفع - مظلم - قد فقدت دلالاتها الادراكية النوعية المحددة بالنسبة لنا وأصبحت تستخدم الآن لتحديد قيم تعبيرية أكثر عمومية . لكن هذه الظواهر اللغوية ذاتها تكشف لنا حقيقة أنه من الطبيعى بالنسبة للانسان أن يعتمد على الخصائص المشتركة بين حواس مختلفة فهذه المظاهر أو الخصائص المشتركة أو التشابه هي من الأمور الجوهرية بالنسبة للتصور البدائي للعلاقات الطبيعية ، انها تقدم لنا الأسس الجوهرية للكلام المجازي في الشعر . في نسخة من مقطوعة للشاعر ستيفن سبندر يقول :

مثل متزلجة على الجليد
بشوبها الحريري متطاير الذيل
تسحر القلب لكنها لا تتجاوز أبدا
السطح الزجاجي (*) للحواس ،
كذلك تتجولين يوميا
عبر هذه البهجة المغلقة
وبالنسبة لي ، ليس هناك وصول
لذلك النجم المنير البعيد
فقط هناك جاذبية الجليد

ان كلمات مثل « الحرير - الزجاجي - النجم - المنير - الجليد » وتشتمل نسخ أخرى على تعبيرات مثل « لا يوجد دفء - لا توجد قرابة - لا هدوء للانفعال - ولا صورة هادئة رقيقة - ... الخ » ان ما يفعله الشاعر هنا هو أنه يجرب استخدام الخصائص ادراكية متنوعة خاصة بحواس اللمس والرؤية والحرارة والحركة من أجل التعبير عن حالة عقلية خاصة بامرأة في لحظة معينة من حياتها (١٠٦) .

لقد حاول علماء الجشططت التأكيد على اعتبار هذا النوع من التفكير مثلا لعملية « التشاكل » أي التشابه أو وحدة الشكل ما بين الظواهر

(*) المقصود المدى القريب للرؤية .

الموجودة عبر وسائط جسمية أو نفسية مختلفة . وقد أكد إيريك فون هورنبوستيل Erick Von Harnbostel أن ما يكون مشتركاً بين الحواس هو أكثر أهمية مما يكون مختلفاً بينها وهذا يعنى أن الخصائص التعبيرية أو الفراسية للأشياء تكون مستقلة إلى حد كبير عن الوسيط الخاص الذى تظهر من خلاله ، انها يمكن أن تكون أكثر أساسية فى الخبرة الإدراكية من تلك الخصائص التى اعتاد علماء النفس أن يهتموا بها مثل : الخصائص اللونية ، النصوع ، مقام الصوت ، الحجم ، الشكل . . . الخ .

إن الشاعر اذن فى ربطه الحر بين ظواهر من مناطق مختلفة من الخبرة يقوم بالالتكاء على سمة أساسية للإدراك الانسانى (١٠٧) هذه الوجهة من النظر والتى تؤكد أهمية التفاعل بين أكثر من حاسة خلال فعل الإدراك والانتاج الابداعى تردد صداها بعد ذلك فى جهده تنظيرى وتجريبي مكثف ومتراكم دار معظمه حول ما يسمى بدراسات التركيبية أو التأليفية Synesthesia ومن العلماء البارزين فى هذا المجال العالم ماركس C. El. Marks من جامعة « ييل » بالولايات المتحدة وله دراسات نظرية وتجريبية عديدة فى هذا الميدان (١٠٨) .

إن جزءاً كبيراً من هذه العملية كما يؤكد علماء الجشطالت يكمن فى قلب عملية الخيال ، فهذه العملية هى القادرة على خلق البنية الكلية المهيمنة على الشكل الاستعارى أو المجازى ، فالمكونات التى تكون ما زالت منفصلة عند المستوى الواقعى يتم التأليف والتوحيد بينها عند مستوى الخصائص الفراسية ، ومن ثم تقوم الاستعارة أو المجاز بتقطير أعمق ما فى مواقف الواقع ، الجوانب الأساسية من الحياة ، وهى المواقف والجوانب التى من أجلها فقط يقوم الفن بإبداع الصور من أجل الواقع ، فى هذه العملية تكمن قدرة على المجاز على إثارة القوة الخاصة باستكشاف عالم الخصائص المشتركة (١٠٩) ، أن تضاد المكونات أو تنافرها ثم تألفها معا فى بنية كلية تجمعها هو ما جعل المجاز أحد أهم الأدوات التى يستعين بها الفن الحديث فى تمثيل تناقضات حياتنا ، كما أنه ساهم - أى المجاز - فى زيادة كمية التجريد وكذلك القدرة على التفكير التجريدى فى حياتنا ، إن هذا يرتبط أيضاً بسمة أخرى فى الفن الحديث ، وهى نزعة إلى التعبير الدرامى عن أحداث الواقع ، ونزعة أيضاً لإزالة الفروق بين المكونات الأساسية والمكونات الفرعية ، أو المكونات الأولية والمكونات الفرعية فى اللوحة والعقيدة والقصيدة والمقطوعة الموسيقية (١١٠) لم يعد هناك فى الفن الحديث ذلك التأكيد القديم على عناصر بارزة وعناصر هامشية ، أو على عناصر تقع فى أمامية اللوحة وعناصر تقع فى خلفيتها وفقاً لمفهوم المنظور الخطى التقليدى الذى يجعلنا نرى الأشياء القريبة كبيرة والأشياء البعيدة صغيرة ،

فقد لجأ الفن الحديث الى المنظور متعدد وجهات النظر ، وأصبح هناك مستويات متعددة للرؤية وأنواع مختلفة من النظر والابداع بحيث أصبح البعيد قريبا كبيرا مثله مثل القريب الذى يقع فى أمامية اللوحة أو القصة وذلك من خلال الأساليب الحديثة التى تعتمد على ما يسمى بتيار الوعى وانبعثت الذاكرة والفلاش باك والمنظور المعكوس وغير ذلك من أساليب الادراك والابداع فى الفن الحديث ، والهدف الأساسى من كل هذا هو التأكيد على كلية العمل الفنى ، كلية بنيته الخاصة التى لا تنقسم الى بنيات فرعية مختلفة أو مكونات أمامية ومكونات فرعية أو هامشية ، هذه الكلية هى جوهر النظرية الجشططية حول السلوك الانسانى بشكل عام وحول الابداع والادراك الفنى بشكل خاص .

٥ - الالهام :

تاريخيا بحث الفنان عن قوى عليا افترض أنها تتحكم ، أو على الأقل تقوم بتقوية ابداعه وتمنحه قيمة عالية ، فقد توسل دانتى لربيات الشعر أن تساعده فى « وضع الأمور التى يصعب التفكير فيها فى شكل شعرى » وذلك بحيث لا يختلف الشعر عن الحقيقة . ولكن بالاضافة الى ذلك فقد كان دانتى يسترعى أيضا عقله وعبقريته الخاصة ، ويخبرنا علماء الفيلولوجيا (فقه اللغة) أن عمليات التوسل للروح أو التضرع لها كانت أمرا شائعا لدى كتاب العصور القديمة . ويبدو أن الأمر الأكثر أمنا هنا ، على كل حال ، هو أن نؤكد أنه حتى فى تلك العمليات القديمة الخاصة باللجوء لمصادر خارج العقل ، كان يتم ادراك الروح أو الالهام أو العبقرية أو العقل باعتبارها قوى خارجية عليا ، تمثل الجانب الانسانى من الروح الالهى أو السماوى أو المقدس .

وقد كانت الحركة الرومانسية فى الأدب والفن هى التى قسامت بالتحول الحاسم فى هذه النظرة ، هذا التحول الذى قام بالتأثير العميق على تفكيرنا الحديث فلم نعد ننظر الى الالهام باعتباره أمرا يأتى من الخارج بل من الداخل ، أى ليس من أعلى ولكن من أسفل . ومن جوانب عديدة فإن مثل هذا التحول لابد أن يفعم بالسرور عديدا من علماء النفس الذين ساهموا فى وضع هذا التصور على أرضية واقعية تتسم بالرسوخ ، لقد حاول هؤلاء العلماء تعديل وتطوير وتهذيب تلك القوى الخارجية المتخيلة وقاموا بتحويلها الى قوى خاصة بالعقل الانسانى ذاته . لقد اكتشفوا أن كل نشاطات الانسان الكبيرة والصغيرة ، الضعيفة وبالغة القوة ، تحدث كلها نتيجة عمليات الوعى والتفكير التى يقوم بها الانسان ، وقد تعرفوا على أن تلك الفجوات أو الثغرات المعرفية التى تكون موجودة ما بين الأسباب

والنتائج الخاصة بالوقائع الملاحظة ، يمكن ملؤها من خلال عمليات تفكير تحت مستوى الوعي • ان ذلك يعنى أن انجازات الانسان الابداعية يجب ارجاعها الى أسباب أصيلة ملازمة للانسان ذاته وليس الى أشياء خارجية وان هذا صحيح أيضا حتى فى تلك الأمثلة التى تحدث فيها الحصول والابتكارات الابداعية فى شكل ومضة تبدو خارجة عن التحكم الارادى للمبدع ، (فى تلك اللحظات الخاصة التى يكون فيها عقل المبدع منشغلا بموضوعات أخرى أو غير منشغل) بموضوع معين بشكل خاص ، ولا يوجد مجال يمكن أن تساهم فيه القوى تحت الشعورية - كما يقول أرنهايم - أكبر من مجال الفنون ويتفق العديد من علماء النفس أنه لا يوجد عمل فنى يستحق اسم العمل الفنى قد أنتج - أو يمكن انتاجه - بشكل كلى عند المستوى الشعورى فقط •

لقد تزايدت خلال القرن العشرين تلك النزعة واسعة الانتشار بين عديد من الفنانين المعاصرين للتخلي عن قوى المبادأة الواعية والعمل الشعورى لديهم. بطريقة غير معروفة بهذا الحجم فى تاريخ الفن ، لقد أصبحوا ينظرون الى العمل الابداعى باعتباره شيئا يحدث بداخل الفنان بدلا من النظر اليه باعتباره يحدث بواسطة الفنان ، أى أن الفن أصبح يحدث للفنان ولا يحدثه هذا الفنان ، لقد تحول ما كان سائدا قبل ظهور الرومانسية من الاعتماد على الاستحضار الروحانى الخارجى الى الاعتماد الكامل على الاستحضار الكلى للجوانب النفسية - أو الروحانية - الخاصة بالانسان ، وقد يرى بعض الناس فى ذلك سلبية واضحة أما الفنان فسيقوم بتبرير ذلك من خلال افتراضه :

(أ) أن هناك فرقا أساسيا بين قوى الشعور والاشعور. فى العقل •

(ب) أن الاعتماد على القوى والدوافع المشتقة من الاشعور يجعل العمل الفنى يكتسب معايير تلقائية مؤثرة وناجحة (١١١) •

لقد اعتدنا - يقول أرنهايم - أن نتحدث عن الاشعور كما لو كان هذا الاشعور قوة نفسية ، لكن الاشعور ليس قوة نفسية ، انه ليس شيئا على الاطلاق ، أنه فى أحسن حالاته يمكن أن يعتبر مكانا تحدث فيه بعض العمليات العقلية ، ولكن حتى هذا المعنى يستخدم صورة بلاغية مجازية مشتقة من مجال العمارة ، هنا يكون عقل الانسان بمثابة البيت الذى يشتمل على عدة غرف ، فى احدها يقطن الاشعور •

لكن وبشكل محدد ، فان الاشعور ليس اسما ، لكنه صفة أو خاصية لمجموعة من الظواهر ، أنه يخبرنا ببساطة عما اذا كانت هذه الظاهر موجودة

فى ساحة الشعور أم غائبة عنها ، لكنه لا يخبرنا بشيء عن طبيعة هذه الظواهر . ونتيجة لذلك فإننا يجب أن نفترض أن الوظائف اللاشعورية مختلفة فى جوهرها عن الوظائف الشعورية ويفترض أنهما - لأغراض التبسيط أن ما نسميه بالابداع هو نوع من الاستدلال Reasoning وأن هذا الاستدلال يكون اما عقليا Intellectual خاصا بالتعامل مع المفاهيم المجردة أو يكون ادراكيا Perceptual ، وأن الابداع هو مركب من هذه العمليات العقلية والادراكية ، نتيجة لذلك فإن العمليات العقلية وكذلك العمليات الادراكية الخاصة بحل المشكلات يمكن أن تحدث بطريقة شعورية أو لا شعورية وهناك شواهد عديدة على أن العقل يمكنه أن ينشط بشكل نموذجي فى بعض نشاطات الاستكشاف العلمى أو الفنى تحت مستوى الشعور وأنه يمكنه الوصول الى الحلول الابداعية المناسبة التى تأتى مصحوبة للدهشة نتيجة لحالتها الخاصة المبدعة التى جاءت بها . ان الميكانيكيات النفسية التى تقف خلف السلوك العصابى - كما تحدث عنها فرويد بمهارة - يقول أرنهايم - تشمل على قدر كبير من الاستدلال العقلى، وافترض مثل هذه العمليات الخاصة بالاستدلال صحيح أيضا بالنسبة للنشاطات الفنية كما يحدث مثلا عندما يطرح الفنان أحكاما حول مناسبة موضوع معين أو فكرة معينة فى فنه دون أن يكون عارفا بشكل شعورى كيف اختار أن يفعل ذلك ولماذا يدافع عنها بمثل هذا الحماس (١١٢) .

ان ما يعنيه أرنهايم بالاستدلال الادراكى هو ذلك العمل الابداعى الذى يشتمل على معالجة العلاقات بين الخصائص الحسية كالحجم والحركة والمكان واللون فى الفن التشكيلي وكذلك الكلمات وبعضها البعض عند كتابتها وعلاقة هذه الكلمات بالأشياء وكذلك عمليات ادراك الفنان للواقع بما يشتمل عليه من مكان وشخصيات ومفردات طبيعية وصناعية مختلفة وأيضا بما تشتمل عليه هذه المكونات من ألوان وحركة وحجم .. الخ وذلك فى مجال الابداع الأدبى .

لقد تحدث البرت اينشتين مرة عن تفكيره باعتباره نوعا من اللعب التركيبى فيما بين مجموعة من العلامات Signs من ناحية وبين مجموعة من الصور الأكثر أو الأقل وضوحا من ناحية أخرى ، هذا اللعب قد يكون بصريا أو عضليا ، ثم يجب بعد ذلك ترجمة نتائجه الى كلمات أو غير ذلك من العلامات (*) .

(*) ١ - العلامة هى بشكل عام وشامل هى مؤشر ، شىء يلمح أو يشير أو يوجه ، ومن ثم نتحدث أحيانا عن علامات الارشاد أو التوجيه وعندما تكون العلامة هى عنصر مميز =

ومن الواضح أن مثل هذه العمليات كانت أحيانا شعورية وأحيانا لا شعورية ، وذلك لأن اينشتين قد أكد في نفس المناسبة أن الشعور الكامل هو حالة محدودة لا يمكن الوصول اليها بشكل كامل وبنفس الطريقة يمكننا تصور أن الفنان يقوم أساسا بإنتاج تكويناته الفنية من خلال العمليات الخاصة بالاستدلال الإدراكي الذي يحدث تحت مستوى الشعور . فإذا

= خاص بشيء ما أو واقعة ما فإنها غالبا ما يشار إليها بأعبارها علامة طبيعية أو اشارية Signal فالنار مثلا علامة (طبيعية) لشيء ما يحترق ، أي حيث أنها تشير الى هذا الشيء الذي يحترق أما عندها تكون العلامة مكونا اجتماعيا أو ثقافيا اصطلاحيا أي تم التعارف عليه هكذا فإنه غالبا ما يشار إليها على أنها علامة اصطلاحية أو اتفاقية Conventional sign أو رمز Symbol فالنار في بعض الثقافات هي (كما اصطلح على ذلك) علامة الحياة .

٢ - بالامتداد بالمعنى السابق تكون العلامة واقعة أو نشاط يخدم كدال Signifier على شيء ما له معنى أو تجليات تقع أبعد من الشيء ذاته ، فمثلا القطعة أو الكرة من الآلية الفخارية القديمة هي علامة على إنسان كان يسكن المكان ، وعصر أو دحك قبضتي اليد وكذلك العرق من العلامات التي يستدل من خلالها الطبيب على قلق المريض أو نوره ، هذا المعنى قريب من معنى العرض المرضي في المجال الطبي بشكل عام ، فمثلا نحن نقول الحمى هي علامة على المرض ونقول أيضا الحمى هي أحد أعراض المرض ومع ذلك فالعلامة هنا ليست متطابقة تماما مع العرض المرضي .

٣ - العلامة هي واقعة تكون من خلال تقاربها المكاني أو الزماني مع واقعة أخرى وادارة على أن تحل محل هذه الواقعة الأخرى في استصدار الاستجابة ، ففي جارب بافلوف الأصلية عني التشريط الكلاسيكي مثلا ، أصبح صوت الجرس علامة تستثير افراز اللعاب لدى الكلاب بعد أن تمت المزاوجة بين صوت هذا الجرس وبين الطعام هنا كانت العلامة بين الطعام والجرس علامة تحكمية وليست علامة طبيعية ومتعلمة ولم يستخدم مصطلح الرمز هنا بشكل عام لأن هذه التعسفية أو التحكمية لم تكن تفتح داخل المجال التحريسي للمفحوصين أي لم يتم الاتفاق عليها بينهما .

٤ - العلامة هي ايماءة أو حركة جسمية خاصة مميزة بشكل خاص لسلسلة أو نمط من حركات اليد (أو الرأس أو الوجه .. الخ) تستخدم كبديل تعلمه أو مفهوم كما في لغة الإشارة Sign language

٥ - العلامة (أو الإشارة) هي تعبير رياضي يشير أو يدل على عمليات خاصة أو مجموعة من العمليات مثل علامة + مثلا ، مع ملاحظة أن العلامة والرمز هنا غالبا ما يستخدمان أو يتم استخدامهما بمعنى واحد ، فعلمة + مثلا يشار إليها بأعبارها مثلا لرمز رياضي ، رغم أن مصطلح رمز يستخدم نمطيا للإشارة الى النوع العام من هذه الاشارات .

٦ - في مجال اللغويات تعتبر العلامة هي الكلمة التي يتم اعتبارها رمزا لشيء ما ، هنا تكون العلامة هي الشيء العياني أو المحسوس Concrete بينما يمثل الرمز الجانب المجرد من هذا الشيء .

٧ - العلامة (أو الإشارة) هي قسم واحد من الأقسام الاثني عشر المكونة لدائرة البروج Zodiac ولساعات ضبط الوقت . يتعلق بالإشارة الى شيء ما أو بالتخاطب أو التواصل حوله من خلال استعمال الإشارة (بأي معنى من المعاني السابقة) (١١٣) .

كان القول بأن النشاط الابداعي يحدث شعوريا وكذلك لا شعوريا ، أى فوق عتبة الشعور ونحت مستوى هذه العتبة ، فيما هى الفروق الأساسية اذن بين هذين النشاطين ؟ أول هذه الفروق هو أن الاستدلال الشعورى يكون أكثر صلابة وربما أكثر تصلبا فى نشاطه ، من خلال التزامه بأنماط معينة من التفكير ، ومن ثم قد يستبعد خلال ذلك بعض نقاط التشابه والاختلاف الضرورية للحل الابداعى ولأسباب لا نعرفها - فان هذه الأنماط المدركة سلفا من التفكير تفقد صلابتها وجذورها تحت عتبة الشعور ومن ثم تسمح باللعب الحر والتناول الطليق للعناصر المشتركة والمختلفة الخاصة بالأبعاد المتعددة بالمشكلة موضع الاهتمام ، هنا يكون نشاط الصور العقلية حرا ، ويكون التلاعب بالمفاهيم طليقا ، وبالطبع لن يستطيع الاستدلال اللاشعورى الوصول لهذه المرحلة الحرة من التفكير ما لم يقيم العقل الشعورى بتمهيد الأرض أو وضع خشبة المسرح أمام هذا (اللعب الشعورى أو تحت الشعورى) بطريقة مناسبة قبل ذلك وإلى مثل هذا رأى ذهب كارل جوستاف يونج حين قال ان « الخبرة قد علمتني أن بعض الألفة بسلوكولوجية الأحلام تؤدي بالناس غالبا إلى المبالغة فى الثقة فى اللاشعور بحيث يفسد هذا قوة اتخاذ القرارات الشعورية لديهم ، ان وظائف اللاشعور تكون مشبعة أو باعثة على الرضاء فقط عندما يقوم الشعور بانجاز مهامه بشكل يتناسب مع قدراته » (١١٤) .

الفارق الثانى بين العمليات العقلية فوق عتبة الشعور وتحت هذه العتبة يتمثل فى عجز الفنان عن التحكم فى التفاعل المركب Complex interplay فى بعض العوامل الشكلية كالأشكال والألوان وتحويلها إلى تكوين فنى جيد من خلال التحديد الشعورى فقط للنشاطات والانفعالات الخاصة بكل عنصر ، ونفس الشيء بالنسبة للابداع الأدبى ، فى القصة القصيرة أو الرواية مثلا ، فمجرد تحديد خصائص ونشاطات وطريقة كلام الشخصيات وأيضا تحديد الخصائص المميزة والمحددة للزمان والمكان (الأحداث لا تكفى فى ذاتها لابداع القصة أو الرواية) ان الأمر يحتاج هنا إلى تحقيق تنظيم خاص ، من أجل الوصول إلى كل خاص (أو جشطلت خاص) جديد ومؤثر ومناسب يكون هو العمل الفنى الابداعى الجديد .

ان المبدع يحتاج هنا بطبيعة الحال إلى نشاط قواه الحسية والادراكية والعقلية الشعورية ، لكن الأسباب التى تعمل على نشاط هذه وعلى تنظيمها وتراكبها قد تكمن تحت عتبة الشعور ، هنا قد تكون النشاطات الخاصة بالصور والأخيلة أمرا ضروريا . ان الفنان يطمح هنا للوصول للتوازن الذى هو خاصية تبحث عنها كل الكائنات الحية كما أكد منظرو الجشطلت بل كل القوى الطبيعية أيضا ، وحيث ان حالة التوازن هذه تكون حالة

مفتقدة لدى المبدع في البداية فانه يستفيد من تلك القدرة الفائقة المميزة للجهاز العصبي لدى الانسان ، وهى تلك القدرة الخاصة بتنظيم العدد الهائل من العمليات المختلفة فى نشاط واحد كلى ، ويظهر ذلك مثلا فى تآزر مئات العضلات أثناء اللعب ، عندما يمشى الانسان أو يقف أو يجرى ، حركات متآزرة لعضلات كثيرة يحدث مثلها لكن بطريقة أكثر تميزا وتفوقا فى حالة التفكير الابداعى ، ذلك التفكير الذى يحشد له المبدع كل طاقاته وقواه ويستفيد خلال ذلك من كل عمليات الاستدلال الادراكية والعقلية فوق الشعورية وتحت الشعورية .

الفرق الثالث ربما كان هو أكثر هذه الفروق أهمية ما بين العقل التسعورى والعقل اللاشعورى ويكمن هذا الفرق فى البدائية Primitivity الخاصة بالاستدلال الشعورى ، وبالنسبة للفنان تكون هذه البدائية أداة ذات حدين ، فمن ناحية يكون التفكير الابداعى تحت مستوى الوعى محتفظا بوحدة - أو مجموعة - بدائية من الأفكار والصور ، بدون هذه الوحدة يكون الفن مستحيلا . وتقوم الحضارة الحديثة فى حالات كثيرة بتدعيم عمليات الانفصال أو الانقطاع ما بين الأفكار المجردة وبين ما تدركه الحواس وتخزنه فى شكل صور وأفكار ومشاعر خاصة وهى الأمور ذات الأهمية الحاسمة لدى الفنان ، وفى الثقافات الغربية - وكذلك الشرقية - مازال الراشدون يفكرون فيما يتعلق بأحلامهم كما يفكر الأطفال وأفراد المجتمعات البدائية ، انهم يبحثون عن المعنى الرمزى لهذه الأحلام ، هذا المعنى الرمزى يهتم به الفن أيضا ، ولا يوجد هذا المعنى الرمزى فى الأفكار المجردة ، رغم أن عمليات اكتشاف هذه المعانى الرمزية تكون ممكنة خلال التفكير الشعورى الواعى فى كثير من الأحيان ، ان ما يحاوله الانسان هنا هو أن يحاول أن يكتشف المعنى الرمزى لهذه الأحلام فى المظهر الخارجى لأشياء العالم ، أى يجعله أشياء مقابلة وممثلة لهذه الأحلام فى العالم الخارجى المحيط به ، ومن ثم يجعل أحلامه مرئية أو مشهودة حوله من خلال تحويله لها أو لمعانيها الرمزية أو مفردات وأحداث واقعية محددة ، وهنا يكمن مبرر شرعى وقوى لاهتمام الفنان بالأحلام ، فالفنان كالحالم يحول أحلامه وصوره وأخيلته وأفكاره ومشاعره والمعانى الرمزية الموجودة بداخله الى أعمال قابلة للتلقى ، للمشاهدة أو السماع أو اللمس أو القراءة .. الخ وهى بطبيعة الحال الأعمال الفنية أو الأدبية التى نعرفها .

كذلك فان ارتكاز الاستدلال البدائى (اللاشعورى) الأبدى على الاهتمامات الأساسية الخاصة بالموت والحياة ، هذه الاهتمامات يمكن أن تكون أيضا هى الأسس الهامة للأعمال الفنية .

كذلك فان التحليل النفسى قد أكد أهمية الصدق الحقيقى باعتباره شرطاً أساسياً لا يمكن الاستغناء عنه فى العمل الإبداعي ، وقد تم التأكيد على أن هذا الصدق موجود ويوجد أقرب ما يكون فى تلك الطبقات من العقل الإنسانى التى تكون بعيدة عن التأثير الضار الخاص بعمليات التقييم والمسايرة الواعية (١١٥) .

لكن - ومن ناحية أخرى - يحذرنا أرنهايم من تلك النزعة المتزايدة فى علم النفس وفى الفن والتى تمثل السطحى بالعميق . فقد قامت الثقافات فى مراحلها المتأخرة بتطوير شهية نمو البدائية ، وكى تشبع هذه الشهية فانها تميل الى أن ترى فى الأعمال الفنية فجاجة الغرائز أو الانماط الأولية التى ترتدى الأثواب الزاهية للحضارة ، وليس هناك من سبب يقنعنا بأن مناطق العقل البعيدة عن الشعور تلجأ الى مرفأ الحكمة العميق ، ان الحكمة انما تنتج فقط عن الجهد الشاق لكل طبقات وقدرات العقل . ولا يمكن اختزال الفن الى بساطة العقل البدائى غير المتطور ، لأن الفن الذى هو انعكاس للطبيعة الإنسانية وتطورها وإبداع لها أيضاً ، ليس أمراً بسيطاً ، والنموذج الأصيل للفن ليس حجراً خاصاً بتمثال فى جزر الهند الشرقية ولكنه وحدة من العناصر والمكونات التى يمكن أن نجدها فى أعمال الفنانين والمبدعين الكبار (١١٦) .

ان هذه العقيدة الخاصة القائلة بأن مناطق العقل العميقة تبتعد عن مواقع الشعور طموحاً الى مرفأ الحكمة العميقة البعيدة عنه ، هى فى رأى أرنهايم خرافة رومانسية ، فالفكرة الأولية - أو السطحية - أو الشائعة الخاصة بالنماذج الأولية أو الأصلية ، لها نفس القوة البسيطة الخاصة بالايقونية (*) البدائية ، لكن فى حالتها الأولى أو الخام تكون هذه الفكرة مقبولة فقط كوحدة لتسهيل عمليات التفكير داخل مجال معقد ومربك أو غامض من الظواهر .

ان الأمر بمثابة علاج أكثر منه بإلهام أو الوحي ، وذلك لأنه من أجل الوفاء بمتطلبات حضارتنا المعقدة ، فان الصور الأساسية للخبرة الإنسانية يجب أن تصاغ فى ضوء الظروف والتقاليد والذكريات والأفكار التى جعلتنا ما نحن عليه الآن وأكثر من ذلك فانه قبل أن يقرر الفنان بشكل سلبى أن يستسلم للاندفاعات والدوافع التلقائية التى قد تجيء له من تحت

(*) الايقونة هى : الرسم المصغر للجسم الذى يعلق فى الكنائس ويشير المصطلح فى مجال علم النفس الى الخصائص المميزة بصورة عقلية أو التمثيل المصور لشيء ما ، أو ما يميز الخبرة البصرية المختصرة أو السريعة التى تستمر لمادة ثابته أو حوالى ذلك بعد انتهاء المنبه البصرى وتسمى هذه الحالة الأخيرة بالذاكرة الايقونية (١١٧) .

مستوى الوعي ، فانه يجب عليه أن يتذكر أن مثل هذه المادة التي قد نجى تميل الى الظهور غالبا في شكل أقرب الى الفوضى ، يظهر هذا فيما نعرفه عن الأحلام التي تتجمع منها نشاطات خاصة بعمليات عقلية عديدة ومنفصلة ومركبة بطريقة غريبة ويظهر ذلك أيضا في الرسوم العابثة غير المتسودة لذاتها التي تصدرها عندما تعاق عمليات انتباهنا أو تستنفد لسبب أو لآخر وكذلك في الكتابات التلقائية التي شاعت لدى أصحاب المدرسة السريالية في الفن وهي المدرسة التي اعتمدت في جوهرها على محاكاة خبرات الأحلام والخيال والجنون (أو المرض العقلي) (١١٨) .

ان عملية تحويل مثل هذه المادة الخام المشتقة من الخبرة الى أعمال فنية تحتاج الى نشاطات كل الوظائف العليا للعقل من أجل اكتشاف النظام في الفوضى واستخراج الجوهرى وعزله عن الطارئ أو العابر ، ومن اكتشاف ما له دلالة جوهرية واعلاء قيمته مما هو خاص أو محدد .

٦ - الابداع والتأمل :

في مقالة بعنوان «الابداع والتأمل» نشرت أولا عام ١٩٦١ ثم أعاد نشرها في كتابه « نحو سيكولوجية الفن » Towards a Psychology of Art عام ١٩٦٦ ، يتحدث ارنهايم عن استفادته من عالم نفسى يابانى اسمه هيتوش ساكوراياشى H. Sakurabayashi كان قد قام بدراسات حول أهمية عمليات الفحص والتأمل الطويلة ودورها الكبير في الابداع ، وقد نشرت هذه الدراسات وأكده أهميتها خاصة أنها كانت تتم من منظور جشططى أيضا .

يرفض عقل الانسان - كما يقول ارنهايم - حالات الملل والركود ، لكن ردود أفعال هذا العقل ليست مجرد حركات عشوائية ، فمن خلال تحرره من حالات السكون حتى حالات الاتزان والتوازن التي قد تتحقق في ظل « جشطط جيد » فان هذا العقل يقوم باكتشاف الخصائص البنائية الثانوية المميزة للأشياء من نفس الوقت وعندما يجبر العقل أو يضطر لرؤية موضوع معين لفترة أطول من المدة التي يستمتع بها هذا العقل بهذا الموضوع بشكل تلقائى فانه يلجأ - هذا العقل - الى تنشيط طاقة الفضول وحب الاستطلاع لاكتشاف وابتكار أنماط جديدة غير ذلك النمط القديم وبتحرر الصور العقلية من أسر أو قيود البنية المهيمنة تكشف الاحتمالات المخبوءة داخل العقل عن نفسها وتظهر جوانب غير مألوفة أو معتادة وتتكشف نتيجة لذلك تصورات أصيلة مثيرة للدهشة - أو حتى الصدمة - بل وحتى متعارضة ومتناقضة ، في المراحل المبكرة من هذه

العملية تكمن دوافع هذا التغير تحت مستوى الوعي • وتكشف المشاهد
والرؤى الجديدة عن نفسها كموضوعات مثيرة لدهشة المشاهد غير
المشارك •

ولكن عندما يتم نقل التغيرات التلقائية أو تستنفذ وتظهر بهديدات
الرتابة والممل نقفز الاستجابة أو تطلع الى ما فوق عتبة الشعور ومن ثم
يجد المرء نفسه يقوم بالاستكشاف والابتكار (١١٩) • يقول أرنهايم ان
ساكوراياياشي « كان يناقش نتائج في ضوء عملية الابداع ، رغم أن
دراساته لم تعمق هذه العملية بشكل كبير حيث اقتصرت على دراسة كيفية
حدوث تحولات في الأشكال التي تتسم بخاصية « الجشطالت الجيد » عندما
يطيل الانسان النظر اليها ويدوم عمليات فحصه لها بصريا وعقلانيا ، لقد
وجد هذا العالم الياباني ان هذه الأشكال « تهجر » تلقائيا خاصية الجشطالت
الجيد وتتحول الى أشكال جديدة ومن الواضح أن هذا العالم الياباني كان
على معرفة بعادات العمل لدى فناني أمثال سيزان ورودان ، لقد عرف
أنهما غالبا ما أمضيا وقتا طويلا ينظران الى موضوعات معينة بدلا من أن
يشغلا أنفسهما بوضع أى رسم – تلك الموضوعات التي راياها من قبل •
ان هذا ربما كان يشتمل في قلبه على عملية خاصة بخلخلة التكامل السابق
الذي كان موجودا في نمط الموضوعات القديمة ومن ثم محاولة لاشتقاق
نمط أصيل جديد من ذاك النمط أو النمط المعتاد والموجود فعلا في العالم ،
ان الأمر يشتمل أيضا على محاولة لتوسيع الأبعاد والعلاقات المألوفة
أو التقليدية واستبدالها واحلال أبعاد وعلاقات جديدة بدلا منها » (١٢٠) •

ان ظاهرة الفحص طويل الأمد يمكن أن ترتبط بالابداع بشكل ضئيل
أو بشكل كبير ، فيمكن التفكير فيها باعتبارها مجرد أداة مساعدة تقوم
بتسهيل المراحل التمهيدية (مرحلة الاعداد) من الابداع • أو يمكن بشكل
أكثر طموحا التفكير فيها باعتبارها نموذجا مصغرا لعملية الابداع الكلية ،
أى انها تكشف في ضوء ظروف بسيطة عن الجوانب الجوهرية المميزة
لما يحدث عندما يقوم المفكر أو العالم أو الفنان المبدع بمواجهة العالم •
وأخيرا فانه يمكن اعتبار التحويلات التي تحدثها عمليات الفحص أو التأمل
طويلة الأمد بمثابة الأمر المتطابق بما يسمى بالابداع ، وفي هذه الحالة فان
العمل الفعلي للمبدع سيكون هو فقط أن يدون بشكل موجز تلك التجليات
التي ظهرت له خلال عملية التأمل (١٢١) •

ومما لا شك فيه أن عملية التأمل العميق للموضوع الذي سينم رسمه
أو كتابته أو تفسيره وكذلك لهذا الموضوع في كل مرحلة من مراحل تحولاته
هى من الشروط الأساسية المسبقة للابداع رغم أن هذه العملية

غالباً ما يتم إهمالها من خلال المبتدئين والهواة وأنصاف الموهوبين ، فحتى أكثر المبدعين مهارة وتمرساً يتوقف في فترات معينة خلال عمله أو في نهاية يومه وقبل نومه ويفكر : هل كان هذا اليوم طيباً ؟ ، هل أنجزت فيه قدراً جيداً من العمل ؟ ماذا يمكنني أن أفعل بعد ذلك ؟ ... الخ .

ومن الواضح أيضاً أن عمليات التأمل هذه تكشف عن احتمالات عديدة لتنظيم وإعادة تنظيم ، وبناء وإعادة بناء أو تركيب وإعادة تركيب النمط الكلي الذي ينشغل المبدع به وكذلك الأجزاء المكونة لهذا النمط سواء كان لوحة أو تمثالاً أو قصة أو قصيدة أو غير ذلك خلال ذلك يتم اكتشاف العديد من العلاقات وتجمعات العلاقات وكذلك العديد من الاقتراحات الخاصة بالعمل . وهذه الاكتشافات تساعد المفكر أو الفنان المبدع على أن يتحرر - ويفلت من رقبته الطريقة العادية أو المألوفة في رؤية العالم . في الفنون التشكيلية مثلاً تتحدد وجهة النظر العادية أساساً من خلال أربعة أنواع من المؤثرات هي :

(أ) قانون الشكل الجيد (أو الجسطلت الجيد) الذي يفرض وجهة النظر الأبسط تركيبياً على عملية الإدراك .

(ب) ذاكرة خاصة بشكل الموضوع واللون والنسبة والتناسب وحجم الأشياء المعروفة بالنسبة للمشاهد من خلال الخبرة السابقة .

(ج) التصور أو الفكرة التي يتم إحياء بها من خلال الوظائف الفعلية للموضوعات .

(د) طريقة أو طراز الرؤية والتمثيل - العقلي - الشائعة في الثقافة خاصة في فنونها التشكيلية (١٢٢) .

هذه الخصائص يمكن تصور وجودها في مجالات إبداعية أخرى كالقصة القصيرة مثلاً حيث تفترض وجهة النظر العادية ضرورة توفر خصائص :

(أ) الشكل الجيد البسيط بنائياً حتى يتم إدراك القصة .

(ب) وجود ذاكرة خاصة تتعلق بالموضوع الذي يكتب عنه القصص من حيث توفر لغة مناسبة وصور وشخصيات قابلة للتعرف عليها أو تخيل وجودها .

(ج) أن عناصر القصة تتجمع معاً في شكل فكرة أو تصور أو انطباع كلي يوحى بالوظائف أو الدلالات الفعلية للقصة .

(د) ان طريقة القص والعرض وكذلك التمثيل العقلي لدى الكاتب ومن ثم القارئ لابد ان تتناسب مع أشكال الفص والرواية الشائعة في ثقافة معينة خاصة في فترة معينة من تاريخها .

لكن هذه الوجهة العادية من النظر رغم أنه لا يمكن الاستغناء عنها حتى بالنسبة للفنان المبدع باعتبارها تمثل معيارا أو قاعدة للعملية الكلية، فإنها - هذه الوجهة العادية من النظر - لا يمكن أن تسود وتسيطر لدى الفنان اذا كان عليه أن يعبر بصدق فني عما تعنيه الموضوعات التي يقوم بتأملها والابداع من خلالها - وحولها - بالنسبة له .

ان التأمل خلال الفن ليس مجرد أخذ وانتقاء وتنظيم موضوعات يعطيها لنا العالم فالتأمل كوظيفة ابداعية يتسم وفقا لما حدده ارنهايم بما يلي :

(أ) لا تشتمل عملية التأمل الحقيقية أو الصادقة على مجرد انتظار وتجميع المعلومات والأفكار والصور ، بل انها عملية نشطة في جوهرها ، فعلية التحويل التي يقوم بها المبدع في موضوعاته وأفكاره وصوره هي عملية ايجابية نشطة يقوم المبدع بجانب كبير منها وهي فقط التي تسمح بحدوث التغيرات في شكل رؤيتنا القديمة للعالم والأشياء انها تشتمل على انتباه مستمر ومحاولات نشطة وتعديل قيمة المنبه وخصائصه التي كانت سائدة من قبل ، ان هذا شديد القرب من السلوك الاستكشافي فعندما يبدأ الانسان في التأمل فانه يحاول الاقتراب فعلا من العالم ولكن من خلال طرحه للتساؤلات ، ولا تكون هذه التساؤلات خلال الابداع الفعلي في مثل بساطة التساؤلات الخاصة بالأشكال الهندسية ، لكنها تشتمل على ما يكتنف العقل من غموض وتعقيدات ، ان التساؤلات هنا تكون من قبيل : ما هي طبيعة الحياة ؟ ما سر الموت ؟ الخ ويختلف التساؤل خلال الفن عن الأشكال العادية من التساؤل في أنه قد لا يقوم بتقديم اجابات شافية للتساؤلات السابقة بل قد يضيف اليها العديد من علامات الاستفهام .

(ب) لا تكون رغبة المبدع في الابتعاد عن المؤلف والعادي لمجرد أنه يريد أن يكون مختلفا ، فالمبدع لا يكدر أو يكافح من أجل هجر الموضوعات بل من أجل النفاذ اليها أو اختراقها وفقا لمحك الصدق الذي يضعه في اعتباره وعبر مسار هذا الاختراق يهجر الفنان - غالبا بشكل غير متعمد أو مقصود تلك الرؤية المؤلف أو العادية ، فعندما كان بمكاسو

يتحدث عن عمله باعتباره سلسلة من عمليات التدمير فانه كان يعنى بوضوح ذلك الجانب الايجابى من التدمير ، أنه التدمير من أجل بناء أفضل ، تدمير تتطلبه عمليات البحث والاستكشاف والتأمل .

ان الرغبة فى الاختلاف من أجل الاختلاف هى رغبة ضارة ، وذلك السعى لتجنب الظروف والشروط الحالية والابتعاد أو الروغان بعيدا عنها مشفق فى جوهره من حالات انشغال مرضية كما هو الحال فى « ميكائيم الهروب » الموجود لدى العصائين والذي قام فرويد وأتباعه بتفسير الفن من خلاله ، أن الشخص المبدع كما يؤكد علماء الجشطلت عندما يواجه مشهدا أو موقفا مشقلا بالاحتمالات فى الواقع ، فانه لا يقوم بالنحرك بعيدا عنه ، بل يتحرك فى اتجاهه ، يواجهه ويخترقه .

ويمكن المبدع من خلال التأمل من تحليل امكانات واحتمالات الموضوع من أجل استخلاص حقائق تتناسب مع المبدع – ومن ثم مع الآخرين – ومع الموضوع الذى يبدع حوله أو من خلاله أيضا . لقد كتب سيزان يقول « ان التأمل والزمن يغيران الرؤية قليلا قليلا حتى نتوصل فى النهاية الى الفهم » (١٢٣) .

« (ج) عندما يأخذ عقل الانسان على عاتقه ان يقدم تأويلا أو تفسيراً للواقع فانه لا يقوم من أجل ذلك بتقديم صورة أخرى أو نسخة اضافية من هذا الواقع ، انه يخلق أو يبدع أنماطا جديدة تقوم باستخلاص وتلخيص – بل وحتى التخلص – الخصائص المحددة التى أوحى بها الموضوع الذى يبدع الفنان حوله أو من خلاله ، فعندما يقوم الفنان مثلا بتمثيل وجه الانسان من خلال دائرة فانه لا يقوم باعادة انتاج هذا الوجه كما هو بل يقوم بوضع دائرة هذا الوجه فى اعتباره من خلال تجسيده شكل مستدير من خلال خطوط القلم ، الأمر هنا يتعلق بما طرحه أرنهايم فى كتاباته المبكرة واطلق عليه اسم المكافئ البنائى Structural equivalent ، فعمليات التمثيل العقلى فى رأى أرنهايم لا ينتج عنها نسخة ثانية من الموضوع الذى يبدعه الفنان ، لكنه ينتج عنها ما يسمى بالمكافئ البنائى لهذا الموضوع ، انها الرموز الوصفية التى تقف كبدائل رمزية للموضوعات كما فى رسوم الأطفال كذلك فى ابداعات الكبار ، فالقن لا يعكس الواقع بشكل مرآوى ، بل يقوم بتلخيصه واستخراج القيم والمكونات المهيمنة والمجردة فيه بطريقة رمزية ، فالفنان يتميز بالقدرة على فهم طبيعة ومعنى الخبرة فى ضوء وسيط معين (الكلمة – اللون – الخط – النغمة .. الخ) ومن

ثم يقوم بعد اكتشافه للرموز المكافئة أو البديلة للواقع بالتعبير عن خبرته ، أى يجعلها محسوسة أو مدركة (١٢٤) .

يترتب على ما سبق أن عملية التأمل الخاص بموضوع ما لا تكون شبيهة بعملية فحص كل مكوناته وكل إمكانات التركيب بين هذه المكونات بقدر ما هى شبيهة بعملية استخلاص الفئات الأكثر تجريدا والأكثر تمثيلا للموضوعات الأصلية . هذا الجانب من الابداع أقل وضوحا فى ادراك الأشكال الهندسية البسيطة وذلك لأنها أشكال جاهزة للاستخدام بشكل مسبق وليست هناك احتمالات كبيرة للابداع من خلالها فقط أن الابداع الكبير يكون من خلال مواجهة المظاهر والجوانب المحيرة المركبة الموجودة فى الواقع ، أى المشكلات الحقيقية له . ان خبرات الماضى وكذلك المعايير المألوفة والتفصيلات وأيضا المعتقدات والتوقعات والرغبات والمخاوف ، كلها تتجمع معا لتشكيل صورة خاصة للعالم يدركها العقل المبدع . هذه الصورة الكلية يقوم المبدع بتأملها والتفكير فيها ، ويقوم بتعديلها وتحويلها ، وتكون هذه المواجهة بين المبدع والعالم (أو الواقع) مملوءة بالتوترات المرتفعة وذلك لأن نتيجة هذه المواجهة اما أن تحل لصالح حاجات needs المبدع على حساب مطالب demands العالم ، أو لصالح مطالب العالم على حساب حاجات المبدع أو من خلال تحقيق الاتزان بين هذه الحاجات والمطالب . ان

هذا يعنى وجود ثلاثة احتمالات للحل ، اما أن ينساق المبدع « للحقائق » الخاصة بوجهة النظر العادية أو المألوفة أو أن يتفق حل الصراع مع رؤية المبدع الكلية للعالم أو أن يقوم المبدع كحل ثالث - بعرض أبسط بنية - أو تركيب - يمكن الوصول اليها بالنسبة لمجموعة مركبة من الظروف . والحلول غير المقنعة لمثل هذه المشكلات تظهر كل يوم ، وفى هذه الحلول اما أن نفشل فى التعرف بأنه ضعيف ومحرف وتافه ، وقد يكون التكوين واضحا للعالم لكنه يتسم بأنه ضعيف ومحرف وتافه ، وقد يكون التكوين الفنى الذى يقدمه لنا الفنان مقصودا به أن يقدم لنا مركبا من مطالب العالم وحاجات الفرد لكنه لم يضع فى اعتباره خصائص الوحدة (الكلية) والوضوح والكثافة - التى تحتاجها فى الأعمال الفنية الشاملة والمؤثرة (١٢٥)

ان هذه الصور الكلية للعمل الفنى تتوالد وتتكاثر خلال عمليات التأمل ويتم ادراكها خلال النشاط الابداعى بشكل يتسم بالقوة والمعنى .

٧ - التعبير :

ان ماقصده نظرية الجشطالت بالتعبير هو :

(أ) نوع المنبه الادراكى الذى يشتمل على الظاهرة موضع الاهتمام :

(ب) نوع العملية العقلية التي يعتمد وجود التعبير عليها .

ان هذا الاتساع في تعريف التعبير في ضوء نظرية الجشططت يشير الى أن الموضوعات المدركة التي تحمل تعبيرات هي - وفقا لهذه النظرية موضوعات لاحصر لها وهي وجهة من النظر قد تختلف نظريات سيكولوجية مع نظرية الجشططت حولها . فهناك نظريات عديدة تؤكد أهمية استخدام مصطلح « التعبير » كى يشير فقط الى التجليات أو المظاهر الخارجية الأساسية للشخصية الانسانية فقط ، وهنا يتم وصف مظهر ونشاطات الجسم الانسانى بأنها تعبيرية أو « معبرة » ، فشكل ونسب الوجه أو اليدين وتوترات وإيقاع النشاط والمشية والإيحاءات وغيرها من احركات كلها موضوعات قابلة للملاحظة وكلها موضوعات تعبيرية . وقد امتد هذا الاستخدام أيضا ليذهب الى ما وراء المظاهر الملحوظة فى النشاط الجسمى للانسان ، فاستجابات الانسان وردود أفعاله والطريقة التى يلبس بها الناس أو ينظمون بها حجراتهم ومنازلهم وطريقة كلامهم واستخدامهم للأقلام أو الألوان أو الزهور والمهن التى يفضلونها أو يختارونها والمعانى التى يخلعونها على الصور أو النغمات أو الأعمال الأدبية والقصص التى يستخرجونها أو يتصورونها عند رؤيتهم لمنبهات غامضة وكما فى حالة بقع الحبر الغامضة فى اختبار رورشاخ الاشتاى ، وغير ذلك من السلوكيات التى لاحصر لها هي أيضا تجليات لعمليات التعبير لدى الانسان ، وهى تسمى تعبيرية لأنها تسمح بالوصول الى استنتاجات حول شخصية الفرد - وحول حالاته العقلية والانفعالية المؤقتة أيضا - ويمتد علماء الجشططت باستخدامهم لمفهوم « التعبير » لكى يشتمل أيضا على التعبيرات التى تنقلها الموضوعات غير الحية الأخرى كالجبال والسحب . والآلات والناصورات والحيوانات والأشجار والصخور والنيان وغيرها ، فكلها ذات تعبير خاص من حيث الحجم والشكل والحركة (١٢٦) .

وحيث انه قد تم تحديد حامل التعبير الذى يمكن أن يكون أى شىء وفقا لنظرية الجشططت فانه يجب تحديد طبيعة العملية العقلية التى تستثير هذه الظاهرة ، وتؤكد نظرية الجشططت هنا أن الخبرات المختلفة التى يتم تصنيفها تحت مصطلح « ادراك التعبير » Perception of expression تحدث من خلال عدد من العمليات السيكولوجية التى ينبغى التمييز بينها وبين بعضها البعض من أجل أغراض التحليل النظرى (١٢٧) .

ان كل الموضوعات تشتمل فى ضوء هذا التصور على توترات داخلية مباشرة تظهر فى شكلها الخارجى ، فالنار المشتعلة تشتمل على توتر يختلف عن التوتر الذى تشتمل عليه النار الخابية والنهر المتدفق يشتمل على

توترات لا يشتمل عليها النهر الساكن ، والموسيقى السريعة تشتمل على توترات تختلف عن الموسيقى البطيئة ، كذلك الشخص الذي يتحدث بسرعة توجد بداخله توترات تختلف عن الشخص الذي يتكلم ببطء وهكذا .

وللعمليات التعبيرية السابقة علاقتها الوثيقة أيضا بمفهوم التشابه لدى نظرية الجشطالت ، هذا المفهوم يفترض كما قلنا وحدة الشكل أو التشابه بين العمليات السيكلولوجية والعمليات الطبيعية (بما فيها العمليات الجسمانية) وهكذا فإن نظرية التعبير فى الفن يجب ألا تبدأ بالضرورة من اتجاهات الجسم الانسانى وتفسر الاثارة المشعة فى أشجار فان جوخ أو سحب الجريكو ، من خلال نوع من الاسقاطات التشاكلية ولكن يجب عليها بدلا من ذلك أن تتقدم من الخصائص التعبيرية للمنحنيات والخطوط والأشكال ، وتظهر انه من خلال تمثيل أى موضوع بواسطة هذه المنحنيات والأشكال يتم نقل التعبير الى الاجسام الانسانية والأشجار والسحب والمباني والأواني وغير ذلك من الأشياء ، وفى مجال الفنون الأدبية يكون الايقاع هو الوسيلة الهامة للتعبير هنا ، فايقاع الكلام السريع ينقل حالة مختلفة من الايقاع البطيء ويظهر ذلك بشكل خاص فى البحور المختلفة للشعر التى تختلف الحالات العقلية والانفعالية التى تنقلها باختلاف سرعة ايقاعها أو تتابع خصائص الحركة والسكون عبرها ، هذا الايقاع موجود أيضا فى القصة والرواية ، فالوصف أو التصوير المختصر السريع فى القصة القصيرة لابد أن يختلف فى تأثيره عن الوصف والتفسير المفصل المستفيض فى الرواية ، فهذا التفصيل يجعل حركة القص أو الحكى أكثر بطئا وذلك لأن عين الكاتب ومن ثم القارئ تظل مسيطرة أو متركزة حول المشهد أو الحديث أو الموضوع الموصوف فترة أطول مما يحدث فى انقصة القصيرة ومن ثم يكون ايقاع التعبير أقل حركة ومن ثم أكثر بطئا وان كان هذا لا يمنع بطبيعة الحال من وجود مناطق مختلفة متفاوتة الحركة والسكون فى الرواية كما هو الحال فى القصة القصيرة وان كنا نرى أن ايقاع القصة القصيرة غالبا ما يكون من الايقاعات السريعة بينما يكون ايقاع الرواية متسا بالبطء النسبى .

إضافة الى ما سبق فإن نظرية الجشطالت حول التعبير تؤكد أن الخاصية أو الطبيعة المدركة لموضوع ما قد تتفق مع حالته الطبيعية وقد لا تتفق ، فمثلا قد يتم التعبير عن لزوجة القار (القطران) من خلال الطبيعة البصرية التى تظهر خلال سيولته أو جريانه . لكن من ناحية أخرى قد لا تتفق الطبيعة المدركة لهذا القار أيضا مع حالته الطبيعية كما نرى ذلك مثلا فى الشكل المتعرج الصلب لجهاز التليفون مثلا (والذى كان يصنع فى الماضى من مادة شبيهة بالقطران) .

وثانياً فان التعبير قد يشير أيضا - من خلال مبرر واضح أو بدون مبرر - الى حالة عقلية مرتبطة به ، والشئ الهام قبل كل شئ هو طبيعة الموضوع نفسه ، هذه الطبيعة هي ما يتم التعبير عنها من خلال التوترات المختلفة المباشرة أو غير المباشرة التي تحدث بداخله هذه التوترات هي التي يتم تشكيّلها من خلال التحويلات المختلفة للمسافة أو الانفعال أو الفكر أو الصورة الداخلية . . الخ في شكل تعبير خارجي خاص ندركه .

الجدير بالذكر أن هذا التصور الجشطالتي حول التعبير وتيق الصلة بنظرية التعاطف أو المشاركة الوجدانية Empathy التي قدمها ثيودور لبس T. Lipps في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - وكانت امتدادا للنظرية الترابطية من أجل التعبير عن الموضوعات غير الحية فعندما انظر مثلا الى الاعمدة الخاصة بأحد المعابد القديمة فأنني أغرف من خلال خبرتي السابقة نوع الضغط (أو الثقل) والضغط المقابل الخاص بهذه الاعمدة أو التي تحدث بداخلها ، وأيضا من خلال خبرتي السابقة أستطيع أن أتصور أو أن أشعر بأنني في موضع هذا العمود وأنني أخضع لنفس القوى التي يخضع لها وأن التأثيرات التي تقع عليه يمكن أن تقع على أو بداخلي . معنى هذا انني أسقط مشاعر على هذا العمود من خلال هذه الاحيائية - أي منح الشئ غير الحي حياة ، والنظر اليه باعتباره كائنا خيا - فأنني أمنح هذا الشئ تعبيرا خاصا ، وقد قرر ثيودور لبس أن هذه المشاركة الوجدانية تقوم على أساس الترابط Association

فالشئ الحقيقي - كما قال - هو أن نوع الترابط موضع الاهتمام هنا يقوم على أساس الربط بين « شيئين ينتميان لبعضهما البعض أو يتم دمجهما بالضرورة بحيث يصبح أحدهما معطى بشكل مباشر من خلال الآخر أو بداخله » (١٢٨) لكن « لبس » يبدو أنه أدرك هذه الضرورة الداخلية باعتبارها مجرد علاقة عابرة أو ربط عارض بين موضوعين وذلك لأنه قام بعد ذلك بالإنكار الواضح لامكانية وصف العلاقة بين التعبير الجسمي عن الغضب وبين الخبرة النفسية التي تكون موجودة لدى الشخص في حالة الغضب ، بأنها «ترابط خاص بالتماثل أو الهوية المشتركة identity أو الاتفاق » ، ولم ير « لبس » أية علاقة ضمنية أو داخلية ما بين المظهر الإدراكي والقوى النفسية والطبيعية التي تقف خلفه ، لكنه ، على كل حال ، قد رأى ذلك التشابه البنائي ما بين القوى الطبيعية والقوى النفسية في سياقات أخرى فهو قد لاحظ أن « التمثيلات المتعددة لنشاطات مختلفة والتي تشمل على القوى والدوافع والميول التي تنشط بشكل حر أو يتم قمعها أو تحريمها ، التي تخضع لآثار خارجية والتي تتغلب على المقاومة

وكذلك التوترات المستنارة والتي يتم حلها ما بين الاندفاعات . . الخ كل هذه القوى وآثارها تظهر في شكل طرائق الخاصة في السلوك وكذلك أنواع النشاط والاندفاعات والميول الخاصة بى وكذلك الطرائق الخاصة التى تحدث بها هذه النشاطات » (١٢٩) ان « لبس » هنا كما يقول ارنهايم - كان بمثابة المرهص أو المتوقع أو المتنبىء بنظرية الجشطت حول مبدأ النشاكل الخاص بالعلاقة بين القوى الطبيعية فى الموضوع المدرك وبين العمليات الدينامية لدى الشخص القائم بالملاحظة وقد قام « لبس » بعد ذلك أيضا بتطبيق مبدأ « الترابط الخاص بالمائل فى الطبيعة » Association of Similarity of Character على العلاقة بين

الايقاع المدرك للنگمات الموسيقية والايقاع الذى يحدث فى القوى النفسية لدى الشخص الذى يستمع لهذه الايقاعات ، وهذا يعنى أنه حتى بالنسبة لخاصية مميزة واحدة على الأقل وهى الايقاع ، أدرك لبس ذلك التماثل الداخلى الممكن بين الأنماط الادراكية وبين المعنى التعبيري الذى تنقله هذه الأنماط الى الشخص المدرك أو الملاحظ له وتؤكد نظرية الجشطت حول التعبير أن هذا الاتفاق بين السلوك الطبيعى (الفيزيقي والجسمي) وبين السلوك النفسى يمكن أن يكتشف على أسس خاصة بالتكرار الاحصائي فقط لكنها تؤكد أيضا أن الترابط المتكرر ليس هو الوسيلة الوحيدة فقط للوصول الى فهم التعبير . هذه النظرية تؤكد أكثر من ذلك أن السلوك التعبيري يكشف عن معناه بشكل مباشر خلال عملية الادراك . وبتطبيق ذلك على الجسم والعقل فان هذا يعنى أنه اذا كانت القوى التى تحدد السلوك النفسى يمكن أن يكتشف على أسس خاصة بالتكرار الاحصائي فقط مع هذا السلوك الجسمي ، فائنا نستطيع نتيجة لذلك أن نفهم المعنى الجسمي - أو الطبيعى - الذى يمكننا أن نقرأه بشكل مباشر من خلال مظهر الشخص وسلوكه (١٣٠) . هذه هى النظرية التى قدمها علماء الجشطت حول السلوك الانساني بشكل عام ومن خلالها أكدوا أهمية العمليات الخاصة بالتدريب والخبرة السابقة والتعليم والمعرفة والذاكرة وغيرها من العمليات النفسية المؤثرة على عمليات الادراك والتعبير وقد قاموا خلال ذلك بالتأكيد الكبير بدرجة واضحة على العمليات الخاصة (العمليات الخاصة بالتعبير ، والعمليات الخاصة بالادراك) أى بالتوترات الخاصة بالقوى النفسية أو الطبيعية الأساسية التى تتفاعل معا لتنتج تعبيرا خاصا يتم ادراكه بواسطة هذا الكائن القائم بملاحظة التعبير أو حتى المنتج له ، لكنهم خلال تطويرهم لهذه النظرية لم يهتموا بشكل مماثل بتطوير أفكار مناسبة حول تلك العمليات الوسيطة فيما بين الادراك والتعبير أو ما بين التعبير والادراك وهى تلك العمليات الخاصة بالتحويلات الداخلية التى تحدث للمادة التى يتم ادراكها كما أن واقع الخبرة الفعلية تكشف لنا عن

أنه أحيانا ما يكون التعبير الخارجى ، أى المظهر الخارجى لنتيجة التفاعلات بين القوى الداخلية ، غير متفق أو حتى مرتبط بين الواقع الداخلى لهذه التفاعلات . . مثلا أن يبتسم أحد الناس أو يضحك نتيجة صدمة أصيب بها أو كارثة حلت به ، أو يتظاهر أحد الناس بالغضب فى حين أنه يكون فى داخله شديد الفرح . . الخ هذه حالات قليلة لكنها تكشف على كل حال عن أنه ليس بالضرورة أن يتفق التعبير (الخارجى) مع الحالة (الداخلية) وأن التشاكل له أيضا بعض الاستثناءات ، وأنه - هذا التشاكل - لا يمكن فهمه بشكل مناسب إلا اذا وضعنا فى اعتبارنا العمليات الخاصة بالحويلات الداخلية للمادة التى يتم التعبير عنها ومن ثم يتم ادراكها ومن ثم يتم التعبير عنها مرة أخرى وكما يظهر ذلك فى النشاط الفنى بوجه خاص وفى النشاط الابداعى للانسان بوجه عام .

خاتمة :

عرضنا فى الأجزاء السابقة من هذا الفصل للأفكار الأساسية لنظرية الجشططت حول الابداع والفن ، وقد عرضناها بشكل خاص من خلال المتحدث الرسمى الرئيسى باسم الجشططت فى مجال الفن وهو رودلف أرنهايم ، أول استاذ لسيكولوجية الفن فى العالم (بجامعة هارفارد) وصاحب الكتابات المشهورة التى ترجمت الى لغات عديدة فى العالم ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر : الفن والادراك البصرى *Art and Visual Perception* والتفكير البصرى *Visual thinking* الفيلم كفن *Film as Art* ونحو سيكولوجية للفن *Toward a Psychology of Art* وكذلك دراسته الهامة حول لوحة الجيرنيكا لبيكاسو ، وغير ذلك من الدراسات .

وكما رأينا ، فإن ما قدمته نظرية الجشططت عن ادراك الشكل وعن التشاكل وعن التمثيل والتعبير والتوازن والالهام والتجريد وغير ذلك من العمليات النفسية هو من الأمور شديدة الأهمية بالنسبة لعلم النفس بشكل عام وبالنسبة لسيكولوجية الفن بشكل خاص ، لقد أكدت هذه النظرية منذ بدايتها وخلال تطورها على صلاتها الوثيقة بالفن والابداع ، وكان هناك امتزاج واضح لديها بين الرؤية العادية والرؤية الفنية ، وبدلاً من أن تكون الرؤية هى عملية تسجيل ميكانيكى للعناصر الحسية أصبحت من خلال نظرية الجشططت عملية ابداعية للتمكن من الواقع وفهم أسراره ، أى عملية جمالية خيالية ابتكارية تتسم بالفطنة . وكما يقول « أرنهايم » فإن « العقل يدرك دائماً ككل ، كل ادراك هو تفكير وكل استدلال هو استبصار أيضاً ، وكل ملاحظة هى أيضاً ابتكار ، ومناسبة هذه الآراء لنظرية وممارسة الفن هى أمر واضح » .

وقد أشار أرنهايم كذلك فى كتابه التفكير البصرى *Visual thinking* عام ١٩٦٩ الى أن عمله المبكر والمستمر فى مجال سيكولوجية الفن قد علمه أن النشاط الفنى هو شكل من الاستدلال *Reasoning* الذى يتضافر فيه الادراك مع التفكير بشكل متكامل ، فالشخص الذى يرسم أو يكتب أو يؤلف الموسيقى أو حتى يرقص ، يفكر من خلال حواسه ، وأن العمليات الأساسية التى تعمل من خلالها الحواس ، وخاصة الابصار لكى تفهم البيئة هى نفس العمليات التى تحدث من خلالها عمليات التفكير ، وأما التفكير الابداعى الانتاجى الحقيقى يحدث عند المنطقة الخاصة بالصور العقلية ، وأن هذا التشابه بين ما يفعله العقل فى مجال الفنون وما يفعله فى مجالات أخرى هو ما جعل أرنهايم ينظر بطريقة جديدة الى تلك الشكوى الماثرة دائماً حول

انعزال واهمال الفنون في المجتمع وخلال عمليات التربية ، والمشكلة في جوهرها كما يرى أرنهايم أعمق من ذلك الانفصام أو الانفصال الحادث ما بين الحواس والتفكير ، وهو الانفصال الذي أدى الى حدوث أمراض ومظاهر قصور عديدة لدى الانسان المعاصر . يمكننا أن نلاحظ إضافة الى ما سبق أن تركيز أرنهايم بصفته المتحدث الأساسي باسم الجسطلت في مجال سيكولوجية الفن قد اتجه بوجه خاص الى مجال الفنون التشكيلية أو الفنون البصرية كما قد تسمى أحيانا ، لكن اهتمامه بمجال الابداع الأدبي كان قليلا ، هناك مقالات قليلة له حول الابداع الشعري وإشارات خاصة حول الابداع القصصي ، لكن اهتمامه في معظمه كان موجها الى لغة الشكل والصورة بينما لم يظهر الاهتمام باللغة بشكل واضح الا في كتاباته المتأخرة وخاصة في كتابه التفكير البصري . في هذا الكتاب ، وفي الفصل الثالث عشر بوجه خاص يتحدث أرنهايم عن أهمية اللغة بوصفها وسيلة لتنظيم التفكير ولكن ما يعنينا أكثر في هذا السياق هو نفرته بين نوعين من المعرفة : المعرفة الحدسية *Intuitive Cognition* والمعرفة الذهنية *Intellectual Cognition* . تحدث المعرفة الحدسية في المجال الإدراكي التي تتفاعل فيه القوى بشكل يتسم بالحرية كما يحدث مثلا عندما يحاول شخص ما فهم أو تفهم لوحة تشكيلية ، انه يحيط بصريا بالمنطقة التي يشتمل عليها اطار اللوحة ويدرك المكونات المختلفة للصورة (اللوحة) كالأشكال والألوان والعلاقات المختلفة بينها ، هذه المكونات تمارس تأثيراتها الإدراكية على بعضها البعض بطريقة تجعل الشخص القائم بالإدراك (المتلقي) يستقبل الصورة الكلية باعتبارها نتيجة للتفاعل بين مكونات اللوحة المختلفة ، نفس الأمر يمكن طرحه بالنسبة للأعمال الإبداعية الأخرى . كالموسيقى مثلا وكذلك الرواية والمسرحية والقصة القصيرة ، حيث يحدث تفاعل خاص بين القوى المشتركة في تشكيل هذه الأعمال ، يحدث بطريقة كلية داخل عقل القارئ أو المستمع ويؤكد « أرنهايم » أن هذا التفاعل ما بين القوى الإدراكية (التي تدرك الأشكال والألوان في اللوحة أو النغمات في الموسيقى أو الايقاع والصور ومكونات اللغة المختلفة في الفنون الأدبية) هو تفاعل شديد التركيب وان جانبا كبيرا من هذا التفاعل يتم أدنى (أو أسفل) مستوى الشعور وأن الناتج النهائي لهذا التفاعل يصبح مشعورا به عند وصولنا الى تكوين مدرك كلي للوحة (أو المقطوعة الموسيقية أو العمل الأدبي . . الخ) هذا المدرك يتم تنظيمه بطريقة معينة ، كما أنه يتكون من أشكال وألوان (أو نغمات وكلمات وإيقاعات . . الخ) تكون طبيعتها الخاصة محددة من خلال موضعها ووظيفتها في الكل .

ويشير أرنهايم الى أن جانبا كبيرا من تفكيرنا ومن سلوك حل المشكلات لدينا يسر من خلال مثل هذه المعرفة الحدسية (١٣١) .

أما فى النوع الآخر من التفكير ، أى ما يسمى بالمعرفة العقلية ، ففيها يقوم المتلقى بدلا من امتصاص الصورة الكلية ، أو العمل الابداعى باعتباره كلا متكاملا ، فانه يقوم بتحديد المكونات والعلاقات المختلفة التى يتكون منها العمل ، انه يصف كل لون وكل شكل ، وكل نغمة وكل كلمة أو جملة . . ألخ ويعد بعض القوائم الخاصة بهذه العناصر ، ثم يتقدم بعد ذلك لفحص العلاقات الموجودة بين العناصر الفردية ثم يحاول بعد ذلك أن يقوم بالدمج أو التركيب ما بين هذه العناصر .

ويؤكد أرنهايم الى أنه ليس هناك صراع ضرورى ما بين المعرفة الحدسية والمعرفة العقلية (أو الذهنية) فالتفكير الابداعى ، فى الفنون وفى العلوم يتميز بذلك الامتزاج الخاص ما بين التفاعل الحر للقوى داخل المجال وبين الوحدات الأكثر تحديدا النى نظل ثابتة داخل السياق المنعبر .

فالابداع اذن يتضمن وفقا لنظرية الجشطالت ، وهو ما تتفق معها عليه نظريات سيكولوجية عديدة ، ذلك التفاعل الخصب ما بين الخيال بحريته وصوره وتلقائيته التى هى أقرب الى ما سماه أرنهايم بالمعرفة الحدسية ، وبين العمليات العقلية كالادراك والتجريد والاستدلال والتحليل والتركيب ، وهى ما سماها أرنهايم بالمعرفة العقلية ، وفيما بين هذه العمليات ومن خلال هذا التفاعل تحدث عمليات الابداع وكذلك عمليات التذوق للفنون والآداب .

رابعاً : الابداع وتحقيق الذات :

مقدمة :

ويؤكد أصحاب هذا المنحى عموماً على الدوافع الابداعية ودورها في النشاط الابداعي الكلي ، لكنهم - وبشكل خاص - يوجهون معظم اهتمامهم الى دافع تحقيق الذات Self-actualization ودورة النشاط الانساني بوجه عام ، والنشاط الابداعي بوجه خاص ، ويجد هذا الدافع جذوره في الفلسفة الوجودية وفي المنهج الفينومينولوجي ، وفي أفكار كيركجورد ، وشوبنهاور ، ونيثشه ، وياسبرز وهابيدجر ، وهوسرل ، وسارتر ، بل وقبل ذلك لدى سقراط والقديس أوغسطين وباسكال وغيرهم ممن أكدوا على توق الانسان الدائم للامتداد والمعرفة والتحقق . لقد رأى « ياسبرز » كما يقول « باريت » المعنى التاريخي للفلسفة الوجودية في انها كفاح دائم لا يقاظ امكانات الحياة الحقيقية والأصيلة داخل الفرد في مواجهة انجراف كبير يحدده مجتمع يحاول صياغة الانسان في شكل معياري مقنن والانسان - وفقاً لكيركجورد - كما يقول « النبرجر » لن يكون أبداً كائناً مجهزاً من قبل ، فالانسان سيظل في جوهره هو ما يفعله لنفسه وبنفسه وليس شيئاً آخر . والانسان يكون نفسه من خلال اختياراته لأن لديه الحرية لأن يقوم باختيارات حيوية وحاسمة ، وأكثر من ذلك لديه امكانية الاختيار ما بين ما هو حقيقي وما هو زائف من أشكال الوجود . ومن أجل أن يمر الانسان من الوجود الزائف الى الوجود الحقيقي فإن عليه أن يعاني محنة اليأس والقلق الوجودي (أى قلق الانسان في مواجهة قيود وجوده ، أو وجوده المحدود بكل ما يشتمل عليه من موت وخواء (١٣٢) ان المنظور الدافعي يحسن فهمه في ضوء محاولات الانسان الدائمة ، وتوقه الأبدى لأن يجد طرائقه الخاصة في الحياة سعياً وراء كل ما هو حقيقي وهام لتحقيق وجوده ، هذا المنظور الدافعي رغم تأكيد أصحابه على الطابع العلمي له ، الا انه يظل غير قابل للفهم الا في ضوء الوجودية ، والفينومينولوجيا ، والبوذية ، والتاوية وغيرها من الفلسفات المؤكدة على سعي الانسان الكامل نحو الحرية ونحو الاكتمال وكذلك الدور الكبير للخبرة الباطنية الانسانية في هذا السعي ، وبالإضافة الى ما سبق يحسن فهم هذا المنظور أيضاً في ضوء بعض النظريات السيكلوجية الأكثر حداثة في مجال الشخصية مثل نظرية البورت التي أكدت أهمية تفرد وخصوصية وكلية الخبرة الانسانية والشخصية الانسانية ، وهي نزعة تؤكد عليها أيضاً نظرية الجشطالت في مجال الادراك وحل المشكلات . ان المعنى الحقيقي لمفهوم تحقيق الذات الذي هو المفهوم المركزي في الاتجاه الانساني والمنظور الدافعي للابداع يكمن في

محاولة الانسان اكتشاف ذاته الحقيقية ، والتعبير عنها وتطويرها .
والذات باعتبارها الجزء النامي والأكثر تطورا وابداعا من الأنا الواعية
لشخصية التي سبق أن أكد أهميتها الكبيرة ادلر ويونج ، ورائك
وروجرز ، وماسلو وغيرهم ، فالذات عند يونج مثلاً هي الاندماج المتميز
الأكثر اكتمالا وامتلاء وتناسقا لكافة جوانب الشخصية الانسانية الكلية ،
ويحاول الانسان دائما الوصول الى هذه المرحلة من خلال ما سماه
جولدهشتاين سنة ١٩٣٩ وماسلو سنة ١٩٥٤ باسم تحقيق الذات وسيكون
اهتمامنا خلال الجزء القادم من هذا الفصل مركزا حول ماسلو لانه أهم
من قام بالربط الجيد بين هذا المفهوم وبين الابداع .

١ - ماسلو وتحقيق الذات :

ولد ابراهيم ماسلو عام ١٩٠٨ في بروكلين - نيويورك ، من أبوين
يهوديين مهاجرين من روسيا الى الولايات المتحدة ، وخلال دراسته الجامعية
اكتشف ماسلو الموسيقى والدراما وظهر هذا التأثير بشكل مستمر معه عبر
حياته ودراساته ، في عام ١٩٣٤ حصل ماسلو على الدكتوراه في علم
النفس وكان في السادسة والعشرين من عمره وارتبط ماسلو عبر حياته
بعلاقات علمية وبحثية كثيرة مع عديد من العلماء البارزين في المجال أمثال
ثورندايك والفريد ادلر وإيريك فردم وكارين هورني ، لكنه كان شديد
التأثر بوجه خاص بماكس فروتيمر - أحد كبار مؤسسي مدرسة الجشطالت -
وكذلك عالم الانثروبولوجيا الثقافية المشهورة روث بندكت ، تأثر ،
ماسلو كذلك بدراسات فرويد عن الجنس وكان مقتنعا بأن أي تقدم في
فهمنا للوظائف الجنسية سيقوم بتحسين قدرتنا الانسانية على التكيف الى
حد كبير خلال الحرب العالمية الثانية ومع ادراك ماسلو أن علم النفس لم
يساهم الا بالقليل في فهم وحل كثير من مشكلات العالم الكبير تحول اهتمام
ماسلو من علم النفس التجريبي الى علم النفس الاجتماعي وسيكولوجية
الشخصية ، وبدأ ماسلو يهتم بدراسة الجوانب الأسرية والمهنية في علاقتها
بالصحة النفسية وكذلك المرض النفسي وخلال ذلك طور ماسلو ما سمي
بعلم النفس الانساني الذي اعتبر بمثابة « القوة الثالثة » في علم النفس
بجوار التحليل النفسي والمدرسة السلوكية ، ورغم أن ماسلو لم يكن يشعر
بالراحة لهذه التسمية لأن من كانوا يستخدمونها كانوا يؤكدون على انها
اتجاه مضاد للسلوكية ، وماسلو نفسه لم يكن ينكر صلاته الوثيقة
بالسلوكية « لا يجب الاعتقاد أنني ضد السلوكية .. أنا ضد التفسير
المجرد .. أنا ضد أي شيء يغلق الأبواب ويقف في وجه الاحتمالات » (١٣٣).

من خلال تجاربه ودراساته الشخصية ومن خلال قراءاته وتأثيراته بأفكار علماء أمثال مالبينو فسكى ومرجريت ميد ، وروث بندكت ووالف لنتون ووليم سومرز فى مجال الانثروبولوجيا ، وعلماء أمثال فرويد وادلر وثورندايك وماكس فريتهيمر وكورت جولد شتاين فى مجال علم النفس ، فقد تأثر ماسلو كثيرا بوجهة نظر سومر القائلة ان كثيرا من جوانب السلوك الانسانى تكون محددة من خلال الأنماط والقواعد الاجتماعية ، وتأثر أكثر بتحليل سومرز للطرائق التى يتحول من خلالها سلوك الانسان الى أنماط وقوالب . من مدرسة الجشططت تأثر ماسلو بوجه خاص بكتابات فريتهيمر حول العقل المنتج وهى الكتابات وثيقة الصلة بكتابات ماسلو بعد ذلك عن الابداع ، وعن المعرفة ، فبالنسبة لماسلو ، كما هو الحال بالنسبة لمدرسة الجشططت ، فان القدرة على الادراك والتفكير فى ضوء الكليات أو الأنماط الكلية وليس الأجزاء المتفرقة هو الأمر الأكثر كفاءة وفاعلية فى التفكير الابداعى وحل المشكلات تأثر ماسلو أيضا بشكل كبير بدراسات كورت جولد شتاين عالم علم وظائف الأعصاب (النيوروفسيولوجى) الذى أكد أن الكائن الحى هى كل موحد وأن ما يحدث لأى جزء فيه لابد وأن يؤثر على الكائن ككل ، ويعتبر الجهد الذى قدمه ماسلو حول تحقيق الذات متأثرا الى حد كبير بجهود شتاين المبكرة ، فقد كان جولد شتاين هو أول من استخدم هذا المصطلح . وكان جولد شتاين مهتما بشكل خاص بالمرضى ذوى الاصابات العضوية فى المنح ، ونظر خلال عمله الى تحقيق الذات باعتباره العملية الأساسية الموجودة لدى كل كائن حى ، عملية قد تكون لها جوانبها السلبية مثلما تكون لها جوانبها الايجابية بالنسبة للفرد ، وأكد جولد شتاين أن كل فرد يكون لديه دافع أولى واحد ، أى أن الكائن يكون محكوما بالنزعة نحو التحقيق بقدر الامكان ، لقدراته الفردية لطبيعته فى العالم . واعتقد جولد شتاين أن عملية خفض التوتر أو التحرر منه تكون دافعا قويا لدى الكائنات فقط ، وذلك لأن الكائن الحى السليم يكون هدفه الأساسى هو « التشكيل لمستوى معين من التوتر ، أى ذلك المستوى الذى يجعل نشاطه المنظم بعد ذلك ممكنا » ان دافعا مثل الجوع هو حالة خاصة من تحقيق الذات ، فالكائن يبحث عن خفض التوتر المصاحب للجوع كى يعود الى حالته العضوية المثالية من أجل أن يعبر بعد ذلك عن قدراته وامكانياته الانسانية على كل حال ، فانه فى المواقف المتطرفة فقط يكون هذا الدافع مطلوبا لذاته ، وقد أكد جولد شتاين أن الكائن الحى الطبيعى يمكنه أن يؤجل الأكل والجنس والنوم وما شابه ذلك اذا كانت دوافع أخرى مثل حب الاستطلاع والمعرفة أو الرغبة فى اللعب (لدى الأطفال مثلا) موجودة لديه ، ان المواجهة الناجمة للبيئة فى رأى جولد

شتاين تشتمل على كمية معينة من عدم اليقين والصدمة ، والكائن المتسم بالصحة النفسية والمحقق لذاته يبحث فعلا عن مثل هذه الصدمات من خلال مغامراته بمواجهة المواقف الجديدة من أجل أن يستفيد من كل امكاناته ، وبالنسبة لجولد شتاين ، كما هو الحال بالنسبة لماسلو ، لا يعنى تحقيق الذات نهاية المشكلات والصعوبات بل على العكس ، فالنمو قد يجلب معه حالات كثيرة من الألم والمعاناة ، ان قدرات الكائن تحدد حاجاته ، فامتلاك الجهاز الهضمي جعل تناول الطعام أمرا ضروريا تحتاج للحركة ويحتاج الطائر للطيران ، والفنان للابداع ، حتى ولو كان فعل الابداع يتطلب الصراع المؤلم والجهد الكبير (١٣٤) .

هذه هي أفكار جولد شتاين التي استفاد منها ماسلو الى حد كبير ، وقد اعتبر ماسلو عمله وانجازته العلمي بمثابة التركيبة أو التوليفة الخاصة التي تحاول أن تحدث ما بين أفكار ونظريات جولد شتاين ومدرسة الجشططت من ناحية ، وبين أفكار ونظرية فرويد والتحليل النفسى من ناحية أخرى ، وان هذا التكامل يستفيد من الروح العلمية التي تعلمها ماسلو على يد أساتذته فى ونسكونسن بشكل خاص ، هذا التكامل ظهر بطريقة واضحة فى نظريات ماسلو حول الابداع فى علاقته بتحقيق الذات .

٢ - مدرج الحاجات الانسانية :

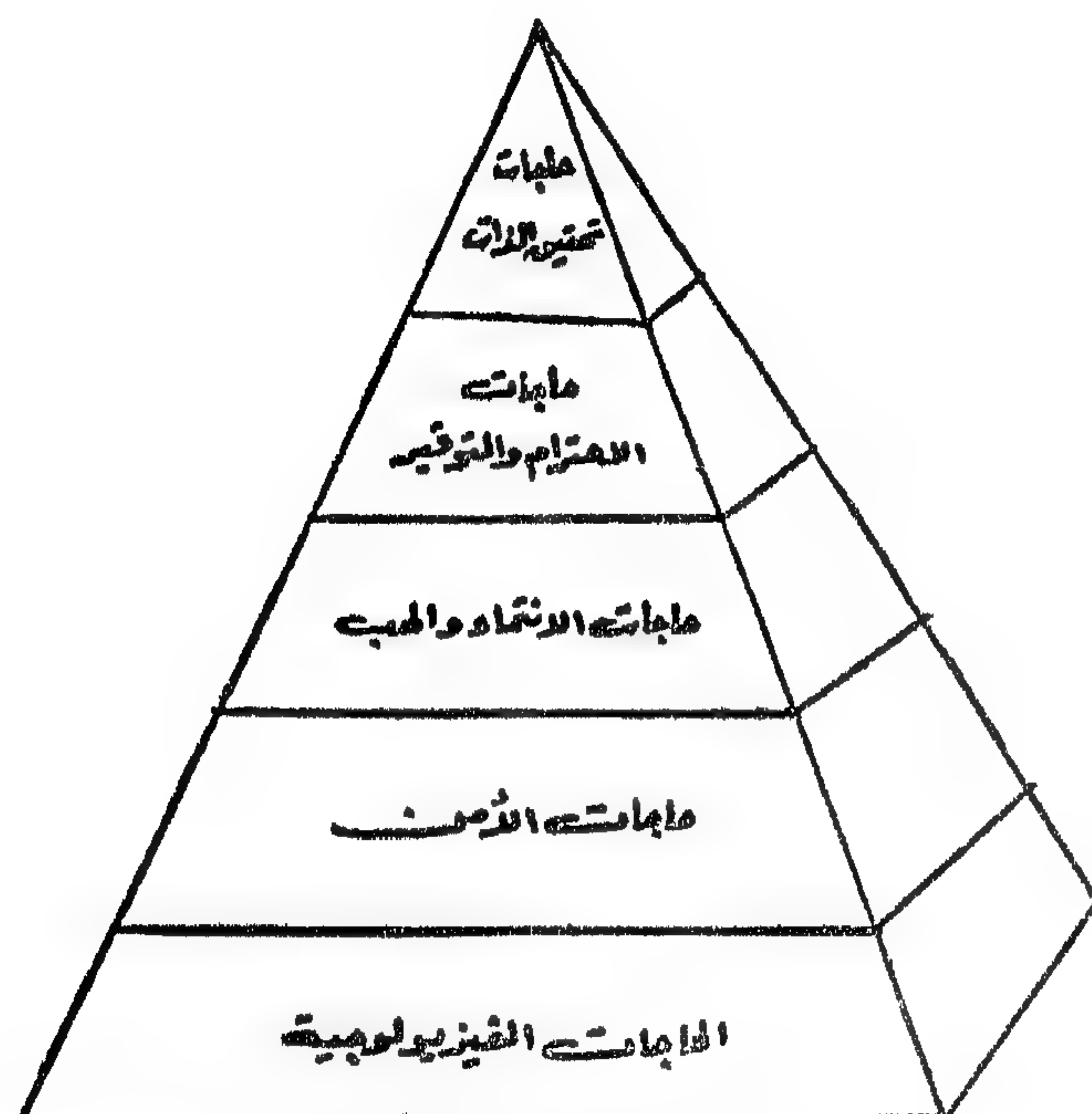
اعتقد ماسلو أنه يمكن تفسير جوانب عديدة من سلوك الانسان فى ضوء ميل هذا الانسان الى البحث عن حالات خاصة بأهداف شخصية ، هذه الحالات تجعل الحياة مشبعة وذات معنى ، هذه العمليات الدافعية هي جوهر الشخصية لدى ماسلو . ان الانسان فى ضوء هذا التصور نادرا ما يصل الى حالة الرضا الكامل ، فحتى لو وجدت « النرفانا » (*) ، فانها تكون مؤقتة ، ان الخاصية المميزة لحياة الانسان هي أن الناس دائما يرغبون فى أشياء معينة ويريدونها ، وعندما يحصلون عليها فانهم يفكرون فى غيرها ، وهكذا .

افترض ماسلو أن الرغبات (أى الدوافع) الانسانية هي دوافع فطرية أى ولادية وانها مرتبة فى شكل متدرج وفقا لأولوياتها أو لسلطوتها على الانسان ، والشكل رقم (١) يعرض تمثيلا تخطيطيا لهذا المدرج الهرمى

(*) وهى الحالة الخاصة بالفكرة البوذية حول التحرر من دورة الحياة والموت التي يعيش فيها الانسان العادى على الأرض ، وتعنى التحرر من الرغبات والانشغالات والهوى الحياتية والذاتية والوصول الى حالة من النشوة الثامة من خلال التأمل والعمل (١٣٥) .

الخاص بالدوافع الانسانية في ضوء تصور ماسلو : وحيث يكون ترتيب هذه الدوافع كما يلي :

- ١ - الحاجات الفسيولوجية الأساسية Basic Physiological needs
- ٢ - حاجات الأمن (أو الشعور بالأمان) Safety needs
- ٣ - حاجات الانتماء والحب Belongingness and love needs
- ٤ - حاجات الاحترام أو التمجيد (أو التوقير) Esteem needs
- ٥ - حاجات تحقيق الذات Self-actualization needs.



شكل رقم (١)

يوضح تصور ماسلو لدرج الحاجات الانسانية

وهناك افتراض يقوم عليه هذا التصور وهو أن الحاجات التي تقع عند سفح المدرج أى الحاجات الدنيا هي ما يجب أن يشبع أولا على الأقل الى حد ما قبل أن يستطيع الانسان التفكير فى اشباع الحاجات الأعلى منها ، فمثلا يجب التفكير فى اشباع الحاجات الفسيولوجية (كالطعام والشراب ... الخ) قبل التفكير فى حاجات الحب والأمن ، بل ان اشباع ذلك المستوى الأدنى يساعد فى التهيؤ للتفكير فى هذا المستوى الأعلى وهكذا وقد اعترف ماسلو بوجود استثناءات لهذا التنظيم الخاص بالدوافع ، فقد لاحظ مثلا وجود بعض المبدعين الذين قاموا بمتابعة ومواصلة العمليات المتعلقة بارتقاء مواهبهم . بالخاصة والتعبير عنها بصرف النظر عن شظف العيش

أو السخرية الاجتماعية ، كما يوجد أفراد أيضا تكون قيمهم ومثلهم ومعتقداتهم شديدة القوة بحيث يتجاوزون عمليات الجسوع والعطش بل ويواجهون الموت دون التخلي عن معتقداتهم .

عموما فإن ترتيب هذه الحاجات أو الدوافع فى ضوء تصور ماسلو لها يقوم على افتراض أنه كلما انخفضت درجة الدافع على هذا المدرج كانت أسبقيتها ومن ثم سطوتها أكبر على الانسان بشكل عام

وفيما يلي بعض التفاصيل الخاصة بهذا التنظيم :

(أ) الدوافع الفسيولوجية :

ان الحاجة الأكثر أساسية وقوة ووضوحا من بين حاجات كل البشر هي الحاجة للبقاء الجسمى الفيزيقي ، ويشتمل ذلك على مجموعة من الحاجات الخاصة بالطعام والشراب والأكسجين والنوم والجنس والابتعاد عن درجات الحرارة المرتفعة والمنخفضة بشكل متطرف ، وكذلك عمليات التنبيه الحسى ، هذه الدوافع الفسيولوجية تتعلق بشكل مباشر بعمليات الحفاظ البيولوجى على الكائن الحى ويجب اشباعها عند مستوى أدنى على الأقل قبل أن يندفع الكائن الى مستوى أعلى عبر مدرج الدوافع ، فالشخص الجائع بدرجة كبيرة ولفترة طويلة لن يفكر فى تأليف الموسيقى أو بناء عالم جديد أو ابتكار نظرية جديدة ، انه يكون مشغولا أكثر بكيفية الحصول على ما يشبع حاجاته الأساسية .

(ب) حاجات الأمن :

عندما يتم اشباع الحاجات الفسيولوجية ، يصبح الانسان مهتما بمجموعة جديدة من الدوافع هي دوافع الأمن أو الأمان . وتكون القوة الأساسية الموجهة هنا من أجل ضمان درجة معقولة من الضمان والنظام واليقين فى البيئة الخاصة بالفرد ، وقد أشار ماسلو الى أن حاجات الأمان تشاهد بشكل واضح لدى الرضع والأطفال الصغار ، وذلك بسبب شعورهم النسبى بالعجز وقلة الحيلة والاعتماد على الراشدين ، فيستجيب الطفل مثلا باستجابة الخوف أو الاجفال للأصوات المرتفعة وعمليات السقوط المفاجئة أو الاضواء المبهرة المفاجئة ، وتقوم عمليات الخبرة والتربية بعد ذلك بجعل مثل هذه المنبهات أكثر حيادا ، فان هذا يكون نتيجة المعرفة المتزايدة بالبيئة بجوانبها وعناصرها المختلفة ، فى مثل الحالات السابقة وكذلك خلال الأمراض الجسمية يشعر الطفل بالحاجة الشديدة الى الحماية

والأمن ، هذه الحاجة يوفرها له الراشدون في البداية نتيجة اعتماده عليهم ، لكن مع تزايد عمليات النضج والارتقاء تزداد عمليات استقلال الطفل ثم المراهق ثم الراشد عن الآخرين ، انه يحتاج الى أن يوفر حمايته وأمنه بنفسه لنفسه بل وللآخرين الذين يتعلقون به أيضا ويظهر هذا في الرغبة في الحصول على مهنة ذات عائد مالى مرتفع وعمليات توفير النقود والتأمين الطبى المهنى على الحياة وغير ذلك من العمليات التى يحاول من خلالها الانسان توفير قدر مناسب من الأمن والأمان لحياته . كذلك فان الدين والفلسفة ، على الأقل الى حد ما ، ونسق القيم لدى الفرد قد تساهم فى توفير بعض الأمن المناسب للفرد ، فالديانات والفلسفات تساعد الناس على تنظيم حياتهم فى شكل كلى متماسك له معناه مما يجعل الفرد يشعر بالأمن النسبى ، ويزداد شعور الانسان بالتهديد وفقدان الأمن خلال الحروب وموجات الجريمة والفيضانات والزلازل والخلل الاجتماعى أو الفوضى الاجتماعية وما شابه ذلك من الظروف التى تزداد فيها حاجة الانسان الى الأمن والأمان أكثر من غيرها .

(ج) حاجات الانتماء والحب :

تظهر هذه الحاجات بعد اشباع الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمن ولو بطريقة نسبية ، والشخص الذى تثار دافعيته عند هذا المستوى يتوق الى العلاقات الانسانية الحميمة مع الآخرين ، انه يحتاج الى مكان أو موقع مناسب فى عائلته وكذلك داخل الجماعات المرجعية الاساسية التى ينتمى اليها كالأصدقاء والعمل وما شابه ذلك . ان عضوية الجماعة تصبح هنا هدفا سائدا لدى هذا الفرد ، نتيجة لذلك سيشعر هذا الفرد بالوحدة أو العزلة وافتقاد الصداقة والنبذ الاجتماعى والرفض اذا سيطرت عليه فكرة غياب الأصدقاء والأقارب والزوج - أو الزوجة - والأطفال . ورغم البيانات المؤكدة لأهمية حاجات الانتماء والحب التى تظهر فى عمليات تكوين الأسر الجديدة والعلاقات الاجتماعية وغيرها ، فان ماسلو يصر على أن آثار هذه الحاجات السلوكية ربما كانت شديدة التمزق فى مجتمع يتسم بالحراك Mobility المرتفع مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد أصبحت أمريكا هي أرض الهائمين على وجوههم أو « الرجل الجدد » فحوالى ٤٥ مليون أمريكى أى حوالى خمس عدد سكان أمريكا يغيرون عناوينهم مرة على الأقل كل عام ، انها أمة - كما يقول ماسلو - ويوافقه على ذلك جيل وزيجلر D. Zigler & L. Hjelle من الأفراد الذين لا جذور لهم ، المغتربين ، غير المبالين بالمجتمع أو المشكلات الأسرية كما تسود السطحية علاقاتهم الاجتماعية بشكل واضح (١٣٦) .

ان المجتمع الأمريكى كما يرى ماسلو هو مجتمع يحبط حاجات الحب والانتماء وينتج عن ذلك سوء التكيف والأمراض النفسية والاجتماعية ويرفض عديد من الأفراد تعريض أنفسهم للعلاقات الحميمة حيث ان احتمالات الرفض تقوم دائما كاحتمالات قوية ، يؤكد ماسلو رغم ذلك أن هناك علاقة جوهرية وارتباط قوى ما بين خبرات الطفولة الدافئة والصحة النفسية خلال الرشد ، فالحب هو شرط أساسى مسبق للارتقاء الصحى لدى الانسان .

(د) حاجات اعتبار الذات :

عندما تتحقق حاجات الفرد الخاصة بالحب ، عندما يحب الآخريين ويحبونه فان دافعيته الخاصة بالحب والانتماء تنخفض وترتفع بدلا منها حاجات اعتبار الذات وقد قسم ماسلو هذه الحاجات الى مجموعتين ، تشتمل المجموعة الأولى على احترام المرء لذاته وتشتمل المجموعة الثانية على توقير الآخريين أو احترامهم لهذا الفرد ، وتشتمل المجموعة الأولى على حاجات مثل الرغبة فى الكفاءة أو التمكن أو الاقتدار وكذلك الثقة وقوة الشخصية والانجاز والاستقلال والحرية ، ان هذا يعنى أن الفرد يحتاج الى أن يعرف أنه جدير ببعض الأشياء وأنه قادر على التفوق فى عمله وعلى التحدى خلال الحياة .

أما التوقير أو الاحترام من الآخريين فيشتمل على المكانة الاجتماعية واعتراف الآخريين بالفرد وتقبلهم له وانتباههم اليه والمركز الاجتماعى والشهرة والذیوع والسعة الطيبة ... الخ .

(هـ) حاجات تحقيق الذات :

أخيرا ، وبعد اشباع كل الحاجات السابقة يأتى دور حاجات تحقيق الذات ، وقد حدد ماسلو حاجة تحقيق الذات باعتبارها الرغبة فى تحقيق المرء كل ما يريد تحقيقه ، انه الاستخدام الأمثل لكل ما لدى المرء من قدرات ومواهب وامكانيات ان دافع تحقيق الذات يعنى رغبة المرء فى تحسين ذاته ، ويعنى أيضا أن يكون المرء قادرا على جعل ما هو ممكن لديه فعليا ومتحققا ، انه الوصول الى ذروة امكانيات الفرد ، فالمحقق لذاته هو الشخص الذى يصل الى الحالة التى يريد أن يكون عليها فعلا فالمؤلف الموسيقى لابد أن يؤلف الموسيقى ، والمصور لابد أن يرسم ، والشاعر لابد أن يكتب ، ان المرء يكون هناك فى سلام خاص مع نفسه ، انه يكون حقيقيا وملتزمًا بطبيعته الخاصة ، غير مزيف أو مكابر أو مصطنع ، أو مخادع ،

هذه العملية ليست سهلة أو تلقائية بطبيعة الحال فمحاولة تحقيق الذات تدفع المرء في طريق الانجاز ، لكنها تجلب معها المسؤولية والالتزام ومواجهة غير المعروف بما يتضمنه ذلك من صراعات ومخاوف (١٣٧) .

ان هذا المبدأ الخاص بتحقيق الذات لدى ماسلو جدير بالاهتمام الكبير وذلك لأنه يجعل المرء يطمح ويتوق الى ما يمكن أن يكون عليه ومن ثم يعيش في حالة من الحماس والتوجه نحو أهداف معينة ، هذا المبدأ شديد الصلة بعملية الابداع ومن ثم نقوم بعرض بعض التفاصيل الخاصة به في الصفحات التالية .

٣ - تحقيق الذات :

عرف ماسلو تحقيق الذات بشكل عام باعتباره « الاستفادة الكاملة والاستغلال التام لكل المواهب والقدرات والامكانيات الموجودة لدى الفرد » . ان تحقيق الذات ليس حالة راكدة ساكنة انها عملية مستمرة من استخدام المرء لقدراته بشكل كلى ، ابداعى وممتع ، ان المحققين لذواتهم يرون الحياة بوضوح ، انهم أقل انفعالا وأكثر موضوعية ، ويقل لديهم احتمال سماحهم للآمال والمخاوف أو ميكانزمات الأنا الدفاعية (كالكبت والنكوص مثلا) بأن تشوه ملاحظاتهم وعمليات ادراكهم قد وجد ماسلو أن المحققين لذواتهم كانوا ملتزمين اما بمهنة معينة أو بقضية معينة أو بالاثنتين - المهنة والقضية معا - كذلك كان الابداع والتلقائية والعمل الشاق والشجاعة من الخصائص الكبيرة المميزة للمحققين لذواتهم .

لقد قرر ماسلو بوعى أن يدرس فقط الأشخاص المتحررين نسبياً من العصاب والاضطرابات الانفعالية ، وقد وجد أن الأشخاص الأصحاء نفسياً قل لديهم الصراع النفسى وكانوا أكثر استقلالية وأكثر تقبلاً لذواتهم وأكثر قدرة على التمتع بالعمل ، وباللعب أيضاً ، وهم يفضلون أيضاً « القيم » الأفضل التى تعتبر فى العادة صحيحة ومعقولة وصحية .

ووجد ماسلو أن الأشخاص المحققين لذواتهم والذين درسهم كانوا يستمتعون ويتذوقون الحياة أكثر من غيرهم ، ورغم الألم والأسى والاحباط وخيبات الآمال التى واجهتهم فانهم كانوا يحصلون من الحياة على أفضل ما فيها ، كانت لديهم اهتمامات وقلق وملل ، كما كان لديهم دائماً هدف لحياتهم وسلوكهم ، كانوا أكثر وعياً بالجمال وأكثر قدرة بالاستمتاع بشروق الشمس والطبيعة والزواج والجنس ، لقد كانوا يحبون الحياة بشكل عام ويستمتعون فعلاً بكل جوانبها .

قام ماسلو بدراسات أولى على الحياة الشخصية والقيم والاتجاهات وطرائق التفكير لدى اثنين من أساتذته الذين تأثر بهم كثيرا وهما روت بندكت ، وماكس فرتيهر ، وكان مؤمنا بأن دراسات أفضل الرجال والنساء وأكثرهم صحة يمكن أن يفيد إلى حد كبير في استكشاف الحدود والكلية للخبرة الانسانية ، فلكى يدرس مثلا كيف يستطيع انسان في العالم أن يجرى يجب عليه أن يدرس أبطال رياضة الجرى المتفوقين وليس الأشخاص العاديين في هذه الرياضة ، نفس الأمر بالنسبة للجوانب المختلفة من الابداع الانساني ، العلمي والأدبي وحتى السياسي والاداري ، ونتيجة لذلك قام ماسلو بدراسات تالية على ١٨ شخصية من الشخصيات المحقة لذاتها ، منها : ابراهام لنكولن ، توماس جيفرسون ، ألبرت أينشتاين ، ولين جيمس ، ألبرت شفايتزر ، الدوس هكسلي ، سبينوزا وغيرهم (١٣٨) . وقد أدى اهتمام ماسلو بالأشخاص النشطين الايجابيين البنائين ذوي الانجاز العقلي المتميز إلى استخلاص مجموعة خاصة من الخصائص المميزة لهؤلاء الأشخاص دون غيرها ، وربما لو كان ماسلو قد اهتم بمجموعة أخرى من المبدعين الانطوائيين أو الذين أصيبوا ببعض الاضطرابات الانفعالية فربما استخلص مجموعة أخرى من الخصائص ، على كل حال هذه هي الخصائص المميزة للأشخاص المحققين لذواتهم كما حددها ماسلو في كتاباته :

- ١ - أنهم أكثر كفاءة في ادراكهم للواقع وأكثر ارتياحا في علاقاتهم به .
- ٢ - يتقبلون الذات والآخرين .
- ٣ - انهم يتسمون بالتلقائية .
- ٤ - والتركيز حول مشكلة ما .
- ٥ - والحاجة إلى الخصوصية .
- ٦ - والاستقلال في علاقاتهم بالبيئة والثقافة .
- ٧ - ولديهم القدرة على انتزاع النشوة والالهام والمتعة .
- ٨ - ولديهم خبرات باطنية يحسون خلالها بالحياة بشكل شامل وعميق .
- ٩ - ولديهم اهتمامات اجتماعية .
- ١٠ - ولديهم علاقات شخصية حميمة .
- ١١ - تسود الديمقراطية بنية شخصيتهم فهم يحترمون الآخرين ،

ويمكنهم اقامة علاقات طيبة معهم والتعلم منهم ، بصرف النظر
عن المولد أو الجنس أو العرق أو الطبقة . . الخ .

١٢- يميزون بين الوسائل والغايات .

١٣- لديهم حس بالفكاهة والمرح .

١٤- يتسمون بالابداعية والأصالة .

١٥- ويقاومون عمليات التنميط والقبولية الثقافية لهم .

ورغم ما فى هذه الصفات لدى ماسلو من تداخل أحيانا وتكرار أحيانا
أخرى ، الا أنه يؤكد أهمية توافر هذه الصفات لدى الأفراد الذين يحاولون
تحقيق ذواتهم ، كما يؤكد أيضا أن الإبداع هو أمر شديد البروز لدى
هؤلاء الأفراد أكثر من غيرهم (١٣٩) ويؤكد فى سياق آخر ان مفهوم
الإبداع يكاد يطابق مفاهيم الصحة النفسية وتحقيق الذات والامتلاء
بالإنسانية ، يؤكد ماسلو كذلك أهمية حالات الانغماس فى الحاضر ،
النشاط الموجود الآن وهنا فقط ، أما الماضى والمستقبل فيتم فهمهما فقط
فى ضوء حضورهما وسطوعهما فى الحاضر فقط وارتباطهما به وليس فى
غيابهما أو ابتعادهما عنه ، ويشير ماسلو كذلك الى أهمية عمليات تضيق
مجال الوعي وتوسيعه وفقدان الأنا الواعى لحدوده ، واختفاء المخاوف وكف
عمليات التحكم الواعية ، وتقليل ضوابط المشبطات والميكانيزمات الدفاعية
أثناء فعل الإبداع هذه المفاهيم وثيقة الصلة فى جوهرها بالمفاهيم التحليلية
النفسية خاصة فى تفسيرات فرويد ويونج وكوبى وكريس للإبداع (١٤٠) .
فى كتابه الأخير : *The Further Reaches of human nature*
عام ١٩٧١ وصف ماسلو ثمانى طرائق يستطيع من خلالها الأفراد تحقيق
ذواتهم ، انها ثمانية سلوكيات تؤدى الى تحقيق الذات ، وليست القائمة
المتضمنة لهذه السلوكيات جامعة مانعة ، لكنها تتضمن الأفكار الأساسية
التي تراكمت لدى ماسلو حول تحقيق الذات ، هذه السلوكيات هى :

١ - التركيز : Concentration

فتحقيق الذات يعنى الخبرة الكلية الحية الذاتية التى تقوم على أساس
التركيز الكامل والاستغراق الكلى فى العمل ، خلال ذلك يكون هناك فقدان
نسبى للوعى بما يداخلنا وبما حولنا ، لكن تكون هناك أيضا لحظات من
الوعى المرتفع والاهتمام الكبير ، لحظات يمكن أن يسميها ماسلو لحظات
تحقيق الذات .

٢ - اختيارات النمو : Growth Choices

إذا فكرنا في الحياة على انها عملية تتضمن اختيارات ، فإن تحقيق الذات يعنى اتخاذ القرارات الخاصة باختيارات مناسبة لنمو الذات ، ان علينا أن نختار بين الأمن والمخاطرة ، بين النمو والركود ، بين التقدم والتأخر ، وكل اختيار له جوانبه الايجابية والسلبية ، فاختيار الأمن يعنى اختيار البقاء بجوار ما هو معروف ومألوف ، حينئذ تصبح المخاطرة أمرا لا قيمة له . ان اختيار النمو يعنى أن يفتح المرء آفاق ذاته أمام الخبرات الجديدة والمتحدية ، وأن يخاطر بمعرفة الجديد والمجهول .

٣ - الوعي الذاتى : Self-awareness

يصبح المحقق لذاته أكثر وعيا بطبيعته الداخلية الخاصة ويسلك وفقا لهذا الوعي ، هذا يعنى أن تقور لنفسك ما تريده من أفلام وكتب وأفكار وأساليب حياة بصرف النظر عن آراء الآخرين .

٤ - الأمانة : Honesty

نعتبر الأمانة وتحمل المرء المسئولية عن أفعاله عنصرا جوهريا في تحقيق الذات ، فبدلا من فرض واعطاء أجوبة تسر الآخرين وتجعلنا نبدو أفضل أمامهم فإن ماسلو يقول بأهمية أن ننظر داخل أنفسنا قبل أن نجيب ففي كل مرة نفعل فيها ذلك نقرب أكثر من ذواتنا الداخلية .

٥ - الحكم أو التقييم : Judgement

تساعدنا الخطوات الأربع السابقة في تطوير القدرة على تكوين اختيارات حياة أفضل « فنحن نتعلم أن نشق في أحكامنا وقرائننا وأن نسلك في ضوءها ، ويعتقد ماسلو أن هذا يؤدي الى اختيار أفضل حول ما هو صحيح أو صائب في ذاته بالنسبة لكل فرد في مجالات الفن والموسيقى والطعام وكذلك اختيارات الحياة الكبيرة كاختيار الزوج أو الزوجة أو المهنة .

٦ - ارتقاء الذات : Self-Development

تحقيق الذات هو عملية مستمرة خاصة بتطوير المرء الدائم لامكانياته ، انه يعنى استخدام المرء لقدراته وذكاؤه وأن يحاول أن يفعل

جيدا الأشياء التي يرغب في القيام بها « والموهبة الكبيرة أو الذكاء المرتفع. ليسا هما تحقيق الذات ، فالعديد من الموهوبين فشلوا في الاستفادة من قدراتهم بشكل كامل ، بينما نجح آخرون ، ربما بمواهب متوسطة ، في انجاز أعمال عظيمة .

ان تحقيق الذات هي عملية لانهاية لها ، انها تشير الى نشاط الحياة المستمرة والعمل الدائم والارتباط بالعالم بشكل دائم وليست مرتبطة بعمل هام واحد في حد ذاته .

٧ - خبرات الذروة : Peak experiences

خبرات الذروة هي لحظات عابرة من تحقيق الذات ، انها اللحظات التي نشعر فيها أننا أكثر كلية وأكثر تكاملا ، وأكثر وعيا بذواتنا وبالعالم المحيط بنا ، في تلك الأوقات التي نفكر وننشط ونشعر فيها بشكل أكثر وضوحا وأكثر دقة من غيرها من اللحظات انها اللحظات التي نكون فيها أكثر حبا وتقبلا للآخرين ، أكثر تحررا من الصراعات الداخلية والقلق وأكثر قدرة على وضع طاقاتنا في أشكال ايجابية وبناءة .

٨ - انخفاض دفاعات الأنف : Lack of Ego defences

الخطوة التالية في تحقيق الذات هي تعرف المرء على ميكانزماته الدفاعية وجوانب قصوره وقدراته على اسقاط هذه الدفاعات في الوقت المناسب ، الخطوة الأولى هنا هي معرفة الطرائق التي نقوم من خلالها بتشويه أو تحريف صورنا الخاصة عن ذواتنا وعن العالم الخارجى ، من خلال ميكانزمات دفاعية كالكبت والاسقاط وغيرهما من الوسائل الدفاعية .

كتب ماسلو كذلك عن أن المحققين لذواتهم يكونون أكثر وعيا وشعورا بقداسة الأشياء ، بذلك الجانب المتعالى من الحياة وذلك في قلب اهتمامهم بنشاطات الحياة اليومية ، انهم يميلون الى تقييم خبراتهم الباطنية العميقة أو خبرات الذروة لديهم باعتبارها أكثر جوانب حياتهم أهمية ، انهم يميلون الى التفكير بشكل أكثر كلية وتكون لديهم القدرة على الارتفاع والتعالى بالفئات المتصورة الخاصة بالماضى والحاضر والمستقبل ، والخير والشر ، وأن يدركوا الوحدة والبساطة خلف الكثرة والتعقيد والتناقض الظاهر ، انهم يكونون أكثر ميلا لأن يكونوا من المفكرين المغامرين والأصلاء من كونهم يميلون الى أن يكونوا مجرد منظمين لأفكار الآخرين وترتقى معلوماتهم ومعرفتهم ، كذلك يرتقى احساسهم بالتواضع وعدم

اعتبار أنفسهم مجرد « حاملين » للمواهب والقدرات ، ومن ثم يكونون أقل اعتباراً أنفسهم مجرد « حاملين » للمواهب والقدرات ، ومن ثم يكونوا أقل اهتماماً بالذات خلال عملهم ، أنه تكون لديهم الأمانة التي تجعلهم يقولون « أنا أفضل شخص للقيام بهذا العمل » أو أنت أفضل شخص للقيام بهذه المهمة » .

هذه الخبرة الباطنية الصوفية المتعالية ليست كافية لتحقيق الذات ، فقد توجد هذه الخبرة لدى أفراد لا يتسمون بالصحة النفسية أو الانتاجية الابداعية وهما الجانبان اللذان اعتبرهما ماسلو شرطين أساسيين لتحقيق الذات ، وقد أشار ماسلو كذلك الى أنه قد وجد مثل هذه الخبرات المتعالية لدى عديد من رجال الأعمال والمديرين والمعلمين ورجال السياسة كما وجدها أيضا لدى الشعراء والموسيقيين انه شرط جوهري يمكن أن يساهم في تحقيق الذات ، لكنه في حد ذاته ليس شرطا كافيا حتى تتم هذه العملية (١٤١) .

٤ - الابداع وتحقيق الذات : Creation and self actualization

في كتابه « الدافعية والشخصية » Motivation and Personality الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٠ ثم أعاد تلامذة ماسلو نشره عام ١٩٨٧ مع اضافة فصول أخرى اليه تحدثوا فيها عن أهمية هذا العالم وتأثيره على مجالات علمية عديدة ، في هذا الكتاب تحدث ماسلو وفي الفصل الثالث عشر منه عن الابداع لدى الأشخاص المحققين لذوانهم وتحدث فيه عن تغييره لبعض أفكاره المبكرة حول الابداع باعتباره يتضمن فقط الجوانب الايجابية والصحية والناضجة والمتطورة والمحققة للذات فقط ، لقد تطورت هذه الأفكار فأدخل ماسلو ضمن اطاره العام حول الابداع وتحقيق الذات أفكارا أخرى نعرض لها فيما يلي ببعض الاختصار .

يقول ماسلو انه كان على أن أتخلى عن الفكرة النمطية القائلة ان الصحة والعبقرية والموهبة والانتاجية هي أشياء مترادفة أو مرتبطة بالضرورة ، فالعديد من الأفراد الذين درستهم رغم كونهم أصحاب مبدعين بمعنى ما ، لم يكونوا منتجين بالمعنى المألوف للكلمة ، كما لم يكن لديهم قدر كبير من الموهبة أو العبقرية ، كما لم يكونوا من الشعراء أو المؤلفين الموسيقيين أو المخترعين أو الفنانين التشكيليين أو من ذوي المواهب العقلية الابداعية ، كما كان واضحا أن بعض أعظم الموهوبين في تاريخ الإنسان لم يكنوا يتسمون بالصحة النفسية ، كما في حالة فاختر وفان حوش وديجا وبرون مثلا ، فبعض المبدعين يكون متميزا بالصحة النفسية والبعض

الآخر ليس كذلك وقد توصلت مبكرا الى استنتاج أن الموهبة الكبيرة لم تكن فقط مستقلة تقريبا عن الصحة النفسية للشخصية ولكن أيضا أن ما نعرفه عن الموهبة حتى الآن هو قدر قليل ، فمثلا هناك شواهد على أن المواهب العظيمة في مجال الموسيقى والرياضيات يكون الجانب الموروث فيها أكبر من الجانب المكتسب ، وقد ظهر لي أن الموهبة الخاصة والصحة النفسية (أو حتى الجسمية) هما متغيران مستقلان ، قد تكون العلاقة بينهما طفيفة وقد لا تكون ، لقد اكتشفت أنني مثل عديد من الناس كنت أفكر في الإبداع في ضوء النواتج الإبداعية الكبيرة ومن ثم قمت بحصر الإبداع في مجال ضيق من مجالات السلوك الانساني الكبيرة ، وقد افترضت خلال ذلك وبشكل لا شعوري أن أي رسام لابد أن يحياة حياة إبداعية وكذلك الأمر بالنسبة لأي شاعر وأي مؤلف موسيقي ، لقد افترضت أن المنظرين والفنانين والعلماء والمخترعين هم فقط من يمكنهم أن يكونوا مبدعين ، وغيرهم لا يستطيع ذلك » (١٤٢) .

يعترف ماسلو بعد ذلك بأنه كان مخطئا في تصوره هذا فقد وجد أن أي انسان في أي مجال من مجالات الخبرة الانسانية يمكن أن يكون مبدعا ، فقد وجد مثلا خلال دراساته امرأة ، ربة منزل وأما ، لم تكن تقوم بأي نشاط من النشاطات الإبداعية الشائعة ، ومع ذلك فقد كانت طبخة وأما وزوجة وربة منزل شديدة المهارة ، فقد كانت قادرة من خلال نقود قليلة على أن تجعل منزلها يبدو شديد الجمال وكانت في نفس الوقت مضيفة كريمة ، لقد كانت تتمتع بحاسة فائقة في اختيار الملابس والفضة والأواني الزجاجية والفخارية والأثاث المنزلي وقد كانت تتسم في كل سلوكياتها هذه كما يقول ماسلو بالاصالة والفطنة والتجديد والقيام باختيارات وسلوكيات غير متوقعة بدرجة كبيرة من ثم لم يتردد ماسلو في أن يسميها « ربة منزل مبدعة » ، لقد تعلم منها أن « حساء من الدرجة الأولى » يمكن أن يكون أكثر إبداعية من لوحة من الدرجة الثانية ، وأن فن الطهي والأمومة الراقية يمكن أن يكونا أكثر إبداعية من قصيدة لا تتسم بالإبداع .

أكد ماسلو أن مجال الخدمة الاجتماعية وتضميد جراح الآخرين النفسية من خلال الأفراد والمؤسسات يمكن أن يكون مجالا للإبداع كذلك أيضا فإن الطبيب النفسى الذى يتمتع بالخدمة والفطنة والمهارة والذى يساعد الآخرين على العلاج وعلى اكتشاف الجوانب الإيجابية بداخلهم يمكن أن يكون مبدعا .

نتيجة لما سبق قام ماسلو بتوسيع حدود كلمة الابداع كى تشتمل على جوانب أخرى غير الشعر والرواية والقصة القصيرة والموسيقى والفن التشكيلى والنظريات العلمية ، ومن ثم قام بالتمييز بين ابداعية الموهبة الخاصة Special talent Creativiness وبين ابداعية تحقيق الذات - actualizing Creativiness ويرتبط النوع الاول بالابداع الفنى والعلمى والأدبى بينما يرتبط النوع الثانى بمجالات الحياة المختلفة ، فالنوع الثانى لا يظهر فقط فى النواتج الابداعية العظيمة والواضحة لكنه يظهر أيضا خلال وسائل وطرائق عديدة يستخدمها الانسان ، خلال أنواع معينة من الفكاهة ، خلال الميل لأداء كل شئ بطريقة غير مألوفة وجديدة ، وفى الرغبة فى التدريس أو التعليم بشكل جديد غير تقليدى ويمكننا أن نفكر بطبيعة الحال أن النوع الاول (ابداعية الموهبة الخاصة) لا يستبعد مطلقا النوع الثانى (ابداعية تحقيق الذات) فالابداع الفنى والعلمى الذى يستند على مواهب خاصة يطمح أيضا الى تحقيق الذات لكن تحقيق الذات كنزعة انسانية لا تقتصر فقط على الآداب والفنون والعلوم بل على كل نشاطات الانسان ، هذا يعنى أن نزعة تحقيق الذات أكثر شمولاً واتساعاً من الابداع الفنى والأدبى والعلمى ، فهى ليست مرادفة له الا بقدر ما يكون مفهوم الابداع شاملاً لكل نشاطات الانسان المتميزة المختلفة فنية كانت أو علمية أو لم تكن ، بعد هذا التحديد يتحدث ماسلو عن بعض العمليات والأبعاد الخاصة فى ابداعية تحقيق الذات (التى تشتمل بدورها على الابداع الفنى والأدبى والعلمى لكنها لا تقتصر عليه كما قلنا) ، وهذه الأبعاد هى :

١ - الإدراك : Perception

يبدو من الواضح بشكل متكرر تماماً أن الجانب الجوهري فى ابداعية تحقيق الذات هو ذلك النوع من الإدراك الذى يعبر عنه بشكل مبسط تلك الحكاية الخرافية عن الطفل الذى رأى أن الملك لا يرتدى ملابس ، ان هؤلاء الأفراد المبدعين يمكنهم رؤية الجديد الخام العيانى الملموس ، غير الرمزي ، وكذلك رؤية العام ، الشامل ، المجرد ، المشتمل فى فئات والمصنف ، ونتيجة لذلك فهم يعيشون أكثر فى العالم الواقعي الطبيعى أكثر من اهتمامهم بالعالم اللفظي الخاص بالتصورات والتجريدات والتوقعات والمعتقدات والقوالب النمطية من التفكير ، هذه الحالة التى عبر عنها روجرز جيداً من خلال مصطلح « الانفتاح على الخبرة » (١٤٣) والذى يعنى « نقص التصليب ، والقدرة على النفاذ وتجاوز حدود المفاهيم والمعتقدات والإدراكات والفروض ، انها تعنى تحمل الغموض حيثما وجد ،

كما تعنى القدرة على استقبال المعلومات الكثيرة والمتصارعة دون اللجوء الى اغلاق الموقف أو الحيل الدفاعية « (١٤٤) » .

٢ - التعبير : Expression

كان معظم الأفراد الذين قام ماسلو بدراساتهم يتسمون بالتلقائية والتعبيرية لقد كانوا قادرين على أن يكونوا أكثر « طبيعية » وأقل تحكما وقمعا لسلوكهم ، لقد كان سلوكهم بمثابة فيضان يتدفق بسهولة وحرية دون غلق أو انسداد أو نقد ذاتي ، هذه القدرة على التعبير عن الأفكار والاندفاعات دون تردد أو خوف من سخرية الآخرين تحولت الى أن تكون جانبا جوهريا من ابداعية تحقيق الذات (١٤٥) وقد استخدم روجرز تعبير الشخص كامل التوظيف لقدراته The fully functioning Person كى يعبر عن هذه الحالة .

٣ - البساطة (أو السذاجة) الثانية : Second mainete

من الملاحظات التى وجدها ماسلو لدى الأفراد ذوى ابداعية تحقيق الذات أن ابداعيتهم تكون شبيهة بابداعية الأطفال السعداء والذين يشعرون بالأمن ، لقد كانت هذه الابداعية تتم بتلقائية ، دون مجهود ، براءة ، بسهولة ، بنوع من التحرر من القوالب المتجمدة أو « الاكليشييات » . ويصاحب ذلك براءة ودهشة فى عملية الادراك وتلقائية وتعبيرية فى السلوك بشكل عام ، ان كل الأطفال تقريبا عليهم الادراك بحرية كبيرة دون توقع مسبق لما ينبغى أن يوجد هناك أو ما كان دائما موجودا هناك وكل طفل تقريبا يمكنه أن يؤلف قصيدة أو أغنية أو رقصة أو لوحة أو لعبة فى التو واللحظة دون تخطيط أو تعمد مسبق لقد كان الأفراد المبدعون الذين درسهم ماسلو يتسمون بالانفتاح على الخبرة وكذلك التلقائية والتعبيرية الواضحة فى سلوكهم ، ورغم أنهم كانوا فى الخمسينات أو الستينات من أعمارهم فقد كانت هذه الجوانب المشتركة بينهم وبين سلوك الأطفال واضحة بدرجة ملفتة للنظر ، هذه هى البدائية أو السذاجة الثانية كما سماها عالم الجمال المعروف « جورج سانتيانا » لكن المبدعين الكبار كانوا على كل حال ، كما يقول ماسلو ، يتسمون اضافة الى التلقائية والتعبيرية بدرجة عالية من الدقة وجودة الفحص والتمحيص أيضا .

٤ - الألفة مع المجهول Affinity for the unknown

كان الأفراد الذين درسهم ماسلو ، اضافة الى ما سبق ، يتسمون بخاتم الخوف من الأشياء المجهولة ، الغامضة ، المميزة ، بل كانوا ينجذبون

بطريقة ايجابية ، أى كانوا يختارونها ويفكرون فيها ويستغرقون فى تأملها ، ان غير المنظم بدرجة مقلقة ، والفوضى ، وغير المتقن والغامض والمثير للشك وغير المؤكد وغير المحدد والتقريبى وغير المكتمل أو غير الدقيق قد يكون فى لحظات معينة من العلم والفن والحياة بشكل عام أكثر جاذبية تماما ، انه قد يمثل بقعة مرتفعة فى الحياة ، تستثير حس التحدى والمجابهة أكثر من المعروف والمألوف والمنظم والواضح .

٥ - حل الثنائيات المتعارضة Resolution of Dichotomies

لقد نظر عديد من علماء النفس الى عديد من الخصائص والأقطاب المتعارضة على أنها امتدادات أو متصلات مستمرة بدرجة مباشرة كما لو كان الأمر مسلما به دون مشكلة ، أما ماسلو فقد لفت نظره مثلا أن محاولة تحديد مدى كون الشخص المحقق لذاته متسما بالإنانية أم لا ، سيكون صعبا فى ظل التفكير بالمنطق الأرسطى الذى يفكر الأشياء باعتبارها إما «أن تكون» كذا «أو تكون» كذا «وفد تخلى ماسلو عن مثل هذا النوع من التفكير حيث وجد أن بعض الأفراد الذين قام بدراساتهم كانوا يتسمون بالإنانية فى بعض المواقف ولا يتسمون بها فى مواقف أخرى ، وكانت هذه المشاعر المتعارضة موجودة معا بشكل محسوس ويمكن قبوله ويمثل وحدة دينامية أو مركبا شبيها بما وصفه ايريك فروم فى دراسته الكلاسيكية عن حب الذات ، أى الأنانية الصحية ، لقد أدرك ماسلو أن حب الذات ضرورى من أجل حب الآخر وأن غير القادر على حب ذاته قد لا يكون قادرا على حب الآخرين ، وأن الأنانية والغيرية ليسا بالضرورة أمرين متعارضين وأن النظر اليهما باعتبارهما لا يمكن أن يوجدوا معا يكون موجودا فقط عند المستويات المنخفضة من النضج والارتقاء النفسى . وقد وجد ماسلو أيضا خلال دراساته العديدة من النماذج والأدلة على هذه الثنائيات التى يظن أنها متعارضة لكن الفرد المحقق لذاته يقوم بتسجيلها فى شكل وحدات متكاملة ، من هذه الثنائيات أيضا ، فالمعرفة فى مقابل العاطفة (القلب فى مقابل العقل ، الرغبة فى مقابل الحقيقة) قد أصبحت معرفة ذات بنية عاطفية مثلما تصبح الغريزة والعقل فى وحدة أيضا دون تناقض ، ان الواجب يتحول هنا الى متعة مثلما تتحول المتعة الى واجب وتمتزج به ، ان التمييز بين العمل واللعب يصبح هنا باهت الظلال ، ان الأمر شبيه بما يحدث أيضا حين يتم المزج بين الاتجاه الطفولى وبين وعى الرشد ، ويصبح ايشار الآخرين مفضلا وسارا قد تشبا بالإنانية ، ان هؤلاء الأفراد الذين يوصفون بأنهم من أصحاب « الذوات » القوية قد يكونون فى نفس الوقت غير ذائبين ، متعاليين على ذواتهم ، مفارقين لهم ، لكنهم قائمون بالتركيز الأكبر على المشكلة موضع الاهتمام .

ان هذا هو ما يفعله تماما الفنان العظيم ، انه يكون قادرا على وضع الألوان المتعارضة معاكى يخلق احساسا كليا بالشكل ، تتحاور الاشكال الفرعية مع بعضها وتتعارض لكنها تخلق فى النهاية وحدة كلية هذا أيضا ما يفعله المنظر العظيم الذى يضع الحقائق المتعارضة غير المتسقة معا بحيث يستطيع أن يرى انها يمكن أن تنتمى واقعا لبعضها البعض ، كذلك يفعل السياسى العظيم والمعالج العظيم والفيلسوف العظيم والأب العظيم والعاشق العظيم والمخترع العظيم انهم جميعا مؤلفون ومركبون وقائمون بتحقيق التكامل ، قادرون على وضع الأشياء المنفصلة وحتى المتناقضة معا ثم هم أيضا قادرون على تحقيق التكامل بينها وتكون هذه الابداعية بنائية ، تأليفية موحدة وتكاملية بقدر اعتمادها فى جانب كبير منها على التكامل الداخلى للشخص القائم بالابداع (١٤٦) اضافة الى الشروط والأبعاد السابقة يضيف ماسلو حالات أخرى تكون هامة ومميزة لابداعية تحقيق الذات من هذه الحالات مثلا : التحرر من الخوف وخبرات الذروة والسعى نحو الكفاءة والسيطرة وغيرها من الشروط الضرورية والحالات الملازمة للابداع ثم انه يتحدث بعد ذلك عن مستويات الابداع وهو الجزء الذى نخزن به حديتنا عن نظريته .

.. مستويات الابداع :

يقول ماسلو ان النظرية الفرويدية التقليدية قليلة الفائدة فى هذا السياق ، بل أن البيانات التى قام بجمعها تتعارض مع هذه النظرية ، لقد كان ما قدمه فرويد قائما فى جوهره على علم نفس الهو (id) ، وباعتبار « الهو » مستودع الطاقة الخاص بالغرائز والرغبات الجنسية والتدميرية ومن ثم كانت نظرية فرويد بمثابة الجدل أو الصراع ما بين محاولات اشباع الغرائز وعمليات قمعها وكبتها بفعل العمليات الدفاعية أو المثبطات الأخلاقية والاجتماعية التى كان يفرضها الأنا الأعلى على الهو ، ان العمليات الأكثر أهمية وجسما من الاندفاعات المكبوتة ، ومن أجل فهم مصادر الابداع (وكذلك اللعب والحب ، والجناس الانفعالى ، والفكاهة والخيال ، وأحلام اليقظة) هى ما يسمى بالعمليات الأولية التى هى عمليات وجدائية أو غريزية ، عندما نتحول بانتباهنا الى هذا الجانب من علم نفس الأعماق الانسانية يمكننا أن نلمح اتفاقا كبيرا بين المحللين النفسيين (خاصة كريس وميلنر وايرنزفايچ) وكذلك بينهم وبين علم النفس الجمعى لدى يونج وأيضا علم نفس الذات والنمو فى الولايات المتحدة الأمريكية ، خلال التوافق العادى لانسان الشارع المتوسط الامكانيات ويكون التكيف الجيد

متضمننا رفضا مستمرا ناجحا لكثير مما تتضمنه أعمال الطبيعة الانسانية ،
 فى جوانبها المعرفية والوجدانية ، فالتكيف الجيد فى ضوء ذلك التصور
 التقليدى يعنى انشطار الانسان ما بين جانب خارجى متظاهر به ، بمثابة
 القناع الاملس الذى يخفى العديد من الاندفاعات والافكار ، لكنه القناع
 الذى يرضى عنه المجتمع ، ثم جانب داخلى حقيقى وطبيعى وتلقائى لكنه
 يتم قمعه من أجل الآخرين ، ان الكشف عن ذلك الجانب الداخلى يكون
 متسما بخطورة بالغة فى رأى هذا الانسان ، لكنه نتيجة لذلك الخوف
 يفقد كثيرا من امكاناته كإنسان ، انه يفقد مصادر مسراته ، وقدرته على
 اللعب والحب والضحك – وهو الأكثر أهمية – القدرة على الابداع .

فمن خلال حماية الفرد لنفسه بهذه الطريقة من الجحيم الذى يدور
 بداخله فانه يقطع صلته بالفردوس الموجود بداخله أيضا ، وعند الأمثلة
 المتطرفة من هذا النوع البشرى العادى نجد الشخص الموسوس ، السطحي
 والدين ، المتصلب ، المتجمد ، المنحكم فيه ، الحذر الذى لا يستطيع الضحك
 أو اللعب أو الحب ، انه الشخص الذى لا يستطيع أن يكون واثقا من نفسه .
 أو ذا طابع طفولى ، ان خياله وحلمه ورقته وانفعاليته تميل الى أن تكون
 مخنوقة أو مشوهة (١٤٧) .

(أ) المستوى الأولى : Primary Level

يعتبر العلاج التحليل النفسى فى نظر ماسلو علاجاً تكاملياً تماماً ،
 فالجهد المبذول خلال العلاج يكون من أجل راب صدع الشخصية من
 خلال الاستبصار بحيث يصبح ما كان مكبوتاً فى اللا شعور موجوداً عند
 مستوى الشعور أو قبل الشعور ، ويمكننا هنا ثانية أن نقوم بتعديلات
 مناسبة نتيجة دراستنا للمصادر العميقة للابداعية ، فعلاقتنا بالعمليات
 الأولية ليست هى – من جميع الجوانب نفس علاقتنا بالرغبات غير المقبولة .
 ان الفارق الأكثر أهمية هو أن عملياتنا الأولية ليست فى مثل خطوة
 الدوافع المحرمة ، والى حد كبير لا يحدث كبت أو مراقبة لهذه العمليات
 ولكن ما يحدث هو نسيانها ، انها تقمع ولا تكبت من أجل التكيف مع
 متطلبات الواقع الجاف الذى يتطلب الكفاح العمل والغرضى ولا يتطلب
 التهويم أو الشعر أو اللعب ، وفى المجتمعات الغنية نتوقع أن تكون هناك
 مقاومة أقل لعمليات التفكير الأولية ، وتستطيع أن تلعب عملية التعليم –
 التى تقوم بدور ضئيل فى اطلاق الامكانيات الغريزية المكبوتة (الخاصة
 بالعمليات الأولى المتعلقة باللعب والضحك والفن والتهويم) تستطيع هذه

العملية التعليمية أن تقوم بدور كبير في تقبل وتكامل العمليات الأولية داخل نسق الحياة الشعورية أو قبل الشعورية وتستطيع التربية عن طريق الفن والشعر والرقص أن تقيم أساسا في هذا الاتجاه ، ان هذا النوع من الابداعية يظهر بشكل خاص خلال عمليات الارتجال ، كما في موسيقى الجاز وفي التمثيل ، وفي رسوم الأطفال أكثر من ظهوره في الأعمال الفنية التي ينظر اليها باعتبارها أعمالا « عظيمة » (١٤٨) .

٢ - المستوى الثانوى Secondary Level

ان العمل الابداعى العظيم يحتاج الى موهبة عظيمة وقد اعتبر ماسلو مثل هذه الأعمال - بعد ذلك - بعيدة (بعض الشيء) عن مجال اهتمامه ثم أن العمل العظيم يحتاج أيضا ليس فقط الى الومضة والالهام وحبرات الذروة لكنها تحتاج أيضا الى العمل الشاق والتدريب المستمر والنقد القاسى وأيضا الى معايير خاصة للكمال أو الاكتمال ، بمعنى آخر أنه قبل التلقائية يجيء التروى وقبل التقبل يأتى النقد ، قبل الحدس لابد من تفكير عميق ، وقبل الجرأة يأتى الحذر وقبل التهويم والخيال تأتى عمليات اختبار الواقع . بعد ذلك تأتى الأدوار الهامة لعمليات المقارنة واصدار الأحكام والتقييم والحسابات والاختيارات وعمليات القبول والرفض ان الأمر كما لو كان بمثابة خروج للعمليات الثانوية من العمليات الأولية ، أو للتفكير الابولونى من التفكير الديونيسى اذا استخدمنا مصطلحات نيتشه ، خروج للاتجاه الذكرى من الاتجاه الأنثوى ، ويصل النكوص الارادى الى أعماق الذات الى نهايته وتقوم النزعة الاستقبالية المتفتحة الخاصة بالالهام أو خبرات الذروة الآن باخلاء الطريق للنشاط والتحكم والعمل الشاق ، ان خبرة الذروة تحدث لدى شخص ما دون مجهود واضح منه ، لكن المنتج العظيم يكون ما يصطنعه هذا الشخص وليس شيئا خارجه .

٣ - الابداع المتكامل :

أطلق ماسلو اسسم « الابداع الأولى » على الابداع الذى يستفيد من العمليات الأولية ويستخدمها أكثر من غيرها خلال العمل ، وأطلق اسسم الابداع الثانوى على الابداع الذى يعتمد الى حد كبير على عمليات التفكير القانونية ، النوع الأول يعتمد على ما فى داخل الانسان من أحلام وتهويمات وعمليات خيال وميول للعب والحب والفكاهة . . الخ . والنسوع الثانى يعتمد على العقل الواعى بما يتسم به من تحكم ودقة ونشاط غرضى واضح ، ويشتمل هذا النوع الثانى على نسبة كبيرة من النواتج أو المنتجات التى

تحدث على أرض الواقع أو العالم مثل الكبارى والمنازل والسيارات والعديد من النجارب العلمية والكثير من الأعمال الأدبية التى تنتم أساسا من خلال استغلال وامتصاص أفكار الآخرين . الفارق بين هذين النوعين من الابداع كالفارق بين الفدائى وبين رجل البوليس الحربى الذى يقف بعيدا عن الخطوط الأمامية ، أو كالفارق بين الرائد أو المستكشف وبين الذى يجرى بعدهما ويستقر ويسكن ويطلق ماسلو على الابداع الذى يستفيد من هذين النمطين من الابداع بتتابع ناجح جيد بينهما بحيث تكون عمليات الابداع الآلية سابقة على العمليات الابداعية الثانوية اسم الابداع المتكامل ، وقد جاءت الأعمال الابداعية العظيمة فى الفن والفلسفة والعلم – فى رأيه – من خلال مثل هذا النوع من الابداع (١٤٩) .

الخلاصة :

تعتبر نظرية تحقيق الذات لدى ماسلو مزيجا من نظرية التحليل النفسى ونظرية الجشطالت ، وهى تؤكد خلال دراستها للابداع أهمية الوحدة والكلية والتكامل واتساق الذات ، وهى تركز أساسا على الشخصية المبدعة أكثر من تركيزها على الانجازات التى تقدمها هذه الشخصية ، ومن ثم فهى تعتبر هذه الانجازات أو المنتجات بمثابة الظواهر الثانوية المصاحبة للشخصية ، هذه الشخصية المبدعة تتسم بسمات خاصة منها : الجرأة ، الشجاعة ، الحرية ، التلقائية ، التكامل ، تقبل الذات ، وحدة الذهن وهى الصفات التى تجعل الابداعية العامة كسمة تظهر وتعبّر عن نفسها على هيئة حياة ابداعية أو اتجاه ابداعى أو شخصى مبدع ، « ان دافعية تحقيق الذات تنبعث مثل النشاط الاشعاعى ، تؤثر على كل جوانب الحياة بصرف النظر عن المشكلات ، مثلما تنبعث البهجة من شخص مبتهج الى الآخرين دون هدف أو تعميم أو وعى » . ان الابداع ينبعث كشروق الشمس التى تنتشر عبر المكان كله وتجعل الأشياء تنمو ، لكنها تتبدد عند الصخور وعند غيرها من الأشياء غير القابلة للنمو » (١٥٠) .

هذه على كل حال أفكار ونظرية ماسلو حول الابداع ، طرحها أحيانا بطريقة غامضة وأحيانا أخرى بطريقة مجازية شاعرية ، وتعانى هذه النظريات من عيوب منهجية كثيرة منها العينات الصغيرة التى قام بدراستها والتعميم منها وكذلك افتقاد هذه النظرية للتجارب التى يمكن أن تثبت أو تحقق أفكار هذا العالم ، لقد كانت بحوثه بشكل عام هى محاولة للتوضيح وإضافة التفاصيل لأفكار النظرية الأساسية (١٥١) ورغم أن

ماسلو كان يميل متلا الى الحديث عن الجوانب الايجابية فقط في الابداع وتحقيق الذات ، ورغم أن حالة مثل خبرات الذروة التي اهتم بدراستها قد تسبقها حالات من الفشل والخوف والاكتئاب وغير ذلك من الجوانب السلبية ، رغم ذلك فقد اهتم ماسلو بشكل خاص بالجوانب الايجابية والبنائية من هذه الحالة على حساب الجوانب السلبية منها ، هذا التحيز في الاختيار رغم ما يتضمنه من عيوب كان متضمنا لميزة خاصة في تفكير ماسلو ونظرياته ، هذه الميزة هي الاهتمام بشكل خاص ومكثف بتلك الأبعاد الايجابية من الحياة الانسانية الخاصة بالحرية والعقلانية والقابلية للتغير والفاعلية الانسانية وامكانية تحقيق التوازن في العلاقات مع الآخرين واحترام الذات الانسانية ، وهي تلك الأبعاد التي تم اهمالها كثيرا - في نظريات الشخصية ، وخاصة في مجال التحليل النفسي - الى حد كبير .

خامسا : الأساليب المعرفية والابداع :

تهتم النظريات المعرفية الحديثة في مجال علم النفس أساسا بالطرائق المختلفة التي يدرك بها الأفراد الأشياء والوقائع ، وكيف يفكرون فيها ، وهذا يتعلق أساسا بما يسمى بالأساليب المعرفية Cognitive Styles والأساليب المعرفية هي الطرائق التي يلجأ اليها الأفراد في تحصيلهم للمعلومات من البيئة (١٥٢) . فالفرد ينظر اليها هنا على أن يقبض بالحكام ، وبطريقة نشطة على بيئة ، فهو ليس مجرد مستقبل سلبي لما تقدمه له هذه البيئة ، ويمتلك الأشخاص المختلفون طرائق مختلفة في التعامل مع العالم الخارجى ، فهم يستقبلون المعلومات بطرائق معينة ويفسرونها بطرائق خاصة ويخزنونها وفقا للمعلومات النشطة التي سبق تخزينها في الماضى والابداع وفقا لذلك لا يمثل أنساقا مختلفة من العلاقات الترابطية ولكنه يمثل طرائق مختلفة في الحصول على المعلومات ومعالجتها والدمج بينها للوصول الى الحلول الابداعية الأكثر كفاءة ، فيهتم هذا المنحى بالمدى الذى يكون عنده الأفراد ذوو الدرجة العالية من الابداع قد تم اعدادهم للقيام بمخاطر عقلية ، ومدى رغبتهم فى استقبال وتخزين كميات كبيرة من المعلومات التي تقدمها البيئة بدلا من تقييد أنفسهم بجزء بسيط ومحدد منها ، كذلك يهتم علماء المنحى المعرفى هنا بقدرة المبدعين على التغيير السريع لوجهاتهم الذهنية هروبا من المتكرر والممل والرتيب ، ومن ثم كانت المرونة العقلية في رأيهم هي القدرة على تحويل الانتباه من الطراز التحليلي الى الطراز الكلي ومن ثم ارتبطت هذه القدرة كثيرا بالابداع (١٥٣) كذلك يشتير علماء هذا الاتجاه الى أن الأفراد

الدين تتضمن أساليبهم المعرفية أقل قدر من الرقابة على المعلومات المتاحة في العالم الخارجي ، يكونون أكثر قابلية لأن يصبحوا من المفكرين المبدعين تتداخل بحوث التشخيصية مع بحوث الأساليب المعرفية مع بحوث التصور العقلية والخيال فمفهوم الأسلوب المعرفي يوحد ما بين المتغيرات المعرفية والمتغيرات الخاصة بسمات الشخصية ، وقد أشار جيلفورد إلى الأسلوب المعرفي باعتباره يشتمل على وظائف عقلية وسمات شخصية وأشار علماء آخرون إليه باعتباره يشير إلى « الشكل التنظيمي لاستراتيجيات حل المشكلات الذي يتبناه فرد ما في مواجهة واقع معين ، أو هو الجانب التكامل من الشخصية الذي يقوم بالربط بين الوظائف العقلية وسمات الشخصية ويقوم بالتأثير على صورة الذات لدى الفرد وعلى وجهة نظره تجاه العالم وعلى أسلوب حياته كذلك ، فالأساليب المعرفية إذن تشير إلى « كيف » نقرب من مشكلة ما بشكل خاص أو من العالم بشكل عام وقام العلماء بالتمييز بين الأساليب المعرفية وبين القدرات فوصفوا الأساليب المعرفية باعتبار الأساليب النمطية أو المفضلة التي يقترب بها أو يقوم من خلالها المرء بعمله أكثر من كونها تشير إلى درجة كفاءة هذا الفرد أو قدرته الفعلية (١٥٤) فأحد الأفراد قد يمتلك ذكاء مرتفعاً (قدرة عقلية) لكنه يقوم بعمله بطريقة تتسم بعدم الدقة أو الإهمال (أسلوب معرفي) . ومن ثم يكون أدائه أو أسلوبه (المعرفي) غير متسق مع قدرته (المعرفية) .

ظهر مفهوم الأسلوب المعرفي إلى حد كبير من خلال « علم نفس الانا » Ego Psychology كما كانت نظرية الجشطالت ذات تأثير هام على هذا المفهوم أيضاً خاصة الدراسات التي تمت على عمليات الإدراك في سياق هذه النظرية ، كان علم نفس الانا بدوره نمواً ناتجاً عن النظرية التحليلية النفسية ، فمعظم مؤيديه من المحللين النفسيين ، ومعظم اهتماماته تتعلق بالجانب المرضي من السلوك أكثر من تعلقها بالجانب السوي ، وتاريخياً فإن الأساليب المعرفية والضوابط المعرفية ، لها نفس الموقع النظري في علم نفس الانا ، كما هو الحال بالنسبة للميكانيزمات الدفاعية ، لكن بينما كانت الميكانيزمات الدفاعية هي الوظائف التي تدافع بها الانا ضد الاندفاعات غير المقبولة وعوامل الاحباط المختلفة ، فإن الأساليب والضوابط المعرفية كانت هي وظائف الانا التي تستخدمها هذه الانا لصالحها في حالاتها الطبيعية ، وقد ساد الاعتقاد في « علم نفس الانا » ان هذه الوظائف تلعب دوراً أكبر في ارتقاء الشخصية بشكل أكثر أهمية مما أعطاه لها فرويد ، وبصفة خاصة فإن الأساليب المعرفية والضوابط المعرفية هي أشكال مميزة لعمليات الإدراك والتفكير ، ويمكن أن تؤثر هذه الأساليب والضوابط كذلك على اختيار الميكانيزمات الدفاعية . ومن ثم على اختيار الأعراض

المرضية ، ويتضح من الاستخدام المكثف المبكر في مجال علم النفس الاكلينيكي لاختبار الرورشاخ أو بقع الحبر اهتمام هؤلاء العلماء بميكانيزمات الانا ، وقد نظر الى هذا الاختبار منذ ظهوره باعتباره اختبارا للعمليات الادراكية وعمليات التداعي ، وفي الأربعينات المتأخرة حدثت زيادة واضحة الاهتمام بدراسة الفرق الفردية في المهام الادراكية ، كما ظهرت اهتمامات بدراسة آثار الدوافع على الادراك ، كما لدى برونر وجودمان عام ١٩٤٧ ، وكانت احدى عمليات القياس المبكرة للأساليب المعرفية ممثلة في دراسة جاردنر H. Gardner عام ١٩٥٣ على اختبار فرز الموضوع object sorting الذى كان يطالب فيه من الشخص فرز مجموعة من الأشياء غير المتجانسة ظاهريا الى مجموعات ، وظهرت الفروق الفردية بين هؤلاء الأفراد في تصنيفاتهم لمواد مختلفة ، كذلك قام بتجرو Pettigrew عام ١٩٥٨ بقياس الاتساع أو الشمول Width التى قام الأفراد من خلالها بتقدير القيمة العليا والقيمة الدنيا للسرعة التى تطير بها الطيور مثلا ، كذلك ميز هولزمان Holzman بين التسوية Leveling والتحديد Sharpening من خلال قيام الأفراد بتقدير الأحجام المطلقة لمربعات تعرض عليهم بشكل متتال مع زيادة في حجم المربعات مع تتابع عمليات العرض وكان الأشخاص ذوو الميول للقيام بتسويات غير حساسين للتغير المتدرج فى أحجام المربعات ومن ثم فقد أعطوا تقديرات أقل تطرفا ومبالغة لأحجام المربعات الأخيرة ، هذه النزعة تم ارجاعها الى عدم الدقة الموجودة فى مسارات الذاكرة لديهم ، وقام بلوك وبيترسون بخطوات أكثر أمبيريقية فى دراسة تأثيرات الشخصية على الادراك ، فقاما باعطاء الأفراد بعض الواجبات التى تتطلب القيام بعمليات تمييز بين أطوال بعض الخطوط ، وقاما بقياس الزمن المستغرق لاصدار القرارات وكذلك الثقة خلال عمليات التمييز المتسمة بالسهولة والمتسمة بالصعوبة ، وتم تقسيم الأفراد الى مجموعتين : الأكثر ثقة والأقل ثقة فى تمييزاتهم مع اضافة فئة ثالثة خاصة هؤلاء الذين كانت ثقتهم تختلف باختلاف صعوبات التمييز وتم تقدير هؤلاء الأفراد جميعهم على مقياس للشخصية يقوم على أساس تصورات علم نفس الانا ، وقد تم وصف ذوى الثقة المرتفعة فى أحكامهم بأنهم متصلبون ، غير مرنين فى التفكير والسلوك .

ويشير مفهوم التمايز الادراكى لدى « ويتكن » كذلك الى تعقد بنية النظام النفسى ، ومن خصائص التمايز الكبير تخصص الوظيفة وكذلك الفصل الواضح بين الذات وما يقع خارجها ولا ينتمى اليها (الموضوع) (١٥٥) .

ترتبط الجوانب السابقة بالعملية المعرفية الخاصة بالحكم على دقة مناسبة أفكار المرء ، أى نقيمه لها ، ويختلف المبدعون فى درجات تقييمهم لأفكارهم ، أى درجات الاهتمام والتفكير التى يظهرونها عندما يقومون بأعمال معرفية ، فبعض المبدعين يقبلون ويقررون الفكرة الأولى التى ترد على أذهانهم ثم ينفذونها بعد برهة وجيزة من شعورهم بمناسبتها ، ويسمى هؤلاء المبدعون بالمندفعين Impulsives لكننا نجد بعض المبدعين الآخرين ، من نفس المستوى العقلى ، يكرسون وقتا أطول لتقييم وتقدير مدى دقة أفكارهم بحيث يمكنهم رفض الأفكار والاستنتاجات غير الصحيحة ، ويقومون بارجاء اجاباتهم حتى يكونوا على درجة مرتفعة من الثقة فى صحة حلولهم ، ويسمى هؤلاء المبدعون بالتأملين Reflectives ، هذا التمييز بين مبدع مندفع ومبدع متأمل هو تمييز بين أسلوبين معرفيين مختلفين ، ويقوم هذا الاختلاف بالتأثير على أداء الأفراد فى المواقف الخاصة بحل المشكلات والتى تتضمن :

(أ) اعتقاد المبدع بأن جانبا من تمكنه العقلى يتم تقييمه (ب) تمسك المبدع بمعيار معين لكفاءة الاداء (ج) يفهم الطفل المشكلة ويعتقد أنه يعرف حلها (د) تكون هناك بدائل استجابة عديدة متاحة بدرجات متساوية أمام المبدع (هـ) تكون الاجابة الصحيحة واضحة بشكل مباشر ، ومن ثم يكون على المبدع أن يقوم بتقييم الصديق المميز لكل الفروض الممكنة للحل (١٥٦) .

فى ظل هذه الظروف يأخذ المبدعون الذين يهتمون بتقليل الأخطاء الى أدنى حد وقتا طويلا من أجل فحص البدائل الممكنة ، أما الأقل اهتماما بالأخطاء فيكرسون وقتا أقل لتقييم أفكارهم الأولى . هذه الفروق فى التناول المعرفى للمعلومات والموضوعات بل وحتى فى التعامل الانفعالى مع موضوعات العالم المختلفة تظهر أيضا بشكل واضح فى تلك الفروق التى نجدها بين المبدعين سواء فى طريقة عملهم أو فى المجال الابداعى الذى يفضلونه أيضا .

فى دراسة أخرى وجد جونسون عام ١٩٥٧ أن الأفراد ينسقون عبر مهام عديدة فى سرعتهم وثقتهم ، وأن هؤلاء الذين يصدرن أحكامهم بسرعة تكون ثقتهم عالية فى أحكامهم . هذه الدراسات لها أهميتها الخاصة لأنها ترتبط بالأعمال التالية حول التأمل / الاندفاعية ، وتشير دراسة جونسون الى أن الاندفاعية تكون نتيجة للثقة الزائدة أى التحيز فى اتجاه التقييم الإيجابى لنتيجة التفكير التى يتم تنفيذها فيما بعد ، وقد قدم شايرون عام ١٩٦٥ دراسة حول الأساليب العصابية .

فالأعراض العصابية محددة - في رأيه - من خلال أساليب متسقة من التفكير والسلوك ، غالبا ما تكون مرضية في حقيقتها ، مثلها مثل الأعراض التي تنتجها ، هذه الأساليب تتعلق فقط بالانتباه ، ولكن أيضا بدرجة التحكم الإرادي في النشاط ، فالأساليب الخاصة بالبارانويا والوسواس القهري تتميز بالتحكم الذاتي القوي ، مع نقص الخضوع للاندفاعات ، وفي حالات البارانويا الحادة يكون هناك انتباه حاد للتفاصيل ، أما مريض الهستيريا فهو متسع الإدراك ، انه يقوم بتسجيل الانطباعات العامة بدلا من التفاصيل ونتيجة لذلك تظهر لديه ذاكرة ضعيفة خاصة بالتفاصيل .

إضافة الى ما سبق هناك مفهوم « ويتكن » الهام المسمى الاعتماد على المجال Field dependence الذي يقابله مفهومه الاستقلال عن المجال (*) Field independence

الفرد المبدع :

موضوع التوازن هام أيضا في وصف الفرد المبدع ، هذا يكون له معناه اذا كان المبدع شخصا قادرا على تحقيق التوازن بين نشاط نصفى المنح وبين نمط التفكير المرتبطين بهذين النصفين ، وفيما يتعلق بخصائص الشخصية الابداعية فقد أظهرت الدراسات أن المبدع يتسم بالاستقلالية والانطوائية وعدم الانصياع للمعايير الاجتماعية كما يكون غير تقليدى في تفكيره أكثر من غيره من الأفراد ، ويظهر المبدعون كذلك قدرا أقل من ميكانزمات الدفاع كالكبت والنكوص المرضى ، فنكوص المبدع الى الطفولة هو نكوص واع مقصود بهدف الابداع وليس نكوصا مرضيا سلبيا يتسم المبدعون كذلك بالحساسية وقوة الأنا ، مع احساسات وأفكار حدسية

(*) يقصد بهذا المصطلح مدى اعتماد أو استقلال عمليات الإدراك لدى الفرد على الهاديات Cues أو المساعدات الإدراكية الخاصة في البيئة أو المجال في الاختبار الأول والأبسط الذى استخدم في دراسة هذا العامل ، كان على الفرد (المفحوص) أن يحرك أو ينظم منها معينة (كالعصا) أو القضيب المعدنى أو الخشبى بحيث يكون رأسيا تماما عندما يكون منه آخر (هو الإطار المحيط بالعصا) متبائنا ومختلفا في علاقته بالاتجاه = الرأسى ، والأشخاص الذين يستطيعون وضع العصا بشكل دقيق نسبيا ومستقل عن اتجاه الإطار ، يسمون بالمستقلين عن المجال وذلك لأنهم يعتمدون على الهاديات الخاصة باحساساتهم الجسمية أكثر من اعتمادهم على الهاديات الخاصة بالمجال ، وكلما زاد تحكم ميل المجال (أو الإطار) في وضع العصا تزايد الاعتماد على المجال لدى بعض الأفراد ، وبدأت هذه الدراسات أولا بفحص عمليات الإدراك لكنها امتدت بعد ذلك الى بحوث الشخصية والأساليب المعرفية والأمراض النفسية (١٥٧)

ودافعية قوية وكذلك رغبة في المخاطرة والمبادأة والحاجة للنظام والتنظيم
أى فرض مبدأ عام على الفوضى أو الكثرة المتناثرة ، يتسم المبدعون أيضا
بالمرونة العقلية مع امكانية خاصة لتحمل الغموض المعرفى رغم فك
مغاليقه ، فهم يتسمون باستقبالية وعطش شديد للمعرفة الداخلية
والخارجية .

ومع ذلك فان موضوع ليس أحادى الجانب وليست حياة المبدعين
وشخصياتهم فيها هذه الجوانب الايجابية المضيئة فقط ، فكما ذكر
ماكينون فانه قد لا حظ هو وزملاؤه بعد الحرب العالمية الثانية أنه قد
أصيب بالدهشه لان الشواهد المتجمعة خلال الحرب تشير الى أن عددا
كبيرا من الافراد ذوى الكفاءة العالية الذين قام علماء النفس والطب النفسى
بدراساتهم كان تاريخ حياتهم حافلا بالاحباطات والحرمانات والخبرات
الصادمة (الصدمية) هذه الخبرات المبكرة المؤلمة قد تؤدي بالفرد الى أن
يجمع المعلومات وي طرح الأسئلة التى نادرا ما يطرحها غير المبدعين ، وقد
يؤدي الصراع المرتبط بهذه الحالات الى فتح طبقات وينابيع داخل النفس
الانسانية أكثر مما يحدث فى الظروف العادية ومن ثم يتزايد انفتاح
واستقبالية المراء المبدع للمنبعثات الداخلية والخارجية، وقد تؤدي هذه الحالة الى
حالة أخرى مصاحبة وهى الدرجة العالية من الانفعالية أو العاطفية (١٥٨) ،
وحيث ان هؤلاء الأفراد أكثر انفتاحا من غيرهم للمعلومات الداخلية
والخارجية فانهم يكونون أكثر عرضه من غيرهم لتلقى معلومات كثيرة ،
متزايدة ومتنافرة فى نفس الوقت ، متنافرة معرفيا ووجدانيا ومن ثم
يكون الابداع محاولة للوصول الى التوازن المعرفى والتوازن الوجدانى أيضا
هذا التوازن الخاص قد يطرح من خلال معلومات فى شكل موجز سريع
رمزى عميق الأثر متسع الدلالة كما شعاع الشمس أو تيار داخل النهر
هنا يكون الشكل المفضل هو القصة القصيرة أو قد يكون من خلال معلومات
فى شكل مستفيض مسهب فيه تكرار من أجل التوضيح والتوصيل فيه
بناء لعالم كبير متعدد الطبقات غزير المعلومات كما النهر المتدفق أو الشمس
المتوهجة ، هنا تكون الرواية هى الشكل المفضل .

وتفضيل الكاتب لأن يكتب قصة قصيرة أو رواية أو شعرا أو مسرحية .
البح قد يكون معبرا عن أسلوبه المعرفى المفضل فى الحصول على المعلومات
من العالم وكيفية ادراكه لها ومن ثم قيامه بتحويلها داخليا وإعادة إنتاجها
فى عمل فنى خاص أو قد يكون معبرا عن تراوضه بين أنماط مختلفة من
الأساليب المعرفية ، مثلا تفضيل شتاينبك مثلا للشكل المتعدد الذى
يتجاوز فيه القصة القصيرة مع الرواية أى التى توضع فيه عندة قصص

قصيرة معا كي تؤدي بنا في النهاية الى شكل الرواية ، هذا الشكل هو تعبير عن اسلوب معرفي في شكل قصص قصيرة ، واسلوب روائي في نفس الوقت ، رغبة في الحصول على المعلومات بطريقة موجزة مكثفة ولكنها تتراكم تدريجيا وشيئا فشيئا حتى تؤدي الى بناء كبير في نفس الوقت هو الرواية .

سادسا : تصالحي النظريات المختلفة : حالة همنجواي :

يعتبر الكاتب الأمريكي أرنست همنجواي من أغزر الكتاب وأجودهم انتاجا خلال القرن العشرين ، وقد استمر يكتب منذ عشرينات هذا القرن حتى خمسيناته وخلال ذلك نشر عددا كبيرا من القصص والروايات الهامة منها : وداعا للسلاح - الموت بعد الظهيرة - تلال أفريقيا الخضراء - لمن تدق الأجراس - العجوز والبحر ، وغير ذلك من الأعمال ، وقد حصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٥٤ م .

يتساءل وليم صمويل W. Samuel في دراسته التي نعرض لها الآن حول شخصية همنجواي والتي نشرها ضمن كتابه « الشخصية » ، بحث عن مصادر السلوك الانساني »

Personality, search for the sources of Human Behaviour

عام ١٩٨١ م ، يتساءل قائلا : انه فيما يتعلق بشخصية مثيرة للاعجاب مثل شخصية همنجواي لابد أن يدور في أذهاننا سؤال هو : أي نوع من الأشخاص كان همنجواي ؟ ويجب بأن جانباً كبيراً من هذا السؤال يتعلق برغبتنا في فهم الأسباب التي جعلت همنجواي يفعل الأشياء التي فعلها ويكتب الأعمال التي كتبها .

ان معرفة الحقائق الخاصة بسيرة همنجواي الذاتية هي أمر ضروري كخطوة أولى كما يقول صمويل - من أجل الوصول الى هذا الفهم ، لكن هذه الحقائق بمفردها لن نخبرنا عن الأسباب التي جعلت حياة همنجواي تسير بهذه الطريقة أو تأخذ هذا المسار ، فمن أجل الإجابة على هذا السؤال لابد أن ندرس هذه الحقائق وهذه المهمة الأساسية لعلماء النفس الذين يهتمون بدراسة الشخصية الانسانية . وعند بدايتنا لعملية تفسير حقائق حياة همنجواي سوف ندرك أن نفس هذه الحقائق قابلة للتفسير من خلال وجهات نظر متعددة خاصة بالنظريات المختلفة السائدة الآن في مجال سيكولوجية الشخصية .

ولد همنجواي في ٢١ يولية ١٨٩٩ وكان والده طبيبا مشهورا في « أوك بارك » إحدى ضواحي مدينة شيكاغو وكان كبير أطباء التوليد في

مستشفى هذه الضاحية ، وكانت هوايات همنجواى الأب (الذى كان يحب أن يدعى بابا ، هى الصيد وتحنيط الحيوانات وطهى وجبات الطعام لأسرته ، أما زوجته - والدته همنجواى الابن الكاتب - فكانت تدعى جريس وكانت تطمح لأن تكون مغنية أوبرا ، لكن آمالها هذه أعيقت بفعل مشكلات خاصة فى عينها . ومع ذلك فقد حافظت هذه الأم على اهتماماتها الفنية وأصرت على أن يشتمل منزل الأسرة فى « أوك بارك » على غرفة واسعة للموسيقى تحتوى على خنسبة مسرح مجهزة لفرقة موسيقية كاملة ، كانت هذه الأم تجلس عليها أحيانا وتغنى للضيوف من مدعوئها .

إضافة الى ذلك فقد اشتملت هذه الأسرة على أربع أخوات لهمنجواى - الابن - وعلى أخ آخر جاء أخيرا وكان أصغر من أرنست بست عشرة سنة .

كان بابا همنجواى وزوجته جريس رغم اختلاف طباعهما فى جوانب عديدة يشتركان فى سمة واحدة أساسية : التدين أو الورع المسيحى الشديد ، فقد كان الأب يعاقب السلوك السيئ الذى يقوم به أحد أبنائه بأن يخلق له شعر راسه دما وان يجعل الولد - أو البنت - العاصى يجثو على ركبتيه ويطلب الصفح والمغفرة من الرب . ورغم صورة الصلابة والسيطرة والاهتمام بالنشاطات الخارجية (*) التى كان يبدو عليها الأب فان الابن أرنست الصغير قد أدرك أباه فى صورة الرجل الجبان الذى تسيطر عليه زوجته ، وفى نفس الوقت توجد أرنست مع اهتمامات أبيه الخارجية ، وقد تلقى أول صنارة لصيد الأسماك فى سن الثالثة أما فى سن العاشرة فامتلك بندقية خردق (رش) صغيرة وعندما كان يغضب مع والده كان يختفى ببندقيته فى مخبأ بالحديقة ويصوب بندقيته الى أبيه بينما يكون هذا الأب يعمل فى ساحة الحديقة أو فى « زربتها » .

فى تلك الأثناء كانت الأم تحاول أن تجعل أرنست يقتفى آثار اهتماماتها الفنية فجعلته يبدأ فى العزف على آلة التشيلو (**) ولم يكن أرنست مهتما بدرجة كبيرة بالموسيقى ، لذلك فان والدته كفت بعد ذلك عن مواصلة جهودها المضنية معه ، وبدأ أرنست يتعلم بدلا من ذلك دروسا بمسلسل قديم . وقد صدم همنجواى بمقتل أبيه لكنه أصبح أكثر اقتناعا بأن والده كان جباناً وقد عبر عن ذلك من خلال إحدى شخصياته فى رواية « لمن تدق الأجراس » .

(*) المسود هنا النشاطات التى نتم فى المناطق الخلوية خارج المنزل مثل نشاط صيد الحيوانات وصيد السمك وما شابه ذلك .
(**) أو الفيواونسيل أو الكمنجة الكبيرة .

وكان على همنجواي أن يخوض معركة حياة طويلة الأمد - حرفيا ومجازيا - كي يتجنب صفة الجبن التي التصقت بوالده .

كان همنجواي مندفعاً وسريع الغضب - مثل أبيه - وكان يرد على الاهانات أو حتى النقد الخفيف من خلال التحدى والمبارزة والعراك بالأيدي .

واضافة الى الجروح والعظام المكسورة التي نتجت عن مثل هذه المجابهات ، فقد مر همنجواي بسلسلة طويلة من الحوادث التي اشتملت أيضا على اصابات في رأسه . فقد نطحه ثور خلال ممارسته لمصارعة الشيران ، وجرح بشكل بالغ حول عينه اليسرى في حادثة « تاكسي » في لندن خلال الحرب العالمية الثانية وأصيب مرتين بشكل بالغ نتيجة حادثتي طائرة ارتطمت بالأرض أثناء رحلة صيد في أفريقيا في عام ١٩٥٤ . وقد نتج عن الحادثة الأخيرة كسر في جمجمته واصابات داخلية في الطحال والكلية والكبد والعمود الفقري ، وفي حادث سابق في كوبا عام ١٩٤٥ م كان قد أصيب في حادث سيارة نتيجة اصطدام إحدى مرايا السيارة برأسه . وفي عام ١٩٤٩ م انتشرت حالة من سرطان الجلد الخفيف حول وجهه .

وليس من المستبعد - كما يشير عديد من الباحثين الذين اعتمد عليهم صمويل في دراسته (أمثال بيكر S. Baker وأرونوفيتز A. Arnowitz وهاميل P. Hamill - ان تلك الحياة المليئة بالاصابات والصراعات وضغط الدم المرتفع وكذلك الافراط في الأكل والشرب ، قد قامت كلها بالتأثير المعاكس على عقل همنجواي ، لقد كان يشكو دائما من ميول تتحرك في اتجاه الاضطراب العقلي وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ يشعر بصداق مؤلم وطنين في الأذنين وبطء في التفكير والكلام مع ميل لكتابة مقاطع مهزوزة أو بطريقة تنقسم بالتردد ، مع وجود اضطرابات في السمع .

كان همنجواي أيضا قد أصيب بالاكتئاب نتيجة موت أمه . وزوجته الأولى وعديد من أصدقائه المقربين ، وخلال الخمسينات المتأخرة اضطرت نتيجة الحرب الأهلية في كوبا أن يترك منزله قرب العاصمة هافانا وكان خلال ذلك يشعر بالخوف من تعقب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية له نتيجة صداقته وتأييده لفيدل كاسترو ، وأصبحت فترات اكتسابه أكثر تكرارا وأطول أمدا .

فى أواخر الستينيات بدأ همنجواى يتلقى علاجاً طبياً نفسياً وتلقى مجموعة من الصدمات الكهربائية العلاجية اشتملت على مرور حوالى ١٠٠ فولت كهربائى عبر مخه من أحد صدغيه الى الصدغ الآخر ولمدة معينة (كسر من الثانية) ، وقد أدى هذا فى النهاية الى تحريره بشكل ناجح من موجات الاكتئاب العنيفة ، لكن أحد الآثار الضارة لهذا العلاج الكهربائى كان هو فقدان الذاكرة وضعفها وقد اعترف همنجواى لأحد أصدقائه أن العلاج قد أبطأ أو قام بمحو ذاكرته الذى كان أمراً حاسماً فى أهميته بالنسبة له ككاتب .

ذات صباح وفى يوم ٢ يولية ١٩٦١ م وبينما كان فى حالة من الاعياء الجسدى والعقلى ، شاعرا بالعجز عن المقاومة ، قبل همنجواى حكم مانيتو (*) وقام ثانية بنفس الدور الانهزامى الأخير الذى قام به والده ، فأطلق على جبهته الرصاص من خلال بندقيته المفضلة ذات الماسورتين .

كيف يمكن أن يفسر علماء التحليل النفسى وقائع حياة وموت همنجواى ؟

ان غرائز الحياة والموت هى من الأمور الجوهرية بالنسبة لهؤلاء المنظرين ، فغريزة الموت هى دافع غلاب عندما يتم ابعادها من خلال غرائز الحياة التى تعارض غرائز الموت تظهر الرغبة العدوانية ضد الآخرين ، ويكشف هذا الدافع العدوانى عن نفسه أولاً من خلال وقوع الطفل الذكر الصغير فى حب أمه التى تقوم برعايته مع رغبة فى امتلاكها جنسياً (وفقاً لعقدة أوديب) والتخلص من الغريم المنافس الذى ينازعه عليها فى الملاكمة وقد انهزم عدة مرات بشكل ساحق وذلك لأنه عرض نفسه منذ بداية ممارسته للملاكمة لأن يشترك فى بطولات ضد مجموعة من الملاكمين المحترفين .

كانت حياة همنجواى وكتابات همنجواى بشكل كبير من خلال خيوط الصراع والموت ، وقد كانت قصته الأولى بعنوان « حكم مانيتو » (**) - وقد نشرها عام ١٩١٦ فى المجلة الأدبية للمدرسة الثانوية لضاحية « أوك بارك » - تدور حول صياد فرنسى وقع فى شرك مصيدة الدببة التى

(*) أول قصة كتبها فى حياته وسترد الإشارة إليها .

(**) المانيت هو آلة أو روح مسيطر على قوى الطبيعة عند الهنود الحمر (المؤلف) .

نصبها هو نفسه بعد قتله لزميل له اتهم ظلما بالسرقة ، وقد قتل هذا الصياد نفسه بعد ذلك مفضلا ذلك على مواجهة هجوم الذئاب الضارية الذي كان يوشك على الحدوث .

خلال الحرب العالمية الأولى رغب همنجواي بشدة فى التطوع فى الخدمة العسكرية لكن رغبته هذه رفضت بسبب وجود تلف فى جهاز الرؤية لديه فى عينه اليسرى وقد نتج هذا التلف ، لا عن إصابات دائمة حدثت له خلال ممارسته - والقصيرة زمنيا أيضا - للملاكمة قبل ذلك ومن ثم فقد تم إلحاق همنجواي بقوة الصليب الأحمر الطبية وأرسل الى إيطاليا لكنه أصر على أن يكون فى الخطوط الأمامية ، وقد أصيب على الفور بقذيفة مورتر (مدفع هاون) جاءت من الجبهة النمساوية ، وقد دخلت شظايا عديدة من هذه القنبلة فى ساقه وكان يجب وضع عظام متحركة من مادة الألومنيوم فى ركبتيه لعلاج هذه الإصابات ، لكن همنجواي وبما يشبه المعجزة اجتاز هذه الحادثة دون أضرار كبيرة تذكر إلا بعض مظاهر العرج (أثناء تلك الحادثة كان هناك ثلاثة جنود يقفون بجواره وقد قتلهم الانفجار جميعا) .

فى عام ١٩٢٨ كان « بابا » همنجواي قد بدأ يعاني من مرضين بدا أنهما لاشفاء له منهما ، كان الأب همنجواي فى ذلك العام قد بلغ السابعة والستين من عمره ، وقد أخبر زوجته بعد الظهيرة أنه سيذهب الى الدور العلوى ليغفو قليلا ، وتحرك بهدوء الى غرفته ثم أطلق النار على رأسه وهو الأب ، أما حوالى عمر الخامسة ونتيجة لخوفه من عملية الخصاء التى يقوم بها الأب يقوم الطفل بالتخلي عن انجذابه الجنسى نحو أمه والقيام بالتوحد مع الأب ويقوم نتيجة لذلك باستئصال (أو استدخال) Internalization . الرموز الأخلاقية للأب . وكلما تزايد خوف الابن من الخصاء تزايدت رغبته فى التوحد مع الأب ومن ثم تقلبته لسماته الذكرية (١٥٩) .

كذلك فان نظرية التحليل النفسى قد تقول ان همنجواي قد حقق فقط قدرا جزئيا من التوحد مع أبيه نتيجة اعتقاده بأن الأب كان خاضعا بشكل واضح لزوجته قوية الشكيمة . وأن همنجواي - الابن - قد تبني

(*) فى التحليل النفسى « تكوين رد الفعل » هى العملية التى يتم من خلالها التحكم فى المشاعر أو الدوافع غير المقبولة من خلال تكوين أنماط سلوكية معارضة لها بشكل مباشر (مثل التعبير من خلال الكراهية عن الحب .. الخ) . مثلا أن يخفى أحد الناس مشاعر الحب لديه لشخص آخر ويظهر له مشاعر الكراهية ، أو أن تظهر السلوكيات المضادة للمجتمع من ناحية الأشخاص الذين يعانون بشدة من الوحدة أو من تاريخ طويل من العزلة أو الرقة البالغة (١٦٠) .

فقط الجوانب السطحية فقط من صورة والده ، وهى الخاصة بالخروج للخلاء والصيد ٠٠٠ الخ لكنه توحد بشكل جزئى أيضا مع اهتمامات أمه الفنية ، ونتيجة لاحتياسه - عند مستوى اللاشعور - بأن اختياره للمهنة الأدب يمثل نشاطا أو تنشيطا للمكون « الانشوى » من شخصيته فقد حاول همنجواى أن يخفى هذه الحقيقة عن نفسه وعن الآخرين من خلال عملية تسمى بتكوين رد الفعل Reaction formation ، بمعنى آخر ، لقد حاول همنجواى أن يتنسم باتجاه ذكورى خشن مبالغ فيه يخفى من خلال احتياسه « الانشوى » الداخلى ، ويمكن الكشف عن أن سلوكه كان محكوما من خلال هذه العملية الدفاعية أكثر من كونه تعبيرا مباشرا عن اتجاهاته أو دوافعه العدوانية من خلال العديد من الحوادث التى حدثت له ، ويقول بعض المحللين النفسيين أن الماسوشية (أو المازوخية) التى هى العدوان الموجه نحو الذات هى خاصية أنثوية ، وقد كانت لدى همنجواى رغبة لاشعورية فى المعاناة بل وحتى فى الموت ، وهى رغبة عبرت عن نفسها من خلال أن كل مظاهر شجاعته « الذكورية » قد انتهت باصابات مؤسفة وهو ما لا يحدث لكل الناس « الشجعان » ، ونتيجة لشعور همنجواى عندما كبر بالتهديد الخاص المتصل بجبن أبيه البين عندما انتحر ، قرر همنجواى أن يكون أكثر رجولة مما كان ، وقد بدأت هذه الجبهة القوية فى الانهيار عندما تراكمت الاصابات وتدهورت الصحة وأصبحت هناك صعوبة متزايدة لدى همنجواى للاحتفاظ بحالة صحية - أو رياضية - قوية . مع تزايد ضعف الميكانيزمات الدفاعية النسبية - الذكرية - لدى همنجواى ، بدأ الجانب الأنثوى من شخصيته فى الظهور أكثر وأكثر عند مستوى وعيه الشعورى ، وحيث انه كان غير قادر على تقبل ذلك الجانب من نفسه ، رافضا لذلك الاعتماد المتزايد على الآخرين فقد انجرف الى حالة من الاكتئاب ، وغمره دافع قوى لتدمير الذات ، وكان هذا الدافع - أو الاندفاع - قد انتظر حوالى ستين عاما (هى حياة همنجواى تقريبا) كى يعبر عن نفسه بشكل مباشر .

أما العلماء أصحاب التوجه النظرى السلوكى فقد ينظرون الى التفسير السابق باعتباره خياليا الى حد ما . فالأطفال فى رأيهم يميلون الى الانغماس فى السلوكيات وتبنى المعتقدات التى يكافئهم آباؤهم وأمهاتهم عليها ولذلك فليس هناك من مدعاة للدهشة لأن والده همنجواى قد استطاعت أن تستثر بعض الاهتمامات الفنية لدى ابنها حيث ان الأبناء عادة ما يتلقون مكافآت عديدة وهامة اذا قاموا بأداء سلوكيات تحبها الأم وتشجعها .

وفي الظروف العادية غالبا ما يفرض الأب والأم النمط الجنسي المقبول ثقافيا على أبنائهما . ولذلك فليس من المدهش أيضا أن يكون همنجواي قد اهتم بممارسة النشاطات الخارجية الخلوية مثل أبيه أكثر من ممارسته لاهتمامات وسلوكيات أمه .

في أواخر حياته أطلق همنجواي لحيته بشكل كامل مثل أبيه كما كان يفضل أن تشير زوجاته وكذلك أصدقائه اليه باسم « بابا » ، أما موضوعات الموت والعدوان والفرد الذي يحارب أشياء غريبة ميثوس منها في عالم غير مفهوم ، فإنها كلها كما تظهر في قصص همنجواي ، تعكس القوى النشطة في مجتمع وقع بين برائن حربيين عالميتين المجتمع وأيضا أزمات الفترة الفاصلة بينهما ، وقد قدم المجتمع مكافآته بلا حدود للمؤلفين الذين قالوا الكلمة التي كان المجتمع مستعدا لسماعها . وقد كوفي همنجواي لأنه وصف وصور الناس وهم في حالة فعل أو نشاط وقام أيضا بادماج خصائص وسمات شخصياته الروائية والقصصية داخل شخصيته هو الخاصة . ومع بداية تغير المناخ الاجتماعي بعد الحرب العالمية الثانية لم يعد أسلوب كتابة همنجواي ولا سلوكه يستقبلان بشكل حماسي كما كان يحدث في الماضي . وقد أدت الأحداث الخاصة بموت أصدقائه الحميمين وكذلك العديد من أفراد أسرته وأقاربه ، وأيضا تراكم الأمراض ومصادر المعاناة عليه الى جعل الحياة أقل تحقيقا للشباع والمكافأة كما كانت في الماضي ، وربما بدأ الموت في تلك الحالة راحة مطلوبة أكثر من مصادر التنغيص والقلق والانزعاج والتعب التي لا يمكن تحملها وربما كان همنجواي خلال قيامه بالانتحار بمحاكاة سلوك آخر قام به شخص كانت له قيمته الكبيرة عنده وهو والده .

هذا ما سيقوله علماء النفس من المنظور السلوكي ، فماذا يمكن أن يقول العلماء من منظور علم الشخصية Personology ؟ (*) سيقول هؤلاء العلماء من خلال تأكيدهم لأهمية السمات والاستعدادات الوراثية ان العدوان وكذلك الاكتئاب هما من السمات ذات المكونات البيولوجية وربما الوراثية . وان استعداد همنجواي للعدوان ربما كانت له علاقته البيولوجية بتلك المظاهر السلوكية الدالة على العدوان التي كانت تظهر كثيرا في سلوك والده ، أما عن قابلية همنجواي للاكتئاب فيمكن أن نجد جذورها أو خصائصها الوراثية المميزة في تلك المظاهر السلوكية الدالة على الاكتئاب والعزلة وعدم السعادة التي كانت تظهر في سلوك « جريس همنجواي ، (والدته) » .

(*) أمثال موراى ومارى والبورث ويمكن أن نضيف أيضا ايزنك وكاتل (المؤلف) .

ان الخبرات المبكرة مثل تلقي صفعات مؤلمة من والده الذى كان يطلب منه أن يجثو على ركبتيه قبل أن يرضى عنه ربما كانت هى التى وضعت الأساس لذلك الاتجاه المازوخى الخاص بتدمير الذات لدى همنجواى ، وأكثر من ذلك فان خبرات هذا الكاتب الكبير خلال الحرب العالمية الأولى والتى جرح فيها بشكل متكرر شديد الايلام قد أحدثت فعلا لديه مخاوف وكوابيس ومظاهر أرق واضطرابات ليلية متعددة وربما ساهمت هذه المخاوف فى اضطرابات شخصية بشكل كبير وهى الاضطرابات التى ظهرت بشكل متزايد فى السنوات الأخيرة من حياة همنجواى ، وأخيرا فان المرء يمكنه أن يضع فى اعتباره الاصابات التى يمكن أن تحدث للمخ نتيجة تعاطى الكحوليات وكذلك الاضرار والاصابات الجسيمة الناتجة عن مصادر خارجية (كالسيارات والحيوانات ٠٠٠ الخ) هذه الاصابات قد تتفاعل مع استعدادات همنجواى وسماته بطريقة تجعله عاجزا عن مواجهة المشقات التى تصاحب عمليات التقدم فى العمر .

هذا ما يقوله علماء علم الشخصية ، فماذا يقول علم النفس الانسانى Humanistic Psychology أمثال ماسلو وكارل روجرز وغيرهما ؟

سيقول هؤلاء العلماء أتباع المنظور الفينومينولوجى أو الظاهراتى فى التفسير ان المرء يمكنه أن يكتشف من كتابات همنجواى أن رؤيته للهدف من الحياة لم تكن قائمة على أساس مراكمة مصادر الراحة والدعة والسكينة أو الانسحاب من معارك الحياة الواقعية والاستغراق فى الذات ولكن كانت هذه الرؤية تنبعث من قناعة همنجواى بأن على المرء أن يحارب معركة كبيرة أو « أن يبلى بلاه حسنا » وأن يبذل أقصى ما فى وسعه من أجل تلك القضايا التى يشعر المرء أنها قضايا صميمية أو أنها قضايا الحق . وأيضا أن المرء يدرك فى نفس الوقت أن كل هذه الصراعات الفردية كانت من أجل أهداف طويلة الأمد مستحيلة وميثوس منها فى عالم يقول انه يحترم المبادئ والمثل العليا الخاصة بالعدل لكنه يسلك بشكل مضاد تماما لهذه المبادئ والمثل .

ان أفضل المعارك وأكثرها نظافة فى ضوء هذا التصور النظرى هى تلك التى تشن على المستوى الفردى ما بين الانسان والانسان ، أو بطريقة أفضل ، ما بين الانسان وبين الطبيعة الهمجية أو الحيوانية أو البدائية بداخله أو بداخل الآخر ، أنها الصراعات التى تكون فيها المبادئ المجردة موجودة بشكل ضئيل فقط ، فالمبادئ التى تتم من أجلها الصراعات هنا مشتقة من الواقع الحياتى الأرضى اليومى للانسان وفى نهاية الصراع يحتفل المرء بانتصاره أو يحكم على نفسه بالهزيمة ، هذه هى الأفكار الأساسية

والأهداف والغايات التي اعتنقها همنجواى وعاش من أجلها ، ومن خلالها أنهى حياته أيضا وفى النهاية نتساءل : أى هذه الأطر النظرية أكثر صحة أو أكثر دقة فى التفسير ؟ هل من الضرورى أن يكون أحد هذه الأطر صحيحا ، وتكون الأطر التفسيرية الأخرى هى الخاطئة ؟ أم أن هناك امكانية لأن يزودنا كل اطار باستبصارات خاصة حول شخصية همنجواى ومن ثم تكون هناك رؤية كلية صحيحة حول شخصيته ؟

الاجابة على السؤال الأخير هى الأكثر أهمية ، فهناك امكانية تكوين رؤية كلية حول شخصية همنجواى ومن الأطر النظرية ، وملخص هذه الرؤية هى كما يلى :

الى حد كبير تظهر لنا حياة همنجواى صدق تلك المقولة الشائعة - نقلا عن فرويد - « بأن الطفل هو أب الرجل » فالعديد من الخصائص المميزة لهمنجواى فى طفولته استمرت معه ومن خلال تعديلات طفيفة - خلال يفاعته ورجولته •

فى عمر الثالثة صاح همنجواى لأول مرة « أنا لا أخشى شيئا » وكان ذلك هو القول المأثور أو الحكمة المتحكمة فى سلوكه فى مواجهة المحن التى تراكمت بعد وقت طويل من اكتشافه أن الحياة تشتمل على أشياء وأحداث كثيرة مثيرة للخوف • لقد كانت حياته عبارة عن سلسلة طويلة من محاولات امتلاك سر الشجاعة والتحمل الجسدى الذى قام والده وربما والدته أيضا بتنشئته عليه منذ وقت مبكر ، لقد ظل حبه للطبيعة وللصيد والقنص ولحرية التجوال فى الغابات والبحار والأنهار والاحتفاظ برباطة الجأش معه الى نهاية حياته • ومثله مثل أبيه لم يكن قادرا على الجلوس لفترة قصيرة أو طويلة فى البيت فى مملكة الموسيقى كما كانت والدته تزيد أن يفعل ، لكنه بعد ذلك تحرك خلفها فى مجال تذوق الفنون التشكيلية وخاصة التصوير الزيتي ، أما إبداعه الخاص - الذى كان يعود فى جوهره اليها اما بالوراثة أو من خلال التدريب المبكر - فقد أخذ اتجاهات فى حياته لم تفهمها أمه بل ولم توافق عليها (١٦١) •

لقد كان يشارك والده تصميمه وإرادته على وضع الأشياء بشكل « منظم » أو مناسب أو محدد وهى صفة كانت تشيع فى مفرداته ومفردات والده أيضا •

بطبيعة الحال يمكننا القول بأن استمرار أو عدم استمرار بعض السمات أو الخصائص فى حياة الفرد ليس هو الأمر المثير للاهتمام بشكل

خاص فالأمر الأكثر أهمية هو : لماذا سارت حياة هذا الشخص في هذا المسار الخاص ؟

يؤكد العلماء أصحاب الميول التحليلية النفسية على أهمية تلك الخبرات المبكرة - التي حدثت لأرنست همنجواي في طفولته - ويحاولون ربط هذه الخبرات بالأزمة الأوديبية .

فقد كتبت « جريس همنجواي » في يومياتها أن أرنست قد جاء ذات صباح الى غرفة نومها وهو في عمر الخامسة وأنها أخبرته بذلك السر المبهج بأن الله سيعطيهم طفلاً آخر صغيراً ، وبعد شهور قليلة من هذا مات أبوها وانتقلت الأسرة من منزلها التي عاشت فيه منذ فترة تسبق ولادة أرنست الى منزل آخر أكثر اتساعاً في ضاحية أوك وبعد ذلك بعدة سنوات كان أرنست مازال يتذكر بشكل شديد الحيوية إحدى التفاصيل المثيرة للفضول حول ذلك الانتقال الذي حدث التخلص من مجموعات جادة من الشعابن « فالكثير من الأشياء التي كان لا يجب نقلها تم احراقها في الفناء الخارجي للمنزل ، وانشى أتذكر تلك الجرار والأواني الاغريقية القديمة التي ألقيت في النار وكيف انفجرت وأصدرت فرقعات في اللهب ، والنار التي انبعثت وتزايدت بتأثير الكحول » ، « أتذكر الشعابن المحترقة في النار في الفناء الخلفى . . . » (١٦٢) .

لقد عانى همنجواي من خوف دائم من الشعابن ، وعبر أيضاً عن شعوره بالقلق وعدم الأمن عند مواجهته لأي تحد لذكورته أو لقوته الجنسية (*) ، كما كان شديد الافتتان بالموت وشديد الخوف منه أيضاً ورغم أن هذه السمة الأخيرة كانت واضحة في حياته قبل انتحار والده بوقت طويل فإن هذا الانتحار قد ساعد على ظهور هذه السمة بشكل مكثف لديه ، كان أرنست يدرك والده باعتباره خاضعاً لوالدته التي تستغل في أعمال الطهي وغير ذلك من الأعمال المنزلية إضافة الى قيامه بعمله كطبيب يقوم بتزويد الأسرة بدخلها الأساسي . وقد ازدري أرنست هذا الضعف من أبيه كما قام بلوم أمه باعتبارها هي التي دفعت أباه للانتحار .

بتجميع كل هذه الخيوط قد يقوم المحللون النفسيون بتفسير شخصية همنجواي باعتباره يعاني من حل غير كامل لعقدة أديب .

فعلى مستوى السطح ، قد تبدو شخصيته باعتبارها مثالا مكتملا للشخصية العدوانية الذكورية غير المبالية أو الطائشة ولكن عند الطرف

(*) تزوج همنجواي أربع مرات .

الآخر يظهر النشاط الخاص بتكوين رد الفعل الذي يعمل ضد الجوانب
الأنثوية من الشخصية ، وقد يفسر يونج مثل هذه الحالة بقوله أنه كلما
زاد التعبير عن الأنيموس Animus (*) في قناع الشخص Persona (**)
دل ذلك على قوة الأنيماس Anima (***) المكبوتة بداخله (١٦٣)
أما أدلر A. Adlar فقد يستخدم مصطلحات أخرى ، فقد يلاحظ أن
همنجواي كانت لديه مشاعر نقص شديدة ناتجة عن شعوره بعدم الأمن
أو التهديد الاجتماعي وكذلك وجود مشاعر نقص جسمية حقيقية أو متخيلة
وأيضا موقعه كطفل ثان ، كان ترتيبه دائما خلال سنواته الدراسية يأتي
بعد أخيه الكبرى . ومن أجل التغلب على مشاعر النقص هذه قام همنجواي
بتطوير عقدة تعويضية للتفوق بشكل مبالغ فيه .

ماذا يمكن أن يقول علم نفس الشخصية الذي يهتم بالسمات
والاستعدادات ؟

ان البورت يمكن أن يقول ان أنماط السلوك والاهتمامات التي قام
الوالدان بتكوينها وترسيخها لدى همنجواي مبكرا قد أصبحت بعد ذلك
دوافع مستقلة وظيفيا(****) Functionally Autonomy جعلت همنجواي
يضع أهدافا لنفسه مثل حبه للصيد وللأدب الجيد التي أصبحت بعد ذلك
تحدث لكونها ممتعة له في ذاتها . أما موراي فقد يقول أن الحاجات
needs الخاصة في شخصية همنجواي جعلت حياته تعمل على اظهار
بعض الاستعدادات الخاصة بموضوعات معينة خلال بحثه عن أنواع
النشاطات والشخصيات التي تسمح لحاجاته بالتعبير عن نفسها ، ومن بين
الحاجات السائدة في شخصية همنجواي نجد تلك الحاجات التي تقع في
مجموعة الحاجات الخاصة بالسيطرة (كالعدوان والتفوق أو البروز
والاستعراض) وكذلك تلك الحاجات الخاصة بالتعبير الحسي Sensual
Expression أو الشهوي كالاستعراض واللعب والنزعة والحسية (*****)
Sentience (كالجنس) .

-
- (*) الأنيموس : الجوانب الذكورية داخل الانسان .
 - (**) القناع : الواجهة الاجتماعية التي تظهر بها الشخصية
 - (***) الأنيماس : الجوانب الأنثوية داخل شخصية الانسان .
 - (****) إشارة إلى مفهوم البورت عن الاستقلال الذاتي الوظيفي الذي يشير إلى
أن بعض النشاطات التي كانت تمارس من قبل من أجل أهداف معينة تتحول بعد ذلك إلى
أهداف في حد ذاتها ، فمثلا الصياد الجائع بعد أن يشبع يمكن أن يصيد من أجل الصيد
ذاته هنا يتحول السلوك من وسيلة لغاية في حد ذاته (المؤلف) .
 - (*****) البحث عن الانطباعات الحسية والاستمتاع بها (المؤلف) .

ماذا يمكن أن يقول علماء علم النفس الانساني أيضا حول همنجواي ؟ هل كان همنجواي شخصا محققا لذاته ؟ قد نقول انه لم يكن كذلك حيث انه وفقا لمدرج ماسلو حول الحاجات والذي سبق أن أشرنا اليه في موضوع سابق من هذا الفصل فان همنجواي لم يشبع ميله وتوقه وحاجته الدائمة للأمن والحب والاحترام أو التوقير الاجتماعي وقد أبعدته عدم الاشباع هذا عن التحقيق الكامل لذاته ، هذا رغم مروره دون شك بخبرات ذروة حقق من خلالها ذاته وكشف بواستطتها عن مواقفه ككاتب ، وقد أظهر همنجواي كذلك علامات كثيرة على عدم ثقته في الآخرين وكشف عن مشاعره العدائية تجاههم . وقد يدرك روجرز أيضا هذه الجوانب من شخصية همنجواي باعتبارها عوائق أمام دافع تحقيق الذات .

أما عند المستوى الأقل تأثرا بالنزعة الانسانية والأكثر تأثرا بالنزعة الوجودية فان المرء قد يقول ان همنجواي كانت لديه فلسفة للحياة اشتملت على فكرة أن كل فرد مسئول كلية عن اختياراته التي يقوم بها وقد جاءت هذه الفلسفة وظهرت بشكل مباشر أو غير مباشر في أعمال عديدة لهمنجواي وبصفة خاصة في « لمن تدق الأجراس » فبطل هذه الرواية جندي أمريكي يسمى روبرت جوردان يقاتل الى جانب المتمردين في الحرب الأهلية الإسبانية ، وشخصيته قريبة في نمطها من شخصية همنجواي وقد كان أبوه أيضا متسما بالجبن وأمه - أيضا - متسمة بالسيطرة ، وقد انتحر أبوه كذلك بأن أطلق على نفسه مقذوفا ناريا من بنديقة قديمة مخزونة أيضا !! في نهاية الرواية اختار جوردان الجريخ أن ينتحر بشكل غير مباشر بأن يواجه وحده قوة تتكون من كتيبة فاشية في موقف بدا ميثوسا منه بشكل واضح

وأخيرا : ماذا يمكن أن يقول العلماء الذين ينطلقون من منظور سلوكي ومن خلال نظرية التعلم الاجتماعي حول شخصية همنجواي ؟ ماذا يمكن أن يقول علماء أمثال دولارد وميللر وسكروبانديورا وولترز ؟

انهم يلاحظون أن همنجواي قد تلقى مكافآت عديدة في طفولته كي يسلك بشكل استعراضي ، فهناك دلائل على وجود حفلات كثيرة كانت تقيمها الأسرة لأطفالها وزملائهم في المدرسة ، وهناك دلائل كثيرة أخرى على المسرحيات والمهرجانات التي اشترك فيها أطفال هذه الأسرة وكذلك علامات التكريم التي تلقوها ، كذلك تقدم شخصية جريس همنجواي « الأم نموذجاً

لتلك النزعة التعبيرية عن الذات والتي ظهرت في نشاطاتها الخاصة بعزف الموسيقى على خشبه مسرح في منزل الأسرة . وفي نفس الوقت فان الوالدين كليهما قد قام بتشجيع السلوكيات المناسبة لدى أرنست والخاصة بلعب الدور الذكري ولذلك فليس هنالك من مدعاة للدهشة في كونه قد تبني العديد من سمات واهتمامات أبيه وكذلك كما تمت الإشارة سابقا فقد كان المجتمع في ذلك الوقت الذي كتب فيه همنجواي أهم أعماله مهيبا كى يسمع - ويدفع - كل ما يتعلق بالجوانب العميقة من شخصية الكاتب ، أما بعد الحرب العالمية الثانية وبعد الحرب الكورية فقد أصبح الأمريكيون أقل اهتماما بتلك المغامرات الخشنة أو العنيفة الموجودة في روايات همنجواي ، وحيث ان همنجواي قد وجد صعوبة شديدة في تطوير أساليب جديدة في الكتابة أو السلوك فانه قد أصيب بالاحباط والاكتئاب . ان اكتئاب همنجواي وكذلك انتحاره يمكن تفسيرهما في ضوء ظاهرة الشعور باللاجءوى المتعلقة Learned Helplessness فمع شعوره بالعجز عن المشاركة في نشاطاته ومظاهر تسليته شديدة الحيوية والمفضلة بالنسبة له ، ونتيجة لحزنه نتيجة لموت عديده من الأشخاص القريبين منه ربما شعر همنجواي في أواخر خمسينات عمره أن الحياة لم تعد تقدم له أية مكافآت أو لم تعد تشييه بشكل مناسب يجعلها تستحق أن تعاش .

كذلك فقد وجد همنجواي نفسه يلعب دور الشخص المريض بحيث ان الأشياء التي كان يقوم بها نفسه ، أصبح الآخرون يقومون بها الآن له ، مثل هذه الحالة من الاعتماد ربما كانت هي التي ساعدت على تفاقم شعور همنجواي باللاجءوى والاكتئاب .

مرة أخرى يتساءل المرء ما هو المنحى أو التصور النظرى الذى يقدم لنا استبصارات أكثر وضوحا وأكثر اكتمالا حول عقل همنجواي وشخصيته: التحليل النفسى أم الاتجاه الاستعدادات والسمات أم الاتجاه الانسانى الوجودى أم النظرية السلوكية ؟

وفي واقع الأمر كما يقول وليم صمويل ان كل وجهة نظر من هذه الجهات لها منظورها الخاص حول هذا المؤلف الشهير وان كل وجهة من هذه الجهات يمكن أن تكون صحيحة بدرجة تزيد أو تقل عن الجهات الأخرى ، فالسيرة الذاتية لهمنجواي تخبرنا بما عرفه الاخصائيون في علم النفس الأكلينيكي وكذلك الأطباء النفسيون منذ وقت طويل من أن نفس الحالة الواحدة يمكن تفسيرها من خلال طرائق عديدة أو وسائل مختلفة ينطبق هذا على شخصية الانسان سواء كان شهيرا أو لم يكن كذلك .

أهم ما اكتشفته النظريات التي حاول « صمويل » استكشاف احتمالاتها التفسيرية حول شخصية همنجواي قد تكون هي العقل اللاشعوري . استقرار السمات أو ثباتها النسبي وكذلك القدرة الخاصة الكامنة في المواقف البيئية المباشرة على تشكيل السلوك (١٦٤) . وقد أظهرت لنا هذه الدراسة بما لا يدع مجالا للشك أن هناك علاقة وثيقة بين تنشئة وظروف وحياة المبدع وسمات شخصيته من ناحية وبين الشخصيات التي يبدعها بل ونمط الكتابة الذي يفضلها أيضا من ناحية أخرى . هذه هي أهم المحاولات المطروحة لتفسير تلك الجوانب المتعارضة والمثيرة للاهتمام في نفس الوقت في شخصية همنجواي ، وفي كتاباته ، لكننا نعتقد أيضا بوجود امكانات تفسيرية أخرى كأن نستفيد مثلا من مفاهيم التوتر الدافع والتوازن والوصول الى الجشطلت الجيد من منظور نظرية الجشطلت ، وفي حالة همنجواي يبدو أن العجز الأخير عن الوصول الى حالة التوازن هذه على مستوى القوى النفسية وعلى مستوى الأعمال الابداعية كان هو المسئول الأكبر عن نهايته المأساوية .

الفصل الثالث

الصور العقلية والخيال الابداعي

تعريف المصطلحات الأساسية :

اولا : الصورة Image :

مصطلح مشتق من كلمة لاتينية تعنى « محاكاة » Imitation ومعظم الاستخدامات السيكولوجية القديمة والحديثة لهذا المصطلح تدور حول نفس المعنى ، ومن ثم توجد معانٍ متقاربة مترادفة مع هذا المعنى فى مجال الاستخدام السيكولوجى مثل : التشابه ، النسخة ، إعادة الانتاج ، الصورة الأخرى .. الخ .

وتوجد تنوعات وتباينات هامة فى استخدام هذا المصطلح مثل .

١ - الصورة البصرية Optical image :

وهو أكثر الاستخدامات العيانية (الملموسة المحسوسة) للمصطلح ويشير هذا الاستخدام بشكل خاص الى انعكاس موضوع ، على مرآة أو على عدسات أو غير ذلك من الأهوات البصرية .

٢ - يتم الامتداد بالاستخدام السابق فنحدث عن الصورة الشبكية Retinal image التى هى الصورة (التقريبية) لموضوع ما ينعكس على شبكية العين عندما ينكسر الضوء على جهاز الابصار بشكل مناسب .

٣ - داخل مجال المدرسة البنائية فى علم النفس ، تم اعتبار الصورة احدى المكونات الثلاثة الفرعية للوعى أو الشعور وكان المكونات الأخران هما : الاحساسات والانفعالات (والعواطف) وكانت تتم معاملة الصورة فى سياق هذا الاستخدام باعتبارها تمثيلا عقليا لخبرة حسية سابقة ، ويكون هذا التمثيل بمثابة النسخة الأخرى لهذه الخبرة ، وكان يتم اعتبار هذه

النسخة أقل حيوية من الخبرة الحسية لكنها - هذه النسخة - تظل مع ذلك قابلة للتعرف عليهما وإدراكها باعتبارها ذاكرة بهذه الخبرة ، هذا المعنى الخاص تم نقله واستخدامه بعد ذلك في مجال علم النفس المعرفي حيث تم النظر الى الصورة باعتبارها (وبشكل عام) :

٤ - صورة ذهنية Picture في الدماغ ، ورغم تشابه هذا الاستخدام مع كثير من الأفكار الشائعة حول مفهوم الصورة الذهنية أو العقلية فان بعض التحذيرات يجب أن توضع في الاعتبار ومنها :

(أ) أن « الصورة الذهنية » ليست مجرد صورة حرفية للخبرة الأساسية ، فليس هناك ما يشبه عملية إسقاط شريحة مصورة مصغرة على شاشة من خلال جهاز عرض Projector ، لكن هذه الصورة تكون من قبيل الصورة التي تبدو كما لو كانت هي الصورة الأصلية as if picture ، وهذا يعنى أن التفكير بالصورة هو عملية معرفية تنشط « كما لو » كان المرء يمتلك « صورة ذهنية » ماثلة للمشاهد الخاص الموجود في العالم الواقعي .

(ب) أن الصورة لم يعد ينظر اليها بالضرورة باعتبارها مجرد اعادة انتاج reproduction لواقعة أو حادثة مبكرة ولكن بدلا من ذلك باعتبارها تتضمن عمليات بناء وتركيب ، وبهذا المعنى فان الصورة لم يعد ينظر اليها باعتبارها نسخة مكررة ، فمثلا ، يمكنك أن تتصور حيوان وحيد القرن وهو يقود دراجة بخارية ، وهي صورة لا يمكن أن تكون نسخة لصورة أو خبرة واقعية تمت رؤيتها من قبل .

(ج) هذه الصورة « التي في الدماغ » يبدو أنها قابلة « للتكييف » أو للتحكم ومن ثم يمكن للمرء أن يتصور وحيد القرن - مثلا - وهو يقود دراجته البخارية في اتجاهه ، أو بعيدا عنه أو حوله . الخ .

(د) أن الصورة الذهنية ليست قاصرة بالضرورة على التمثيلات البصرية ، رغم أن هذا النوع بالتأكيد هو أكثرها شيوعا ، فمثلا يمكن أن يقوم المرء بتفصيل أو تنويع معين في صورة سمعية (حاول تكوين صورة لنغمة معروفة جيدا) أو لصورة لمسية (صورة تصميم هندسي معين ، مثلث مثلا ، وتصور أنه يضغط على ظهرك) . الخ . وتوجد لدى أفراد آخرين صور متعلقة بالتذوق بالغم أو الشم بالأنف ، وبسبب هذا الاطار الممتد فان هذا الاستخدام يبدو أنه الأكثر مناسبة لنوع الصور التي نناقشها هنا .

(هـ) هذا النمط من الاستخدام يمتد ليشمل مصطلحا آخر شديد الصلة به حتى من الناحية الايثمولوجية (*) ألا وهو مصطلح الخيال Imagination رغم أن هذه المعاني هي أكثر معاني الصورة شيوعا فان هناك معان أخرى أو استخدامات أخرى لمصطلح الصورة ومنها :

٥ - الاتجاه العام نحو بعض المؤسسات أو الأفراد مثل « صورة الصين في أذهان الشعوب الغربية » .

٦ - عناصر الأحلام (هي صور أيضا) .

٧ - كفعل ، أن تتصور ، معناه أن تكون أو تخلق أو تبتكر صورة ، ورغم أن الفعل (يتصور) هنا To imagine يستخدم بشكل مترادف مع الفعل يتخيل To image فان الفعل الأخير (يتخيل) يتضمن أيضا حالات التهويم وتطائرات الوهم Flights of fancy (أو الصورة السريعة الاختفاء خلال التخيل) وهي صورة تستبعد في حالات كثيرة خلال التعامل مع الفعل الأول ، وهذا يعنى أنه رغم التداخل المراهف ما بين الصورة (أو التصور) والخيال فان تصور شيء ما ليس هو بالضرورة وبالتحديد نفس النشاط العقلي الذى يحدث خلال عملية الخيال (١) .

ثانيا : التفكير بالصور Imagery

يشير المصطلح في معناه العام الى العملية الكلية للتفكير من خلال الصور ، رغم أنه يستخدم للإشارة فقط للصور الواقعية أو ذات المصدر الواقعي ، والعلاقة بين الصورة Image والتفكير بالصور imagery علاقة معقدة ويفضل هورويترز استخدام مصطلح « الصورة » للإشارة الى خبرة نوعية واستخدام مصطلح « تفكير بالصور » للإشارة الى أنماط مختلفة من الخبرات التى تشتمل على أنواع مختلفة من الصور لكنها تتجمع معا (٢) .

ثالثا : التخيل : Fantasy

ويشير هذا المصطلح الى نشاط غير محكوم أو غير متحكم فيه أولا يمكن توجيهه بواسطة الفرد الذى ينغمس فيه كبديل للواقع ، وهو يرتبط بأحلام البقطة Day Dreams ، ويفضل بعض الباحثين التمييز

(*) الايثمولوجيا هي الدراسة التى تعنى بأصل الكلمات وتاريخها (انظر قاموس المورد ، ١٩٨٦ ، ص ٣٢٢) .

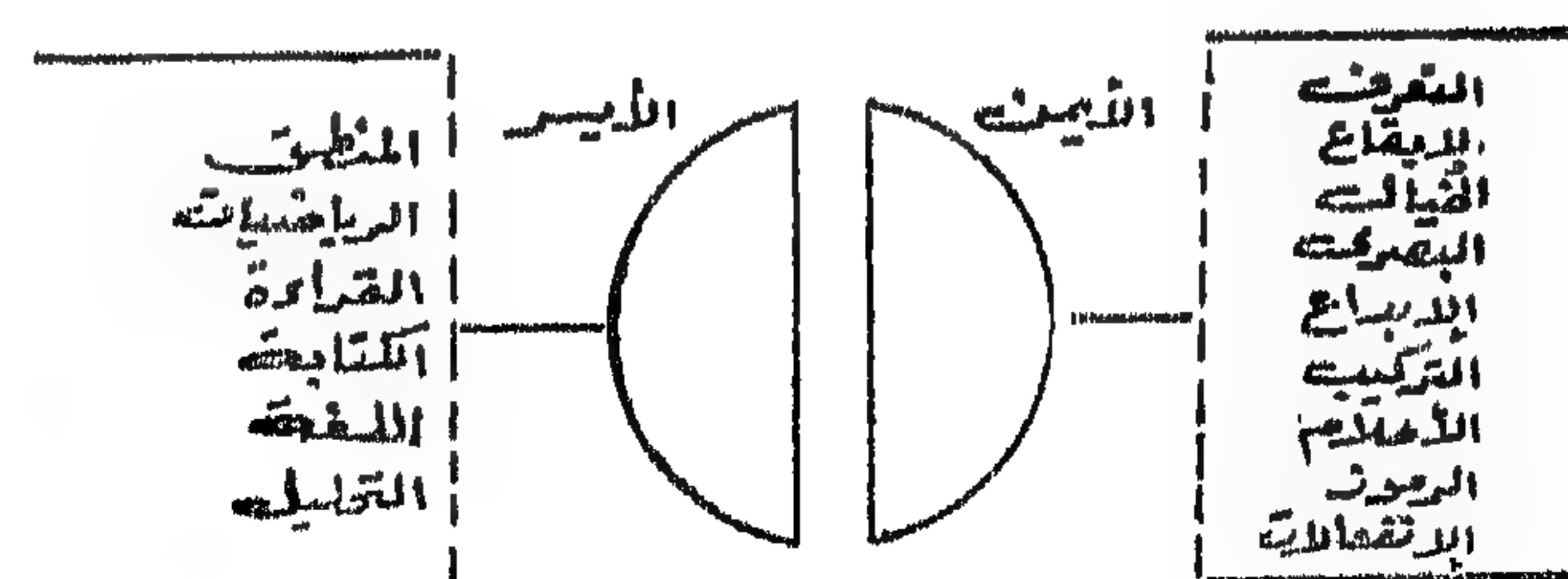
بين التخيل وأحلام اليقظة باعتبار أن التخيل له صفة لا شعورية • غالبية
وان أحلام اليقظة لها صفة شعورية غالبية على صفاتها اللاشعورية (٣) •

رابعاً : الخيال Imagination

الخيال هو القدرة العقلية النشطة على تكوين الصور والتصورات الجديدة ، ويشير هذا المصطلح الى عمليات الدمج والتركيب واعادة تركيب الذاكرة الخاصة بالخبرات الماضية وكذلك الصور التي يتم تشكيلها وتكوينها خلال ذلك في تركيبات جديدة ، والخيال ابداعي بنائي ويتضمن الكثير من عمليات التنظيم العقلية ، ويشتمل على خطط خاصة بالمستقبل وقد يقتصر خلال مرحلة من نشاطه على القيام بعمليات مراجعة واستعادة للماضي وقد يقوم بالتركيز على الحاضر فقط أو يتوجه مستعينا بكل ذلك الى المستقبل (٤) والخيال الابداعي في رأينا يشتمل على منظور زمن Time Perspective منفتح هذا اذا استخدمنا مصطلحات ميلتون روكيتش M. Rokeach فخلال النشاط الخيالي تمتزج صور وخبرات وتوقعات الأزمنة الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) ومن خلال هذا الامتزاج ينتج ذلك المركب الجديد الذي هو المنتج الخيالي الابداعي المتميز •

موقع الصور والخيال في المخ :

نحن نقوم داخل المخ بابتكار الصور العقلية وتكوينها وقد كشفت الدراسات الحديثة خاصة التي قام بها روجر سبيري R. Sperry وزملاؤه في خمسينات وستينات هذا القرن ، على المخ الانساني ان النصفين الكرويين للمخ Cerebral Hemispheres الايسر والايمن ، ينشبطان بطرائق مختلفة ، فمثلا اللغة هي وظيفة النصف الأيسر ، بينما التوجه المكاني spatial orientation هو وظيفة النصف الأيمن ويكشف الشكل رقم (١) عن الوظائف المختلفة التي يختص بها النصف



(شكل رقم (١) ونقلا عن رونالد شون ١٩٨٣ ، ص ٩)

الأيمن وكذلك النصف الأيسر من المخ فالنصف الأيسر يختص بوظائف التفكير المنطقي واللغة بينما يختص النصف الأيمن بالوظائف التي تتطلب

تقييمات كلية للموضوعات والسلوكيات ، فمثلا افترض أنني سألتك أن تحسب مجموع نصف الرقم (١٠) وثالث الرقم (٩) فانك سوف تستخدم نصف المخ الأيسر للقيام بعملية الحساب هذه فتجمع الرقم (٥) على الرقم (٣) ليكون الناتج (٨) لكن افترض أنني سألتك أن نتذكر ونستدعي ذهنيا ساطع البحر الذي رأيته في الصيف الماضي وقت الغروب ، فانك سوف تقوم بذلك من خلال النصف الأيمن ، وبشكل عام فان الصور الذهنية والخيالية هي نشاطات خاصة بالنصف الأيمن من المخ وكذلك الأحلام والابداع والرؤى الخيالية ، ان عالم الطبيعة غالبا ما يسود لديه النصف الأيمن لدى الفنان ، لكن ما يجب أن نعرفه هنا هو أن هذه السيادة نسبية وليست مطلقة ، ففي الابداع الأدبي مثلا الذي يكون معتمدا على اللغة (النصف الأيسر) وعلى الصور الخيالية (النصف الأيمن) يحدث تكامل ابداعى ما بين نشاط نصفى المخ ، وفى مجال مثل فن التصوير Painting يسود النصف الأيمن ولكن فى حالة مصور مثل ليوناردو دافنشى الذى تنوعت انتاجاته ما بين الفن والعلم حدث نشاط تفاعلى ما بين نصفى المخ ، ونفس الشيء بالنسبة لعالم مثل أينشتاين حيث لم تستطع الذهنية العلمية الدقيقة الجافة فى النصف الأيسر من المخ أن تمنع حدوث تيار متدفق من الصور فى النصف الأيمن مما ساعده فى الوصول الى اكتشافاته الهامة الخاصة بنظرية النسبية (٥) .

تاريخ دراسات الصور العقلية والخيال :

حتى ثلاثينات هذا القرن كانت معظم الدراسات التى تدور حول موضوع العقلية والخيال تأتى من اهتمامات الفلاسفة العقلانيين ، لكن قبل ذلك أيضا كانت هناك ادهاصات سيكولوجية بما سبأتى بعد ذلك من دراسات ، كانت هذه الارهاصات قليلة ، لكنها كانت أيضا شديدة الأهمية ، وربما كان ما قدمه فرنسيس جالمون فى كتابه « استقصاءات حول الملكات الانسانية Inquiries into the human faculties » عام ١٨٨٣ يمثل أهم الدراسات المبكرة فى المجال ، وقد اهتم بالصورة البصرية أساسا كما اهتم أيضا ببعض حالات الأفراد الذين يتميزون بحضور الصور البصرية لديهم أكثر من غيرها من الصور العقلية ، أى أن صورهم العقلية تتعلق أكثر بخبرات « مرئية » ، وأقل من تلك الناس توجد لديهم الصورة السمعية ، وأقل من ذلك بكثير توجد لديهم أنماط الصور الأخرى كالصور الشمية أو التدوقبة أو الخاصة بالتوازن أو التوجه المكاني ، وهناك تباينات وفروق بين الأفراد فى كمية كل نوع من الصور العقلية وفى مدى حيوية هذه الصور عند حاسة . وفى كل موقف ، فبعض

الأفراد الذين درسهم جالتون كانوا عاجزين حتى عن فهم معنى « الصورة البصرية » ، وبعضهم الآخر استطاع أن يستشعر ويتصور أضعف الخبرات السمعية فقط (*) .

وقد ذكر جالتون بعض أنواع الصور العقلية الأخرى ومثال على ذلك الخبرة المسماة بالتركيبية أو التآلفية Synthesis حيث تمتزج نشاطات الحواس المختلفة ، فالموسيقى يمكن أن « ترى » كتدفق من الصور الملونة (٦) هذه الخبرة المركبة حيث انه نظر اليها باعتبارها أحد الأشكال المتميزة للنشاط الخيالي حيث انها تتضمن مزجا وتركيبا جديدا بين خبرات متفاعلة عبر الحواس المختلفة (٧) هذا النوع المتميز من الخبرة الخاصة بالصور العقلية والذي انتبه اليه جالتون بشكل مبكر لم يلتفت اليه العلماء تجريبيا أو يجرون دراسات ذات أهمية تذكر عليه الا في سبعينات وثمانينات هذا القرن وما بعد ما يقرب من مائة عام من اشارات جالتون اليه (٨) .

هناك أنواع أخرى من الصور العقلية أثارت اهتمام العلماء وخاصة علماء النفس الارتقائي وهو ما يسمى بالصور الارتسامية Eidetic imagery وقد كان جانبيش Jaensch هو أبرز العلماء الذين درسوا هذه الظاهرة (**) بشكل تفصيلي ، وقام كلوفر Kluver بمراجعة التراث الخاص بهذه الظاهرة عام ١٩٣١ ، وقد تم الاعتقاد بأن الصور الارتسامية تكون شائعة ومألوفة خلال الطفولة وغير شائعة أو مألوفة خلال مرحلة الرشد (***) والجدير بالذكر أنه خلال الصور الارتسامية يكون لدى الفرد بشكل واضح « صورة » دقيقة بشكل غير مألوف وحيث يمكنه أن « يقرأ » التفاصيل الكاملة الخاصة بالموضوع المرتسم أو المرسوم في عقله .

بعد ذلك ابتعد العلماء عن الاهتمام بموضوع الصور الارتسامية لمدة تزيد عن ثلاثين عاما حتى ظهرت دراسة هاربر وأعادته الاهتمام بهذا الموضوع رغم أنها أشارت الى أن هذه الظاهرة أقل شيوعا مما كان يعتقد في الماضي (٩) .

(*) من الواضح أن بيتهوفن كموسيقار مبدع كان يتميز بوجود صور سمعية لديه بشكل شديد التدفق والحيوية .

(**) سيأتي شرح مفصل لهذا النمط من الصور العقلية في قسم ثالث من هذا الفصل وهو القسم الخاص بتصنيفات الصورة العقلية .

(***) وقد زعمت دراسات عديدة حدوث انخفاض عام عبر العمر في حيوية كل أنواع الصور العقلية .

وقد ناقش « بياجيه » و « انهيدر » الصور العقلية في علاقتها بالادراك والمعرفة وأكد الأهمية الكبيرة للإشارات الخاصة بالصور وكذلك الإشارات اللغوية في القيام بالعمليات المعرفية المختلفة ، والصور العقلية بالنسبة لبياجيه لها خصائصها الرمزية والدلالية ، مثلها مثل الكلمات ، وقد اهتم بياجيه بشكل خاص بالجوانب والدلالات للصور العقلية ونظر الى الكلمات والصور ليس باعتبارهما وحدات غير مرتبطة بل باعتبارهما وحدات مرتبطة بشكل ضروري لا بد منه كما تحدث بياجيه أيضا عن أنواع الصور العقلية ودورها في بعض نشاطات الأطفال كالرسم واللعب وحل المشكلات (١٠) كما سنشير بعد ذلك خلال هذا الفصل .

هذه الفكرة السمي طرحها بياجيه حول الارتباط الشديد بين الصور العقلية واللغة يؤكدها عالم آخر هو عالم سيكولوجية الفن الجشطالتي رودلف أرنهيم A. Arnheim حين يحذر في كتابه « التفكير البصري » من العواقب السيئة التي يمكن أن تنجم من الاهتمام الزائد بالجوانب اللغوية على حساب الصور العقلية التي هي المادة الأساسية لفهم العالم من خلال لغة الصورة وذلك أثناء الأطفال ثم بعد ذلك نشاطات الحياة المختلفة (١١) .

كذلك يتحدث جبروم برونر J. S. Bruner عن أهمية مرحلة التمثيل الأيقوني Iconic representation خلال مراحل الارتقاء العقلي للعقل ، وقام برونر بربط هذه المرحلة بمفهوم الصور العقلية ، وهذه المرحلة تظهر في نهاية السنة الأولى عندما يكون الطفل قادرا على تمثيل العالم الخارجي داخليا لنفسه من خلال صور عقلية أو من خلال تخطيطات عقلية تكون مستقلة نسبيا عن النشاط الواقعي ، وبمرور الوقت يتم ترسيخ قواعد التمثيل الأيقوني ، والنمو عند برونر لا يشتمل على سلسلة من المراحل بقدر ما يشتمل على عمليات متتالية من السيطرة والتمكن التي تأخذ أشكالا ارتقائية مختلفة تنسج عن التفاعل المستمر بين النشاط الخارجي وعمليات الادراك والتمثيل العقلي الداخلي حتى يصل الطفل الى مرحلة التمثيل الغريزي Symbolic representation التي هي أكثر المراحل دلالة على حدوث الانفصال الضروري بين الذات والموضوع وهو انفصال له أهميته الكبيرة دون شك خلال عمليات التفكير الرمزي بالصور أو من خلال اللغة (١٢) .

(*) الأيقونة هي الصور الصغيرة المجسمة المختزلة والتي تقف كبديل رمزي لمكونات واقعية أكبر منها كما في الأيقونات بالكنائس مثلا .

فى سبعينات هذا القرن وما بعدها ظهرت دراسات عديدة حول موضوع الصور العقلية لعل أهمها دراسات ريتشارد سون (١٣) وبافييو (١٤) وهوروتيز (١٥) وبياجيه وانهلدر (١٦) وغيرها من الدراسات التى اسارت بى معظمها الى اهمية الصور العقلية فى تفكير الأطفال بشكل خاص وفى تفكير الانسان بشكل عام ، كما أكدت أغلب هذه الدراسات الدور الهام الذى تلعبه الصور العقلية فى بعض النشاطات العقلية الانسانية المتميزة كالخيال والابداع .

الصور العقلية واللغة :

قدم « آلان بافييو » وهو عالم نفس من جامعة تورنتو بكندا ما سمي بنظرية الترميز التثنائي (أو المزدوج) Dual Coding theory للمعلومات وأشار من خلال هذه النظرية الى أن المعلومات يتم تمثيلها فى الذاكرة من خلال نسقين أو نظامين منفصلين لكنهما مترابطان تماما ، هما نظام الصور العقلية والنظام اللفظي ، وتقول هذه النظرية كذلك ان نظام الصور يتعلق بالموضوعات والوقائع العيانية (المحسوسة الملموسة) المكانية أو المتطورة أمام النظام اللغوي فيتعلق بالتعامل مع الوحدات والبنىات اللغوية المجردة ، وعندما يزداد تمثيل المعلومة المدخلة الى الذاكرة لهذين النظامين (الخاص بالصور واللغوي) يزداد تمثيلها داخل العقل بطريقة مناسبة ، وكمثال لاستخدام هذه النظرية مع المواد اللفظية والصور نجد ما يلي :

نلاحظ أن كلمات مثل « تفاحة » ، « سهم » ، « جبل » . من ناحية ثم كلمات مثل « طاعة » ، « شجاعة » ، « سعادة » ، « مثال » ، كلها كلمات مألوقة ، لكن المجموعة الأولى من هذه الكلمات تتكون من كلمات عيانية Concrete وقادرة على اثارة صورة حيوية داخلية خاصة بالشئ الذى تشير اليه ، أما المجموعة الثانية من الكلمات فهى أقل فى قدرتها على اثارة هذه الصور من المجموعة الأولى ، وتشير الدراسات التى قامت على قروض هذه النظرية الى أن الكلمات التى تستثير الصور العقلية الداخلية تكون أسهل فى تعلمها من الكلمات التى لا تفعل ذلك ، وتفسر النظرية هذه السهولة فى التعلم بافتراضها أن الكلمة العيانية (التى تشير أكثر من غيرها الى أشياء واقعية محددة) يتم تمثيلها من خلال الصور والمعانى اللفظية ، وذلك لأنها تتكون من شكل خاص ولون خاص ولمس خاص ورائحة خاصة . . الخ كما أن لها اسما خاصا يطلق عليها ، ولذلك تدخل مثل هذه الكلمات الى نظام الذاكرة الخاص بالصور ، وكذلك النظام الخاص بالكلمات ، هذا بينما توضع الكلمات المجردة أو التجريبية فى النظام اللفظي فقط وذلك لأنه لا توجد لها احالات واقعية قوية كما هو الحال

فى الكلمات الخاصة بالأشياء الواقعية أو العيانية ، هذه الثنائية فى النمثيل والتخزين فى الذاكرة تجعل هناك ثنائية فى الوسائل التى يمكن من خلالها استدعاء الكلمات العيانية ومن ثم تكون الذاكرة أفضل بالنسبة لهذه الكلمات (٢٦) .

نتيجة لما سبق ينصح العديد من خبراء التربية والتعليم بأهمية المزاوجة بين الكلمة والصورة فى المراحل المختلفة لتعليم الصغار والكبار أيضا ، وفى مجال الأدب تكون الكلمات والأبيات الشعرية والجمل التصويرية المشحونة بالصورة أكثر قدرة على إثارة خيال القارئ ومن ثم على قيامه بالمشاركة الوجدانية والعقلية فى العمل الأدبى من الكلمات والجمل بل وحتى الأبيات الشعرية التى تنخفض فيها كمية الصور والأخيلة التى هى سلاسل من الصور ومن ثم قد يؤدى اغراق الكاتب فى التجريد اللفظى الى وصوله الى مشارف الغموض الفنى ومن ثم فقدانه الصلة بالمتلقى دون فكرة كبيرة عظيمة أو ابداع فائق متائق .

ان الفكرة الأساسية لدى « بايفيو » تقوم فى جوهرها على أفكار العالم روجر سبيري وزملائه فى مجال الوظائف الخاصة بنصفى المخ الأيسر والأيمن ، وهى الدراسات التى سبق لنا أن أشرنا إليها فى قسم سابق من هذا الفصل ، وأهمية ما قدمه بايفيو تتمثل فى أنه قام بربط اللغة بالنظامين الأساسيين فى المخ (اللفظى والخاص بالصور أو البصرى) ، فاللغة اذن ترتبط بهذين النظامين الأساسيين للمعرفة وتشغيل المعلومات ، ويتعلق النظام الأول منهما كما هو معروف بالكلام واللغة بشكل مباشر ، فنحن يمكننا التفكير فى ضوء الكلمات والعلاقات المختلفة فيما بينها ، كما توجد هناك أيضا فى هذا السياق العمليات اللفظية الداخلية التى تتوسط أو تقوم بدور هام فى السلوك اللغوى ، أما النظام الآخر لتمثيل المعرفة فهو سبق أن ذكرنا أنه يتعلق أكثر بالصور العقلية ، وهكذا فإننا لو قلنا مثلا « الولد ذو الشعر الأحمر يقشر برتقالة خضراء » فإن فهمنا لهذه الجملة ربما كان يشتمل على نوع ما من الصور العقلية الخاصة بهذا الولد وهذه البرتقالة وكذلك العلاقة بينهما ، وليس مجرد استعادة هذه الكلمات ومحاولة استظهارها ككلمات تذكر هذه الجملة فيما بعد أيضا على الجوانب اللغوية والصور العقلية الخاصة بها أيضا . هذه الصور - كما يشير بايفيو - قد تكون تخطيطية عامة وليست بالضرورة أشكالا تمثيلية شديدة التحديد والتفصيل ، كما انها تكون ذات معنى ، وتظهر كاستجابة ترابطية للكلمات وتلعب دورا هاما فى تذكرنا وفهمنا للغة ، كما قد تختلف من وقت الى آخر اعتمادا على الوقائع والخبرات السابقة وكذلك

السياق الحال الذي تظهر فيه . كذلك فان الصور العقلية لا تحتاج في بعض الحالات لأن يستدعيها المرء بشكل شعوري كامل كي نفهم بوظائفها المطلوبة ، كذلك يمكن أن تستتار هذه الصور بشكل سريع كاستجابة أو رد فعل للمنبهات المتعلقة بها .

ان ما سبق ذكره يعنى أن أهم خصائص الصور العقلية هي :

١ - انها يمكن أن تكون تخطيطية عامة وليست بالضرورة تمثيلا حرفيا للوقائع أو الأشياء العيانية المحددة .

٢ - أن هذه الصورة تشتمل على الشكل الخاص بها وكذلك المعنى المرتبط بها ، والصور غير ذات المعنى يصعب تمثيلها عقليا ، اذن المعنى أمر ضروري في التفكير الخاص بالصور كما هو أمر ضروري أيضا في التفكير اللغوي .

٣ - تساعدنا هذه الصور في فهم وتذكر الكلمات .

٤ - تقوم هذه الصور بوظيفة الرابطة أو بالوظيفة الترابطية الخاصة ما بين الكلمات وبعضها البعض حيث تساعد الصور على ايجاد العلاقات المناسبة بين الكلمات ، سواء كانت هذه العلاقات قريبة ومباشرة أو بعيدة وغير مباشرة ، وفي الابداع الأدبي والفنى بشكل عام تلعب الترابطات البعيدة ، لكنها ذات المعنى ، دورا كبيرا في عملية الابداع وذلك لأن هذه الترابطات البعيدة تكون هي المفتاح الأساسى الذى يلج منه المبدع الى عوالم الخيال بكل ما تشتمل عليه من صور ، اذن الصور العقلية هامة فى حد ذاتها تصور كما انها هامة فى احداث العلاقات الجيدة والمناسبة بين الكلمات وعناصر التفكير اللغوي فى مجالات التربية والتعلم والابداع وسائر نشاطات الحياة المختلفة .

٥ - الصور العقلية تختلف فى مدى قيامها بأدوارها وفقا للمواقف المختلفة فأحيانا لا يحتاج الانسان الى استدعائها بشكل كامل وأحيانا تظهر بشكل كامل ، وأحيانا تلج على الفرد وأحيانا تظهر بسرعة وأحيانا ببطء ، فمثلا صور ما قبل النوم قد تظهر بشكل لا ارادى لكنها تكون شديدة الوضوح ، وقد تكون مختلطة وغير ذات معنى لكنها قابلة للتعرف والتحديد كخليط من أشكال محددة وذات معنى ، كذلك قد نحاول احسانا تذكر ملامح وجه كنا نعرفه أو حتى مازلنا نعرفه لكننا لا نستطيع ميمما بذلك من جهد ، وفجأة فى لحظات خاصة قد لا نكون قد تعمدا فيها أن نفكر فيه .

٦ - يختلف شكل الصور العقلية ومحتواها لدى كل فرد وفقا للخبرات السابقة التي مر بها وكذلك الموقف الحال الذي تظهر فيه هذه الصور كما انها تختلف من فرد الى آخر وفقا للميول والاهتمامات المتعلقة بنشاطات ترتبط أكثر من غيرها بالصور العقلية (كالفنون والآداب مثلا) وكذلك نتبجة الفروق في النشاطات الخاصة بالجهاز العصبي بين الأفراد .

٧ - نلعب الصور العقلية دورا هاما في اكتساب الطفل للغة في المراحل المبكرة من ارتقائه ، فخلال تعرض الطفل للموضوعات والوقائع العيانية الحسية الحركية يقوم هذا الطفل بتكوين مخزن داخلي من الصور ، ويمثل هذا المخزن جوهر معرفته عن العالم ، وتعتمد اللغة الى حد كبير ويتم بناؤها على هذا الأساس وتظل متداخلة متفاعلة معه ، رغم انها تقوم ببناء نظامها الخاص المستقل جزئيا بعد ذلك ، وتظهر شواهد في سلوك الطفل على أنه يعرف الأشياء مثل أن يعرف أسماءها ، ويدل ذلك على أنه قد قام بتخزين نوع من التمثيل للأشياء وتتم المضاهاة والمقارنة بعد ذلك بين هذه المادة التي تم تخزينها وتلك المادة الموجودة في العالم الخارجي البيئة المحيطة بالطفل ، ثم يستطيع هذا الطفل بعد ذلك أن يستجيب بشكل مناسب للاسم الخاص بموضوع ما ، حتى لو كان هذا الموضوع غائبا ، كأن يبدأ في البحث عنه ، مما يشير الى انبثاق أو ظهور العلاقة بين صورة ما وكلمة ما .

٨ - لا يتعرض الطفل خلال ارتقائه لموضوعات ثابتة أو ساكنة أو منفصلة فقط ، بل يتعرض أيضا لموضوعات متحركة وذات علاقات فيما بينها ، كما يتعرض أيضا للتتابع أو الترتيب أو النظام الخاص الذي يشتمل على هذه الموضوعات ، ويكون هناك قانون ما يجمع هذه النشاطات المتتابعة معا ، انها تميل الى التكرار من خلال مظاهر محددة ، فالناس يدخلون الغرفة من نفس الباب بنفس الطريقة ، ويتم التقاط الزجاجات أو الكوب بطريقة معينة ، وهكذا ، باختصار نوع من قواعد التركيب أو البناء أو « النحو » الخاص للوقائع الملاحظة كما يوجد نحو خاص في اللغة ، ويتم استدماج هذا الشكل من قواعد البناء ونظم التركيب داخل النظام التمثيلي الخاص بالصور العقلية في المخ ، ويتم اثرها هذا الشكل من خلال نشاط ومشاركة الطفل نفسه فيه ، فعندما يشارك الطفل في اللعب أو الكلام أو الضحك أو الأكل . الخ يكتسب المكونات والقواعد الداخلية الخاصة بهذه النشاطات أسرع من الطفل الذي يشارك فيها أو تتأخر مشاركته فيها ، من خلال ذلك يتعلم الطفل أسماء الأشياء

والوقائع وأسماء علاقاتها ، هذا التعلم يفسر بأنه يعنى أن الروابط قد تكونت وارتقت ما بين التمثيلات العقلية للموضوعات والنشاطات (وهذه التمثيلات هى بطبيعة الحال صور عقلية فى الغالب) وبين الاسماء الوصفية الخاصة بهذه النشاطات والعلاقات .

٩ - ترتقى هذه المرحلة الأساسية الأولى الى حد كبير عندما نكتسب الكلمات الدالة وكذلك عندما يتم تكوين شبكة داخلية مترابطة من العلاقات بين الكلمات ، ومن خلال الاستخدام والممارسة ، يتم فى النهاية الوصول الى المهارات اللفظية المجردة ومن خلالها يكون السلوك اللفظي متحرر نسبيا من الاعتماد على السياق العيني المحسوس المباشر ، وأيضا يكون هذا النشاط اللغوى مستقلا الى حد كبير عن الصور العقلية ، وعدم الوعى بهذه الشروط الخاصة بالاستقلال النسبى وكذلك الاعتماد المتبادل بين نظامى التفكير اللغوى والبصرى (الخاص بالصور) قد يؤدى ببعض المبدعين مثلا الى الاهتمام الزائد بجودة التعبير وصياغة العبارة وصحة الاشتقاق وغير ذلك من الشروط اللفظية للغة دون الاهتمام بالصور كأداة هامة فى جعل اللغة أكثر تمثيلا وتصويرا ومن ثم أكثر قابلية للفهم والاستيعاب ومن ثم المشاركة ، ولعل هذا يفسر علم فهمنا لكثير من الكلمات العربية القديمة المهجورة ، لاننا لا نفهم معانيها ، أى لأنه لا توجد فى أذهاننا صور عقلية مناسبة حولها ، كذلك فان البعض الآخر من الأدباء قد يستسلمون لفيضان من الصور العقلية التى تتدفق دون رابط أو علاقة نتيجة فقدان اللغة أو أداة التوصيل المناسبة ومن ثم قد يفقدون صلاتهم أيضا بالمتلقى ، ان الأمر يبدو لنا أقرب دقة حين نقول ان الصور تقوم بالربط بين الكلمات كذلك تقوم اللغة بالربط بين الصور ، فالعلاقة التفاعلية المناسبة اذن بين النظامين اللغوى والبصرى علاقة وثيقة وضرورية وهامة فى الابداع الأدبى بشكل عام .

ان جانباً كبيراً من المعرفة الانسانية يتم تخزينه فى النظام الخاص بالصور العقلية داخل المخ ، ويتكون هذا النظام من عمليات خاصة بتفسير وقائع العالم باعتبارها صوراً تقوم بحفظ المعلومات والخصائص الإدراكية حول الجوانب غير اللفظية من العالم ، والمعنى ومن ثم الفهم الكلى لأى موضوع أو رسالة أو ابداع أدبى أو فنى يتمثل فى تلك المعرفة التى نتمكن من الوصول اليها من خلال النظامين اللغوى والبصرى وكذلك العلاقات الممكنة بينهما (٢٧) ، اننا يمكننا استشارة صور عقلية لدى بعض الأفراد من خلال اشارات لفظية (كلمات معينة) لكن هذا لا يعنى بالضرورة

أن نكون هناك علاقات اتعاق تامة بين الكلمة (المثير) والصورة (الاستجابة) كما يمكننا انارة سلوك لفظي معين لدى الأفراد من خلال بعض الصور وكذلك لا نستطيع هنا ضمان التطابق أو التشابه ما بين النعبيات اللفظية والصور التي أنارتها ، ان جوهر العملية يكمن في المسافة الفاصلة بين ظهور المنبه وصدور الاستجابة ، أى فى قلب عمليات الفهم والتحويل والتمثيل الذى تحدث داخل مخ الانسان ، وفى مجال الابداع بشكل عام يكون هناك محاولة جادة من جانب الأدباء الحقيقيين لاجداث قدر من التسابه أو التناسب بين عمليات الادراك الخارجية للصور وعمليات تحويل هذه الصور داخليا ثم عمليات انتاجها بعد ذلك فى شكل أعمال لفظية بصرية تتسم بالابداع المتميز ومن ثم تكون قادرة على التأثير .

الصور العقلية والخيال والابداع :

الصور العقلية هى مصادر للالهام مثلها مثل القماش والأوراق التى يضع الفنان أو الكاتب عليها أفكاره ويقوم بالتجريب معها ومن خلالها ويقوم بتعديلها قبل أن يقوم بتنفيذها فى عمل ابداعى ، يختار المبدع الصور التى يمكن أن تحقق استبصارات ومعرفة أكبر لدى متلقيها ، وتلعب موهبة المبدع ومهارته دورا كبيرا فى تمكينه من تحويل ونقل ما يوجد فى عقله من صور وأفكار الى الورق ثم الى المشاهد أو القارئ . اذن تتكى موهبة الكاتب الى حد كبير على قدرته على تكوين وضبط واختيار وعرض الصور المناسبة التى تحقق المنعة والفائدة لدى القارئ ولعل هذا يظهر بشكل خاص خلال ابداع القصة القصيرة حيث يحتاج الكاتب الى الانتقاء والتحكم وصباغة وعرض الصور الأساسية فقط دون غيرها حتى يكون التأثير مؤثرا وفعالا كذلك فان الرؤية الشعرية والقدرة على رؤية القديم بطرائق جديدة أو رؤية الجديد بطرائق قديمة تعتمد الى حد كبير على التفكير من خلال الصور وعلى عمليات الخيال وتمثل الأقوال والمقتطفات التالية بعض النماذج فقط التى تشير الى أهمية الصور العقلية والخيال فى الفنون الابداعية الانسانية بشكل عام .

١ - عندما توصله أبواب العالم الواقعى يمكن أن يخلق الخيال عالمه الخاص ، ويمكن أن يستحضر الأشكال والتكوينات العظيمة وكذلك الرؤى التى تسحر الأبواب (ايرفينج) .

٢ - اننى أحيا فى قلب خيالى فانشئ موكبا من الصور المدركة (وولف) .

- ٣ - عليك أن تبذل الكثير كي تصبح شخصا خياليا . انك ترى الأشياء كثيرة ، ويمكنك أن ترى القبح وكذلك الجمال (اندرسون) .
- ٤ - هناك أشياء عديدة فى الموسيقى يجب نخبائها دون سماعها (باخ) .
- ٥ - « الموسيقى تنشر ومضات الصور » (نيتشه) .
- ٦ - العقل كالماء ، يستقبل ويعكس الصور (ارامز) .
- ٧ - الزمن هو صورة الابدية (عدد كبير من الفنانين والمفكرين) .
- ٨ - ان خياله يشبه أجنحة النعامة ، انه يمكنه من الجرى لكنه لا يمكنه من التحليق (ماكولى) .
- ٩ - الخيال هو عين كبيرة مفتوحة (فراى) .
- ١٠ - يتكون الانسان من جسم وعقل وخيال ، لكن خياله هو ما جعله مرموقا (ماسفيلد) .
- ١١ - فى خيال الانسان فقط تجد كل حقيقة وجودها الفعال والأكيد (كوفراد) .
- ١٢ - ما يقتنصه الخيال كجمال لابد أنه حقيقة (كيتس) .
- ١٣ - لا يرسم الفنان ما يراه ولكن ما يحب أن يجعل الآخرين يرونه (ديغا) .
- ١٤ - ربما كانت العلامة الأكثر تميزا للعقل الموسيقى هو القدرة على التخيل السمعى (سيشور) .
- ١٥ - أن تعرف ، ذلك لا شيء ، أن تتخيل ، ذلك كل شيء (أناتول فرانس) (٢٨) .

وتشتمل كلمة الخيال Imagination بداخلها فى الانجليزية على كلمة Image التى تعنى صورة عقلية وتفرض نظريات عديدة حول الابداع أن الصور العقلية توجد وتخزن فى العقل اللاشعورى وأن العقل الشعورى يصبح بعد ذلك واعيا بها ، ويفترض أن الصور اللاشعورية يمكن أن ترتبط من خلال تيار من الصور التى تتجاوز وتتركب وتنصهر معا لتكون أنماطا جديدة من الصور العقلية ، وأن الكثير من هذه النشاطات تحدث دون مجهود ارادى من وعى الفرد ، وتأتى الصور الجديدة الى الوعى

بأفكار جديدة ، أو اشراقات وومضات تحدث بغتة داخل الوعي العادي فتصيبه بالدهشة ، ويبدو أن هذه الحالات تحدث داخل حالة خاصة تسمى التهويم Reverie ، تشتمل حالة التهويم على الأحلام وأحلام اليقظة والاختيلة والرؤى والهلاوس وصور خيال ما قبل النوم وصور خيال ما بعد الاستيقاظ ، وكل هذه الحالات ذات علاقة وثيقة بالعمل اللاشعورى منها بالعقل الشعورى ويحتاج المبدع كى يستفيد من هذه الحالات أن يتسلح بحس وخيال وتصور بصرى استقبالى ومرن من خلال ذلك يستطيع أن يتحكم الى حد ما فى هذه التلقائية الشديدة المميّزة لصور الخيال والتهويم ومن خلال تحكمه الانتقائى المناسب هذا يمتلك بعض المصادر الضرورية لتغذية ابداعه بعد ذلك . ولأن الصور الابداعية كثيرا ما تأتى من الجانب اللاشعورى من العقل — كما يقول صمويل وصمويل — وهو الجانب الذى لا يخضع لسيطرة الأنا ، فإن العديد من الأفراد يشعرون أن مثل هذه هذه الصور تأتى تلقائيا ، انما تجيء من خارج أنفسهم ولهذا السبب شعر عديد من الفنانين أنهم يجب أن يخضعوا للدفاعات الابداعية الموجودة فى هذه الحالة أو بالأحرى ينتظرون فى حالة استرخاء حتى تتلبسهم هذه الحالة وتنسيطر عليهم ، وفى قلب هذه الأفكار تكمن بعض الأفكار الشائعة حول الوحي والالهام الذى اعتقدوا أنه يعجىء من الخارج ، من أعلى ، لا من الداخل ، من أعماق العقل والشعور (٢٩) .

أكد عالم البيولوجيا والفيلسوف الأمريكى سينوت E. W. Sinnott أن الابداع هو أحد التجليات الطبيعية للحياة ، واعتبر الخيال بمثابة قدرة الفرد على تصوير شيء ما بعين عقله ، شيء لم يره من قبل ولم يمر بخبرة خاصة معه . وأكد أهمية اللاشعور والعمليات المرتبطة به « ففى الأحلام وأشباه الأحلام يعنى العقل بحشد من الصور والاختيلة . . هنا تحدث الخبرات والمبول الخاصة المتعلقة بالكائنات الحية ، وأكثر من ذلك ، فأننى أعتقد أن القوى التنظيمية للحياة تقوم بتحويل الاختيلة اللاشعورية الطليقة الى أنماط منظمة ، ومن بين حشود الصور والأفكار يرفض العقل اللاشعورى بعض التركيبات باعتبارها غير هامة أو غير متألّفة ولكنه يرى الدلالة أو الأهمية الخاصة بتركيبات أخرى ، ومن خلال وسائل العقل الخاصة ، الوسائل التنظيمية العقلية والجمالية وربما الروحانية ، يتم تمهيز النظام عن الفوضى والعشوائية ، ومثلما تقوم العمليات الحيوية بتحويل الكائن الحى من مادة عشوائية غير متشكلة فى البداية الى مجموعة من الانظمة الخاصة من الابنية والوظائف المنظمة الخاصة بالجسم، فكذلك يقوم العقل اللاشعورى باختيار وتنظيم وربط هذه الأفكار والصور فى أنماط خاصة والتشابه بين العمليتين شديده القرب ، وما يجدر الاهتمام

به هو أن القوة التنظيمية للحياة تكشف عن نفسها في العقل وكذلك الجسد ، بالطبع يصعب كثيرا الفصل بين هذين المكونين المتلازمين ، وهذه القوة في حدها ذاتها عنصر ابداعي مميز ، ومن ثم أصبح الابداع خاصية للحياة (٣٠) .

يقول عالم النيورولوجيا جيرارد من جامعة ميثسجيان الاغلاقي هو خاصية أساسية للعقل ، انها القدرة على فصل الشكل عن الارضية ، والقدرة على تشكيل الصيغة الكلية المسماة بالجسطلت أو الشكل ، كذلك تحديد الهوية المميزة لموضوع ما . الاغلاقي اذن يمكن التفكير فيه على أنه تمثيل للفكرة ، صورة جديدة متألقة يتم تكوينها من صورة متنافرة ويعتقد جيرارد أن كل هذه الخطوات وكذلك الخطوة النهائية تشتمل على دورات خاصة بنشاط الخلايا العصبية ، هذه الدورات عندما تكتمل تحدث عملية الاغلاق وعندما تعجز عن الاكتمال يحدث التوتر الذي هو حالة تفصل ما بين الرغبة في الاكمال والاغلاق والعجز عن تحقيق هذه الرغبة ، ان هذا يعنى ان المخ ينشط كوحدة كلية كبيرة ، مجموعة من كتل الخلايا العصبية التي تنشط معا ، كل منها يشكل جزءا من نشاط دينامي متذبذب لكنه ذو طابع كلي « هذه الأوركسترا التي تغزف الأفكار والحقيقة والجمال والتي تخلق الخيال الابداعي » (٣١) .

في مقابل التأكيد السابق على عمليات اللاشعور نجد علماء آخرين يؤكّدون عمليات الشعور وهؤلاء غالبية العلماء المعاصرين خاصة ذوي التوجه السلوكي ، وفيما يلي هؤلاء وهؤلاء اتجهت مجموعة ثالثة الى التأكيد على أهمية ما قبل الشعور Subconscious باعتبارها المنطقة الواقعة بين الشعور واللاشعور ليست منطقة وعي كامل ولا منطقة لا وعي كامل ، ليست حاضرة تماما ولا غائبة تماما ، انها يمكن أن تستدعى وتستحضر عند الحاجة وبوسائل خاصة تختلف حولها الأدباء والعلماء ، وقد اعتقد العالم « رج » Rugg عام ١٩٦٠ أن هذه هي منطقة الحدس الحقيقي أنها تكون غالبا متحررة من سيطرة الرقابة والعقل الصارم الميكانيكي وانها تشكل الأرضية الأساسية للابداع ، تتميز هذه المنطقة من الوعي بحالة من الاسترخاء المتنبه أو التركيز المسترخي ، في هذه الحالة يحدث التوجه نحو الابداع ويرى المبدع الأفكار والصور كما لو كانت حقيقية ، خلال ذلك يقوم هذا العقل الخاص الذي اطلق عليه « رج » اسم « العقل عابر الحدود » متمسما بالحرية في الحركة دون رقابة الوعي الصارم ، انه يحيط بالصور ويقترّب من أبسط المعاني الرمزية لها ، هذه المعاني التي تمتزج فيها الصور بالرموز تكون البداية الحقيقية للابداع وحل المشكلات وعند تكتشف

هذه الصورة الرمزية تولد الفكرة وتحدث الومضة الابداعية التي يمكن أن ينفذ من خلالها عمل ابداعي جديد (٣٢) .

قال العالم « البرت اينشتين » انه اكتشف نظرية النسبية من خلال نصوره لنفسه راكبا شعاعا من الضوء ، وكتب اينشتين يقول انه يعتقد أن الكلمات لم تلعب دورا في تفكيره « فالوحدات النفسية التي يبدو أنها تخدم كعناصر في التفكير هي العلامات أو الاسارات المحددة وكذلك الصور العقلية الأقل أو الأكثر وضوحا ، هذه العلامات والصور هي إعادة انتاجها وتركيبها بطريقة ارادية » (٣٣) . وكتب المؤلف الموسيقي المعروف وولفجانج موزارت عام ١٧٨٩ في أحد خطابات « عندما أكون ، كما كنت ، أنا ذاتي تماما ، في حالة جيدة من البهجة ، مسافرا مثلا في عربة ، أو سائرا بعد وجبة جيدة ، أو خلال الليل عندما لا يستطيع النوم ، تكون هذه هي المناسبات التي تفيض فيها الأفكار بغزارة بداخلي ويقوم موضوعي (الموسيقي) بتوسيع حدوده الخاصة ، ويصبح محددا وكميا وله طريقته الخاصة في الأداء ، رغم أنه قد يكون مكتملا تماما ومنجزا في عقلي ، بحيث يمكنني أن أتجول بذهني عبره بنظرة واحدة ، كما لو كان لوحة جميلة أو تمثالا عظيمًا ، انني لا أسمع أجزاء العمل داخل خيالي بشكل متتابع ، بل أسمها كلها ، كما كان الأمر دائما ، الكل في لحظة واحدة » (٣٤) .

في خطاب كتبه تشايكوفسكي عام ١٨٧٨ ذكر فيه أن « بذرة العمل الموسيقي الذي يكتمل بعد ذلك ، تأتي فجأة وبشكل غير متوقع ، انها تضع جذرها الخاص بقوة غريبة وبسرعة . . يحدث ذلك وبشكل متكرر خلال حالة شبيهة بالمشي أثناء النوم » وقال فان جوخ « ان اللوحات تأتي الى كما تأتي الأحلام » . وقال د . هـ . لورنس (الكاتب الانجليزي) « الفن هو شكل من الوعي المرهف ، ويجب أن تأتي الصور من داخل الفنان ، ان الصورة كما توجد في الوعي هي التي تعيش كرؤية ، لكنها تكون مجهولة (٣٥) وكتب المشال الانجليزي هنري مور « أن المشال يصنع الأشكال الصلبة - كصور - داخل عقله - انه يتصور عقليا شكلا مركبا من كل ما يحبط به ، ويعرف عندما ينظر الى أحد الجوانب ما يوجد عند الجانب الآخر ، ويقوم بتوحيد نفسه مع مركز جاذبية الشكل وكتلته ووزنه ، انه يدرك حجمه باعتباره الفراغ الذي سيحتله الشكل في الهواء » (٣٦) .

قام الشاعر صمويل بتلر كولريدج كذلك بوصف كيفية كتابته لقصيدة « كوبلانخان » فقال بأنه أصيب ليلة بوعكة صحية فتناول أحد

مشتقات الأفيون ثم استغرق بعد ذلك فى النوم فى مقعده فى نفس الوقت الذى كان يقرأ فيه مقطعاً من Purchase's Pilgrimages ، هنا كان الخان كوبلا يأمر ببناء قصره ، واستمر كولريدج فى نوم عميق حوالى ثلاث ساعات ، على الأقل بالنسبة لحواسه الخارجية ، خلال تلك الفترة كان على ثقة شديدة الحيوية ، بأنه لم يؤلف أقل من مائتى أو ثلاثمائة بيت شعري (٣٧) .

يشير كل ما سبق الى أن الفنون تقدم للناس صوراً عقلية ربما لم يتمكنوا من المرور بخبرات خاصة بها دون الفن ، انها تجعلهم يرون (أو يسمعون أو يشعرون) العالم بطريقة جديدة وبالنسبة لمؤرخى الفن والنقاد وعلماء الجمال فإن الصور التى يقدمها الفن هى وجهات نظر حول العالم والذات تمثل زماناً ومكاناً خاصاً لكنها مع ذلك ذات دلالات انسانية وعالمية عامة .

نظر المحللون النفسيون الى الصور العقلية والاختيلة الفنية على انها تقوم بوظيفة التطهير وخفض التوتر من خلال تأثيرهم الواضح بأفكار أرسطو القديمة حول التعاطف والشفقة خلال التفاعل مع الأعمال الدرامية بما فيها الشعر ، ان هذه الصور العقلية التى تتحول الى صور فنية تقوم فى نظر علماء التحليل النفسى وعلماء علم نفس الأعماق بأشباع الرغبات اللاشعورية وبالنسبة للعلماء ذوى التوجهات الاجتماعية والانثروبولوجية فإن البيئة الاجتماعية تقدم الإلهام والصور العقلية بالنسبة للفنان ومن ثم تضع الحدود الخاصة للصور العقلية والخيال لدى المستمعين أو المشاهدين أو القراء ، مع ذلك فإن الدراسات الميدانية أو الامبيريقية حول الصور العقلية لم تضيف سوى القليل الى معرفتنا حول الفنون وهكذا فنحن نجد دراسات كثيرة مكثفة نشطة حول التمثيل الحسى للمدخل الخاص بالصورة (أو الأيقونة كما تسمى فى بعض الدراسات) ثم عمليات تشغيلها وتخزينها واستعادتها فى الذاكرة لكن هناك أعمالاً قليلة جداً حول وجود الصور العقلية ووظائفها الهامة فى الفنون ، أو حول الصور التى تستثيرها الفنون لدى القراء أو المشاهدين أو المستمعين ، وحول دور الصور العقلية فى الاستجابة التذوقية الجمالية ، بدلا من ذلك نجد حكايات قصصية أو ذكر عابر للصور العقلية (أو غيابها) فى بعض الاضاءات الفنية التى تركها لنا فنانون أمثال ورد زورث وكولريدج وادجار آلان بو وليوناردو دافنشى وفاجنر وغيرهم .

لكننا نجد خارج نطاق الدراسات السيكولوجية بعض الدراسات المدرسية أو النقدية أو الفلسفية شديدة الأهمية حول الخيال ، من ذلك

مثلا دراسة أديسون J. Addison المسماة «مسررات الخيال The Pleasures of Imagination» التي تحدث فيها عن أهمية الخيال في الفنون وقد ذكر فيها مثلا أن «هوميروس تميز خياله وامتاز خيال فرجيل بالوصول الى كل ما هو جميل ، وامتاز خيال أوفيد بالوصول الى كل ما هو جديد ، أما ميلتون فتفوق خياله في الجوانب الثلاثة السابقة : الجلال والجمال والجددة . وناقش أديسون كيف تستطيع الانماط المختلفة من الفن والشعر أن تحدث المتعة من خلال الصور التي تستثيرها لدى متلقيها ، والفروق بين الصور التي تستثيرها الأعمال الفنية والصور التي تستثيرها موضوعات الحياة اليومية الأخرى ، وأكد أن الأعمال الفنية تختلف فيما بينها بمقدار ما تستطيع أن تستثيره من صور وأخيلة وقال العالم الطبيعي والشاعر والناقد وعالم التربية برونوفسكى Bronowski ، ان التخيل معناه تكوين الصور وتحريكها وتحويلها داخل عقل المرء للوصول منها الى تنظيمات جديدة » واعتبر برونوفسكى الخيال هو الجذر المشترك الذي ينبثق منه العلم والفن معا وينموان ويزهران ، ولا يكون الخيال أكثر حرية في الفن عنه في العلم أو العكس فالخيال يحتاج الى أن يكون حرا ومن ثم فان برونوفسكى يعاود التفوق بمقولة بليك ما يتم اثباته الآن (في العلم) كان قد سبق تخيله (في الفن) ويعبر العالم عن خياله - يقول برونوفسكى من خلال التجربة ، أما الفنان فيعبر من خلال القماش في المجالين وتقدم الانسان يحتاج الى التعاون المستمر بين هذين المجالين (الكانفاس) أو الأداة الموسيقية أو الورقة والعلم في العلم يتم اختبار التجربة من خلال مقابلتها أو مجابته بالخبرة الطبيعية أما في الأدب فان التصور المتخيل يتم اختباره في مواجهة أو مقابل الخبرة الانسانية (٣٨) رغم أهمية هذه الآراء والتعليقات الأدبية والنقدية والفنية حول الصور العقلية والفنون فانها تتسم ببعض عدم الدقة حيث انها تستخدم المعاني الموضوعية والشكلية والأدبية والحسية والرمزية والاستعارية والمجازية وغيرها بطريقة تتسم بانها فضفاضة وواسعة ومن ثم فقد تركت العلاقات بين الصور العقلية والخيال وبين الخيال والتفكير غامضة ومضمرة وغير واضحة . ومع ذلك فالأمر الواضح في الفترة الأخيرة من تاريخ العلم هو أن العديد من هذه الأفكار والآراء بدأت تخضع للفحص العلمي المنظم في اطار علم النفس المعرفي الحديث كما تمت إعادة النظر في عديد من المفاهيم التحليلية النفسية المبكرة حول أحلام اليقظة والرموز والأحلام من خلال وسائل جديدة في المعالجة ، ومع ذلك ظل هناك تجاهل أو تناس أو عجز واضح عن معالجة موضوع الصور العقلية والخيال في الكتابات النقدية والأدبية والجمالية داخل هذه الحركة السيكولوجية المنتشرة في السنوات

الأخيرة ، لكننا يمكن أن نلمح بذور بعض الاهتمام في بعض الدراسات التي بدأ يتردد صداها في السنوات الأخيرة والتي نعرض لدراسة واحدة منها هنا ببعض الاختصار .

الصور العقلية لدى هرمان ملفيل : نموذج تطبيقي :

وفقا لعديد من الدراسات فإن الأفراد المبدعين يميلون الى أن تكون لديهم درجة عالية من التخيل والصور العقلية ، هذه القدرة تنبه وتدفع وتغذي وتنظم الأفكار الأصلية .

قام ماكيلر بالتمييز بين صور الخيال وصور الذاكرة وبين الصور الارادية والصور اللارادية وبين الصور البصرية والصور اللفظية (التي تعتمد على الايقاع والوزن في حالة الشعر مثلا أو تتابع المقاطع أو تقطعها أو عمليات الحوار في الأنواع الأدبية النثرية .

تستند شهرة هرمان ملفيل – الكاتب الأمريكي الشهير – ككاتب على استخدام العديد من الصور الوصفية والحية . تمت الدراسة التي قام بها مارتين لنداور باستخدام أسلوب تحليل المضمون على اثنتين من أعماله الروائية هما « موبى ديك وبيير » وقد كتب في فترتين مختلفتين من حياة ملفيل ، فقد كانت حياته المبكرة مليئة بالمظاهرات والخبرات الحية في البحار والمحيطات في تلك الفترة كتب موبى ديك ، أما بعد ذلك وفي فترة متأخرة من حياته أصبح ملفيل أكثر تأملا وأكثر اعتمادا على استبطائه لذاته في كتاباته وخلال ذلك كتب روايته « بيير » ، وهي الرواية الوحيدة لديه التي لا تستند على البحار كإرضية تقوم عليها الرواية . تم اختيار صفحة من كل عشرين صفحة من رواية « موبى ديك » و صفحة من كل خمس عشرة صفحة من « بيير » (والاختلاف في العينة المختارة يرجع الى اختلاف طول الحجم الكلي لكل رواية على حدة) و تم تحويل الجمل الموجودة في هذه الصفحات الى رموز تشير الى الاحالات الحسية (البصرية – السمعية – اللمسية . . الخ) المختلفة الموجودة في الروايتين وتم وضع علامات على الجمل التي تشير أكثر من غيرها في هذه الصفحات الى الاحساسات المختلفة الخاصة بالتذوق ، الابصار ، الرائحة ، اللمس ، الصوت . وتم تصنيف هذه الجمل واحصاؤها من خلال اثنتين من المحكمين ، وعندما كان يتم ذكر أكثر من حاسة أو أكثر من صور حسية في الجملة الواحدة ، كان يوجه الاهتمام الأكبر الى خصائص الصور التي ترد وتتكبر أكثر من غيرها في نفس الجملة وتم من خلال ذلك حل بعض الخلافات بين المحكمين فيما عدا

حوالى ٤ ٪ من الجمل موضوع الدراسة حيث لم ينحقق اتفاق مناسب بينهما حول كيفية تصنيف هذه الجمل ومن ثم استبعاد هذه الجمل من التحليلات ومن أمثلة الجمل التي خضعت للتحليل « القرية ٠٠ لم يكن لها طعم مقبول » أو « الحيتان ذات الرائحة الكريهة » من رواية « موبى ديك » وكذلك « لم يحو الخطاب أية اجابة دافئة » و « كاد لهبه الحار يحيط بى » .

وقد وجد « لنداور » Lindauer وهو من قام بهذه الدراسة أن هناك ٣٧٦ اشارة حسية من هذا النوع فى عينة الدراسة التى قام بدراستها والمأخوذة من الروايتين منها ١٩٢ اشارة فى رواية موبى ديك و ١٨٤ اشارة فى رواية بيير ويعرض الجدول رقم (١) العدد والنمط الخاص بكل اشارة حسية فى الروايتين ، ويشير هذا الجدول كذلك الى عدد هذه الاشارات فى كل قسم من أقسام كل رواية على حدة ، وكان هذا التقسيم الآخر بمثابة المراجعة لمدى ثبات المحكمين فى تصنيف المادة ، حيث ان تحديد قيم الصورة الحسية فى نصفى كل عمل يجب أن يكون متشابهة اذا كانت طريقة اعطاء الدرجات متسقة ، واستخدمت هذه الدرجة أيضا لقياس مدى تماثل أو تشابه أسلوب المؤلف (أو استخدامه للكلمات) فى الأجزاء الأولى والأخيرة من العمل ولم تكشف الدراسة عن وجود فرق دال بطريقة جوهرية بين استخدام ملفيل للاشارات والصور الحسية فى نصف كل عمل على حدة ، أما الاختلاف الواضح بين الروايتين فظهر بشكل خاص فى طبيعة أو نمط الاشارات والصور الحسية المستخدمة ، فقد كانت الاشارات والصور البصرية فى « موبى ديك » أكثر من مثيلتها فى « بيير » بينما كانت الصور اللمسية والعضلية فى « بيير » أكثر من مثيلتها فى « موبى ديك » وفى كل رواية كان الاختلاف أو البروز واضحا بالنسبة للصور والاشارات اللمسية والبصرية عن غيرها من الاشارات والصور فى كل رواية .

كانت رواية « موبى ديك » باشاراتھا العديدة الى البحر وألوانه أكثر بصرية من رواية « بيير » ومن ثم اشتملت على صور بصرية أكثر ، وعلى العكس من ذلك كانت رواية بيير رواية أكثر تأملية واستبطانية ، فقد كان ملفيل يشير فيها كثيرا الى حاسة اللمس .

(أو ما يسمى أحيانا بحاسة القرب ، أو حاسة الأشياء القريبة على عكس الأبصار الذى يمكن تسميته حاسة الأشياء البعيدة) ، وقد وجد المؤلف صعوبة فى تفسير التشابھ بين الروايتين فى الاشارات والصور السمعية والشمية والتذوقية رغم أنها أيضا حواس خاصة بالأشياء

القريبة) ويختتم الباحث دراسته بأن يشير الى اهمية دراسة أعمال أخرى للمفيل من فترات مختلفة لفحص عمليات التغير في استخدام الكاتب لاشارات حسية معينة ومن ثم صور حسية وعقلية معينة في فترات مختلفة من حياته ، ويشير الباحث أيضا الى أهمية دراسة الاشارات والصور الحسية المختلفة لدى أدباء عديدين من نفس الفترة أو من أصحاب نفس المدرسة أو الاسلوب ومن أصحاب مدارس وأساليب أخرى لمعرفة التشابهات والاختلافات بين هؤلاء الكتاب وهذه المدارس والأساليب .

ويؤكد في النهاية أهمية اسلوب تحليل المضمون في القيام بمتل هذه الاجراءات مشيرا الى أنه حتى مجرد احصاء الكلمات الحسية في النص الأدبي يمكن أن يتسم بالثبات المرتفع بالأهمية الكبيرة لكن مع ضرورة وضع الابعاد والمكونات الأخرى للعمل الأدبي في الاعتبار أيضا (٣٩) .

جدول رقم (١)

ويوضح الاحالات الحسية في روايتين لهرمان ملفيل

(Lindauer, 1982, p. 486)

الرواية	الاحالة الحسية	الشمية	اللمسية	الدوقية	البصرية	السمعية	الدرجة الكلية
موبى. دينسك							
النصف الأول	٣	٢٣	—	٤٩	١٧	٩٢	
النصف الثاني	٦	٢١	٣	٥٦	١٤	١٠٠	
العدد الكلي	٩	٤٥	٣	١٠٤	٣١	١٩٢	
(%)	%٥	%٢٣	%١	٣٤	%١٦		
بيير							
النصف الأول	٢	٤٣	٢	%٥٥	١٤	٩٥	
النصف الثاني	١	٣٨	—	٣٥	١٨	٨٩	
العدد الكلي	٣	٨١	٢	٦٨	٣٢	١٨٤	
(%)	%١	%٤٤	%١	%٣٧	%١٧		

خاتمة :

فى السنوات الأخيرة أصبحت هناك مناقشات متزايدة حول دور نصفى المخ فى التفكير بشكل عام والابداع بشكل خاص ، فالابداع هو عملية يترتب عليها ظهور شىء جديد ومناسب ، ويؤكد خبراء دراسات الابداع أن العملية الابداعية تتطلب نشاط نصفى المخ معا بشكل متكامل . تعرف الصور الخيالية بأنها النشاط الخاص بالتمثيل التخطيطى Schematic الداخلى للأشياء وكذلك عملية تحويل هذه التمثيلات الداخلية وإنتاجها ، وترتبط الصور العقلية بشكل خاص بنشاط النصف الأيمن من المخ .

هناك شواهد متزايدة على أن وظائف نصفى المخ : الأيسر والأيمن هى وظائف مختلفة ، فالنصف الأيسر تحليل بينما النصف الأيمن كلى أو تركيبى ، النصف الأيسر يقوم بدور كبير فى النشاطات الخاصة بالكلمات والاعداد بينما يقوم النصف الأيمن بالعبء الأكبر فى النشاطات الخاصة بالصور ، وتكون العمليات الخاصة بالنصف الأيسر متسلسلة ومتعاقبة ، بينما تكون العمليات الخاصة بالنصف الأيمن متوازية متزامنة تتم فى نفس الوقت ، ويبدو أنه من المقبول أن نقول أن النصف الأيسر من المخ هو الخاص بالعمليات الواقعية ، أى بالبعد الواقعى الخاص المحدد من حياة الانسان ، بينما النصف الأيمن قد يكون هو الأكثر ارتباطا بالعمليات المجازية الانفعالية وربما البدائية من نشاطات الانسان ، النصف الأيسر هو المتحكم فى عمليات التخاطب اللفظى اليومى مع الآخرين ، بينما النصف الأيمن هو مصدر التخیلات والأحلام . ومن ثم يمكننا استنتاج أن الأشخاص الذين يكون سلوكهم متسما بسيادة النشاط اللفظى التحليلي يميلون الى أن يكونوا خاضعين لسيطرة النصف الأيسر من المخ ، بينما الذين يفضلون الاهتمامات الكلية فى التفكير والنشاطات يميلون الى أن يكونوا خاضعين لسيطرة النصف الأيمن من المخ ، عندما نضع الفروق بين الرجال والنساء فى الاعتبار ، فإن نظريات عديدة تفترض أن وظائف نصفى المخ قد لا تكون بمثل هذا التخصص أو الانفصال ، فمثلا تعد القدرة الخاصة بادراك المكان من المهام الأساسية للنصف الأيمن ، والقدرة اللفظية من المهام الأساسية للنصف الأيسر ونحن نجد أن النساء أقل مهارة بشكل عام فى المهارات المكانية ، ويفسر بعض الباحثين ذلك من خلال الزيادة الواضحة فى النشاطات اللفظية لدى الاناث عنها لدى الذكور ، هذه الزيادة موجودة أصلا فى المخ وهى تنتشر من النصف الأيسر الى النصف الأيمن فتعوق بعض نشاطاته خاصة النشاطات المكانية ، لكنها تعرض هذه الاعاقة

على كل حال من خلال تلك المهارات اللفظية الواضحة التي تظهر في نساطات الاناث وسلوكياتهن ، ونجد تأييدا لهذا الرأي أيضا في تفضيل الرجال للأعمال المتضمنة بعض العمليات الخاصة بالنشاطات البصرية المكانية بينما تفضل النساء الأعمال اللفظية أو الكلامية (٤٠) . وقد ظهرت مناقشات عديدة حول دور كل من نصفي المنح في عملية الابداع ، وبشكل عام تميل الآراء الى الاتفاق على أن الابداع يتطلب نشاط نصفي المنح ، الأيسر والأيمن معا ، فالشعر مثلا ابداع باللغة التي هي من وظائف النصف الأيسر ، لكن هذه اللغة تستخدم أساسا للتعبير عن انفعالات وصور وأخيلة وأحلام ، وهي من نشاطات النصف الأيمن ، وتزداد ابداعية الشاعر بمقدار تمكنه من احداث التكامل الخلاق بين هذين المكونين الأساسيين للابداع الشعري : اللغة والصور . نفس الشيء يمكن قوله بالنسبة للرواية والمسرح والقصة القصيرة ، ففي ابداع هذه الأجناس الابداعية يحتاج المبدع الى احداث تكامل خلاق أيضا بين الصور واللغة ثم تأتي بعد ذلك بعض الحيل والأدوات الفنية التي تفرق بين جنس أدبي آخر ومع الوعي بأن الشعر قد يتميز بالوزن والايقاع ، فان هناك بعض القصص الحديثة تستلهم هذا الخيط الشعري وتدمجه في بنيتها الأساسية ، بحيث أصبحنا نسمع الآن عما يسمى بالقصة القصيرة ونسمع أيضا عن الحكاية والدراما في الشعر ، كما أصبح بعض الأدباء يتحدثون عن « الكتابة » وعن « النص الجديد » أكثر من حديثهم عن جنس أدبي بعينه ، وذلك اتفاقا مع ما قرره لوكليزيو حين قال « الشعر ، الروايات ، الأقاصيص ، هي أثريات غريبة لم تعد تخدع أحدا ، أو تكاد . قصائد ، حكايات ، ما الفائدة منها ؟ لم يبق سوى الكتابة » (٤١) .

بشكل عام تفترض الدراسات السيكولوجية الحديثة حدوث التكامل بين النصفين الأيسر والأيمن ، أو اللفظي والبصري من المنح خلال الابداع ثم يحدث الخلاف بعد ذلك بين العلماء في تفسير ما اذا كان نشاط أحد النصفين يسود ويتفوق على نشاط النصف الآخر خلال أنواع معينة من الابداع هو في حقيقة الأمر يتضمن عجزا عن احداث التكامل بين هذين وأن عجز بعض الأعمال الابداعية أحيانا عن الوفاء ببعض الشروط المطلوبة الابداع ، أم أن الابداع الجيد غالبا ما يتضمن تكاملا بين هذين النشاطين ، النشاطين بطريقة ابداعية بحيث يسود أحدهما على الآخر فيظهر التفكير مثلا والتشوش اذا ساد النشاط البصري الخاص بالصور والأخيلة على النشاط اللغوي الخاص بالألفاظ والكلمات ، وقد يحدث هذا أحيانا عندما يسود الاتجاه الابداعي دون وجود الحرفية أو الصنعة الكافية ، بينما قد تؤدي سيطرة الصنعة أو اللغة دون وجود الجانب البصري التصويري الصوري

المناسب الى سيادة التكلف والتزين الخارجى ، ان الجانب البصرى خاص بالصورة وخاص بالعاطفة وخاص بالباطن ، بينما الجانب اللغوى خاص بالايقاع وخاص بالانتساج والتنفيذ والتوصيل والتعبير ، والتكامل بين هذين الجانبين امر ضرورى وحاسم فى شتى النشاطات الابداعية الانسانية وفى النشاطات الفنية والأدبية منها بوجه خاص .

ان الخيال بما يشتمل عليه من صور هو القطب الآخر الهام فى البعد الثنائى الخاص بالواقع / الخيال الذى تشتمل عليه حياة الانسان ، وهناك أمثلة لاستخدام الصور العقلية والخيال ، وقد تحدث رايل Ryle عن الانسان عندما يقول انه « يستخدم خياله » أو « يفكر بطريقة خيالية » ، فان ذلك قدم معنى شيئا واحداً من أشياء عديدة يمكن أن يقوم بها البشر ، فالشاهد فى المحكمة قد يبتكر حكاية محكمة ثم يقوم القاضى باختبار هذه الحكاية فى ضوء الادلة الخاصة بالقضية التى ينظرها ، والعالم المبسك الذى يجرب آلة جديدة قد يستمع لآراء ونصائح عديدة من زملائه عن امكانات تحسين هذه الآلة أو استخدامها ، والكاتب القصصى قد يستطرد فى الخيال فى قصته الرومانسية ويتابعه القراء فى ذلك ، والممثل الذى يقوم بأداء دور معين قد يقوم بذلك بطريقة خيالية تمتع المشاهدين . ان كل هؤلاء الناس يستخدمون خيالهم ، وكل هذه النشاطات الخاصة بالابتكار والفعل وقراءة الأدب القصصى ، والذهاب للمسرح والسينما الخ. تتضمن نشاطات خاصة باستخدام الصور والخيال وكذلك المشاركة فى الصور والخيال ، والكثير من منتجات الانسان الصناعية (الملابس والأثاث والأجهزة والآلات الخ) والمنتجات الفنية (اللوحات ، التماثيل ، المؤلفات الموسيقية ، والأعمال الأدبية) هى أمثلة لمنتجات العقل الانسانى الابداعى وهو ينتج من خلال الصور والخيال ، اننا كثيراً ما نستخدم الخيال عندما نحاول رؤية أشياء « بعين عقولنا » بحيث نرى ما هو موجود الآن عند مستوى الادراك الحسى . فيمكننا أن نرى البيت الذى عشنا فيه فى طفولتنا وما كانت عليه القاهرة مثلاً (أو بغداد أو دمشق الخ) فى ثلاثينات هذا القرن) . ويمكننا أن نتخيل أيضاً ما لم نره فى الماضى ، كبنف كان برج بابل ، وكيف كانت الحداثق المعلقة فى بابل فى الماضى ، وهذا النوع من التصور والتخيل شديد الأهمية كما يؤكد علماء النفس ففيه يمكن أن توجد الأنواع المختلفة من الصور العقلية البصرية أو السمعية وغيرها . وما يمكن أن يتخيله المرء يمكن تمثيله فى شكل كلمات (منطوقة أو مكتوبة) أو من خلال وسائط الرسم والتصوير أو من الهمهمة أو الصفير أو الغزف على البيانو الخ .

ان هناك مرحلة أخرى فيما وراء حدود الخيال التي حددها علماء مثل ماس Mace ورايل Ryle كما يقول طومسون Thomson على انها تتعلق بالتفكير الاجترارى Autistic thinking ، انها تأخذ أشكال التخيل والتهويم وأحلام اليقظة والترابطات التي تحدث فى التفكير الاجترارى الذى تم النظر اليه على أنه يتحدد كلياً من خلال منبهات داخلية (حاجات - رغبات - صراعات) باعتبارها متميزة عن المنبهات الخارجية فى الخيال يستثار اللعب الحر من خلال منبهات خارجية خاصة ، من خلال مشكلة أو مهمة محددة ، وهكذا يوجد عامل ما « للتحكم » فى الخيال يتم خفض القيمة التأثيرية للمتطلبات المباشرة للبيانات الادراكية ، وتتوقف البيئة الفيزيائية والاجتماعية عن أن تكون ذات الأهمية المركزية وتصبح الأهمية الكبرى للعب الخيالى الخاص بالتداعيات الحرة والامتزاج الحر ما بين عناصر الادراك الخارجية والداخلية ، وقد يستخدم بعض الكتاب خلال ذلك بعض المواقف الادراكية المألوفة لهم لحفز عملية التنبيه الخيالى، فقد يستخدم الكاتب بيته الخاص كموقع للاحداث أو يستخدم كاتب آخر شخصاً يعرفه كشخصية أساسية فى قصصه التى تعتمد على الخيال (ومثال ذلك شخصية الدكتور واطسون فى قصص شرلوك هولمز لمؤلفها الانجليزى السير آرثر كونان دويل) وقد يحدث ذلك فى الرسم والنحت والموسيقى أيضاً وهكذا فان الخيال يساهم فى الابداع الفنى بطرائق عديدة ، والأحلام والصور بأنواعها المختلفة وكذلك عناصر الخبرات الادراكية التى يتم تذكرها كلها قد تستخدم كمادة لتطوير مواد أخرى جديدة يتم استخدامها فى الأعمال الابداعية ، ان التفكير « الخيالى » بمعنى الاستخدام الماهر المغامر الفردى لمهارات المرء وقدراته ومواهبه فى تنفيذ عمل معين يشكل - بطريقة واضحة - جانباً هاماً مما نقصده بالابداع ان دور الخيال فى الابداع هو دور أساسى ، لكن الحديث عن هذا الدور ليس من الأمور السهلة .

وربما كان فيما قاله الشاعر الانجليزى ستيفن سبندر S. Spender بعض الاقتراب من هذا الدور ، لقد تحدث سبندر عن أن الابداع هو « أن يكون المرء هو ذاته بكل قدراته وادراكاته ، محتشداً بكل المهارات التى اكتسبها » (٤٢) ان هذا القول ربما كان يشير الى حالة الانغماس الشديد والانهماك فى العمل الفنى وكذلك حالة الصديق مع الذات والصديق فى التعبير عن هذه الذات خلال النشاط الابداعى ، ذلك النشاط الذى قد يمتد ليشمل حالة أخرى مرتبطة بالاستغراق فى العمل ومفارقة له أحياناً ،

الا وهى ذلك النشاط العقلى الخاص المتميز المتعلق بتنشيط كل امكانيات
التصور والخيال . وهو نشاط شديد الأهمية فى ابداع القصة القصيرة .

على كل حال ، هذه وغيرها موضوعات ومواد للخبرة الانسانية يمكن
أن تكون مفيدة الى حد كبير فى اثراء عمليات الكتابة والابداع الفنى بشكل
عام ، والكتابة والابداع الأدبى بوجه خاص .

الفصل الرابع

العملية الابداعية في القصة القصيرة
(تصور خاص)

القسم الأول :

نحو البحث عن منطق لاستخدام التحليل العامل (كاسلوب احصائي) فى تحليل العملية الابداعية

مقدمة :

ركزت البحوث التى أجريت على القدرات الابداعية باستخدام منهج التحليل العامل أغلب جهودها فى محاولة وجود هذه القدرات وتأكيد وجودها ثم تبين مقدار هذا الوجود مع اشارة - عابرة فى أحيان كثيرة - الى أن قدرة كذا تفيد فى وظيفة كذا وأنها تختلف عن القدرات الأخرى فى كذا وكذا لكنها لم توجه اهتماما مناسباً - على قدر علمنا - لدراسة الطرق التى تسلكها هذه القدرات فى محاولتها تحقيق أهداف معينة ، أى تلك العمليات والنشاطات والوظائف التى تقوم بها هذه القدرات لكى تؤدي دورها ، وما سبق ذكره لايعنى أن دراسات الابداع أهملت مفهوم الوظيفة عموماً ولكن يعنى أنها تعاملت معه تعاملًا محدوداً ، تعاملًا جزئيًا براجماتيا مما أفقد معالجاتها له للكثير من الحسوبة والثراء السيكلوجى ، وقد أكد هذا بولتون حين ذكر أن علماء النفس قد ساروا فى اتجاهين متميزين وهم يدرسون التفكير الابداعى : الأول هو دراسة العملية الابداعية ، والثانى دراسة الفروق الفردية فى القدرة الابداعية « ولم يحدث تفاعل متبادل بين هذين المجالين كما هو متوقع » (١) .

وسنحاول فيما يلى أن نستعرض مفهوم العامل ثم مفهوم العملية والعلاقة بينهما ثم نحاول تقديم اقتراح خاص بكيفية الربط بينهما من خلال اسلوب التحليل العامل .

أولا : مفهوم العامل :

الانجاء السائد في معظم دراسات القدرات يتجه الى اعتبار العامل مرادفاً للقدر ، لكن على أساس أن « كلمة قدرة هنا بمعنى وظيفة وليس بالمعنى القديم المرادف لكلمة ملكة الذي يتضمن الفطرية والانعزال عن غيرها (٢) ، وقد اعتبر بعض العلماء العوامل هويات فعلية أو وظائف سيكولوجية قابلة للتحديد ، وإذا وجدنا وظيفة سيكولوجية موحدة فإن هذا يكون بسبب وجود وحدة فسيولوجية أساسية خاصة بها داخل المخ ، وقد ظهر هذا الرأي عند بيرت سنة ١٩٤٤ (٣) وظهر كذلك لدى ايزنك H. J. Eysenck الذي مال الى اعتبار العوامل ذات هويات حقيقية ، فهو يقول « العصائية ليست تخليقا أو بدعة احصائية وهي كذلك أحكمت عهدا تحكميا للتصنيف ، فانها حقيقة بيولوجية » (٤) .

أما في الطرف الآخر فنجد طومسون H. A. Thomson الذي قال بأنه من غير المناسب افتراض قدرات متكاملة تتفق مع العوامل ، فالعقل في رأيه أكثر تعقيدا ، وهو كل متكامل يعجز أي تحليل رياضي عن التعبير عنه بدقة تامة ، فهو يتميز بالشراء والتعقد الذي يجعل من الصعب التمييز بين مكوناته العديدة ، وفسيولوجيا يمكن اعتباره شبكة معقدة من امكانات واحتمالات الاتصالات الداخلية ولذلك فقد اعتبر طومسون العوامل « معاملات رياضية وصفية تتفق مع الاختبارات والعينات المستخدمة » (٥) .

وقد لاحظ البورت G. Allport العديد من العوامل يفشل في أن يكون له معنى سيكولوجي محدد ، ولذلك يمكن اعتبارها تخبقات رياضية واعتبرت أنسنازي A. Anastasi العوامل تعبيرا رياضيا مقيدا عن اتجاهات الارتباطات (٦) وتطور الرأي عند بيرت باعتبار العوامل مبادئ للتصنيف ، وعارض الاستخدام الذي يماثل بينها وبين الأسباب المموسة أو العيانية سواء بمصطلحات الملكات أو الطاقة Energy أو القدرات Entities أو الهويات Abilities أو السمات Traits وأصر على أن العمل لا يمثل مكونا من مكونات الفرد ، ولكنه مكون محدد Abstract Component يزودنا بإطار ملائم للوصف (٧) ونجد رأيا مشابها لذلك عند جيلفورد ، فالعوامل عنده هي تجر بدات لمكونات من النشاطات الكلية (٨) وعند كرونباخ وميل P.E. Meehl « فمن الأفضل النظر الى العوامل باعتبارها أطرا مرجعية عامة موجودة بطريقة ما في مجال معين من السلوك » (٨) وعند فروكتر B. Fruchter

الذى قال بأن « العوامل ليست وقائع داخلية ، ولكنها تخدم فقط لتمثيل الأساس المسئول عن التباين الذى يلعب دوره فى مجموعة من الدرجات أو غيرها من البيانات التى لوحظت تحت مجموعة من الشروط المحددة » (٩) . وقد اقترح كوان R. W. Coan حلا للخلافات القائمة بين أنصار اعتبار العوامل هويات حقيقية ، وأنصار اعتبارها معاملات رياضية وصفية - فقال بأنه قد تكون هناك بعض القيمة من استخدام مصطلح « عامل آ » Factors عندما نتكلم عن الجانب الاحصائي من العامل ، مصطلح « عامل ن » Factorp حين نتكلم عن الجانب السيكولوجى منه ، ورغم تشككه فى أن هذا الاقتراح سوف يحظى بقبول عام ، إلا أنه رأى أنه يجعل التواصل أسهل بين العلماء .

وحين تحدث جيلفورد عن عوامل الابداع فى اطار حديثه عن « تصور بناء العقل » Structure of intellect model استخدم مفهوم السمة لكى يشير به الى « المتغير الذى يختلف عليه الأفراد وبطريقة منتظمة، والذى يتعلق ببعض الخصائص التى يمتلكها الأفراد عموما ، ولكن بدرجات مختلفة ، كما أن هذه الخصائص تتعلق أيضا بطريقة توظيف Functioning هذه السمات أو القدرات ، ومن ثم فقد تزودنا بمفهوم مناسب لوصف الطريقة التى يعمل بها الفرد » (١٠) .

« والعوامل تبعا لذلك عندما يتم تفسيرها سيكولوجيا يمكن أن ندركها على أنها طرق يختلف عليها الأفراد وكذلك يتشابهون من خلالها ، وهى يمكن أن تمثل نوعا من الواقع السيكولوجى ، ولذلك فإنها يجب أن تشتق من البحوث المصممة بعناية ، فهى ليست مجرد معاملات احصائية » (١١) . لكن الجانب الثانى من تعريف جيلفورد للعوامل أو للقدرات ، والخاص « بطريقة توظيف هذه القدرات » وفائدتها « فى تزويدنا بمفهوم مناسب لوصف الطريقة التى يعمل بها الفرد » لم يوجه اليه الاهتمام الكافى والمناسب ، بمعنى أنه لم يختبر ولم يحلل وظيفيا وبدرجة كافية على عمليات الابداع الفعلية ما دمنا نتعامل مع وظائف ، فالمرونة التلقائية Spontaneous Flexibility مما عرفت بأنها والقدرة أو التهيؤ Disposition الذى يمكن الفرد من انتاج مجموعة كبيرة ومختلفة من الأفكار مع التحرر من القصور الذاتى أو التماذى ، أما المرونة التكيفية Flexibility Adaptive فتظهر فى تلك المشكلات التى تتطلب ، فى الغالب - نمطا غير عادى من الحلول ، وهى تسهيل عملية الوصول لحل المشكلات ، وقد تبدو المشكلة قابلة للحل بواسطة الأساليب التقليدية والمألوفة ، ولكن هذا لن يفيد هنا » (١٢) أى أن هناك :

مرونة تلقائية — تحرر من القصور الذاتى — مجموعة كبيرة من الأفكار المختلفة وهناك

مرونة تكيفية — تحرر من استخدام الأساليب المألوفة — حلول غير عادية هكذا فقط ودون تفسير لكيف يحدث ذلك من خلال العمليات النفسية المختلفة ما دمنا نتعامل مع كائن حى نشط متفاعل مبدع ومتطور ومطور لواقعه ، مفهوم الوظيفة استخدم اذن للتأكيد على بعض جوانبه مع اغفال الجوانب الأخرى ومنها الجوانب الدينامية والخصبة أو الشرية له ، ان الوظيفة قد تستخدم للإشارة الى :

١ - العملية التى تدركها بوصفها متميزة عن عناصر الإدراك مثل وظيفة العين فى القيام بالرؤية ، أو بوصفها متميزة عن الناتج النهائى لها مثل وظيفة الغدة الدرقية « Thyroid Gland » فى افراز التيروكسين Thyroxine ، وهذا التمييز لا يعنى الانفصال فهناك وحدة واضحة بين البناء والوظيفة « (١٣) » .

٢ - وقد نعنى بالوظيفة الدور الذى تلعبه عملية معينة فى عملية أكثر منها اتساعا ومن أجل التوافق مع البيئة أو النشاط المميز لجزء معين من الكائن فى علاقته بالكائن ككل (١٤) .

٣ - وقد نعنى بالوظيفة « وهنا تستخدم بمعنى « دالة » القيمة التى تعتمد على قيم الكميات الأخرى التى تسمى بالمتغيرات المستقلة » (١٥) فالوظيفة قد تعنى نشاطا (التنفس ، التفكير) وقد تعنى فائدة هذين النشاطين (فائدة التنفس فى أكسدة الدم ، وفائدة التفكير فى حل المشكلات) ، وقد نعنى بها كمية متغيرة تعتمد قيمتها على القيم المعطاة لواحد أو أكثر من المتغيرات المتضمنة (١٦) ورغم كل هذه الأبعاد الثرية والمتنوعة لمفهوم الوظيفة فإن ما حدث حتى الآن فى أغلب الدراسات العلمية بالابداع هو الاقتصار على الجانب البراجماتى للمفهوم (فائدة المرونة التكيفية مثلا فى الوصول الى حلول غير عادية للمشكلات) مع تضمين المعنى الرياضى فى المعنى البراجماتى (اذا زادت المرونة التكيفية زادت إمكانية الوصول الى حلول غير عادية للمشكلات وقلت كمية اللجوء للأساليب المألوفة) أما الجانب الثالث وهو جانب العمليات والنشاطات أو الوظائف المتفاعلة فلم يوجه اليه سوى النزر اليسير من الاهتمام ، فمثلا كيف يتم التحرر من القصور الذاتى ؟ وكيف يتم انتاج الاستجابات الأصلية ؟ لا شئ يذكر هنا غير اشارات عابرة معطاة فى شكل تعميمات

أو تجريدات لنشاطات، مثل اللف أو الدوران حول الهدف ، بغير وجهه النظر ٠٠ الخ ، ويبدو ان المماثلة بين الانسان والحاسب الالكتروني كانت ذات تأثير كبير على تفكير جيلفورد كما اعترف هو بذلك (١٧) . بل لقد ذكر ان الفارق الوحيد بينهما هو أن الحاسبات الالكترونية لا تبحث بنفسها عن المعلومات ، وتناسى أهمية الجوانب الدافعية والمزاجية والبيئة وتأثيرها على التفكير الانساني ، وكان وكأنه يتعامل مع الانسان المجرد ، الانسان كما يجب أن يكون ، وليس كما هو كائن بالفعل ، ويبدو أن وعيه بهذا القصور هو ما جعله يقترح في مقالة مبكرة ما سماه باسم علم النفس العامل *Factorial Psychology* والذي أكد أنه مشابه للسلوكية في تأكيدها على الموضوعية ، ولكنه مختلف عنها في عدم تأكيده على الرابطة « منبه - استجابة » فقط ، بل أنه من المأمول فيه أن يقدم لنا هذا العلم تصورا لما يحدث بين ظهور المنبه وصدور الاستجابة ، ان علم النفس العامل هو مثال لعلم النفس الوظيفي التقليدي ، بمعنى أنه على علم النفس العامل أن يمتد الى المنطقة الدينامية من السلوك ليستكشفها بأسلوب جديد أكثر ملائمة مما هو متاح الآن (١٨) .

وقال بأنه من المحتمل أن نستنتج طرقا وظيفية تتفق مع العوامل المستخرجة ويكون ذلك من خلال الكائن أثناء نشاطه ، ومن ثم نضع بعدا بين العوامل والوظائف .

هذا عن العوامل بوصفها فئات أو تكوينات تصنيفية لمجموعة من الظواهر ، فماذا عن العمليات ؟

ما هي العملية :

عرفت العمليات على أنها نشاطات (١٩) وعرفت أيضا بأنها « أي تغير أو تغيرات في موضوع ما أو داخل الكائن مع ضرورة أن تكون هناك خاصية متسقة محددة لها ، أو اتجاه يمكن تبينه ، والعمليات بمعنى آخر هي ما يحدث ، ومن ثم فهي تتقابل مع الشكل أو البناء » (٢٠) فالعملية تشير الى أي تغير في موضوع أو كائن ، خاصة التغير السلوكي أو الفسيولوجي ، وهي تشير كذلك الى الطريقة التي يحدث بها هذا التغير (٢١) .

فمفهوم العملية يشير اذن الى سلسلة من النشاطات المنتظمة الموجهة نحو هدف ، أو هي نشاط متصل أو هي سلسلة من التغيرات تأخذ شكلا معيناً فهي شيء ما يحدث ، ويشير الى سلسلة من الخطوات المتتالية والمتصلة

والتي يتم الوصول عن طريقها الى هدف معين (٢٢) . « والعملية هي نشاط للكائن يشمل العقل ، وظواهر الحياة العقلية (٢٣) والعملية كما يعرفها سبنس K. Spence هي « استجابات مفترضة ، وغير ملاحظة ، عمليات ضمنية تحدث داخل الفرد » (٢٤) وقد استخدم مكجوجان F. McGuigan مفهوم « العمليات العقلية » لكي يشير به الى النشاط العصبي العضلي ، لكنه فضل استخدام مفهوم العمليات المضمرة Implicit Processes للإشارة به الى العمليات العقلية (واللغوية منها بصفة خاصة) التي تحدث بين ظهور المنبه وصدور الاستجابة ، وحاول تفسير التفاعلات بين هذه العمليات بناء على مفهوم الدوائر العصبية Mental Circuits المعقدة ، وعرف الاستجابة الضمنية على المستوى النظري بأنها « تكوين فرض Hypothetical Constructs تم تحديده وفقا للاجراءات الكلاسيكية كما ظهرت لدى هل C. Hull وتولمان E.C. Tolman ، (٢٥) أما جيلفورد فعرف العمليات بأنها نشاطات ، وقال بأن نظام وضع العمليات على مكعبه الخاص ببناء العقل كان على أساس منطقي بحت ، أي بدءا من اكتشاف المعلومات (المعرفية) وانتهاء باختبار المعلومات (التقييم) فعامل مثل معرفة التحويلات الرمزية Cognition of Symbolic (CST) Transformation هو عامل له وضعه الخاص في « بناء العقل » (٢٦) وليس هناك تفسيرات كافية عن كيفية حدوث هذه المعرفة أو الوصول الى هذه التحويلات الرمزية ، ويبدو أن مفهوم « بناء العقل » قد امتد لدى جيلفورد لكي يشمل بدلالاته البنائية مفهوم العمليات الوظيفية .

ومما سبق ذكره يمكننا القول بأن العملية النفسية هي فعل أو نشاط ، ارادي أو لا ارادي - يحدث داخل الانسان - أو يقوم به الانسان في الخارج - ويترتب عليه حدوث تغير أو تحول في مضمون - أو شكل - الجانب الذي تحدث فيه العملية ، أو تحدث من خلاله - أو في كليهما - وقد يكون هذا التغير ملاحظا أو غير ملاحظ ، وفي الحالة الأخيرة يمكننا الاستدلال على حدوثه من مؤشرات خارجية نلاحظها أو يقررها لنا الانسان الذي تحدث بداخله هذه العمليات ، ويترتب على أية عمليات كبيرة تغيرات واضحة في مضمون وشكل التفكير والسلوك ، وغالبا ما تكون العملية موجهة نحو هدف معين .

وترتبط العمليات وظيفيا فيما بينها ، وقد تقوم عملية ما في وقت ما بدور المتغير المستقل ثم بدور المتغير الوسيط وقد تكون متغيرا تابعا بعد ذلك ، ويشترك في أداء عملية كبرى عمليات أخرى أصغر منها ، وهذه يشترك في أدائها عمليات أصغر وهكذا ، وتتباين العمليات فيما بينها سواء من حيث الهدف ، أو الشدة ، أو المدة ، أو الانتشار .

بين العمليات والعوامل :

العمليات كالعوامل ، هي تكوينات نظرية نستخدمها من أجل الوصف والتفسير للبيانات والنشاطات الحادثة في مجال معين من الملاحظات الخاصة بالسلوك الانساني مما يعطى امكانية للضبط والتنبؤ ، والتكوين عموما هو « مفهوم يستخدم عمدا أو يبتكر ويتبنى لغرض علمي خاص . وقد يتوسع العلماء في استخدامه فيسمونه متغيرا (٢٧) وحين نتعرض لمفهوم العمليات الخاصة بالابداع لابد أن نلجأ الى مفهوم المتغيرات الوسيطة Mediating Variables والذي اقترحه روزبون Rozebone لكي يشمل كل المتغيرات التي تقع داخل الكائن سواء كانت تكوينات فرضية أو متغيرات متداخلة Intervening Variables (٢٨) .

والجدير بالذكر أن ماكوركوديل وميل Macorquodile & Meehl قد ميزا في مقالة شهيرة لهما بين المتغيرات المتداخلة والابنية أو التكوينات الفرضية على أساس أن الأولى لا تتضمن أية كلمات غير قابلة للاختزال الى قوانين كمية ، كما أن صدق القوانين فيها هو أمر ضروري وكاف من أجل الناكد من صحة ما يتم تقريره بشأن المفهوم ، وأيضا فإن التعبير الكمي عن المفهوم يمكن الوصول اليه بدون اشتقاق وسيط وبالتجميع المناسب للقوانين الأمبيريقية ، أما التكوينات الفرضية فاعتبرت مصطلحات غير قابلة للاختزال التام الى مصطلحات أمبيريقية ، وهي تشير الى عمليات أو هويات لا تلاحظ مباشرة رغم أنها ليست بالضرورة غير قابلة للملاحظة ، كما أن الشكل الكمي للمفهوم لا يمكن الوصول اليه ببساطة عن طريق تجميع الوظائف الأمبيريقية (٢٩) ونفس الوجهة من النظر تقريبا نجدها لدى ألفن ماركس M. Marx الذي اعتبر المتغير المتدخل تكوينا له درجة عالية من الصدق الاجرائي المباشر ، أما التكوين الفرضي فهو تكوين يتسم بأنه ذو درجة أقل نسبيا من الصدق الاجرائي لكنه - أي ماركس - اتخذ موقفا أقل صرامة من ماكوركوديل وميل فيما يتعلق بإمكانية الفصل التام بين هذين النوعين من المفاهيم ، فقال بأن الفصل بين هذين النوعين من التكوينات هو أمر في منتهى الصعوبة في كثير من الحالات (٣٠) .

أما كريش D. Krech فقد مال الى اعتبار التكوين الفرضي مشيرا الى نسق من الوقائع العصبية « فالتكوين الفرضي يشير الى بناء يفترض وجوده فعلا ويمكن أن نصفه فعلا من خلال التجريب المباشر . . . ومن خلال التاريخ المتعاقب للتنبيه والاستجابة فان وظيفة التكوين تتداخل بين المنبه والاستجابة (٣١) .

العمليات اذن هي تكوينات فرضية نفترضها ونستخدمها في تفسير الوقائع السلوكية غير الملاحظة والتي قد تكون مسئولة عن عديد من الأشكال السلوكية الملاحظة وغير القابلة للملاحظة ، وعموما فان الأساس الوحيد الصادق الذى يمكن على أساسه أن نقبل أو نرفض التكوينات الفرضية هو - كما يقول ماركس - مدى نجاحها أو فشلها فى تمكيننا من القيام باختبارات أمبيريقية لها ، والنتائج التجريبية لا ينظر اليها على انها مؤيدة لهذه التكوينات ما لم يكن الصديق الاجرائى لها متزايدا ومرتفعا (٣٢) .

وفى ضوء معادلتين شائعتين فى علم النفس ، الأولى هي التى قدمها كلارك هل لشرح مفهوم المتغيرات الوسيطة (*) والثانية هي معادلة كومنج وسكوينفيلد W. W. Cumming & W. N. Schoenfield لتحليل عملية الادراك (**) يمكننا - دمجا بين هاتين المعادلتين - أن نقترح المعادلة التالية لتفسير التفاعل بين العمليات الابداعية :

$$A - F - (X) - F - b(a) - F - (X_1, X_2, \dots, X_n) - F - B.$$

على اعتبار أن $A -$ هي الشروط أو الظروف السابقة سواء كانت متغيرات محددة قبلا كالسن والجنس والثقافة والوضع الاقتصادي الاجتماعي وسمات الشخصية بالقدرات العقلية ، أو كانت هي المتغيرات البيئية الفيزيائية أو الاجتماعية الخارجية أما $F -$ فتعنى أنها - أى هذه الشروط السابقة - ترتبط وظيفيا بعمليات وسيطة - سواء كانت متغيرات متداخلة أو تكوينات فرضية - غالبا ما تكون ذات خصائص عصبية وعضلية وحسية وهذه ترتبط وظيفيا فيما بينها وتؤدي الى حدوث عمليات الادراك البصرى ، السمعى .. الخ ونرمز لها بالرمز $b -$ وهذه العمليات تقوم بدور المثيرات أو العمليات المنبهة $a -$ التى ترتبط وظيفيا بعمليات أخرى تشكل عمليات للعملية الابداعية (X_1, X_2, \dots, X_n) وهذه بدورها ترتبط وظيفيا بالسلوك $B -$ أو الشروط اللاحقة أو

-
- (*) $A - F - (X) - F - B$ Where :
 $A =$ Antecedent conditions
 $F =$ Functionally related to ...
 $X =$ Intervening Variable
 $B =$ Consequent Conditions.
- (**) $S - R_1 - R_2$ Where :
 $S =$ Stimulus event
 $R_1 =$ The perceptual response.
 $R_2 =$ The reported response.
- (*) وصيغة هذه المعادلة هي :
الشروط أو الظروف السابقة
ترتبط وظيفيا
المتغير المتداخل أو الوسيط
الظروف أو الشروط التالية أو اللاحقة .
- (*) وصيغة هذه المعادلة هي :
الواقعة المنبهة
الاستجابة الادراكية
الاستجابة الخارجية .

الاستجابة الابداعية وهذا التصور يمكن تخيل أنه يصدق على العمليات الفرعية للعملية الابداعية - كل على حدة - كما أنه يمكن أن يصدق على العملية الابداعية كعملية كلية .

وعموما - كما يذكر رويس J. R. Royce - « فانه يمكننا القول بأن العامل هو متغير أو عملية أو محدد يفسر التباين في مجال محدد من الملاحظات (٣٤) على أن هذا القول لا يمكن أن نأخذه على إطلاقه فالعلاقة بين العوامل والعمليات يمكن النظر اليها على أنها علاقة عام بخاص أو علاقة شامل بمحدد ، العام هو العامل والخاص هو العملية ، الشامل هو العامل والمحدد هو العملية ، العامل هو فئة تصنيفية تضم تحتها العديد من العمليات المتقاربة في أهدافها وطبيعتها ، والعوامل كالعمليات يمكن اعتبارها متغيرات تنوسط بين متغيرات المنبهات ومتغيرات الاستجابات فنحن نشق هويات وظيفية تكون محددات للتباين المشترك في نمط الاستجابات ، وهذه المتغيرات الوسيطة قد تكون متغيرات متداخلة أو تكوينات فرضية ويعتمد هذا على عمق نفاذها في الشبكة المعرفية (*) (وفقا لمفهوم فايجل) بمعنى أنه كلما اقتربنا من الواقع الأميريقي ، كانت متغيرتنا متداخلة ، وكلما توغلنا أكثر في أعماق الشبكة المعرفية كانت متغيرتنا تكوينات فرضية .

هذا التفسير نفسه يمكن محاولته على عمليات العملية الابداعية. فالعمليات الابداعية التي تقترب أكثر من مجال الملاحظة المباشرة والتي تعتمد أكثر من غيرها على الاتصال بالبيئة الخارجية كعمليات المراقبة والالتقاط أو غيرها من العمليات الادراكية ، وكذلك عمليات التنفيذ والتقييم والتعديل والاتصال بالجماعة السيكلوجية ، كلها عمليات موجهة للخارج وأكثر قربا من غيرها بالواقع الأميريقي ومن ثم يمكن اعتبارها متغيرات متداخلة ، أما عمليات أخرى مثل التركيز ، الغلق .. الخ فيمكن اعتبارها تكوينات فرضية على اعتبار انها أكثر بعدا عن مجال الملاحظة الخارجية وهناك فئة أخرى يمكن أن نعتبرها تقف في منتصف الطريق بين المتغيرات المتداخلة والتكوينات الفرضية هي العمليات التي تتراوح بين الداخل والخارج العمليات التنظيمية التي يختص أحد جوانبها بالبيئة الخارجية والجانب الآخر المبدع ذاته ونعني بذلك عمليات الاعداد بأنواعها الثلاثة ، على أن الشيء الجدير بالذكر هو أن الفصل التام بين المتغيرات المتداخلة أو التكوينات الفرضية أو غيرها هو أمر في منتهى الصعوبة

(*) الشبكة المعرفية هي نسق القوانين المكونة لنظرية ما .

بل قد يستحيل تحفيقه فى مجال شديد التفاعل والتركيب مثل مجال العملية الابداعية .

وتلخيصا لما سبق نقول بان العمليات كالعوامل يمكن اعتبارها متغيرات بسيطة - متدخلة او فرضية - تقوم باحداث التكامل بين المنبهات والاستجابات ، او بين الشروط اللاحقة للابداع ، والعوامل والعمليات غير القابلة للملاحظة المباشرة ولذلك فمنه نستدل على وجودها من خلال بعض المؤشرات السلوكية ، ونستخدمها فى الوصف والتفسير من اجل الفهم الاكثر تنظيما لمجال معين من السلوك الانسانى ، والفرق بينهما هو فرق فى العمومية ودرجة الشمول ، العوامل أكثر عمومية من العمليات ويمكن اعتبار أن بعض العمليات متغيرات تساهم فى صنع مجال خاص بعامل معين اذن هى بمثابة أعضاء فى اطار أكبر يضمها هو العامل ، ومن هنا يمكن أن نتحدث عن عمليات عامل معين ، أى العمليات التى تساهم فى تكوينه أو التى يمكن تفسيره على أساسها ، وكون العامل - وكذلك العمليات - تكوينات نظرية مفترضة لا يعنى بأى حال من الأحوال أنها لا تتصل بظواهر السلوك ، ان أكبر دليل على وجودها هو وجود السلوك الذى نفترض أنها تؤدي اليه وتؤثر فيه (تنظيميا) أكثر من غيرها ، بالعوامل والعمليات تمثل نوعا من الواقع السيكولوجى الذى يجب أن نحاول تحديده بطريقة ملائمة ، ولكى تصل الى العوامل التى هى مركبات كان لابد لها من البدء بالعمليات التى هى بمثابة عناصر لهذه المركبات . ان من أعظم مميزات التفشيت الاجرائى لموقف ما ، ان ذلك يحوله الى وصف مختزل لما يحدث فعلا . . الى شئ يحدث فعلا ، أو يتم القيام به ، ومن ثم فهو يشتمل على خاصية صدق الخبرة الفعلية « (٣٥) ، أى أننا نبدأ بعمليات تحليل « للعمليات » ثم نتقدم نحو القيام بعمليات تركيب لكى نصل الى « العوامل » ويتم ذلك لنا من خلال اسلوب التحليل العاقل ، الذى يقوم على أساس مبدأ « تبسيط وصف البيانات ، باختزال أو تقليل العدد الضرورى من المتغيرات أو الأبعاد » . (٣٦) فالتحليل العاقل كما يذكر فيرجسون G. Ferguson « يستخدم عادة فى البيانات التى يصعب التمييز فيها بين المتغير المستقل والمتغير التابع ولذلك فهو يهتم بدراسة العلاقات المتبادلة بين المتغيرات ، واكتشاف تركيبات هذه العلاقات » (٣٧) .

ان أهم الوظائف التى يقدمها لنا التحليل العاقل هى أنه يساعدنا على تصنيف العدد الكبير من المتغيرات الى عدد قليل من العوامل أو الأبعاد مما يسهل عمليات الوصف والتفسير لما يحدث فى مجال معين من الظواهر

الانسانية أو الطبيعية وعمليات التصنيف ليست مجرد اجراءات تجرى لتجميع المنغرات المنسابة ، انها قد تكشف عن عديد من العلاقات الخفية والهامة والقابلة للتطوير فى شكل فروض يمكن التجريب عليها .

وفى العلوم البيولوجية مثلا ، فان من أهداف عمليات التصنيف أن تظهر علاقات الدم الفعلية بين الحيوانات ، وليس مجرد تصنيفها بطريقة مناسبة ، ومن ثم فان التصنيف الجيد يمكن أن يساهم فى الكشف عن قوانين الوراثة والنطور (٣٨) . و أى تصنيف لمجموعة من الظواهر فى مجال من مجالات الحياة أو الطبيعة يكون أمرا لا مبرر له ما لم تكن هناك خلفية نظرية توجهه وترشد خطاه . . . فهو ليس تصنيفا فى الفراغ ، فالتصنيف الكيميائى للمواد ، كان يمكن اعتباره أمرا عقيما دون نظرية كيميائية توجهه ، وقد كان هذا التصنيف ممكنا فقط فى ظل تمييز بويل Boyle بين العناصر والمركبات ، وفى ظل نظرية لافوازييه Lavoisier عن الأكسجين ثم نظرية دالتسون الذرية (٣٩) .

ان التحليل العاى الجيد هو فحص تجريبي جيد (٤٠) « وهو قد يكون اسلوبا هاما فى الاسراع بعملية صياغة الفروض المعقولة الجديدة بالاهتمام ، وفى نبذ الفروض الرديئة » (٤١) وفى الدراسة الحالية تمت اجراءات التحليل العاى على عينة الكتاب الذكور فقط (وعددهم ٤٥ كاتباً) ولم نضمن عينة الكاتبات الاناث (وعددهن ٥ كاتبات فقط) وذلك لتأكيد كير من الباحثين على أهمية تجانس العينة فيما يتعلق بمنغرات الجنس ، السن ٠٠ الفخ . (٤٢ ، ٤٣) وذلك لتحقيق أكبر قدر ممكن من الضبط لمتغيرات التحليل ، ولجعل تفسير النتائج ميسورا بأقل درجة من الابهام أو الغموض .

القسم الثانى : العمليات الابداعية :

١ - العمليات الدافعية

تشير بحوث الابداع واعترافات المبدعين الى أن هناك فئتين من الدوافع يمكن افتراضهما لدى المبدعين هما :

(١) فئة الدوافع العامة :

وشبه الدائمة والمستمرة وأهمها : الدافع الابداعى ، أى رغبة المرء فى أن يكون مبدعا وأصيلا . وهو دافع يسم المبدع فى جميع خطواته

وتصرفاته وقد لا يفارقه حتى وهو لا يفكر فى فكرة بالذات يريد تحقيقها
« فكثيرا ما يقال ان الحافز أو الرغبة لدى المرء فى أن يكون مبتكرا هى
المكون الرئيسى فى الابتكار » (٤٤) .

وقد أكد أهمية هذا الدافع الكثير من الكتاب والفنانين فكافكا
F. Kafka مثلا يقول « اننى أكتب بالرغم من كل شئ ، وبأى ثمن ،
فالكتابة كفاحى من أجل البقاء » (٤٥) .

ويقول هنرى ميلار H. Miller يجب أن أعترف بأننى كنت
مدفوعا للكتابة ، حيث انه قد ثبت لى أن هذا هو المنفذ الأوحده المفتوح
أمامى ، وهو وحده العمل الذى يستحق أن أكرس له كل قواى . . . ولم
تكن الكتابة بالنسبة لى هروبا من الحياة بل هى انغمار فى حوض ماء
مالح آمن . . . انغمار الى المصدر حيث الحياة تتجدد بصفة دائمة وحيث
الحركة سمردية وهائلة (٤٦) .

ويؤكد بيكاسو « اننى لا استطيع أن أعيش دون أن أكرس حياتى
كلها للفن . . اننى أعشقه كغاية نهائية لحياتى . . وكل شئ أفعله يتصل
بالفن يعطينى احساسا بالسرور الذى لا حده له » (٤٧) .

أما فرتهيمر فقد عبر عن أهمية هذا الدافع بقوله : « فى العمق تكون
هناك الرغبة ، التشوق لمواجهة القضية الحقيقية » (٤٨) ويمكن افتراض
وجود دوافع ابداعية عامة أخرى كالدافع الى المعرفة وحب الاستطلاع ،
والحاجة الى التقدير والرغبة فى تحقيق الذات فقد أكد روجرز أن
« الأشخاص المحققين لذواتهم هم أشخاص مبدعون ، وهم عادة ما يفهمون
أنفسهم والعالم المحيط بهم ويذهبون الى ما وراء الحاجات الأساسية . .
والى مستوى أكثر ارتفاعا من الوعى » (٤٩) ولكن يمكن النظر الى الدافع
الابداعى على أنه يوجد لدى المبدعين الحقيقيين الذين يكونون على وعى
بامكاناتهم وطموحاتهم ولذلك فهم يسخرون كل تلك الامكانيات لتحقيق
هذه الطموحات أما الدافع لتحقيق الذات فيمكن أن يوجد لدى أى انسان
سواء كان مبدعا حقيقيا – أى له انتاج ابداعى متحقق – أو كان غير ذلك ،
أى أنه يمكن القول بأن كل مبدع حقيقى هو انسان محقق لذاته ، ولكن
ليس كل محقق لذاته يعد مبدعا ، بمعنى أن الذى يوجه كل جهده الى أن
يحقق المال والثروة أو المنصب ، قد يكون فى وصوله اليها تحقيقا لذاته ،
ولكن هذا لن يجعلنا نسلم بأنه انسان مبدع ، فتلك قضية أخرى .

(ب) دوافع أو حالات خاصة :

وهي السى يسنيرها موضوع أو موقف أو منبه معين قد يكون مصحوبا بحالة من الفلق أو غير ذلك من الحالات وقد يكون للمبدع موقف أو رأى حيال موضوع معين ، وقد يكون هذا الموضوع مفضيلا أو مكروها منه ومحاولات التخلص من هذه الحالات المؤقتة أو التعبير عن هذه الأفكار أو الانجهاات أو المواقف الملحة هي التعبيرات الابداعية عن تلك الدوافع الخاصة وهنا نجد تحديدا وتخصيصا وتعلقا بموضوع محدد بعكس الدافع الابداعي الذى هو أكثر عمومية واستمرارا فى أغلب المواقف والخبرات ، وكتعبير عن مثل هذه الدوافع أو الحالات المؤقتة قال كافكا « أود اليوم أن أنزع من نفسى بالكتابة ، كل حالة القلق فأنقلها من أعماقى الى أعماق الورق » (٥٠) ويقترب التصنيف المطروح هنا - الى حد ما - من تصنيف برلين D. E. Berlyne للدوافع الى تهيؤات دافعية (٥١) Motivational Disposition وحالات دافعية Motivational States ومع ذلك لا يتطابق هذا التصنيف مع تصنيف برلين . فالأخير كان معنيا فى المقام الأول بالحديث عن الدوافع عموما ، دون تحديد للابداعية منها أو غير الابداعية ، بينما محور الاهتمام هنا هو الدوافع الابداعية العامة والخاصة فالدوافع العامة تشير الى المبدع أكثر من اشارتها الى عمل ابداعي محدد ، بينما تشير الدوافع الخاصة الى المبدع فى عمل ابداعي بعينه ، وقد تظل الدوافع العامة ممتزجة بالدوافع الخاصة خلال كل حالات العملية الابداعية وبأشكال مختلفة وقد يؤدي غياب التوازن بينهما أو كون الدافع الابداعي العام كبيرا وعميقا ، وكون الحالات الخاصة أو الكفاءة الانتاجية سلبية أو ضعيفة الى احداث تأثير تدميرى واضح على المبدع كما هو الأمر فى حالة همنجواى E. Hemingway وحين يكتمل العمل الابداعي قد تتوقف الدوافع الخاصة أو تختفى أو تنخفض مؤقتا ، بينما قد تظل الدوافع العامة تمارس دورها كإرضية مشتركة تبنى كل عملييات الابداع التى يقوم بها المبدع وفى كل سلوكياته .

قال يوسف ادريس فى أحد الأحاديث حول أهم أهداف أو دوافع الكتابة لديه : « هدفى هو تحريض الشخصية المصرية على القوة : على التغلب على ما فيها من تناقضات وازدواجية ، هدفى هو تحريض المصرى على الثورة على الفيود التى فرضتها عليه رواسب الماضى ، وأمنيتى أن أرى الانسان المصرى قد كسر الجانب العبودى من شخصيته ، وأصبح حرا فى فكره وفى فهمه لمعطيات الحياة . . وطبعا العيوب الشخصية للفرد تنعكس

على المستوى الاقتصادى والاجتماعى والفكرى للمجتمع من أجل هذا.
أكتب ، (٥٢) .

٢ - عمليات الاعداد الأول :

قد تظهر الأفكار الجديدة فجأة ، ولكن جذور هذه العملية لا بد ان تأخذنا بالضرورة الى تاريخ حياة صاحبها وخبراته ونعاملاته مع الواقع والحياة فالمبدأ القائل بألا شئ ينتج من لا شئ ينطبق أيضا على التفكير الأصيل (٥٣) . فومضة واحدة من الالهام لم تنتج سيمفونية من سيمفونيات بيتهوفن أو موزارت أو نشايكوفسكى أو ريمسكى كورساكوف ، أو لوحة من لوحات بيكاسو أو سيزان أو ديغا أو قصة من قصص موباسان أو تشيكوف أو كاترين مانسفيلد ، أو غير ذلك من النوانج الابداعية من الفروع المختلفة من الثقافة الانسانية « فهناك الكثير مما يحتاجه المبدعون كى ينتجوا مثل هذه الأعمال ، الكثير أكثر من الابداع نفسه ، فلا بد من امتلاك أصول الفن فى تطبيق القواعد المناسبة للشكل الفنى ، ولا بد من وجود القدرة على الضبط والتحليل للوصول الى التوازن والتأثير ، وهناك أيضا العمل الشاق من أجل وضع كل الأجزاء غير المترابطة فى مؤلف واحد وكلى » (٥٤) .

فالابداع لا بد له من اعداد جيد وممران مستمر وجهد عسيف فى التدريب واكتساب المهارات اللازمة كى يصير المرء قادرا على تشكيل أفكاره وتحقيقها فى مجال معين ، أى أن « الاعداد لبزوغ هذه الحال ، لا يكون الا بالسعى الحثيث المتواصل » (٥٥) .

ويؤكد ترومان كابوت هذا فيقول ان الكتابة لها قوانينها الخاصة التى يجب أن يتعلمها الكاتب ثم ينظمها بطريقة الخاصة (٥٦) ويشير موم الى أهمية أن يستوعب الكاتب أساليب الكتاب الذى يحبهم ثم يكشف بعد ذلك عن أسلوبه الخاص . وقد تحدث ماركيز عن التأثيرات الكبيرة التى كانت لحكايات جدته ولكافكا وفوكنر وهمنجواى وجراهام جرين وغيرهم من الكتاب عليه (٥٧) .

ان أهم ما يحدث خلال عمليات الاعداد الأولى هو تحديد الاطار واكتسابه ، والاطار هو « نظام تلتئم فيه خبراتنا مكونة أبنية متكاملة ، على حسب ما بينها من تقارب أو تشابه » (٥٨) .

« والاطار هنا اصطلاح محدد فى الدراسات النفسية الحديثة ، وليس مجرد اللفظ الوارد فى قواميس اللغة ، ويقصد به الإشارة الى

الأساس النفسى الذى تنتظم من خلاله مدركاتنا ومشاعرنا ٠٠٠٠ والجدير بالذكر أن الاطار يتشكل من خلال نوع الخبرات التى يمر بها الشخص وسياقها (٥٩) .

باختصار يمكن القول ان عمليات الاعداد الأول من العمليات التمهيدية التى تسبق الابداع الفعلى وتقوم بمهمة التوجيه له والمحافظة عليه .

وتلعب العلاقات الفعلية أو المتخيلة وعمليات الاقتداء والمتابعة من أجل الفهم والتعليم والاستيعاب والتى تقوم بين الكاتب وغيره من الكتاب تلعب تلك العلاقات دورا أساسيا فى هذه العملية . كان ماركيز يقول عن همنجواى : « اننى لا اعتبره روائيا كبيرا ، وانما قاصا فذا ، فأنا لا أستطيع نسيان نصيحته بأن القصة ، مثلها فى ذلك مثل جبل الجليد العائم ، يجب أن تحمل من الجزء الذى لا يرى : من التحريات والتأملات والمواد التى جمعها المرء . » . والتى لم يجر استخدامها فى القصة بشكل مباشر ، أجل ، يمكن للمرء أن يتعلم الكثير من همنجواى ، وحتى كيف تدور قطعة حول الناصية » .

٣ - عمليات المراقبة والالتقاط :

المقصود بالمراقبة تلك العمليات الواعية التى يقوم بها المبدع لملاحظة الناس والطبيعة بكل ما فيها من ثبات أو تغير ، وكذلك ملاحظة ذاته باعتبارها جزءا من الطبيعة ، وباعتباره فردا من الناس ، أما المقصود بالالتقاط فهو تلك العملية التى يتم من خلالها الوصول الى منير أو محرك يمكن أن تتبلور حوله فكرة معينة فنية كانت أو علمية .

وعمليات المراقبة يقوم بها المبدع بوعيه وإرادته ، لكن الالتقاط لا يخضع غالبا لهذه الإرادة بمعنى أنه اذا كان المبدع يلعب الدور الأكبر خلال عمليات المراقبة فانه قد يكون كذلك حين يلتقط مشيرات. أفكاره أو محرركاتها حيث تلعب البيئة بما فيها من ظروف ومتغيرات دورها الكبير هنا ، وان كان هذا لا يعنى التقليل من دور المبدع بل توضيحه ، فقد كانت تلك المشيرات والمحرركات موجودة فى الحياة وستظل موجودة ، ولو فى أشكال أخرى ، ودور المبدع هو أنه أمكنه أن يثلقها ويدركها ويتمثلها ويتعلق بها كبذرة لعمل ابداعي ، كما أنه قام بعد ذلك بانماء هذه الفكرة واحياؤها فى عقله حتى صارت شجرة يانعة تؤتى أكلها ، بينما كان يمكن أن تذوى هذه البذرة وتضمحل وتموت اذا لم تجد عقولا مبدعة تدركها جيدا تنميتها ، فكما يقول يحيى حقى « نأمل الكاتب أن يظل محتفظا بقدرته على

المراقبة ، فأقل هدية توضع فى مهد الفنان هى قدرته على مراقبة ما حوله ، انه يجوس خلال المجتمعات فيحسبه الناس غير ملق باله الى شىء ، يتكلم مثلهم ويضحك معهم ، لكنه كالاسفنج تمتص بغير ارادة عصير ما رآته عيناه وسمعته أذناه وأحسست به روحه » (٦٠) .

« وكان هانز كريستيان أندرسون يحب أن يفكر فى حكاياته الخرافية وسط الغابات ، كان ثاقب البصر يرى كل أنحاء وكل شق فى قطعة صغيرة من لحاء الشجر كما لو كان يراه بعدسة مكبرة ، ومن مثل هذه الأشياء الصغيرة الدقيقة كان يسهل عليه أن ينسج خيوط حكاية من حكاياته الرائعة الشهيرة » (٦١) ويذكر ماكيلر « أن بعض الرسامين مثل بول كلي P. Klee والنحاتين مثل هنرى مور H. Moore قد قاموا بجمع متكرر لموضوعات طبيعية مثل أجنحة الفراشات والزجاج البلورى والمرجان من البحر الأبيض المتوسط ، والطحالب من البلطيق لاستخدامها فيما بعد كمثيرات للعمل أو كأجزاء منه » (٦٢) .

وعملية المراقبة – كما سبقت الإشارة – تشتمل على اتجاهين هما :

- ١ – اتجاه مراقبة للموضوعات الخارجية (الناس والطبيعة) .
- ٢ – اتجاه مراقبة للذات أو الموضوعات الداخلية أو الخبرات الشخصية .

وقد تم الحديث عن الاتجاه الأول ، أما الاتجاه الثانى فيتعلق أساسا بتلك الانعكاسات التى تركها اتجاه المراقبة الأول بكل موضوعاته وأحداثه ومواقفه وتشكلات كل ذلك فى عقل المبدع ووجدانه ، كما أنه يشتمل أيضا على رأى المبدع واتجاهاته نحو نفسه ، أفكاره ، سلوكه ، تركيبه الجسدى ، وضعه الاقتصادى الاجتماعى . . الخ وقد علق تشيكوف أهمية كبيرة على هذا النوع من المراقبة فقال « على الكاتب أن يعتاد ملاحظة نفسه ملاحظة واعية دائمة حتى يصبح ذلك طبيعة ثانية لديه » (٦٣) .

وربما بلغ هذا الاتجاه فى مراقبة الذات مداه الأقصى فى لحظات الاجداد أو الغلق وفى لحظات اليأس من امكانية الاعتماد على المصادر الخارجية وفى حالات الاصابات العضوية والحرمان الحسى « حينئذ يوجه الكاتب كل ما تبقى من قدرة على الكتابة الى نفسه لأنها أقرب ذات اليه » (٦٤) .

هذا عن عمليات المراقبة ، فماذا عن عمليات الالتقاط ؟

وفقا لتحديدات وتحليلات سلفرمان J. Silvermann وجاردنر Gardner لعمليات الادراك (٦٥ ، ٦٦) يمكن القول - اذا كان هذا ممكنا هنا - بأن المبدع يتدرج من حالة احاطة Scanning شديدة بالمرئيات خلال عمليات المراقبة الى حالة من تنظيم المجال وتحديدته أو تشكيله Field Articulation خلال الالتقاط ثم محاولة للتحكم فى شدة المنير ونميينه وتطويره ووضعها فى مكون ابداعى فريد خلال كل أجزاء العملية الابداعية التى تلى هذا الالتقاط ، ونقطة الوصل أو المعبر بين العمليات الأولى (الاحاطة بمعلومات العالم ومرئياته) وما يأتى بعد ذلك من عمليات ، هو عملية الالتقاط ، فقد تحدث ايريك نيوتن E. Nelson عن تلك اللحظات التى يتوقف فيها المبدع ويقول لنفسه « لا بد من عمل شئ من هذا » (٦٧) وأكد هنرى جيمس H. James أن معظم قصصه غالبا ما كانت تبدأ من بذرة صغيرة غير ملاحظة كأن ترد اشارة ضمنية الى شئ ما فى حديث أحد الأصدقاء » (٦٨) فخلال عمليات المراقبة والالتقاط يكون هناك توجه داخلى متبصر وواع من المبدع تجاه العالم المتاح له خلال المراقبة ثم نحو جانب معين من هذا العالم خلال الالتقاط .

أكد جارتيا ماركيز أن نقطة الانطلاق الخاصة بالقصة أو الرواية لديه تبدأ من صورة تقف أمام عينة لدى الكتاب الآخرين ، ينبثق الكتاب ، على ما أظن ، من فكرة ، من خطة ، أنا أنطلق دائما من صورة . ان قصة (قيلوللة السلاثناء) ، التى اعتبرها أفضل قصة لى ، نشأت من صورة امرأة تسير مع ابنتها فى قرية مهجورة تحت شمس حارقة ، وقد ارتدت كل منهما السواد وحملت مظلة سوداء . وفى (الأوراق الذابلة) هى صورة شيخ يأخذ حفيده الى مأتم ، ونقطة انطلاق (ليس لدى العقيد من يكتب له) ، هى صورة رجل يقف فى سوق بارانكيليا منتظرا سفينة ، انه ينتظر بنوع هادئ من ضيق الصدر . بعد سنوات كنت مرة فى باريس أنتظر بالضيق نفسه رسالة ، ربما حوالة ، فتذكرت هذا الرجل وتمثلت نفسى مكانه (٦٩) .

٤ - عمليات الاعداد الثانى :

والهدف الأساسى من هذه العمليات هو تهيئة الظروف المناسبة التى يمكن أن تتضح فيها الفكرة أو تنضج ، أى أنه تكون هناك شروط معينة يرى المبدع - وقد لا يرى - ضرورة توفرها حتى يوجد المناخ النفسى المناسب الذى يمكن أن تتيسر فيه الأفكار أو يسهل الوصول إليها فيه ، وتختلف الشروط الضرورية لهذه العملية التنظيمية باختلاف المبدع

واختلاف ظروفه « فبوشكين مثلا كان يفضل الكتابة في الخريف وكان روسو وديكنز يفضلان الكتابة صباحا ، بينما كان بايرون ودستوفسكي يكتبان مساء ٠٠٠٠ ولم يكن شيلي يكتب الا بعد أن يشرب نصف زجاجة من الشمبانيا ويضع قدميه في طست من الماء البارد ، وكان تشيكوف يكتب في شبابه على حافة النافذة أما ليرمنتوف فكان يكتب أشعاره على أى شئ يقع في يده وليس من الضروري أن يكون ورقا ، وتولستوى لم يكن يجلس للكتابة الا بعد أن يكون على مكتبه رزمة من الورق الجسد ، ولم يكتب الشاعر الفرنسي بيرانجيه أغانيه الا في المقاهى الرخيصة ، وكان ايليا أهرنبورج كذلك يجد جو المقاهى مناسباً للكتابة » (٧٠) .

لقد قيل كثيرا عن عديد من الفنانين انهم يحتاجون الى شروط وظروف خاصة من أجل جعل عملهم أكثر كفاءة وكذلك من أجل تدعيم وتسهيل عمليات التصور والخيال لديهم .

وقد أشار « مارك توين » الى أنه لا يستطيع العمل الا وهو راقد في سريره كى يكون الوصول الى الحالة الخاصة بالصورة العقلية الشبيهة بالحلم ممكنا ، ان الأمر هنا شبيه بتلك الحالة التى يمكن وصفها بأنها تأليف تنهض فيه الصور أمام المؤلف كاشياء حية ثم عند الكتابة يبدو للكاتب أنه يمتلك مجموعة كلية متميزة من مادة الكتابة فيتناول الأوراق والقلم ويكتبها فى الحال ، وباهفة لا حدة لها (٧١) .

كتبت الناقدة والشاعرة الأمريكية آمى لويل عن خبراتها الابداعية « الشئ الأول الذى أفعله عندما أكون واعية بقرب مجيء قصيدة هو أن أبحث عن ورقة وقلم ، ان الأمر يبدو كما لو كان التحديق البسيط أو العابر فى الورقة البيضاء يعمل على تنويمى الى حالة شبيهة من وعى ما قبل الشعور ، اننى أجد أن التركيز الذى احتاجه من أجل ذلك مشابه فى طبيعته للاغماء » (٧٢) .

وكتب الشاعر الأمريكى ستيفن سبندر « ان القصيدة تشبه الوجه الذى يكون الانسان قادرا على تصويره بصريا بوضوح بعين ذاكرته ٠٠ ان مهمة الشاعر هي إعادة ابداع هذه الرؤية » .

من الحالات والظروف التى تكرر ذكرها لدى المبدعين ما يلى :

ركوب سيارة أو قطار أو طائرة - المشى للتنزه - الاستحمام - القراءة بغرض المعرفة أو الاستمتاع - الاستماع للموسيقى - الاستيقاظ أثناء الليل (حالة شبه النوم) الأحلام - تحت تأثير المخدرات - التأمل -

التحديد في بعض الأشياء - ان الحالة الأساسية لعملية الانتباه المخفف خلال هذه النشاطات تتفق مع الحالات غير العادية للعقل التي تحدث أثناء عمليات التخيل البصري وكذلك التنوير أو الاشرار الابداعي إضافة الى هذه الظروف أو الشروط العامة • كتب بعض المبدعين عن بعض الشروط الشخصية الغريبة التي اعتقدوا انها تساعد على الابداع والعديد من هذه النشاطات ذات طبيعة حسية خاصة بحاسة معينة وقد أشار بيتر ماكيلر الى هذه الشروط أو الحالات باعتبارها هاديات أو « معنويات » حسية Sensory Cues. فمثلا : كان الشاعر شيلر يستشار بواسطة رائحة التفاح المتغفن الذي كان يحتفظ به دائما في مكتبه •

- كان صمويل جونسون يتكلم دائما عن حاجته الى سماع هرير القطط المسرورة والى قشر البرتقال وكوب من الشاي كي يكتب •

- كان بروسست يكتب في غرفة عازلة للصوت •

- كان كبلينج يحتاج الى حبر أسود قاتم كي يكتب •

- كان كانط يكتب في نفس الوقت كل يوم وهو جالس في سريره ، معذقا في برج أمامه (وعندما بدأت شجرة في النمو وأعاقبت تحديقه الى البرج أصيب باضطراب وطالب بقطع الشجرة حتى نفذ طلبه) •

- كان روسو يفكر عاري الرأس في ضوء الشمس الساطع الحار •

- كان بيتهوفن يصب ماء باردا على رأسه معتقدا أن ذلك ينشط ذهنه •

- كان روسيني يغطي نفسه بمجموعة من الأغشية والبطاطين بينما يؤلف موسيقاه •

- كان تسارلز ديكنز يقوم بتحويل سريره في اتجاه الشمال ، معتقدا ان القوى المغناطيسية الموجودة في الشمال ستساعده على الابداع •

- أكد الشاعر ستيفن سبندر أنه كان يعتمد كثيرا على القهوة واللباق أثناء الكتابة ، وكان يعتقد أن ذلك يزوده بنوع من الصلة بالعالم الخارجي (حيث انه أثناء جهد التركيز الابداعي ، يفقد المرء تماما احساسه بجسمه وبكيانه الواقعي) (٧٣) أما ماركيز فقال بأنه يحتاج الى أن يكون في الصباح في جزيرة مهجورة وفي المساء في مدينة كبرى وفي الصباح يحتاج الى الهدوء وفي المساء الى بعض الخمر والأصدقاء المخلصين لكي يتسامر معهم •

الأمر اذن يبدو كما لو كانت هذه الشروط والظروف والحالات التي سماها كيلر « معنيات حسية » هي بمثابة طقوس وعادات تسهل عمليات الابداع والانتاج لكنها تكون في بعض الحالات - كما لدى سبندر مثلا - وسيلة للتحكم في الاستغراق والتركيز ومن ثم عدم انقطاع صلة المرء المبدع بالعالم المحيط به ، وبشكل عام يتحدث المبدعون عن أن هذه الحالات تزيد من عمليات التركيز وترفع من قدرة المبدع على التصور البصري وتساهم بشكل خاص في العمليات الخاصة بفتح المبدع لبوابات عالم الخيال ، وتشير بعض الكتابات أن هذه الأشياء في حد ذاتها لا قيمة لها ، المهم هو اعتقاد بعض المبدعين في قيمتها واعتمادهم عليها ، بدليل اننا نجد مبدعين كثيرين لا يذكرون لنا شيئا عن دور هذه الحالات والمعنيات في عمليات ابداعهم ، الأمر كله مرجعه الى ارتباط هذه الحالات بعمليات الاقتراب من الصور العقلية والخيالية المناسبة ، والنقص الخاص المصاحب لها فيما يتعلق برقابة الانا الصارمة وكذلك حرية المبدع في ظلها في الخلاص من الأفكار المتجمدة والقوالب النمطية من التفكير وقدرته خلال ذلك على التوحد مع موضوعه بصوره وأفكاره مع ما تتسم به هذه الصور والأفكار من تلقائية ورمزية ، الأمر اذن يكمن في عملية الابداع التي تحدث داخل عقل المبدع وليست كامنة خارجه في معنيات أو حالات معينة يشترطها المبدع كي يلج ساحة الابداع ، هذه الأشياء والحالات هي علامات موضوعة على عتبة الابداع يمكن أن يلتفت اليها بعض المبدعين ولا يلتفت اليها البعض الآخر ، والأمر في جوهره بعد ذلك هو جهد كبير واع وخيال خصب وثقافة عميقة تزود المبدع بالمادة الضرورية للعمل والابداع .

وكما يذكر هارى ليفي H. Levy فان لامينييه Lammanais كان يفضل العمل في غرفة لها ظلال قاتمة ، وأن دانونزيو D'annunzio وفروست Frost كانا يفضلان العمل ليلا ، بينما كان اميل زولا E. Zola يفضل العمل في ظل أضواء صناعية نهارا ، وكان كبلنج Kipling يكتب بأشد الأحبار زرقة ٠٠٠٠٠ وكان موزارت Mozart يفضل أن يقوم بتمارين معينة قبل عمله ، بينما كان دى موسييه De Musset يعتقد أنه تسهل عليه عملية قرض الشعر « اذا ارتدى ملابس العظماء » (٧٤) وقد أكد ترومان كابوت « اننى لا أستطيع التفكير مالم أكن مستلقيا وفي يدي سيجارة وبجانبى قدح من القهوة ثم أشرب الشاي أو الويسكى بعد الظهر » (٧٥) وحذر جيزيلين B. Ghiselin من الاعتماد الكبير على مثل هذه الظروف فكلما قلت حاجة المبدع الى الاعتماد على الأشياء والظروف الخارجية كان أكثر بعدا عن الظروف الطارئة والمثيرة للاضطراب ، فالذى يلجأ الى الاعتماد على الكحوليات ، أو على ورقة ذات

حجم معين أو على بيئة معينة مفضلة لديه لتسهيل عمله يقوم بتصديق حريته العمل على نفسه ، ولذلك فقد يلجأ الى الضوابط الآلية أو السحرية بدلا من الاعتماد على مهارته وبراعته وحساسيته « (٧٦) ولعل أوضح مثال على ذلك هو الدرس هكسلى A. Kuxley الذى لجأ فى نهاية حياته الى استخدام العقاقير المهلوسة مؤكدا أهميتها فى النشاط الابداعى (٧٧) هذا رغم ما بينته بعض البحوث الحديثة من آثارها الضارة على الوعي والتفكير (٧٨) .

وعمليات الاعداد الثانى هذه هى عمليات تنظيمية فى المقام الأول فمن خلالها أو فى ظلها تحدث حالات استثارة وتحسيس أو تحفيز للعمل ، لكنها ليست هى المؤدية بذاتها الى الابداع ، فالابداع قد يحدث معها ، وقد يحدث بدونها أيضا ، وهى قد تكون معوقة أو ميسرة للعمل ، وربما كانت لها آثار ايهامية أيضا Placebo Effects ، بمعنى أن يعتقد المبدع أنه يبدع أحسن اذا توفرت شروط معينة رغم علاقتها غير المباشرة أو المبررة بالابداع ، وربما ارتبطت لدى المبدع بمواقف وخبرات معينة كانت لها آثار تدعيمية واضحة لديه . ومن ثم فهو قد يفضل وجود هذه الشروط التنظيمية لأنه قد يشعر فى ظلها باحساسات تريجه وتدفعه للعمل ، وقد تكون الآثار التدعيمية لهذه الشروط التنظيمية تكونت خلال انتاج الأعمال المبكرة للمبدع .

٥ - عملية التركيز :

تهدف عملية التركيز الى بلورة الفكرة وتوضيحها ، وهى - أى عملية التركيز - البعد العرضى لعامل المحافظة على الاتجاه الذى هو عامل طولى - عرضى ، الجانب الطولى فيه متعلق أساسا بالتمسك بمجال ابداعى معين والنوجه الابداعى من خلاله مع رغبة فى تحقيق أهداف محددة ، وهو كما عرفه الدكتور سوييف « القدرة على تركيز الانتباه والتفكير فى مشكلة معينة زمنا طويلا » (٧٩) .

ويهدف ستيفن سبندر S. Spender أنه « قد يكون الشاعر قد وهب عقلا راقيا وقويا وموجها ، وقد يكون متهورا أو بطيئا . . هذا لا يهم . . المهم هو أن يحدث تكامل بين الهدف والقدرة ، للوصول الى الهدف دون أن يفقد المرء ذاته » (٨٠) وقد اعتكف مارسيل بروسست M. Proust فى حجراته اعتكافا يكاد يكون كاملا . فكان يقضى معظم وقته فى الفراش يكتب كالمحموم ، فى غرفة مبطنة بالفلين ليمنع عنها الصوت ، وبغلق جميع النوافذ باحكام وبملا جو الحجرة بالمطهرات ، وكان يخشى ألا يمتد

به العمر ليفرغ من كتابه « البحث عن الزمن المفقود » الذى استمر يعمل فيه بصورة متصلة من سنة ١٩١٠ حتى وفاته سنة ١٩٢٢ (الرؤيا الإبداعية ، هامش للمترجم ، ١٩٦٦) ويقول نجيب محفوظ « أتعلم ما الذى جعلنى أستم ولا أياس ؟ لقد اعتبرت الفن حياة لا مهنة ، فحينما تعتبره مهنة لا تستطيع الا أن تشغل بالك بانتظار الثمرة ، أما أنا فقد حصرت اهتمامى فى الانتاج نفسه وليس بما وراء الانتاج كنت اكتب لا على أمل أن ألفت النظر الى كتاباتى ذات يوم ، بل كنت أكتب وأنا معتقد اننى سأظل على هذا الحال دائما » (٨١) وقد أكد شتاين أهمية الشعور بوجود هدف للأفكار ، هدف قد لا يكون الطريق اليه واضحا أو ممهدا ، لكن .. فى داخل المبدع يكون هناك احساس داخلى بالاتجاه والتوجه « احساس بحالة هدف ممكن ، حتى لو لم يكن هناك وعى بالخطوات أو المعرفة الموصلة اليه » (٨٢) .

هذا عن البعد الطولى لمواصلة الاتجاه وقد أبرزته بعض البحوث المحلية (٨٣) لكنها لم تتعرض الا قليلا للجانب العرضى الخاص بالتركيز ، فالتركيز هو ما يسم المبدع بصفة خاصة خلال عمليات الإبداع الفعلية ، حين ينشط الذهن بقوة للعمل فى تلك اللحظات التى يشتد فيها التفكير سعيا وراء فكرة ما محددة أو فى طريقها للتحدد ، من أجل توضيحها ومن ثم تحقيقها ، فالاتجاه لا بد له من تحقيق فعل ، والا فانه يظل حبيس وجدان المبدع ، والتركيز كما عرفه « هب » هو « النشاط العقلى الذى تنأزر فى أدائه كل النشاطات العقلية المركزية » (٨٤) أى أنه « ثمة عامل آخر يبرز وهو عامل وثيق الصلة بعامل الاحتفاظ بالاتجاه وربما أمكن تسمية العامل الجديد بعامل « صلابة الفكر أو تماسكه » Solidity of Thought اذ يبدو أن شدة « ميوعة الفكر » Fluidity of Thought ذات تأثير ضار بأية محاولة للتركيز على فكرة معينة أو تنميتها » (٨٥) ويؤكد جاردنر J. Gardiner أنه « من الخصائص المميزة للمبدعين حماسهم الشديد للعمل ، القدرة على الاستغراق فيما بين أيديهم ، فكما لا حظت آن رو A. Roe فى دراستها عن العلماء المبدعين ، أنه من بين الخصائص المميزة والمنتيرة للاهتمام لديهم قدرتهم الكبيرة على الاستغراق فى العمل ، والرغبة فى العمل الشاق لساعات طويلة ، وأن الطاقة التى يعملون بها لا تكون قوية فقط بل تكون طويلة الامد أيضا ، وأن معظم الأدوات الإبداعية قد نمت وترعرعت فى سنوات العمل الشاق أو التطبيق صعب المرتقى » (٨٦) ومشكلة الكتابة الإبداعية كما يذكر ستيفن سبندر « تتعلق أساسا بالتركيز ، والتركيز بالنسبة للكتابة يختلف بالطبع من

حالته بالنسبة لحل مسألة حسابية ، حيث انه تركيز للانتباه بطريقة خاصة ، وعن طريقة يكون الشاعر بها واعيا بكل متضمنات الموقف والتطورات المختلفة لفكرته « (٨٧) » .

ويمكن أن نجد خلال عملية التركيز منالا لما يمكن أن يكون للعمليات النفسية من سيطرة على بعض العمليات البيولوجية ، فعمليات النوم أو طلب الراحة أو تناول الطعام قد تحدث لها ارجاءات - قد تطول وقد تقصر - ما دام هناك عمل ابداعي نشط يمارسه المبدع ويشعر بالمسؤولية تجاهه ويحس بأهميته ، فالنشاط الابداعي قد يطفى على بعض هذه العمليات البيولوجية التي قد تضعف العملية الابداعية - مؤقتا - اذا تزايدت الى حد كبير أو قد تشق لها طريقا للاشباع من خلال التعب الذي قد يعترى المبدع خلال فترات الارهاق أو الغلق أو انكسار التركيز ، وقد عبر تشييكوف عن هذه الحالة بقوله « لقد كتبت قصة ٠٠٠ انكبت عليها بالليل بعد النهار ، يتصبب عرقى مجهدا نفسى حتى يصاب ذهنى بالركود ٠٠ مرفقى يؤلمنى من الكتابة ورأسى غائم » (٨٨) .

أما هوايتفيلد فقد ذكر أن « لحظة الخلق كنشاط عقلى تكون أكثر قابلية لأن تستثار حينما تكون فى حالة انهماك فى موضوع معين (٨٩) » .

عملية التركيز اذن هى عملية ابداعية واعية يقوم بها المبدع فيحشد لها كل طاقاته الذهنية والدافعية والجسدية ، وهى عملية موجهة نحو هدف ومتواصلة رغم العقبات أو المشتتات ، وهى تتم بصورة أفضل فى حالة استبعاد هذه المشتتات وحصر الذهن فى موضوع واحد ينمو ويتطور ، فهو تركيز على حركة ونمو وارتقاء الأفكار ، وقد تصحبه صور ذهنية عديدة دون أن تفقد الخط المشترك بينها ، فهو تركيز موجه نحو هدف ، وهو تركيز متحرك ديناميكي ينمو لكنه لا يتشعب ، واذا تشعب فانه لا يتسوه ، وتتوفر فى عمليات التركيز خصائص الاستمرارية والغرضية والدافعية ، وهى تقوم بحماية الذهن من التشتت أو الانزلاق فى مسالك هامشية .

٦ - عمليات الاقتراب من الأفكار :

الاقتراب هو الدوران حول الفكرة من أجل توضيحها أو اكمالها أو تجاوز مرحلة الغموض فيها ، وهذه العمليات قد تكون المرحلة المتقدمة من التركيز (أو الاتجاه المباشر نحو الفكرة أو الهدف) ، وقد تكون الجزء النشط خلال عمليات الاسترخاء ، ومن هنا فان عمليات الاقتراب تشكل

مكونا آخر من مكونات الاحتفاظ بالاتجاه « افلاحتفاظ بالانجاء هو في حقيقته عدم تنازل عن الهدف ولكن عن طريق مداومة ومتابعة طويلة بأسلوب يتميز أساسا بالمرونة التي تسمح بالاتجاه نحو الهدف والوصول اليه سواء مباشرة أو بطريق غير مباشر أى عن طريق سلوك التفانى يتضمن القدرة على تجاوز الأنماط الثابتة فى العلاقات وقبول تحويلات أو زحزحات فى هذه العلاقات » (٩٠) .

ويحاول المبدع خلال هذه العمليات وبقدر طاقته - التي قد يزيد منها أو يقلل - أن يحدد أبعاد فكرته من خلال معاشيته لها ، واقترابه وابتعاده عنها ، وتقليبها على وجوهها المختلفة ، ونظيره اليها من جهات عديدة ، وقد تساهم الهاديات الخارجية والداخلية فى تقدم وتطور هذه العمليات ، وفى تعميق واختصاص الأفكار .

فى كتابه « كيف تفكر ابداعيا ؟ » ذكر « اليوت هتشينسون E. Huchinson » من جامعة كامبردج عددا من النصائح الموجهة للمبدعين فى شكل تلميحات تساعد فى ميلاد الأفكار الابداعية ، على سبيل المثال لا الحصر :

١ - زد دافعتك من خلال توقع حالات الرضا والاشباع المرتبطة بالانجاز .
٢ - زد عمليات الاعداد لديك من خلال الاعتقاد بأنه لا توجد مشكلة غير قابلة للحل .

٣ - اعتقد بأن الاجابة أو الحل أو الفكرة ستأتى ، رغم انه يكون عليك أن تنتظرها أو تبحث عنها .

٤ - يجب أن تدرك أن الراحة هى أمر جوهري عندما تستعصى عليك المشكلة (٩١) .

وهذه مجرد مجموعة من التوجيهات العامة التي قد تكون مفيدة لبعض المبدعين أحيانا ، وقد لا تكون كذلك فى مواقف أخرى . والمهم هو أن ننظر الى عملية الابداع فى سياقها الكلى ، نظرة اجمالية متكاملة من خلال وضع كل جوانبها الايجابية والسلبية ، والمعوقة فى الاعتبار .

٧ - عمليات الغلق (صعوبات التفكير) :

مع تزايد عمليات التركيز ومحاولات الاقتراب من الأفكار قد تتضح هذه الأفكار وقد تزداد غموضا وتوغل فى الابهام ، بل قد تصبح الأبعاد

التي كانت تبدو قريبة من الوضوح أكثر غموضا واختلاطا وأشد صلابه ومقاومة للتعديل ، وكما يذكر طومسون R. Thomson فإن « الجهد أو الممارسة المضاعفة لبعض المهارات أو النشاطات قد تحدث حالة من التصلب أو الاجهاد الزائد » (٩٢) . وحين يتصدى كرتشفياد للحديث عن معوقات الابداع يذكر أن الفشل في ادراك وتحديد المشكلة بطريقة صحيحة يعتبر أول هذه المعوقات ويضيف الى ذلك أن مدى اتاحة المعلومات وكميتها ، ومدى المعرفة بالحل والميول المعرفية والادراكية لدى الفرد ، والسياق ، والاستمرار المتصلب لوجهة ذهنية خاطئة في التفكير ، وعمليات التصنيف والاتجاهات نحو الظواهر أو الموضوعات كلها عوامل تلعب دورها الكبير في اعاقا عملية الابداع (٩٣) .

فعمليات الغلق الذهني قد تطول وقد تقصر ويتوقف هذا على مدى واقعية المبدع ، ومدى الحاح الفكرة عليه ، ومدى اهتمامه بها ، ومدى خبرته بالابداع وعملياته - ومن ضمنها عمليات الغلق الذهني - ومدى تحديده لهدفه وما يتوفر لديه من محافظة على الاتجاه ، وكذلك مدى اتاحة أو توفر المعلومات المناسبة - أو الخبرات - عن الموضوع الذي يتم الابداع بشأنه ، وأخيرا مدى تشجيع أو احباط الظروف والمستقبلات الاجتماعية له ولابداعاته ، فالفنان - أو المبدع عموما - قد يمر بفترات غلق أو ثبوت في الهمة ، وقد تستمر هذه الفترات سنوات .

يقول ضياء الشرقاوى في احدى رسائله الى محمد الراوى : « لا أدري كنه هذه العملية - الابداع - أتعذب حقبة . هأنذا أخبط - وكأنى ألفظ آخر أنفاسى - واحدة يمين وواحدة شمال ، وكلهم ليس ضياء الشرقاوى بالتأكد وكأننى نسيت الكتابة كلية ... »

هل هى مرحلة جديدة ؟

أم هو مجرد هذيان ؟

ما هذا الذى أكتبه بالله عليك ؟ انى أسالك أنت وكان يجب أن أسأل نفسى . لماذا كلما انقطعت عن الكتابة فترة ثم أعود أجهد صعوبة شديدة (ألم تكن بكفى طول هذا العمر من الكتابة ؟ هل السبب أن ليس هناك (أصالة) ؟ أحس وكأن (موهبتى قد غادرتنى) جملة تنيسى ولبأمر اللعينة كلجنة الفراعنة .

والى متى هذا القلق السخيف المرعب ؟ هل نكتب لتخلص ؟ أم نكتب ليزداد عذابنا ؟ وما سر هذه التقلبات الشديدة فى أشكال التعبير ؟

هل هو نقص الأصالة ؟ ليتنا على بعض السجاعة فى أن نفرد شراعنا ونسرك
سفننا تسير كيف شاءت وإلى أين شاءت • ولكننا لا نمتلك هذه الشجاعة
للأسف • فيوم فوق وألف يوم تحت وكل لحظة مهدد بأن تفقد شخصيتك
الأدبية - لونك - طعمك - تحت أقل الظروف (لا أدري كيف انقطع
رأفت سليم عن الكتابة ثمانى سنين ثم عاد ؟) وهما ، خمسة شهور تفعل
فى الواحد كل هذا ؟ •

٨ - عمليات الاسترخاء أو الابتعاد المؤقت :

حينما يجد المبدع أنه لا جدوى من اللاحاح فى مطاردة الفكرة قد يلجأ
إلى الراحة أو الاسترخاء أو ممارسة نشاطات أخرى غير مجهدة ذهنيًا
كالنشاط الإبداعي فقد يشاهد أفلام السينما أو برامج التلفزيون
أو يستمع إلى الموسيقى •• الخ وفى هذه الأثناء تكون الفكرة معه لكنه
منشغل بها انشغالا غير مباشر أو كما تقول دوروثى كانفيلد « يمارس المبدع
حياته بينما تمارس الفكرة حياتها بداخله » (٩٤) •

وقد اقترح هاردنج R. Harding أن ومضة الإلهام غالبًا ما ترتبط
وتأتى للعلماء والمهندسين حينما يحاولون الابتعاد عن التفكير المباشر فى
مشاكلهم العلمية والهندسية ، أى فى لحظات الارتياح من التفكير فيها
بالتفكير فى أى شيء آخر ، أو بعمل شيء آخر ، وفى هذه الأثناء لا يكون
المنح فى حالة راحة بينما تكون الفكرة فى ركن من أركانها ، بل يكون فى
حالة ترقب واستعدادا للتقاط أى شيء يمكنه المساعدة فى الوصول إلى
الحل (٩٥) •

وليس ما يحدث خلال عمليات الاسترخاء هذه سلبية أو قصورا من
المبدع ، بل هو ممارسة لبعض التكتيكات Tactics أو أساليب المناورة
التي علمتها الخبرة له ، وقد يسمح هذا الاسترخاء بتبديد الكف المتراكم
خلال عمليات التركيز والغلق نتيجة للعمل الشاق والعناء المبذول وراء
الأفكار ، وفى اللحظات التى يتبدد فيها هذا الكف العصبى المتراكم
قد تتساح الفرصة للمبدع فى أن يلقي نظرة جديدة وهادئة على
فكرته ، وقد يلتقط هاديات جديدة لها ، ومن ثم قد يتوصل للحل أو توضيح
الفكرة ، أو التقاط أفكار جديدة ، ولعل هذا هو ما يعطيها صفة التلقائية
والمفاجأة والادهاش • خلال مرحلة الراحة أو ما سمي فى التراث بالاختمار
هناك مجموعة من النشاطات التى ينصح بها العلماء وكذلك الفنانون ويعتقد
أن هذه النشاطات تزيد من التدفق التلقائى والطبيعى للصور الداخلية وقد
أكد هتشينسون أهمية مايل :

١ - تنظيم الوقت بحيث يعطى المرء لنفسه حرية كاملة للعمل بقدر الامكان .

٢ - أهمية العزلة والصمت .

٣ - تحديد الظروف التى يكون المرء فى ظلها أكثر قابلية لأن يكون تلقائيا فى تخیلاته وأفكاره ونشاطاته (٩٦) .

ومن بين هذه الظروف التى ذكرها أدباء وفنانون وعلماء وفلاسفة وقام صمويل وصمويل بتلخيصها نجد ما يلى :

- ركوب السيارة أو القطار أو الطائرة .

- التريض أو المشى فى الأماكن الخلوية .

- القراءة (ليس بهدف حل مشكلة أو التقاط أفكار معينة) .

- مشاهدة التلفزيون أو أفلام السينما .

- الاستماع للموسيقى .

- التأمل .

- التحديق فى موضوع معين (لوحة - زهرة - طفل - شجرة - بحر - .. الخ) .

- الأحلام بأنواعها المختلفة (أحلام النوم - أحلام ما قبل النوم - أحلام ما بعد النوم - أحلام اليقظة .. الخ) .

- الاستحمام .

وتتفق حالة الاسترخاء أو الانتباه المسترخى الذى يحدث خلال هذه النشاطات مع الحالات غير العادية أو غير المتسمة بالنمطية والتى يمر بها العقل والتى تصاحب حالات التخیل أو الاشرار الابداعى (٩٧) .

وتحدث ماركيز عن نشاطاته التى يقوم بها حين يعاق استمرار تفكيره الابداعى بطريقة ايجابية فقال « اننى أعيد التفكير فى كل شئ من البداية ، هذه هى الأوقات التى أقوم فيها بتصليح كل الأبواب والفيس فى البيت ، بالملفك ، وبدهن الأبواب باللون الأخضر ، اذ ان العمل اليدوى يساعده أحيانا فى إزالة الخوف من الواقع » (٩٨) .

قال ماركيز ردا على سؤال وجهه له منيدوزا حول الالهام : لقد أساء الرومانسيون الى سمعة الكلمة ، أى لا أفهم تحت هذه الكلمة حالة النعمة

ولا وحيًا الهيا ، وإنما تصالحا مع الموضوع ، وذلك من خلال الاصرار والقدرة • عندما تريد أن تكتب شيئاً ينشأ بينك وبين الموضوع شيء ما مثل التوتر المتبادل • أنت تثير الموضوع ، والموضوع يثيرك ثم تأتي لحظة تنهار فيها كل العوائق وتتنحى جانبا سائر النزاعات وتقع للمرء أشياء لم يكن يحلم بها : في هذه اللحظة لا يوجد شيء في الحياة أفضل من الكتابة • هذا ما أسميه الهاما » (٩٩) •

٩ - عمليات مجيء الأفكار ووضوحها :

تعددت الأسماء التي أطلقت على هذه العمليات ما بين الوحي ، الإلهام الاستبصار ، الحدس ، الاشراف أو التنوير ، كما اختلف المصدر الذي يعزى إليه حدوثها باختلاف للمراحل التاريخية التي مر بها الانسان : من ربّات الشعر ، الى الالهة الى الله ، الى الماوراء ، الى اللاشعور ، ثم الى العقل الصرف والارادة البحتة (١٠٠) • وقد أكد الكثيرون من الكتاب والعلماء والفنانين والباحثين أهمية صفاته التلقائية والمفاجأة في هذه العملية (١٠١) ، (١٠٢) هذا بينما أكد آخرون أهمية الارادة والوعي خلال هذه العملية ، فمثلا ادجار آلان بو E. A. Poe يقول « ان الخطأ كل الخطأ هو أن تفترض هبوط الوحي الصحيح من فوق ، انك لكى تكون مبتكرا ما عليك الا أن تربط الاجزاء وتركبها بعناية وبصيرة وفهم » (١٠٣) وقال تشيخوف A. Chekhov أيضا معززا هذه الوجهة من النظر « اذا أنكر المرء أن العمل الابداعي يتضمن مشكلات وأغراضا ، فإن عليه أن يعترف بأن الفنان يخلق دون تفكير أو عزم سابق ومن ثم فاذا جاءنى « مؤلف » يتباهى بأنه كتب قصة ، دون فكرة مسبقة ، وتحت الهام مفاجئ ، فأننى سأسميه مجنونا » (١٠٤) •

وكان فاليرى - كما يذكر جيد - يسخر مما يسمى « الإلهام » ، وعلق جيدا على ذلك بقوله « اننى لست أشك فى أنه كان يرحب بأن يجعل شعاره تلك الكلمات التى قالها فلوبير : الإلهام ؟ انه يعنى الجلوس الى منضدة الكتابة كل يوم وفى نفس الساعة » (١٠٥) •

ان الشيء الذى لا خلاف عليه لدى الكثيرين هو أهمية العمل • • العمل المكثف المتواصل مع الوعي والاستبصار بمجال هذا العمل ومكوناته وعناصره ، والقدرة على المرونة والتحرر من القصور الذاتى والسعى نحو الأصالة ، فلا شيء ينتج من لا شيء ولا شيء يمكن أن يوجد ما لم يوجد مبدع ، ولا بد للمبدع حتى يؤصل أفكاره ويوصلها أن يغير دائما من طريقته

فى النظر الى الأشياء ، فالمبدع يعرف جيدا ما هى شروط الأفكار الابداعية ، وما هى محرقاتها ، كما أن له دوافعه القوية التى تحركه تجاهها .

١٠ - عمليات الاعداد الثالث :

ما قد يحدث هنا هو أن توضع خطة أو يوضع تصور لما سيكون عليه شكل الفكرة بعد تنفيذها ، وكذلك يحدد الاسلوب المناسب لعملية التنفيذ هذه ، والخطة قد تكون تصميمًا •• على الورق أو تنظيمًا ذهنيًا يحدد خطى المبدع أثناء تنفيذه لعمله ، وقد تكون مزيجًا من الاثنين • « ويرسم أغلب الكتاب خطة لما ينوون كتابته ، فالبعض يصمم خططًا مستفيضة ، والبعض الآخر خططًا نجريبية ، بينما يضع غيرهم كلمات لا ارتباط بينها » (١٠٦) . وأنسب وقت لعمليات الاعداد الثالث هو بعد مجيء الفكرة الأساسية ووضوحها أما وضع خطة ما قبل الكتابة فقد يكون أمرا لا يمكن الالتزام به فى أغلب الأحيان ، لأن الخطة تمثل نظاما ، وقد لا تنصاع الاندفاعات الانفعالية لهذا النظام ، كما قد تجيء الفكرة بشكل غير متوقع ، وقد يترتب على هذا تغييرات وتعديلات تجعل الخطة أمرا لا مبرر له •••

ولذلك فإن الخطة يجب أن تأتى كجزء من الارتقاء العضوى للمشروع الذى يتم الانتاج بشأنه ، أما قبل أن تكتمل التفاصيل المناسبة ، أو فى منتصف الانتاج ، فإن ذلك يكون أحيانا مملوا بالخلط مشيرا للارتباك » (١٠٧) •

كان همنجواى يقول أنه يتعين على المرء ألا يكتب عن موضوع ما فى وقت مبكر جدا وكذلك ليس فى وقت متأخر جدا ، ويقول ماركيز أنه لم يهتم مرة اهتماما حقيقيا بفكرة لم تستطع احتمال التأجيل طيلة أعوام ، وعندما تكون جيدة الى درجة تستطيع معها أن تحتل خمسة عشر عاما من الانتظار فى (مائة عام من العزلة) وسبعة عشر فى (خريف البطريك) وثلاثين فى (وقائع موت معلن) فلا يبقى أمامى أخيرا شئ يمكننى أن أفعله سوى أن أكتبها •

ورغم أن الأمثلة التى ذكرها ماركيز خاصة برواياته فإنه قد ذكر حالات مماثلة أيضا خاصة لقصص قصيرة ، وفى الحوار الذى أجريناه مع ادوارد الخراط وكذلك مع كتاب آخرين يجد القارئ فى الفصل السابع من هذا الكتاب أمثلة كثيرة على هذه الأفكار التى تلح وتضغط وتكمن ثم تعاود الظهور لدى الكاتب عبر سنوات عمره •

١١ - عمليات التنفيذ :

التنفيذ هو تحقيق الفكرة أو تحويلها الى الشكل المادى الملموس المحسوس بحيث تصير قابلة للادراك السمعى أو البصرى أو اللمس بواسطة الآخرين أو بواسطة المبدع ذاته ، ويختلف المبدعون فى أساليب تحقيقهم لأفكارهم ، وهذا يشكل جانبا من الايقاع الشخصى Personal Tempo الذى هو أحد سماتهم المزاجية المميزة ، فتشيكوف مثلا كان يكتب بسرعة « كنت أكتب القصص كما يكتب مخبرو الصحف أنباء الحرائق ، كنت أكتبها وأنا فى غمرة من الذهول » (١٠٨) .

بينما نجد أن موسييه يتسم بأسلوب تحقيقه لأفكاره بالبطء حتى لو أراد عكس ذلك « وغالبا ما يكون التنفيذ أبطأ مما أريد ، مما يجعل قلبى يدق على نحو مخيف ، فأحاول جاهدا أن أمنع نفسى من الصراخ عاليا » (١٠٩ ، ١١٠) .

ويمكن القول بأن الكتاب - مثلا - يحاولون وضع أفكارهم الاصلية فى ثوب أصيل - خلال عمليات التنفيذ هذه - من خلال استخدام اللغة بطريقة مبتكرة فاللغة هنا هى أداة الكاتب المبدع ، مثلما يكون لكل مبدع أدواته التى تختلف باختلاف المجالات ، واللغة أيضا هى وسيلة للاتصال الاجتماعى ولتوصيل النواتج الابداعية ، وبدونها قد يظل انتاج المبدع كامنا غير ظاهر ، خافيا غير باد ، وبدونها قد يصعب تمييز المبدع عن غيره من البشر .

الكتابة فى رأينا هى نفسها حياة الكاتب وليست مجرد عمليات وضع الفكرة على الورق . لقد ذكر هنرى ميللر أن الكاتب النرويجى « كنوت هامزن » قد ذكر أثناء اجابته على استخبار رأى مجموعة أسئلة - كان قد صممه لكى يقضى به الوقت : ان الكتابة مثل الحياة نفسها ، رحلة للاستكشاف ، فيما تكون المغامرة ميتافيزيقية ، وهى - أى الكتابة - وسيلة لاكتساب رؤية عامة - وليست جزئية - للكون . ان الكاتب يعيش بين العوالم العليا والعوالم السفلى ، وهو يجرب كل الطرق من أجل أن يكون هو نفسه فى النهاية طريقا يتبع . . . واننى اتفق مع هامزن - يقول ميللر - فى ذلك . . . اننى أبدأ فى حالة الاضطراب والخلط والتشوش والظلام ، من مستنقع للأفكار والانفعالات والتجارب . . . أننى انسان يحكى قصة الحياة وهى عملية تبدو لى شيئا فشيئا وبطريقة متزايدة لا تنضب ولا تكاد تنتهى ، ومثل تطور العالم فان تطور الكتابة يكون بلا نهاية . . . اننا نتجول وندور ونرتاد ونجوب العالم بابعاده وجوانبه الكثيرة وفى النهاية نجد أن

ما استطعنا قوله ليس فى أهمية الشيء الذى أردنا أن نحكى عنه ، أو أن ما أردنا الاخبار عنه ليس فى نفس أهمية عملية الاخبار أو القص نفسها ، تلك التى قد تتجاوز حدود الزمان والمكان وتتحول الى عملية كونية شاملة ، وهذا هو ما أفهمه عن الفن الذى يكون مفيدا ودالا وهادفا ومعالجا لآلام البشر (١١١) .

ان ما يستغرق مجهودا كبيرا - يقول ماركيز - هو ابراز العناصر الأكثر أهمية ، وخلق التركيب الشعري لمجال حيوى يعرفه المرء خير معرفة ، اذ أن المرء يعرف عنه كثيرا بحيث لا يعرف من أين عليه أن يبدأ ، ويمكنه أن يقول عنه الكثير بحيث أنه يعود لا يعرف فى النهاية شيئا (١١٢، ١١٣) .

١٢ - عمليات التقييم أو النقد الذاتى :

ويقصد بها عمليات العائد Feedback التى تتم بين المبدع وعمله قبل وأثناء وبعد تنفيذه ، فالمبدع « يظل قريبا من عمله كى يراه بطريقة موضوعية ، يضح عليه لمساته الأخيرة » (١١٤) ويقول فرانك أوكونور F. O'Conner « ينبغى الا ينسى الكاتب مطلقا أنه قارئ أيضا ، وان كان قارئاً مجحفاً . . . واذا لم يقرأ الكاتب انتاجه الخاص عشرات المرات فلا يتوقع أن ينظر القارئ فيه مرتين » (١١٥) .

وقد تحدثت عمليات تقييم للفكرة فى ذهن المبدع قبل تحقيقها ، كما تحدثت عمليات تقييم أخرى بعد التحقيق أو التنفيذ ، وقد تتعلق هذه العمليات بجانبين هما :

١ - تقييم للفكرة ذاتها من حيث جودتها وأصالتها ودقتها واكتمالها ومناسبتها أو فائدتها .

٢ - تقييم لشكل التعبير عن الفكرة وفقا للمحكات أو « الاطر » الجمالية واللغوية الهادية التى تمارس نشاطها أثناء عمليات التقييم هذه .

دار الحوار التالى بين ميندروزا وماركيز حول عمليات التقييم والتعديل والتصحيح .

ميندروزا : هل تصحيح كثيرا ؟

ماركيز : من هذه الناحية تغيرت طريقة عملى كثيرا فعندما كنت شابا كنت أكتب دفعة واحدة ، ثم أصور وأصحح . أما الآن فأننى أراجع الكتابة سطرا سطرا ، واذا أصابنى حظ يكون لدى فى نهاية يوم عمل

صفحة جاهزة خالية من التصحيحات والتنشيط يمكنني تقريبا أن أقدمها .

ميندوزا : هل تمزق أوراقا كثيرة ؟

ماركيز : عددا لا يمكن تصوره أنني أبدأ بصفحة على الآلة الكاتبة .

ميندوزا : دائما على الآلة الكاتبة ؟

ماركيز : نعم ، دائما . على الآلة الكاتبة الكهربائية وعندما أخطئ في الكتابة ، سواء ان الكلمة المكتوبة لا تعجبني أم أنني أخطأت على الآلة الكاتبة ، فأننى أسحب الورقة وأضع مكانها ورقة جديدة ، منبعا بذلك عادة سيئة أو جنونا أو وخز ضمير . يمكنني أن استهلك حتى خمسمائة ورقة من أجل كتابة قصة مؤلفة من اثنتى عشرة صفحة ، وهذا يعنى أنني لا أستطيع تخليص نفسى من الجنون بأن أخطأ مطبعيا هو بالنسبة لى مثل خطأ فى (١١٦) .

١٣ - عمليات التعديل :

والمقصود بها أحداث تغييرات أو تحويرات - طفيفة أو كبيرة - فى الفكرة أو شكل التعبير عنها أو فى كل منهما ، ويمكن توقع وجود علاقة تفاعلية كبيرة بين عمليتي التقييم والتعديل بحيث أنهما قد تسيران جنبا الى جنب وان كان هذا لا يعنى توازيهما ، فهو غير ممكن هنا ، فقد تكون عملية التقييم هى السابقة وعملية التعديل هى اللاحقة ثم تكون عملية التقييم لاحقة لهذا التعديل اللاحق بعد ذلك ، فلا بد أن يعب كل تعديل تقييم له ، وهكذا حتى يصل المبدع الى حالة السيطرة Dominance State وقد تستمر هذه العمليات فترات طويلة ، وقد أكد يوسف الشارونى هذا بقوله :

« اننى أكتب القصة مرة بعد أخرى بحيث أعيد نسخها أكثر من خمس وعشرين مرة تستغرق كتابتها نحو ثلاثة شهور ، بل انها طالما لم تنشر فأننى أظل أعدل وأبدل فيها ويكون النشر هو طريق الخلاص الوحيد منها » (١١٧) ويذكر فيكتور جونا أن كاتب القصة الروسى اسحق بابل I. Babel كان يصل الأمر به الى أن يكون لديه أكثر من ٢٢ مسودة لنفس القصة القصيرة (١١٨) . وعمليات التقييم والتعديل قد تكون مشتملة على عمليات ابداعية جديدة وقد تتضمن عمليات اعادة انتاج Reproduction للعمليات الأولى وقد تكون مزيجا من هاتين العمليتين .

١٤ - حالة السيطرة :

يمكن اعتبار كل العمليات التي يقوم بها المبدع أثناء انتاجه لعمله هي محاولات للسيطرة عليه شكلا ومضمونا ، أما ما يقصد هنا بالتحديد فهو تلك الحالة التي يتم الوصول اليها بعد حل الصراع الذي يدور في ذهن المبدع بين وعيه بما عليه الانتاج الحالي (قبل الوصول الى السيطرة) من قصور أو نقص وبين وعيه بما يجب أن يكون عليه هذا الانتاج في المستقبل القريب أو البعيد ، فكما يذكر برلين - نقلا عن جريفيس Graves فإن شعور المبدع بالسيطرة على عمله الابداعي يتم عندما يشغل خط معين أو شكل ما مكانه في التصميم الابداعي وبطريقة أكثر مناسبة من غيره (١١٩) .

وحالة السيطرة بما فيها من احساسات سارة ومريحة قد يكون لها وظيفة تدعيمية في العملية الابداعية بحيث تجعل المبدع يميل الى تكرار عمليات الخلق والابداع بعد ذلك ، « فالعمل الابداعي عندما يكون ناجحا فانه يولد حالة شبيهة بالنشوة » (١٢٠) « والعمل الفني ينتهي عندما يكون تنفيذه قد وصل الى وضع آخر تفاصيله فيه ، أى عندما لم يعد ينقص ورقة الشليك عرق واحد من عروقها ، أو لم يعد ينقص هذا الوجه مثلا أحد تجاعيده » (١٢١) .

وقد يكون شعور المبدع بأنه حقق ما كان يريد تحقيقه فعلا ، وأنه نجح في التعبير عن أفكاره ومشاعره بكفاً وأدق وأنسب طريقة استطاعها ، هو ما يبعث احساسات السيطرة أو النشوة لديه ، ومن ثم يكون عليه يعد ذلك أن يخرج انتاحه الى العالم المحيط به كي يتلقى استجابة منه أو حكما على هذا الانتاج .

١٥ - العمليات اللاارادية :

ومعنى النشاط اللاارادى هنا لا يختلط بمعنى النشاط اللاشعورى فالنشاط اللاارادى موجود ومحسوس ومشعور به ويمكن تحديده وتحديد آثاره ، وان كان هذا لا يعنى بالطبع امكانية السيطرة عليه ، وما يقصد بالنشاط أو السلوك اللاارادى هنا على وجه التحديد هو ذلك السلوك أو تلك الاستجابات التي تترتب على نشاط الجهاز العصبى المستقل والغدد الصماء ، وكذلك السلوك الناتج عن عمليات الاستثارة في صورتها الايجابية والسلبية ، الايجابية حين تكون هناك حالة تنشيط عام لدى المبدع ، والسلبية حين تكون هناك محاولات يائسة من جانب هذا المبدع للبدء فى

العمل أو الاستمرار فيه نتيجة الانخفاض حالة الاستشارة هذه وأيا كانت الأسباب خارجية أو داخلية (أو مزيجا بينهما) فكما يقول « هب » فانه « بدون استشارة كافية فان المعلومات الآتية من الحواس لن يتم اجراء العمليات عليها ، كما أن العمليات الوسيطة لن تكون فى نفس كفاءتها (١٢٢) وقال « هب » أيضا أن هناك أهمية كبيرة لما انتبه اليه لندسلى Lindsley سنة ١٩٥١ فيما يتعلق بجهاز الاسقاط Projection System الموجود فى عنق - أو جذع - المخ Brain Stem والذي أهتم به ماروزى Marruzzi وماجون Magown قبل ذلك على أنه جهاز استشارة Arousal System يقوم بمهمة التنظيم لنشاط قشرة المخ Cerebral Cortex وقد بين لندسلى أهميته فى العمليات الانفعالية والدافعية، ويعتبر مركز اليقظة Waking Centre جزءا هاما من هذا الجهاز الكبير ، حيث أن أية إصابة فيه قد تجلب الغيبوبة للكائن ، وأننى اقترح أن ما نسميه بالاستشارة هو فى حقيقة الأمر مرادف لحالة الدافع العام ، وهذا يفترض أن له هوية تشريحية وسيكولوجية ، (١٢٣) .

وأكد مالو Malmo أيضا أن التدرج المتصل Continuum: الممتد من حالة النوم العميق - عندما يكون مستوى التنشيط Level of activation منخفضا - الى حالات الاثارة Excitation - عندما يكون مستوى التنشيط مرتفعا - يعتبر دالة للنشاط اللحائى Cortical activity الذى يحدثه جهاز التنشيط الشبكي المساعد Ascending reticular activation system فكما كان هذا النشاط كبيرا كان نشاط الكائن فى مستوى أعلى ، وأشار مالو الى أن عملية التنشيط هذه أكثر اتساعا من الانفعالات بالمعنى الكلاسيكى ، كما أنها ليست حالة يمكن الاستدلال عليها من مجرد معرفة الظروف أو الشروط السابقة ، لأنها نتيجة للتفاعل بين كل من الحالات الداخلية والهاديات الخارجية (١٢٤) ولم تتضح حتى الآن - وبصورة قاطعة - كيفية اسهام العمليات اللاارادية فى العملية الابداعية ، ولا متى يحدث ذلك ؟ وما مقداره ؟ كما انه ليس فى امكاننا أن نزعم امكانية تحقيق ذلك الآن وبوسائلنا الحالية ، فهذا يحتاج الى الكثير من العمل فى المعامل السيكوفسيولوجية وباستخدام أجهزة متقدمة ودقيقة ، وعلى مبدعين حقيقيين ، وأثناء النشاط الابداعى ، وان كان هذا لا يمنع من محاولة الاقتراب قليلا من هذا الموضوع الهام والشائك فى نفس الوقت والذي أكد فىرلى F. H. Farley أهميته وحيويته الكبيرة فى علم النفس الدافعى اليوم (١٢٥) وما يقصده هنا بالطبع هو العلاقة بين الابداع وعمليات الاستشارة .

١٦- العمليات الاجتماعية (خاصة الجماعة السيكولوجية) :

أكد كوفكا أنه « بدون فهم العوامل الاجتماعية المؤثرة في السلوك لا نأمل أن نصل الى فهم هذا السلوك ، فلا بد من معرفة ديناميات العوامل الاجتماعية ، والنتائج التي تحدثها » (١٢٦) ولعل من أهم الديناميات التي تحدث خلال العمل الابداعي أو بعده اهتمام المبدع بعرض إنتاجه أو أفكاره على فرد معين أو مجموعة من الأفراد يشعر بأنها أقدر من غيرها على تلقي وتقييم عمله « وحجم وتكوين هذه الجماعة قد يختلفان ويتراوحان ابتداءً من مجموعة صغيرة من الناس الى أن تشمل المجتمع بأسره في بعض الحالات ، وكلما صغر حجم هذه الجماعات كانت تسمية «الجماعة النفسية» أكثر انطباقاً عليها ، حيث انها تكون أكثر قدرة على اعطاء الفرد عائداً يمكن من خلاله توضيح أو تغيير عمله ، كما أنه يمكنه من أن يحرز تقدماً في أعماله المستقبلية » (١٢٧) وقد أكد كوفكا أيضاً أهمية التشابه أو الشعور بالتشابه - بين الأنا والآخرين في مثل هذه الجماعة ، وقال بأن الشعور بعدم اكتمال الأنا يجعل الفرد يميل الى الانتماء الى الجماعات السيكولوجية (١٢٨) .

ويحفل تاريخ الفكر الانساني بأمثلة لهذه الجماعات النفسية كتلك التي كانت بين زولا وفلوبير وتورجنيف وموباسان ، وتلك التي كانت بين بيكاسو وإيلوار وكوكتو وسارباتيز في فرنسا ، أو تلك التي كانت بين جوركي وتشيكوف وبونين وكورلنكو في روسيا ، وقد تقتصر الجماعات النفسية على متخصصين من نفس المجال وقد تشتمل على أفراد من مجالات مختلفة ، ويمكن أن تجد هذه الجماعات لها متنفساً من خلال المنتديات والمقاهي أو الصالونات الأدبية وتقوم هذه الجماعات بعمليات الحفز والاستشارة والتدعيم للمبدع ، كما قد تزوده بمصادر للعمل فهي تكون بتشجيعها له عائداً هاماً فيحفز ويدعم وينشط عملية الابداع .

والدور الهام الذي قد تقوم الجماعات السيكولوجية به لا يغنى عن الأدوار الاجتماعية الهامة الأخرى والتي قد تقوم بها جماعات النقاد أو القراء - في الأدب والفن بصفة خاصة - أو المثالية للأعمال الابداعية عموماً ، فعن طريق ما تقدمه من تدعيمات واشباعات للمبدعين ، أو ما تحدثه لهم من احباطات أو مضايقات قد تكون عاملاً هاماً في تيسير أو اعاقبة العمل الابداعي .

قال ميندوزا لماركيز : لكنك دائماً تتحدث كثيراً مع أصدقائك المقربين عن الكتاب الذي تعمل فيه ، « أحاب ماركيز » نعم أننى ألتح عليهم حتى

درجة الارهاق عندما أكتب شيئا ، فأننى أتحدث عنه كثيرا . وهذا مما يساعدنى على معرفة أين أقف على أرض ثابتة وأين أعوم . انها وسيلة لى أجد طريقى فى الظلام » .

قال ميندوزا لماركيز أيضا انك تتحدث عن ذلك ، لكنك لا تعطى أحدا البتة ما كتبته لى يقرأه ؟ فأجاب ماركيز : لا ، البتة . اننى هنا أومن بالخرافات تقريبا . اذ أننى أرى أن المرء هو دائما وحدة أثناء العمل الأدبى ، مثل راكب سفينة غرقت وألقت به وسط البحر ، نعم ، انها المهنة الأكثر عزلة فى العالم ، وما من أحد يستطيع أن يساعد المرء فيما يكتبه » (١٢٩) .

تعقيب عام :

عرضنا فى الجزء الأول من هذا الفصل لمدخل خاص بالتصور النظرى الذى نحاول من خلاله الاقتراب من السلوك الابداعى وتفسيره ، ثم عرضنا فى الجزء الثانى العمليات السيكلوجية المختلفة ذات الأهمية فى العملية الابداعية ، والتي أكد الباحثون والمبدعون أهميتها أو وجودها من خلال اشاراتهم المستفيضة أو العابرة اليها ، فلا يمكن الاقتصار فى تحليل العملية الابداعية على عمليتى الاعداد ثم التنفيذ فقط وذلك لا شتمال كل منهما على عمليات كثيرة متضمنة فيها ، وكذلك لأن جانبا هاما من العملية الابداعية هو ما يقع بين هاتين العمليتين من تركيز واقتراب من الأفكار وابتعاد عنها وغموض هذه الأفكار ووضوحها وطاقتها وكذلك تلك الحالات والعمليات المتعلقة بالتوتر والتحفز والتنبه والانتباه المكثف أو المخفف ، وأيضا العمليات المتعلقة بالذاكرة والخيال والتي قد تتدخل فى أغلب العمليات الابداعية السابق عرضها - ا ن لم يكن كلها - فمن المضلل كما يذكر ماكينون أن نشير الى العملية الابداعية على انها عملية واحدة « فهذا المصطلح يجب أن ينظر اليه على أنه ليس أكثر من تسمية تلخيصية اتفق على انها تشير الى مجموعة معقدة من العمليات المعرفية والدافعية والانفعالية والتي تشتمل الادراك ، والتذكر ، والتخيل الفهم ، التدوق ، التفكير ، التخطيط ، اصدار القرارات وغير ذلك من النشاطات ويمكن اعتبار كل عمليات التى سبق عرضها سلوكا كليا وليس لسلوك كلى أو لأجزاء هذا السلوك ومكوناته ، هذا رغم قابلية هذه العمليات الكبيرة للتحليل الى عمليات أصغر تتكامل معا مكونة لنا ذلك السلوك الأكبر » فكل عملية متكاملة لابد أن تتألف من عمليات صغرى متكاملة ، (١٣٠) . ومن أجل فهم النظام الكلى للعملية فان كل الاجزاء يجب أن توضع فى الاعتبار

وهذا يعنى أن تحليلنا للوفائع السلوكية يجب أن يكون فى ضوء العلاقات المتبادلة والتكامل بين الأجزاء فى علاقتها بالكل ، بدلا من معالجتها كجزئيات متفرقة . كل فى حالة عزلة « (١٣١) » .

وبناء على ما سبق يمكن اعتبار التركيز سلوكا كليا ، والاقتراب سلوكا كليا والابتعاد سلوكا كليا ، والتقييم سلوكا كليا ، والتعديل سلوكا كليا ، وهكذا فإن كل عملية من هذه العمليات تكون سلوكا كليا يتكامل ويتفاعل مع غيره من العمليات السلوكية كى يحدث لنا فى النهاية ذلك السلوك الكبير المسمى بالعملية الابداعية .

الفصل الخامس

منهج الدراسة الحالية وخطواتها

مقدمة :

مع التقدم السريع والمتواصل الذى أحرزه علم النفس فى مجالات السلوك المختلفة أصبح من غير الممكن لأى باحث يريد الوصول الى نتائج لها قيمتها واحترامها أن يقتصر على مجرد التفكير التأملى الصرف ، وأصبح لزاما على كل من يصدى للقيام ببحث فى هذا المجال أن يلجأ الى التعامل المباشر مع الظواهر التى يعنى بدراسنها ، ولا يتسنى ذلك لأى باحث الا من خلال اللجوء الى العينات التى تحدث من خلالها هذه الظواهر ، فلم يعد مستساغا مثلا أن ندرس السلوك الاجتماعى دراسة تأملية فقط ، فلا بد من الرجوع للواقع ملاحظة جماعات البشر أثناء نشاطاتها وتفاعلاتها وكذلك اجراء التجارب عليها ان أمكن وأيضا لم يعد مقبولا ان ندرس التفكير بشتى صورته ، ابداعيا كان أو اتباعيا ، دراسة استبطانية بحثه ، فلا بد من اللجوء الى ملاحظة واختبار وقياس عملياته فى مواقف عملية ومن خلال الأفراد الذين نهتم بدراسة عمليات التفكير لديهم ، سواء كنا نلجأ الى فرد واحد أو مجموعة أفراد أو كنا نتعامل مع موضوعات أو أشياء أو حيوانات أو وثائق أو غيرها ، فاننا فى كل الحالات نتعامل مع عينة تحدث من خلالها الظاهرة أو الظواهر التى نهتم بوصفها أو تفسيرها أو التحكم فيها أو التنبؤ من خلالها أو كل ما سبق ، وكما يفعل علماء الكيمياء الطبيعية والكيمياء التحليلية والكيمياء الحيوية حين يتخيرون قطاعا معيناً (عينة) من السوائل أو الغازات أو المواد العضوية ويدرسون خصائصها ، ومكوناتها ويحللونها ويركبنها وفقا لقواعد معينة ، كذلك يفعل علماء النفس افهم يتخيرون قطاعا معيناً من الظواهر السلوكية له خصائص يمكن تحديدها ، يتخيرونه وفقا لمحكات معينة يحددونها تبعا لما تفرضه عليهم مقتضيات المنهج العلمى من شروط أو ضوابط ووفقا لما يتيسر لديهم من امكانيات مادية أو علمية، ويتوقف على جودة اختيار العينات ومدى تمثيلها امكانيات التعميم للنتائج التى يخرج بها الباحثون من دراساتهم سواء بالنسبة للمفردة الواحدة من العينة فى المراحل المختلفة وكذلك التشكلات المختلفة التى تأخذها هذه الظاهرة لدى هذه المفردة – أو بالنسبة لبقية الجمهور الذى نهتم أساسا بالوصول الى تعميمات تتعلق به من خلال العينة المحددة التى ندرسها فعلا .

أولا – اختيار عينة البحث الحالى :

الاسلوب الأكثر شيوعا فى اختيار العينات هو الاسلوب العشوائى والذى يسمح من خلاله لكل مفردة من مفردات الجمهور الذى ندرسه فى

أن تكون أمامها فرصة للاختيار مثلها مثل غيرها من المفردات ، وقد كان من الممكن أن نلجأ الى الأساليب التقليدية في الاختيار العشوائي لتحديد عينة هذا البحث ، لكن الذى تبين لنا بعد ذلك هو أن ذلك سوف يكون أمرا محفوفاً بكثير من المخاطر ومثيرا لكثير من الشكوك حول قيمة العينة ومدى تمثيلها الفعلي لجمهور كتاب القصة القصيرة فى مصر ، ونوضح ذلك فيما يلى :

١ - كان من الممكن أن تختار عينة هذا البحث من واقع سجلات « نادى القصة » بحيث يتم اختيار الأسماء الفائزة فى مسابقات النادى فى السنوات العشر الأخيرة (وعددها مائة اسم بواقع ١٠ أسماء كل عام) أو حتى خلال العشرين سنة الأخيرة ، وكان يمكن اعتبار هذه القوائم ممثلة للجمهور الفعلي من كتاب القصة القصيرة فى مصر ثم يتم بعد ذلك اختيار عينة هذا البحث بالطرق العشوائية المألوفة من خلال هذه القوائم ، لكن ما ظهر بعد ذلك هو أن الأمور ليست بهذه البساطة ، فعندما تم فحص الأسماء الموجودة فى قوائم نادى القصة « وتمت مقارنتها بالجمهور الفعلي لكتاب القصة القصيرة فى مصر اليوم وكما هو معروف من خلال الدوريات والابحاث النقدية والدراسات الأدبية وغير ذلك من المصادر وجد الباحث أمامه بعض الظواهر البارزة التى كان لابد له أن يقف حيالها موقفا حذرا وأن يتعامل معها تعاملًا مناسبًا فمثلا :

(أ) أظهر فحص قوائم الأسماء الفائزة فى مسابقات « نادى القصة » فى العشرين سنة الأخيرة أن هناك عددا كبيرا قد يصل الى ٩٠ ٪ من نسبة الأسماء الواردة فى هذه القوائم قد اختفى تماما من الحياة الأدبية فى مصر أو مازال يظهر على استحياء بين الفينة والفينة (*) ، كما أن عددا غير قليل من هذه الأسماء لا تذكر له سوى هذه القصة التى فازت وحدها أو معها قصة أو قصتان أخريان وكفى .

(ب) أن عددا آخر من هؤلاء الكتاب الفائزين فى مسابقات نادى القصة قد تحول الى أنواع أخرى من الكتابة ، كالكتابة الصحفية أو كتابة الرواية أو المسرحية ومن ثم فقد امتنع تماما ومنسذ فترة ليست بالوجيزة

(*) يمكننا أن نلاحظ نفس الأمر أيضا عندما نقوم بفحص قائمة الكتاب الذين اشتملت عليهم الدراسة الحالية ، فعدها كبيرا من هؤلاء الكتاب الذين كانوا وما زالوا يكتبون فى أواخر العقد السابع من هذا القرن قد توفروا الآن عن الكتابة فى العقد الثامن منه لأسباب عديدة ولا نلمح أسماء الأحوال ٣٠ / منهم الآن بينما ظهرت أسماء كثيرة جديدة . ومن ثم كانت فائدة الحوارات التى اشتمل عليها الفصل التاسع من هذا الكتاب .

عن كتابة القصة القصيرة وان لم يتضمن هذا انقطاعه عن ممارسة الكتابه
عموما بشكل أو بآخر .

(ج) تبين للباحث أن عددا كبيرا من كتاب نادى القصة القصيرة فى مصر وبعضهم من كبار الكتاب لم يسبق له الفوز فى مسابقات نادى القصة أما نتيجة لعدم تقدمهم اليها ، أو لأسباب أخرى ، وقد كان الاقتصار على هذه القوائم كفيلا باستبعاد هذا العدد الكبير من الكتاب ودون وجه حق ، وان كان هذا لاينفى ظهور عدد كبير من الكتاب المجيدين عن طريق نادى القصة .

(د) ان اللجوء الى القوائم الرسمية فى اختيار العينات قد يكون وخاصة فى مجالات الفنون أقرب الى التحيز رغم ادعاء العشوائية فالمحكمون فى أية هيئة رسمية غالبا ما يكون ذوى قيم واتجاهات متقاربة ومن ثم فان معاييرهم التى يحكمون بها على أى عمل فنى غالبا ما تدور فى فلك هذه القيم أو تلك الاتجاهات ونسوق هنا واقعة بسيطة يذكرها أرنست فيشر وافحواها « أن فرانسييس جوردان قد نشر تحت عنوان « عشرون عاما من الفن العظيم » أو « دروس فى الحماقة » ، مجموعة من اللوحات التى حصلت على الجوائز الرسمية فى فرنسا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والحق بالكتاب قائمة بأسماء الفنانين الفرنسيين الذين عاشوا فى الفترة نفسها ولم يحصلوا على جوائز ولم تعترف بهم الدوائر الرسمية ، وتضم القائمة أسماء ديجا وسيلي وبيسارو وماتيس وسيزان ومونييه ورينوار وروسو وجوجان وتولوز لوتريك وبوناز ، وهؤلاء هم الذين عاش فنهم بعد عصرهم ، فى حين أن مجموعة لوحات الفنانين الاكاديميين أصحاب الخطوة والرعاية لا تعدو ان تكون اكاداسا من الادعاء المتغطرس والتفاهة المتعجرفة والرياء المتخفم » (١) .

هذا القول من فيشر نذكره هنا على اطلاقه ولا نعننى به أية مقارنة قريبة أو بعيدة بأوضاع « نادى القصة » . كل ما نريد قوله هو أن اللجوء للهيئات الرسمية فى اختيار عينات البحوث التى تتعامل مع أدباء أو فنانين وخاصة اذا ضبقنا مجال اختارنا بحيث تقتصر على الفائزين فى مسابقات هذه الهيئات قد يكون أمرا غير متسم بالكفاءة والموضوعية من الناحية العملية .

٢ - الطريق الثانى الذى كان متاحا أمام الباحث لاختيار عينته

عشوائيا هو وجود « بيبولوجرافيا » خاصة بكتاب القصة القصيرة في مصر(*) لكن المخاطر المنهجية التي ثارت أمام الباحث حين فكر في الاعتماد عليها في اختيار عينة الدراسة الحالية لم تكن لتقل كثيرا عن المخاطر المتعلقة بالاختيار من قوائم « نادى القصة » فمثلا تبين عند فحص هذه « البيبولوجرافيا » أن هناك عددا كبيرا من الأسماء الواردة فيها قد اختفى تماما من الحياة الأدبية في مصر أما نتيجة للوفساء أو التوقف عن الكتابة أو السفر أو غير ذلك من الأسباب ، كما توقفت أسماء أخرى واردة في هذا المصدر عن كتابة القصة القصير وان ظلت تمارس أشكالا أخرى مثل الكتابة الإبداعية أو غير الإبداعية ، فإذا وضعنا في اعتبارنا عاملا آخر يعد هاما وحسما وهو أن عددا كبيرا من كتاب القصة القصيرة في مصر قد ظهر بعد عام ١٩٦١ وهو العام الذي تنتهي عنده هذه « البيبولوجرافيا » لأدركنا مدى التحيز والقصور الذي كان يمكن أن يقع فيه الباحث إذا كان قد اقتصر في اختياره لعينة هذه الدراسة على هذا المصدر فقط حيث كان سيترب على ذلك اغفال عدد كبير من الكتاب الشبان الذين ظهرت بعد تلك الفترة التي تغطيها هذه « البيبولوجرافيا » .

كانت هاتان هما الامكانييتان المتاحتان أما الباحث وقد كان يكتنف كل منهما الصعوبات التي سبق ذكرها ، وكان من الممكن أن تختار عينة البحث الحالي من أيهما أو كليهما معا ثم يدعى بعد ذلك بتوفر العشوائية في هذه العينة في حين أنها كانت ستمثل عينة شديدة القصور والتحيز ، ونتيجة لما سبق فقد لجأ الباحث الى نفس الأسلوب الذي لجأ اليه باحثان مصريان سابقان عليه في اختيارهما لعينات بحوثهما عن العملية الإبداعية في الشعر ثم في الرواية ثم في المسرحية (٢ ، ٣ ، ٤) ونعني بذلك أسلوب العينة الكلية أو الشاملة وهو الأسلوب الذي يلجأ فيه الباحث الى كل الجمهور المتاح أماله والذي يرى أنه من المناسب أن يضمه في بحثه ، وغالبا ما يلجأ الباحثون الى مثل هذا الأسلوب في حالات صعوبات الاختيار العشوائي للعينات اما لعدم توفر القوائم الخاصة بها أو عدم كفاءة القوائم المتوفرة أو أن يكون العدد الكلي لجمهور العينة هو عدد قليل نسبيا بحيث يكون العدد الذي يمكن اختياره عشوائيا منه هو عدد أقل بالضرورة وهنا تشور صعوبات كثيرة أمام عمليات التعميم من هذا العدد الصغير والذي يتزايد فيه الحجم النسبي لتباين الخطأ وذلك حين نقارنه بعدد أكبر منه نسبيا ، وهكذا . رغم ما في أسلوب العينة الكلية أو الجمهور العام من

(*) وفي بعنوان « دليل القصة القصيرة » « صحف ومجموعات » قام بإعدادها الدكتور حامد النساج وهي تغطي الفترة من ١٩١٠ - ١٩٦١ وصدرت عن الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٢ .

مخاطر فانه بذلك في هذا البحث بضع محاولات منهجية للتغلب على هذه المخاطر فمثلا :

١ - وضع في الاعتبار ضرورة أن يتسع حجم العينة بقدر الامكان بحيث يقترب من الاستيعاب الفعلي لجمهور كتاب القصة القصيرة وقد وصل عدد الكتاب الذين اشتركوا بالفعل في هذه الدراسة الى أكثر من خمسين كاتباً انطبقت عليهم الشروط التي وضعت منذ البداية والتي كان يتم جمع العينة على أساسها .

٢ - روعي أن تشتمل عينة هذا البحث على الجنسين (الكتاب - والكاتبات) ونتيجة لأن العدد الكلي لجمهور الكتاب الذكور أكبر بطريقة واضحة من جمهور الكاتبات (*) فقد ترتب على هذا أن يكون العدد الذي أجاب على الاستخبار وهو الأداة الرئيسية لهذه الدراسة أكبر بطريقة واضحة من عدد الكاتبات اللاتي أجبن على هذا الاستخبار (خمس كاتبات في مقابل خمسة وأربعين كتاباً) أي أن ٩٠٪ في عينة الدراسة من الذكور ، ١٠٪ منها من الاناث .

٣ - روعي أن تشتمل عينة هذه الدراسة أيضاً على كتاب من مناطق مختلفة من الجمهورية (القاهرة ، الاسكندرية ، الوجه البحري ، الوجه القبلي) وقد تحقق هذا بقدر معقول .

٤ - روعي أن تشتمل العينة على كتاب ينوزعون على مدى متسع من العمر وذوى ميول أيديولوجية وفنية مختلفة ، بل ويختلفون أيضاً في مدى كفاءة الاداء الابداعي لديهم حتى يكون لدينا تمثيل شامل للجوانب المختلفة من الظاهرة الابداعية في مظاهرها المختلفة سواء كانت في قمة تألقها أو في بداية تشكلها أو فضاءها أو كشفها عن نفسها .

٥ - حاول الباحث الاتصال بعدد من الكتاب العرب في بعض البلدان العربية كالعراق وسوريا والجزائر والأردن وتونس وأرسل اليهم استخبارات كي يجيبوا عنها ، لكن هذه المحاولة لم تسفر عن شيء يذكر .

٦ - من الصعوبات التي واجهت هذا البحث والتي يجب أن نذكرها هنا هو أن عدداً كبيراً من الكتاب المصريين قد سافر خلال السنوات الأخيرة خارج القطر اما سعياً وراء لقمة العيش - وهم الأغلبية - أو من أجل الدراسة أو لأسباب أخرى وقد حاول الباحث الاتصال ببعضهم مثل : عبد الوهاب الاسواني في قطر ، د . عبد الغفار مكاوي في اليمن ، عبد الحكيم قاسم في ألمانيا ، وقد أجاب الكاتبان الأولان عن الاستخبار وأرسلاه للباحث بينما لم يتمكن الكاتب الثالث من ذلك .

(*) يوضح ذلك قوائم المحلات الأدبية والمجموعات المنشورة .

هذا عن بعض المحاولات التي بذلت من أجل الارتفاع بكفاءة العينة ، وقبل أن نتطرق الى ذكر هذه العينة وتحديد مواصفاتها فاننا نتوقف قليلا أمام مشكلة من المشاكل الهامة في اختيار العينات وهي مشكلة المحك .

مشكلة المحك : The Criterion Problem :

كما يذكر شابيرو R. J. Shapiro فان مشكلة المحك في الابداع تتعلق أساسا بكيفية تحديد الشخص المبدع ، بعبارة أخرى هي كيف نحدد القيمة الابداعية للنواتج أو الأفراد ، ومن المحكات المستخدمة والتي يفترض أنها صادقة الى حد ما يسمى بمحك مقدار الشهرة Strength of reputation كما فعل ليمنان H. C. Lehman في دراسته عن الكيمياءيين المبدعين والتي اعتمد فيها على عدد المراجع عن تاريخ الكيمياء وردت فيها أسماء هؤلاء العلماء الذين اختارهم أكثر من مرة ، وهناك اجراء آخر هو أن نقبل احكام بعض الخبراء في المجال كمحك للابداع كما فعلت آن رو A. Roe في دراستها عن العلماء (٥) وكما فعل بارون أيضا في دراسته عن الكتاب والتي اشتملت على ٥٦ كاتباً محترفاً و ١٠ مازالوا يدرسون فن الكتابة وقد كان هؤلاء الكتاب يختلفون تماما فيما بينهم فيما يتعلق بأهداف أعمالهم والجمهور الذي يخاطبونه ، وكان من بينهم ٣٠ كاتباً مشهوراً تم الوصول اليهم بسؤال وجه الى ثلاثة من أعضاء قسم اللغة الانجليزية وعضو واحد بقسم الدراما بجامعة كاليفورنيا وتضمن طلباً بذكر أسماء الكتاب الذين يعتقدون في تميزهم بالأصالة والابداع ، أما الكتاب الستة والعشرين الباقين فكانوا من الكتاب الجيدين لكنهم لم يذكروا بواسطة عينة المحكمين . والحقيقة أن هذه الدراسة رغم أهميتها فانه قد شابتها بعض الهنات نورددها فيما يلي :

١ - أنها لم تميز بطريقة واضحة - أو غير واضحة - بين الفئات المختلفة من الكتاب فقد عاملت الكتاب الذين يمارسون الكتابة الابداعية والذين يمارسون الكتابة النقدية والذين يقومون بالكتابة الصحفية ، أو غير ذلك من أنواع الكتابة معاملة متساوية وكأنهم فئة واحدة لا اختلاف بين أفرادها ، هذا رغم الاختلاف الواضح بين الكتابة الابداعية ، والكتابة الموجهة الى نقد الكتابة الابداعية، والكتابة التي قد لا تكون لها أدنى علاقة بالكتابة الابداعية أو بنقدها وهو اختلاف أوضح من أن نستطرد في تعريفه هنا .

٢ - لم يذكر بارون الخصائص الوصفية لهؤلاء الكتاب من حيث العمر ، الجنس المستوى الاقتصادي الاجتماعي ، التعليم ٠٠٠ ألخ وهي خصائص هامة دون شك في توضيح أية نتائج نخرج بها من أية دراسة .

٣ - ان الاختصار على تقديرات أربعة محكمين من جامعة واحدة فقط أدى الى حدوث الأخطاء افي التحديد الجيد للعينتين اللتين اشتملت عليهما دراسته فقد كان هناك في المجموعة الثانية كتاب أكثر ابداعا من بعض كتاب المجموعة الأولى والتي ذكر المحكمون انها أكثر ابداعا (٦) والجدير بالذكر أن هذه الدراسة - دراسة بارون - رغم انها أجريت على الكتاب فانها لم تهتم كثيرا بدراسة العملية الابداعية لدى هؤلاء الكتاب ، فقد كان هذا هدفا ثانويا للدراسة كما يذكر بارون (٧) أما هدفها الأساسي فقد كان هو دراسة بعض الخصائص العقلية والمزاجية والدافعية لهؤلاء الكتاب .

وعموما فان اللجوء الى تقديرات المحكمين فقط يترتب عليه في كثير من الأحيان الحصول على ترشيحات للأشخاص المشهورين أو المعروفين فقط في مجال معين ، وقد أصبح من غير الممكن في السنوات الأخيرة كما يذكر شابيرو أن تقتصر في بحوثنا على الأشخاص المشهورين أو البارزين فقط وذلك لسببين هما :

١ - ندرة هؤلاء الأفراد النسبية .

٢ - التأكيد الحديث في البحوث السيكولوجية على استخدام العينات الكبيرة (٨) .

ويلجأ الباحثون عادة في تحديدهم لعينات بحوثهم الى بعض المحركات بعضها كبرى ، وبعضها كمي ، والبعض الثالث كيفي - كمي والمقصود بالمحركات الكيفية تلك المحركات التي تؤكد على مدى الجودة والأصالة والمناسبة والاسهام الذي أضافه النتائج الابداعية وصاحبه الى المجال الذي نعتى بدراسته ، أما المحركات الكمية فهي تؤكد على عدد النواتج الابداعية التي أسهم بها أي مبدع ، والحقيقة هي أن الأمر الأكثر أمانا هو أن يعتمد الباحث على هذين النوعين من المحركات معا دون تفضيل لاحدهما على حساب الآخر ، فلو اقتصرنا على عدد النواتج الابداعية فقط واعتبرنا أن المبدع الأكثر انتاجا يعد أكثر ابداعا من غيره لخرجنا باستنتاجات قد تعد واضحة التعسف ، ففي مثل هذه الحالة سوف تنخفض مكانة كاتبة مبدعة مثل « اميلي برونتي » لانها لم تبدع سوى رواية واحدة هي « مرتفعات وذرنج » ولحدث نفس الشيء بالنسبة لكاتبة مثل « مرجريت ميتشل » « مؤلفة رواية ذهب مع الريح » وبنفس المعيار يمكن أن ترتفع مكانة الكاتب الأسباني « لوب دي فيجا » (١٥٦٢ - ١٦٣٥) الذي يعد من أغزر الكتاب

انتاجا على مر العصور بعدد مؤلفاته التي وصلت الى ألفى ناتج ابداعي
ما بين رواية ومسرحية أو غير ذلك ، يعرف منها الآن ٧٢٥ ناتجا والموجود
منها بالفعل هو ٤٧٠ ناتجا ابداعيا أما الاقتصار على المنحى الكيفي فقط فقد
لا يكون بذاته كافيا رغم أهميته الكبيرة ، فنقييم العمل الابداعي هو عمل
انسانى ، أو هو كما يقول شاپيرو « حكم انسانى ومن ثم فهو عرضة
للتحيز الشخصى » (٩) . وواقعة ابداع جاليليو ليست ببعيدة عن
الأذهان ، كما أن الكثير من الشعراء والأدباء الكبار لم يكونوا معروفين جيدا
أثناء حياتهم .

ومما سبق وجد الباحث أنه من الطبيعى أن يلجأ الى الأساليب التالية
فى اختياره لعينة بحثه .

- ١ - اللجوء الى ترشيحات النقاد للكتاب .
- ٢ - اللجوء الى ترشيحات أساتذة الأدب خاصة من قسم اللغة العربية
بجامعة القاهرة .
- ٣ - اللجوء الى ترشيحات الكتاب لزملائهم .
- ٤ - اللجوء الى فهارس المجلات الأدبية .

ونتيجة لما سبق توفرت للباحث أكثر من قائمة من الترشيحات وقد
تم الاختيار من خلالها للكتاب الذين وردت أسماؤهم فى أكثر من قائمه ،
وروى أن يتوفر الشرطان التاليان فى كل كاتب يتم اختياره من خلال
الاجراءات السابقة :

- ١ - ان يكون للكاتب عشر قصص قصيرة على الأقل منشورة
أما متفرقة فى المجلات أو على شكل مجموعة قصصية وذلك حتى يمكن القول
بأن هناك قدرا من الألفة بعملية الابداع لديه ، وأنها - أى - عملية
الابداع ليست أمرا عابرا غير متكرر بالنسبة له .

- ٢ - ألا يكون قد مضى على نشر آخر قصة له فى وقت اجراءات
تطبيق البحث أكثر من سنتين وذلك حتى لا تكون خبرة الكتابة قد تعرضت
للضرر أو النسيان النسبيين ، ويكون الأمر هو مجرد محاولة تذكر ما كان
يفعله منذ فترة ليست بالقصيرة .

وفى ضوء الاعتبارات السابقة توفرت العينة التالية لهذه الدراسة
والجدول الآتى يوضحها مع بعض الخصائص الوصفية لها وهى مرتبة
وفقا للعمر :

جدول رقم (١) يوضح عينة البحث مع بعض خصائصها

٢	الاسم	٣	عدد المجموعات القصصية	عدد القصص القصيرة المنشورة	٤	الاسم	٥	عدد المجموعات القصصية	عدد القصص القصيرة المنشورة
١	نجيب محفوظ	٦٩	٩	لم يذكر	١٣	عبد العال الجماصي	٤٥	٢	١٠٠
٢	يوسف الشاروني	٥٥	٣	٥٠	١٤	فوزي البارودي	٤٥	-	١٠
٣	أمين ريان	٥٥	٤	٧٤	١٥	عبد الفتاح رزق	٦٣	٦	١٢٠
٤	سعد حامد	٥٥	١٥	٥٠٠	١٦	محمد الجمل	٤٣	١	٤٠
٥	سليمان فياض	٥٠	٦	٥٠	١٧	جميل عطية ابراهيم	٤٣	١	٤٠
٦	محمد صدقي	٥٠	لم يذكر	٢٥٠	١٨	احسان كمال	٤٣	٣	٧١
٧	محمد كمال محمد	٥٠	٣	٧٠	١٩	نبيل عبد الحميد	٤٣	٢	لم يذكر
٨	عبد القفار مكاي	٤٩	٢	٦٠	٢٠	مجيد طوييسا	٤٣	٤	١٥
٩	اليفة رفعت	٤٩	٧	٤٥	٢١	محمد مستجاب	٤٠	-	٤٣
١٠	احمد انوح	٤٨	١	٨٠	٢٢	ابراهيم اصلان	٤٠	١	٣٥
١١	نهاد شريف	٤٧	٢	٦٠	٢٣	فؤاد حجازي	٤٠	١	لم يذكر
١٢	هدى جاد	٤٦	لم تذكر	٥١	٢٤	ابني الدسوقي	٤٠	٠٠	١٠
					٢٥	عبد الفتى داود	٤٠	-	١٠

(*) الأعمار وفقاً لعام ١٩٧٩ وهو وقت تجميع بيانات الدراسة .

تابع الجدول رقم (١)

٢	الاسم	٣	عدد المجموعات القصصية	عدد القصص القصيرة المنشورة	٤	الاسم	السن	عدد المجموعات القصصية	عدد القصص القصيرة المنشورة
٣٦	أحمد الشيخ	٣٩	-	٥٠	٣٨	جمعه محمد جمعه	٣٥	١	٢٩
٣٧	عبد الوهاب الأسواني	٣٩	-	٤٠	٣٩	مصطفى عبد الوهاب	٣٤	١	٢٥
٣٨	صلاح إبراهيم عبد السيد	٣٩	١	٢٢	٤٠	جمال الغيطاني	٣٤	٥	١٠٠
٣٩	محمد حفي الشريف	٣٩	٣	٥٠	٤١	إبراهيم عبد المجيد	٣٣	-	٠١
٤٠	محمد الراوي	٣٨	١	لم يذكر	٤٢	محمد خليل	٣٣	١	٢٤
٤١	سعيد سالم	٣٦	١	٣١	٤٣	براء الخطيب	٣٢	١	١٨
٤٢	شمس الدين موسى	٣٦	-	٢٠	٤٤	مرعي مدكور	٣٠	١	لم يذكر
٤٣	مخدود عبد الوهاب	٣٦	-	١٢	٤٥	حسن الحفناوي	٣٠	٢	٣٨
٤٤	يوسف القعيد	٣٥	١	٢٠	٤٦	عبد جبير	٣٠	١	٢٥
٤٥	فؤاد قنديل	٣٥	٢	٢٤	٤٧	رفقي بدوي	٢٩	٢	٤٠
٤٦	الحماقي النشاوي	٣٥	١	١٧	٤٨	يوسف أبو رية	٢٥	-	١٠
٤٧	محمد جابر الغريب	٣٥	٢	٢٩	٤٩	كوثر عبد الدايم	لم تذكر	١	٥٠
					٥٠	لوسى يوسف	لم تذكر	٣	١٠٠

وقت تجميع

وواضح من هذا الجدول أن عينة الدراسة تتوزع على مدى عمرى ينراوح بين ٢٥ - ٦٩ سنة ، لكن أغلبية هذه العينة تتركز فى المدى العمرى بين ٢٠ - ٤٥ سنة وتبلغ نسبتهم ٧٠ر٨ من مجموع الكتاب الذين ذكروا أعمارهم (٤٨ كاتب وكاتبة) بينما بلغت نسبة الكتاب الذين يتراوحون فى المدى من ٤٦ - ٦٩ سنة ٢٥٪ من مجموع العينة التى ذكرت أعمارها أما من هم أقل من المدى العمرى الشائع (٣٠ - ٤٥) أى الذين تقع أعمارهم فى المدى العمرى بين ٢٥ - ٢٩ سنة فقد بلغت نسبتها ٤ر٢٪ فقط من مجموع العينة ، والجدير بالذكر أن عددا من الكتاب لم يوافق على الاشتراك فى هذه الدراسة ، البعض رفض منذ البداية والبعض اعتذر بعد القبول المبدئى ، ولأسباب يحجم الباحث عن ذكرها ، وقد كان من الممكن أن يزيد العدد الذى وصلت اليه عينة هذه الدراسة عما وصلت اليه لولا التزام الباحث بالشروط التى حددها منذ البداية ، وعموما فإن التزام أى باحث بشروط المنهج العلمى من حيث الضبط والموضوعية ، ومواصلة لهذا الالتزام خلال بحثه كفيل بأن يمكنه من الوصول الى نتائج على جانب كبير من الأهمية حتى لو كانت عينته هى عينة قليلة نسبيا ، أو حتى لو كانت هذه العينة فردا واحدا أو ظاهرة واحدة فى تشكلاتها المختلفة .

ثانيا : الأدوات :

استفاد الباحث فى تكوينه لأدوات بحثه الحالى من مصادر عديدة بعضها بحوث سيكولوجية مصرفية أو عالمية تتناول العملية الإبداعية أو موضوع الإبداع عموما ، وبعضها الآخر عبارة عن اعترافات أو وثائق أو كتابات نظرية لكتاب ونقاد وفنانين أو علماء لهم استبصاراتهم فى مجال الإبداع أو تنظيرات حوله ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر أمثلة لهذه المصادر حتى يبين المجال الذى بدأت من خلاله تتشكل هذه الأدوات :

١ - دراسة الدكتور سوييف عن الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة وقد حوت العديد من الجوانب الهامة فى العملية الإبداعية مثل الاطار وكيفية تكوينه ، والتوتر الدافع ، وحواجز الإبداع ، ومشهد الإبداع ، وعمليات التنفيذ والتعديل والتقييم ، والجماعة السيكولوجية وأهميتها ، وأهمية الاطار الثقافى والاجتماعى ودوره فى الإبداع .

٢ - دراسة حنورة عن الإبداع فى الرواية ، ثم دراسته عن الإبداع فى المسرحية وقد تمت الاستفادة من نتائج هاتين الدراستين خاصة ما يتعلق منها بعمليات الاستعداد والتعضير ثم التنفيذ والتوصيل .

- ٣ - دراسة فرانك بارون عن الكتاب (١١) ومن المصادر الأخرى
غير الدراسات الأكاديمية استفاد الباحث من :
- ١ - كتاب جيزيلين عن « العملية الإبداعية » .
 - ٢ - كتاب سومرست موم « وجهات من النظر » .
 - ٣ - كتاب يحيى حقى « أنشودة البساطة » .
 - ٤ - كتاب بوستوفسكى « الوردة الذهبية فى صياغة الأدب » .
 - ٥ - كتاب يوسف الشارونى عن القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا .
 - ٦ - كتاب مالكولم كولى « الكتاب وهم يعملون » .
 - ٧ - كتاب فرانك أوركوف « الصوت المنفرد » .
 - ٨ - كتاب عبد الرحمن أبو عوف « البحث عن طريق جديد للقصة المصرية القصيرة » .
 - ٩ - كتابى جوركى ، يرميلوف عن « تشيكوف » .
 - ١٠ - أعداد من مجلة « علم الجمال البريطانية » فى السنوات من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ .
 - ١١ - أعداد من مجلات حوار ، الآداب اللبنانية ، قصص التونسية ، الأقاليم العراقية ، الثقافة ، الهلال ، الكاتب المصرية وكلها تحوى العديد من المقالات عن خبرات الكتابة وما يتعلق بها .
 - ١٢ - دراسات لجان مارى جويو ، جان برتليمى ، أرنست فيشر ، كولينجورد ، جورج لوكاتش ، روجيه جارودى عن عالم الجمال وعن النقد الفنى .
 - ١٣ - كذلك تمت الاستفادة عند إعادة كتابة هذه الدراسة من مجموعة الحوارات التى أجراها بلينيوميندوزا مع جابرييل جارتيا ماركيز وقام بترجمتها ابراهيم وطفى عام ١٩٨٦ (١٢) .
- وقد نتج عن المصادر السابقة مع غيرها مما لم يذكره الباحث هنا ، تكوين النسخة الأولى من الاستخبار والذى يعتبر الأداة الأساسية لهذه الدراسة ولذلك فسنتكلم عنه بشئ من التفصيل ثم نتحدث ببعض الاختصار عن الأداتين الأخيرتين اللتين استخدمناهما وهما الاستخبار (أو المقابلة) وكذلك تحليل المضمون .

٩ - الاستخبار :

يعد الاستخبار من الأدوات الشائعة وذات القيمة الكبيرة فى العلوم النفسية والاجتماعية ، وهو اذا أحسن تصميمه وتطبيقه يمكن أن يخدمنا كوسيلة من أكفأ الوسائل لجمع المعلومات (١٣) .

وأسئلة الاستخبار يجب أن تكون واضحة وطريقة الإجابة عليها سهلة وكافية ، كما يجب أن تكون الأسئلة مناسبة لطبيعة عينة البحث وألا تتضمن ألفاظا قد يحدث اختلاف عليها أو سوء فهم أو تفسير لها ، كما يجب أن تكون بدائل الإجابة مناسبة وتفتح الطريق أمام بدائل أخرى. قد لا تكون متضمنة فى فئات الإجابة الخاصة بالسؤال ويحذرنا من أخطار الأسئلة السيئة والتي قد A. N. Oppenheim أو بنهايم تكون أسئلة غامضة أو موحية أو شديدة الاتساع أو الضيق (فى مداها والأفكار المتضمنة فيها) وكذلك الأسئلة البالغة التعقيد أو المسرفة فى البساطة ، فكل هذه الأسئلة يترتب عليها غالبا مدى ضيق من الاستجابات. أو قد يحدث لها سوء فهم وتفسير من الكثير من أفراد العينة (١٤) .

استخبار الدراسة الحالية :

مر الاستخبار المستخدم فى هذه الدراسة بثلاث مراحل مختلفة من الصياغة وإعادة الصياغة حتى استقر الأمر أخيرا على النسخة الثالثة أو الصياغة الثالثة وهى التى وزعت فعلا على العينة :

١ - الصياغة الأولى : وهى ما تكونت نتيجة البحث فى المصادر التى سبق ذكر بعضها ، وقد حوت هذه الصياغة الأفكار الأساسية والمتغيرات الأصلية التى أدخلت عليها بعض التعديلات فى الصياغتين التاليتين :

٢ - الصياغة الثانية : والنغير الجوهرى الذى حدث فيها كان نتيجة للبحث الاستطلاعى والاستكشافى (الذى قام به الباحث وذلك على سبعة كتاب وباستخدام ٥٠ سؤالاً من الأسئلة مفتوحة النهايات استخرجت من الصياغة الأولى للاستخبار ، وقد ترتب على ذلك تحويل جميع الأسئلة المفتوحة النهايات الى أسئلة متعددة الاختيارات أو أسئلة مغلقة ، ومن الملاحظ كما يذكر ماكوبى وماكوبى أن الأسئلة المفتوحة النهايات تطلب من المبحوث أن يستدعى شيئا ما وينتجه بطريقة تلقائية ، أما الأسئلة المغلقة فتطلب منه أن يتعرف على شيء ما ، والتراث المتعلق بالذاكرة الخاصة

بالتعرف يدلنا على أن ما يتم التعرف عليه يكون أكثر مما يتم استدعاؤه (١٥) .

وبناء على ما سبق أصبح الجزء الكبير من أسئلة الاستخبار من النوع المغلق ولم تعد هناك أسئلة مفتوحة وإن ظلت هناك إمكانية لوجود شكل من هذه الأسئلة متمثلاً في الفئة الأخيرة من الأسئلة المتعددة الاختيارات والتي تفتح الطريق أمام أية إضافات أو تعليقات يرى الكتاب ضرورة إضافتها .

٣ - الصياغة الثالثة : فحصت الصياغة الثانية ثم تم تعديل الأسئلة التي كانت تحتوى على فكرتين (متسعة المدى) وكذلك الأسئلة الموحية والغامضة ، وأسقطت أسئلة أخرى رأى أنها غير ذات فائدة ، وأيضاً تم رفع العناوين الخاصة بالمتغيرات حتى ولم يحدث أى تأثير من شأنه توجيه الاجابات بطريقة معينة ، وكذلك تم ادخال بعض التعديلات على الشكل العام للأسئلة فاستخدمت الأسئلة التي تعمل كمرشحات أو منقيات (وهى الأسئلة المستخدمة لكى تخرج المفحوص من تسلسل أو سياق معين قد تكون أسئلته غير متعلقة باجابته على سؤال سابق (١٦) . وقد أخذت هذه الأسئلة هنا شكل أن يجيب الكاتب على الأسئلة التالية لسؤال معين فى حالة ما اذا كانت اجابته على هذا السؤال هى نعم أما اذا كانت اجابته على السوائل هى « لا » فانه لا يجيب على بعض الأسئلة التالية له وبطريقة واضحة ومحددة (مثال ذلك السؤال رقم (٣) ثم الأسئلة : ٣ (١) ، ٣ (ب) ، ٣ (ج) والتي يجاب عنها فى حالة الاجابة عليه بنعم .

وصف الاستخبار

يتكون الاستخبار الحالى من ٤٥١ سؤالاً منها ٢٩٧ سؤالاً مغلقاً الاجابة عليها بنعم أو « لا » فقط وقد تضاف اليهما فئة « أحياناً » ففى بعض الأسئلة ، وهناك أيضاً ٨٧ سؤالاً من الأسئلة المتعددة الاختيارات ، ٦٧ سؤالاً مما يسمى بأسئلة الشدة ، كما يوجد ١٦ سؤالاً من الأسئلة المتكررة من أجل بعض الاستخبارات المنهجية كالصدق والثبات والمنحى المنهجى الذى تمت صياغة الاستخبار وفقاً لها هو ما يسميه الباحثون باسم المنحى القمعى Funnel Approach وعادة ما تبدأ الاستخبارات التى تصاغ وفقاً لهذا المنحى بأسئلة عامة أو شديدة العمومية ، ثم تدريجياً بضيق المجال أو النطاق الذى يتعلق به السؤال حتى نصل الى الأسئلة شديدة التحدد أو الخصوصية (١٧) .

وقد حاول الباحث أن يتبع ذلك فى صياغة الاستخبار الحالى بصفه عامه أى فيما يتعلق بالاستخبار ككل ، وكذلك فيما يتعلق بكل مجموعه من الأسئلة تتصل بالمتغير الأساسى الذى تحاول هذه المجموعه من الأسئلة قياسه ، وفى البدايه نجد أسئلة عامه عن هذا المتغير - أو العملية - تتعلق بما اذا كان موجودا أو غير موجود تم أسئلة تالية لهذه الأسئلة تتعلق بتفاصيل هذه العملية فى حالة وجودها وقد يعقب ذلك أسئلة عن علاقات هذه العملية بغيرها من العمليات والمتغيرات أو العمليات الأساسية التى تضمنها هذا الاستخبار عددها ستة عشر نذكرها بطريقة موجزه فيما يلى :

١ - عمليات الاعداد الأول أو تكوين الاطار : وتعلقت الأسئلة هنا بالجوانب التالية :

- (أ) الدوافع (المشعور بها) والاحساسات المبكرة (بزوغ الاتجاه الابداعى) .
- (ب) القراءات والندوات وتنمية الذات .
- (ج) آثار التشجيع من الوالدين أو الأصدقاء أو غيرهم على الاتجاه الابداعى .

(د) عمليات الاقتداء بكتاب معينين وتطور هذه العملية .

(هـ) محاولة التخلص من آثار الاقتداء أو البحث عن الأصالة .

٢ - عمليات المراقبة والالتقاط : أو الجوانب الادراكية فى العملية

الابداعية وتركز الأسئلة هنا على :

- (أ) الموضوعات والحالات التى تستثير لدى الكاتب دوافعه للكتابة .
- (ب) الحواس التى يعتمد عليها الكاتب فى مراقبة العالم وفى التقاط موضوعاته منها .
- (ج) أهمية ذكريات الماضى والأحداث الحاضرة وتوقعات المستقبل فى العمل الابداعى .
- (د) الأشياء العابرة التى قد يهملها الناس وادراك الكاتب لها ودلالاتها لديه .

٣ - الدوافع الابداعية العامة والخاصة : وتعلقت الأسئلة هنا

بما يلى :

(أ) أهمية الدافع العام للكتابة كوسيلة من أهم وسائل تحقيق الذات وكغاية نهائية لحياة الكاتب ، وكذلك مدى قوة هذا الدافع .

(ب) الدوافع الخاصة أو الحالات المتعلقة بموضوعات وأفكار معينة وأهميتها ودورها فى الكتابة .

(ج) تأثير الدوافع العامة والخاصة للكاتب عليه فى أوقات الكتابة وفى غير أوقاتها .

(د) علاقة الدوافع الابداعية بالعمليات الابداعية الأخرى .

٤ - العمليات الخاصة بالاعداد للعمل قبل وضوح الأفكار :
أو قبل الوصول الى تحديد الشكل الفنى الجيد المناسب للمثير الذى التقط والترتيبات التى يشترط للكاتب وجودها أثناء ذلك أو يحس بضرورة توفرها من أجل تهيئة مناخ نفسى مناسب يمكن أن تتبلور فى ظله الأفكار .
٥ - عملية التركيز : أهميتها فى العملية الابداعية : والأسئلة
هنا تستفسر من الجوانب التالية :

(أ) مدى سهولة أو صعوبة القيام بالتركيز .

(ب) ميسرات ومعوقات التركيز .

(ج) علاقة التركيز بالخيال والذاكرة .

(د) الصور الذهنية أثناء التركيز .

(هـ) علاقة التركيز بالتفكير المنطقى .

(و) تأثير عمليات التركيز على بعض العمليات العضوية كالجوع والنوم .

(ز) الوضع الجسمى المفضل أثناء القيام بالتركيز .

(ح) التركيز و النفاذ واستشفاف الجوانب الخفية من المشكلة أو الفكرة .

(ط) التركيز وعلاقته بوضوح الفكرة .

(ي) الحالة النفسية المميزة للتركيز .

٦ - عمليات الاقتراب من الأفكار : أو الدوران حولها : وتتعلق بما يلى :

(أ) كيف تتم عمليات الاقتراب من الأفكار .

- (ب) الحالة الدافعية أثناء محاولات الاقتراب .
- (ج) مدى التنبه أو اليقظة الذهنية أثناء عمليات الاقتراب .
- (د) الحالة النفسية والجسمية المصاحبة للاقتراب من الأفكار .
- (هـ) ميسرات ومعوقات عمليات الاقتراب من الأفكار أو الدوران حولها .

٧ - عمليات الغلق : وتتعلق الأسئلة هنا بالصعوبات والعقبات الذهنية والانفعالية التي يشعر بها المبدع أثناء محاولته القيام بإبداع خاص بقصة معينة أو قيامه بالإبداع عموماً ، وأسباب هذه الصعوبات والظروف المتعلقة بها ، وحالة الكاتب خلالها .

٨ - عمليات الاسترخاء الذهني أو الابتعاد المؤقت عن العمل الإبداعي وهنا تركز الأسئلة على ما يلي :

- (أ) النشاطات التي يفضل الكاتب ممارستها أثناء هذه الفترة .
- (ب) حالة الفكرة أثناء ذلك .
- (ج) نشاط الخيال أثناء فترات الاسترخاء .
- (د) إمكانية مجيء أفكار جديدة خلال هذه الفترات .

٩ - مجيء الأفكار وكيفية وضوحها : وتتعلق الأسئلة هنا بكيفية مجيء الأفكار الجديدة ووضوح الأفكار الغامضة وشكل الفكرة عندما تظهر في المجال الذهني للكاتب ، وصدى وضوح أو غموض الأفكار التي تأتي بطريقة مفاجئة ، وعلاقة مجيء الأفكار بعمليات النوم والأحلام والعمليات النفسية الأخرى ، والمناقشات مع الأصدقاء ثم التطورات التي تحدث للأفكار عقب وبعد ظهورها .

١٠ - عمليات الإعداد للعمل بعد وضوح الأفكار : وتتعلق الأسئلة هنا بكيفية حدوث هذه العمليات والحالات النفسية المميزة لها وعلاقة هذه العمليات بعمليات إبداعية أخرى كالتقييم والتركيز وغيرها ، وكذلك مدى الحاح الفكرة خلالها .

١١ - عمليات التنفيذ : أو تحقيق العمل أو كتابته والأسئلة الخاصة بهذه العمليات تسأل عما يلي :

- (أ) الحالة الانفعالية المصاحبة للتنفيذ (الكتابة) .

(ب) تغيير الأفكار أثناء التنفيذ ونوعية هذه التغيرات وأسبابها .
(ج) صعوبات التفكير وخاصة ما يتعلق منها بجوانب اللغة والأسلوب خلال الكتابة .

(د) الايقاع الشخصي المميز للكاتب أثناء تنفيذه لعمله .
١٢ - عمليات التقييم : وتعلقت الأسئلة هنا أساسا بالجوانب التي يهتم بها الكاتب كثيرا خلال التقييم ، وعلاقة التقييم بخبرات الكاتب السابقة ثم طبيعة المعايير التي يقوم الكاتب في ضوءها بعمليات التقييم .
١٣ - عمليات التعديل : وتهتم الاسئلة هنا بالجوانب التالية :

(أ) الجوانب التي يتعلق بها التعديل كثر من غيرها .
(ب) جوهرية أو هامشية التعديلات التي قد تحدث .
(ج) المشاعر التي قد تصاحب التوفيق أو عدم التوفيق في القيام بالتعديل المناسب .
(د) التعديل الداخلي (الذهني) والتعديل الخارجي (على الورق) .

١٤ - الجوانب الارادية واللاارادية : أثناء العمل الابداعي ومدى خضوع العملية الكلية للضبط الذاتي ومتى يفات زمام الموقف من الكاتب ، وكيف يحدث ذلك ؟ وما هي التغيرات الجسمية التي قد تحدث أثناء العمليات للابداع وما تأثير حالة الاستثارة العامة ايجابا أو سلبا على العملية الابداعية ؟

١٥ - عملية السيطرة أو حالة السيطرة : وهي التي تنتج عن اكتمال العمل أو اكماله به ، ما هي خصائصها ؟ وما هي الجوانب الانفعالية المصاحبة لها ؟

١٦ - الجماعة السيكولوجية : وأهميتها ودورها في تيسير عمليات الابداع وأهمية العائد الذي يتلقاه الكاتب منها ومن المجتمع المحيط به .

وبالاضافة الى أسئلة العمليات السابق ذكرها نجد أيضا أسئلة قليلة عن رأى الكاتب في بعض الموضوعات الهامة في الابداع مثل الميسرات أو الظروف الاجتماعية أو الشخصية التي قد تساعد وتسهل حدوث الابداع ، وكذلك المعوقات أو الظروف الاجتماعية والشخصية التي قد تحدث ظروفًا معاكسة أو محيطة للابداع أو تجعله يحدث بشق النفس

هذه هي الجوانب المختلفة للمتغيرات أو العمليات التي تضمنها اختبار هذه الدراسة ، غير أن ما سبق ذكره قد يكون غير ذي قيمة

كبيرة ما لم يصحبه توفر بعض الشروط السيكمترية الواجب توفرها في أدوات القياس السيكولوجي وعليها نتوقف قيمة النتائج التي يخرج بها أى باحث الى حد كبير ، وما نقصده هنا على وجه التحديد هو ما يتعلق بالصدق .

الثبات :

إذا لم يستطع المرء أن يعتمد على نتائج المقاييس الخاصة بمتغيراته ، أى إذا لم تكن هذه المقاييس ثابتة ، فإنه لا يمكنه أن يكون واثقا من تحديده للعلاقات بين هذه المتغيرات .

ويتضمن الثبات معاني عدة منها امكانية الاعتماد على النتائج ، ودقة هذه النتائج ، اتساقها ، استقرارها ، وامكانية التنبؤ منها أيضا ، وعادة ما يعرف الثبات منطقيا بأنه نسبة التباين الحقيقي في القياسات التي نقوم بها ، وهو يعتمد على الجمهور الذي نقوم بحساب الثبات له وكذلك على اداة القياس المستخدمة (١٨) . والطرق التي استخدمناها في حساب الثبات في هذه الدراسة بعضها مشابه للطرق السابقة وبعضها يقوم على نفس المنطق وبعضها يقوم على نفس المنطق وبعضها الثالث مختلف وهذه الطرق هي :

١- طريقة حساب التناقض الداخلي .

٢ - اعادة الاختبار .

٣ - تقدير الثبات من خلال قيم شيوع المتغيرات Communalities في التحليل العاملي .

١ - طريقة حساب التناقض الداخلي :

وقد سبق استخدامها في بحث تعاطلي الحشيش (١٩٦٠) وان كانت قد استخدمت من أجل حساب الصدق وليس الثبات ، كما انها استخدمت في موقف مواجهة من خلال الاستبار ، وكانت تستبعد استمارة المفحوص اذا تناقض في ٤٠٪ من أسئلة التناقض ، واستخدمت هذه الطريقة أيضا ولكن من أجل حساب الثبات في بحثين سابقين عن العملية الابداعية (١٩ ، ٢٠ ، ٢١) وكانت لها فائدتها الكبيرة ، والحقيقة أنه قد تبين لنا أنه يمكن استخدام هذه الطريقة في حالتى الثبات والصدق ولكن مع الاختلاف في كيفية هذا الاستخدام ، ففي حالة حساب الثبات سيكون تركيزنا موجهها الى مجموعة اجابات العينة على السؤال الواحد ونحسب مقدار ثبات هذا السؤال من خلال نسبة المتفقين عليه وعلى تكراره ، أما في حالة الصدق فسيتم حساب ذلك بالنسبة لكل كاتب على حدة وعلى

كل سؤال وتستبعد الاستمارة اذا حدث تناقض لدى الكاتب في نصف عدد الاسئلة على الأكثر . وقد استخدمنا من أجل حساب التناقض الداخلي ستة عشر سؤالاً ، وحيث ان أسئلة الاستخبار عموماً منجمعة في شكل مجموعات تتعلق بعمليات معينة فقد اتضح أن بعض الاسئلة ستكون متقاربة مما قد يسهل اكتشافها ، ولذلك فقد رُوي أن يتم تكرار الفكرة الأساسية التي يسأل عنها السؤال في بعض الحالات ويكون الاختلاف في شكل أو صياغة هذا السؤال فقط ، وقد أظهرت هذه الطريقة فائدتها خلال البحث الميداني حيث ان عدد الكتاب الذين قرروا اكتشافهم لأسئلة متكررة كان عدداً قليلاً ، كما كان اكتشافهم منعقلاً ببعض الاسئلة دون غيرها .

وفيما يلي جدول خاص بحسابات ثبات اسئلة التناقض الداخلي بالنسبة لعينة هذا البحث .

جدول رقم (٢) لتوضيح نسب الاتفاق على أسئلة التناقض

٢	رقم السؤال	تكراره	عدد الذين اجابوا على السؤال وتكراره	المتفقون في المرين	النسبة المئوية للاتفاق
١	٦	١٠	٤٩	٤٤	%٨٩٫٨
٢	١٨	٢٦٦	٤٦	٤٠	%٨٧
٣	٢٣	٣٦	٤٣	٣٩	%٩٠٫٦
٤	٣٠	٣٩	٣٧	٤٣	%٩١٫٥
٥	١٥	٥٣	٤٩	٤٨	%٩٨
٦	١٦٨	٢٢٣	٤٣	٣٤	%٧٩
٧	٢٠٣	٢١٦	٤١	٤١	%١٠٠
٨	٢١٤	٢٣٢	٤٨	٤٤	%٩١٫٧
٩	٨٢	٢٢٤	٤٨	٤٤	%٩١٫٧
١٠	٢٠٦	٢٢١	٤٩	٤٢	%٨٥٫٨
١١	٢٠٦ (١)	٢٢١ (١)	٣٦	٣٣	%٩١٫٧
١٢	١٨٤	٢٧٤	٤٦	٤٠	%٨٧
١٣	١٤٨	١٦٧	٣٦	٢٤	%٦٦٫٧
١٤	٢٠٠	٣٠٧	٣٩	٣٣	%٨٤٫٦
١٥	٨٨	٢٦٩	٤٧	٣٨	%٨٠٫٩
١٦	٤٥	٢٧٦	٤٨	٤٢	%٨٧٫٥

ويلاحظ أن نسب الاتفاق على معظم الاسئلة هي نسب مرتفعة الى حد كبير .

٢ - طريقة اعادة الاختبار :

وقد استخدمت فى أضيق الحدود ونتيجة لبعض الصعوبات العملية حيث لم يتمكن الباحث من الحصول الا على موافقة خمسة من الكتاب على تطبيق الاستخبار عليهم مرتين وقد فصلت فترة شهر بين مرتى التطبيق حتى لا تأتى الاجابة الثانية من واقع الذاكرة بدلا من أن تأتى من واقع الخبرة . والكتاب الخمسة الذين طبق عليهم الاستخبار مرتين هم :

١ - أحمد الشيخ .

٢ - صلاح ابراهيم عبد السيد .

٣ - محمد كمال محمد .

٤ - محمد خليل .

٥ - محمد جابر غريب .

وقد حسبت درجات الثبات لكل سؤال على حدة وقد لوحظت ضآلته الاجابات فى المرتين على عدد كبير من الاسئلة خاصة الاسئلة المتعددة الاختيارات ولذلك فقد وجه الاهتمام هنا الى الاسئلة المغلقة النهايات والتي أجاب عليها الخمسة فى مرتى التطبيق ، وكانت درجات الثبات فى هذه الحالة مرتفعة بشكل عام فتراوح ٧٧ر٤٪ من هذه النسبة بين ٨٠٪ ، ١٠٠٪ .

٣ - خرجنا كذلك بمؤشرات ثبات من خلال ما يسمى بقيم الشيوخ(*) وهى القيم التى تستخرج من خلال الاسلوب الاحصائى المسمى بالتحليل العامل وقد تراوحت قيم الشيوخ فى دراستنا هذه بين ٨٦ر٥٪ فى حالة المتغير الخاص بالدوافع و ٥٢ر٢٪ فى حالة المتغير الخاص بعمليات التقييم .

الصدق :

صدق مقياس ما يعرف عادة بأنه المدى الذى يقيس عنده هذا المقياس ما قصد منه أن يقيسه ، أو هو الدرجة التى يقرب بها هذا المقياس من أن يكون ناجما - أى لا يخطئ - فى قياس ما قصد منه أن يقيسه ، ويقول ادجيرتون H. A. Edgerton أننا نشير بالصدق الى المدى الذى تكون عنده أداة قياس معينة مفيدة فى الوفاء بالغرض منها ،

(*) احصائيا فان قيم الشيوخ هى مجموع مربعات تشبعات (أو اسهامات) المتغير على العوامل .

أما كرونباخ فيذكر أنه كلما زادت درجة الثقة في امكانية تفسير درجة المقياس زادت درجة صدقه (٢٢) وكيفية حساب صدق أداة ما يعتمد الى حد كبير على غرض المرء من استخدامها أكثر من اعتماده عليها في حد ذاتها (٢٣) .

وفي الدراسة الحالية لجأ الباحث الى أكثر من وسيلة في تقديره لصدق الاستخبار باعتباره الاداة الرئيسية للدراسة ومن هذه الوسائل تؤكد على أهمية صدق المفهوم Construct Validity في تحقيق صدق الاستخبار وسنوضح ذلك بالتفصيل .

١ - صدق المفهوم :

يستخدم صدق المفهوم عندما يعتقد الباحث أن أدواته تعكس تكويننا معيناً له بعض المعاني المحددة ، فالمفهوم يشير الى خاصية نفترض وجودها لدى بعض الأشخاص ، ويفترض أنها تنعكس من خلال أدائهم على بعض المقاييس وصدق المفهوم عادة ما نلجأ اليه عندما لا تكون هناك محكات كافية موجودة (كما في حالة الصدق التلازمي والصدق التنبؤي اللذين يتعلقان بوجود محكات خارجية محددة) أو عندما لا يكون هناك عالم من المضمون العام الذي يمكن قبوله على أنه كاف لتعريف الخاصية التي نهتم بقياسها ، وصدق المفهوم لا يتم تحديده فقط من خلال بعض الاجراءات المنهجية ، ولكن أيضاً من خلال التبصر الخاص بالباحث (٢٤) .

وحيث اننا نتعامل في دراستنا هذه مع « عمليات » وهذه العمليات هي أساسا تكوينات نظرية أو تجريدات أو مفاهيم نعتبرها مسئولة عن التباينات المختلفة بين المتغيرات المختلفة ، وبين الأشخاص المختلفين عبر المتغير الواحد ، فإن صدق المفهوم يمكن أن يكون له فائدته الكبيرة لنا ، والمنطق الرسمي أو الشائع لصدق المفاهيم كما يذكر كرونباخ ينظر الى المفهوم باعتباره محددًا أو معرفًا من خلال شبكة من العلاقات ، كل منها يتم ربطه بما هو قابل للملاحظة ومن ثم يمكن اختباره (٢٥) والمفهوم الذي يتعلق به مقياس ما هو أساسا المعنى السيكولوجي الذي يهدف هذا المقياس الى قياسه ، فقابلية الدرجة على مقياس ما للتفسير تعتمد في المقام الأول كما يذكر أيبيل R. L. Ebel على معناها ، ومن أهم المعلومات التي تجعل درجة الشخص ذات معنى أن تكون هناك علاقة بين درجته هذه ودرجات أخرى له على مقاييس أخرى . . . فهذه العلاقات أو الارتباطات تبين لنا مقدار التباين المشترك بين المقاييس المختلفة وتعرفنا أيضاً بالمعلومات النوعية الخاصة بها (٢٦) . وصدق المفهوم يجب أن يبدأ بتقرير محدد ومعقول للتفسيرات المقترحة التي سوف توحى بفروض معينة ؟ وهذه تشير

بدورها أيضا الى نوعية البيانات التي يجب جمعها ، ومن ثم فان الفحوص المستخدمة لتحقيق صدق المفاهيم يجب ان تكون مقصودة ، أى لا يتم تنفيذها كيفما انفق ، وحتى بعد جمع البيانات فان الباحث يتوقع منه أن يقوم بأحداث تكامل بين فروضه ونتائجه ، وان يقدم الخلاصة النهائية لبحثه بناء على القيمة التفسيرية لكل مفهوم من مفاهيمه (٢٧) .

ويمكن للمرء أن يرى أن صدق المفهوم والبحوث العلمية الامبيريقية هى أمور شديدة الارتباط ، فصدق المفهوم ليس مجرد أن نقوم بالتحقق منه لبعض مقاييسنا ، ان القضية أكبر من ذلك بكثير وهى تتعلق أساسا بمحاولة معرفة صدق المفاهيم النظرية التى تقف خلف المقاييس (٢٨) .

وصدق المفهوم باعتباره محاولة لتحقيق صدق المعانى أو القيم التفسيرية لمفاهيم معينة يمكن أن نبحث عنه من خلال علاقة هذه المفاهيم بغيرها من المفاهيم أو التكوينات وذلك من خلال شبكة معرفية Nomological net اذا استخدمنا تعبير فايجل H. Feigl الشهير ، كذلك يجب علينا دراسة الخصائص المميزة لهذه التكوينات والنشاطات عن وجودها وتبايناتها واختلاف أشكال النشاط المترتبة عليها عندما نقارنها بالأشكال الأخرى من النشاطات الناتجة عن تكوينات أخرى يفترض انها تقف وراء هذه النشاطات والتحليل العامل يمكن اعتباره من أكثر الوسائل أهمية فى تحقيق صدق التكوين أو المفهوم ، وهنا يكون التباين العامل المشترك هو مصدر الصدق الذى يعزى الى أى متغير أو تكوين ، فصدق اختبار ما فى قياس عامل معين يمكن الاستدلال عليه من ارتباط هذا المتغير بالعامل وهذا الارتباط هو تشبيع المتغير على العامل (٢٩) .

والتقرير الرسمى لدرجة صدق التكوين أو المفهوم عبارة عن نسبة درجة تباين المقياس والتى تعزى الى المتغير أو التكوين ، ولا يمكن الوصول الى تشبيع كامل للتكوين على العامل حيث أن التكوين هو أساسا تجريد . . كل ما يستطيع المرء هو أن يحدد المناطق (الحدود) العالية التشبيع والمنخفضة التشبيع للمتغيرات على العوامل (٣٠) . ولأن تباين الاختبار أو المقياس يتوزع غالبا على العوامل العامة المختلفة بأرضية غير متساوية ، فسنجد له عددا من التشبيعات على هذه العوامل تحدد مدى اشتراكه فى قياس المفهوم العام الذى يعبر عنه العامل المعين أو غيره اذ يمثل تشبيع الاختبار على العامل ارتباطه به (أى ارتباطه بهذا التكوين الفرضى الذى نطلق عليه اسم العامل والذى يفسر وفقا لمفاهيمنا النظرية ووفقا للخصائص التى تعبر تشبيعات عنها الاختبارات عليه) .

وبناء على ما سبق فإن تنبؤات المقاييس الفرعية للعمليات الإبداعية كما ظهرت على عوامل العملية الإبداعية في التحليل العامل ومن خلال الارتباطات المرتفعة والدالة التي ظهرت بين المتغيرات والعوامل ، كل حسب مجاله وحسب التكوين الفرضي الذي يقف وراءه ، أتاحت لنا أساسا يمكن الحكم من خلاله على مدى صدق هذه المقاييس والتي اتضحت قيمتها الدالة في قياس العمليات الإبداعية المختلفة التي نتعامل معها وكذلك أفادتنا في توضيح مدى التحقق الأميريقي الذي لاقت هذه العمليات كتكوينات نظرية ، وساهم كل ما سبق في إبراز علاقات هذه العمليات وتفاعلاتها فيما بينها من ناحية وفيما بينها وبين العوامل التي استخلصناها من ناحية أخرى . وكل هذا نجده تفصيلا في الفصل السابع من هذا البحث وهو الفصل الخاص بالنتائج .

٣ - صدق التكامل الداخلي :

من الطرق المستخدمة أيضا في تحقيق صدق التكوينات أو المفاهيم طريقة الانساق الداخلي « وتقوم منذ البداية على أساس أننا بصدد متغيرات متعددة فيما يسيره هذا السؤال غير ما يسبره ذلك ، ولكننا نتوقع درجة من التكامل بين هذه المتغيرات المختلفة إذا تلتئم في صورة لها معنى سيكولوجي . . ومن التعسف أن نفترض سبب آخر غير صدق البيانات يقوم وراء هذا النوع من التكامل الداخلي » (٣١) وخلال عرضنا للنتائج في الفصل السابع من هذه الدراسة سنقوم بتوضيح مدى الاتفاق أو التكامل الداخلي الذي اتضح بصورة جيدة ودالة بين إجابات الكتاب على كل مجموعة من مجموعات الأسئلة والتي تختص كل منها بقياس متغير أو تكوين يقف وراء تفسير حدوث النشاطات الإبداعية المختلفة التي تتعلق بها كل مجموعة من هذه الأسئلة وتهتم بقياسها .

٣ - الصدق من خلال أسئلة التناقض الداخلي :

سبقنا الإشارة إلى أن هذه الطريقة قد استخدمت في حساب ثبات الاستخبار ولكننا نستخدمها هنا أيضا كوسيلة من وسائل تحقيق صدق الاستخبار وهنا سنتعامل مع كل كاتب على حدة ونعتبر الأداة التي لا يزيد تناقض الكاتب في إجاباته على أسئلتها عن نصف عدد هذه الأسئلة أداة صادقة ومن ثم يمكن الأخذ بإجابته والاعتماد عليها واعتبار البنود المختلفة صادقة في قياس ما وضعت من أجل قياسه ، وقد تراوحت درجات الاتفاق هنا بين الكاتب ونفسه (باعتبارها معيارا للصدق) بين ٥٤٪ ، ١٠٠٪ وهي درجات مرتفعة ومرضية بدرجة واضحة .

٢ - الاستتبار (أو المقابلة الشخصية) :

يستخدمل علماء النفس والأطباء العقلليون ، والأخصائليون الاجتماعليون هذا الاصطلاح للإشارة إلى أية مجموعة من الاسئلة ، أو من وحدات الجديث ، يوجهها طرف (شخص أو عدة أشخاص) ، إلى طرف آخر (شخص أو عدة أشخاص كذلك) في موقف مواجهة ، حسب خطة معينة للحصول على معلومات عن سلوك هذا الطرف الأخير أو سمات شخصية ، أو للتأثير في هذا السلوك (٣٢) وأهمية الاستتبار كأداة من أدوات البحث في العلوم الاجتماعية أو غيرها من العلوم هي إمكانية استخدامه في اختبار صدق بعض الفروض أو في التحقق من وجود بعض العلاقات بين بعض المتغيرات والميزة الكبرى للاستتبار هي المرونة حيث يمكن أن تتاح الفرصة للقائم به أن يقوم بالتوضيح لمبحوئه إذا حدث والتبس عليه فهمه لأحد الاسئلة ، كما يمكن من خلال هذا الأسلوب أيضا أن يستثير القائم به لدى الشخص الذي يستتبره أكبر قدر ممكن من الاستبصار بخبراته ، ومن ثم يمكن للباحث أن يكتشف مناطق هامة من المعرفة قد لا تكون قد خطرت على باله أثناء تصميمه الأول لمقابله كما أن هناك ميزة أخرى للاستتبار يذكرها أو بنهايم وهي تلقائية الاستجابات التي نحصل عليها من خلاله والتي قد تكون على قدر كبير من الخصوبة (٣٣) . ويذكر كيرلنجر أن هناك ثلاثة أغراض رئيسية يمكن استخدام الاستتبار فيها وهي :

١ - أنه يمكن استخدامه كأداة استطلاعية للمساعدة في تحديد المتغيرات والعلاقات فيما بينها ، ومن أجل الإيحاء بالفروض وكذلك توجيه المراحل التالية من البحث .

٢ - أنه يمكن استخدامه كأداة رئيسية للبحث ، وهنا نبذل عناية كبيرة في تصميم أسئلة خاصة بقياس المتغيرات التي سوف يتضمنها هذا البحث .

٣ - أنه يمكن استخدام الاستتبار لمعاونة الأساليب الأخرى المستخدمة في الدراسة ومن أجل تحقيق أهداف مثل متابعة النتائج غير المتوقعة ، وتحقيق صدق هذه الأساليب وكذلك من أجل التوغل أكثر في سبر أغوار بعض الموضوعات كالدوافع التي تقف وراء سلوك الأفراد مثلا (٣٤) . وفي البحث الحالي فإن الهدف الأساسي من استخدام الاستتبار كان توضيح أو جلاء غموض بعض الموضوعات التي لم يتسن لنا توضيحها بدرجة كافية من خلال الاستتبار ، وقد لجأنا من أجل ذلك إلى أسلوب الاستتبار غير المقتن Unstructured Interview والذي يكون فيه أسلوب الباحث متصفا

بالمرونة التامة ، فليست هناك قائمة مقننة من الاسئلة كما ان الاسئلة غالباً ما تكون مفتوحة النهايات بقدر الامكان (٣٥) . بعبارة أخرى فان الاستتبار غير المقتن هو موقف مفتوح فى مقابل الاستتبار المقتن الذى هو موقف مغلق لكن هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال أن الاستتبار المفتوح أو غير المقتن يتم بطريقة اعتباطية أو كيفما أتفق فمثله مثل الاستتبار المقتن يجب أن يخطط له بعناية تامة (٣٦) . ويذكر ماكوبى وماكوبى من مميزات الاستتبارات غير المقتنة أو المفتوحة انها تسمح بتقنين المعنى (بدلاً من تقنين اللفظ) بصفة خاصة ، كما انها تكون أكثر مرونة ، ويفترض أيضاً انها أكثر صدقاً (من الناحية الظاهرية) لأنها أكثر تشابهاً مع مواقف الحياة الطبيعية ، ففيها يسمح للمبحوث أن يستمر فى تيار تفكيره الطبيعى وهذا يجعله يصدر استجابات لفظية أكثر قرباً مما يقوم به فعلاً فى مواقف الحياة الطبيعية ، وان كان هذا لا يعنى مطلقاً تفضيل الاستتبار غير المقتن على الاستتبار المقتن فالأخير يتصف بتجسيده لمبدأ أساسى من مبادئ القياس وهو امكانية جعل البيانات قابلة للمقارنة من حالة الى أخرى ، كما أنه أكثر ثباتاً وكذلك تقل خلاله الأخطاء الناجمة عن سوء صياغة الاسئلة (٣٧) . وعموماً فان الاختيار بين الاستتبار المقتن أو غير المقتن يعتمد كثيراً على غرض أو أغراض الباحث من استخدامه لآى منهما ، كما يعتمد أيضاً على مرحلة التطور التى وصل اليها فى بحثه وكذلك مدى المعرفة المتوفرة فى المجال الذى يجرى فيه هذا البحث ، والموضوعات الأساسية التى وضعناها فى اعتبارنا والتى طرحت للمناقشة خلال الاستتبار هى :

١ - البدايات الأولى وكيف كانت وما هى العوامل التى أثرت فى بزوغ اتجاه الكاتب الإبداعى وكيف استمر ؟

٢ - الفروق النوعية فى الخبرة النفسية بين القصة القصيرة والرواية .

٣ - علاقة الكاتب بمجتمعه ودوره فيه وتأثير كل منهما فى الآخر .
والكتاب الذين اشتركوا فى اجراءات الاستتبار هم :

١ - جمال الغيطانى .

٢ - مجيد طوبيا .

٣ - عبده جيد .

٤ - براء الخطيب .

وكل منهم له انتاجه الفريد والمميز فى القصة القصيرة .

ثبات الاستتبار :

المقصود بثبات الاستتبار الاشارة الى اتساق البيانات لتي بجمعها بواسطته ، والاتساق هنا معناه أن يكون لهذه البيانات منطق واحد أو اتجاه واحد (٢٨) وحقيقة الأمر هنا هي أنه من الصعوبة بمكان أن نتحدث عن ثبات الاستتبار بنفس الفهم المعروف أو المعنى الشائع من الثبات ، فموقف الاستتبار كان حراً ، وما فعلناه هنا هو نفس ما فعله باحث مصري آخر في دراستين سابقتين عن العملية الإبداعية حينما كان يكرر بعض الأسئلة بطريقة غير ملحوظة في نفس الجلسة أو في جلسة تالية (٣٩ ، ٤٠) والنبات الذي ينجم عن مثل هذه الطريقة يمكن وصفه بأنه نبات كيفي أو ظاهري فليست لدينا أرقام فعلية يمكن ذكرها للتعبير عنه ، وهذا الأسلوب يتسم بأنه أقل دقة من الأساليب الأخرى المعروفة لحساب النبات ، لكن المبرر الوحيد الذي يمكن الدفع به هنا للتجاوز عن تقديم قيم رقمية للثبات هو الغرض الذي استخدمنا من أجله الاستتبار والذي حددناه منذ البداية بأنه توضيح بعض النقاط التي لم يتم توضيحها تماماً من خلال الاستتبار والذي تأكدنا بطرق حسابية وبقيم رقمية أنه يتصف بالثبات .

صدق الاستتبار :

« عندما يصف الباحثون أحد الاستتبارات بأنه صادق فهم يعنون أن هذا الاستتبار يكشف فعلاً عن المتغير أو المتغيرات التي وضع من أجل الكشف عنها (٤١) » .

ومن الطرق التي لجأنا إليها في حساب صدق الاستتبار أننا كنا نقارن بين نتائج الاستتبارات ونتائج دراسات أخرى أجريت عن العملية الإبداعية في مصر (٤٢) وهي طريقة يؤكد العلماء أهميتها (٤٣) وقد اتضح لنا أن هناك قدراً كبيراً من الاتفاق بين نتائج استتبارات هذه الدراسة والدراسات السابقة خاصة ما يتعلق منها بأهمية الخبرات الأولى في التعامل مع المجال ، أهمية تكوين الاطار ، أهمية الجوانب الدافعية والمعرفية والجمالية في الابداع كذلك لجأنا في بعض الحالات الى مقارنة النتائج التي حصلنا عليها من خلال الاستتبار بنتائج أداة أخرى استخدمت في هذه الدراسة وهي الاستتبار وقد اتضح وجود قدر كبير من الاتفاق بين المعلومات التي جمعت بالادتين فيما يتعلق ببعض المتغيرات .

أيضا اعتبر الباحث أن الاتساق الواضح بين ما ورد في استتبار أحد الكتاب هو جمال الغيطاني وما ورد له في مقالة سابقة كتبها عن خبرته الخاصة خلال الكتابة (*) دليلا اضافيا ومحكا خارجيا على صدق الاستتبار الذي أجرى معه .

٣ - تحليل المضمون Content analysis

تحليل المضمون هو أسلوب يستخدم من أجل الوصول الى بعض الاستنتاجات من خلال التحديد المنظم والموضوعي لخصائص رسالة معينة (٤٤) ويتعلق هذا الأسلوب أساسا بالفحص المنتظم للوثائق أو غيرها من مصادر المعلومات التي قد تأخذ شكل كلمات مكتوبة أو أشكال مرسومة أو صور فوتوغرافية أو لوحات فنية . الخ ، وقد تقوم بعض الدراسات بمجرد جمع وتصنيف البيانات الحقيقية التي نحصل عليها من التقارير أو المؤسسات الرسمية ، بينما تقوم دراسات أخرى بتصنيف وتقييم المحتويات والوثائق وفقا لبعض المحكات المحددة (٤٥) .

ويتضمن أسلوب تحليل المضمون بعض العمليات الخاصة من أجل الترتيب أو التصنيف المنظم لمضمون عمليات الاتصال ، كأن نقوم بإجراءات لتقسيم المضمون الى وحدات ووضع كل وحدة في فئة أو على موضع معين في مقياس ما ، ثم نقوم بتجميع هذه الوحدات للوصول الى استنتاجات لها أهميتها يتعلق بهذا المضمون تحليل المضمون اذن وكما يعرفه بيرلسون B. Berelson هو « أسلوب من أساليب البحث يستخدم من أجل الوصف الموضوعي المنظم والكمي للمضمون الاتصالي الصريح » (٤٦) .

فئات تحليل المضمون :

ان مضمون الاتصال زاخر بالخبرة الانسانية ، أسباب هذا المضمون والآثار المترتبة عليه مختلفة وتحديده بحيث يصعب وضعها بنسق واحد من الفئات (٤٧) .

ولذلك فان هناك العديد من الفئات التي استخدمها محللو المضمون وتتنوع هذه الفئات أو الوحدات فتتناهى في البساطة فتكون الكلمة المفردة أو قد توغل في التركيب والتعقيد فتصير الموضوع الرئيسى وبين هذا وتلك نجد العديد من الفئات التي قد يستخدم محلل المضمون أكثر من واحدة منها في دراسته فقد يستخدم البند (٢) (المقالة ، القصه ،

(*) مجلة الهلال القاهرية ، عدد مارس ١٩٧٧ .

(الكتاب) أو الشخصية أو الزمان أو المكان (أو المساحة) أو المعيار ،
أو القيم أو السلطة ، أو الأسلوب ، أو السمات ، أو الهدف أو المصدر ،
أو الاتجاه أو الأداة . . الخ أو يستخدم مجموعة منها معا .

والموضوع الرئيسى أو الفكرة الأساسية يعتبرها بيرلسون من أكثر
واحدات تحليل المضمون فائدة ، لكنها تعد أيضا من أكثرها صعوبة
بسبب الصعوبات المتعلقة بعمليات الثبات الخاصة بها خاصة اذا كانت
المادة مركبة ولذلك فهو ينصح بتفكيك الفكرة الأساسية الى مكوناتها ثم
اعادة تركيبها مرة أخرى (٤٨) .

وفى بحثنا الحالى فان فهم مضمون المواد التى سنقوم بتحليلها
يتيح لنا الحصول على معلومات ذات قيمة كبيرة عن جوانب قد نكون
عدلنا عنها فى قياسنا لعملية الابداع من خلال الاستخبار ، كما انها قد
تكون لها فائدة أخرى هى تأكيد صدق المعلومات التى نحصل عليها من
مصادر أخرى للمعلومات ، ويمكن القول بأننا استفدنا من أسلوب تحليل
المضمون فى مرحلتين أساسيتين من هذا البحث هما :

(أ) المرحلة السابقة على البحث أثناء اعداد الأدوات وتكوين المفاهيم
وتحديد المتغيرات الأساسية التى سنقوم بقياسها ، وقد أجريت عمليات
تحليل المضمون لاعترافات المبدعين ورسائلهم وبحوث الابداع وكذلك
أجرى تحليل مضمون كمى لمجلة الملخصات السيكولوجية فى السنوات من
١٩٧٤ الى ١٩٧٧ لتحديد مدى الحجم الفعلى لبحوث الابداع عموما وبحوث
العملية الابداعية بصفة خاصة وقد نتج عن هذه الخطوة تشكّل الأفكار
الأساسية التى تضمنها الاستخبار .

(ب) المرحلة التالية لاجراء البحث الأساسى باستخدام الاستخبار
وهنا كانت فائدة تحليل المضمون هى توضيح وتأكيد بعض النتائج التى
خرجنا بها من الاستخبار وهو نفس الهدف تقريبا الذى استخدم من أجله
الاستخبار بل أن قيامنا بتحليل المضمون هنا كان مركزا فى المقام الأول
على مضمون مادة الاستخبارات .

والأسلوب الذى استخدم فى تحليل المضمون هنا كان كما يلى :

١ - تحديد أهداف التحليل .

٢ - تحديد مادة التحليل وتكونت مما يلى :

١ - استخبار مع الكاتب جمال الغيطانى .

٢ - استخبار مع الكاتب مجيد طوبيا .

- ٣ - استتبار مع الكاتب براء الخطيب .
- ٤ - استتبار مع الكاتب عبده جبير .
- ٥ - فصل فى كتاب القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا
ليوسف الشارونى وهو بعنوان « تجربتى مع القصة القصيرة »
- ٣ - تحديد الفئات الفرعية المكونة للمادة أو الأفكار الرئيسية .
- ٤ - تمت اجراءات التحديد ثبات التحليل مع باحث آخر (*) ، كل يعمل مستقلا فى تحليل النص تم حسبت درجة الاتفاق على تحليل النصوص الخمسة . وقد وصلت درجة الاتفاق الكلى بين الباحثين الى ٧٩٣٪ .

ثالثا : الاجراءات :

الجدير بالذكر ان العملية الابداعية كانت - وربما مازالت - من الموضوعات التى يحيط بها الكثير من مظاهر الغموض والابهام ، ودائما ما كان يتم ربطها بعوامل دينية أو بطقوس سحرية أى ترد الى عوامل ومؤثرات ميتافيزيقية ، أو تبذل محاولة لاغلاق الأبواب فى وجه التفكير الانسانى حين يحاول كشف أسرارها ولعل أوضح مثال على ذلك ما ذكره « أفلاطون » فى محاورته « مينون » من أن « البحث عن حل لمشكلة ما هو عمل عبثى ، لأنه اما انك تعرف ما أنت بسبيلك للبحث عنه ، وهنا لا تكون هناك مشكلة أو أنك لا تعرف ما أنت بسبيلك للبحث عنه ، ومن ثم لا يتوقع أن تكتشف أى شىء على الاطلاق » (٤٩) ، وقد ظلت هذه الفكرة مهيمنة - بطريقة أو بأخرى - على كثير من الأذهان حتى أواخر القرن التاسع عشر . حين بدأ جالتون F. Galton أبحاثه الرائدة عن العباقرة ، الا أنه - وكما يذكر بيرت C. Burt مع تزايد نفوذ السلوكية التقليدية اعتبرت أبحاث جالتون من مخلفات منهج الاستبطان Introspection ، ولذلك فقد تم استبعادها مؤقتا (٥٠) . وظل الابداع - كموضوع من موضوعات علم النفس الحيوية والهامة - قابعا فى الظل حتى بعث من جديد مع بداية خمسينات هذا القرن ، ورغم فيض البحوث التى ظهرت عن الابداع عموما ، الا أن عملية الابداع ظلت موضوعا يتعامل معه الباحثون بكثير من الحذر والتحوط وربما كان هذا

(*) الباحث هو الدكتور مصرى عبد الحميد حنورة .

راجعاً في المقام الأول الى صعوبة دراستها بالوسائل التقليدية المألوفة التي تدرس بها الجوانب المختلفة الأخرى للإبداع وحين يتصدى كرتشفيلد للحديث عن الطرائق المختلفة لدراسة العملية الإبداعية نجده يذكر الطرائق التالية وأهميتها وكيفية الاستفادة منها :

١ - إحدى الطرق الكلاسيكية لدراسة العملية الإبداعية هي أن نحدد مجموعة من الانتاجات الإبداعية الهامة والتي حدثت في الماضي ثم نحاول دراسة كيف حدثت ، فنفحص مثلاً كيف ألف كولردج قصيدة كوبلاخان أو كيف اكتشف فلمنج البنسلين ، أو كيف توصل بيكاسو الى ابداع الجيرنيكا ، وميزة هذا النوع من البحوث هي تأكيدنا من اننا نتعامل مع أعمال إبداعية لها أهميتها ، ولكن - ومن ناحية أخرى ، فإن التأويلات الاسترجاعية Retrospective هي أمر يصعب الحصول عليه كثيراً ، كما أنها تكون منخفضة الثبات عادة ، وكذلك فإن عينة العمليات الإبداعية التي يشتمل عليها هذا النوع من البحوث غالباً ما تكون متحيزة ، فما يدرسه المرء هنا هو فقط تلك العمليات الناجحة والتي أدت الى ظهور العمل الإبداعي .

٢ - الطريقة الثانية هي أن يستصدر الباحث الأداء الإبداعي ويدرسه تحت ظروف ملاحظة مقننة ، كأن يطلب من المفحوص أن يبدع قصيدة معينة أو يرسم لوحة معينة في وقت محدد ، وأوضح مثال على ذلك هو ما فعلته كاترين باتريك ، وميزة هذا النوع من البحوث هي في تمكينها للباحث من ملاحظة العملية الإبداعية أثناء حدوثها ، ولكن ما يعيبها هو أن العمليات الإبداعية التي تحدث تحت ظل هذه الشروط المحددة غالباً ما تكون غير مماثلة للموقف الإبداعي عموماً ، ونحن لا نوافق مع كرتشفيلد - أو بالأحرى لا تتفق معه - في اعتبار هذا النوع من الدراسات قادراً على تمكين الباحث من ملاحظة العملية الإبداعية أثناء حدوثها ، فبالإضافة الى اتصاف هذه الطريقة بالكثير من التعسف والبعث عن تمثيل الموقف الإبداعي الحقيقي فإنها تفترض ضمناً قابلية العملية الإبداعية للصدور التلقائي بناء على طلبات محددة منا ، فلو كان الأمر مجرد عرض منبهات - لوحات أو قصائد شعر - يترتب عليها صدور انتاجات إبداعية لكان من الممكن زيادة النواتج الإبداعية وبكميات هائلة ووفقاً لما نطلبه والأمر ليس كذلك ، كما أن افتراض أن هذا النوع من البحوث يمكن الباحث من ملاحظة العملية الإبداعية أثناء حدوثها يفترض أن العملية الإبداعية تحدث في الخارج أو هي سلوك ملاحظ مع أن الأمر الذي يؤكدته الكثير من المبدعين والباحثين هو أن الجانب الأكبر من العمليات الإبداعية

العقلية والمزاجية والدافعية والتي يكون القدر الكبير منها داخليا ، وغير ملاحظ وان كان هذا لا ينفي على الاطلاق وجود جانب قابل للملاحظة من كل هذه العمليات .

٣ - المنحى الثالث هو الذى يذكره كرتشفيلد هو منحى التحليل العاملى الذى يشتمل على تحليل القدرات الابداعية الى مكوناتها الأساسية وقياسها ودراسة كل منها وعلاقاتها ببعضها البعض ، وميزة هذا النوع من البحوث هو توضيح وتنظيم عدد كبير من البيانات التى تتعلق بعدد من الأبعاد الخاصة بالتفكير الابداعى ، لكن الأمر يحتاج - كما يذكر كرتشفيلد - الى التأكد من أن تجمعات درجات الأفراد على العوامل هى مقياس جيد للأداء فى العمل الابداعى الفعلى ، والشئ الذى لم يذكره كرتشفيلد هو ان الدراسات التى أجريت باستخدام منهج التحليل العاملى لم توجه الا قدرا ضئيلا من الاهتمام - أو لم توجه اهتماما على الاطلاق - الى دراسة العملية الابداعية فى مواقف الابداع الفعلى ، بمعنى أن نختار عينة من المبدعين ذوى الانجازات الابداعية التى يتم تحديدها وفقا لمحكات معينة ، ثم تدرس العمليات الابداعية المختلفة التى أدت الى ظهور هذه الانجازات لديهم وبطريقة عاملية ، أى بتطبيق منهج التحليل العاملى على عمليات الابداع الوظيفية أثناء نشاطها الطبيعى وليس على عوامل الابداع البنائية بعد استشارة تبدو مصطنعة فى كثير من الأحيان ، وهذه الخطوة ، أى التحليل العاملى للعمليات الداخلية فى عملية الابداع الفعلى هى ما تحاول الدراسة الحالية القيام به .

٤ - المنحى الرابع لدراسة العملية الابداعية هو منحى علماء النفس التجريبيين الذين يحاولون اختبار بعض الفروض عن تفاصيل العملية الابداعية كأن يقارن الباحث مثلا بين السرعات النسبية التى تحدث بها الاستبصارات الابداعية عندما تكون المشكلة معروضة على مجموعات مختلفة من الأفراد وبتباينات منتظمة فى تكوين المهام Tasks (الواجبات) الابداعية أو فى مستوى الدافعية أو فى المعلومات الأولية الخاصة بالعمل ، وميزة هذه البحوث هى فيما نتيحه من ضبط أو تحكم علمى ، ولكن ما يعيها هو أن السلوك الابداعى الذى ندرسه قد يكون مبسطا ومصطنعا وليس مماثلا للأداء الفعلى .

٥ - وهذا يؤدى بنا أخيرا الى منحى أكثر حداثة وهو المنحى الذى يحاول تمثيل العمليات الابداعية على آلات حاسبة عالية الكفاءة ، والهدف الأساسى هنا هو تصميم برنامج آلى يكون وبقدر الامكان مماثلا لسلوك

الأفراد عندما يكونون فعلا في حالة اندماج في نشاط ابداعي فعلى ، وميزة هذا النوع من البحوث هي أن الباحث يجد لزاما عليه أن يصوغ افتراضاته فيما يتعلق بالعملية الابداعية بطريقة واضحة وصريحة ، ومع ذلك فمزال هذا المنحى يحتاج الى أن يتبنت أنه أكثر نجاحا من ذلك (٥١) .

وقد حاول الباحث الحالى أن يستفيد من أكثر من طريقة من الطرائق الأنفة الذكر (خاصة ١ ، ٣) مع محاولة نلافى الانتقادات الموجهة الى كل منها ومن أجل أهداف أبعد من ذلك وأكثر نفدا (الطريقتين ٤ ، ٥) ، فحددت عينة العمليات الابداعية بطريقه حاولنا الا تكون متعسفة أو متحيزة ، وحدوث عينة من المبدعين وفقا لمحكات معينة ووفقا لمقتضيات الواقع ، وطبق على استجاباتهم منهج التحليل العاملى وقد يثار اعتراض هنا بعدم مناسبة منهج التحليل العاملى نتيجة لصغر حجم العينة وحيث أن الشائع هو ألا تقل العينة عن مائتى فرد ، لكن هناك ردا بسيطا يمكن أن يقال هنا هو أن الشرط الذى قيل بشأن ألا يقل عدد العينة عن مائتى فرد - حتى تتصف العوامل بقدر من الثبات والعمومية والاستقرار - قيل أساسا فيما يتعلق بالقدرات التى يشترك فيها كل البشر وبمقادير متفاوتة (فكرة المتصل) ومن ثم فإن تطبيق التحليل العاملى وعلى عينات لا تقل عن مائتين ليكون فى حدود هذه القدرات الشائعة أو العامة ، أما العمليات التى تؤدى الى نواتج ابداعية فهى ليست عامة هى عمليات خاصة بعينات معينة من البشر ، هذا هو الابداع الظاهر المتجلى فى مقابل القدرات الكامنة أو المخبوءة ، ومن ثم فأننا لا نستطيع أن نشترط أن يكون هناك عدد لا يقل عن مائتين من الرسامين أو الموسيقيين أو الروائيين أو كتاب القصة القصيرة حتى نستطيع دراسة عملية الابداع لديهم بطريقة علمية ان هذا قد يعد تقييدا للمنهج وكبحا لقدراته التى قد تفيدنا فى عديد من مجالات الظواهر الانسانية والسلوك الانسانى .

نكتفى بهذا القدر من التمهيد لهذا الفصل ونحدث عن الاجراءات المنهجية الخاصة بهذه الدراسة والتى تنقسم الى أربعة أقسام رئيسية هى :

١ - اجراءات تمهيدية وهى تتعلق أساسا بالعمل الاستطلاعى الذى أجرى قبل القيام باجراءات التطبيق الفعلى لأدوات هذه الدراسة من خلال توجهه أسئلة مفتوحة لبعض الكتاب يجيبون عنها بحرية كبيرة - وقد تمت الاستفادة بعد ذلك فى تكوين الاستخبار .

٢ - اجراءات خاصة بعمليات التطبيق والاتصال بالعينة وجمع البيانات .

٣ - اجراءات خاصة بعمليات التصحيح واعطاء الدرجات المناسبة .

٤ - اجراءات خاصة بالعمليات الاحصائية التي أجريت على البيانات التي جمعت أساسا بواسطة الاستخبار ، (الأداة الرئيسية لهذه الدراسة) وكانت أهم هذه الاجراءات هي استخدام الاسلوب الاحصائي المعروف باسم التحليل العاملي .

وهناك اجراءات أخرى خاصة بعمليات حساب الصدق والثبات وأيضا اجراءات خاصة بعمليات تحليل المضمون ، وهذه تم الحديث عنها تفصيلا في سياقها في الأقسام السابقة من هذا الفصل .

الفصل السادس

أهم نتائج هذه الدراسة

مقدمة :

نعرض في هذا الفصل للنتائج المختلفة التي توصلنا اليها من هذه الدراسة وهي تقع في قسمين :

١ - القسم الأول : وهو بعنوان « العمليات : أو التحليل » ونعرض فيه للنتائج التفصيلية الخاصة بالمتغيرات المختلفة التي تضمنها الاستخبار وأيضا بعض ما ظهر من نتائج الاستبارات وتحليل المضمون وهنا سيتم النظر في استجابات العينة الكلية من الذكور والاناث والتي عددها ٥٠ كاتبا وكاتبة وسنقوم بالابانة اذا لزم الأمر للطريقة التي قد تختلف بها استجابات الكتاب عن استجابات الكاتبات .

٢ - القسم الثاني : وهو بعنوان « العوامل : أو التركيب » ونعرض فيه للنتائج الخاصة باجراءات التحليل العامل والتدوير المتعامد ثم المائل للمحاور والتي تمت على هيئة الكتاب الذكور فقط وعددها ٤٥ كاتبا .

القسم الاول

العوامل : أو التركيب

نعرض فى هذا الجزء من الفصل الحالى النتائج التفصيلية المختلفة التى ظهرت من تطبيق اسلوب التحليل العامل على عينة الكتاب المذكور وعددهم ٤٥ كاتباً • والجدول التالى يوضح المتوسطات والانحرافات المعيارية لدرجات الكتاب على المتغيرات المختلفة التى تضمنتها هذه الدراسة •

جدول رقم (١)

يوضح المتوسطات والانحرافات المعيارية لمتغيرات الدراسة

٣	اسم المتغير	٢	١
١	عملية الاعداد الاول	١٥٥٢٢	٥٥٤٢
٢	الدوافع الابداعية	١٨٤١٣	٨٥٤٥
٣	المراقبة والانتقاء	٢٨٥٢٣	٥٥٩٧
٤	عملية التركيز	٥١٥٨٧	٩٥٩١
٥	عملية الاعداد الثاني	١٥٥١٦	٤٥٢٣
٦	عملية الاقتراب	١٤٥٢٧	٢٥٤٧
٧	عملية الغلق	١٥٥١٣	٤٥٨٧
٨	عملية الاسترخاء	١٩٥٥٦	٤٥٨٢
٩	مجموع الأفكار ووضوحها	٢٣٥١٣	٦٥٠٢
١٠	عملية الاعداد الثالث	١٥٥٥١	٥٥٢٥
١١	عملية التنفيذ	١١٥٣٩	٣٥١٣
١٢	عملية التنظيم	١٧٥٦٩	٣٥٧٢
١٣	عملية التعديل	٢١٥٧١	٥٥٧٢
١٤	حالة السيطرة	١٢٥٦٤	٠٥٧٧
١٥	العمليات اللاارادية	١١٥٧١	٤٥٤٥
١٦	الجماعة السيكولوجية	١٨٥٦٢	٤٥٩٧

ن = ٤٥ .

ويتضح من فحص الجدول السابق أن كل معاملات الارتباط بين متغيرات الدراسة هي معاملات موجبة ، كما أن نسبة ٨٤٣٪ من هذه المعاملات دالة فيما وراء مستوى ٠.١ مما يدل على عمق العلاقة بين أغلب المتغيرات المتضمنة في العملية الابداعية .

ويوضح الجدول التالي العوامل المختلفة التي ظهرت بعد اجراءات التحليل العامل ، كما بين قيم شيوخ المتغيرات وجذورها الكامنة ونسب التباين المختلفة لها :

جدول رقم (٢)

يبين المصفوفة العامليين قبل التدوير

المتغيرات	العوامل			المتغيرات
	١	٢	٣	
١	٥٧٥٢	٣٦٨٧	٣٤٩٢	عملية الاعداد الأول
٢	٩١٢٩	١٨٧٨	٠٠٠٠	الدوافع الابداعية
٣	٨٦٦٣	١٩٨٥	١٥٥٥	المراقبة والالتقاط
٤	٩١١٠	١١٢١	١٢٨٤	علمية التركيز
٥	٧٣٦٠	٢٨٧٤	٢٨٦١	علمية الاعداد الثاني
٦	٧٧٦٥	٢٨٠٢	٤٧٤	عملية الافتراء
٧	٦٥٤٣	١٥٥٤	٤٦٩٨	عملية التفكير
٨	٨٠٧٠	٠٨٨٥	١٢٧٥	عملية الاسترخاء
٩	٨٠٦٥	٠٧٥٤	٠٠٦٢	مجيء الافكار ووضوحها
١٠	٦٧٣١	١٢٠٩	٤٩٨٨	عملية الاعداد الثالث
١١	٦٨٣١	١٢٤١	٢٥٦٢	عملية التنفيذ
١٢	٧٢١١	٠٣٥٠	٠٢١٣	عملية التقييم
١٣	٧٢٠٣	٣٧٩١	٠٨٩٠	عملية التعديل
١٤	٧٨٣٩	١٣٣٦	٠١٠٠	حالة السيطرة
١٥	٦١٢١	٤٠٩٢	٤٨٥٣	العمليات اللاارادية
١٦	٥٠٤٧	٦٥٧٧	١٨١٦	الجماعة السيكولوجية
الجنس الثامن				
نسبة التباين				
١١٠٩	١٠٧٥	١٢١١	٨٢٣٣	١١٠٩
٦٩٤٣١	٦٧١٩	٧٥٦٨	٥٥١٤٤	٦٩٤٣١

(*) العلامة المشرية املت

ويبدو من فحص هذا الجدول أن العامل الأول يقترب الى حد كبير من أن يكون عاملا عاما للعملية الابداعية ، فكل التشبيحات عليه تشبيحات موجبة ودالة ، كما أن جذره الثامن ونسبة تباينه تتجاوزان الى حد كبير الجذرين الثامنين ونسبتي التباين الخاصين بالعامليين الآخرين ، على أن

هذا في حد ذاته ليس أمرا كافيا ، فلا بد من تدوير المحاور حتى نستطيع أن نتبين مدى الاستقلال أو العلاقة بين العوامل وكذلك القيام بتوزيع التشبعت على العوامل بطريقة أكثر عدالة .

**جدول رقم (٣) يبين المصفوفة العاملية بعد التدوير
المتعامد (بطريقة كايزر المعروفة باسم فارينهاكس)**

٢	العوامل (١)			٣
	المتغيرات			
١	عملية الاعداد الأول	١٠٧٥	٦٦٦٦	٣٦٤٤
٢	الدوافع الابداعية	٦٨٠٦	٢٦٥٢	٥٧٥٧
٣	المراقبة والالتقاط	٦٨٧٧	٥٢٤١	٢٥٧٨
٤	عملية التركيز	٥٨٠٨	٣٥٣٤	٦٢٩٩
٥	عملية الاعداد الثاني	٧٦٨٨	٠١٧١	٣٣٨٩
٦	عملية الاقتراب	٥٧٠٢	١٢٨٤	٥٨٦٣
٧	عملية الغلق	١٧٣٤	٢٨٧٧	٧٤٨٤
٨	عملية الاسترخاء	٦٤٥٧	٤١٠٦	٢٩٩٧
٩	مجيء الأفكار ووضوحها	٥٦٥١	٣٨٩١	٤٣٠٥
١٠	عملية الاعداد الثالث	٨٣٩٦	٠٧٧٠	٠٧٥٣
١١	عملية التنفيذ	٦٣٨٨	١٢٧٦	٣٥١١
١٢	عملية التقييم	٥٢١٧	٣٥٣٣	٣٥٣٩
١٣	عملية التعديل	٥٠٧٠	٦٢٨٤	١٣٦٣
١٤	حالة السيطرة	٥٨٨٠	٢٤٢٢	٤٧٧٣
١٥	العمليات اللاارادية	١٧٧٢	٠٥٦٣	٥٦٢٠
١٦	الجماعة السيكولوجية	١٢٠٧	٨٣٧٢	٠٦٨٩
نسبة التباين		٣٦٢٥٩	١٧٣٦٩	٢٠٨٠٢

وأي لم نجد داعيا لاضافة قيم الشيوخ للمتغيرات حيث لا يطرأ عليها أي تغير نتيجة للتدوير ، كما أن المقارنة بين نسبة تباين العوامل في هذا الجدول وفي الجدول السابق كإلية لأشهر مدى التغيرات التي طرأت على توزيعات التباين قبل وبعد التدوير دون الحاجة للدكر الكامن الجديد

ويتضح من فحص الجدولين السابقين ما يلي :

١ - أن كل معاملات الارتباط السالبة قد تحولت الى معاملات موجبة ولم يعد هناك أى تشبع سالب على أى عامل .

٢ - أن قيم شيوخ المتغيرات قد تراوحت بين ٥٢١٧ والنسبة لعملية التقييم ، ٨٦٥٠ بالنسبة للمتغير الخاص بالدوافع الابداعية ، وينضح أيضا من الجدول رقم (٢) أن أغلب قيم الشيوخ بنسبة ٨١٣٪ من مجموع هذه القيم بين مستوى ٢٣٦٢ ، ٨٦٥٠ مما يدل على وجود قدر مقبول من النبات العامل المتوفر فى عمليات القياس وأدوانه وهو يظهر من خلال حجم التباين العامل الخاص بكل متغير والذي تم استخلاصه بعد القيام بتحليل المتغيرات عامليا .

٣ - حيث أن معاملات الارتباط هى معاملات موجبة ، وكذلك تشبعات المتغيرات على العوامل بعد التدوير المتعامد هى تشبعات موجبة أيضا فقد رؤى أنه من المناسب أن نختبر الحل المائل من أجل معرفة وبيان مدى العلاقة بين العوامل ، والجدول التالى يوضح قيم العلاقات بين العوامل الثلاثة المتعامدة .

جدول رقم (٤) يوضح العلاقات بين العوامل

العوامل	الأول	الثانى	الثالث
الأول	١	٦١٧٦ (*)	٦٧١٦
الثانى		١	٥١٨١
الثالث			١

وواضح من العلاقات التى تظهر فى هذا الجدول أن الارتباطات بين العوامل تتجاوز مستوى الصدفة الى حد كبير ، وسنتكلم عن هذه العلاقات تفصيلا حين نتعرض لتفسير العوامل ، أما الجدول التالى فيوضح مصفوفة النمط العامل التى توضح التشبعات العاملية المختلفة ، أما مصفوفة البناء العامل فتوضح الارتباطات بين المتغيرات والعوامل ، وحيث ان المصفوفة الأولى « النمط العامل » هى ما تهمنى فسنعرضها هنا ونضع الأخرى فى الملاحق .

(*) العلامة المشيرة أهمية .

جدول رقم (٥) يبين المصفوفة العاملية بعد التلويز المائل

٢	العوامل	١	٢	٣
١	عملية الاعداد الاول	٢٣٢٤ (*)	٧٢٢٤	٢٩٩٢
٢	الدوافع الابداعية	٦٠٩١	- ٠٠٥٦	٤٠٨١
٣	المراقبة والالتقاط	٦٦٦٨	٣٦٦٥	- ٠٥٤٧
٤	علمية التركيز	٤١٧٥	١٢٨٠	٥٠٣٢
٥	علمية الاعداد الثاني	٩١٦٨	- ٣٠٠٨	١١٢٣
٦	عملية الاقتراب	٤٩٧٨	١١٨٤	٤٩٣٩
٧	عملية الغلق	- ١٧٦٣	١١٥٩	٨٣٩٦
٨	عملية الاسترخاء	٦٢٩١	٢٣٣٦	٠٣٨٦
٩	مجيء الافكار ووضوحها	٤٧٢٤	٢٧٠٢	١٨٤١
١٠	عملية الاعداد الثالث	١١٠٧١	- ٢٠٨٠	- ٢٦٦٨
١١	عملية التنفيذ	٧١٣٢	١٩٢٣	- ١٦٩٥
١٢	عملية التقييم	٤٥٣٢	١٩٦١	١٧٠٤
١٣	عملية التعديل	٤٣٢٢	٥٧٨١	١٥٥٨
١٤	حالة السيطرة	٥٣٠٤	٠١٤٨	٣٢٤٢
١٥	العمليات الادارية	- ١٤١٠	- ١٤٠٥	١٠٣٨٦
١٦	الجماعة السيكلوجية	- ١٤٥٩	٩٧٩٦	- ١٢٠٤

ويتضح من مقارنة التشبعات المختلفة للمتغيرات على العوامل المتعامدة والمائلة أنه لم تطرأ تغيرات جوهرية على طبيعة العوامل المتعامدة أو معناها ولذلك سوف نقتصر في تفسيرها للعوامل على العوامل المتعامدة ونشير اذا لزم الأمر الى التغيرات التي طرأت على تشبعات أى متغير على أى عامل ، وسيكون مفيداً أن نفعل ذلك من خلال الجدول التالى الموضح للتشبعات الجوهرية .

ن = ٤٥

= العلامة العشرية أهملت .

جدول رقم (٦) يبين التشبعات الجوهرية (*) للمتغيرات

على العوامل المتعامدة والمائلة

٢	العوامل	العوامل المتعامدة			العوامل المائلة		
		١	٢	٣	١	٢	٣
١	عملية الاعداد الأول	٦٦٦٦			٧٢٢٤		
٢	الدوافع الإبداعية	٦٨٠٦	٥٧٥٧		٦٠٩١	٤٠٨١	
٣	عملية المراقبة والالتقاط	٦٨٧٧	٥٢٤١		٦٦٦٨		
٤	علمية التركيز	٥٨٠٨	٦٣٩٩		٤١٧٥	٥٠٣٢	
٥	علمية الاعداد الثاني	٧٨٧٧			٩١٦٨		
٦	عملية الاقتراب	٥٧٠٢	٥٨٦٢		٤٩٧٨	٤٩٣٩	
٧	عملية الغلق		٧٤٨٤			٨٣٩٠	
٨	عملية الاسترخاء	٦٤٥٧	٤١٠٦		٦٣٩١		
٩	مجيء الافكار ووضوحها	٥٦٥١	٤٣٠٥		٤٧٢٤		
١٠	عملية الاعداد الثالث	٨٣٩٦			١٠١		
١١	عملية التنفيذ	٦٣٨٨			٧١٣٢		
١٢	عملية التقسيم	٥٢١٧			٤٥٣٧		
١٣	عملية التعديل		٦٢٨٤		٤٣٢٥	٥٧٨١	
١٤	حالة السيطرة	٥٨٨٠	٤٧٧٣		٥٣٠٤		
١٥	العمليات الارادية		٨٦٢٠				١٠٢٨٦
١٦	الجماعة السبكولوجية	٨٣٧٢			٩٧٩٦		

= العلامة العشرية أهملت .

(*) وفقا لمعادلة بيرت وبانكس التي سبق ذكرها في فصل الاجراءات فان جوهرية

التشبع على العامل الأول عند مستوى ٣٧٠ وعلى العامل الثاني عند مستوى ٣٨٢ وعلى

العامل الثالث عند مستوى ٣٩٦ .

والآن نبدأ فى تفسير عواملنا اعتمادا على الحل المتعاند ، وعلى أعلى التشبعات على كل عامل .

تفسير العامل الأول :

فسر العامل الأول على أنه عامل « التنظيم الابداعى للمدرجات » أو عامل « التنظيم الادراكى » ، فأعلى التشبعات على هذا العامل هو تشبع المتغير الخاص بعملية الاعداد الثالث التى هى أساسا عملية تنظيمية يقوم بها عقل المبدع للفكرة الابداعية بعد وضوحها ، يلى ذلك فى التشبع المتغير الخاص بعملية الاعداد الثانى والتى هى أيضا عملية تنظيمية يقوم بها المبدع لفكرته قبل وضوحها وقبل أن تأخذ شكلها النهائى وبعد التقاط المثيرات الخاصة بها خلال عملية المراقبة والتقاط وهى ذات التشبع المرتفع الثالث على هذا العامل ، فهنا نجد ميلا لدى المبدع لتنظيم المدرجات التى التقطها بطريقة ابداعية ، وعندما نفحص التشبعات المرتفعة والدالة الاخرى على هذا العامل يتضح لنا أن عملية التنظيم الابداعى للمدرجات هذه لا يمكن أن تتم الا فى ظل دافعية ابداعية مرتفعة ، كما أنها تحتاج أيضا الى قدر مرتفع من التركيز الابداعى ، وأثناء تنظيم المدرجات ابداعيا يحاول المبدع أن يدنو من فكرته وينظر اليها من زوايا مختلفة وعديدة ، فهو يقترب منها ويتعد عنها « يسترخى » ويحاول من خلال عمليات التقييم المستمرة والمتعاقبة لها أن يجعلها أكثر وضوحا ومناسبة وتنظيما ، بعبارة أخرى يحاول المبدع من خلال عمليات التنظيم والتقييم المتوالية لفكرته وما يحيط بها من مشاعر وصور وأهداف ان يصل الى حالة السيطرة أى الى أنسب نظام يمكن أن تشكل الفكرة من خلاله .

والابداع عموما يبدو أنه محاولة من المبدع لتنظيم العالم أو الواقع المدرك ، يتم هذا عموما فى حياة المبدع ، وتستند هذه المحاولة وتبلغ أوجها فى لحظات أو فترات خاصة من حياته وهى تلك التى تنشط فيها العملية الابداعية ، فالمبدع يتحرك من فوضى الأشياء والمدرجات وعدم مناسبتها الى تكامل الانظمة وتناسبها واتساقها وجودتها وأصالتها ، مارا خلال ذلك العديد من العمليات الابداعية وملتقطا أثناءها العديد من المنبهات والمعلومات والهاديات ، فهو أكثر حساسية من غيره لأى خلل يلاحظه فى أى نظام من أنظمة الحياة .

تفسير العامل الثانى :

فسر العامل الثانى على أنه « العامل الاجتماعى للابداع » وكون هذا العامل اجتماعيا لا يعنى أنه موجود خارج المبدع فى المجتمع ، بل يعنى أن

عملية الابداع رغم فرديتها الظاهرة ، هي عملية تفاعلية تحدث بين المبدع والواقع الاجتماعى المحيط به ، كما يعنى أن نشاطات هذا العامل تتم عمليات تشكيلها الأول ، ثم عمليات توجيهها بعد ذلك فى ظل مؤثرات اجتماعية ذات طبيعة خاصة تستقى منها عملية الابداع أصولها ومواردها ثم تحاول بعد ذلك أن تعود اليها فتخصبها وتمدها بمياه جديدة فأعلى تشبع على هذا العامل خاص بعملية العرض على الجماعة السيكولوجية سعيًا وراء التقييم الموضوعى للقصة بعد تشكيل فكرتها وطلبًا للعائد المناسب لها ، وقد تنم هذه العملية قبل تشكيل الفكرة وخلال عملية بلورتها ، فالجماعة السيكولوجية يمكن أن تساهم فى انتاج الأفكار غير المكتملة وفى تشكيلها .

ويلى التسبب السابق التسبب الخاص بعملية الاعداد الأول ، أو تكوين الاطار ، وهى الفترة التى يلاحظ فيها المبدع وينتقى ما يراه أنسب من غيره لتكوين معايير وانجاءاته الابداعية ، ومن خلال علاقاته المباشرة أو غير المباشرة بالمبدعين بصفة خاصة ، وبالمجتمع بكل ما يجرى فيه من مظاهر السكون أو الحركة .

ويتضح من فحص التشبعات الدالة الأخرى على هذا العامل أن الواقع الاجتماعى بما فيه من متغيرات ومحددات يساهم أكبر مساهمة فى تهيئة الظروف المناسبة للتقاط الأفكار وتعديلها وتوضيحها ثم تشكيلها ابداعيا واعادتها الى هذا الواقع فى محاولة للتأثير عليه بطريقة أو بأخرى ، وعموماً يمكننا تلخيص ما سبق عن هذا العامل بأن نقول انه يتضمن أساسا جانبين :

١ - جانب اجتماعى سابق على الابداع الفعلى ويتمثل فى عملية الاعداد الأول أو تكوين الاطار .

٢ - جانب اجتماعى ملازم ثم لاحق للابداع الفعلى ويتمثل فى أوضح صوره من العلاقات التى تقوم بين المبدع وبين الجماعة أو الجماعات السيكولوجية التى يفضل الاتصال بها .

تفسير العامل الثالث :

فسر العامل الثالث على أنه عامل « التركيز الابداعى » ، فمن الواضح من خلال التشبعات المرتفعة على هذا العامل أنه يتعلق أساسا بالجوانب الدافعية والمزاجية والعقلية « الداخلية » للمبدع وهى التى تكون اذا ما أضفنا اليها الجوانب الادراكية للعملية الابداعية ، المناخ السائد فى

الابداع عموما ، وكما توضح ذلك قيم الشيوخ المرتفعة لهذه المتغيرات ، وقد لجأنا الى تسمية هذا العامل بعامل التركيز الابداعي ايمانا منا بأن العوامل يمكن بل ويحسن تفسيرها في ضوء اتجاه منغيرانها المحددة وحيث أن المتغير الأول صاحب أعلى تشبع على هذا العامل وهو الخاص بالجوانب أو العمليات اللاارادية هو متغير عام أو حالة عامة هي حالة الاستنارة ، وهي حالة غير محددة تماما ولا تخضع للضبط الارادى المباشر من المبدع فقد استبعدناها في عملية تسمية هذا العامل وان لم نستبعدنا في تفسيره ، كذلك كان الأمر بالنسبة للمتغير صاحب أعلى تشبع تال للتشبع السابق وهو المتغير الخاص بعمليات الغلق أو صعوبات التفكير فهي حالات عامة وغير مرغوب اعتمادنا في تسمية هذا العامل على المتغيرات الثلاثة التالية « التركيز » الاقتراب أو الدوران حول الفكرة ، الدافعية الابداعية « مع وضع المتغيرين فيها أيضا ، ولذلك ، وتأكيذا منا للقيمة الايجابية لعملية الابداع فقد السابقين في الاعتبار أيضا أثناء عملية التفسير ، وقد سمي هذا العامل بعامل التركيز الابداعي على أن يفهم من ذلك أن عملية التركيز ليست هي عملية عقلية فقط أو عملية مزاجية أو دافعية فقط ، بل هي كل ما سبق في مكون واحد ، وكون المتغير الخاص بالغلق أو صعوبات التفكير مرتفع التشبع (الارتباط) على هذا العامل يؤكد أن عملية التركيز الابداعي ليست أمرا سهلا ، بل هي أمر شديد الصعوبة والتعقيد ، هي عملية تتم في ظل ظروف معوقة ومحبطة ، لكنها تستمر رغم ذلك وبقوة الدافعية الابداعية ، والهدف الأساسي لهذه العملية — كما هو هدف العمليات والعوامل الابداعية الأخرى هو تحقيق السيطرة على الموضوع الخاص بالابداع .

هذا عن تفسير العوامل الثلاثة المتعامدة أو المستقلة ، أما اذا فحصنا العلاقات الموجودة بينها كما يوضحها الجدول الخاص بالعلاقات بين العوامل لظهر لنا أن الأستقلال الظاهر بين هذه العوامل هو أستقلال نسبي أو ظاهري ، أي أنه ليس أستقلال تاما ، فالعامل الأول الخاص بالتنظيم الادراكي قد ارتبط بالعامل الثاني « الاجتماعي » بمقدار ٠٦٢ وارتباط بالعامل الثالث « التركيز الابداعي » بمقدار ٠٦٨ مما يدل على أن هناك علاقات بين هذه العوامل تتجاوز مستوى الصدفة الى حد كبير ، وكون الارتباط بين العاملين الأول والثاني أقل من الارتباط بين العاملين الأول والثالث . قد يشير الى أن هناك علاقة أكبر بين عمليات التنظيم الادراكي وعمليات التركيز الابداعي من تلك العلاقة التي بين التنظيم الادراكي والاتصال بالجماعة السيكولوجية مثلا ، ويبدو هذا منطقيا الى حد كبير فالتركيز يحتاج الى تنظيم ادراكي ، والتنظيم الادراكي يحتاج الى تركيز والعلاقة بينهما أمر لا يمكن انكاره سيكولوجيا .

وتمسبا مع ما سبق أيضا فان علاقة لعاملين الثاني والثالث هي
٥٢ر٠ فقط مما يدل على أنه رغم وجود قدر من الارتباط بين عمليات
الاتصال بالجماعة السيكلولوجية وعمليات التركيز الابداعي الا أن هذا
الارتباط ليس هاما وكبيرا كما هو الحال في العلاقة بين عمليات التركيز
وعمليات التنظيم الادراكي ، والتي تبدو العلاقة بينهما واضحة من خلال
معامل الارتباط الخاص بالعاملين المتعلقين بهما ، ومن خلال منطق الوقائع
السيكلولوجية أيضا .

القسم الثانى

العمليات : أو التحليل

١ - عمليات الاعداد الأول :

تشير الاجابات على الاسئلة هنا الى أن محاولات الكتابة قد بدأت لدى القصاصين منذ فترة مبكرة من حياتهم وأنهم توقفوا بعد هذه البدايات الأولى من أجل تحسين اللغة والقدرة التعبيرية والاكثار من القراءة وتجارب الحياة والفهم الأكثر دقة وعمقا لطبيعة فن القصة القصيرة ، وقد مروا خلال هذه الفترة المبكرة من حياتهم بمرحلة محاولة التعلم على يد أو كتاب معين مصرى أو أجنبى لكنهم حاولوا بعد ذلك التخلص من آثار سيطرته عليهم ، يقول يوسف القعيد « عالميا كان هناك تشيكوف وموباسان ومصريا يهزنى يوسف ادريس وعريبا الكاتب السورى زكريا تامر ، كان شكل هذا التأثير أننى تعلمت على أيديهم كيف تكتب القصة القصيرة ، أما تطور هذا التأثير فقد كان غريبا ، ووصل الأمر فى الفترة الأخيرة الى رفضهم التام . لم تعجبني شاعرية تشيكوف أمام قسوة الواقع فى مصر ، ولا الاختزال الشديد والرمز لدى زكريا تامر ، فهو يتطلب قارئاً من نوع خاص ، أما موباسان فهو يبدو بعيدا جدا عنا ، يوسف ادريس لم يتقدم بعدها كثيرا ، وعموما لكل فترة كتابها الذين يؤثرون ، وتلك عملية أبعد من « أرخص ليالى » . . . من المؤكد أنها كانت بدايته وان لم يتطور بعدها كثيرا ، وعموما لكل فترة كتابها الذين يؤثرون وتلك عملية مستمرة » .

ويؤكد هذه العمليات التى أشرنا إليها وهى الخاصة بمحاولة الكتابة - التوقف عنها - متابعة آثار كاتب أو كتاب معينين والتأثر بهم ما قرره ابراهيم أصلان « لم تكن تجارب السنة الأولى مرضية بالنسبة لى ، وكان هناك من يكتبون القصة القصيرة بصورة أفضل ، كنت محنقا وكانت هذه هى المرة الأولى التى أتوقف فيها عامدا . . . ولم تكن محاولة للاقتداء ، لكنها كانت رغبة فى التعلم ، كيف يرى ، كيف يسمع ، لفت همنجواى نظرى على سبيل المثال لأنه يستخدم اللغة بما يتفق مع أغراض » . . . ويقول « محمد مستجاب » عن هذه الفترة أو هذه العمليات أيضا « لقد كنت أقرأ

ما يصل الى يدي وأكتب ما يعن لي ، دون أن أضع في الحساب أن أصبح كاتباً للقصة القصيرة ثمة هواجس كانت تطارد نومي ويفتني لتفسد على متعا كثيرة ، لكن الأمر اختلف حينما عرفت أنه يمكن لي كتابة القصة ومن الغريب أنني لم اكتشف ذلك ، انما نبهني اليه - صدفه - صديق تعرفت عليه صدفه ، هذا الذي أصبح واحداً من أهم كتاب المسرح اليوم : علي سالم ، لقد قال لي في مقهى المحطة بأسوان : أنت كاتب قصة قصيرة ولم أكن قد كتبت حتى هذا اللقاء قصة واحدة ، وبعد ذلك بأسابيع كتبت قصتي الأولى ، *

ويقول أيضا « لقد تأثرت باحسان عبد القدوس ، والسباعي وموريس بلان ، وأرثر كونان دويل ، وعبد الحليم عبد الله ، ومحمود البدوي ويوسف ادريس ، ونجيب محفوظ ، ومصطفى محمود ، غير أن كل هؤلاء - دون استثناء - سقطوا من الدائرة حينما قرأت البيركامي وصبري موسى ، اننا في القرى نتخبط ولا نجد من يختصر لنا الطريق الى الأجود ، وكان ذلك يحتاج الى قدر مذهل من الوقت والبصيرة والأوراق ولو قرأت رباعية الاسكندرية للداريل مبكرا لافادني ذلك كثيرا ، لكن الأمر أخذ شكلا آخر حينما عملت في مشروع السد العالي ، لقد استبان لي أن ما يكتب ليس هو الواقع ، ولا هو صياغة للواقع ، كان تخليقا أكثر منه خلقا ، وبين التخليق والخلق عشت سنوات بالغة النكد ، *

هذه الأقوال وغيرها تشير الى أهمية هذه الفترة المبكرة من حياة الكاتب وأهمية ما يحدث فيها وأهمية وجود من يشجع الكاتب وينبئه ويوجهه التوجيه السليم ، وهي تشير أيضا الى أن عمليات الاقتداء التي تتم لاتحدث كيفما اتفق بل هو اقتداء واع متبصر يأخذ ويخزن بطريقة انتقائية ، لكن الكاتب لا يكتفي بما يأخذه من غيره من الكتاب بل يحاول تطويره والارتقاء به بما يتناسب مع وعيه المبكر والنامي بدوره ووجهة نظره تجاه الحياة .

العمليات الدافعية :

وتشير الاجابات على الاسئلة الى أن الكاتب يشعر أنه مدفوع للكتابة دفعا وأن الكتابة تمثل أهم ما في حياته ، فلا يوجد في الحياة ما يمكن أن يمنعه من مواصلة اهتماماته الأدبية سوى ما لا يخضع للارادة مثل المرض أو العجز أو الموت ، فالدوافع للكتابة هي من أهم الأشياء التي تدفع الكاتب للبقاء في الحياة وهو يؤثر على حياته عموما ويمنحه احساسا بالسعادة المتمزجة بالتوتر ، أو « السعادة المتوترة كما عبر بعض الكتاب

واجابة على السؤال رقم (٩) ذكر الكتاب أهمية الدوافع التالية فى عملية الابداع وهى مرتبة وفقا لأهميتها » :

- ١ - الرغبة فى التأثير فى الحياة وأن يكون لهم دور فيها .
- ٢ - الرغبة فى التعبير عن الذات وتحقيقها .
- ٣ - تحقيق التوازن الداخلى .
- ٤ - حب الفن والقراءة والكتابة .
- ٥ - الرغبة فى التعبير والتحسين المستمر للواقع .
- ٦ - الرغبة فى أن يكون المرء مبدعا .
- ٧ - التعبير عن حالة من عدم التطابق مع الواقع .
- ٨ - الشعور بالالتزام تجاه المجتمع .
- ٩ - الرغبة فى التعبير عن الآخرين .
- ١٠ - التعبير عن حالة من القلق المستمر .
- ١١ - الرغبة فى مواصلة الحياة بطريقة أفضل .
- ١٢ - الاحساس الدائم بالرغبة فى التحدى والاستكشاف .
- ١٣ - الحاجة الى التقدير من الآخرين .
- ١٤ - الرغبة فى الشهرة .
- ١٥ - الرغبة فى الكسب المادى .

وواضح أن الدوافع الابداعية النابعة من الداخل والمتجهة الى أهداف وأبعاد أكثر اتساعا وعمقا قد استقطبت النسبة الكبرى من دوافع الكتابه عموما ويبدو هذا واضحا اذا قارنا الدوافع الأولى من هذه القائمة بالدوافع الأخيرة ، على أن الشئ الجدير بالملاحظة هو ما أتضح من فحص اجابات الكتاب من أن الدوافع الابداعية يمكن تصنيفها فى مستويات ثلاثة متدرجة العمومية والانتشار :

- ١ - دوافع عامة ومستمرة وهى ما تتعلق بعملية الابداع عموما ودون التحدد بعمل فنى معين أو قصة معينة وقد عبر عن هذا عبد الغفار مكاوى الدافع للكتابة يعطى معنى لحياتى ، الكتابة أبقي من أى عمل من أعمال « أكل العيش » لأنها بديل عن البكاء والصراخ والموت غما وقهرا ومللا وهى وسيلتى للتعبير عن همومى فى صور فنية حتى لا تقتلنى هذه الهموم ، أننى من خلال هذه الكتابة أتجاوز هذه الهموم ، وأخلد وجودها العابر « ويقول » سعيد سالم « أننى أشعر بشهوة حادة لا تقل عن شهوة رجل لأمراة مثلا أو شهوة الجائع للطعام أو المتعب للنوم ، وأنا أسميها شهوة

الابداع « هذا الدافع العام للكتابة أو الابداع له دور خاص في حياة الكاتب فهو ينتشله - كما يشير أمين ريان - « من الاحساس بالسقوط بين الأدوات والأشياء والغوغاء » وهذا الدافع مستمر - ولو بطريقة كامنة - مع الكاتب في كل أعماله الفنية .

٢ - دوافع « خاصة - عامة » وهنا تكون عموميتها بالنسبة للكاتب الواحد وليس لكل الكتاب كما هو الأمر بالنسبة للدوافع الابداعى العام وما يقصد بعموميتها هنا أنها تستمر مع الكاتب لفترة طويلة تصطبغ بها أغلب أعماله ، فهذه الأعمال غالباً ما تظهر تحت وطأة سيطرة اتجاهات أو أفكار أو مشاعر معينة على كاتب معين ، يقول عبد الوهاب الاسوانى « عادة ما أكتب ما لا أقدر على فعله » ومرة أخرى يقول عبد الغفار مكاوى « من الحالات التى تدفعنى للكتابة ، الرغبة فى توجيه رسالة أقول فيها أن الواقع ليس كما ينبغي أن يكون ، الحياة أجمل والانسان أعظم مما تتصورون ، لا أنا ولا غيرى نستحق معاملة الكلاب ، اننى استحق الحب والفهم ممن أحببتهم ولم يحبونى » .

٣ - دوافع خاصة أو حالات وتظهر فى حالة معينة وتنتهى بانتهائها وقد يشعر الكاتب بإمكانية تحويل حالة معينة الى عمل فنى أما لتناسب هذه الحالة مع شكل فنى معين أو لأن عملية الكتابة ذاتها تحقق له وظيفة سيكولوجية هى خفض التوتر واعادة التوازن ، يقول « شمس الدين موسى » الكتابة وسيلة للاحساس بالتوازن عندما يختل ، وقد تكون لدى الكاتب رؤية أو وجهة معينة من النظر تجاه الحياة أو الواقع فيحاول تشكيلها فنياً كما يشير محمود عبد الوهاب « اننى أحاول أن أجسد رؤيتى المتجددة للحياة فى قالب فنى قادر على اثارة وعى القارئ بنفسه وبالعالم » وبالإضافة الى ما سبق قد يضاف بعد آخر الى الابعاد الاجتماعية والسياسية أو الانسانية للأدب وهو البعد الجمالى قد يرغب الكاتب فى لحظة ما أو فى أوقات كثيرة فى ممارسة عمليات الخلق والتشكيل الجمالى ، يؤكد هذا جميل عطية ابراهيم « بالإضافة الى ما سبق فانى أرغب فى عملية الكتابة نفسها ، والخاصة بهذا الشكل الفنى » .

وبالطبع لا يمكن واقعيًا أن نفصل بين هذه الدوافع العامة ، الخاصة ، والحالات فهى تتفاعل معا بحيث يصير وجود ونشاط كل منها متعلقا بوجود ونشاط الدوافع الأخرى وبطريقة غاية فى التعقيد وان كان هذا لا يمنعنا من محاولة نصنعها من أجل مزيد من التحديد وتبسيط الفهم لهذا المحال المركب .

٣ - عمليات المراقبة (بمعنى الملاحظة المركزة) والالتقاط : أو العمليات الإبداعية الإدراكية :

وتشير الاجابات على الاسئلة هنا الى أن عملية الكتابة غالبا ما تبدأ في ذهن الكاتب بتساؤل معين يتعلق بمشكلة معينة ، وأن عملية الكتابة ذاتها هي محاولة للإجابة عن هذا التساؤل ، وعادة ما تبدأ القصص بملاحظات معينة تسترعى انتباه الكاتب ثم تفرض الأفكار المتعلقة بهذه الملاحظات نفسها عليه - بعد ذلك - بطريقة ملحة ، وإذا فحصنا الاجابات التي ذكرها الكتاب وخاصة بالموضوعات التي تستلفت انتباههم لوجدناها أمرا غاية في التحكم والتعسف ولذلك سوف نكتفى بذكر بعض الامثلة من تلك الموضوعات التي وردت عند بعض الكتاب ثم نحاول بعد ذلك تصنيفها بطريقة نقرب من الحقيقة ولكنها قد لا تتطابق معها ، وهذه الموضوعات هي : القطارات - المحطات - التجارب التي تنبه الشعور بالزوال (أمين ريان) التجارب الشخصية والذات (فؤاد حجازي ، عبد الغفار مكاوي) ، التأملات والأفكار - حياة المدينة - المشكلات الاجتماعية (نجيب محفوظ) ، الاستغلال - الظلم - الشرف - العمل ، اضرابات العمال واعتصامات الطلبة - المظاهرات (محمد صدقي) كفاح بعض الطبقات في سبيل تحقيق حياة أفضل ، المتناقضات في حياتنا اليومية (احسان كمال) ، كافة ما يتعلق بالعلوم والتقدم العلمي وأحلام العلماء (نهاد شريف) ، ملامح وجوه الأطفال وهم نائمون ، منظر الفقراء البسطاء وهم يأكلون وكذلك طريقة مشيهم وشكل أحذيتهم (سعيد سالم) ، الاماكن العامة (محمد الجمل) ، الدم الأحمر القاني المنسكب من رقاب الأطفال ، النار المشتعلة في حقول القمح ، البهائم التي تعود آخر النهار الى المنزل لتموت من تأثير السموم ونبات التاتورة ، قتل العشاق بدم الحيض المدسوس في الشاي آذان الفجر ، بيع البهائم المدرة اللبن لشراء البنادق ، اجلال البلهاء وذوى اللعاب السيال ، الركود الى التماثيل والأحجية كسبيل للنجاة من العفاريات والأمراض وكسب القضايا ، بتر الأصابع أثناء الذهاب للجيش ، حزن الزرع حتى الجفاف والذبول لموت زارعيه (محمد مستجاب) ، لافتات المحلات التجارية ومدى انطباق اللافتة مع سلوك صاحبها (محمد خليل) وحياة الصيادين ، والخمارات ، وحياة الليل في الاسكندرية (براء الخطيب) القبور والمنازل القديمة (محمد الراوي) المواقف الانسانية الضاحكة والمرحة (أحمد نوح) ، الأحلام والمواقف الانسانية - المشكلات السياسية ، الظلم ، الصراع الطبقي (سليمان فياض) العلاقات الخفية والعلاقات المعقدة (عبده جبير) ، الحرمان (محمد كمال محمد) ، مشكلة الزحام وسرعة المواصلات والقلق والتناقض والتنافس الحضارى والحوادث (يوسف الشاروني) وسائل النقل العامة ، المقاهي (جميل عطية ،

سعيد حامد) ، المناطق الشعبية ، وكذلك البارات القذرة مثل « تحت البواكي » بالعتبة ، الزحام في المدينة ، الاماكن العمالية ، المستشفيات ، اللصوص ، الحرب ، الهموم (رفيق بدوى) أى خلل فى الواقع (يوسف القعيد) ، من أهملهم التاريخ (جمال الغيطانى) ، أية مجتمعات غنية بالمشيرات الفنية (مجيد طوبيا) المدهش الذى تحجبه الالفه والعاده ، الانماط الغريبة من التفكير والسلوك (ابراهيم أصلان) ثم : الدفاع عن حرية المرأة ، جوهر حرية المرأة ، الجهل بأسرار الجنس فى مجتمعنا (أليفة رفعت) •

وهكذا نرى أن أى موضوع من موضوعات الحياة ، أى مثير من مثيراتها ، أية فكرة من أفكارها يمكن أن تتحول الى قصة قصيرة ، لكن الملاحظ أيضا رغم ذلك أن هناك موضوعات أثيرة لدى كل كاتب يتعلق بها أكثر من غيرها وقد تتحول هذه الموضوعات مع تطور حياة الكاتب ونمو أفكاره وتعدد اهتماماته واتجاهاته ، والذكريات أيضا يمكن أن تتحول الى قصص قصار لكن ذلك يتم بطريقة معينة أو بالأحرى بطريقة غير مباشرة ، يقول عبد الغفار مكاوى « أن الذكريات تفرض نفسها على ، لكن « الشوكة » التى تستثيرها غالبا ما تأتى من مواقف أو لحظة حاضرة ، بل ربما استطاعت كلمة واحدة سمعت صدفة أن توقظ قصة ما كانت نائمة فى صندوق الذاكرة وتنتظر المفتاح ويتفق معه « محمد مستجاب » فى ذلك ويضيف بأن الذكريات تساعده على إبراز شيء ما وصياغة أكثر من أن تكون فى حد ذاتها موضوعات أساسية للكتابة •

وتشير الاجابات أيضا الى أن الكتاب يسجلون ملاحظات معينة يستفيدون منها بعد ذلك ، وهم كذلك يحبون الاستماع للاحاديث التى تدور بين الناس ، وطريقتهم فى النظر الى الموضوعات التى يكتبون عنها تختلف عن طريقتهم فى النظر الى غيرها فالأولى يكون اهتمامهم بها أكثر امتدادا أو عمقا ، وهناك أسباب تجعلهم يهتمون بهذه الموضوعات مثل هذا الاهتمام منها : تناسب هذه الموضوعات مع أفكار الكاتب ، يقول فؤاد حجازى « اننى أهتم بالموضوعات التى تناسب مع ما أعتقد من أن قيمة الانسان مستمدة من مقاومته لكل ما يعوق تقدمه » وكذلك طرافة فكرة القصة وقدرتها وتناسبها مع حالة الكاتب وقتئذ كلها أسباب تجعل الكتاب يهتمون بهذه الموضوعات دون غيرها ، وفى ابداع القصة القصيرة يمكن أن تتحول الكلمة العابرة التى سمعت اتفاقا ، والنظرة الزاخرة بالمعانى فى عيون الكائنات الآدمية أو غير الآدمية ، والاصوات ذات الدلالة الآدمية كانت أو غير آدمية ، الى موضوعات مناسبة للكتابة ، لكن التطورات التى تطرأ على الأفكار منذ ظهور « المحرك » أو « البذرة » وحتى تشكلها فى قالب فنى نهائى هو أمر فى غاية التركيب والتعقيد ، ويؤكد هذا يوسف

القعيد « المشكلة صعبة في الواقع وان كان ذلك لا يتم بطريقة منظمة ، ربما سمعت كلمة وبعد أعوام اكتشف فيها فكرة قصة ، ربما شاهدت منظرا أو عاصرت موقفا ثم استعدته بعد فترة طويلة من الوقت فاكتشفت فيه خبرة عمل أدبي ، لكنني لا أحب الكاتب الذي يخرج من بيته وقد أعد نفسه لكي يلتقط كل ما يجسده في الحياة اليومية ، هنا ستكون المسألة مفتعلة ، الكاتب اذن لا يتعامل مع الأفكار والاحساسات والصور والخواطر الخاصة بقصصه نعاملا مباشرا أو كما هي بل لابد له من أن ينظمها ادراكيا ومن خلال عمليات التنظيم وإعادة التنظيم هذه يكتشف ما تتضمنه القصة من دلالات ومعان ، كما يمكنه أن يضيف اليها أبعادا جديدة من واقع انعكاساتها في وعيه ، وهنا يمكن أن تتحول هذه المتناثرات والشظايا الادراكية الى كل متكامل موحد له قيمته الفنية وله مغزاه .

٤ - عملية الاعداد الثاني :

تشير الاجابات على الأسئلة الى أن الكتاب يلتزمون بترتيبات معينة يرون انها هامة في تسهيل عملية الكتابة ، في تلك الفترة التي تكون فيها فكرة القصة مازالت في حاجة الى مزيد من التوضيح والتحديد لضمونها وهيكلها البنائي ، ومن هذه الترتيبات نجد : العزلة ، التدخين ، سماع الموسيقى ، . . الخ « فأمين ريان » و « براء الخطيب » يتفقان على أهمية المشي لمسافات طويلة ، و « عبده جبير » و « سليمان فياض » يؤكدان أهمية توفر القدر المناسب من الاكفاء المادي والى حين ، أما يوسف القعيد و « فؤاد حجازي » و « مرعى مذكور » فيتفقون على أهمية قراءة أعمال معينة ، فالكاتب الأخير يقول « أثناء الاعداد للكتابة ، أحب العودة الى التراث . . شخصيتين من « الأغاني » أو فصل من « النفرى » أو بعض سير العظماء أو السير الشعبية . . . هذا ينقلك نقلة تاريخية كبيرة ثم تعود بقوة الى شخصياتك وتكتب أما « مجيد طوبيا » ويتفق معه « عبد الوهاب الاسوانى » فيشير الى أهمية وجود موسيقى معينة خاصة بالقصة أثناء الاعداد لكتابتها « كل قصة لها موسيقاها الخاصة بها ، وبايقاع مناسب لايقاع القصة الفنية ، ويتم اختيارها عن وعى أو عن غير وعى ، واذا كان اختيارها خاطئا فاننى بعد فترة من الكتابة أشعر بوجود ضجة حولي ، وبأنها غير ملائمة لما أنا فيه فأغيرها .

وقد ذكر العديد من الكتاب أهمية عادات أخرى مثل النظافة ، رؤية أشياء معينة ، زيارة أماكن خاصة ، الراحة ، تناول طعام معين . . الخ . والغرض الأساسى من هذه العملية وما يحدث خلالها هو تهيئة مناخ نفسى مناسب يمكن أن تتبلور خلاله الأفكار كما يسمح هذا المناخ أيضا بإعادة تقييم « محرك » الفكرة أو مثيرها أو بذرتها التي توصل اليها الكاتب

أو التقطها خلال عمليات المراقبة والالتقاط ، ويصاحب هذا التقييم أيضا محاولة ايجاد الشكل الفنى المناسب لذلك المحرك أو تلك البذرة ، وأثناء ذلك تكون حالة الكاتب كما يذكر ابراهيم أصلان وكما يتفق معه أغلب الكتاب هي الاغتراب باحتمالات انجاز عمل فنى ، والخوف من ألا يتحقق ذلك بصورة جيدة .

هـ - عملية التركيز :

وتشير الاجابات عن الأسئلة الى أن التركيز الذهنى هو أمر ضرورى وجوهري لكتابة القصة القصيرة وتبدأ عملية التركيز بطريقة تدريجية ولكنها عندما تتم تكون كاملة ويصعب الفكك من أسرها ويستعين الكاتب بأشياء معينة لتسهيل حدوث عملية التركيز كالشاي والقهوة والتدخين والموسيقى ، أو القيام ببعض الأعمال اليدوية . . الخ وعملية التركيز يمكن أن تتم وسط الناس لكن لابد للكاتب كى يقوم بها أن يفصل نفسه ذهنيا عن الناس وان كانت عملية التركيز هذه تتم بصورة أفضل وأيسر فى ظل العزلة والصمت وغياب المشتتات وهى تتعلق أولا بفكرة غير متكاملة أو واضحة أو تتعلق بمجموعة من الأشياء - الصورة والاحساسات والافكار - المتناثرة وغير المترابطة ومع تزايد عملية التركيز يزداد الترابط والوضوح ، يقول « عبد الغفار مكاوى » تتعلق عملية التركيز برؤية التفاصيل والتفصيلات ورصدها وتدوينها ، أن الذاكرة البصرية هى عندى التى تقوم بالعبء الأكبر للتركيز ، لأن الأساس الوجدانى والافكار بوجدان ولا صعوبة فى استحضارهما ، أى أن العناية كله هو عناء « العين الداخلية » .

وعملية التركيز كما يشببها « محمد مستجاب » هى « مثل الموجة تذهب وتجىء وتضغط ثم تذهب لكنها أبدا لا تنعدم » وهى تتعلق أيضا بكافة الجوانب المختلفة المكونة للقصة ومنها - كما يذكر « سليمان فياض » - « بناء القصة ، رسم الشخصيات ايقاع الاسلوب ، تحقيق التعادل بين الشكل والمضمون » . والكاتب يحاول أيضا من خلال التركيز تحقيق قدر معين من الترابط الفنى والمنطقى بين مكونات القصة وهو يهمل الوصول الى هذا الترابط ولو بطريقة غير واضحة لمن يتعامل مع العمل الفنى تعاملًا مباشرًا . والحالة المميزة لعملية التركيز كما ذكر « ابراهيم أصلان » والحماقى المنشاوى « وسليمان فياض هى « المعاناة بدون ألم ، أو هى حالة من يهجة الاحساس بالوقوف على حافة الكشف ومن الخوف من ألا يشير ذلك الى عمل فنى جيد » وقد تستمر عمليات التركيز لساعات طويلة وقد تمنع الكاتب من النوم ويصاحبها نسيان مؤقت لبعض الحاجات

الجسمية في سبيل اكمال العمل الفني حيث تكون لديه رغبة في العمل الشاق المصحوب بمحاولة للنفاذ الى ما وراء المظاهر الخارجية للأشياء ، لعملية التركيز تكون مصحوبة بالانتباه والتيقظ الشديدين ، وقد يشعر الكاتب خلالها أنه غير قادر على أن يطلق نفسه من اسار هذه العملية ، وأثناء ذلك تكون الأشياء والأشخاص حية في ذهنه ، كما تكون هناك صور ذهنية عديدة ، وقد يصحب عملية التركيز محاولة لجعل الحدث أشد وقعا ونأثرا وأيضا محاولة اصفاء صبغة رمزية معينة على العمل ، والتركيز الذهني يسهل عملية ترجمة الفكرة وما يتعلق بها من صور واحساسات الى كلمات مناسبة ، فمن خلاله تتضح الأفكار كما أنه ضروري في عمليات الالتقاط ، والاعداد بأنواعه الثلاثة ، والتنفيذ والتقييم وغيرها .

٦ - عملية الاعداد الثالث :

تؤكد الاجابات عن الاسئلة ، أن الكاتب يعدون أنفسهم بطريقة معينة بعد مجيء الأفكار ووضوحها وقد يكون هذا من خلال الحوار الصامت مع الفكرة وتلقيها على وجوها المختلفة ومحاولة تعميقها من خلال عمليات التنظيم واعادة التنظيم لها ومن خلال زوايا عديدة من النظر ، وقد يكون هذا التنظيم في شكل وضع خطة ذهنية أو مكتوبة لكيفية كتابة القصة . كما يهتم الكاتب أيضا بتنظيم المجال المحيط بهم بطريقة معينة استعدادا لتنفيذ العمل الفني وقد يتم هذا من خلال توفير أوراق معينة - سجائر معينة - مشروبات معينة - ضوء معين - موسيقى معينة . الخ ، ويصاحب عملية الاعداد الثالث هذه حالة من التركيز الذهني الشديد مع الشعور بالتأهب المزاجي وذلك بقصد تشكيل المجال النفسي بطريقة يتيسر معها الشروع في العمل وخلال هذه العملية يشعر القصاصون بأن القصة تزداد تبلورا ووضوحا وفائدة هذه العملية كما يشير سليمان فياض هي « محاولة الدخول في الايقاع المناسب للغة واسلوب القصة وايجاد شكل بنائي معين يتعادل مع التجربة الخاصة بها » والاسراع بتنفيذ القصة - كما يؤكد محمد مستجاب ، هو وضوح من الكاتب للفكرة ، أما الثاني لمعايشتها فهو تطويع منه لها » .

٧ - عمليات الغلق الذهني أو التعطل الذهني :

وتشير الاجابات عن الأسئلة . الى حدوث صعوبات في مواصلة عملية التفكير حينما يتعذر توضيح الأفكار لأي سبب من الأسباب ، وهذه الصعوبات قد تستمر طويلا ، وقد تتسبب في ضياع بعض الأفكار ، وهي تحدث عادة فترة من التركيز الشديد ، كما أن هناك ظروفًا ومواقف ترتبط

بحدوثها مثل تدخل الآخرين في أوقات العمل ، وصعوبات التفرغ للكتابة ، والتفكير في مدى جودة الفكرة وأصالتها ، والتعب والمرض والارهاق والتفكير أو الانشغال بأمور الحياة اليومية وقد تحدث عمليات الغلق هذه بعد الشروع في التنفيذ الفعلي للقصة ، وكما يذكر « عبد الغفار مكاوي » أحيانا أحاول كتابة قصة فتهرب مني أو تستعصى ، أما لأنها لم تكن حية وواضحة بالقدر الكافي ، أو لأنني لم أجد الشكل المناسب لها ، أو لأنها كبرت واحتاجت لتناول روائي أو مسرحي ، أو لانشغالي بأفكار أو أعمال أخرى « ويتفق معه « سليمان فياض » في ذلك ويضيف الى ما سبق تأثير الشعور بانخفاض الطاقة النفسية أو الجسمية على عمليات الغلق وصعوبات التفكير ، أما نهاده شريف فيذكر أن « عدم توافر المعلومات العلمية يمكن أن يؤثر في أحداث صعوبات في مواصلة التفكير لديه » .

فالعمل الابداعي - كما يشير الكتاب - لابد له من شروط تيسر حدوثه ، لابد من توفر المعلومات الكافية ومن وجود الطاقة العقلية والجسمية الكافية ، ولابد من توفر مناخ نفسي واجتماعي مناسب للابداع .

٨ - الدوران حول الفكرة :

وهنا نشير الاجابات عن الاسئلة . الى أن الكتاب تنتابهم حالات من الاقتراب من الأفكار ومحاولة توضيحها ثم حالات من الشعور باستعصاء الأفكار ومقاومتها لعمليات توضيحها ولذلك يبتعدون عن التفكير المباشر فيها ، وحالات الاقتراب من الأفكار يقوم بها الكتاب جاهدين بطرق مختلفة ومن زوايا عديدة ومن ذلك ما ذكره « محمد صدقي » من « حكاية الفكرة . على أكثر من شخص عادي وبأكثر من طريقة لمحاولة خلق تصور أفضل لها عقب تأمل أثر تلقيها كحكاية تحكي ، وكذلك ما ذكره « نهاده شريف » من أنه يذهب لاستشارة المختصين علميا ، ويزور بعض الجهات أو المؤسسات العلمية ويفحص الأجهزة من أجل أن يزيد أفكار قصصه العلمية وضوحا وقد يقوم الكتاب بنشاطات معينة في محاولة للاقتراب من الفكرة فجمال الغيطاني يقول « ان تدخين النرجيلة أحيانا ، والمشي جيئة وذهابا والقيام بأي نشاط مفاجيء مثل ترتيب المكتب قد يساعد في عمليات التركيز ثم الاقتراب من الأفكار » وبالإضافة الى محاولة اللف والدوران حول الفكرة والى لنشاطات المصاحبة لذلك كالتدخين وسماع الموسيقى . . الخ فان الطريقة التي أكد الكتاب أهميتها هنا هي الابتعاد عن الفكرة قليلا ثم العودة اليها بعد ذلك .

٩ - عمليات الاسترخاء الذهني :

هنا تشير الاجابات عن الاسئلة • الى أن الكتاب يبتعدون عن مواصلة التفكير المباشر في موضوع القصة حينما يتعذر عليهم مواصلته لأي سبب من الأسباب ، ففي مثل هذه الحالة يكون الاسترخاء أو الابتعاد عن التفكير أمرا ضروريا ، لكن هذا لا يعنى أنهم ينسون أفكارهم تماما خلال هذه العملية ، بل يعنى أنهم ينشغلون بها بطريقة غير مباشرة ويفكرون فيها من زوايا مختلفة ، فالأفكار تكون حية أثناء هذه الفترة ، ويفضل الكتاب ممارسة بعض النشاطات خلال عمليات الاسترخاء ممارسة بعض النشاطات مثل القراءة ، الموسيقى ، الاستماع للموسيقى ، الذهاب الى أماكن هادئة ، مشاهدة التلفزيون ، الأكل وخاصة الحلويات (فؤاد قنديل) ، اعداد أكل غير مألوف أو مشروب غير عادي (محمد مستجاب) ، لعب الورق (رفقي بدوي) رؤية البحر والمساحات المفتوحة الخضراء وغروب الشمس وشروقها ، ومشاهدة قبة السماء ليلا والقمر بدرا ، أو أسراب الطيور (نهاد شريف) ممارسة الأعمال اليدوية العادية البعيدة عن النشاط الذهني (أمين ريان ومحمد مستجاب) •

وأثناء ذلك نكون الفكرة - كما يذكر مجيد طوبيا - « مثل اللغز وموجودة في « مؤخرة الذهن » •

ويدرك الكتاب فائدة هذه الفترة وفائدة هذه النشاطات كتكتيكات مفيدة في تسهيل عمليات الوصول للأفكار ، فالابتعاد عن الفكرة - يقول محمد الجمل يجعلها تقترب •

ففائدة هذه العمليات هي في أنها تهيئ الظروف المثلى التي يمكن أن تراجع فيها الأفكار ويعاد تقويمها بعيدا عن التوترات ومواقف الشدة التي تكون حاضرة خلال عمليات التركيز المكثف وعمليات الغلق الذهني فمع الابتعاد المؤقت - كما يقول محمد مستجاب - عن التفكير في موضوع القصة « ينخفض معدل التوتر وينتظم التفكير » •

١٠ - معنى الأفكار ووضوحها :

هنا تشير الاجابات عن الأسئلة • الى أن حياة الكاتب الشخصية توحى له ببعض أفكار قصصه ، وأن الأفكار يمكن أن تأتي للذهن بطريقة مفاجئة كما أن وضوح الأفكار الغامضة يمكن أن يحدث بطريقة مفاجئة أيضا والاطار العام للقصة - أو الفكرة العامة - يأتي أولا كما تشير أغاب الاجابات ثم تكتمل العناصر والتفاصيل بالتدريج بعد ذلك يقول « جمال الغيطاني » « ان الفكرة تبرز ثم تبدأ في الاتضاح بعد ذلك »

ويقول « أحمد نوح » أن الفكرة تكون كاملة وجاهزة قبل الشروع في كتابتها « ويوضح ذلك « يوسف الشاروني » أيضا « في البداية تكون هناك فكرة عامة ثم نوضح تفاصيلها بالتدريج أى انها تتحول من فكرة هلامية الى فكرة معبر عنها » وتأتى الأفكار • وما يتعلق بها من انفعالات وصور - الى الكتاب من مصادر عديدة : من القراءة ومن مشاهدة الأفلام ، من الرحلات ، ومن مشاهدة الأعمال الفنية الجيدة ، ومن كل تلك المصادر التى سبق ذكرها ونحن بصدد الحديث عن العمليات الإدراكية أو عمليات المراقبة والالتقاط وأيضا فانه - كما يذكر « مجيد طوبيا » فان الأفكار الجيدة تولد أفكارا جيدة « ومن الصعب كما يذكر « يوسف القعيد » أن نحدد مصدر هذه الأفكار « من الحياة •• ومن الاحتكاك اليومي •• من الملاحظة المباشرة ، من القراءات •• من لحظات الوعي ، وحتى اللاوعى فى حياة الانسان •• ان كل ذلك يشكل مصادر لأفكار القصص والأعمال الأدبية » •

ووضوح الأفكار غالبا ما يرتبط بحالة من التوتر والقلق والترقب والانظار مع قدر السعادة والخوف ، وقد تأتى الأفكار فى غير أوقات الكتابة وتظل تطارد الكاتب وتلح عليه حتى يكتبها ، والكاتب يلاحظ العالم بموجوداته المختلفة ومتغيراته المتعددة ، قد يفعل ذلك عمدا وقد لا يفعله عفوا واذا اكتشف فجأة ما هو مناسب للكتابة فليس ثمة مبرر لاقتحام مفهوم الالهام هنا ، فالكاتب هو الذى يلاحظ وهو الذى يكتشف، يقول « عبد العال الحمامصي » قد يسمى البعض هذا لحظة الالهام •• لكنها فى نظرى نتيجة لعملية المعاناة الفنية وذروتها ، بجانب التمرس الذى يمكن الكاتب من اكتشاف أنجع السبل التى يسوق من خلالها عمله وتشير الاجابات أيضا الى أن الفكرة ما دامت جيدة فهى تظل مع الكاتب تعايشه وتلح عليه ولو استمر ذلك زمنا طويلا حتى يكتبها مما يؤكد أهمية « المحافظة على الاتجاه » فى الأعمال الإبداعية الجيدة •

١١ - عمليات التنفيذ وتحقيق الأعمال :

هنا تشير الاجابات عن الاسئلة الى أن الحالة النفسية المميزة للكاتب أثناء تنفيذه لعمله هى التوتر والقلق والقابلية للاستشارة مع قدر من السرور ، وانتباه الكاتب يكون شديدا ومضاعفا خلال هذه العملية خوفا من ضباغ أية تفاصيل منه ، وأثناء التنفيذ يحدث أن تتغير الأفكار عن صورتها الأصاية وقد يكون هذا التغير جذريا وقد يكون هامشيا والحالة الأخيرة هى الغالبة ، ويتفق معظم الكتاب على أنهم لا يجلسون

الكتابة القصة الا بعد وضوحها التام في أذهانهم ، فمثلا يقول « محمد مستجاب » « لم أجلس أبدا كي أفكر في الكتابة ، انما أبدأ الكتابة بعد سيطرة الفكرة على ووصولى الى احساس شاق ومرهق بضرورة تفرغها ، ويقول مثل هذا مجيد طوبيا « أنا لا أكتب الا اذا كانت الفكرة واضحة بعباراتها وبمزاج شخصياتها ولازماتها » وأثناء الكتابة قد يسعر الكاتب بأن اللغة عاجزة عن نقل أفكاره ومناعره بطريقة مناسبة ولكن بمرور الوقت ومع المواصلة والاستمرار ومحاولة الاكتشاف تزداد الأفكار وضوحا ونقل عفوات التفكير وتنكشف مغالبات اللغة وينتظم التفكير ويقل التوتر .

١٢ - عملية التقييم :

هنا تشير الاجابات عن الاسئلة . الى أن كتاب القصة القصيرة يقومون بعملية تقييم لأفكار قصصهم قبل وبعد كتابتها ، وأثناء ذلك يهتمون بتقييم كل جوانب العمل ، فالكلمات ، والجمل والفقرات ، والحدث ، وسلوك الشخصيات وغير ذلك من مكونات القصة يتم تقييمه في ضوء العمل ككل ، ويتم ذلك أكثر من مرة لنفس القصة وبعد فترة زمنية مناسبة ، وخلال هذه العملية تكون بعض المعايير النشطة التي يرى الكاتب ضرورة توفرها في عمله ، وأهمها : توفر الصدق الفني في القصة ، جودتها وأصالتها ، تكامل كل عناصرها ، شعوره بكفاءتها في التعبير عن مواقفه والتزاماته تجاه المجتمع والحياة مما يساهم في احساسه - أو عدم احساسه - بالرضا عنها .

عملية التقييم هي كما يذكر « أحمد الشيخ » عملية تحقق من امكانية إعادة خلق وصقل القصة بطريقة أفضل « ويقول أيضا » وخلال هذه العملية فأننى أسخر من نفسى عندما أكتشف أخطائى « والى معنى قريب من هذا يشير « عبد العال الحمامسى » بعد كتابة القصة . . أعود اليها بعد فترة لأرى هل جاءت كما ينبغي ، فى حدود مفاهيمى وذوقى وامكانياتى ، ومن خلال هذه القراءة ، أنظر اليها نظرة نقدية ، فكل كاتب يوجد بداخله ناقد يقوم بعملية « التنظير » الفنى وهذا الناقد يصاحب المبدع خلال عملية الكتابة ، ولكنه بعد الانتهاء منها يكون صاحب الصوت الأعلى ، ومن خلال هذا يمكننى اكتشاف عيوب القصة أو الوصول الى إعادة النظر فى الكيان الذى احتوى الفكرة » .

١٣ - عمليات التعديل :

كما تشير الاجابات عن الاسئلة . الى أن بعد عمليات التقييم يقوم الكاتب ببعض التعديلات فى عمله ، وقد يتكرر هذا فى نفس القصة عدة

مرات ، فهذا أمر جوهري لاكتمال العمل ، وقد يترنّب على عدم يمكن الكاتب من القيام بالتعديل بصورة تنسجم بالكفاءة أن ننتابه مشاعر الضيق واتهام النفس بالعجز وقد يطرح القصة جانبا وبصورة مؤفته أو دائمة والتعديلات التي تحدث للقصة قد تنم على مرحلتين :

١ - تعديلات للفكرة وهي في ذهن الكاتب وقبل كتابتها على الورق ، وكما يذكر « عبد العال الحمامصي » فمن خلال التفكير في طريقة المعالجة الفنية ، قد نحدث تحويرات للفكرة الأساسية للقصة لتطويعها لمقتضيات المعالجة ، وقد يحدث من خلال هذا أن تولد الفكرة الأساسية فكرة مغايرة اكتشف أنها أفضل من سابقتها .

٢ - تعديلات بعد تنفيذ الفكرة أو كتابة القصة على الورق وقد تكون هذه التعديلات شاملة للقصة كلها أو لبعض جوانبها دون الأخرى ، يقول « سليمان فياض » من أجل التعديل أقوم بالتقديم والتأخير وإعادة توزيع جزئيات السرد والوصف ، وأهتم أساسا باللغة والاسلوب - غالبا - وبالحبكة والنهاية أحيانا ويقول « محمد مستجاب » كل قصصى لم أكتبها الا بعد الوقوع فى برائن أكثر من مدخل ويصف ابراهيم أصلان « التغييرات النى تحدث للقصة بما يأتى : « أحيانا تختفى الفكرة أو تتبدل وينبثق منها كيان آخر ، له قيمته المستقلة ، بينما تكون هي موجودة كاحساس كامن وراء ذلك المشهد الذى يكتب » وعموما فان الغرض من عمليات التقييم ثم التعديل هو الوصول بالقصة الى الصورة الأكثر تماسكا والأقرب - بقدر الامكان - الى الاكتمال .

١٤ - حالة السيطرة :

هنا تشير الاجابات عن الاسئلة . الى أن الكتاب يشعرون بحالة من الرضا بعد القيام بالتعديلات المناسبة فى القصة ، وهذا يرجع الى احساسهم بتوفر أكبر قدر ممكن من الانتظام والتكامل فى القصة ، ويصاحب حالة السيطرة ومشاعر الرضا احساس بالحرية والانطلاق والرغبة فى مكافأة الذات كما تتزايد الرغبة فى عرض العمل على الآخرين وفى نشره ، ومع تزايد حالة السيطرة كما يذكر ابراهيم أصلان « يتزايد الشعور بالثقة فى النفس وان مواهب المرء لم تزايله بعد ، وأنه كتب قصة جيدة ، ويضيف رفقى بدوى الى ذلك « ان شعور الكاتب بالقدرة على الخلق الجمالى تمكنه من الابداع من الزخم يجعله يشعر بالسعادة الغامرة بعد اكتمال العمل » .

أما « براء الخطيب » فيقول أنه بعد اكتمال القصة يكون لدى احساس بأن هذه القصة سوف تعدل الخال فى نظام الكون ، ثم يتلاشى هذا الاحساس بعد ذلك .

وتوضح هذه الأقوال وغيرها ، أن الحالة الانفعالية السارة التي سيطر على الكاتب بعد قيامه باكمال عمله على الوجه المناسب ، هي أمر بالغ الأهمية في مواصلته لطريقه الإبداعى ، بل قد يصل الأمر لدى البعض الى اعتبار الوصول الى هذه الحالة غاية في ذاته ، فكما يذكر « مصطفى عبد الوهاب » ان كتابة القصة ذاتها ، والانتها منها بمستوى يرضينى أهم في نظرى من نشرها » .

١٥ - العنيمات الارادية :

هنا تشير الاجابات عن الاسئلة . أن الكتاب لا يستطيعون الكتابة عن أى شىء ، كما أن السيطرة على الدافع للكتابة أمر لا يخضع تماما للضبط الارادى من جانبهم ، وهم لا يستطيعون العمل فى أى وقت يشاءون فكل ما سبق يرتبط الى حد كبير بحالة الاستثارة الانفعالية وكمية الطاقة النفسية والجسمية المتوفرة أثناء عمليات الإبداع ، وخلال هذه العمليات الإبداعية تحدث تغيرات جسمية واضحة ذكرها الكتاب ومنها : سرعة ضربات القلب ، التوتر وانقباض العضلات ، عدم انتظام عمليات التنفس ، الرغبة فى تناول الطعام والشراب ، والتدخين مع الشعور بعدم الاستقرار الانفعالى والأرق والقابلية للاستثارة وزيادة افراز العرق والاحساس بالتنبه واليقظة الذهنية الزائدة .

ويتفق « سليمان فياض » و «اجيد طوبيا» و «محمد صدقى» و «عبدالفتاح رزق» و « عبد العال الحمامصى » و « يوسف القعيد » و « جمال الغيطانى » وغيرهم على وجود حالات فسيولوجية وانعكاسات بدئية ونفسية خاصة بحالات الترقب والتوجس وسرعة الانفعال مع التوتر ، وهذا « الانبثاق » - كما يذكر عبد الغفار مكاوى لا يخضع للإرادة ، وإنما يتفجر فينا ، فندهش ، ونقلق ، ونسعد ، ونخاف ؛ وإذا « حدث » وكان . « كانت كل هذه الظواهر التى تذكرها » .

وحالة الاستثارة هذه ليست خاصة بعملية إبداعية دون غيرها ، هي حالة عامة فى عملية الإبداع كلها ، لكنها تتفاوت شدة وانتشارا ودوما وفقا لمدى وضوح الأفكار ، ومدى قوة الدوافع الإبداعية ، ومقدار الطاقة الجسمية المتوفرة وطبيعة الحالة الانفعالية للكاتب ، كما انها ليست من الأمور التى تخضع للتحكم أو الضبط الارادى التام من جانب الكتاب .

١٦ - الجماعة السيكولوجية :

هنا تشير الاجابات عن الأسئلة . الى أن أشخاصا معينين يهتم الكاتب معرفة آرائهم فى قصصه ، وهم غالبا ما يكونون من الكتاب أو النقاد أو

المهتمين بالأدب ، والمنافسات والتفاعلات التي تتم بين هؤلاء الأشخاص أو بالأحرى هذه الجماعة السيكولوجية يكون لها آثارها الواضحة على قصصه ، فهذه الآراء تدفعه نحو التحسين والاجادة في عمله ، وتحفزه وتزيد ثقته بنفسه ، كما يساعده على مواصلة طريقة في مجال الادب ، وقد أتضح لنا من فحص النتائج ما يلي :

١ - أن عددا من الكتاب قد أكد أهمية فرض القصة على « آخرين » بعد اكمالها بهدف بلقى عائد منهم عليها .

٢ - أن عددا آخر من الكتاب خاصة نجيب محفوظ ، وسليمان فياض ، و « محمد مستجاب » و « أحمد نوح » قد اتفق على أن آراء الآخرين تكون ذات أهمية أكبر بعد نشر القصة ، فهذه الآراء تفيد في الأعمال المستقبلية أو القادمة .

٣ - أن عددا ثالثا من القصاصين قد اتفق على أن « جماعاتهم السيكولوجية غالبا ما تكون من البسطاء ومن القراء العاديين ذوي الرأي الانطباعي كما يقول « مجيد طوبيا » ومن العمال والطلبة والموظفين المتواضعين ، كما يقول « محمد صدقي » و « عبد الغفار مكاوي » والآخر يؤكد هنا فيقول « لقد كان رأي أم أحد النقاد والأصدقاء في قصصى أهم عندي مابون مرة من رأى ابنها » .

٤ - أن عددا رابعا من الكتاب قال بأن هذا كان يحدث في البداية أما الآن فهم لا يهتمون بذلك كثيرا ، فجمال الغبطاني مثلا يقول « كان ذلك في البداية ، ولكنى الآن لا أنفذ أى اقتراح ، وأسمع الآراء فقط ولا أناقشها وأنا أبدى ملاحظاتي لنفسى ، كما اننى أميل أكثر الى عدم عرض عملى على الآخرين » .

على أنه - ورغم ذلك - فانه من الواضح ان اتجاهات الفئة الرابعة تتعلق أكثر بالأخذ أو عدم الأخذ بآراء الآخرين ، أما عملية العرض على الآخرين فهي تتم بطريقة أو بأخرى بدليل أننا وجدنا أن الكثيرين من الكتاب الذين قالوا بعدم حدوث ذلك ذكروا أيضا - في أسئلة تالية أنهم يتخيرون أنواعا معينة من « الجماعات » لكي يعرضوا عليها أعمالهم .

الفصل السابع

تحليل مسودة « قصة قصيرة »
قراءة في قصة « طيلة السحور » ،
للكاتب : عبد الحكيم قاسم

الحنين للماضى :

بداية الفصة هي نهايتها وفيما بين البداية والنهاية ثمة دورات واسترجاعات دائمة لحركات الراوى ولأفكاره وأحلامه ومشاعره .

بداية الفصة هي فكره بلح وتضغط وتتحرك وتختفى مؤفنا بم يعود مؤكدة فكرة هذه الدورة الابدية المتعلقة بالطبلة وبالحياة وباكتشاف الذات وتحفيقها .

وبداية القصة هي ذلك الاسترجاع للماضى البعيد الذى يحفر فى أعماق الذاكرة باحنا عن رمز كامن فى أعماق الماضى وفتى طيات وعى الراوى يتعلق بذلك الرجل الذى كان يمضى بطبلته « فى ليل الحارات كنلة من الظل فى سفيف العتامة ، والقرية كلها قلوب مشدودة الجلد مسلمة للاصداء العميقة الغليظة والايقاع مبهم قادم من أعماق الوقت ومنته فيه ، ديمومة مدورة باهظة نابضة » . لم تكن الطبلة مجرد دقات ايقاعية تتكرر متواترة فقط فى الليالى الرمضانية ، بل كانت نقطة تركيز تقوم بتجميع النفوس والقلوب فتتجمع حولها وتتحد بها وتتوحد معها وتعيش بها ومن خلالها تستمر وتتوالد وتتكاثر وتمضى فى الحياة ، حركة متماسكة نابضة حية جماعية وحررة ، ليست الطبلة هنا هى الهدف بل صداها ، أى ما كانت تتركه فى نفوس سامعيها من احساس بالتوحد والوحدة والاشتراك فى شىء ما يجمعهم ويؤلف بين قلوبهم ، ليست الطبلة بمعناها المحدد فى المقصودة بل معناها ودلالاتها ، الوحدة والاشتراك فى الشعور والفكر والحركة والهدف ، ليس الطقس الدينى المرتبط بالطبلة هو المقصود لذاته فى هذه القصة ، بل ما وراء الدين أو ما يكون الدين باعثا عليه أو ما يجب أن يكون باعثا له ، الوحدة والتماسك والاشتراك ليست علاقة الناس بالطبلة هنا علاقة ميكانيكية آلية مثل علاقات المنيهات بالاستجابات فى تجارب بافلوف ، ليست الطبلة منبها يشتر استجابة البقطة وتناول الطعام مثلما كانت مصابيح بافلوف وأجراسه تستثير لعاب الكلاب ، العلاقة بين الطبلة والناس هنا علاقة معرفية أولا ثم هى بعد ذلك علاقة ساوكة ، علاقة معرفية فى انها تعنى يقظة الوعى والروح وليس يقظة الجسد ، وتعنى تنبيه شهية حب الحياة وحب الآخرة وليس مجرد التجمع على مائدة الطعام ثم الانصراف بعد ذلك والاستغراق فى عوالم النوم والغسوبة الطبلة أداة للميقظة والتنبيه والوعى والتفتح والاستمرار والمشاركة بالمعنى الكلى الشامل المتكامل لهذه الكلمات ، كما أن لها دلالات أخرى سنشير اليها فى حينها .

أو جالسين في ظل الحيطان • صاروا عرباء على أهلى وناسى بما جد
على قديم سنتهم من بدع من ارنداء الشياب ، وبما طراً على رصانتهم من
نزق فى الحديث والايماء والاشارة • صار لأهل قرينى منال فى الحسن
وفى التألق واللطافة يغيب عنى رسمه وتنافر ملامحه وتشند عن تعقلى
صفاته » •

بهذه الصورة الحاضرة التى يتم اسقاطها بتشكلى سالب فى عقل
الراوى يبدأ ذلك القلق والاضطراع بين صورة «هنا» وصورة «هنا» ،
صوره فى الخارج وصورة فى الداخل صورة حضر الراوى من خارج فريته
هارباً منه اليها باحثاً عما افتقده خارجها فيها فوجد صورتها
محاكاة سطحية عابرة لما يحدث خارجها ، قشور حضارة الفكر والسلوك
والمظهر امتدت وتسبلت واستولت على تلك الصورة الحلم القديمة ، لكن
هذه القشرة التى جاءت يبدو أنها لم تقف فقط عند مستوى السطح بل
امتدت أيضاً الى النخاع فغيرت بالسالب قيم التفكير والفعل والابداع
والعمل ، هذه المفارقة بين ماضى كان فيه ذلك التألق وحاضر توجد فيه
هذه العتامة ، هذا التضاد بين لونين متعارضين حيث أن اسقاطهما على
شبكة الوعي يظهر ذلك التفاوت الحاد بينهما ، هذا الوعي الحاد بالتحويلات
الذى يفجع الراوى الذى جاء حاملاً فى ذهنه صورة قديمة ظنّها مازالت
قائمة ، كل هذا يمهّد للظهور للحركة الثالثة ، هذه الحركة الثالثة ليست
جديدة تماماً بل هى تنويع وتفصيل وامتداد ونشر للحركة الأولى فالقصة
هى فعلاً بؤرة مركزة لذلك الصراع الذى حدث فى وعى الراوى بين حركتين
احدهما تتسلل من الماضى والأخرى تبرز من الحاضر ، لكن هذه الحركة
المتسللة تظهر خافتة أولاً وعلى استحياء ، ثم تبدأ شيئاً فشيئاً فى التغلب
على حركة الحاضر حتى تستبعتها من الصورة وتقذف بها الى خلفية المشهد
وتستولى هى على ساحته الرئيسية ، يهرب الراوى من مداومة النظر الى
هذه التغيرات والتحويلات التى رفضها وعيه وعارضها عقله وعجز شعوره
من التألف معه ، وبإبتعاده هذا عن ذلك المشهد يواجه صديق طفولته ،
التي تركها عليه ، لم تغبره السنون ولم تبدله الأيام « ان صديق الطفولة
الشابورى ضارب الطبله الذى وجده الراوى ما زال فى صورته الحلمية
والصبا مازال على حاله أيام كنا نلعب معا ، وبينما فتكت السنين بى فى
غربتى ، مر عليه الزمن خفيفاً لم يعلم على كيانه علامة ، وأنا أجذبت فروة
رأسى وأبيضت لحيتى وشاخ جلدى وتغضن حول عينين ضعفت بصرهما » •

ان مواجهة الراوى لصديق طفولته تكشف أيضاً عن ذلك التمسك
الجاد لديه بكثير من أهداب الماضى ، أنه يسافر ويغيب وتبر عليه السنين

وتعركه اديام وينغير مطهره الخارجى لكن باطنه الداخلى يطل مشعا
بما هو ، منوهجا كما هو ، متحبا لكل ما فى الحياة كما هو راغبسا فى
استعادة ذلك الحلم المفقود كما هو ، وأولى تعبيراته عن الدخول لعالم
ماضيه الحلمى الماضى وجدها فى شخص صديق طفولته ، الشابورى ضارب
الطبله ، الذى وجده رغم مرضه وشحوبه ونحوه كما هو ، محفوظا من عوادي
الزمن وملامحه الطفلية مازالت كما هى ، موحية وساحرة ، وسواء كان
ذلك صحيحا فى واقع الأمر ام وعى الراوى المندفع بكل قوته وعنفوانه فى
اتجاه الماضى ورموزه وشخصه هو الذى قام بهذا التحوير الادراكى
والتبديل التصورى للملامح الشابورى النى ظلت تتجاوز الزمن وتهرب منه
وتحتفظ بخصائصها ثابتة ، فان الأمرين كلاهما يتسقان مع ذلك التحريك
التدرجى الذى يقوم به وعى الراوى والخاص بتبديل مواضع الأشخاص
والأزمنة والأمكنة ، فتحل كل الشخصيات والأمكنة والأزمنة التى كانت فى
الماضى محل شخصيات وأمكنة وأزمنة الحاضر ، بل ربما كان الأمر الأكثر
دقة أن نقول أن الأمر ليس مجرد تحريك ، بل هو مقاومة للتحريك ،
فوعى الراوى يرفض تلك التحولات التى طرأت على الشخصيات والأمكنة
والأزمنة لكن واقعه الحقيقى يتعلق بشخصيات معينة وأمكنة معينة وأزمنة
معينة وهى بالنسبة له هى الواقع الذى لا يقبل واقعا دونه والحقيقة التى
لاقبل حقبقة سواها ، وهى بالنسبة له حاضرة وجائمة وقائمة دائما فى
دائرة الوعى مضبئة ومستمرة .

يواجه الراوى صديق طفولته فى رجولته وهو مازال يحمل كل
خصائص طفولته يحادثه وي طرح عليه الأسئلة ، وفى كل مرة يطرح فيها
الراوى سؤالا لاينتظر حتى يسمع اجابة السؤال من صديقه ، بل ينطلق
بذاكرته الى هناك ، الى حيث طفولتهما المتفتحة وأحلامهما المتنامية وحيث
كان الشابورى وأصبح رمزا لشيء ما بالنسبة للراوى ، خالدا ومقيما ،
« كان يلعب معنا ، ينزق مثلنا ، يجن ويخاطر ، يخرف ويهرف ، يثقل
ويسخف ، يهمد ويبوخ ، يكيده ويسخر ، ونحن نكيد له ونسخر منه ،
وأحيانا نفرح به ونحبه ، وأحيانا نلاحقه ونؤذيه ، لكنه يبقى دائما
مخصوصا بحاله نائيا بحقيقته ، لا تكون معاشرته وصالا ، ولا يكون لمسه
يقبنا ، جوهر له صفات غريب منطقها على ادراك الحواس » أن الشابورى
رغم خصائصه الانسانية ، رغم نقائصه ومزاياه رغم مرضه وحيويته ،
رغم كل ذلك يتحول فى عقل الراوى شيئا وشيئا الى رمز فاتح لذكريات
ومشاعر طالما ضج بها كيانه واعتمل بها وجوده ، انه آدمى وغر آدمى فى
نفس الوقت ، انه قريب وبعيد فى نفس الوقت ، وهو مدرك ومفارق
للادراك الحسى فى آن واحد معا ، معاشرته ليست وصالا ولمسه ليس يقينا

كما يقول الراوى لكنه يمرض وجوده وحضوره وجوهه على كل معاشره ووصال ولمس ويقين وادراك ، أنه الرمز الفاتح للمعضلة الاساسيه التى يعانىها الراوى بين حالات الحضور والغياب ، الحلم والواقع ، المثول والمفارقة ، تبدأ طبقات أخرى من الذاكرة تفتتح فتتكشف أوراقها ، وليست الذاكرة هنا وفى هذه القصة صندوقا يحوى مادة الغياب الماضى بل بوثقه تنصهر فيها خبرات حياة الراوى بلا انفصال بين المادة الماضية والمادة الحاضرة ، ما تؤكد هذه الذاكرة هو وجود تلك الطبقات التى تتداخل وتتفاعل معا مؤكدة يقين الراوى وقناعاته الدائمة ، تبدأ طبقة الذاكرة البعيدة فى الحضور ، يعرض علينا الراوى مادة مسجلة كما لو كانت قد كتبت فى التو واللحظة لطفولة قلقة مستكشفة متنامية متفتحة ترغب فى الفهم والمعرفة ، حروف المادة المطبوعة على تلك الصفحة القديمة الحديثة من الذاكرة تشكل لنا مادة متبلورة فى صورة مضيئة خاصة بتلك الأيام الأولى المشعة من حياته ومن وعيه ، حين كان يصحو على « فجيحة الضحى العالى » وحيث كان يفاجأ بيقظته المتأخرة بينما الشمس تفرش أشعتها الصاخبة فى أرجاء المنزل يصحو وقد فاتته - حيث كان نائما - أن يصحو فى وقت أراد فيه أن يصحو حيث تكون الصحوه حلما ومراما وامتلاكا للخطه هاربة أراد أن يمسك بها ويعيش فى نورها حيناً من الزمن ، تكون صحوته المتأخرة مصحوبة بالألم والحزن والاحساس بالفجيرة فيجرب الى أمه « أصرخ بها » يا أمى : أمى لم لم توقظينى للسحور ؟ « وأبكى ، موصول قهرى بنهر دمع حارق فى داخلى ، أبكى ، آه ، يا انا ! « تواسينى أمى منقطرة القلب من أجلى وضاحكة على « يابنى ، هذا ما أكلنا منه فى سحورنا ها هو هنا : كل ! « وأكره أمى كما لم أكره شيئا من قبل . انها لا ترى لهفتى وشغفى ، تنكر شوقى وتستخف بحنينى أصرخ بها : لا أريد طعاما ! أريد أن أصحو للسحور وأن أرى الطبله ! « تكلمنى أمى معذبة الملامح بين الضحك والثناء : اذن الليلة يابنى أوقظك للسحور ! الليلة يابنى ! أوقظك للسحور ! الليلة يابنى ! الليلة ان شاء الله ! « لاتعزينى الكلمات أبكى حزنى لما فاتنى وأقول لها : « هذا ماتقولين فى كل مرة ، ولا أصحو للسحور أبدا ! آه يا انا ! » .

وفيما بين حالات النوم واليقظة واسترجاع الماضى وادراك الحاضر تمضى القصة كاشفة لنا مراحل مختلفة من وعى الراوى ، وعى طفولته وعى يفاعته وعى رشده ورجولته يتحادث الراوى مع الشابورى وينظر الى وجهه ويتذكر ، ويطرح عليه أسئلته ويحصل على أجوبته ولا يهتم بهذه الأجوبة فى حد ذاتها بل يمضى بعيدا الى هناك ، حيناً الى غربته وأحيانا أكثر الى ماضيه وطفولته ، وعود المقطم السابق الذى ذكرناه من القصة فى موضع

آخر نال منها يعود وقد حمل شبحه أخرى من الوعي ومن الشعور الانساني
ومن الاحساس أيضا بالفقد والاستلاب والعزلة يتذكر الراوى حادثة يقظة
مفجعة أخرى في طفولته وقد فاته أن يصحو أيضا وقت مرور الطبله ،
يصرخ أيضا غاضبا باكيا فائلا لأمه « يا أمي » لم لم توقظيني للسحور ؟
« وجه أمي حنون كما لم يكن وجه أم ، نكلمنى معذبه الملامح بحنان
وجهها » يا بنى كم أسعق عليك من ساعة ليلية غريبة فى الوقات « أنتحب
لأمي مفطور القلب بوجيعة الامانة الثقيلة المقدرة أقول لها : « يا أمي هذه
الساعة موعدى ، والعزف ، على الرق علامنى ، والفوت مقتلى ! » تغمض
أمي عينيها وتطوح وجهها الى اليمين والى اليسار تعاني تباريح الفكره
والظنون تقول لى : « آه يا بنى ! كم أسعق عليك من اللجاف اشفاقى عليك
من الفوت ! يا طفلى يا ابن رحى ! حسنت عنك الأقدار بيدي ، بينما أرضعك
لبان فدرى ! » وصوت الطبله يقترب ، ايقاعها الغريب بعيد غائر سحيق
يتسلف من العدم حافة الكون اللانهائى » . ان ما أضافه الكاتب الى هذا
المقطع هو وعى الكبار الذى يواجه وعى الصغار ، وعلى الكبار وعى الصغار
يواجهان بعضهما البعض فى الماضى أولا حيث يتوفر الفهم من الكبار
والاندفاع من الصغار ثم فى الحاضر ثانيا حيث يحدث تفهم من الصغار
الذين أصبحوا كبارا لذلك الفهم القديم لدى الكبار ، وعى الطفولة هنا
حيوى مندفع مسنطع ومستكشف راغب فى الامساك بكل شئ وامتلاك
كل حدود الزمان والمكان ، وعى الطفولة غريزى بدائى تلقائى يريد للمعرفة
لكنه يعيش فى حدود الآن والحاضر ويرغب فى الاندفاع نحو المستقبل ،
انه يتعجل النمو والتطور والارتقاء والامتلاء بالحياة ، أما وعى الكبار ،
الأب والأم فى القصة ، فيمتلك الفهم والحكمة والمعرفة الرصينة ، خبرة
الحياة والوعى بحدود الطفولة ومراحل الحياة المختلفة ، قرر الطفل فى
المقطع قبل السابق أنه قد كره أمه حين لم توقظه للسحور كما لم يكره
شيثا فى الحبة ، أما فى المقطع السابق فوجه أمه يمتلى بالحنان المعذب
وهو تعبر انعكس على الوجه من خلال صراع دار فى باطن الأم بين
احساسات الفهم ثم الخوف والشفقة والحب والتعاطف والحنان وقد اعتمد
كل ذلك بساطتها وهى تعاني صراعاتها بن فهمها للحياة واشفاقها على
طفلها من اندفاعه ورغبته فى الوصول قبل موعده ، ان الفهم المضاف الى
الوعى فى هذا المقطع لبس مضافا الى وعى الأم فحسب ، بل هو مضاف
أكثر الى وعى الطفل ، أو هو فهم مضاف الى وعى الراوى الراشد الذى
ينظر الآن الى نفسه فى ميساقت ضوء ذاكرته أيام كان طفلا مندفعاً .

ان مفاهيم وتصورات الطفولة فى الماضى أضيفت اليها مفاهيم
وتصورات هامة أخرى لفهم هذا العمل الفنى بشكل عام وفهم تصورات

الراوي الذي هو ، بطريقة ما ، الكاتب بشكل خاص ، ان الماضي ليس صورة وردية زاهية فقط ، كما انه ليس صورة قائمة كاييه مظلمة فقط ، انه مزيج من كل هذا ، وفي تعاملنا مع هذه المادة الماضية التي مازالت حاضرة في نخاع وتصورات وأفكار ومعتقدات الناس في حياتهم وتفاعلاتهم ينبغي أن نستعين بالفهم والعقل كي نصل الى النقاط المضيئة في ذلك الماضي وننميها ونستفيد بها في الحاضر والمستقبل ثمة نقاط مضيئة في الماضي فعلا حاول الكاتب وضع يده عليها خلال عمله ، هناك التماسك المفتقد والتكاتف الضائع والتساند المسلوب والوحدة الغائبة ، كانت هناك أشياء في الماضي لم نفهمها جيدا ، فلم لانعيد اكنشافها شريطة ألا نقف عندها طويلا أو نكتفى بها ؟ قد تكون في تلك الأشياء بعض الجذور التي قد تعطينا تمايزا خصبيا ، لكن هذه الجذور يجب ألا تمتد لتشمل كل أشجار حياتنا كلها ، الواقع أكثر رحابة من الماضي ، والمستقبل يحتاج منا الى أن نفهم الماضي ونستكشفه جيدا كي يساعدنا ولا يعوقنا ، الهدف هو المستقبل وحياتنا موجودة في منطقة مضيئة هناك في الأمام لا في الخلف ، يجب أن نسعى اليها ونتقدم نحوها ، فد يعطينا الماضي دفعة للأمام ، أما اذا كان سيجذبنا للخلف فلننتخلص منه ، ليست شخصيتنا التي نسعى اليها موجودة في الماضي فقط ولا في الخارج فقط ، شخصيتنا تظهر أكثر في سعينا اندائم الدروب لتحقيق ذواتنا والكشف عن كل امكانياتنا الابداعية الخلاقة والسعى في اتجاه الهدف البعيد المستقبل والشخصية المميزة ، قد نستعين بالماضي أحيانا وخاصة نقاطه المضيئة ويجب أن نستعين أيضا بنقاط الخارج المضيئة أيضا ونتحرك بشكل كلي متكامل نحو المستقبل .

قد يبدو هذا خروجا عن القصة لكني لا اعتبره كذلك ، فالقصة فيها هذا الحنين للماضي لكن فيها أيضا هذا التلميح للاستفادة من العناصر المضيئة في الماضي كذخيرة مشعة للحاضر والمستقبل ، والكشف عن تصورات الراوي تجاه الماضي والحاضر والمستقبل يمكن أن يكون أيضا أحد المدخل الأساسية لفهم هذا العمل الفني بشكل خاص وفهم أعمال عبد الحكيم قاسم بشكل عام .

التحولات :

بعودة الراوي الى قريته بعد غيبته يواجهه بالتغيرات والتحولات الكبيرة التي طرأت على الناس والأمكنة وأساليب الحياة والعمل وقد سبق أن أشرنا اليها ، تدريجيا يراقب الراوي عالم الخارج وتدرجيا يقفل عائدا الى عالم الداخل ومتراوفا بين عالمي الخارج والداخل يروي حكاياته وشيئا فشيئا تبلغ المقارنة بين الحاضر والماضي حدتها خاصة في أوقات

الصلاة وممارسة العبادات وفي الليالي الرمضانية الحالية مقارنة بالليالي الرمضانية في الماضي ، ان نوستالجيا الماضي مازالت مهيمنة ، والاحساس الجماعي منسقد بل ومفنود والاغتراب الفردي حاضِر وجائِم ، حتى احساس الراوى بالمكان والزمان في الحاضر أصبح غير ذلك الاحساس القديم « أرقب المغرب ضجرا ملولا » ان هذا ليس موعدي ، يمضي بي اليه الوقت قهرة واستلابا ، اصفرار الشمس هذا على الفروع وأعلى الحيطان انما هو شحوبى وكآبة نفسى . هذه الساعة قبل غروب الشمس وأقول النهار ساعة حسنة ، وكان ينبغى أن تكون هادئة ، لكنها تروءها وتزلزلها من أساسها مكبرات الصوت تجار بأشرطة التلاوات والمواعظ المرعبة .

لقد حل الملل واستولى على مواقع الحيوية والتجدد ، وملأت الكآبة أمكنة البهجة ، الوقت لم يعد وسيلة للتحقق والحضور بل طريقه للفقء والغياب ، يتوحد الراوى مع الكائنات الحية ومظاهر الطبيعة الأخرى ويخلع من نفسه عليها كابنه وشحوبه ، الضجيج حل محل السكينة والضوضاء أبعدت الهدوء وطردته من باحة الحياة ، هذه الكآبة والضججه ومظاهر الأذى النفسى التي تهاجم حواس الراوى ومشاعره تقابلها حيوية خصبة معاكسة تفتح بوابات للتذكر والخيال البصرى « فى الزمن القديم كانت السهرة الرمضانية تبدأ فى دوارنا بعد العشاء والتراويح والحضرة والذكر فى الجامع الكبير ، ويجلس أبى فى الشرفة يسامر ضيوفه ويرتل الشيخ أحمد فقى الكتاب آيات القرآن على دكة فى آخر الردهة ويصنع العم حسن القهوة فى ركنه قريبا من الفقى . الآن أسأل-نفسى عن السحر فى تلك الأماسى القديمة ؟ أكان يفيض على من فرحة الأب بضيقوفه فى الشرفة ؟ أم من مجلس المقرئ على دكته والى جانبه من يفرد المصحف الكبير على حجره ويتبع السطور بعينيه ، أو من ينصت ويستعبر ؟ أم كان السحر يأتى من مجلس صانع القهوة ، قدامه يوشى فوق الكيوسكين ، عليه الابريق ، وهناك من يساعد بغسل الفناجيل أو جلب الماء أو المسامرة بحدبث طيب ؟ من أين أتى السحر فى تلك الأماسى القديمة ؟ درت بسؤالى من مجلس ، كان الدوار سعيدا والشياطين كبلت وأمن الليل ، وأمن محضن الأم » .

مازال لدى الراوى ذلك الحنين القديم لذلك السحر ، مازالت لديه هذه الرغبة الغلابة للعودة الى احساسات الطفولة الأولى البكر حيث الحنين وحيث النماسك وحيث السحر وحيث الدفء الانفعالى الذى يكون فى أقصى درحاته فى تلك اللحظة الخاصة التي يستشعرها الطفل بينما تقوم أمه باحتضانه ، ان المقابل لذلك الآن هو البرود وهو التشتت وهو الاستلاب

وهو الوحدة وهو الملل وهو فقدان البهجة « أطيروا الى دارنا فزعا كبومه
نخيفها الاصوات والصوضاء . اسرع الخطى تحت رجوم مكبرات الصوت
بجار بالترابيل والعنيج ، بالموعظة الحسنه والدعارة . أفر من الضحك
والزعيق من حبط اوراق اللعب فى الطبالى . أدفع بابى أفتحه اجتاز
مقبرة وسط الدار الى مرفدى هنا على ظهر الفرن . أنام كل ليلة مبكرا .
امضى عبر الليل الى نهار رمضان دون طعام ، أجوع حتى يؤذن بالاكل فى
دورة مرهقه ممله . ان الراوى يهرب من المكان الخارجى حيث البيوت
المغيرة ، الى فوضى فى العمارة والناس ، المتحولة الى عشوائية فى التفكير
والسلوك ، الى المكان الداخلى حيث مازالت هناك بعض زوايا الماضى
وعناصره محتفظة ببريقها القديم ، انه لا يستطيع مداومة النظر الى عناصر
الحاضر المتحولة : الناس الذين اكتسبت ملامحهم سمات التشكك
والارتياب ، والمحاصيل تغيرت وتلفت وجفت الضروع وتبدلت المواسم
والأزمنة ، الشجيرات هزلانة ضاوية شاحبة على طول الخطوط فى فداني
الصغير ، استعصى على سر عجزها وآفتها وقفلت راجعا ، أمشى بجوعى
فى النهار الرمضانى القائظ . « جائع بلا ورع ولا نية ، فتط لادفع عن نفسى .
مذلة أن آكل فى النهار والناس حولى جوعى . أمر على دارنا ، قفرت شرفته
من أبى وأصحابه وعلى الأرائك البلى والتراب » .

ان التحولات التى حلت بالنباتات والحيوانات والناس والمكان
والزمان حلت أيضا بالراوى رغم اندفاعه الحاد نحو زمان ثابت ومكان
غير متغير ، زمان ومكان يتواجدان فى أعماق وعيه وذاكرته ، انه شيئا
فشيئا يدرك ذلك التحول الذى طال كل شيء وأبدله الى نقيضه ، وهو يدرك
أن ذلك التحول قد جاء نتيجة لفقدان ، فقدان ذلك الشعور القديم
بالهدوء والتماهى والاحساس بالآخر ، أما ما جاء الآن فهو التشكك
والخداع والارتياب واستخدام الأداة للقيام بوظيفتها وعكس وظيفتها ،
ذلك الاتجاه السلوكى الواضح فى فوضى استخدامنا للأشياء حتى تفقد
نمايزها وشخصيتها ، فمكبرات الصوت « تجار بالترابيل والعنيج ،
بالموعظة الحسنه والدعارة » أفر من الضحك والزعيق ، خبط أوراق اللعب
فى الطبالى « ان ذلك الاختلاف والفوضى هو ما يحاول الراوى البحث عن
نقيضه من خلال بحثه فى أعماق ذاكرته عن مشاهد ورموز كانت مضيئة
هناك ، لكن هذا البحث يبدو أنه أحيانا لا يستطيع الهروب دائما من
حصار الحاضر ، الذى يخاطب حواسه فى كل لحظة من لحظات حياته ،
ان دورة الماضى التى كان الراوى يستعجلها فى طفولته كى تمر وتحدث .
تشكر تتحول الآن فى حاضره الى دورة مرهقة ممله بطيئة الايقاع كثيبة
الحركة ، والتحولات التى تحدث لا تشمل قريته بعناصرها الحية والساكنة

فقط بل نمتد شيئاً فشيئاً لتشمل عناصر اراد هو ذاته أن يبعدها عن النحول ، ان التحولات في الانجاء السلبي تمتد تدريجياً لشمول صديقه الشابوري وتشمله عودانه كل عناصر وخصوصيات واقعه ، وهناك دائماً في الفصه تلك المقارنات التي يعقدها الراوى ما بين عناصر الماضي الحيه والساكنة وخصائص وعلاقات هذه العناصر تم التحولات التي طرأت عليها في الحاضر ، وتبدو لدى الراوى كما لو كانت هناك نزعة لرفض الحصار الجديد وللفظ كل مستجباتها ، لكن هذه النظرة تبدو سريعة وسطحية حيث أن نهاية الفصه يحدث فيها ذلك التركيب الأصيل بين الماضي والحاضر ، ان الحاضر ممثل في حالة انفصاله وقبل وصول الراوى الى الوعي الكلى في صورة مشهد تحضر فيه كل عناصر وعلاقات التفكك والانهيال فالجدران لا رأت ولا سمعت ولا كانت هنا ، « وهذا الصمت » المنصوبة سرادفانه المتربة في الباحة أزل لم يجرب أنسا ، هذه الدار ليست دارنا ولا تشبهها الا كما يشبه القبر عنفوان حياة صاحبه وتوهجها ، جلست في الباحة تمتد أمامي شواهد قبور التذكر وأنا الشاكل الوحيد « ان الحاضر ميت والماضى حى والكلام صمت والصمت كلام » كل ذلك بمعناه الدلالى المجازى ، يحيط الراوى مصباح الزيت القديم بكل مشاعر الحب والتكريم ففي نوره تصح جميع الأشياء تنوهج ، أما المصباح الكهربى ، فهو ضعيف التيار مشنوق من حبله في السقف ، ساذ وغريب ، ولكن هذه النظرة سوف تتغير في نهاية القصة حين يمتلئ المصباح الكهربى بقوة وينشر ضوؤه على كل المكان ، وعموما تبدو علاقة الماضي بالحاضر في هذه القصة علاقة مركبة ، وهذه العلاقة لن تكون واضحة ومتبلورة الا بتعرفنا على المفتاح الأساسى لهذه العلاقة : طبلة السحور .

ما هي طبلة السحور ؟

يكثر الراوى من التساؤل حيناً مع الشابوري في طفولته ، وأحياناً أكثر مع نفسه في طفولته ورشده « ما هي طبلة السحور ؟ طبلة السحور ... ما هي ؟ » وتكون كل الاجابات مؤكدة لحقيقة واحدة وحيدة لا يقبل سنواها ، طبلة السحور رمز وأداة فاتحة لعالم آخر مقابل لهذا العالم ، طبلة سحور حلم ، طبلة السحور حقيقة ، طبلة السحور رمز وعلامة على رمز وحقيقة ، وحياة الراوى كلها بحث عن هذا الرمز وهذه الحقيقة هو يطرح دائماً على نفسه تساؤلات من قبيل « اليس الحقيقة الموجودة داخل أكثر الحقائق يقينا ؟ لماذا اذن أبحث عن برهانها حولي ؟ لماذا أشرط يقيني بما ليس ليس من جوهره ؟ الأليق أن أتصرف وأصمت وأغمض ، وأن أبتهل لايمانى ، ذلك هو كبريائه . ورقبى مواعيدى ، لا تأخذنى قبل ادراكها سنة

ولا نوم ، • ان الطبله تبدو هنا كما لو كانت مخلوقا سحرىا يقبع فى المسافة الفاصله بين الظل والور ، اليقظه والنوم ، الحفيفه والحلم ، انها ليست ذلك الجسم الاسطوانى المفرغ الذى يجمع بين نعومة الجلد المتسدود وخشونه الخشب او الفخار الذى يصدر أصواتا معينة حين ترتطم به العصا فى يد المسحراتى فى ليالى رمضان كل عام ، بل هى يقين مقيم هناك فى وعى الراوى بكل المعانى الطيبة ، الجميله والخيرة ، الخالدة التى هى أقرب من غيرها الى طبيعة الانسان وحقيقة الحياة ، تلك الطبيعة والحقيقة التى نالتها كل مظاهر التغير التى أراد الراوى الهروب منها أحيانا ومواجهتها أحيانا أخرى • انه يقول لنفسه دائما « تخدم الحقائق خارجى سموهيج حفيفى وتزهر » يتتبع الراوى علاقته بالطبله فى مراحل حياته المختلفة ، تغيرات مفردات وعناصر حياته ، تغيرات علاقاته بالناس والمكان والزمان ، لكن ظلت علاقته بالطبله ثابتة خالدة سرمدية لا تتغير ، هى يقينه الوحيدة ، وحلمه الذى أرقه وأيقظه فى ليالى الغربة المدلهمة ، وفى أماسى الوطن الغائبة يتوحد الراوى حيناً بالطبله فتستمد لغته ايقاعها ومفرداتها من الايقاع الصوتى المميزة للطبله ، فيعلو ايقاعها فى نفسه محاولاً أن يغلب على الايقاع الحاضر لكآبته « ابتسمت مكتئباً وأنا أتذكر طبله السحور • كان الليل دلبلى اليها • الليل الرمضانى اليقظانى بالنور والتراويل والمؤانسة كان سكنى الى الخفق الحبيب ، الى الايقاع العجيب ، الضرب على الجلد المشدود • لم أكن بعد قد شهدت الطبله فى عمري أبداً ، وان كنت عرفت دائماً أنه منذ ذق قلبى للرنين المروع قدر مقدور على النطفة حتى وهى مازالت عاطفة ونية • قدر أحيانى وأبقانى فى الليالى القديمة سهران مراقباً ، وهزمنى النوم قبل الساعة السحرية ، أفقت من نومى على فجعية الضحى العالى ، يبدأ هذا المقطع وينتهى بحروف وعلاقات حروفية خفيفة لينة حافته الرنين الى حد ما مثل اللام والياء ، لكن فى قلب المقطع تحضر حروف ناقلة لايقاع الطبله ورنينها كالتفاف والطاء والدال والنون والفاء وهذا التصوير ينقل رغبة جارفة لدى الراوى فى التوحد مع هذا الرمز وامتلاك تلك اللحظة ، وهو امتلاك قد يبدأ بالصوت ، ذلك الصوت التى يتحول الى معنى ، يتحول الى كلمة من خلالها يبدأ الوجود الحقيقى •

ان علاقة الراوى بالطبله هى علاقة وجود ، كما انها أيضاً أيضاً علاقة مراحل للوجود وعبور لمراحل الوجود ، ان الطبله هى أداة رمزية لعبور الشخصية ، فى القصة بين الحالات التالية :

١ - من النوم الى اليقظة ومن اليقظة الى النوم أى بالمعنى البسيط :
من حالة معينة من حالات الوعي الى حالة أخرى من حالاته أو تحولاته .

٢ - من الافطار الى الصوم بكل ما تعنيه معانى الافطار والصوم
من دلالات الضعف والمجاهدة والقوة والارادة .

٣ - من الهدوء الساكن الصامت المرتبط بالنوم والموت الى الرنين
اللحن الأليف الحبيب الباعث على الحياة وعلى تجدد دوراتها .

٤ - من الفردية الى الجماعية ، فالانسان وحده فى الليل ينام
ويغيب لكن الطبله توقظه وتوقظ غيره فيتجمع الناس حول شئ ما
مشترك واحد .

٥ - من السلبية الى الايجابية ، فالطبله توقظ النائم السلبي
المستقبل وتحوله الى يقظ فاعل نشط ايجابي يبدأ الحياة أو يستعد لبدء
يوم جديد من المعاناة والمكابدة .

٦ - من الطفولة الى المراهقة ، وهذا يجعل الطبله فعلا رمزا طقسيا
عبوريا يجمع فى طياته كل المعانى النفسية والاجتماعية السابقة ، فالطبله
لها معناها فى نقل الانسان من النوم الى اليقظة ومن غيبة الوعي الى
حضوره ، أى أن لها معنى اخراج الانسان من غيبوبة النوم الغامضة الى
وهج اليقظة المتألقة ، ومن غياب الموت الى حضور الحياة ، ثم ان لها أيضا
معنى عبور الانسان من طفولة وعيه بكل ما فيها من ذكريات وأحلام الى
رشادة عقله بكل ما فيها من أفكار وتصورات ، والقصة التى نناقشها هى
تردد وتراوح وتصوير دائم بين عمليات العبور ومقاومة العبور لدى الراوى
ونواتج هذا العبور ، بين محاولاته تجاوز مرحلة ثم محاولاته العودة الى تلك
المرحلة التى تجاوزها حين يكتشف دائما أن المرحلة الماضية كانت أفضل
من المرحلة التى تم العبور اليها ، أو أن هناك مرحلة ما أخرى ، يمكن أن
تكون موجودة وتكون أفضل من كل هذه المراحل ، والمرحلة تفهم هنا
بمعنى مرحلة الوعي (النوم - اليقظة والموت - الحياة والصمت - الكلام
والجهل - المعرفة) أو مرحلة الجسد (الراحة - التعب - أو العكس
والجوع - الشبع أو العكس) . أو مرحلة العمر (الطفولة - المراهقة -
الرجولة - الكهولة) . وهى أيضا رمز لحالات الوعي الجماعى المختلفة
أثناء التماسك أو التفكك ، ورغم كل عمليات المرور والعبور والانتقال
هذه ظلت الطبله تقوم بدورها البارز كحقيقة وجودية تعلق بها كيان
الراوى ، يتتبع الراوى الطبله فى يقظته ونومه ، وفى غربته وحضوره ،

في طفولته ويفاعته ورجولته ، يتتبع دائما صوتها اما واقعيًا أو تصوريًا أو تذكريًا وتتغير انفعالات وهواجس نفسه ما بين البهجة والكآبة مع تغيرات ايقاعات الطبلية ما بين الحضور والخفوت ، تصبح الطبلية هي البادئة لدورة حياته وهي الناهية لها وهي المسيطرة عليها ابان ديمومتها « والصوت يقترب ، قادما من كل صوب ، متفجرا من داخلي ، يهزني ، يرجفني ، ينثرني رمادا في كل حبة من صوت ورجع ، شوق ودمع ، انني أنا هذه العتامة الفضية الجلييلة ، ندى بارد الأعضاء وخائف يسع هذه الدنيا خوفاً ، أفرد ضراعتي على شسوع العالم ، مغمض العينين ، شامخ الأنف ، ممدود الذراعين ، مبسوط الكفين ، عرقان ودامعا » .

تتغير انفعالات الراوى ابان تذكراته مع تغيرات ايقاعات الطبلية ، تتحول الطبلية الى سر لوجوده وجوهر لحياته ، مع اقتراب صوتها يجد ذاته ويكتشف سر أزماته ، يكبر وعيه مع اقتراب صوتها ويخبو مع خفوته ، وشجوبه ، يكبر ويكون له في مجلس الكبار مكان ومع ذلك يظل انشغاله بالطبلية « مازال بعد حارقا ، يسمع المتسامرون صوت الطبلية ويبتسمون أسأل الوجوه الكهلة المبتسمة اليس في كل مخيلة : طفل موعود بسؤاله العصي ، يظل في حضنه نابضا بلا جواب ؟ انني كبرت حتى قبلت ، لكنني بقيت أعجب للسرارة تخالط فرحتي بنفسى وتكبر معي بمقدار ما أكبر حتى عزمت على السفر ، « وتجربة هذا السفر لاتحضر في القصة الأولى الا في شكل لمحات سريعة واشارات عابرة كما لو كان الراوى يريد نسيانها وابعادها تماما عن ساحة الوعي وجدران الذاكرة ، يقوم الكاتب بتقطيع مشاهد القصة فتتداخل فيها لحظات الماضي مع لحظات الحاضر ولحظات الوعي مع لحظات غياب الوعي ، لحظات البقطة مع لحظات النوم لحظات الخارج مع لحظات الداخل وفيما بين هذه اللحظات تحضر الطبلية دائما بايقاعاتها ودقاتها وحاملها والعتمة الشفيفة التي تصاحبها ، والنور والظل اللذين يحيطان بها ، والحياة بكل تفاصيلها ومفرداتها ومكوناتها التي تكتسب خصائصها المتميزة في وعي الراوى من تأثرها بصوت الطبلية وبحركة حاملها « يزداد صوت الطبلية اقترابا ، ويزداد خوفاً أن يأبى أبى مساعدته ، أنظر متوسلا حتى أرى اقبال أبوى على ، أسلم يدي ليدنين حائيتين ، أبى وأمى عن يمينى وشمالى ، يد أمى صلبة خشبة ويد أبى سميكة ناعمة . وجه أمى فيه تعب النهار والههم بمواعيد الليل والقلق من أجل غيرى وجه أبى فيه أنفاس من قراءة الشبخ أحمد المبحوح الكسير الصوت ، أقوم . وهن مسنود من يمينى وشمالى بحول أبى وصلابة أمى . أقوم رجلاى حائرتان ، لكننى معلق طائر

على متن حنان أبوى غرفتنا ترحمها أنفاس نوم أخوتى ورائحة اناء البول ،
وأنا أرقص معلقا فرحان والطبلة تهوى الى » .

تتداخل مستويات الوعي هنا ، يتداخل وعى الصغار بوعى الكبار ،
وعى الصغار الذين صاروا كبارا بوعى الكبار الذين صاروا أكبر ، تحضر
فى ذهن الراوى وقد كبر تلك المقارنات الدائمة التى كان يقوم بها عقله
بين صورة أبيه وصورة أمه ، صورة وجه أبيه بما فيه من أنفاس قراءة
الشيخ أحمد بصوته الكسير المبحوح الذى انعكس فى ادراك صورة الأب
على أنها كانت أكثر وأكثر خفوتا لكنها أكثر سحرا ومتجهة الى اليمين
وصورة الأم الأكثر صلابة وأكثر انشغالا بالحياة وصورتها فى ناحية
اليسار ، لكن الصورتين معا تكونان صورة واحدة من الحنان الخالص
الكامن هناك فى أعماق الذاكرة والذى يختلط مع صورة الأخوة والأخوات
وصورة الطبلة والنور الذى يغطى جميع المخلوقات التى تقيم مع الراوى
فى المنزل ممزجا بصوت الطبلة الذى « یرن على كتلة واجهة دار الحريرى
قبالتى ، تنفطر الملامح الحجرية وتعانى الجدران قدامى كأنما فى صميم
غليظ الطوب قلوبا شقيقة لقلبى » . يقترب الصوت ، أدرك اقترابه وكيف
سيكون حضوره وشهوده ، وكيف سيبتعد مرة أخرى ، يغيب فى غور
سحيق حتى يشبه البدء الختام ، يلتئمان بلا ثغرة فينفيان الغياب ، وأنا
استحضر اكتمال الدورة ، أعيش الرقبى والتحق والانصرام فى تعاقب
ملهوف وفرح وأسى » .

ان الوعي هنا يسترجع الصوت ويتوقعه ، فهو يعرفه ويدركه
ويعايشه ، ويسترجع ذكريات خاصة كانت له فى المكان ، وصوت الطبلة
موجود بداخله أكثر مما هو موجود بخارجه ، هذا الوعي يتحرك شيئا
فشيئا نحو النضج والاكتمال ، ان دورة الماضى السريعة ودورة الحاضر
البطيئة تنصهران معا شيئا فشيئا وعبر القصة فى ذهن الراوى فيكونان
لنا دورة ثالثة يمتزج فيها الحضور بالغياب والاثبات بالنفى ، دورة تجمع
بين الانتظار والترقب والتحقق وما يصاحبه من لهفة وأفراح وبين الشعور
بالانصرام والانقصاء وما يصاحبه من أسى وآلام ، ويدرك الراوى صاحبه
الشابورى فى صورة أخرى ليست مخالفة ولكنها مضاعفة كاشفة « ليس
هذا الشابورى الذى عرفته ، وهو أيضا ليس الشابورى الذى عجزت
عن معرفته ، انه حالة ثالثة مشتقة مما يلابسنا من حال يستبهم كلما اشتد
الدورى فى غياب حتى الدهول ، وحضور حتى انتقاء الماضى والآتى ،
وحتى يكون كل التعبير تساؤلا ملحا يدق بقبضة من حديد على حافظة
الدنيا نشدانا لاجابة منسية » .

طبله السحور

عبد الجليم قاسم

والرجل يضيء في ليل الكارات كتلة من اللؤلؤ
في شظيفة الغنابة ، والقرية كلال قلوب
ستدودة الجلد بنباتة للأصداء العتيقة
الفليضة ، الايقاع بهم قادم من أحمق
الوقت ونبته فيه ، ديمومة مدورة
بأهنية نابضة ، بينما رقص الفؤاد
المتلب هذب للصوت والتذكر.

كنت أظفر من نومي على خيمة الفخى الغالك ، وأن أهدأ لم يوقظني
للسحور . يصر الفوت قلبى . أقفز من فراشي على ظهر الفرن إلى
قعر الخوفة ، فأبى ، وسط النار . أهرى إلى أمى ، أجدبلا من
طوره نزل ، آخذها إلى من أشتغالا ، أصرخ بلا : « يا أمى !
أمى أيلم لم توقظيني للسحور ! » وأبكى ، موصول قهرى بنهر دمع
حار من داخلى ، أبكى : « آه يا أنا ! » تواسين أمى خفطرة القلب
من أبكى وصاحكة على : « يا بنى ! هذا ما أكلنا منه في سحورنا .
ها هو ! هنا ! خذ ! كل ! » وأكره أمى كلام أكره شيئا من
قبل . أنا لدرى لهفت وشفف ، تنكر مستوفى و تحفف بجنين .
أصرخ بلا : « لا أريد طعاما ! لا أريد طعاما ! أريد أن
أصو للسحور ، وأن أرى الطبله ! » تكلنى أمى معذبة الملامح
بى الضحك والرتاء : « إذن الليلة يا بنى أو قظله للسحور ! الليلة
يا بنى ! الليلة ! » الله ! « لا تعزين الكلمات . أبكى حزنى
لما فأتى : « هذا ما تقولين في كل مرة ! » و « أصو للسحور
أبدا ! آه يا أنا ! » .

بعد العشاء والتأديج والحظرة والذكر في الجابع تبدأ السهرة
الرمضانية في دوارنا . أبى جالس في الشرفه يمار صنيوفه .
الشيخ أحمد فتح الكتاب يرتل آيات القرآن من على دكتته

ان الحالة الثالثة هنا هي الحالة التي نوصِل اليها وعى بعد حفره الطويل فى أعماق ذاكرته ، هذه الحالة هي حالة ما بين المعرفة والجهل ، الشك واليهين ، حالة حدسية ذات كشف مباشر تستعصى على المنطق الجامد ، استبصار بالواقع والذات فى رؤية سريعة مباشرة مع حدوث انصهار بين الأزمنة والأمكنة والشخصيات حالة ملتبسة يكون الحضور فيها وبها ومنها واليها ممكنا فقط من خلال الغياب ، حالة يمتزج فيها الماضى والحاضر والمستقبل فى ديمومة أبدية مستمرة ، فى مثل هذه اللحظات التى نادرا ماتزور الوعي يحدث ذلك الكشف والاقتراب من الحقائق الخالدة ، وقد كانت وسيلة الراوى للاقتراب من هذه الحقائق وتلك اللحظات هي طبلة السحور ، فمن خلال دقاتها طرح الأسئلة ومن خلال ايقاع هذه الأسئلة وتراكمها حدث ذلك الكشف الذى يبدو مباشرا لكن الطريق اليه كان مفروشا بالأسئلة الصعبة والاستفسارات العصبية . وقد عبرت هذه الأسئلة والاستفسارات عن تلك الروح القلقة المنبقة المستطلعة التى تبحت وتتحرى وتنسأل وتتشكك وتعبر عن رغبة عميقة فى الفهم والمعرفة ، ان عمليات الحفر التى قامت بها دقات الطبلة وأسئلتها كشفت عن ذلك الوعي الخاص لدى الراوى ولدى الكاتب بسر الحياة وسر الانسان وحيث تظل الطبلة موجودة دائما ويمضى صوتها لكنه كما يقول الكاتب لاينصرم ، انما ال الى محاق فى دورة مقدورة أبدية .

هذه الأسئلة وهذه الاجابات التى طرحها الراوى فى واقع الأمر ليست كافية ، انها نحتاج منا ايضا ان نمضى خطوات قليلة أبعد مع صوت الطبلة فى أعماق كاتب القصة ومبدعها عبد الحكيم قاسم ، وفى واقع الأمر ليست هناك فروق كبيرة بين قناعات الراوى وقناعات الكاتب فالراوى هو الكاتب والكاتب هو الراوى ، لكن تظل هناك بصفة خاصة فى هذه القصة امكانية لقول شئ آخر جديد .

حركية الابداع :

قال بيكاسو قبل رسمه للجيرنيكا عام ١٩٧٣ بسنتين « قد يكون من المير للاهتمام تماما أن نحتفظ فوتوغرافيا ، ليس بهراجل ، ولكن بعمليات تناسخ اللوحة ربما اكتشف المرء حينئذ الطريق الذى يسلكه العقل فى تجسيده للأحلام » .

اتبحت لكاتب المقال فرصة سماع قصة « طبلة السحور » حين ألقاها عبد الحكيم قاسم ذات أمسية على جمع من الأدباء والمهتمين بالأدب ذات

أمسية من أمسيات صيف ١٩٨٦ في اتيليه القاهرة وقد حدث حولها نقاش كثير ، وكانت اتجاهات التحفيز والموافقة تقوم في مقابلتها اتجاهات من الانتقاد والمعارضة ثم قام عبد الحكيم قاسم بإعادة كتابة هذه القصة مرة أخرى ونشرها بعد التعديلات التي قام بها عليها في مجلة « القاهرة » في ديسمبر ١٩٨٦ وأتيحت للكاتب المقال فرصة الحصول على المسودة الأصلية للقصة ثم كانت لديه الصورة النهائية لها المنشورة بمجلة القاهرة بما فيها من تعديلات وقد أثارت هذه التعديلات رغبة ما في نفس كاتب هذه الدراسة لتتبع بعض طرائق العقل الابداعي التي يسلكها في تجسيده للأحلام :

١ - النسخة الأولى من القصة تتكون من حوالى سبع وأربعين فقرة والنسخة النهائية منها تتكون من حوالى سبع وخمسين فقرة ، ومع ذلك فإن جوهر العمل وتصوره الأساسى ظل كما هو ، ان ما قام به الكاتب يتلخص فى قيامه بتعديل وتغيير مواقع الفقرات والأحداث ، وخلال ذلك قام بتغيير الوجهة التي نظر من خلالها الى الموضوع ، لكن تغيير وجهة النظر لم تقم بتغيير الموضوع بل زادت وضوحا وبلورة ، كما أنه قام أيضا بالدمج بين فقرات معينة وفي أحيان أخرى قام بالفصل بين الفقرات والتقطيع فيما بينها اتفاقا مع تراوحه وتردده الدائم فيما بين الحاضر والماضى والخارج والداخل .

اننا نلتزم هنا بمعنى محدد للفقرة ، فالفقرة مجموعة من الجمل التي تحمل فكرة معينة أو حالة معينة أو بالتحديد حركة معينة ونهاية الحركة تعنى نهاية الفقرة لكنها قد لاتعنى نهاية الفكرة ، فالفكرة قد تستغرق عددا من الفقرات ومن ثم عددا من الحركات ، والحركة كما نقصدها هى حركة الوعي التي ينتقل بها من الداخل الى الخارج أو بالعكس أو من الحاضر الى الماضى أو بالعكس أو غير ذلك من أشكال الانتقالات الموجودة بالقصة وهى كثيرة ، والآن فلنحاول أن نحدد أكثر بعض مظاهر التباين ، أو بالأحرى بعض مظاهر التشابه والاختلاف بين الصورتين المتاحتين للقصة .

٢ - بعد أن نمر عبر فاتحة القصة، أو مدخلها الذي هى خاتمتها أو نهايتها حيث أن شكل القصة هو شكل دائرى بدايه هى خاتمته وفيما بين البداية والنهاية هناك دوائر عديدة قد نتسع وقد تضيق ، بعد أن نمر عبر هذه الفاتحة اللازمة الى هى مشابهة فى صورتى القصة نصل الى الفقرة الأولى منها ، فى هذه الفقرة الأولى فى المسودة الأصلية يصور

الكاتب حالة يقظته مفاجوا إبان الضحى العالى بعد أن فاتته متعة اليقظة .
إبان السحور فيجربى الى أمه صارخا باكيا شاعرا بالقهر لأنها لم توقظه
للسحور ، أما فى الصورة النهائية المنشورة فى القصة ، فليس الطفل
هو الذى يحمل الفكرة والحالة ، بل الراوى بعد أن كبر واغترب ثم عاد
لقريته فوجد أحوالها قد تبدلت وناسها قد تغيروا ، وفى الفقرات التالية
من المسودة الأولى تسود حركة التذكر وتكون أحلام الطفولة وذكرياتهما
وأفراحها وأحزانها وأشجانها ، تمتد حركات وعى الطفولة بدءا من الفقرة
الأولى (بعد الفاتحة) فى الفصّة الأصلية وحتى الفقرة الخامسة والعشرين ،
وتبدو هذه الفقرات بحركاتها وحالاتها ، كما لو كانت تمثل بذاتها قصة
مستقلة كاملة ومكتملة ، أما فى الصورة الثانية من القصة فان عمليات
رصد الواقع الحاضر بعد العودة من غياب السفر لم تستغرق سوى حوالى
خمس فقرات تمتد من الفقرة الأولى بعد المفتتح وحتى الفقرة السادسة ثم

٣ - ان التباينات التى حدثت فيما بين الصورة الأولى والصورة
الثانية من الفصّة لا تشتمل فقط على تغيير الأزمنة وتقطيع الحركات والدمج
بينها بل تشتمل أيضا على عمليات الحذف والاضافة لبعض الجمل
والكلمات ويتضح ذلك بجلاء عندما ننظر الى صورة الصفحة رقم (٤) من
المسودة الأولى من القصة ونقارنها بمشيلتها من القصة المكتملة ، من ذلك
مثلا أن الفقرة التاسعة فى الصورة الأولى تبدأ بجملّة « عرفتّه وذكّرتّه فى
ذهلتى وغيابى . انه يلعب معنا . . . » هذه الجملّة غير موجودة فى
الصورة الثانية من القصة وتأتى الاشارة الى لعب الأطفال الجماعى فى
الصورة الثانية فى الفقرة الخامسة فى مقابل الفقرة التاسعة من الصورة
الأولى فى صيغة الماضى « كان » فى حين أن هذه الجملّة فى الصورة الأولى
تشير الى الحاضر « أنه » وقد كان التحويل الذى حدث فى صيغة الزمن من
الحاضر الى الماضى متفقا أكثر مع التحويل الكلى الذى حدث فى القصة
فيما يتعلق بما قام به الكاتب من فتح تلقائى لبوابات الزمن والتذكر
واستقبال فنى متجدد للمادة المتدفقة عبر هذه البوابات والصهر الجديد
لجسد العمل .

٤ - نفس الشئ أيضا يمكن قوله على الفقرة العاشرة فى الصورة
الأولى التى تقدمت فصارت الفقرة السادسة فى الصورة الثانية ، ولكن
حدثت هنا عمليات حذف واطافة كثيرة فهذه الفقرة تبدأ فى الصورة الأولى
« وقد حكى لنا شابورى أن . . . » فى حين أنها تبدأ فى الصورة الثانية
بجملّة « سألتّه : أما زلت تدور بالطبلة يا شابورى ؟ » وهذا التساؤل يرد
فى الصورة الأولى فى الفقرة أو الحركة ٢٩ ، كذلك فان المعلومات الواردة

الصفحة رقم (٤) من مسودة النص ومناقشتها بمثلثها من الفتحة المنصورة تكشف عن ذلك الصراع الكيوي الذي اعتل في عقل البديع بين النحر المكتوب والنم الذي أراد كتابته

هيفا صار حامل الطبل في شبان بصرى عرفته ، في ذوقه خاف
وقشتت وعى عرفته . نعم إنه هو الشابوري بعينه ، أهد
رفاهه لعبي بهد إشتباه . ليس سباقيرهم ، لكنه واحد منهم على ،
أي حال . إنما هو فقط معلول ، جهعت العلة فيه صريحا عجيبا ،
به الرسم والطفولة ، جهتها في بدن ذابل حتى وجلد ،
ناعم متخضن ، وملاصح كتيبة عجوز . فهو صبي يملك
سر السنين ، ورجل خاقد بطش الرجال . طفل بلا طفولة وكبير
بلا هول .

بجرفته وذكرته في ذهلي وغياي (إنه يلعب معنا ، يذمه ثلثا :
حين ونيا لم ، يخرف ويرف ، يشغل ويسف ، يهد ويوغي ،
يكبر ويسخر ، وثنى فكيد له . ونسخر منه ، وأميانا نخرج به ،
ونبته ، وأميانا نلحقه ونؤذيه . لكنه يبقى دائما خصوصا
بحاله نائيا بحقيقته . لا تكون معاشرته وصارثا ، ولا يكون
مع يقينا . جوهر له صفات غريبة منظرها على إدراك

الحوائشي
قد على لنا شابوري أم أبوه الفقي الذي مات وتركه وأمه
العياد العجوز أدرتها حصة شائعة في الطبله عليه أن يدور
بها حول البلد ساعة السحر أياما معلومة به شرر زمان .
الحكاية ثمانا أوقات لعبنا ، وهي الآن تتبعنا عبارتها وصررها
ومشاهد ما في روضة الضيق العاتية . وهي في عقلنا إفتلا
معنا ما بمعن الشابوري إقترابا به مدارك واستعمالات
على فهم . أقناده ، كيف تهون الطبله حتى يجرى ويدور
في الطبله السوف هذا ؟ وأميانا أوصم أنه ليس
للطبله سوى هذا الكيان الشاذ العجيب ينتظرنا للرمز
ويردع به الدنيا في ساعة حادثة تفكر به ليل
ونحناني أنه نغمه جهته لربنا قلبه .

لكن لا ، هذا ليس الشابوري الذي عرفته ، وهو أيضا ليس
الشابوري الذي عجزت عنه معرفته . إنه حاله ثالثة شتته
مما يدبنا الآن به حال يستبهم كلما إشتد الدوى في غياب
صحة الجدول ، وهنور حتى انتفاء الحافض والثرى ، وصحة يكون
كل التعجب تادلا ملحا يده به بقبضة منه صديقه على حافظة

بشأن والد الشابورى تأتي فى الصورة الأولى فى صيغة أنه حكاهما للراوى ولأصدقائه فى حين أنها تأتي فى الصورة الثانية فى صيغة المعلومات الراسخة الشبيهة ، بالمعلومات التى يعرفها الشخص وكأنها معلومات خاصة بحياته هو وليست بحياة الآخرين ، والصيغة هنا توحى أكبر بذلك التوحد الذى كان بين الراوى والشابورى وبكل ما يتعلق به ، بطبخته وشخصه وأبيه وغير ذلك من المتعلقات ، وبعد ذلك فإن هناك أيضا بعض الكلمات التى حدثت لها تغييرات بالحذف والاضافة فى هذه الفقرة مثل كلمة « الطلبة » فى الصورة الأولى بينما هى « طلبة البلد » فى الصورة الثانية ومثل جملة « عليه أن يدور بها حول البلد ساعة السحور » فى الصورة الأولى التى تحولت الى « على الشابورى الابن أن يدور بها فى الحارات ساعة السحور » وكذلك جملة « الحكاية تخالط أوقات لعبنا » فى الصورة الأولى تحولت الى الحكاية خالطت أوقات لعبنا » فى الصورة الثانية ، وجملة « وهى الآن تتبع عن عبارتها وصورها ومشاهدها فى زوابع الضجيج العائية » فى الصورة الأولى تحولت الى جملة « وهى الآن تشحب عبارتها وتهمد صورها ومشاهدها فى همود نفسى وجوعى وظمئى ومعاناتى اليوم الرمضانى القاتظ » فى الصورة الثانية ، وجملة « هى فى عقلى اختلط معناها ٠٠٠ » فى الصورة الأولى تحولت الى « والحكاية فى عقلى اختلط معناها ٠٠٠ » فى الصورة الثانية وجملة « أتساءل ، وكيف تهون الطلبة حتى يحملها ويدور بها الأبله السخيف هذا ؟ وأحيانا أو من أنه ليس للطلبة سوى هذا الكيان الشاذ العجيب يستنطقها سرها ويروع به الدنيا فى ساعة هامة متفكرة من ليل رمضانى ان غمض جفنه لاينام قلبه » فى الصورة الأولى تحولت الى الصيغة التالية فى الصورة الثانية « أنظر له أرقب اجابته على سؤالى وهو يقول لى ، أدور بالطلبة فى أيامى والشركاء كل فى أيامه » قلت : « وما زلت تمر ببابنا أيضا ؟ » هذا فى حين جاءت الجملة الخاصة الواردة فى الفقرة السادسة والتى بدأت بقول الراوى « أتساءل ، كيف تهون الطلبة حتى يحملها ويدور بها الأبله السخيف ؟ » والتى جاءت فى الصورة الأولى فى الفقرة السادسة كما قلنا تعاود الظهور مرة أخرى فى الصورة الثانية ولكن فى الفقرة (٥١) وتكون صيغتها « تساءلت عن هوان الطلبة حتى يحملها ويدور بها رفيق اللعب الأبله السخيف هذا ؟ ثم اننى مما تفكرت فيه انكسفت ، رصنت حتى رأيت أنه ليس للطلبة سوى هذا الكيان الشاذ العجيب يستنطقها سرها ويروع بها الدنيا فى ساعة هامة متفكرة من ليل رمضانى ان غمض جفنه لاينام قلبه » ، ان التساؤل المصحوب بالاستنكار فى الصورة الأولى يتحول الى تعاطف وتوحد وتفهم فى الصورة الثانية .

أرى أجب واقفاً في هذه الشرفة ، في أية لحظة أصر ، في
تلاوة الشيخ أصر المبحوح الصوت ، في تلاوة خفيفة في
كل بيت وفي كل قلب . أريد . أريد . أريد . أريد . أريد .
النضية ، ثم يقبل لون الوقت هوله ، فإذا ما أذن التذنب
الشيخ أصر للأذان . تكن الشرفة قداس بقفرة أراضا ،
والأرائك على ما التراب ، وأنا صحت ترس اللبنة كينة
تفسر ، متى تمت إذا آت أدان طعامي .
الكعبة صانتي وسط دارنا المدرسي معلنه البهر بالمصالح
أشهرى المشنوم به حبله في السقف . في الكائلا الرض
الطين ميت و صنع في الأيام القدية مصباح الزيت
الملح الزجاجة فصحت في نور الأرشيار . الأرمه يتنعم
المنور بصنع التيار فينكر الشبه الذي هوك .
هذا الجدران لم رأت ولا سمعت
لدي كانت هنا ، هذا البيت المنصوبة سرارقاته المترجة في
الباحة أرك لم يجرب أضاء هذه الدار ليت دارنا ولا
تشرها ، إلا كما يشبه القبر عنفوان حياة صبا صه وتوهج
ميت في الباحة تحت أمانى حواء هذا البيت
تحت أي سرتى هذا على ظهر النزن . في دارنا هذه . لم أكن
رأيت في الزواج ، لم تان شئ بتادر أنه يفتري إليه ، أو
يعبرين به . عن وسد تحت الكابير وسور دارنا
الكاي في مجلسهم في الكار الرضائي مبيتا ولون . أثن
كتر تخلف من اعتادوه . وأنا به تحت با جتماعهم بفت
صوتا و تحت بئرا . ينظرون في أعقاب كاسفيه . إنهم
عجزوا عنه أنه يخلقوا لدينا هم الجريفة في قلبه
تعبيرا ، وعجزوا عنه أنه يخلقوا لثابتين في صلب رينا لم
إنصاتا و قرها . أظير إلى دارنا منزلا كبونة تميزا
الأصوات والأصنوار ، أظف . الأهل تحت رجوم فكرات
الصوت تجار بالترابيل والغني ، بالمعلقة الكنة والبراعة .
أضرمه الفخذ والزعيم ، و فبجا أورا من اللعب في الطباي .

علامات الحذف والإضافة والشطب والتعدد في التي يقوم بها الدهن الأبداعي .

هذه التعديلات وغيرها والتي هي نواتج ضرورية لعمليات التقييم والمقارنة الابداعية ما بين ابداع سابق وابداع مأمول ، ابداع منجز وابداع يحسن انجازه ، بين الابداع المتحقق والذي قد لا يرضى عنه المبدع والابداع الكامن الذي يحلم به ويسعى اليه ، هذه التعديلات انما هي فقط مؤشرات خارجية على ذلك التفاعل الدينامي النشط الخلاق الذي يدور في العقل الابداعي ، وبمقارنة بسيطة بين حالات الكلمات والجمل والأزمنة والصياغات في صورتى القصة يمكننا أن نكشف ذلك الشوط الذي قطعه الكاتب من أجل الوصول الى جشطلت أو صياغة كلية أفضل ، تعمق الرمز وتساهم في تنظيم العمل بشكل يتسم بالمعنى والأصالة .

٥ - يمكننا أن نلاحظ أيضا أن ما قام به الكاتب لم يكن فقط إعادة توزيع فقرات القصة وتسلسل عناصرها وترتيب مكوناتها بطريقة جديدة ، ولم يكن ما قام به أيضا هو الحذف أو الاضافة أو التعديل فقط أو التقديم والتأخير ، بل كان هناك سعى دائم أيضا لاكساب الكلمات رهافه أكثر بحيث تكون أكثر دلالة واتساقا مع روح العمل ، ولنضرب مثلا بسيطا لذلك من الصفحة رقم (١١) فى الصورة الاولى للقصة وفى منتصف الفقرة (٣٢) والتي تبدأ بجملة « جلست صامنا فى وسط دارنا الموحش . . . » وبعد عمليات الشطب الحادة التى قام بها قلم الكاتب لاختفاء أو استبعاد تعبيرات لم يرض عنها ، بدأت جملة « هذه الجدران لارأت ولا سمعت ولا كانت هنا » هذه الجملة ترد كما هى فى الصورة النائية ، وكل ما يحدث هو تغيير التعبير « ولا كانت هنا » وقد وضع الكاتب مكانه كلمة « ولا وعت » فصارت الجملة هى « هذه الجدران لا رأت ولا سمعت ولا وعت » ونعتقد أن هذا الإبدال كان مناسباً لأنه وضع الوعي محل الوجود المادى ، فصار الوعي الذى هو ذهنى أو انسانى مرتبطاً أكثر بالرؤية والسمع وهما من خصائص الانسان أو الكائنات الحية بشكل عام والانسان بشكل خاص ، أما « ولا كانت هنا » فهى أكثر عمومية وترتبط بالوجود الانسانى والوجود المادى الصامت أيضا ، وبالتأكيد فان الكاتب حين كان يتحدث عن الجدران نازعا عنها صفات الرؤية والسمع والوعي فانه لم يكن يعنى تلك الجدران الصامتة الباردة بل الناس الذين يسكنون خلفها أو يقبمون بجوارها ، وخلال تشخيص الكاتب للجدران واكسابه لها صفات انسانية قام بالتعبير عن رؤيته الرافضة لتحولات البشر الى كائنات حاملة كالجدران .

٦ - ان المقارنة ما بين صورتى العمل الأولى والنائية لا تكشف فقط عن ذلك الهاجس الابداعى للتطوير والتحسين وإعادة صياغة التصور فى

تكن السجود قدس بالطبلة به اعلی السارح قبضت به
 به - ا به و ا به مرتباً وها به با على اربياش . و هينا
 حازان السجود . و طالحى . و اسى على قلبى . آه .
 لقد استبه البدر - الكناز و انتفى الغياب
 منظر ا به على يدك و هنت ا به بوجردى على و جره . كلن
 ا به قلبى : در كانت هذه طبلة السجود جانبى ! ، قلت
 به : در نعم يا ا به ! و انا قد ادركت ، ووردى ! ، قال
 ا به : در هل فوق ظلت السجود كلا يوم جانبى ؟ ، قلت : در ليد
 اثنى بعد ذلك سوف اصور لوردى و صدى ! ، صرت
 به به به به ا به . و قفت و صدى . ا تمت قاصتى
 جيد ظلى ا به ظلى

فحوت به عجبى . و ضلت و اخلقت با به . لبشت هنية
 بنى مكانى . ا رقت للصوت المبتعد و انا مل ما هوكت .
 صدى و ا به . قبور الذكريات فى حر صلتى نحو التثوى
 للطقى . و ضلت كطرفتى . معذرتى لى ظهر الزمن . جلت
 على فرشتى . جرت الى صحنه طعاصى . اضع لقيامك ،
 مائى بلبهم و صدى . تنهدت ا صدى : در اثنى لم آكل ا طيب
 بما طبخته لى ا به . تكن الرامه يا كل ابعثاً ! ، اكلت و لويت
 و صدى : ا طربج انظر فى امر ندرانى الصغير . رقت مطفئة
 بظلمنا و صفت الطبلة بلزال صالك . تنهدت و صدى : عيني
 ا هلى متناهد فى مرقة بكائى : در ناصر طبلة السجود
 ا به - حور - ماضى .

و الرجل عيني بلا بن ليل الكارات محله به
 الظل به شفيف الحماة ، و القرية كالأ
 قلوب مشدودة الجله ملحة للأضمار
 العميقة الغليظة . الا يتاع بهم قاصم به
 احمان الوقت و ضته فيه . و عينة مدورة
 ا هلة نايضة ، بنفارسه الفواد المستلب
 رتب للصوت و للتذكر .

عبد الحكيم تاسم

الطبعة : ١٩٨٦

أكفا صورة ممكنة يراها المبدع لكن هذه المقارنة تكشف أيضا عن الدور الذى يمكن أن يلعبه « الآخر » باعتباره الوجه الآخر للعملية الإبداعية ، ليس بعد ظهور الناتج الإبداعى فقط ، ولكن أثناء تشكل هذا الناتج وتبلوره ، فالآخر ليس موجودا « هناك » فى الخارج فقط ، بل « هنا » أيضا فى الداخل ، فى عمق عملية الإبداع ، كما أنه يمكن أن يؤثر فيها ، وأعتقد أن عملية عرض الكاتب لعمله الأول على الجمهور كان لها أهميتها الكبيرة فى الاسراع ببلورة هذا العمل بطريقة أو بأخرى .

خاتمة :

ان فحص هذا العمل الإبداعى « طبلة السحور » لمبدعه المتميز « عبد الحكيم قاسم » يكشف عن هاجس غلاب مسيطر عليه ويسيطر أيضا على غيره من المبدعين الصادقين ، فهو خاصية ممثلة للدافعية الإبداعية ، وينمى هذا الهاجس فى الهروب من المألوف والابتعاد عن الشائع والافلات من القصص الذاتى والتكرار والسعى نحو الأصالة ، وفى باطن هذا يتمثل هذا السعى الدائب للمعرفة ولاستكشاف حب الاستطلاع المعرفى الذى ينير قلق الفنان وتردده ومن ثم سعيه الدائم للتعديل والتحسين والتطور ، بدءا من مستوى المفردة الى مستوى الجملة الى استخدامه لغة تراثية أحيانا تستفيد من بعض آيات القرآن ومن بعض الصيغ التراثية فى الحكى والرواية الى مستوى النص الإبداعى الكلى الذى هو صيغة جديدة ، لم يكن الكاتب ومن ثم الراوى فى « طبلة السحور » واقعا فى قبضة أسر الماضى يحن اليه ويجتر ذكرياته عنه فى حالة شبه فصامية منفصلة عن الحاضر ، بل كان يسعى من أجل فهم ما لم يفهم ومعرفة ما لم يعرف آملا فى الاستفادة من بعض نقاط هذا الماضى المضيئة فى مواصلة الحاضر والمستقبل بصيغة أفضل ، لم يكن رجوع الراوى الى الماضى نكوصا الى الفردوس المفقود (فى الماضى) وهروبا من الجحيم الموجود (فى الحاضر) بل كان سعدا وراء طرح التساؤلات والحصول على اجابات ، اقتناعا منه أن هذه التساؤلات لم تطرح من قبل أو طرحت بالشكل غير الملائم ، كما أن عدا هذا الراوى للحاضر لم يكن عدا ورفضا للحاضر كله بل لجوانبه السالبة ومظاهر التفكك والانهيال الظاهرة فيه ، أما المظاهر الايجابية والبناءة فمرحب بها ومطلوبة بل وضرورة من ضروريات الحياة والوجود ، ان علاقة الراوى

ومن ثم الكاتب بالماضي والحاضر هي علاقة عدم اكتفاء أو هي علاقة غير مشبعة ، ومن ثم فهو يحاول البحث عن واقع آخر مأمول يكسب من الماضي والحاضر بعض مميزاتهم ، لكنه يضيف اليهما أيضا ، هذا الواقع موجود . « هناك » في المستقبل وما يحاوله الفن الابداعي الجيد هو تقريب وتضييق . هذه المسافة ما بين الحاضر والمستقبل .

الفصل الثامن

حوارات حول القصة والابداع

مقدمة :

الحوارات التى يشتمل عليها هذا الفصل ، هى مادة خام تحتاج الى المزيد والمزيد من التحليلات ، وقد رأينا أن نعرض هذه المادة الخام على القارئ كما هى كى يرى وجهات مختلفة من النظر الى نفس الموضوع . تشتمل الحوارات على مادة خصبة شديدة الشراء عبر من خلالها الكتاب الذين أجرينا الحوارات معهم عن رؤيتهم الخاصة لفن القصة القصيرة ، مقوماتها وشروطها ، ان كانت هناك شروط محددة للفن أو الابداع ، كذلك عبر هؤلاء الكتاب الذين يختلفون فى مقادير خبراتهم فى الحياة وفى الكتابة ويختلفون كذلك فى توجهاتهم وممارساتهم الفنية بشكل أو بآخر بين تصوراتهم لدور الحلم والذاكرة والطفولة والآخر والزمان والمكان وغير ذلك من الجوانب فى عملية الابداع بشكل عام ، وفى الابداع فى القصة القصيرة بشكل خاص .

كيف تنبثق القصة القصيرة فى ذهن الكتاب وفى وجدانهم وكيف تنمو وتتطور وترتقى وتتكشف فى شكل عمل ابداعي قابل للدراك والتمييز والقراءة وتحقيق التفاعل والتأثير ؟ • ما هى النزعة الخاصة التى تدفع الكتاب فيما يشبه الحدس للكشف عن عناصر الجمال فى الواقع وفى الفن ؟ • كيف يعبر الكتاب خلال الكتابة عن نزعتهم الخاصة للخروج عن المألوف وتحطيم السائد وتجاوز المعتاد ؟ كيف يعبرون عن ميلهم الغلاب للتححرر من أسر القوالب الجامدة والأنماط المصمتة ، والابتعاد عن السير فى المسالك المطروقة وتفضيل السير فى الدروب الوعرة ؟ كيف ؟ وكيف ؟ وغير ذلك من الاسئلة هو ما تحاول الحوارات التالية أن تقدم لنا اجابات عنه .

حوار مع القاص ادوار الخراط حول القصة والفن والابداع

ثمة صعوبة بالنسبة لى تتمثل فى اننى أريد التركيز فى حديثى معك على القصة القصيرة لكننى أعرف جيداً تصورك للكتابة ولرأيتك فيما يتعلق بصعوبة الفصل بين الأجناس الأدبية ، وأعرف أنك « بدأت كاتباً للقصة القصيرة ، ولا أقول أنك تقوم بالتركيز الآن فى مجال الرواية ، فإبداعك يسير بخطى متوازية فى المجالين ، على كل حال سؤالى الأول هو : اثناء الخبرة الإبداعية ، خلال معاشية القصة وخلال كتابتها ، ما هى الفوارق التى شعرت بها بين إبداع القصة القصيرة وإبداع الرواية ؟

بالنسبة لى السؤال صعب فعلاً ، وأظن اننى قد تنبعت فى فترة متأخرة بعدم وجود فرق ، وأنه حنى فى القصة القصيرة التى كتبتها على انها قصة قصيرة ، وتحت وهم أننى ملتزم بتقاليد جنس القصة القصيرة ، وكان ذلك فى الفترة المبكرة قبل عام ١٩٥٥ ، حتى فى هذا النوع من الكتابة اكتشفت ان هناك ما يسمى بالنفس الروائى ، فحتى فى أقصر القصص التى من نوع مثلاً : « الاوركسترا » فى مجموعة « حيطان عالية » أو « أمام البحر » فى نفس المجموعة تجد نوعاً من الوقفات التى تكاد توقف مجرى الشعور بشكل كامل ، يتعلق ذلك بالأحداث والشخصيات والانتقال من الأحداث والشخصيات ، وكل الأشياء والوقفات المليئة المتأنية التى توحى بأن العالم كله قد توقف ، فى حقيقة الأمر فى تصورى أن الحدود أو الفروق الحاسمة بين الأنواع الأدبية ان لم تكن قد تلاشت فقد اختلت اختلالاً كبيراً ، فحتى فى الأعمال الروائية التى كتبتها هناك قدر من الاستقلالية بين الفصول ، هل يمكن تسمية هذه الفصول قصصاً قصيرة أم لا فى نفس الوقت الذى تزداد فيه الصلة بين الفصول ؟ ، بالنسبة لى بالتحديد فان الفارق بين القصة القصيرة والرواية فارق غير موجود ، كذلك فان الشعر يدخل أيضاً كمكون أساسى ، فالشعر فى تصورى أو احساسى أو مامولى ، مقوم لا ينفصل بأى شكل من الأشكال عما أكتبه فاذا كنا نتكلم عن « النفس » الروائى فى القصة القصيرة فهناك أيضاً ما هو أكثر من النفس الشعرى ، هناك المجرى الشعرى أو النسيج الشعرى أو الماء الشعرى الذى يتخلل ويتفرق فى العمل جميعه .

**ما الذى يجعل قصة ما تكتفى بذاتها وتأخذ شكل القصة القصيرة ،
ما الذى يجعل قصة أخرى ترتبط بفصول أو قصص أخرى وتحتاج اليها
فتأخذ شكل الرواية ؟**

بشيء من غرور الكاتب لن أتفق معك بأن قصة ما نحتاج لقصص
أخرى ، ولنأخذ مثلا على هذا فى قصة « أبو ناتوما » ، قصته تتعلق
بائنين من الرهبان فى الصعيد ، القصة اكتفت بذاتها ولم تتكرر ولم يمس
لها النمو بالمعنى الذى أشرت اليه أنت ، لكن هذا غير صحيح ، بمعنى أننى
الآن ومنذ سنة أكتب - دون أن أكتب - هذه القصة مرة أخرى بشكل
أكثر تعقيدا وتناميا ودخولا فى الحس الروائى ، وغير ذلك ، قس على ذلك
كل الأعمال التى تبدو كما لو لم يكن لها مثيل أو تكرار أو استطراد ،
يبدو أن الكاتب يظل يكتب طيلة عمره عملا واحدا ، أرجو بالنسبة لى أن
يكون هذا العمل متسما بالكثرة والتنوع ، لكنه على كل حال عمل واحد .

**هذه فكرة غريبة ، وغرابتها فى تكرار الحديث عنها عند عديد من
المبدعين رغم تنوع مجالاتهم الإبداعية ، هل هى تجربة المبدع أم قناعاته
أم مجمل حياته ؟**

لا يستطيع المبدع أن يقول شيئا آخر ، انه يتحدث عن مجموعة
همومه ، تكويناته الفكرية ، بل وحتى البيولوجية ، كل هذا معا فى
وقت واحد .

**سؤال آخر يدور تحت نفس النمط وقد سالك كثيرون قبلى هذا
السؤال لكننى أكرره مرة أخرى لأهميته : كيف تستشار بداخلك
حالة الكتابة ؟**

(ضاحكا) لقد سئلت هذا السؤال كثيرا وأجبت كثيرا ، لكنك
صغته بشكل مختلف ، المهم هنا هو التعبير « تستشار » ، حالة الكتابة ،
لا أعرف ، هناك حالتان المكتابة عندي ، حالة كمون : والكتابة هنا متخيلة
ومحمولة فى القلب وفى النفس وفى العقل محمولة كما كان السندباد يحمل
عفريتيا ، الكتابة تتضمن الكثير من العفاريات ، وكيف يتعامل المرء
ويتخلص من عفاريات كتابته المتكاثرة ؟ المثيرات مختلفة ، منها هموم
التفكير ، هموم أكثر منها أفكار ، مع الناس ، مع الذات ، مع الحركة ،
شكل الحياة وطبيعتها ، لماذا يعيش الناس ولماذا يضحكون ودورى فيها ،
ثم هناك أيضا الأشياء الحسية التى تقع عند طرفى قوس قزح ، عند أحد
الطرفين تقع الأشياء الحسية البحتة وعند الطرف الآخر تقع الأشياء
الحسية الأكثر رهافة ، مثلا مجرد رائحة الياسمين البلدى فى حوارى
وشوارع الاسكندرية ليلا ، لمسة من بنت ، لمسة يد ، لمسة ركبة ، مثلا ،
أن ترى زارا مفتوحا على صدر أو بطن بنت أو امرأة فى الشارع

أو الترام ، وهذا يجمع حوالبه الكثير من الأفكار والمشاعر ، يعنى مثلا من الأشياء المهمة التى لم أذكرها فى أى مكان آخر ، كيف كتبت مجموعة « اختناقات العشيق والصباح » لقد أصدرت لنفسى قرارا واعيا يتعلق بأحلامي فلدى أحلام متكررة وأحلام غير متكررة ، أحلام حقيقية تحضرنى أثناء النوم ، أحلام ، فقلت أننى لن أفعل شيئا سوى أن أكتب هذه الأحلام ، كما حدثت وكما تستغرق ، فى صفحة فى نصف صفحة دون أى تدخل منى ، وبدأت على هذا الأسساس ، فإذا بالحلم يستقطب حواديت وحكايات وشعر ولغة وأفكار وغير ذلك ، كما كان يحدث عند صناعة سكر النبات ، وكتبت كل قصص هذه المجموعة بهذه الطريقة ومركز كل قصة ، الذى ليس بالضرورة فى منتصفها ، محورها الذى هو ليس محورا حقيقيا بل بؤرة ، هو حلم ، حلم ، حلم .

هذه مسألة يشعر بها المرء فعلا عندما يقرأ هذه المجموعة ، فكل قصة فيها خفة الحلم ولغته الملتبسة وكذلك حالة اندماج الحسى والمجرد ، ليس هناك التصميم الصلب المقصود بل الخفة التى تخلق تصميمها الخاص والجو الخاص واللغة الخاصة ؟

استغلال المادة الحلمية من أهم المثيرات التى أستعين بها فى أعمالى ، المادة الحلمية تقوم فعلا بتكوين بؤر أساسية فى كل أعمالى ، « رامة والتنين » و « الزمن الآخر » وبعض نهايات الفصول وبعض مكوناتها فى « ترابها زعفران » وبعض قصص حيطان عالية مثل « أمام البحر » هناك مشهد فيه شخص وقلب وأشياء أخرى وفجأة نجد أن هذا الشخص تحت سطح البحر ، مائية الحلم أو حلمية الماء مسألة واضحة فى القصة ، من أوائل القصص التى كتبها مثل قصة « الشيخ عيسى » التى كتبها عدة مرات تجد أن الشخصية تقول ان حواديت زمان التى كانت تحكيها له جدته تبدو كما لو كانت معمولة من مادة الأحلام وتبدو مادة الحكايات الشعبية شديدة الصلة بمادة وحكايات الحلم . .

هل تأثرت فى فترة ما بالفلسفة الفينومينولوجية الظاهرية ؟

تأثرت بمعنى ماذا ؟

ما أقصده هنا أن بعض أصحاب هذه الفلسفة ينظرون الى الحلم باعتباره واقعا مادام يحدث ، ليس تهويما بل أحد الأسس الهامة للواقع مثل مثل الخداعات الإدراكية والأوهام والهلاوس التى هى حقيقة فعلا مادامت تحدث . .

كتابتنى تقول هذا أيضا ، لكننى كتبت هذا قبل أن أقرأ حول هذه الموضوعات لقد قرأت محاضرات طلبة الفلسفة حوالى ١٩٤٥ - ١٩٤٦ لكننى لا أعتقد أننى قرأت حول هذا الموضوع بشكل مبكر. هذا رغم معرفتى

المبكرة بالوجودية والماركسية والسريالية وغيرها من النظريات الفلسفية والفنية ، التمثل والتفاعل ونفى الغريب وتقبل الحميم مسألة تحتاج للتفكير أكثر من ذلك .

يتصل بما قلناه سؤال يفرض نفسه ، هل هناك قصص لديك هي مجرد إعادة صياغة لمادة الحلم ؟

لا يوجد مثل هذا حتى الآن ، لكن هناك الحلم البؤرة كما قلت لك ، فالحلم يستقطب رغما عني وبارادته الخاصة مادة القصة ، وأمام مثل هذا الأمر أنا مطيع تماما ولا أرفض شيئا يستسعيه العمل ، يبدو في هذه الحالات كما لو كانت هناك قوة في العمل أكبر منى وضرورة أكبر من ضرورتي الخاصة ، هنا أجد أن على أن أنصاع للعمل انصياعا تاما .

في حوارات سابقة لك تحدثت عما سميت به بالإنسان الداخلي ، وقلت أيضا أن القصة في البداية تشبه الاسكيميا « التخطيط » ولكن في معظم الأحوال تنطبق القصة بفعل القوة الداخلية لها ، وتحطم كل ما وضعت لها من تخطيطات ، وإذا بي أكتشف أثناء عملية الخلق نفسها أن هناك من يخطط لي كما لو كان هناك شخص يقف وراء الستار ، ماذا تقصده بذلك تفصيلا وتفسيرا ؟

سأحدثك عن التفاصيل ولكنني لا أستطيع التفسير ، في القصص والفصول هناك ما يشبه التخطيط أو الاسكيميا ، حدث في « ترابها زعفران » « الزمن الآخر » وغيرهما وبشكل متكرر كما لو كان نمطا ثابتا ، انني أضع تخطيطا من عشر حركات مثلا ، الحركة الأولى كذا والثانية كذا ، وأبدأ العمل ، وأثناء العمل ، هناك قدر من الاستغراق يشبه الحمى ولا أدمنه بشيء آخر ، وفجأة يظهر شيء ما لم أفكر فيه ولم أخطط له ، طبعاً يظهر هذا الشيء من رصيد كبير مختلف موجود ، لكنه ، هذا الشيء ، يبدو كما لو كان منتظرا في الظلام ينتظر الفرصة كي يقتحم المجال ويكتب نفسه ، مثلا جزء من حلم ، جزء من الشعر ، وصف خاص بشيء معين كنت لا أريد أن أصفه ، تجدني أقف أمامه طويلا وأحاول استكشافه وتكون هذه اللحظات في الحقيقة من أمتع لحظات الكتابة ، أمتع من أى شيء آخر كنت أراه وأعرفه ان هذا الذي يهجم فجأة يكون جديدا ويكون كاملا وكماله في تحقيقه في هذه اللحظة ، ومن أمثلة ذلك مثلا ما حدث في « ترابها زعفران » في وصف جسد الراقصة ، كانت الراقصة موجودة لكن لس بهذه الطريقة ، وقد كتبت ذلك باستمتاع وضحك حقيقي، واستغرق ذلك

حوالى ثلاث صفحات ، كانت تلك لحظة مهولة وممتعة ، بالنسبة لى الحكايات والأحلام والتداعيات تشكل بعد ذلك جانبا ضروريا من العمل ، ربما كانت نتيجة الاستغراق التام فى الكتابة ، وتحدث كما لو كانت انبثاقات تنقض وتهجم .

هل هناك مناسبات معينة زمنية أو مكانية ترتبط بهذا الظهور المفاجئ ؟

ليس هنالك قانون لذلك ، فهو غير منتظر وأحيانا أخاف منه فهو يهجم ويمكن أن يحدث لى نتوءات فى العمل فى بعض الأحيان .

هل تتناول مصارعة هذا الوافد الجديد ومقاومته أحيانا ؟

ليست هناك اطلاقا مقاومة أو مصارعة له ، ففيه دائما بهجة ومنعة لكننى أخاف منه بعد ذلك ، فلا أحب أن يحدث لى هذا فى قصة أو فى فصل كنت راضيا بتخطيطى وتنظيمى له بداخلى قبل كتابته ، لكنه غالبا يحدث على كل حال ، التخطيطات غالبا ما تكون علامات على الطريق ، حوالى أربعة أو خمسة سطور للتمهيد للعمل والتنشيط للتصور ، وليست هناك مطابقة على الاطلاق ، ولم يحدث هذا معى أبدا بين التخطيط أو النصور وبين ما يكتب بل يحدث دائما اختلاف بين الحالتين .

هل يكون هذا الاختلاف الى الأفضل أم الى الأسوأ ؟

ليس هنالك قانون أيضا لهذه المسألة ، فهناك قصص كتبها أو شعر أننى حزين لأنها كتبت وكنت أرجو أن أكتبها ، ولكنها لم نكتب كما أريد ، لكن هذا لم يحدث لى الا قليلا وفى الفترة الأخيرة هذا نادر الحدوث ، فى الفترة الأخيرة تعلمت أهمية التواضع والرضا عن عملى ، فى مرحلة الشباب كانت هناك قسوة ومعاملة شديدة للنفس .

هل تحدث هذه الانبثاقات أثناء العمل الفعلى فقط أم أثناء التخطيط له أيضا ؟

انها تحدث فى كل وقت أثناء العمل وأثناء التخطيط له ، وتشبه المفاجآت ، والاكتشافات المفرجحة التى يدهش لها المرء وأحيانا توقظنى من النوم وأحيانا تؤرقنى وأحيانا تعيدنى الى ما سبق أن كتبتة فأعيد كتابة كلمة أو أكثر ، انها أفكار تشرق فتضىء العمل وأحيانا تبعدننى عن طريقى ، فابتعد أولا أبتعد حسب حالتى وحسب المرحلة التى وصلت اليها من العمل ، وبعض فصول من « رامة والتنين » كتبت بهذه الطريقة ،

وبعض ما كان موجودا فى التخطيط تم استبعاده ونسيانه ، لأنه لم يكن متواسجا مع العمل ككل .

قلت مرة أن بعض القصص قد استغرقت عشر سنوات أو خمس عشرة سنة أو أكثر ما علاقة هذا ببعض الانقطاعات أو التوقفات التى مرت بها أثناء مسيرتك ، هل كانت تلك انقطاعات أم فترات تخزين ، أم فترات تتعلق بأشياء أخرى كالملل مثلا ، ماذا يمكن أن نسمى هذه الفترات ؟ وماذا كان يحدث فيها ؟

طبعاً ليست انقطاعات ، فلا يكاد يمر يوم دون أن أفعل شيئاً ، حتى فى أكثر أيام العمل الوظيفى ازدحاما ، وفى المؤتمرات تجدنى قبل النوم أو حتى أثناء العمل أفكر فى قصة أو فصل أو فكرة أو ما شابه ذلك ، لكن كتابتى رغم ذلك ليس فيها أى نوع من النظام أو الترتيب ، كنت أفكر فى كتاباتى المختلفة ليلاً ونهاراً وطول الوقت الذى بلا عمل ، لكنى لا أعمل فيها ولا أعرف متى سأكتبها ، متى أو كيف ؟ عندما أكتب يكون هذا بمثابة الكتاب . المتصل فى أيام قصيرة ، فرواية «رامة والتنين» كتبتها فى ٢٧ يوماً « والزمن الآخر » فى ٣٤ يوماً تقريباً وهذه عملية شديدة الارهاق وتتخللها عمليات متواصلة من التدفقات والانقطاعات أيضاً .

فترات العمل شديدة التركيز هذه تهمنى جداً ، ماذا تكون عليه حالتك النفسية أثناء هذه الفترات ؟

حالة غياب ، لا وجود ، لا أذكر أننى أفعل شيئاً آخر غير الكتابة ، عمليات الأكل والنوم تكون قليلة ولا أتذكرها ، حالة استغراق ، حالة تقمص وتوحد للكتابة ، وتكون حالتى النفسية ، فرحاً وحزناً ، متناسبة مع حالة الكتابة ذاتها فرحاً وحزناً ، عرق كثير وتدخلين كثير ، لكن ليس هناك ارتباط لدى بين حالة الكتابة وبين طقوس معينة للكتابة ، فقد كتبت « حيطان عالية » ولم أكن أدخن فى ذلك الوقت الا قليلاً ، ليست هناك طقوس ويمكن أن أكتب على أى ورق ، لكننى أحتاج بشكل خاص أثناء الكتابة لما احتاجه فى الحياة العادية ، الموسيقى الخفيفة ، القهوة ، لكن الهدوء والوحدة الكاملة هما من الشروط الضرورية للعمل ، لا أستطيع الكتابة فى غرفة فندق أو منضدة مقهى ، يمكننى كتابة بعض الملاحظات والأفكار فأقوم بتسجيلها على أوراق صغيرة لكن مكان كتابتى الأثير هو غرفة مكتبى ، مكان قراءتى وكتابتى .

**سؤال أعرف أن الإجابة الأكثر احتمالا عليه هي بالنفي لكننى
سأسأله من باب المعرفة بالشئ ، هل هناك ارتباط بين النقود أو المال
وبين حالة الكتابة لديك ؟**

الإجابة هي بالعكس ، لها ارتباط عكسى ، اذا طلب منى شئ كى
أكتبه بنقود لا أكتبه سواء فى المقال أو فى القصة مستحيل أن يحدث
هذا ، لم أقم بذلك الا فى بعض الترجمات لتشيكوف وقصص قصيرة
أخرى ترجمتها كى أحصل على بعض النقود ، هذا رغم وجود ترجمات
كثيرة لدى غير منسورة ، وان كانت قد أذيعت من البرنابج السانى .
فاذا طلبت منى مثلا مقالات نقدية بنقود يحدث غاق Blockage
كامل ، النقود أحيانا ماتكون ضد الكتابة .

**هناك سؤال يحيرنى وجزء من حيرتى بشأنه ان الكتاب عادة
لا يجيبون عنه واذا اجابوا عنه فهم يجيبون بتبسيط شديد ، السؤال هو :
لماذا تكتب ؟ ما هي دوافع الكتابة ؟ أحيانا يقوم الكاتب باظهار بعض
دوافع الكتابة لكننى اعتقد أن هناك دوافع أخرى لاتظهر خلال العمل
الإبداعي .**

صراحة هذه المسألة شديدة التعقيد لكن يمكن اختزالها من خلال
القول ، بوجود دافع للتمرد والاكتشاف ولتحقيق الذات والتجديد وعادة
النظر فى الأمور ودافع الكتابة ذاته ، وليس هناك مجال اطلاقا للحديث
هنا عن دوافع سطحية ساذجة مثل المال أو الشهرة أو ما شابه ذلك ،
كثيرا ما أشعر بوجود ما يشبه الحب للكتابة ، قدر من الولع ، المتعة
والعذاب ، وعذاب الكتابة مثل عذاب الحب فعلا ، الكتابة عندى أيضا
وسيلة من وسائل البحث والمعرفة ، والمعرفة لاتظهر الا بالكتابة .

الكتابة عندى أيضا هي نوع من الاحتجاج المكتوم أو الخفى على الظلم
الموجود فى الحياة ، وهذه ليست مجرد غايات بل أيضا دوافع حقيقية ،
هناك أيضا ما سبق أن قلته فيما يتعلق بالنظر فى الأشياء واعادة النظر
والاكتشاف من خلال هذه العملية ، وهى عملية ممتعة بالنسبة لى ،
والوصف عندى للأشياء هنا لا يكون مجرد سرد لخصائص الشئ الموصوف .
بل علاقة تقارب العشق وتصل حد التجربة الصوفية بين الواصف
والموصوف ، ومسألة الدوافع هذه منطقة داخلية ومعقدة وليس من السهل
الحديث عنها .

هناك مسألة أخرى ترتبط بجزء سابق في هذا الحوار ، رغم اهتمامك بالوصف فان أعمالك تبدو غارقة في الخيال ولعل استعانتك كثيرا بتكنيك الحلم هو ما يجعل الكثير من موصوفاتك تفقد صلابتها المادية ، السؤال هنا هو : رغم وجود هذا في أعمالك فانك متحمس لجبل السبعينات في القصة القصيرة رغم ما قد يبدو في أعمالهم من غياب لمسألة الحلم والخيال باستثناء نماذج قليلة منهم ؟

المسألة طبعا لا تؤخذ بالاطلاق ، وطبعا أى تفسير متوقع ، كالضغط الاجتماعي وظروف الواقع ، لكننى أعتقد أن الكثيرين منهم لديهم مسألة الخيال هذه وان كانت بشكل يحتاج الى مزيد من التحقيق .

هناك مسألة يهمنى أن تحدثنى عنها بشكل استفادة وهو ما قلته ان القصة تكون صورة تتحقق وتتشكل فى نفس الوقت ، بتناسيمها وذكرياتها وحوارها وبعدها البصرى وغير ذلك وتشبعها ، وهذه العملية كما لو كانت تحدث فى نفس الوقت ولكنها تحدث أيضا بشكل تدريجى ، وأيضا كيف تكتسب القصة لغتها الخاصة خلال هذه العملية ؟

أولا فيما يتعلق بالحضور الفنى للعمل الفنى ، يجب أن نفرق بين الوجود الذى يتحقق مرة واحدة للوحة أو التمثال والوجود الذى يتحقق عبر الزمن مثل الموسيقى وسأقول اجابة شطح غير منطقية ، تصورى أن قصتى أو روايتى مثل اللوحة ولبست مثل اللحن الزمنى رغم أن اللحن والموسيقى شرط أساسى من شروط الكتابة عندى ، قد لا يتحقق هذا كما أريد لكن مع هذا ، وخلال هذا الامتثال القدرى المحتوم الذى لا مفر منه ، فاننى خلال التشكيل أطمح الى الحضور الثابت اللازمى ، ومن الأمثلة التى تحضرنى هنا ، أن الفصل الأول من « رامة والتنين » كتب كما لو كانت كل فقرة من الرواية تحمل أو تتضمن الرواية ككل ، المسألة هنا هى صعوبة الفصل بين الزمنى واللازمى ، هناك بالطبع تسلسل نسبى لكن هناك أيضا حالة التحقق الكامل ، طبعا لا يمكن تصور رواية كاملة قبل الكتابة أو رواية بلا زمن ، فالرواية لا تكتمل الا اذا كتبت وهى تكتب خلال وعبر الزمن ، أما اللغة فهى مسألة أخرى .

رغم أننا لم نشهد هذه الحادثة ، لكننا ربما نمتلك بعض الاحساس بها ، تلك الحالة الأولى من بدء الخليقة ، حيث كل الأشياء موجودة وكاملة بلا نقص ، نظيفة وكل شى موجود وكامل منذ البداية ، هل هذه الحالة من بكاره الأشياء ثم الشعور باحتمالات فسادها ، كانت موجودة لديك اثناء كتابتك لروايتك « رامة والتنين » و « الزمن الآخر » ؟

هذه الحالة مقارنة فعلا لحالتي خلال الكتابة ، وهي موجودة أيضا
في القصص القصيرة .

هل ترتبط هذه الحالة لديك بتصوير ما عن فكرة النمط الأول
أو النموذج المثالي المرتبط بالأفكار الروحية اللا شعورية الموروثة وبالصور
المكونة للاشعور الجمعي عند يونج مثلا ؟ هل لهذا ارتباطه بما يمكن
ملاحظته مثلا من مقارنة أعمالك الأولى (حيطان عالية) مثلا بأعمالك الأخيرة
(الزمن الآخر ، واختناقات العشق والصباح) مثلا انه رغم التغير
الهائل الذي طرأ على تكتيك الكتابة ، مازالت الأفكار الأساسية الهموم
الأساسية لعالم الكتابة لديك واحدة ؟

أعتقد ذلك والمسألة جديرة بالتفكير .

عودة الى القصة القصيرة ، هل يمكن أن يحتمل عالمها المحدد مثل
هذا العالم الأول الحلمى البدائى المنفتح الذاكرة اللازمى ؟

ما المانع ، والموضوع يمثل مشكلة ، لكننى وأنت تتحدث ذكرتنى
بقصة صغيرة سبق أن ذكرتها وهى « الأوركسترا » ، هذه القصة تحدث
من خلال حكاية ولكن منذ اللحظة الأولى تشعر أن هذا الشخص الذى
يركب الترام ، فالترام يأخذ أبعادا ليست حلمية ، لكنها على التخوم كما
يبدو ، وعنده مشكلة فهو ذاهب لشراء دواء لأمه المريضة ، لكنه ينسى هذا
فجأة ويدخل فى حفلة أوركسترا والوصف الدقيق للقصة والأوركسترا
يجعل الأشياء لا تبدو كذلك .

أى تكتسب الوظيفة العاكسة ؟

بالطبع تكتسب الوظيفة العاكسة ، وهذه مشكلة فالدقة فى الوصف
قد ينجم عنها الشئ ونقيضه ، الواقع المحدد ، والواقع الخيالى ، النقيض
البدائى ، بدايات تكون لعالم الأشياء وتوالدها واكتشافها ، ورغم أن
القصة قصيرة جدا ، وتتحدث بهذا القدر من الحقيقة ، فانها تغامر بالوصول
الى منطقة الحلم الذى هو ليس حلما سيكولوجيا أو فسيولوجيا ، بل ما يمكن
أن نسميه بالحلم الكونى ، وأنا أرى أنه نظريا تكون الحرية لا نهائية ،
هذا نظريا ، لكن عمليا حاولت أن أقوم ببعض الأشياء فى هذه المنطقة ،
وهذه القصة من القصص المظلومة فعلا بالنسبة لى ، فلم يرق أحد حتى الآن
بالحديث عنها ، ربما لهذه الأسباب ، فلا توجد تكملة للحدث كما يتوقع
البعض ، وأنا أعتقد أن القصة القصيرة رغم تحدها الزمنى أو غير ذلك
فانها من الممكن أن تحتمل أشياء كثيرة وتكون مناسبة ، ما المانع ؟

هل يمكن القول بأن الايقونية كما نفهمها ربما كانت أقرب الى عالم القصة القصيرة منها الى عالم الرواية ؟

عندى رواية بمثابة هيكل مملوء بالايقونات ، وبداية ممكن تصور
أن عالم القصة القصيرة أقرب من الرواية الى مفهوم الايقونية ، لكن فى
نفس الوقت يمكن تصور الرواية باعتبارها مجموعة ايقونات ، فما معنى
التفرقة ؟ المشكلة عندى منذ البداية وحتى النهاية هى هذا الموضوع ،
وهذا هو العبء الذى عليك أن تحله كدارس ، لا توجد فواصل حاسمة بين
الأنواع الأدبية كما قلنا منذ البداية .

مادمنا قد وصلنا الى هذا ، فما رايك فيما يقال حول بعض المسميات
مثل اللوحة والشريحة ، والبارقة ، والومضة وما يشبه ذلك ، هل هذه
الأشياء صحيحة من واقع خبرة الكتابة لديك ؟

أنا عندى مشكلة ، فقصتى القصيرة يمكن أن يكون فيها عدة
ومضات ، ويمكن أن يكون فيها نور ثابت ، وهذه المفاهيم كانت مستوحاة
كى تساعد على توضيح وتوصيف وفهم أنواع معينة من القصص القصيرة
وليس تقييمها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ،
رغم أن كل توصيف وتوضيح لم يكن مطابقا دائما ، فمثلا لا يمكن القول
عن عمل لتشيكوف أنه لمحة رغم أنه يمكن قول هذا عن موباسان لوجود
حكاية ونهاية محكمة للعمل ، لكن هل هذا هو الفن ؟

الآخر فى الكتابة ، ما دوره ؟

الآخر المكتوب عنه طبعا مسألة مختلفة عن الآخر الموجود خارج
الكتابة ، وواضح انك نسأل عن الآخر الموجود خارج الكتابة ، القارئ
مثلا ، أو غيره ، دور الآخر له وجوده بعد الكتابة وليس قبل أو أثناء
الكتابة ، أثناء الكتابة لا تكون هناك حسابات لأشياء أخرى غير شروط
الكتابة التى أريدها وأرغبها وأطمح اليها وكيفما تكون ، ولدى قدر من
الغرور والصلابة فى هذه العملية ، لكنى لا يمكن أن أستغنى عن الآخرين
وان كان هذا يتعلق أكثر بما كتبت لا بما أريد كتابته ، ومنذ البداية كان
لدى قدر من العناد والرغبة فى الخروج عن المألوف وكان هناك قطع مبكر
للأهداف الشائعة الخاصة بالشهرة بالنقود أو بالمناصب أو غير ذلك ،
وتم تحديد الطريق بأنه الكتابة والكتابة وحدها ، ومن ثم كانت جهودى
كلها موجهة فى اتجاه الكتابة باعتبارها الوسيلة المناسبة للبحث

والتحقق ، وكان هناك بعض التقدير من قبل بعض الأصدقاء لكنى كنت أتحرك كما لو كنت أعمل ضد هذا التشجيع .

هل تعتقد أنه ثمة أسئلة أخرى كان يمكن أن طرحها فى هذا الحوار ولم يتم طرحها أو طرحت بالشكل غير المناسب ؟

السؤال الذى لم يسألنى عنه أحد حتى الآن وكنت أتمنى أن يطرح على هو : ما هو الترابط بين البصر والموسيقى ، وما هو الترابط بين هذين الجانبين ، فالموسيقى مرتبطة باللغة ، واللغة تلعب دور الموسيقى ومع ذلك فالعمل أساسا بصرى ، وهذه مسألة لا أعرفها بشكل كامل .

ربما كان هذا فى ذهنى حينما تكلمت معك عن الحركات أو النقلات بين مقاطع أو فصول أو أبواب أعمالك ، وربما كان الشيء المشترك بين الأشكال الفنية المختلفة بما فيها من لغة أو موسيقى أو وصف ، هو الخيال ، والخيال بصرى فى أساسه ، لكنه يمكن أن يكون سمعيا أيضا ، لكن الخيال البصرى يطفئ على ماعداه فيما يبدو ، وفى أعمالك تبدو مشاهد الخيال البصرى واضحة ، بمعنى سائلة ، بينما قد تقوم الموسيقى بتحريك هذه المشاهد وفق قوانينها الخاصة ، ووفق قوانين العمل الخاصة أيضا ، ووصفك لحالة الشخصية المحورية فى « ترايا زعفران » وهى تذكر خبرات طفولتها فيها هذا المزج بين البصر والموسيقى ، وفى أحد المشاهد التى أحبها أنا بشكل خاص تذكر الشخصية دخولها مطبخ منزلها ذات مبرة ، فوقفت مسحورة أمام الجمبرى بألوانه الجذابة ، والخبرة هناك موصوفة بشكل بصرى شديد الحميمة حيث يتم نقل ذلك الاختساس الخاص بطزاجة الجمبرى وبلونه وشكله وطبيعته الخاصة وبشكل يقارب اللوحة المرسومة وليس اللغة العادية ، فالحضور البصرى هنا حاد مع وجود الخيال أيضا الذى يحرك هذا العمل ، الذى قد يبدو للنظرة السريعة أنه شديد الواقعية .

أظن هذا ، ففى أكثر الانبعاثات الواقعية لدى ليست هناك واقعية بهذا المعنى ، وكلامك هذا جعلنى أتذكر أمنية أتمنى أن أحققها ، أنى أتمنى أن أكتب قطعة أدبية لا أعرف ماذا سأسميها ، لكنها عن السمك ، السمك فقط .

بالإضافة الى مسألة الخبرة البصرية هناك مسألة كنت أود أن اتساءل عنها منذ البداية لكننى أشعر أنه لا بد من طرحها هنا قرب نهاية هذا الحوار ، مسألة وجود هواجس ومخاوف دائما لدى شخصياتك ، هل هناك مخاوف معينة تساعدك الكتابة فى التغلب عليها وحلها ؟

أتذكر ، كنت تريد الحديث في البداية عن علاقتي بالليل ، أو علاقة الليل بى ، وكذلك العتمة والخوف ، هل الكتابة تساعد في ذلك ؟ لا أعرف فالمسألة لا تحل بسهولة ، وهى باقية لا تحل منذ زمن طويل معى ، ربما منذ الطفولة ، أنا لا أستطيع أن أنام فى الظلام أبدا ، لابد من وجود بصيص من النور موجود بجانبى أو حولى ، ومازالت أية « خرفشة » أو صوت ليلا ، تسبب لى القلق ، وطبعاً يمكن أن أدرك مصدرها فوراً ، لكن إذا كنت فى حالة عدم يقظة تامة تصبح مشكلة فهى تدخل منطقة الكابوس الصاحى (أى الكابوس اليقظ ، وهذه منطقة مريبة فعلاً ، مسألة الصرخة التى تحدث عنها هى حقيقة واقعة فعلاً وهى تأتى فى أوقات غير محسوبة ومازالت ، وأية لحظة منها تكون شديدة الرعب بالنسبة لى .

هل تكون بمثابة الكابوس ؟

هى فعلاً كابوس ينتهى بإيقاظ من فى البيت وقد كتبت عنها كثيراً لكنها ما زالت موجودة .

هل هذه المسألة مرتبطة بالسكة الحديد ورواية « محطة السكة الحديد » .

السكة الحديد أيضاً خبرة قائمة فى النفس وحية جداً وغير محلولة أبداً ، وواضح أنه قد تم تركيب أشياء كثيرة عليها وهى خبرة محطة مصر فى الإسكندرية ، خبرة وحية جداً وتركت تأثيرات وانطباعات قوية على ، وبعض هذم الانطباعات قد لا أتذكرها وربما تخرج فى العمل بهذه الطريقة وأما أتذكره من ذكريات عمر الخامسة أو السادسة أو ما حول ذلك هو أن هذه المحطة كانت شيئاً مدهشاً ، مبهجاً ومخيفاً ، سواء فى الليل أو فى النهار ، شديدة الإبهام ، شديدة الاخافة ، شديدة الضخامة ، وبكل قوة القطار وزموذه وعمليات التلاقى والذهاب والإياب والسفر وما تتضمنه هذه العمليات التى لا تتوافر فى المطارات مثلاً .

فى ذهنى أيضاً حوادث القتل التى قد يقوم بها القطار ؟

ممكن ، لكن لدى حوادث قتل مرتبطة بالقطار ، ليست لدى هذه الخبرة .

لكن فى الرواية هناك وصف لشهد جثة قد مزقها القطار وقطعها أرباً ، والوصف شديد الدقة وشديد الأثارة للرعب فى نفس الوقت ؟

فعلا ، هذا موجود ، ولكنه نوع من الخيال ، هذا خيال ، وهذه
حادثة تذكرتها وقمت بتركيبها من الأحلام ومن حواديت العفاريات
وما شابه ذلك ، وقد تم تركيبها بقانون خاص لها ، ما أحدثك عنه هو
خبرة المحطة والقطارات كما أحيائها وليس كما أكتبها ، وخبرة الكتابة قد
تكون فيها خبرة الحياة ولكن تكون فيها أيضا أشياء أخرى .

هناك شيء آخر ربما كان مرتبطا بما تحدثنا عنه ، هذا الشيء
يتعلق بتلك الكتابة المتكررة لديك عن عالم الموت وعالم الموتى أيضا ،
هناك شبه فصل كامل في « ترابها زعفران » بالإضافة الى ما هو موجود
في الفصول الأخرى حول الأعزاء والأحباء الذين يموتون ، فما سر الاهتمام
بموضوع الموت في أعمالك ؟

يبدو لي أن ذلك كان من خبرات الطفولة المبكرة والشباب المبكر ،
ملاحظة حالة فقدان وموت الناس واختفائهم والشعور بذلك يبدو أنه
كان مادفعني الى كتابة أشياء تقليدية جسدا في البداية وكتابة الشعر
وما شابه ذلك ومالم أنشره ، ثم ظلت هذه الخبرات مطبوعة لكنها حية
وحاضرة على مدى زمن طويل حتى دفعتني الى كتابة « ترابها زعفران » .
هل تميل الى اعتبار هذا العمل الفني بمثابة السيرة الذاتية ؟ :

كل عمل من أعمالى فيه جانب من مسيرتى ، وهذا العمل فيه قدر
أكبر من هذه السيرة ، لكنه يتضمن أيضا الكثير من الأمنيات والأحلام .

حوار مع القاص : ابراهيم عبد المجيد

حول القصة والفن والابداع

س : ما هو في تصورك الجوهر الخاص المميز للقصة عن غيرها من الأنواع الأدبية ؟

ج : نظريا لا أستطيع أن أجيبك مباشرة . لابد أن أحدثك قليلا عن احساس قديم لا زمني طويلا في كتابة كل قصة قصيرة . احساس بالضييق من التحديد المعرفي / النفدي أو ان شئت الجمالي بأن القصة القصيرة شريحة من الزمن أو خاطرة أو موقف . . الخ . دائما كنت أحس أن القصة القصيرة يمكن أن تكون أكبر وأطول أو أوسع من ذلك . وكان الجهد الأكبر لي أثناء الكتابة هو الوصول للنهاية بأقصر الطرق يعنى الاستخدام الأمثل والأدق للغة . للكلمات . لقد كلفتني هذه المسألة عددا من القصص غير الجيدة في البداية ثم استقامت لي بعد جهد صعب فالواحد منا يبدأ الكتابة وهو صاحب وجهة نظر في الكون والسياسة . عالم أو متعالم وعليه أن يتعلم أن يقطع من لحمه / أفكاره ومشاعره الخاصة : ما هو زائد ويتركه يتساقط تحت قدميه في عملية مؤلمة في البداية الا أنها تصير جميلة وسارة حين ينجح ويدخل الى مملكة الجمال الفني .

لقد وصلت بعد مكابرات الى أن أهم ما يمكن أن يميز القصة القصيرة هو أن يكون لها « محور ارتكاز » واحد . . ومعدرة على هذا التعبير « الميكانيكي » الخشن الا أنى عاجز الآن عن ايجاد مصطلح أدبي بديل . الآن على الأقل محور ارتكاز واحد يتم حوله البناء وتتراكم فوقه اللحظات أو المواقف أو ما شئت لكن كلها مشدودة اليه باوتار خفية تدور مع دورانه أوتار هي كالأقطار في الدائرة الواحدة لا يزيد فيها قطر عن آخر . في احدى قصصى الأولى المبكرة (شمس الظهيرة) كان هناك أب وابن وابنة ومحور ارتكاز القصة هي قتل الأبنه اخفاء للعار ولكن القصة انقسمت ثلاث لوحات لكل من شخصوها الثلاثة وتكشف كل لوحة الحالة الروحية لكل منهم وقت القتل والحالة الروحية تكشف الكثير مما هو اجتماعي وسياسي أيضا لكن لا نبتعد في أى لوحة من اللوحات الثلاث عن محور الارتكاز الرئيسى . . قتل الفتاة . . وفي احدى قصصى الأخيرة « الشجرة والعصافير » رجلان يعملان في منطقة مهجورة العلاقة علاقة عداة وتمتد القصة زمنيا لأكثر من ثلاثين سنة لأن محور ارتكاز القصة هو الزمن . كل

التحولات فى القصة مشدودة الى الزمن . وهكذا ترى انى لم التزم فى القصة القديمة الشخصية واحدة ولا فى الأخيرة بلحظة من الزمن وأظن أن ذلك حاضر فى كل أعمالى . اننى أبحث عن محور الارتكاز فاذا أمسكت به كتبت .

س : كيف تبدأ حالة كتابة القصة القصيرة لديك ؟

ج : تبدأ من مشهد أراه أو حكاية تستدعى حالات روحية عذبه أو معذبة وتبدأ أيضا من ذكرى مفاجئة وأحيانا تبدأ من احساس شديد بالحصار والصنعة . . فجأة أكتشف انى ما خلقت للسكون أو الكسل وأن كل ما حولى رتيب ممل ويرتفع فى صدرى احساس عريض بالصيف مما حولى وقد تنتابنى الرغبة فى البكاء . أريد أن أكتب . أريد أن أكتب . صراخ يتحدد فى روحى فأبدأ فى تقليب الذاكرة والذهن وأبحث عن أشياء نسيته أو فكرت أن أكتب عنها ثم نسينها . فى كل الأحوال أنا لا أبدأ الكتابة اراديا . وأيضا لا أندم على فرصة للكتابة ضاعت منى لأنى أعرف نفسى - من الخبرة - ان الفرصة لم تضع الا لأنى لم أكن مهيا روحيا للكتابة وأن فرصة الكتابة الحقيقية ستأتى وتجبرنى أن أتخلص من كل صغائر الحياة بخبرتى على الكتابة وفى كل الأحوال أيضا أنا لا أبدأ الكتابة الا بعد كتابة سقفة اذا جاز التعبير . أجد نفسى أردد بداية القصة لنفسى وأجد نفسى ملتزا بتوقيع الكلمات الموسيقى الحاد ويلفنى احساس بالفرح الممزوج بالدهشة .

س : كيف تتطور هذه الحالة وتستمر غالبا ؟

ج : يستمر معى هذا الاحساس الغامر بالفرح بعض الوقت . أكتشف أن المكان والزمان غير مناسبين للكتابة . تدهمنى الرغبة غالبا فى أوقات صعبة . بالنهار والجو حار . فى الطريق وأنا أتود السسارة . فى المقهى بين أصدقائى . فى المنزل بين أسرتى . ولا أعتمد أبدا على أوراق اسجل فيها ما خطر لى ولا الى مسجل لكن صارت لدى القدرة النفسية أن احتفظ بما راودنى من شعور ولدى دائما يقين أنه سيعود الى الظهور وربما دون أن أدري أحب أن أختبر صدق الاحساس . وبالليل ، فى الليل بعد أن يوغل كثيرا ، وبعد أيام قد تمتد الى شهور أجلس . أجد نفسى أبدأ القصة بنفس الكلمات التى رددتها من قبل وسررت بتوقيعها . لا تختلف البداية أبدا مهما طال الوقت وأكتب القصة تقريبا فى نفس واحد . وكثيرا ما أتوقف عند السطور الأخيرة أتركها لليوم التالى . لا أجد مشقة فى كتابتها . أحب أن أتركها لليوم التالى لا أدري لماذا . وفى اليوم التالى أكتبها . وربما بعد ذلك بأيام . غالبا ما يحدث ذلك لأنى لا أريد أن انفجر فى البكاء . هذا البكاء الغريب الذى لا يستمر طويلا . فـه يكون دمة . أنا لا أعرف مصدره حتى الآن . أنا لا أكتب قصصا ميلودرامية أبدا . لكن

هذا ما يحدث على أن القصة لا تكون قد انتهت عند هذا الحد . أعود إليها مرة أخرى . أحذف منها بعض الكلمات غالبا لا أضيف . أكتبها بخط أفضل وأقرأها كثر من مرة وفي كل مرة يزداد إعجابي ويستمر معي الفرح أياما متتالية . أصبح شخصا آخر في بيتي وبين أصدقائي . يتهلل دائما وجهي بالفرح وأعلن للناس جميعا أنني انتهيت من قصة جميلة وأتعامل مع كل ما حولي على أنه شيء جميل . البشر والأشياء . لأيام يستمر ذلك وتعود الحياة حولي تسراكم فوق رأسي ولا ينقذني منها الا توحيد جديد مع قصة أخرى . توحيد شفهي في البداية ادرك يقينا أنه سيتجلى فوق الورق مثل النور السماوي القادم من فوق جبل سيناء .

س : ما هي أهم الموضوعات أو الحالات الواقعية أو المتخيلة التي تدفعك الى كتابة القصة القصيرة ؟

ج : رغم وفرة الحالات الواقعية حولي في مجسم ينغير تقريبا كل يوم منذ صار لي وعي يستقبل بوضوح ورغم أنني مصاب بما يمكن تسميته بانفعالات المخيلة فأنا كثير الاستغراق في الخيال وكثير الانسحاب الذهني والروحي عما حولي مما يسبب لي - في الحياة - كثيرا من المتاعب بين أهلي وأصدقائي من الناس العاديين الا أنه لا بد نعتي بالكتابة من كل مظاهر الفوضى الواقعية والاضطراب الخيالي الا ما له علاقة بالظلم أو البراءة الانسانية من بين مئات الأحداث التي تحدث أمامي أو أقرأ عنها في الصحف أو أسمع عنها - قتل ، سرقة ، اغتصاب ، نهب ، تسول ، نصب ، هزائم عسكرية ، انتصارات حمقاء .. الخ . فأنا قد أكتب قصة لأنني تذكرت فجأة رجلا كان يحشي وحيدا في مكان كبير خال . على الشاطئ مثلا أو في الصحراء التي زرتها كثيرا أو رجلا يصطاد السمك في بحيرة مربوط التي عشت جرارها كثيرا في الاسكندرية . رجلا واحدا ويصطاد وحيدا ولا أحد حوله . على الفور تنتصب أمامي الموازنة بين الانسان الصغير الوحيد الهامشي هذا والكون الواسع الكبير الذي يبتلع كل شيء غافلا عنه . هذا نوع غريب من الظلم حقا للانسان والانسانية . تأسرنى دائما القطارات وعربات السكك الحديدية حيث عشت صبايا قريبا منها ورحلتها الطويلة في المكان والزمان والناس المحشورون فيها والمسافرون عليها . يأسرنى الليل حين تخلو الشوارع ولا أرى فيها غير الشرطة والكلاب الضالة ورجل أو امرأة تأخر بهما الوقت أحب لحظات الوداع والفراق بين الأحباء ويمكن أن تشير في الرغبة في الكتابة . أحب حكايات أمي عن طفولتي وحكايات أبي عن حياته في الصحراء مع جيوش الحلفاء أيام الحرب العالمية الثانية . أحب كل ما هو موغل في الزمن أكثر براءة مما هو حاضر فيه وأحب كل ما هو واحد متوحش عن اتساع المكان وترهل الزمان . بعد أن تزوجت صرت أحب أسئلة الأطفال واجاباتهم وصارت تشير في الرغبة في الكتابة .

صارت نفتح لى طرق جديدة فى الكتابة • أحب المرأة فائقة الجمال ودائما أرى انها فوق طاقه البشر وأنه لا سبيل اليها ويدفعنى جمالها للكتابة حتى لو لم أختبرها •

س : ما هو تصورك لدور الحلم فى القصة القصيرة ؟

ج : لا أتصور أن للحلم دورا بذاته فى القصة القصيرة • لا أتصور أن لشيء ، أى شيء بذاته ، دورا فى القصة القصيرة • لا أحب ذلك لا أحب القوانين فى الكتابة لكننى أحب أن تكون القصة القصيرة كلها مثل الحلم • شيء بين اليقظة والنام • شيء مثل لحظة الافاقة من الحلم نفسه تلك اللحظة الواهنة التى ما ان تصادفها تتذكر الحلم حتى يدهمك الواقع ولا يبقى الا غيبش الرؤيا وعليك أن تجتهد لتتذكر أو تفهم • أحب أن تكون القصة كلها مثل لحظة انبلاج الصباح على مهل من الليل شديد الظلمة وهى لحظة غنية بالاحلام دائما ••

س : ما هو تصورك الخاص لدور الخيال فى القصة القصيرة ؟

ج : ينطبق نفس الكلام الذى قلته عن الحلم على الخيال • فالقصة القصيرة المكتملة فى رأى هى التى بعد كتابة آخر كلمة فيها تنقطع كل علاقة لها بالواقع الدارج • هل هكذا تمضى الأمور ؟ سؤال قد ينور فى ذهن القارئ الذى يفاجئ أن ما قرأه قد ابتعد عما يراه ويعايشه • ان مفردات العمل الفنى كلها لها علاقة بالأرض التى نقف عليها والتى يعف عليها القارئ لكن كيف نرتفع بها الى طبقة أعلى • هنا يأتى الخيال • والخيال قد لا يكون فى الأحداث نفسها أو الوقائع أو الشخصيات ولكن فى طريقة التعبير وفى لغة التعبير • ان اللغة أداة الكاتب الرئيسية تستطيع أن تعطى سحرا يثير المتعة والتأمل ، اللغة تضيف الخيال على القصة ذاتها وقبل اللغة أو بعدها حسب كل كاتب وطريقته فى الكتابة يكون للرؤية العامة دورها فى ابتداء الخيال • أنا أجد أن كثيرا من رؤاى يحتاج الى ابتداء الخيال • فى قصة مثل « الغريبان » مثلا وهى قصة بسيطة للغاية الا أن محور ارتكازها يقوم على العلاقة الحادة بين الانسان البسيط وبين العالم الجديد الذى يسافر اليه متصورا أنه موئل آماله فى تحقيق مستقبل أفضل • الشخصية تنزل من المطار فى مدينة الرياض فيأخذ سائق الناكسى الى مكان غير المكان الذى طلب منه توصيله اليه وفى المكان الجديد لا يجد الا بيوتا متشابهة شديدة التشابه ولا أحد يأنس اليه الا مسافر مثله جاء معه على نفس الطائرة ضاعت منه حقبته يجهد فى البحث عن حقبة الآخر حتى تضيق حقبة الأول • لا يجد أى مهمات وأهلها شخص واحد - الا بيوتا صماء وشوارع خالية أفرغتها حرارة الشمس من كل مظهر للحياة • بالتأكيد سوف ينبهر كل من يسافر الى الرياض بالنهضة العمرانية وربما لا يجد

شيئا واحدا مما قلت لكن رؤيتي أنا للمسألة برمتها - ودون أن أدري في البداية فهذا كل ما اكتشفته أثناء الكتابة - جعلتني أضع الشخصية في مواجهة هذا الفراغ القاتل وهذه الأبنية المتشابهة التي لا توحى بشيء إلا الصدور . هذا معنى الخيال كما أحبه في قصصى . الخيال يخدم الرؤية العامة والرؤية العامة تحدد عمل المخيلة وتأتى اللغة لتؤكد ذلك . وأنت ترى مثلا في هذه القصة الحوار متشابهها ولا معنى له ولا يوحى بشيء . . . كأنه جدار من الصمت . .

س : ما هو تصورك الخاص لدور الذاكرة في القصة القصيرة ؟

ج : هل أقول أن الذاكرة هي البداية باعتبار أنى لا أرى فأكتب ولا أسمع فأكتب ولكن أرى وأسمع وأحس ثم تفاجئنى الذاكرة فأكتب . هذا حقيقى إلا أن ما يهمنى فى الذاكرة هنا ليس البداية إنما حضورها المفاجئ أثناء الكتابة . كثيرا ما أكاد أمضى فى الكتابة ثم أكتشف أن ما كتب عنه قد تداخل مع مشهد قديم ورؤية قديمة لم تكن فى اعسارى عند البدء فى العمل . وكثيرا ما يأخذ العمل مسارا مغايرا لما كنت قد قدرت بسبب الحضور المفاجئ هذا للذاكرة . كثيرا ما أكتشف هذا أثناء الكتابة فأعيد ترتيب الأوراق كلها وكثيرا أيضا ما أكتشفه بعد فراغى من الكتابة نفسها . فى الحالة الأولى يحتاج الأمر منى الى ترو وحكمة وفى الحالة النانية لا يكون لى حيلة لكن تزيد الذاكرة وتسلسلها هذا من احساس بالفرح والدهشة . والغريب أيضا أن الذاكرة أحيانا ما تتعامل مع « أشخاص » أو « أحداث » التى أبنى بها القصة بصورة مقلوبة . فالذاكرة تأخذ الشخصية أو المشهد والشيخوخة . وأنا أكتب رواية المسافات ، أو الصياد واليمام ، لا أذكر كله وتضعه فى مكان غير المكان الحاجز وفى زمان قديم . . هذه مسألة غريبة ولا أعرف كيف أعبر عنها بالضبط لكن سوف أعطيك مثلا من قصصى . قصة « العجوز والصبى فوق الجسر » شغلتنى بعض الوقت مسألة الطفولة والشيخوخة . وأنا أكتب روايات المسافات ، أو الصياد واليمام ، لا أذكر بالضبط كتبت عبارة أن العجوز والطفل يلتزمان من خلف الزمن . عبارة عارضة جاءت فى مجرى السرد الروائى واعذرني ان لم أذكر على أى لسان من الشخصيات جاءت إلا أنى بعد ذلك فكرت هل هذا حقيقى . ربما قلت ذلك بسبب ادراكى للعناية التى يحتاجها الرجل حين يشيخ وكيف انها تشبه العناية التى يحتاجها الطفل دون اعتبار لنوع المشقة . فهى فى حالة الطفل مشقة مبهجة وفى حالة الشيخ المسن مشقة متعبة على الأقل فى زماننا هذا . وأذكر انى كنت أفرح مع أصحابى فى صباى ومطلع شبابى وأقول أن المسألة لم تكن تختلف كثيرا لو أن الانسان أصبح هرما وكلما تقدم فى السن صغر وتضاءل حتى صار طفلا يصغر ويتضاءل أيضا حتى يتلاشى

ويكون للحوت شكل أفضل رغم أن بداية الحياة سيكون لها شكل بشع .
ومن المزاج القديم هذا جاءت العبارة السابقة لابدوأخذتني الذاكرة الى حادثة
صيد سمك صغيرة مننت أنا في صباى بطلها مع شيخ عجوز . كان يصطاد
السمك ويتركني أحرسه في شبكة من السلك في الماء فكنت أنا استغل
ابتعاده عن المكان وأصطاد السمك من الشبكة مباشرة دون عناء الصيد من
البحر . كان ذلك في عام ١٩٥٧ أو ١٩٥٨ تقريبا وكنت في الحادية عشرة
أو الثانية عشرة . حيث شرعت في كتابة هذه القصة أضفت اليها جو الحرب
الذي خيم على حيائنا منذ النكسة . أنا لم افسد ذلك أبدا . قصصت في
البداية اكتشاف كيف تكون العلاقة بين الصبي والشيخ لكن الذاكرة أخذت
من الحاضر وضافت الى الماضي والقريب أننى أثناء الكتابة كنت أرى المكان
القديم عند البحيرة الذي وقعت فيه الحادثة الأولى وقد خيم عليه جو الحرب
مع أنه كان من الواجب أن تعمل الذاكرة عملها الطبيعي فأرى المكان كما رأيته
في صباى . لقد أضفت الذاكرة على المكان جو الحرب ولم أعهد استطيع
تذكره الا هكذا مع أنه لم يكن كذلك بالمره على أنه كان للذاكرة أيضا دور
المنقذ الذي يظهر في الوقت المناسب . فكثيرا ما كنت في صباى أكتب
العبارات التي أعجب بها مما أقرأ من كتب . احفظ بها في أجنحة صغيرة .
كان هذا عملا صبيانيا جميلا وكنت عاشقا لقراءة تلك العبارات . أحيانا
تتسلسل احداها الى قصة أكتبها فاذا بالذاكرة تنصب أمامي كجندى شرس
وتقول لي أن هذه العبارة ليست من صني وانها دخيلة على العمل وانها وان
كانت « حلوة » تفسد العمل فليس مهما أن نكتب عبارة أو جملة حلوة لكن
المهم أن نكتب باللغة التي تشرى رؤيتك وموضوعك وتعطيه أفقا أوسع وعلى
الفور أحذف ما تسال الى الورق من قراءات قديمة . كان هذا في بداية
عهدي بالكتابة لكن الذاكرة لا تزال تحتفظ لي بأجواء مما قرأت . تحتفظ
لي الذاكرة بالفراغ الباهظ في رواية « صحراء التنار » لدينو بوتزاتي
واحساس به حين قرأت الرواية في صباى . تحتفظ لي الذاكرة بالدمعة
التي ذرفت على بطل قصته « قلب ضعيف » لديسوفيسكي وبالدموع التي
ذرفت على مصير عائشة في ثلاثة نجيب محفوظ بالاسم التي شعرت به
امرأة القيس بموت غريبا في تركيا وبالبحزن الذي سكن قلبي مع مسرة
فهمي في نهاية رواية بين القصرين وكمال الصغير يخنى زوروني كل سنة
مرة . تحتفظ لي الذاكرة بالأسى والحزن مما قرأت أو شاهدت ولا تحتفظ
للأسف لي بالفرح ولا داعي للاستطراد فيما تحتفظ به الذاكرة فهو كثير
ويدور كله حول الأسى والحزن والحنين والاحساس بالظلم والخذلان .

س : ما الذي ساهمت به مرحلة الطفولة وطفولتك الخاصة بشكل
محدد وكذلك الطفولة بشكل عام في كتابتك خاصة في مجال القصة
التصيرية ؟

ج : تراكم على مرحلة الطفولة عندى فى بداية عهدى بالكتابة تراب وصدأ سببه اهتمامى الشديد بالقضايا السياسية والاجتماعية . ولم يكن هذا الاهتمام السياسى والاجتماعى نتيجه لقرارات او مشاهدات أو خبرة وتجربة فقط ولكن كان لى نشاط سياسى واجتماعى فعال وكبير مع تنظيمات الثورة - ثورة يوليو - منذ عام ١٩٦٥ وأفضى بى هذا النشاط الى علاقات عديدة مع سياسيين باصريين وماركسيين ثم كانت لى بعد ذلك - بعد النكسة وتبدد الحلم الجميل وقفة أمتدت لبعض الوقت لكنها انتهت أسوأ من ذى قبل . انتهت بالمشاركة ، مثل واسل فى النضالات المستمرة لجيلى من أجل تحقيق الحرب مع اسرائيل . أقول أسوأ قياسا على الادب وليس للأمر نفسه ذلك أن كل هذه المشاركات كانت تنقل على فى كتابتى الأدبية فصرت أكتب قصصا لا أرى عنها بها من الصراخ أكثر من جانبها الفنى . كانت مشكلة فنية ونفسية ولم أفكر جديا فى الخلاص منها خاصة وقد تشابكت علاقتى ببعض رموز الحركة الماركسية ورصيد الحركة الماركسية فنيا فى مصر وأدبيا هو فى الغالب رصيد الفهم الديماجوجى للواقعية الاشتراكية وبالطبع هناك استثناءات لكنها قليلة أو على الأقل لم يكن لى حظ عليها . أننى أكتب ذلك مع أنه قد لا يكون مفيدا فى الاجابة على السؤال لكنه بالنسبة لى كان محنة شخصية حقيقية لم اتخلص منها الا بعد عام ١٩٧٧ .

فى بداية عام ١٩٧٧ وقعت انتفاضة يناير الشهيرة وانتهت بالفشل الذريع واستثمرها السادات أبشع استثمار فتصالح مع العدو الصهيونى وانقلابت الموازين السياسية والاجتماعية وبالطبع القصة كلها معروفة ولا داعى لتكرارها هنا وبهمنى منها ما يخصنى ولقد كان أن ادركت أنه لا فائدة من كل ما أفعل أو يفعل غيرى من نضال وأن كتابة قصة جيدة من الناحية الفنية بالنسبة لى أفضل من كل مشاركة سياسية . من هذه الروح العدمية فى البداية بدأت انسحب مما حولى ووجدت نفسى أعود الى عصر بعيد . عصر سعيد . الطفولة . كانت العودة للطفولة بالنسبة لى عاملا مساعدا على التخلص من وطاة السياسة على روح الفن . ولقد بدأ ذلك فى الرواية أولا . رواية المسافات بالتحديد . الا أنه سرعان ما نفذ الى القصة القصيرة . كل القصص القصيرة التى كتبتها قبل ١٩٧٧ ونشرتها أو منقتها لم يكن للطفولة فيها نصيب والعكس حدث بعد ذلك مع كثير من القصص . وهكذا اختلفت عن أبناء جيلى الذين نهلوا مباشرة من منجم الطفولة واجتزت أنا كارثة بحجم فشل انتفاضة يناير ١٩٧٧ . لذلك نجد جانب المسافات جانبا كبيرا من الطفولة فى ليلة والدم وجانب آخر فى « الصياد واليمام » وقصص قصيرة مثل « المسفر » أو « الشجرة والعصافير » أو « العجوز

والصبي فوق الجسر » أو « كل يوم يتقابلان » أو « الأسرار » أو قصص قصيرة جدا مثل « حكايات البراءة » كل ذلك ساهمت الطفولة في تشكيله .

س : لماذا يكثر - في رأيك - لجوء الكتاب الآن الى العودة الى وضع الطفولة واستلهاها في الكتابة خاصة في القصة القصيرة ؟

ج : ربما للسبب السابق . أعني نوع من الانسحاب من جهامة الواقع المعاشي وربما كنوع من التاريخ الشخصي ولكن الأهم بطزاجة المرحلة وبكارتها . ان ذلك يساعد الكاتب كثيرا على طزاجة الكتابة نفسها وشفافيتها لذلك أنا أضيق بالكاتب الذي ينظر الى الطفولة بمنظار التعاسة . فالأشياء القبيحة كانت بالنسبة لنا ونحن أطفال هي الأشياء الجميلة واضفاء وجهة النظر الشخصية بعد انبلوغ والوعى على مرجع الطفولة يفقدها الكثير من مصداقيتها .

س : ما هو تصورك الخاص لمفهومي الزمان والمكان في القصة القصيرة ، بمعنى ، هل هناك زمان خاص وكذلك مكان خاص تتطلبهما القصة القصيرة الجيدة بشكل خاص أيضا ؟

ج : كلما سمت القصة القصيرة عن الاحساس بالزمان الآتي كما او غلت في الفن . والسمو عن الزمان الآتي لا يكون بالتعليق المطلق ولكن يكون بالنسخ المطلق بما هو آت برهافة الحس واستنفاد أقصى امكانيات اللغة . أعود بك الى قصصى القصيرة « الشجرة والعصافير » هي قصة قصيرة تحدث بها ثلاث حروب . المصدر الآتي والمباشر واضح . رعاها ، بل بالتأكيد ، حروب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، لكنى لا أوضح تاريخ هذه الحروب وهى تحدث دون أن يفطن لها أحد من شخصيتى القصة وربما دون أن يفطن القارئ أيضا الا بعد دهشة وتوقف للخطبة ليتساءل كيف ولماذا قفز بى المؤلف هذه القفزات . كيف لم أشعر بها ، نفس المسألة فى قصة « كل يوم يتقابلان » . القصة تحدث فى وقت قصير جدا . وبعد الغداء . وقت القيلولة . هى لا تزيد عن حوار بين زميلى عمل لكن هذا الوقت القصير جدا يكشف كم كانت الأدم الماضية كلها متشابهة . السنين الماضية الثلاثين سنة التى التقيا فيها كل يوم ولا يزال كل منهما عاجزا عن البوح بالحب لزميله وعاجزا عن فهم زميله وغير مدرك لتغير كل شئ حوله . الخ .

والمكان فى القصة عنصر مفاعل فى الزمان . كل منهما فاعل فى الآخر . . . والتعامل مع المكان لابد أن يكون بحذر شديد . فللمكان فتنته . قد ينزل الكاتب وراء مفرداته ولا يعرف كيف ينهى القصة أو يسقط فى

ما سمي بالواقعية الفرنسية الجديدة . المكان في القصة لا يجب أبدا أن يكون كما هو حاضرا ولا أحب أنا أن يكون هو واجهة القصة أو انفها النهائي لكنه فاعل في توسيع أفق الرؤية يكفي أن أختار مكانا به أشجار شوك ليدل ذلك على « العقم » مثلا دون حاجة لحديث عن « العقم » أو « الفشل » . المكان امكانية سينمائية حقيقية . أداة أخرى للنشكيل الجمالي وعنصر فاعل في الإيجاز اللغوي « المكان » في قصة مثل « الغريبان » التي أشرت إليها من قبل لخص القضية كلها وعصمني من الاستطراد في الشرح والايضاح .

حوار مع القاص : سعيد الكفراوي
حول القصة والفن والابداع

س : ما هو في تصورك الجوهر الخاص المميز للقصة عن غيرها من الأنواع الأدبية ؟

ج : القصة القصيرة تأتي من تلك اللحظة المستحيلة والذي صرخ في مواجهتها « باسكال » « ان الضمت الأبدى لهذه الآماد اللانهائية يرعبنى تلك اللحظة التي ينتهى فيها الحلم بانذاك بعيد للوعى ، انها اللحظة التي يتم فيها الكاتب قطع الحبل الملتف حول رقبتة قبل أن يلفظ أنفاسه ويهوى من الفراغ . لحظة أن تسحبنا المصادرة لنواجه الموت هادئين .

لقد انتهى الزمن الذي كانت فيه القصة تشمل المقدمة والعقدة والحل ، والتي كانت تنتج بفصد اشباع متعة عند القارئ أو تحاول زيادة خبرته بواقعة ، ومساعدته على اكتشاف بعض مناطق الغموض داخله .

هل القصة الآن هي نوع من الوعي باكتشاف أن الانسان وحيد بدرجة مرعبة ؟ أم هي ذلك التوق المستحيل للوصول الى الحلم ، عبر كهف الذاكرة واجتياز مناطق الغموض فى الواقع المعاش .

اعترف بأننى لا أعرف .

ان الرواية تعطيك فرصة اجتياز الكمائن ، والحذر من الوقوع فى الفخاخ المنصوبة . وذلك باتساع عالمها وشموخها ، ومن ثم تاريخها .

حتى الشعر « أصعب الفنون » قد تهرب من فخاخه بالفناء ، أو باللغة حيث تنتج نصا ، أو بالنثر فى مواجهة الأوزان .

أما القصة فلا تعطيك فرصة للهرب ، كلمة خارج السياق قد تطيح ببنائها وتوقعها فى العادية ، وفرض السر ، ومن ثم تجاهلها .

أنظر للقصة عند « هيمنجواى » والتي ينهض بناؤها على الذاتية المقنعة والموضوعية الملزمة ، والتي تتسلح بتكتيكية أعطت لعالمه الذى يبدو للوهلة الأولى ساذجا قيمة عالية من الاحكام الفنى ، وتبتعد عن المؤلف وتسعى فى قلق للبحث لها عن مكان انساني داخل اللحظة الشجاعة التي يتم فيها الفعل .

وعند الكتاب اللاتين حيث شملت القصة لغز الحياة والموت ، والنص داخل النص ، والحلم والأسطورة وأتى هذا الانفجار الابداعى

بتجديد اللغة وحشد من الذكريات الحية ، وتم ابتعاث مخيلة جديدة تطرح السؤال ولا تنتظر الاجابة .

س : كيف تبدأ حالة كتابة القصة القصيرة نديك ؟

ج : ما الذى يستطيعه الكاتب ليدرك هذا العالم (الذى لا ينتهى غموضه ؟) ولماذا ينفجر موضوع القصة (ان كان لها موضوع) بالمخيلة كنافورة النار ، وكيف تستطيع أن تكبح فرصك عندما تتأكد أنك أمسكت بالصيد من ذيله ؟ تأتى القصة من مشاهدة لون السحب ، أو ذكرى قديمة ، أو حلم ، أو حكايا من حكايات الجدة ، أو وجه قابلك صدفه بعد غياب طويل فرأيت الزمن قد وشمه بملامح مغايرة مؤسسية . أو بكاء لطفل ، أو شيبه شيخ أفزعه الظلام .

عندها يقف الكاتب فى مفترق الطرق ، ويبحث فى مخيلته وذكرياته ، ويحاول اختيار لغته وينهض ، وينام وقد شمله حذر قلق . ويتجلى التعبير ، فرى الأعمى ويتكلم الموتى ، ويعود الراحلون وينم داخل الذات الحوار الأول لبداية الخلق وتتشكل ملامح لحقيقة النص المقدس وتتحدد الأسماء والدلالات ، والمعانى .

ثم تأتى عملية الكتابة (التى قد تطيح بكل ما نحدد سلفا) وتبدأ عمالية بحث حادبة عند انتاج النص ، وقد تستمر فى مسارها بهوييتها القديمة حتى تنتهى الى وجودها الموضوعى (النص) . وقد لا تستمر فيفتح عالم جديد مغاير وتبدأ أشكالية جديدة حتى تستوى القصة ونفرض شكايها هى ، وتحدد عالمها هى وتخرج فى النهاية لتصادف النجاح أو الفشل ، أو النجاح وخيبة الرجاء .

س - كيف تتطور هذه الحالة وتستمر غالبا ؟

ج - الحالة لا تتطور معنى فهى تنتهى بانتهاء النص ، لتبدأ بشكل مختلف تماما مع بداية نص جديد ، مغاير . يبحث عن زمنه وذاكرته ومن ثم تاريخه (أى واقعه) .

س - ما هى أهم الموضوعات أو الحالات الواقعية أو المتخيلة التى تدفعك الى كتابة القصة القصيرة ؟

ج - هذا السؤال جدير أن يوجهه أحد أطباء النفس الى مريضة ؟ ما الذى تراه أو تشعر به عندما تأتلك حالة العصاب الذى هو الفرع النهائى عند الاجابة عن السؤال ؟

لبس ثمة موضوع ممدد ينشغل به الكاتب أو الفنان (نفى التخصص) فالفنان أسير لنصه ، والنص فى آخر المطاف عدو للتخصص . أهتم (وأنت خير العارفين) بالفرية المصرية (المنطقه الغامضة من القرية المصرية) حيث يبدو الواقعى ، لاواقعا ، ويبدو الحلم غير الحلم ،

والحقيقي أسطوريا ، وحتى الزمن غير الزمن ، والطفولة التي عشتها غير الطفولة التي اكتبها ، ولكنها في الأول والآخر نفس هذه الطفولة من خلال الاحالة الى واقع آخر له مرجعية مختلفة .

أستطيع أن أقول (بغير يقين مؤكد) أن نفى الواقع خارج النص خيانة لهذا النص حيث ان الواقع المعاش له علاقة بواقع النص المكتوب .
مخيلة الكاتب تخلق واقعها الموازي ، وتخلق رموزها وتصوراتها ومن ثم ادراكها وسعيها نحو المعرفة .

نحن داخل جماعة ، الكاتب عين رؤيتها وبالتالي لا يكون انسانا الا بين جماعته لذا فأنا ككاتب أحوم حول : واقع الناس ، صراعهم مع هذا الواقع (السياسى والاجتماعى والنفسى والأسطورى) مجابهة الموت الذى يحط على معظم ما أكتب كأنه رسول الأبدية الذى يعيش معى لحظة بلحظة .

فى آخر المطاف لماذا السؤال وأنت خير العارفين ؟

س : ما هو تصورك الخاص لدور العلم فى القصة القصيرة ؟ (حلم اليقظة وحلم النوم وما شابه ذلك) .

ج : كثير من قصصى رأيتها أحلاما كاملة (لكن بلا لغة) . « الجمل يا عبد المولى الجمل » حلم كامل لم أضف له الا النهاية « المزاد » فى « زمن الانشيك » حلم . الخالة فى « سنوات الفصول الأربعة » كأنها أمة المبتة مادنتى فى الحمام ، رؤية تجلى القمر فى « قمر معلق فوق الماء » حلم مشمول بسقف السحب وغياب النجوم .

الحلم فى الكتابة يشير بالذاكرة ليخلق الفكرة النهائية ، والحلم باتى بدلا عن العجز فى الواقع لاحداث الجدل بين المتلقى والكاتب ومن ثم احداث المتعة . ان الأحلام الجيدة دلالة على ثراء الروح (حتى فى حالة العصاب) .

فى ظنى أن كل ما هو غير مألوف فى العمل الابداعى هو حلم فى مخيلة الكاتب قبل العملية الابداعية . عند « جارتيا ماركيز » مثلا ماذا تعنى البنات اللاتى يطرن ، والموتى الذين يبعثون ، وعشرات السنين التى تنقضى فى لحظة وعصور الأمطار الطويلة .

ما هى الا أحلام المبدع تخلص منها بالفن على الورق .

س : ما هو تصورك الخاص لدور الخيال فى القصة القصيرة ؟

ج : مما لا شك فيه أن الكتابة الجديدة منذ منتصف الستينات قد أنجزت الكثير ، واتسمت بحيوية مدهشة تجاوزت بها مراحل القمع

الأيديولوجي ، وفرضت خطابها الخاص متجاوزة تصورات السلطات المهزومة وارساء معالم جديدة في الكتابة :

- معلم اللغة •
 - معلم التاريخ •
 - معلم الشكل الخاص •
 - معلم ابتعاث زمن الطفولة ، والأسطورة ، والاستفادة من التراث الشفاهي •
 - معلم تجديده الأشكال القديمة ، داخل زمن جديد وشكل جديد •
 - معلم تعدد الأصوات والضمائر داخل النص الواحد •
 - أخيرا معلم الخيال ودوره في القصة القصيرة •
- نتهم أحيانا « بنقص الخيال » وبافتقارنا على القدرة على التركيب والاستفادة القصوى من مادة الخيال لمواجهة شراسة الواقع •

يعنى الخيال عندي اطلاق الحرية للصورة الفنية لتواجه مشكلات عجز اللغة وتركيباتها المدمرة ، والاحتفاء بما يأتى عبر المخيلة سواء خضوعه لمنطق الأنا الآخر ، أو لقوانين الارث السابقة علينا •

لماذا كان الخيال أشد مضاء في ألف ليلة وليلة ؟

كأننى ومن خلال ما أكتبه أخيرا استوعبت خيار الخيال ، وزاوجت بينه وبين الحرية • وأعطيت لنفسى حريتي في ابتعاث أزمان الحلم وأزمان الموت واستدعاء من وحلوا « مبرر للموت » والوقوف عند التخوم الغامضة للواقع وطرح السؤال الذى يقلقنى ويعطى لما أكتب رائحته الخاصة :

هل حدث ذلك فى الواقع ، أم أنه مجرد خيال ؟

س : ما هو تصورك الخاص لدور الذاكرة في القصة القصيرة ؟

ج : شرط تحقق الذاكرة — الحقيقة — هو كسر الترتيب الزمنى السائر عبر الخط المستقيم وتحطيم سياقات اللغة التقليدية المستقرة بصورة ما بداخل الوعي ، وانبثاقات الحكايا القديمة ، والأصوات (بما فيها صوت الريح) ولة الناس عند الأضرحة ومشاهد الفرح والموت ، وملامح الوجوه ، وما بحمله التاريخ المحكى ، والمكتوب من قصص ، وعظات ، وأساطير يتم من خلالها تشكيل عالم جمالى جديد وقائم وفق انساق مغايرة تشارك فى إقامة عالم ابداعى جديد •

فى ظنى أن دور الذاكرة فى كتابة القصص القصيرة يخص القارىء أيضا ، فهو مشارك بذكرياته التى تلتقى بدرجة ما مع ذكريات الكاتب ، أعتقد أنه من أسباب نجاح الكتابة معرفة الماضى (لانه الذاكرة - التاريخ المحكى) .

يرى بورخيس أن الأدب يقوم على أربع تقنيات أساسية (الكتاب داخل الكتاب ، وعدو فى الواقع بالحلم ، والسفر فى الزمن ، والمضاعفة) لذا تبدو الذاكرة للوهلة الأولى محصلة لما جرى فى الماضى . هذا غير صحيح . الذاكرة تعيش أيضا حاضرها . عندما زرت معبد الكرنك ، ووقفت داخل محرابه ، وبين أعمدته ذات التيجان اللوتسية ، ظننت أنى أسير فوق حضارة منقضية ومنتهية لكنها فى واقع الأمر (عبر الذاكرة الجيدة) تعبر عن نفسها فى الحياة اليومية وتعيش داخل المخيلة برموزها ، ورسومها ، وطقوسها التى اجتازت كل تلك القرون .

للذاكرة دور يتلخص فى استعادة الماضى ، بجماله وقبحه واعطائه شرعية أن يحيا الآن وفى المستقبل .

س : ما الذى ساهمت به مرحلة (طفولتك الخاصة بشكل محدد وكذلك الطفولة بشكل عام) فى كتاباتك خاصة فى مجال القصة القصيرة ؟

ج : تأمل (بغير اتهام لى بأحادية العالم وتكراره) هذه القصص : قمر معلق فوق الماء : الاعراف صندوق الدنيا : الجواد للصبي الجواد للموت : الصبي فوق الجسر : زيارة : سنوات الفصول الأربعة : الجمل يا عبد المولى الجمل فجر طاقة القدر : زبيدة والوحش : وغيرها كثير لم ينشر بعد .

وكلها عن أطفال مجروحين ، حيارى . يقتربون بوجل من خط الاستواء ويتطلعون ناحية الشمس حالمين .

ما كل هؤلاء الأطفال فى تلك القصص ؟

يدعى البعض أن الردة للطفولة رد على قبح الواقع وراثته .
أختلف مع هذا الادعاء .

العودة للطفولة اكتشاف منطقة جديدة ، ومجهولة فى الابداع العربى . فضل اكتشافها لنا .

إن « المنطقة الأكثر شفافية » (أعنى مرحلة الطفولة) ذلك الأثر الجميل والتى أعنى بها خمسة آلاف عام من عمر وطنى . أعنى بها قبوره

« الأهرام » و « الدير البحري » ومساجد القاهرة وكنائس أسيوط والكتب
الصفراء المجللة بالخرافة وسوء القصد . أعنى بها تقاليد أهل وقريتى .
هؤلاء الذين شاهدتهم طفلا يبدرون وينظرون نحو الحصاد القليل .

تلك هي الطفولة بمعناها الأشمل ، وليس بالمعنى الذى تعنيه ،
فترة ما بعد الفطام . فترة اكتشاف البكارة الحقيقى .

س : لماذا يكثر ... فى رايك لجوء الكتاب الآن الى العودم الى مرحلة
الطفولة واستلهاها فى الكتابة (وخاصة فى القصة القصيرة) ؟

ج : لأنها مرحلة لم تكتب بعد .

أحذر النقد من وصف تلك المرحلة « بالنوستالجيا » وتمجيد البراءة
ومن نفى الكتابة خارج الفعل وخارج الجدلية .

ان استعادة الماضى فى الطفولة استعادة الى امكانيات كامنة فى
تضاعيف هذا العالم .

ما الذى نستطيعه لنواجه هذا الجنون المتربص بنا من واقع الحياة
(أزمات فى الروح والبدن والواقع السياسى والثقافى والاجتماعى)
وهزيمة حضارية مجلجلة .

لا مناص من تأويل الحلم (الطفولة) وخلق يوتوبيا مستقلة للحفاظ
على أرواحنا من الاحتراق .

صدقنى .

ان استلهاهم الطفولة كما قلت لك سابقا هو اكتشاف لنوعية مختلفة ،
لكتابة جديدة .

حوار مع القاص : جمال الفيظاني
حول الكتابة والابداع

حوار مع جمال الفيطناني حول الكتابة والابداع :

ج : عميلة الخلق الخاصة بالرواية أشعر بأنني أقيم أركان عالم متكامل وشخصيات أي يشبهها بالكامل وقد استمر في كتابة الرواية أكثر من سنة أحيانا أغير في الشخصيات وأحيانا تغير هي في أحيانا أحلم بها وكأنها شخصيات من لحم ودم وتنمو باستمرار القصة القصيرة موقف سريع تمر به ولا تعيشه فترة طويلة رغم أن هناك بعض أفكار القصص تظل في ذهني حوالى ثلاث أو أربع سنين حتى تكتب .. أتركها وأعود إليها حتى أكتبها وقد تولد فكرة اليوم لا تكتسب أهميتها الا بعد فترة من الزمن قد تطول أو تقصر ولكن تظل الرواية بالنسبة لي هي العالم الواسع الذي يجد المرء فيه ذاته أكثر .

س : ماذا عن التاريخ واهتمامك به في أعمالك ؟

ج : كل حاضر هو تاريخ حتى اللحظة التي نتكلم فيها الآن .. يفصل بينها وبين غيرها المسافة الزمنية والتجربة التي يعيشها .. التاريخ بالنسبة لي هو الزمن .. هو ليس حياة الملوك .. هناك شخصيات علقت في وجداني أكثر من غيرها سواء من التاريخ الماضي أو المعاصر . انني أصغى الى آثات المعذبين والمقهورين لأن التاريخ المدون لا يحفل الا بالملوك وليس بصغار الناس فالتاريخ يقول ان الذي بنى الهرم الأكبر هو خوفو ولكن أين نام هؤلاء الذين بنوه ليلة انتهاء البناء فيه .. التاريخ لا يقول ذلك .. دائما ما يدهش التاريخ عنادات الناس .. ماذا عن رعب الناس الذين بنى تيمورلنك هرما من جماجمهم في ذروة غزواته .

في تصوري أن دور الفن هو إعادة خلق العالم من خلال تمثيل الواقع التاريخي ، والتجربة الانسانية لها وحدة متكاملة .

س : ماذا عن البعد الزمني بين ظهور الفكرة والتجارب ومحاولة كتابتها .. ما هي المتغيرات التي تطرأ عليها ؟

ج : تغيرات جذرية .. أحيانا تظهر الفكرة من الواقع اليومي وفجأة تلاحظ شيئا كنت تراه منذ عشر سنوات وفجأة يكتسب دلالة جديدة أو ذكرى معينة أو حادثة مررت بها أو دلالة يكتسبها حدث معين ، أدون الفكرة فوراً وأتركها فترة من الزمن ووقت ظهور الفكرة يكون لدى دافع شديد جداً لكتابتها ولكنني أفضل أن أتركها فترة من الزمن وإذا جاءت أفكار من خلالها .. إذا توالدت الأفكار عليها أدونها ثم في لحظة أشعر بضرورة كتابتها فآكتبها ، ما في ذهن الكاتب وانفعالاته شيء وما يخرج على الورق هو شيء مختلف تماماً وهذا يحدث بطريقة واضحة في الرواية ففيها تقفز شخصيات من داخل الكاتب لم يكن يعرف أين كانت تختبئ .. وهذا يحدث إلى حد ما في القصة القصيرة ولكن الأمر هنا هو أنه تغير الفكرة لا يكون كما هو الأمر في الرواية التي يتسع فيها الموضوع والمجال .

حوار مع القاص : عبده جبير

حول الكتابة والابداع

س : البداية : كيف بدأت الوعي بأهمية الكتابة بالنسبة لك ؟

ج : الوقائع كما حدثت هي أننى نشأت فى بيت دينى وكان والدى يرغب فى أن التحق بالأزهر وأكون شيخاً - كان يرسم لى حياة مغلقة فى جو مغلق .. ولكننى أحسست بأشياء جديدة وحياة جديدة تأتى .. فكان لابد من فهم ما يحدث لماذا تحاول الأسرة عمل سيناريو وعلى تنفيذه وكان لابد على من الصراع من أجل التخلص من كل هذا .. بدأ الأمر بما يشبه الهروب .. بدأت أسترى الروايات وأحاول قراءتها من أجل الحياة فى جو آخر .. خاصة فى الروايات الرومانسية ثم بدأت أحاول خلق هذا العالم الذى أعيش فيه أكبر فترة من وقت فى سن ١١ - ١٢ اشتد الصراع بداخلى وحاولت الاستقلال فبدأت ممارسة الكتابة .. فبدأت كتابة رواية خيالية كبيرة بقصد الهروب وبقصد الاحتجاج على الواقع ولذلك قررت كتابة قصائد هجاء .. وكتابة الشعر تحتاج الى المعرفة .. القواعد ، العروض .. قرأت بغزارة ثم اكتشفت أننى لا أستطيع التعبير عن نفسى بالشعر فرجعت مرة أخرى الى القصة .. كنت أقرأ فى أوقات المذاكرة حتى خرجت من البلد التى كنت أعيش فيها .. بدأت الأمر بما يشبه محاولة اكتساب شكل من البطولة فالعقاد كان أمامنا يبدو وكأنه كاتب بطل ومصلح فالكاتب كنت أعتبرها أداة لتغيير العالم .. أى كاتب له عدد من القراء وتغيير هؤلاء الكتاب هو تغيير لجانب من هذا العالم .. جربت نشاطات أخرى ولم أستم فىها وقررت فى النهاية أن أواصل طريقى فى الكتابة بعد ذلك شعرت بأننى لابد أن أضيف إضافة وليس تكرار ما سبق عمله .. فبدأ الأمر يأخذ شكل القراءة المنتظمة فقد رسمت حياتى بالكامل .. حتى صداقاتى .. حتى من الناحية السياسية الكتاب الذين يكتبون بطريقة قريبة منى هم قريبون منى بعد سن العشرين بدأ المرء يكتشف درجة البشاعة التى عليها هذا العالم .. اللحظة الوحيدة التى تشعر فيها بأنك حققتى حداً هي لحظة الجلوس للكتابة ولحظة أن تجد فكرة

تحبها تجد نفسك فيها وتشعر بأنها تخصك وحدك وهنا تشعر بأنك تبدع فعلا وتضيف شيئا للعالم .. ولكن للأسف الحركة النقدية متخلقة عن الابداع بمراحل كما أن ظروفنا الاجتماعية شديدة القسوة لقد قطعت علاقاتي بكثير من الأصدقاء نتيجة لخطورتهم على استمرار عملي الأدبي وحتى علاقاتي بأهلي هي علاقة محددة ورسمية خوفا من تأثيرهم على عملي وتفكيري .

س : لقد جربت كتابة القصة القصيرة والرواية .. من واقع تجربتك ما هي نواحي الاختلاف بين الموضوعات والحالات النفسية في الأمرين ؟

ج : غالبا بعد مرحلة معينة تكون المسألة هي أنك تبحث عن نموذج ملائم للتعبير عن أفكارك ، أما ساعة الكتابة فهي مسألة شديدة التعقيد وسأذكر بعض الوقائع التي حدثت معي :

هناك عدد من القصص الخاصة بي التي كتبتها نتيجة للغرق والزهد والتوتر والصراع ومحاولة حسم بعض العلاقات العاطفية في تقطيع وحرف كل القصص التي كتبتها فحرقتها وجلست في حجرة خافتة وجلست وتذكرت شخص ما غريبا عرفته ذات يوم .. كان ينزل يوميا يجلس على القهوة وحده .. وكانت حياته مأساة .. يعيش على الذكريات .. تذكرته .. فكتبت قصة مرت بثلاث حالات (الصراع العاطفي وعدم الرغبة في الاستمرار في هذه العلاقة - العودة للمنزل وعدم الوفاء بموعده حرق قصصي - تذكر ذلك الرجل الغريب وكتابة قصة جديدة عنه) حتى كتبت هذه القصة .. وأذكر أنني كنت أتألم ألما شديدا وأنا أضغ كل كلمة من كلمات القصة .. كما كان العنوان غريبا ثم نمت .. بعد مرور سنوات على هذه القصة عرفت العلاقة بيني وبينه .. كنت أنخيل نفسي هذا الرجل الذي هو ضحية للطبقة البرجوازية المتوسطة التي تتميز بالأنانية والتردد رغم أن لغتي مجردة إلا أنني ضد التجريد في الفن .. إلا أن أشخاص قصصي يتميزون بالتحدد في ملامحهم .

س : ما هي الأشياء التي تعتقد أن القصص القصيرة يمكنها التعبير عنها أكثر من الرواية ؟

ج : إنها ابنة انفصال معين وتعبر عن لحظة خاصة جدا لا تستطيع أن تعبر عن خلالها عن العالم .. أنها مثل القصيدة .. يمكن أن تحتل الانفعال وتعطقه داخلها .

وتعبر عن اللحظة الزمنية التي يعيشها الانسان . القصة القصيرة
تعطى كل ما يريده الكاتب مرة واحدة فهي سريعة المفعول وهي من أخطر
الفنون المؤثرة على الانسان .

النماذج الجيدة من القصص القصيرة حالات فقط تعبر عن لحظات
معينة لا نستطيع الرواية التعبير عنها فالرواية هي عمل نطمح من خلاله
عمل بناء متكامل متكامل بين اللغة وحالتك والقضية التي تنبناها . الخ .

القصة يمكن أن تعبر عن حالات التوتر والقلق والتوقع للخطر
وتعبر عن اللحظة الزمنية التي يعيشها الانسان .

س : ماذا عن عمليات محاولة اخراج القصة من داهية الكاتب على
الورق . ماذا عن اللغة ، ماذا عن الشخصية ؟ ماذا عن العمل قبل
كتابته ؟

ج : في تصوري أن التفسير العام أمر يصعب القول به . كل
قصة قصيرة جيدة تكتب في حالة مختلفة عن غيرها . حالة الفرح الشديد
جدا . وأحيانا تشعر أن العالم ضيق جدا أو أنك تريد الانتقام منه .
أحيانا تريد اظهار ممارسه نوع من استعراض العضلات فنيا . أى نعبر
عن أحداث كبيرة جدا بكلمات قليلة وهذا قد يترتب عليه فشل فني كبير .
في تصوري أن القصة الجيدة لابد أن تحدث بشكل عام في حالة انفعالية
عالية جدا (فرح - ملل - اغتراب قرف - حزن - انفصال عن العالم -
أو حب شديد) لابد من حالة انفعالية وتوتر شديد جدا بعكس الحال في
الرواية فالتوتر الشديد جدا عندما لا يستطيع التحكم فيه قد ينعكس
ذلك على العمل وبشكل سيء . لابد من الاحساس الواعي (يقظة الذهن مع
الانفعال الشديد انك تعرف انك منفعل انفعالا شديدا وفي اطار العمل
منك درجة أو صوت معين لكل عمل معين . إذا لم تستطع أن تكون فيه
بالضبط بحيث يكون هذا الحد متلاثما مع الفكرة ، اللغة ، البناء ، طريقتك
الشخصية ، ما تريد قوله ، إذا لم يتوفر أحد الخطوط كان أثر ذلك
سلبا . القصة القصيرة هي تعبير عن حالة انفعالية عالية جدا يحددها
الموضوع . حتى اللغة التي تعلمناها . بالتدريج نشعر أنها غير مناسبة
ويجب تغييرها . حتى الكاتب الذي تقتدى به في مرحلة معينة تشعر
بأن لغته وأسلوبه لا يتناسبان معك في فترة معينة من تطورك فتحاول
التخلص من تأثيره ولغته وسيطرته عليك ، اللغة ، كما الفكرة ، كما الحالة
النفسية مرتبطة بوجهة نظرك تجاه العالم (الشخص المساوي ، المستسلم
تماما ، الرفض المركب بطريقة معينة) يجرب الكاتب اللغة فيضع مفردة

بدل أخرى كما يضع الرسام لونا بدل آخر حتى يقع على اللون المناسب .
هناك طريقتان للتعبير عن الشخصية :

١ - (نفسييتها ، آلامها) .. هنا تلجأ الى المونولوج أو التحليل ..

٢ - تصوير حركتها .. رصد حركات الشخص الخارجية . وهنا تكون اللغة واعية أكثر .. أنا أميل الى تسجيل حركة الشخص أكثر من التعبير عن أفكار وان كان هذا لا يمنع من أن أجعله يقول جملة تعبر عن حالته .. وهنا نجد دمجاً بين الطريقتين .

س : ما هي شروط المناخ الصحى الاجتماعى المناسب للكتابة
فى رأيك ؟

ج : الظروف الاجتماعية التى يعيشها الكتاب الشباب الموهوبون والجادون هي من أسوأ الظروف ، فليست هناك وسيلة نشر جيدة تتصل بالناس ، الوسيلة المتاحة وسيلة مبتذلة وفى أيد مبتذلة ومتخلفة هناك مواهب جيدة لاتقل على الاطلاق فى عظمتها عن أعمال كتاب عالميين مثل فوكنر فى بلادنا .

الكتابة عندى هي وسيلة للاتصال بالآخرين بطريقة جيدة وتحقيق ذاتي ، وسيلة للشعور بالرضا والسعادة ، وسيلة للاقتراب من الناس والاحتكاك بهم .

حوار مع القاص : يوسف أبو رية

حول القصة والابداع

س : ما هو فى تصورك الجوهر الخاص المميز للقصة القصيرة عن غيرها من الأنواع الأدبية ؟

ج : هل أرد السؤال بسؤال ، وأقول : هل هناك جوهر عام لكل القصص القصيرة المكتوبة فى كل مكان ، وفى كل زمان ؟ أم أن لكل قصة قصيرة جوهرًا خاصًا بها على حدة ؟

هذه إشكالية تبدو من حين لآخر ، لأن من يقولون بجوهر واحد كأنهم ينكرون التجديد والمغامرة فى هذا النوع من الابداع ، ويواجههم السؤال ما علاقة قصص جويس القصيرة بما كتبه موباسان مثلاً أو ما علاقة قصص همنجواى القصيرة بالطريقة التى كتب بها تشيكوف مثلاً وعلى المستوى المحلى ما علاقة مجموعة مثل « أرخص ليالى » ليوسف ادريس بمجموعة « بحيرة المساء » لابراهيم أصلان .

وقد يبدو هذا شططاً ، ولكنى أجد الحل البسيط الساذج ، أن كل هذا يندرج تحت المسمى « قصص قصيرة » هل يكون الجوهر هنا . فى صفة « قصيرة » .

أؤكد أن هذا التحديد لا يكون على المستوى الكمي ، أى أن عدد صفحات الفصة ليس المحدد الأساسى ، ولكنها قصيرة بمعنى كفى ما ، أو قصيرة بمعنى الدلالة على عالم قصصى ما هى فى هذه الحالة لا تتسع له جميعاً ، وإنما تقتطع شخصية أو موقفاً أو موضوعاً أو حالة لتعبر عنه كلياً .

وأستعير كلمة همنجواى الشهيرة عن جبل الجليد ، وهو ان كان قد حددها على مستوى الكتابة الفنية عامة . فأنا أقصرها على القصة القصيرة خاصة ، فالقصة القصيرة هى الربع البارز من هذا الجبل الجليدى ، أو هى قطرة الماء الدالة بتكوينها على كل الماء ، أو هى الخلية الحية الدالة على كل الجسد العضوى الحى .

س : كيف تبدأ حالة كتابة القصة لديك ؟

ج : ليس هناك حالة واحدة محددة لكتابة القصة ، فقد جربتتها في أحوال متعددة ولو أنى - بالفعل - عثرت على تلك الحالة ، وعرفت قانونها لكتبت كل يوم قصة قصيرة وفي حالة التواصل معها كما حدث لى فى « مجموعة عكس الريح » ظننت أنى سأعيش أبدا هكذا ، فى حالة كتابته ، لأنى كنت أستجيب لها جس غامض ، كأنه على ما أكتب ولكنه غدر بى ، وانقطعت من تلك الحالة . حاولت استعادتها ، وهيات لنفسى ما كنت أهيه عند الكتابة ، ولم يحدث شئ ، وعدت الى حالات الانقطاع الطويل . أى أن القصة صارت تأتي على فترات متباعدة . لا على فترة واحدة طويلة وممتدة .

وسواء فى هاتين الحالتين ، التواصل والانقطاع ، لا أستطيع الاقبال على الورق الأبيض . قبل أن أكون قد قرأت جيدا ، خاصة داخل ترائنا اللغوى القديم ، شعورى بالفراغ لا يدفعنى للكتابة أبدا ، كذلك لابد أن أكون متخلصا من مشاكل الواقع اليومى الجزئية ، لأصبح فى حالة رضى عن النفس ، وتكون الكتابة استكمالا للتوازن النفسى ، فى الأيام الأخيرة أكتب صباحا ، بعد أن وفرت وقتا لذلك ، لا يكون أحد فى المكان معى ، وفرة من الشاى والدخان ، وقليل من الضوء ، ضوء الأباجرة خاصة لم أجرب أن أكتب فى نور طبيعى أبدا ، ربما قصة أو قصتين على مقهى من مقاهى القاهرة .

س : كيف تتطور هذه الحالة وتستمر غالبا ؟

ج : اذا توفر هذا الجو ، اظل أحوم حول نفسى ، نور الأباجرة ساقط على الورقة البيضاء ، أدنو وأناى ، والبياض يتحدانى ، ومرات كثيرة ألقى بجسدى الهامد على كرسى ، وأنكش عن دوافع للاقبال ، وأهون الامر لنفسى وأقول : وماذا يحدث لو لم أكتب هذه القصة ؟ فيتراكم الاحباط ومن لحظة السقوط الى القاع هذه ، أجدنى أنهض مرة واحدة ، لأكتب الجملة أو الجملتين اللتين تدومان فى رأسى ، من زمن القرار ، وقد أكون جاهلا بما سيلي هذه الجمل ، ولكن هناك فى أعماقى صورة ما ، أريد الامساك بها ورغبتى عارمة فى محاولة نقلها ، لأجعل الآخرين يرونها بكل حواسهم ، كما أراها بالضبط ، فيها أصوات ، وفيها ألوان ، وانهم لها روائح ، وغايتى من اللغة أن تكون عبرى الذى ينقل عنى عبء هذه الأشياء التى تثقل كاهلى .

فى مرات أخط البداية ، وقد تكون هذه البداية نصف صفحة أو صفحة كاملة ، وأجدنى أتوقف تماما ، ولا أجد ما أكتبه ، وتلبسنى حالة من الشك ، فلا أعود لفراءة ما كتبت . وكل ما سيطر على عقلى أنى كتبت أشياء تافهة ودائما أظن أننى كنت أفضل فى الكتابة السابقة . وهأنذا أنحدر الى السفح ، وألقى بما كتبت فى الدرج .

ربما آخر النهار أو فى اليوم التالى ينتابنى الحنين الى هذه السطور فأعود اليها ، فأجدنى - تلقائيا - أكمل ما بدأت ، أو قد أتوقف قليلا لأكتشف وأقرر لنفسى أنه ليس كلاما تافها ، بل هو شىء معقول ، وبداية لا بأس بها ، وأكمل ، ومرات قليلة هى التى لم أكمل فيها هذه البدايات . ولكنى لا أتخلص منها أبدا ، أظل محتفظا بها ، بين أوراقى ، من يدرى ربما أعود اليها يوما ، وقد حدث شىء من هذا القبيل وقد تكون حاضرا للكتابة عن نفس الموضوع بطريقة مغايرة .

س : ما هو تصورك الخاص لدور الحلم فى القصة القصيرة ؟

ج : ذات يوم كتبت قصة كاملة عن حلم رأيته . . ولم أكرر تجربته مرة أخرى . ربما لأنى مازلت مرتبطا بعناصر الواقع . ولكنى أجد الحلم مناثرا فى بعض قصصى « التجلى ، المحاولة » على سبيل المثال . وهناك قصص كاملة كأنما كتبت تحت تأثير مخدر وربما تنتمى الى النوع الآخر من الأحلام ، حلم اليقظة ، فى قصة « الفارس وأنا فى غرفتى » وإن كان الفن الحديث خاصة بعد فرويد قد استفاد بالأحلام استنفادة عظيمة ، ولدينا أصلان والبساطى ، ابداعاتهما كأنها حالات حلمية . الا أننى أستفيد من زاوية أخرى ، وهى العناصر الحلمية التى أكتشفها فى الواقع اليومى ، قد تخطف عينى وأنا سائر فى الطريق موقفا ما . أحس أنه حلم ، أو يشبه ما يأتى فى الأحلام هذا هو ما يستوقفنى . . وهذا ما أكتشفه العبقري كافكا ، لا أظن أنه كان ينتج من أحلامه التى يراها فى نومه ، وإنما من علاقات الواقع التى تشبه الأحلام . وأرجو أن أكون واضحا ، فالواقع والأحلام لا ينفصلان ، وإن كان كل منهما يعبر عن نفسه بطريقته ، فحتى الأحلام فى مرات كثيرة تأتى كواقع حقيقى .

ولذلك أنا أميل أكثر للنوع الآخر من الأحلام ، حلم اليقظة . فالفن لدى هو حلم يقظة ممتد .

س : ما هو تصورك الخاص لدور الخيال فى القصة القصيرة ؟

ج : بعد أن انتهى من كتابة القصة ، وأعيد قراءتها في المجموعة بعد فترة طويلة ، أى بعد أن تكون قد انفصلت عنى تماما ، وتصير كائننا مستقلا بذاته ، لا ينتمى الى ، يحدث أن أسأل نفسى سؤالا محيرا : هل ما جاء فى هذه القصة هو ما حدث فى الواقع بالضبط ؟

أو قد يحدث أن تقع هذه القصة أو تلك بين أحد الشخصيات التى تنتمى للعالم الذى اكتبه ، وربما يكون هذا الشخص القارئ هو بنفسه – كما أظن – الموجود بالقصة ، فلا أحظى بعد ذلك الا بابتسامة خبيثة ، وتعليق أفهم منه أننى كثيرا ما أكذب – فى رأى الشخص – وكثيرا ما أدعى ما ليس موجودا ، وما لم يوجد قط فى عالم الواقع ، وقد اهتز للحظة ثم سرعان ما أتوازن حين أجيب على نفسى : وهل كنت تنظر أن ترصد ما حدث رسدا فوتوغرافيا ؟ انه الخيال اذن ، هو أسمنت البناء الذى يلحم قوالبه بعضها ببعض الآخر ، وهو الذى يحشو الفراغات • ويملا الثغرات فى خلاصة هو الذى يمسك العناصر الواقعية ، باستعادتها مرة أخرى ، فهو الذى يعاوننى على خلط ملامح شخص مستمد – بالفعل – من الواقع بملامح شخص آخر لاتربطهما صلة ما فى الواقع ، ولكن الصلة تتم هناك لاكتمال الشخصية الفنية ، وكما يحدث من الشخصيات ، يحدث للمكان ، وكحدث للمواقف الدرامية الملتقطة ، تستكمل بعضها البعض من خلال التجربة المعاشة ، ودور الخيال الخلط فيما بينها ، لنوليد شىء آخر ، يبدو أنه واقعيًا ، ولكنه واقعي فى حدود العزل والفصل والنقل والاختصار والاضافة التى يقوم الخيال بصنعها لابداع شىء خاص ، يكون هو الواقع نفسه ، ولا يكون الواقع نفسه فى الوقت ذاته •

س : ما هو تصورك الخاص لدور الذاكرة فى القصة القصيرة ؟

ج : هناك مقولة تتردد حول جيل بشكل خاص وهى أنه يكتب من الذاكرة ، لا خير فى ذلك ، ولكن المشكلة أن هذه المقولة توجه اليه كاتهام • وهو فى نفس الوقت اتهم لا أردده ، فكل الكتابة فى مختلف العصور كتابة من الذاكرة ، حتى الكتابة الآنية منها ، بمعنى أن الكاتب الذى يكتب أحداثا معاصرة فهو يستعين – فى نفس الوقت – بالذاكرة فكل كاتب مجال يرتاح للكتابة فيه ، وهو ما يسميه النقاد العالم الخاص بالكاتب ، وعمل الذاكرة يقع هنا بالضبط ، فهى دائمة التحليق فوق هذا « العالم الخاص » وتقدمه للكاتب بسيطا وساذجا أو فل « مادة خام » وهو بدوره يقوم بأدواته الأخرى الفطرية والمكتسبة بالعمل فى هذه المادة الخام حتى يخرجها فنا مصقولا •

فالذاكرة احدى الأدوات التي يعمل بها الكاتب ، وقد تغلب عند كاتب دون كاتب آخر ، والفارق هنا هو غنى هذه الذاكرة أو فقرها ، قد أجد في الحياة كثيرا من الناس يمتلكون ذاكرة فنية بكل المقاييس ، ولكنهم لا يمتلكون الأدوات الأخرى فلا تستحيل الى فن جميل ، وعودة الى سيرة الكتاب الكبار ، ستجدهم في الغالب يتحدثون عن الجذات أو الأمهات اللاتي كن النبع الدافق لمادة القصص في الحياة .

ومازلت أكره الكتابة ذات الذاكرة القريبة ، ان صح هذا التعبير وأعشق الكتابة ذات الذاكرة المعنقة ، انني لا أستطيع حتى الآن الكتابة عن شيء قريب الحدوث ، لابد أن أعزله في ذاكرتي فترة طويلة ، حتى يختمر ، ويطفح من تلقاء نفسه ، وحينئذ لا مفر من اخراجه فنا أردت أو لم أرد .

س : ما الذي ساهمت به مرحلة الطفولة (طفولتك الخاصة بشكل محدد ، وكذلك الطفولة بشكل عام) في كتاباتك خاصة في مجال القصة القصيرة ؟

ج : الطفولة هي « عالمي الخاص » الذي تحوم حوله ذاكرتي ، على الأقل في غالب قصصى التي كتبتها حتى الآن .

والطفولة هي أبرز ملمح في كتابة جيلي ، معظمنا وان لم يكن أغلبنا يكتب عن الطفل في حياته ، وكان هذا اكتشافا لنا جميعا ، فقد فوجئنا بذلك ، بعد أن أطلعنا على أعمالنا ، التي لم يكن قد أتيح لها النشر بعد وبالرغم من ذلك فاننا مختلفون في كل ما يكتب عن الطفل في حياته بطريقة تنتمي اليه وحده ، وقد نجحنا كما قال أحد النقاد في أن نجعل من الطفولة « فلكنا الخاص الذي ندور حوله » وهذا – في رأيه – عمق جديد يحسب لتجارب الكتابة القصصية ، وهذا تمايزنا الذي يحسب لنا ، تمايزنا عن الكتابة السابقة التي تعددت أفلاكها .

ودعني أعرض لك بعض الآراء التي كتبت عن تجربة الطفولة عندي فمن قائل « انها ليست كتابة عن الطفولة انما هي كتابة طفلية » أي أنني استعير عيني الطفل ورؤيته للأشياء كما استعير لسانه وأعبر به . ومن قائل : « انني أغتصب الطفل الذي أكتب عنه » أي أنني أشارك في قهره ، ولا أدعه يعبر عن نفسه بطريقة ، وانما أقوم أنا بدوره مما يشارك في قهره فضلا عن صور القهر التي أعرض لها . وهذا رأي مناقض للسابق ، ومن قائل « لا يمكن لكاتب أن يكون طفليا الا اذا تجاهل تجاربه وخبراته ككاتب » أي أن كتابتي لو كانت طفلية لكنت كتبتها في حدود خبرات

وتجارب الطفل ملقيا بثقافتى ككاتب على قارعة الطريق . ومن يقول بأن الطفولة عندى « هى الجانب الخفى للرجولة » وقد تعجب لأننى مع كل هذه الآراء المختلفة ، كل واحد قد أصاب فى جانب ، وهذا يعكس شمول تجربة الطفولة لدى ، وكذلك أهمية هذه التجربة .

وأنا كتبت عن هذه الطفولة لأنى لم أجد شيئاً آخر أكتب عنه ، انها التجربة الحية والحميمة التى تستدعيني من وقت لآخر .

س : لماذا يكثر - فى رأيك - لجوء الكتاب الآن الى العودة الى مرحلة الطفولة واستلهاها فى الكتابة (وخاصة فى القصة القصيرة) ؟

ج : حاولت أن أجتهد يوماً ، وأقدم تفسيراً لهذه الظاهرة فقلت : ان هذا الجيل - أقصد جيل من الكتاب - جاء فى زمان معاكس ، فقد تربينا فى ظل التجربة الناصرية أثناء زهوها وانتصاراتها الأولية ، وتعلمنا مجموعة من البديهيات التى لا تقبل النقاش ورأينا أنها استكمال واقعى للمشروع المصرى الناهض فى توجيههم القومى ، واكتشاف البعد العربى كأحد عناصر مكوناتنا ، واستنهاض الهمم لمحاربة الاستعمار الذى تحدد فى الامبريالية الأمريكية والاستعمار الاستيطانى الاسرائيلى ، ودور هذه التجربة الناصرية فى دعم نضال الشعب الفلسطينى ، ونوجهها نحو تنمية حقيقة على قاعدة بناء اقتصادى مستقل ، وغيرها من البديهيات التى الهوية الحقيقية فى مواجهة طمس المعالم .

ولكن عند تحققنا ككتاب فرضت علينا توجهات مغايرة تماماً قلبت الأوضاع وجعلتنا نتمسك بطفولتنا ، التى هى حمايتنا من الضياع وهى الهوية الحقيقية فى مواجهة طمس المعالم .

على الأقل هذا هو التفسير الظاهرى والسطحى والعام ربما يكون لكل كاتب - على حدة - تفسيره الخاص ودوافعه الذاتية ولكن اذا كان ذلك لماذا حدثت فى الكتابة بشكل جماعى . ربما يكون هناك تفسير سيكولوجى أعمق ، وعلى ما أظن لن يستطيع تجاهلى بعض الظواهر العامة ، فى التوجه السياسى والاجتماعى للمجتمع كله ، وللحقبة التى عاشها هؤلاء الكتاب بالذات . ولم يوجد بعد الكاتب الذى لم يفلت من الطفل فيه ، ولكن المسألة هنا فى طريقة التعبير عن هذا الطفل ، وكل الكتاب يكتبون عن الطفل فى حياتهم ولكن بسبل مختلفة .

حوار مع القاص : محمود الورداني

حول القصة والابداع

س : ما هو في تصورك الجوهر الخاص المميز للقصة القصيرة عن غيرها من الأنواع الأدبية ؟

ج : تمتلك القصة القصيرة سرها الخاص ، وبالنسبة لي ، فأننى أحمل لها عشقا خاصا . فهي من ناحية تملك هذه الامكانية الفذة للاستفادة من سائر الأجناس الأدبية فضلا عن الموسيقى والفنون التشكيلية والسينما . وهى من ناحية أخرى ، قادرة على التأثير البالغ فى الأجناس الأدبية الأخرى .

هذه القدرة على تبادل التأثير قد تكون هى نفسها التى تملكها مختلف الفنون بالنسبة لكل منها فى علاقتها بالأخرى .

على أن القصة القصيرة ، ربما لطبيعة بنائها ، وربما لحجمها المرتبط بحدود وحرارة تأثيرها ، وربما لأسباب أخرى كثيرة ، هى الأكثر قدرة واستجابة للتأثير والتأثر .

ثمة وشائج خاصة ربطت بينى وبين القصة القصيرة ، وهى على أى حال وشائج معقدة على نحو ما ، الا أنها ساهمت فى محاولة تبلور مفهوم يخصنى عن القصة ، وهذا المفهوم نشأ وينمو ويتغير عبر الكتابة ذاتها .

لن أضيف جديدا اذا أشرت الى أن مسألة الحجم ليست هى الاعتبار الأول فيما يتعلق بالقصة القصيرة ، لكننى أعتقد ان الاعتبار الأول ينصرف الى شكل من أشكال التحدد أو الاقتراب بين ما تحسه قبل الكتابة ، وبين هذا التحقق الذى يتم بالفعل بعد الكتابة .

كما أننى لن أضيف جديدا أيضا اذا أشرت الى أن حدود الزمان والمكان لا علاقة لها بالقصة القصيرة ، لكن هناك انضباطا ما تملكه القصة القصيرة . ان الأحكام والانضباط اللذين يجب أن تكتب بهما القصة ربما كانا يمثلان بالنسبة لى أحد حوائج هذا الجوهر الخاص المشار اليه .

وأخيرا ، فان القصة القصيرة هي الشكل المفتوح دائما . فهي الكتاب الذي تظل تكتبه طوال حياتك ، فيمنحك المزيد والمزيد . انها شكل قابل للاستكمال عبر الكتابة ذاتها .

س : كيف تبدأ حالة كتابة القصة القصيرة لديك ؟

ج : في كل الأحوال أبدأ الكتابة منطلقا من رغبتى فى التعبير عن مشهد ما ، أو صورة ما . وفى كل الأحوال أيضا لا أنطلق فى الكتابة من رغبتى فى التعبير عن فكرة ما أو موضوع ما .

ثمة حنين دائم لدى لاستخبار مشهد معين (قبل الكتابة) ، ويستمر هذا الجنين مستعرا تارة وخافتا تارة أخرى ، حتى أشعر فى لحظة محددة برغبة مبهمه فى الكتابة ولا أستطيع أن أحدد طبيعة هذا الشعور بالرغم من أننى أتحمسه على نحو ما . وربما يرجع ذلك الى اختلاف كل شعور عن الآخر ، باختلاف القصص . بعبارة أخرى ، أود أن أوضح انه ليست هناك حالة محددة أشعر بها قبل الكتابة .

فعلى سبيل المثال لدى قصة قصيرة اسمها « يوم جاء جدى » ، بدأت لدى منذ نحو عشر سنوات ، وكنت أريد أن أكتب عن تلك العربة الحنطور التى نتوقف فى الغيط ثم يهبط منها الجد بكاكولته وقفطانه وعمامته .

وثمة قصة جديدة بدأتها منذ شهور قليلة . كنت أود أن أكتب عن مشهد أرغب فى استحضاره والاحساس به منذ سنوات لا أتذكرها . هذا المشهد لاينجاوز رجلا وامرأة يعبران الشارع ليدفنا طفلهما فى مقابر الخفير . ما حدث هو أن هذا المشهد تحول الى رواية أقوم بالعمل فيها الآن ، وبالطبع فلقد اختلف تماما هذا المشهد السابق الاشارة اليه عن الرواية التى أعمل فيها الآن .

وهذا المشهد الذى أتحدث عنه ، قد أكتبه بالفعل فى القصة وقد لا أكتبه ، وقد يأتى بشكل مختلف عن الشكل الذى كنت قد استحضرتة أو استحضرنى .

وعادة ما يبدأ الأمر بما يشبه الفرق فى تفاصيل هذا المشهد : الرائحة واللون والأجسام والأشياء والضوء . . تستغرقنى هذه التفاصيل ، وتنمو ندرىجيا ، دون أن أدري الى أين تقودنى .

ولا أستطيع أن أحدد ارتباطا ما بين هذا المشهد أو الصورة ، وبين أحداث معينة تجرى فى الواقع . أذكر اننى فى عام ١٩٨١ ، وفى أعقاب اغتيال السادات قبض على وأودعت سجن المرق ، وهناك وجدتنى أكتب

قصة تبدأ بمشهد حصان يركض في الشارع ، وما يلبث أن يعثر أثناء ركضه . كنت أفكر في هذا المشهد منذ سنوات ، ووجدتني أكتب ذات ليلة على عتبة سبجائر ، وفي ظروف أقل ما يمكن أن يقال حولها انها غير هوائية ، فضلا عن أن القصة ذاتها لا تتناول ما كان يجري معي لحظتها .

س : كيف تتطور هذه الحالة وتستمر غالبا ؟

ج : لقد حاولت في السطور السابقة أن أرد على هذا السؤال دون أن أقرأ السؤال ذاته . لكنني أعتقد أن الأمر يحتاج الى المزيد .

عادة ما يستغرقني المشهد بحدوده العامة لمدة طويلة ، نادرا ما أكتبه على الفور . حالات قليلة حدث فيها ذلك ، مثل قصة بحر البقر التي شاهدت في الليلة التي كتبتها فيها لوحة رسمها طفل ، حطم فيها دون أن يدري بالطبع كل قواعد المنظور ، لكنه رسم لوحة بديعة . هذه اللوحة شاهدتها في أول الليل عند الأصدقاء وسألته عن رسمها . ثم فوجئت بعد عودتي الى البيت بكتابتي للقصة وثمة قصة متشابهة هي قصة فانتازيا والحجرة ، ولقد كتبتها أيضا بمجرد أن انبثقت أمامي صورة الرجل المحبوس خلف باب حجرته .

وبطبيعة الحال ، فإن كتابتي للقصة بمجرد انبثاقها أمامي ليس معناه أنني لم أكن على علاقة بها من قبل دون أن أدري .

لكنني في كل الأحوال لا أجدني في حالة سعي وراء المشهد الذي تبدأ به كتابة القصة عندي ، ولذلك فأنني - عادة - انتظر هذا المشهد يتلقائية ، ويتم استيعابه واكتشافه واستكمالها دون التوجه اليه بشكل وادى ، ولذلك فانه من النادر أن أقوم بتسجيل أية ملاحظات ، قبل الشروع في الكتابة بالفعل .

أخلص الى القول أنه ليست هناك امكانية لاستمرار أية حالة الا ايماني بصدق ما أكتبه ، ولذلك فأنني أنتظر هذه الحالة مقتنعا بأنها لن تأتي الا اذا كانت مرتبطة بي وصادقة تماما .

لكنني أصدقك القول أنني الآن لم أعد مستريحا تماما لما تعودت عليه ، بل وبدأت أشك في صحته . الكتابة عمل مستمر منتظم يشكّل ما ، ولا بد من التوجه نحوها لا انتظار أن تأتي هي . هذا ما أقوله لنفسى الآن ، وهو ما يعنى أن ثمة قناعات قد بدأت في الاهتزاز ، لكن هذا لا يعنى أن القناعات السابقة قد تم تجاوزها بالفعل .

س : ما هي أهم الموضوعات أو الحالات الواقعية أو المتخيلة التي تدفعك الى كتابة القصة القصيرة ؟

ج : كما أشرت من قبل ليست هناك موضوعات أو حالات واقعية أو متخيلة تدفعني للكتابة . هناك مشاهد وصور .

بالطبع لا بد أن تكون هذه المشاهد والصور مرتبطة بحالات أو بشر في حالات ، لكنني لا أعني هذا إلا بعد أن يشدني هذا المشهد أو تلك الصورة . وأود أن أضيف هنا أن هذا المشهد أو الصورة قد يكون متخيلا بمعنى أنني استحضره ، أو قد يحدث أمامي أو أراه بشكل من الأشكال .

لكنني لا بد أن أقرر هنا أنه من الصعب أن تكون هناك حالات أهم من حالات تدفع للكتابة . المهم في كل الأحوال أن تكون الكتابة حقيقية وصادقة وبالتالي كتابة جيدة .

إلا أنني أستدرك مشيرا إلى أنه من الممكن أن تكون هناك بعض الحالات - أو المشاهد بالنسبة لي - أكثر قربا وحميمية من غيرها .

س : ما هو تصورك الخاص لدور الحلم في القصة القصيرة ؟
(حلم اليقظة وحلم النوم وما شابه ذلك) .

ج : سأكشف لك عن شيء بالغ الخصوصية ، وهو أنني نادرا ما أتذكر أحلامي بعد أن أستيقظ ، وهي مسألة محيرة لي . قد أتذكر نتفا قليلة من هنا أو هناك ، لكنني من النادر أن أتذكر حلما بتفاصيله العامة .

فيما يتعلق بحلم النوم فأنني قد استيقظ فرحا أو حزينا ، مبتهجا أو مهموما ، فأبدأ في اكتشاف تفاصيل ضئيلة للغاية . وهذا يسبب لي ضيقا شديدا بلا شك بل أنني أعلق آمالا كبارا على نفع هذه الأحلام في الكتابة ، فقط لو تذكرتها .

أعرف أن بناء الحلم ورموزه مسألة بالغة التعقيد ، كما أن احتمالات متعلقة بدور اللاوعي تشغلني ، بالطبع فإن دور الحلم في الكتابة مطروح ، ولكن على هذا النحو الغامض الغائم .

بعبارة أخرى ، يبدو أن حلم النوم ليس له علاقة واضحة أو محددة بالكتابة . كما أنني لا أذكر أنني اعتمدت على حلم لي في أية تفاصيل لقصة من قصصي .

وفيما يتعلق بحلم اليقظة لا أفهم ما المقصود بالضبط بهذا التعبير . إذا كان المقصود هو هذا الإبحار العادي الذي يحدث أثناء المحاولات السابقة على الكتابة فإن هذا الأمر يحدث بشكل مستمر ولا يتخذ أو يرتدى ثوب الحلم .

أكرر مرة أخرى ان حلم النوم بالنسبة للكتابة لا يمكننى أن أقطع فيه برأى ، فليس معنى أننى أعانى من مشكلة عدم تذكر أحلامي بشكل واضح ، ان دور الحلم ورموزه وبناءه لا يبقى فى اللاوعى منتظرا الفرصة ليخرج بشكل من الأشكال .

س : ما هو تصورك الخاص لدور الخيال فى القصة القصيرة ؟

ج : منذ وقت قصير كنت أعانى من مشاكل واجهتنى فى الكتابة . فبعد أن انتهيت من مجموعتين قصصيتين ورواية ، ووجدت نفسى أتوقف عن الكتابة ، وبدأ لى أنه من المستحيل أن أعاود الكتابة مستخدما ومعتمدا على ما اكتسبته عبر الكتابة السابقة . بدا لى أن كل ما اكتسبته قد استنفذ من قبل وأنه عاجز عن الاستجابة لاحتياج جديد أشعر به .

وقد اكتشف المخرج بغتة ، بعد أن طالت فترة توقفى ، وكان المخرج هو الانتباه لامكانيات جديدة ولا محدودة يمنحها الخيال .

ولا اعتقد ان المجال مناسب للحديث حول هذا المخرج بشكل أوسع ، لكننى أشير فقط الى أن الكتابة هى اكتشاف دائم ومستمر لامكانيات جديدة للخيال .

لدى قناعات جديدة اكتشفتها أثناء فترة التوقف التى اشترت البها منذ قليل وتنطلق هذه القناعات من ضرورة اطلاق كامل الطاقات الكامنة فى الخيال ، والتخلص من كل ما يكبل المخييلة . وإذا كانت المخييلة تصادف منذ أن تعنى ذاتها ، مئات وآلاف المحاذير والنواهي والمحرمات والممنوعات السياسية والدينية والاجتماعية والنفسية اذا كان الأمر كذلك ، فإن العصف ذو تحطيم كل هذه « التابوهات » يبدو أمرا لا غنى عنه ، حتى تنطلق المخييلة .

وأشير هنا على سبيل المثال الى كتاب مثل ألف ليلة وليلة أو سيرة حمزة البهلوان أو الظاهر بيبرس ، فكلها كتب تنتمى الى المخييلة الشعبية ، وهى مثل مبهرة وهائلة لانطلاق الخيال وتجاوزه ثم تجاوزه باستمرار .

وأكاد أقول أن المساكن التى تعانى منها المخييلة ، نتجت من غياب وفهم العلاقات بين الكاتب وبين ما شكل وجدانه ووجدان اسلافه . ان الكتب السابق الاشارة اليها هى مختلنا التى ينبغى علينا أن نعود اليها .

أخلص اذن الى أن دور الخيال على النحو السابق هو الذى يشكل الكتابة ، وهو الذى يمتحنها لونها وظلها وطعمها ورائحتها وشكلها .

س : ما هو تصورك الخاص لدور الذاكرة فى القصة القصيرة ؟

ج : الذاكرة هى ما يشكلنا جميعا . ذاكرة الكاتب والذاكرة الجمعية التى نحفظنا ونحفظها منذ أن تتسلطنا وحتى الرحيل البحتى .
والذاكرة فى القصة القصيرة هى الذاكرة فى سائر الاجناس الأدبية ،
وان كان يجرى مجابهتها على نحو مختلف بالطبع .

أحسب أن الذاكرة هى اللوح المحفوظ ، ذلك الذى سجل عليه مجمل الآلام والأحلام والمسافر ورحيل الآخرين ورحيلنا .

أظن أيضا أن جانبا كبيرا من النصوص الحديثة حفلت واحتفلت بدور خاص للذاكرة فبدلا من الواقعى الآن ، أو الدومانس أو الكلاسيكى . .
الى آخر هذه المصطلحات التى أجدنى مضطرا لاستخدامها دون اختناص ،
أجد أن ثمة احتفال غنى بذاكرة الراوى والشخص ، سواء فى ذلك الذاكرة التى نعى بما يجرى أو بما جرى .

وفى القصة القصيرة ، أستطيع أن أشير باطمئنان الى أنه الى جانب المشهد والزمان والمكان ، تقف الذاكرة على نفس المستوى من الأهمية . كما
تحتل نفس الاهتمام .

لا أستطيع أن أثّر كثيرا حول دور خاص للذاكرة فى القصة القصيرة ، فأنا منذ أن وعيت الكتابة ، وأنا أحس باعتماد خاص عليها .
قد يرجع ذلك الى انها تمنحنى فرصة للتأنى والالتقاط النفس والمغوص وللرحيل والرجوع ، كما قد يرجع ذلك الى ارتباطها الخاص بالزمن الفنى ،
كما قد يرجع الى ارتباطها أيضا بكل الأشياء البعيدة التى أجدنى دوما فى حالة حنين لها ، ان ما مضى يكتسى بغبار خفيف غير السنين . تتغير الألوان
والهياث وكل ما هو خارجى ، ويبقى شئ آخر يظل عالقا بى . . وهذا
هو الحنين الذى أشرت اليه ، واعتقد أنه فيما كتبت من قصص له دور ما .

س : ما الذى ساهمت به مرحلة الطفولة (طفولتك الخاصة بشكل محدد وكذلك الطفولة بشكل عام) فى كتاباتك خاصة فى مجال القصة القصيرة ؟

ج : سبب شخصى تماما جعل الطفولة عندى تحتل حيزا فى الكتابة . لقد عشت طفولة عريضة غنية متنوعة ، كما اننى خضت تجارب غديدة ، لا تتم عادة قبل المراهقة ، فى مرحلة متأخرة من طفولتى .

كان فقدى لوالدى منذ كان عمري حوالى سنتين ، ومواجهتى لعالم شرس وقاس وقبيح ، سببا لحوضى المبكر لكل التجارب القاسية بدورها .

منذ اللحظة الأولى واجهت عالما ثابتا راسخا لا مكان لي فيه ، الأمر الذي قادني الى الاصطدام المبكر والشرس به .

وأود أن أقرر ان قصص الطفولة التي كتبتها هي أحب القصص الى نفسي وأكثرها تأثيرا بالنسبة لي .

واذا كانت المجابهة الأولى التي وجدتها أمامها هي موت الأب ، في عالم يشكل الأب فيه لقمة العيش والحماية والملاذ والأمن ، فان المجابهة الثانية هي اصدار أمي على أن نعيش جميعنا : أطفال ثلاثة وهي ، وسط هذا العالم الشرس المهين .

بعبارة أكثر تحديدا ، أشير الى أن مرحلة الطفولة بالنسبة لي ، لا تنطلق من المفاهيم الشائعة حول الطفولة بشكل عام . فليس ثمة براءة في طفولتي ولا عالم أبغى استعادته كحكم وردى مبهج ، بل مواجهة محتدمة وحرق مراحل سننية بكاملها دون المرور عليها ، ومواجهة باهظة ثقيلة على تكويني العمرى .

تشكل طفولتي اذن جانبا ليس بالهين من تجربتي وطبعتي ومشاعري ، وهي دون تواضع ، سمحت لي ومنحتني وحرمتني .. كل ذلك في آن معا .

انها مرحلة حاضرة في تكويني ، وحساسة في ذاكرتي - أعني في تفاصيلها العامة .

س : لماذا يكثر - في رأيك لجوء الكتاب الآن الى العودة الى مرحلة الطفولة واستلهاها في الكتابة (وخاصة في القصة القصيرة) ؟

ج : ثمة رأى شائع يتناول هذه المسألة على النحو التالي :

أن الواقع قبيح والمواصفات والمعايير قد انقلبت الآن ، وهذا صحيح بالطبع لكن هذا الرأى يضيف : ان لجوء الكتاب الى مرحلة الطفولة احتياج على قسوة وقبح هذا الواقع .

قد يكون هذا صحيحا ..

لكنني أود أن أضيف ان هؤلاء الكتاب الذين تشير اليهم ، جاءوا في وقت الهزائم الكبرى والفقدان وغياب الأطر المرجعية وسقوط وادانة كل الرموز التي وحلت جسد هذه الأمة في الماضي ، فضلا عن انقلاب هؤلاء الكتاب - وهو انقلاب مشروع وحق لا مراء فيه - على البلاغة القديمة والكتابة القديمة ، وان كان هذا لا يمنع احترام انجازاتها واستيعابها وتمثلها .

فالأمر اذن ليس مجرد احتجاج سطحي على قبح الواقع ، لكنه أكثر تركيباً وتعقيداً • وإلى جانب ذلك ، فإن تجربة هؤلاء الكتاب تبدو بحق متفردة وتشكل ظاهرة في الأدب العربي انفراد بها الكتاب المصريون • ولا يغيب عن البال ، في هذا الخصوص ، ان هذه التجربة لم تبدأ من خلال منبر ما أو جماعة بعينها أو جيل تشكلت ملامحه • فمن المعروف أن أغلب هؤلاء الكتاب بدأوا الكتابة في وقت مقاطعة دور النشر والمنابر الرسمية منذ أوائل السبعينيات ، ولذلك فإن أغلب انتاجهم تم انجازه بشكل منفرد ، وبشكل فردي ، دون أن تكون هناك فرصة للحوار والصراع وتبادل الخبرة على النحو الطبيعي والمتصور •

س : ما هو تصورك الخاص المفهومي الزمان والمكان في القصة القصيرة ، بمعنى ، هل هناك زمان خاص وكذلك مكان خاص تتطلبه القصة القصيرة الجيدة ؟

ج : أعتقد أن لكل قصة قصيرة زمانها ومكانها ، وليس هناك ما يمكن أن نطلق عليه الزمان والمكان بمعنى مطلق يصلح لكل القصص • لكنني أظن أن الزمان والمكان – بمعنى ما – يشكلان عندي تحديداً أو إطاراً أو نوعاً من السور أو الخيمة •• لقد قصصت بهذه المترادفات جميعاً أن أوضح ان المعنى لا ينصرف الى الشكل الخارجي – ان كان هناك ما يمكن ان نطلق عليه شكلاً خارجياً •

فالزمان ، على سبيل المثال ، ليس فقط هو الزمن التاريخي الخارجي ، لكنه ، الزمن الفني ، وهو الوحيد الدقيق والحقيقي •

وزمن القصة هو الزمن الفني الذي تشكله عبره هذه القصة أو تلك • لا ينقضي هذا الزمان بانتهاء الثواني التي تحتويها القصة ، لكنه زمن مناظر للزمن الخارجي الواقعي ، وليس مطالب الا بمهمته : أي عبر الكتابة •

ونفس ما قيل عن الزمن ، يقال عن المكان ، غير أنه من المهم أن أوضح هنا أن يرتبط على نحو مختلف بالمشهد الذي أجدني مطالباً بملامسة تفاصيله ، تلك التي تشكل وتشكل عبر الشخصيات وما يجسري لها وما تقوم به ، بعبارة واحدة : حركتها (أعني حركة الشخصيات والأشياء والأضواء والظلال والألوان) •

حوار مع القاص : حسين عيـد

حول القصة والابداع

س : ما هو تصورك الجوهري الخاص المميز للقصة القصيرة عن غيرها من الأنواع الأدبية ؟

ج : القصة القصيرة تتميز عن بقية الأنواع الأدبية بأنها :

— مشهد أو لقطة تضيء بؤرة في الواقع أو ملمحا لشخصية ،
أو تطرق فكرة معينة (قصة سيدة عند النهر من مجموعة قطار الحادية
عشرة) .

— قد ترسم القصة جوا من الأجواء (قصة الانتظار) .

— قد تحكى حكاية معينة ، تقدم من خلالها استبصارا للواقع
أو الدنيا (قصة الانتظار مرتان) .

— قد تكشف حركة وعى الشخصية في لحظات معينة (قصة
الرحلة) وقصة لقاء على شاطئ النهر .

— قد ترسم منحني أو اتجاهها لتطور شخصية معينة ، أو اضاءة
موقفها في لحظة معينة .

— تمتلك القصة القصيرة امكانيات خصبة لم تستغل بعد كما
يجب كالولوج الى عالم الأحلام ، والاستفادة من تقنيات مختلف الفنون
البصرية والسمعية . وكذلك امكانية فتح آفاق جديدة . انظر محاولات
صنع الله ابراهيم في مجال كتابته قصص قصيرة علمية عن الحشرات
والأسماك البحرية .

س : كيف تبدأ حالة كتابة القصة القصيرة لديك ؟ وكيف تتطور
وتستمر ؟

ج : تنطلق القصة القصيرة لدى من احدى الحالات الآتية :

- ١ - مشهد أو صورة شاهدها أو خبر قرأته أو حكاية سمعتها فتحيلنى الى الواقع الخصب أو المنطلق الأساسى .
- ٢ - قد يبدأ الأمر بفكرة ، تنمو وتختمر ، ويبلورها الخيال الابداعى حتى تكتمل ، وحين تكون كاملة أكتبها .
- ٣ - هناك قصص ما وجدتها تلح على مكتملة ومنها ما لم أبذل أى جهد فى تنقيحها مثل قصة (حكاية بنت صغيرة) الأهرام ١١/٨/١٩٨٣ .
- ٤ - تستأثر الأحلام باهتمامى ، فحاولت أن أجرب كتابة عدد من القصص يخضع لمنطلق الحلم ومقتضياته وأعتقد أننى حققت نجاحا فى هذا السياق .
- ٥ - تبلور لدى الاتجاه السابق فحاولت المزاوجة بين تحقيق فكرة معينة من خلال شكل الحلم . . ومثال ذلك : قصة فى الغابة ، الشرق الأوسط ٨/٦/١٩٨٨ .

س : ما هى أهم الموضوعات أو الحالات الواقعية أو التخيلية التى تدفعك الى كتابة القصة القصيرة ؟

- ج : الواقع هو النبع الأول الذى لا ينضب للأدب ، وكلما ابتعدت عنه مررت بفترات جدد أو تجريب ، وحين أعود إليه ، يعود الخصب الى قصصى .**
- لذلك تشغل القصة الاجتماعية حيزا كبيرا فى قصصى تليها القضية السياسية .
- يشغلنى جدا موضوع الموت . فتجده يحتل عددا من قصصى .
- الأحلام — كمنجم خصب لم يستغل ، كما يجب — تدفعنى للكتابة والاكتشاف . وقد جربتتها فى مرحلة كاملة من قصصى .

س : ما هو تصورك الخاص لدور الحلم فى القصة القصيرة ؟ (حلم اليقظة وحلم النوم وما شابه ذلك)

- ج : الحلم منطقة خصبة لم تطرقها القصة القصيرة كما يجب ، فى قصصى صارت هناك ثلاثة اتجاهات :**

أولها : التداخل بين الحلم والواقع ، يعمل على تحقيق التأثير المطلوب لدى القارئ مثال قصة الانتظار مرتان (مجموعة قطار الحادية عشرة)

قصة البحث عن مخرج من أرض الضياع (مجموعة لو تظهر الشمس) •

ثانيها : تجريب بعض قصصى فى بنائها على شكل حلم ، يخضع لمقتضيات الحلم ، ولا يخضع للمنطق الواقعى :

ثالثها : تجريب أن تأخذ القصة شكل بناء حلمى لخدمة فكرة معينة •

س : ما هو تصورك الخاص لدور الخيال فى القصة القصيرة ؟

ج : الخيال هو المحرك الأساسى للقصة القصيرة الناجحة ، فالكاتب حين يتأثر بمشهد أو صورة معينة ، يقوم خياله الخصب ، ببناء هذا المشهد ضمن اطار قصة متكاملة ، وخاصة القصة الاجتماعية •

أذكر أن قصة (العجوز الذى يبتسم) بدأت بمشهد السيدة التى تدبج دجاجة فى ترام ، والباقى من وحى خيالى الفنى ، القائم على أساس من الخبرات المكتسبة •

أذكر أيضا أن قصة (البحث عن مخرج من أرض الضياع) بدأت بمشهد الكرسى الشاغر أمامى فى سياراة الشركة فى رحلتها الصباحية ، لأن شاغله قد مات •

— وقد يكون جهد الخيال كاملا فى صياغة قصة ما ، فأجدها مكتملة فى خيالى جاهزة للكتابة ، وتلح على حتى أكتبها •

— أيضا قد أبدأ من فكرة لأكتب عنها قصة ، هنا يلعب الخيال دورا متكاملا فى كسوتها وبعث الحياة فيها — وكمثال قصة المطاردة (الشرق الأوسط ٢٥ / ١ / ١٩٨٧) وقد بدأت من فكرة التخلي عن الفرد فى اللحظة التى يحتاج فيها للمعاونة

وأيضا قصة الطابق الأرضى (ضمن مجموعة قطار الحادية عشرة) وهى عن التفكك بين الأفراد أو الأمم الذى ينبىء بمأساة وشيكة الوقوع ••

— هناك محاولات تجريبية أخرى فى مجموعة من القصص التى جربت كتابتها على نسق الحلم •

— هناك أيضا قصص حاولت المزاجية فيها بين البناء (الحكيمى) المضمخ بفكرة معينة وقد كتبها بنجاح فى أكثر من قصة •

س : ما هو تصورك الخاص لدور الذاكرة فى القصة القصيرة ؟

ج : تلعب الذاكرة دورا أساسيا في القصة القصيرة الحديثة ، تحاول القصة فيه أن تقترب من حركة الذاكرة نفسها ، وكيفية علمها ، فالتساعى والمونولوج الشخصى وكل وسائل تيار الوعى لذاك الاتجاه .

وحاولت القصة تحقيق هذا التقارب أيضا بمحاولة تداخل الأزقة وتداخل الأماكن والاستفادة من الفنون السينمائية من مونتاج زمانى ومكانى وقطع وخلافه .

س : ما الذى ساهمت به مرحلة الطفولة (طفولتك الخاص بشكل محدد وكذلك الطفولة بشكل عام) فى كتاباتك خاصة فى مجال القصة القصيرة ؟

ج : اذكر الموقف بشكل خاص ، كمعلم مميز من طفولتى (موت الأب فى السابعة ثم أخى الأكبر فى الرابعة عشرة ثم أختى الكبرى فى سن السابعة عشرة . . .

وكان الموت هو نقطة انطلاقى الأساسية لعالم الكتابة ، وأجمل قصصى هى التى تناولت فيها الموت من وجهة نظر طفل بكل ما يكتنف هذا الحدث من سحر وخوف وسواد . . .

اذكر فى هذا السياق قصة اعترز بها هى « البحث عن مخرج من أرض الضياع » من مجموعة (لو تظهر الشمس) . ومن العنوان يتضح انها محاولة للبحث عن مخرج من أرض الموت ، وهى قصة يندخل فيها الحلم والواقع ، المخاوف والأحزان ، الرعب والآلام ، وتنتهى بالحلم ، حيث لا مهرب من هذا العالم أو من هذه النهاية الحتمية وأعنى بها الموت .

ومن الملامح التى لا أنساها أيضا من طفولتى ، وظلت محورا أساسيا فى قصصى هى صفات أبناء البيئات الشعبية التى ترعرعت فى وسطها ، وقدرتها الجليلة على الصمود والجلد والتحدى . وأذكر مثلا لذلك قصة (كان يجر العربة) ، وهى عن بائع فول تأخر عن الحضور الى الحارة التى كان يبيع فيها كل صباح ، لأن حمارة مريض ، وعندما يموت حمارة لئلا ، يتقدم - ببساطة - ويجر هو العربة كبديل للحمارة .

وهذا الظل موجود فى آخر قصة منشورة لى بجريدة الأخبار (العجوز الذى يبتسم) ففىها امرأة تناضل من أجل تربية أولادها فتشترى بعض الدجاجات من كشك مؤسسة الدواجن لتبيعها أغلى من سعرها وتكسب الفرق ، لكن دجاجة تموت فتضطر لذبها فى الترام ، ببساطة أيضا ولم تشغلها أعين المراقبين أو قصة الحلال والحرام .

وأعتقد أن طفولتي هي التي حددت انتمائي الشعبي بشكل جذري ،
وهي التي عمقت الهم الاجتماعي الموجود في قصتي .

**س : لماذا يكثر - في رأيك لجوء الكتاب الآن الى العودة الى مرحلة
الطفولة واستلهاها في الكتابة (خاصة في القصة القصيرة) ؟**

ج : الطفولة مرحلة هامة بالنسبة للكاتب ، هي مرحلة البناء
والتشكيل لشخصيته ، ولكن لكل منا نظراته الخاصة لكل ما حولنا ، وهي
غالباً نظرات تنسم بالبراءة والصدق لم يزيها واقع الكبار ، ولم يقتل
السحر فيها نضوج الكبار الفكري . وفيها أيضاً أول تجربة نضج جنسي
يمر بها الكاتب ، وتصبح نقطة فاصلة بين عالمين (وهو موضوع تناوله
العديد من الكتاب أيضاً) .

**س : ما هو تصورك الخاص للزمان والمكان في القصة القصيرة ،
وبمعنى ، هل هناك زمان خاص وكذلك مكان خاص تتطلبه القصة القصيرة
الجيدة ؟**

ج : لكل قصة زمنها الخاص ومكانها الخاص أيضاً . الخاص هنا
يقابل المناسب مع حدث القصة أو ما يجري فيها من أحداث .

أصبح زمن القصة الحديثة الجيدة ، مكثفاً ، مركزاً ، بحيث يحدث
التأثير المطلوب لدى المتلقي من ناحية ، ويكون واقعياً بقدر الامكان . لم
يعد هناك مكان للزمن المضطرب ، الذي قد يستمر لسنوات ، بل أصبح
يتركز في فترة محدودة .

وسأضرب أولاً بعض الأمثلة ، لوحدة الزمن ، المكثف أيضاً والتي
تستدعي أيضاً وحدة المكان .

— في قصة « ليلة في كوخ مهجور » وهي أول قصة كتبتها عام
١٩٦١ ونشرتها عام ١٩٧٥ بملحق الزهور - مجلة الهلال ، وصورت ضمن
مجموعة (لو تظهر الشمس) فالزمن فيها عدة ساعات من ليلة واحدة
والمكان كوخ مهجور ، والقصة فيها رجعة واحدة للوراء ، وخروج من الكوخ
الى الحقول في النهاية . لذا أعتقد أن وحدة الزمان والمكان تنتج وحدة
التأثير لدى المتلقي .

— نفس الكلام ينطبق على قصة استغاثة (ضمن مجموعة قطار
الحادية عشرة) وان اختلفت تكتيك الكتابة ، فالحدث يتم من تناوله من
خلال مجموعة شخصيات يجتمعون في مكان محدد لعدة ساعات من ليلة .

— أحيانا يلعب تداخل الأزمنة دورا أساسيا في بناء القصة ، كما حدث في قصة (الرحلة) (ضمن مجموعة قطار الحادية عشرة) ، حيث تدور القصة داخل وعى شخصية مصابة بطلق ناري خلال رحلتها للمستشفى هنا تتداخل الأزمنة الحاضرة والماضية دون ترتيب ، بما يتناسب مع حركة وعى الشخصية . هنا يحتل الزمن دورا رئيسيا في بناء القصة بينما يكون المكان تابعا طبقا لمنطق التداعي الداخلى للشخصية .

— أحيانا يلعب المكان الدور الرئيسى كما حدث في قصة (البحت عن مخرج من أرض الضياع) ضمن مجموعة (لو تظهر الشمس) من خلال تواجده الشخصية فى مكان معين خلال رحلة عملها الصباحية لكن الأزمنة المسيطرة هى زمن الحلم والزمن الماضى اضافة لحركة الحاضر المصاحبة للمكان الخارجى الذى تمر به الشخصية — هذا التزاوج والتداخل فى حركة الزمان والمكان يخدم فكرة القصة لأنها تتناول الموت من خلال بناء كابوسى ، ضاغط — هذا التداخل الزمنى والمكانى بين الحلم والواقع موجود أيضا فى قصة (الانتظار مرتان) مجموعة قطار الحادية عشرة . اذن نخلص من ذلك أن لكل قصة بناءها الزمنى والمكان الذى يتناسب مع موضوعها ، ويعمل على توصيله بشكل جيد .

الفصل التاسع

مناقشة وتعليق

فن الالتقاط الدال :

يقول فرانك أوكونور : « ان الفرق بين القصة القصيرة والرواية ليس فرقا في الطول ، انه فرق بين القصص التطبيقى ، ودفعاً للبس أقول اننى لا أحاول أن أغض من شأن القصص التطبيقى ، كل ما هناك ان القصص الخالص أكثر فنية » (١) .

ففى حين يتعامل الروائى مع أركان عالم متكامل قابل للامتداد والاستطراد والتفصيل ، وقابل للتطوير فى كل مكوناته من الأحداث والشخصيات وغيرها ، فإن كاتب القصة القصيرة يتعامل مع لحظة أو فكرة أو انطباع أو احساس أو انفعال أو موقف أو زاوية من زوايا الحياة ، لحظة من لحاتها ، ومضة من ومضاتها ، مع لحظة الإنسان أو ساعته فى مقابل عمر الانسان أو حياته والتي يتعامل معها الروائى ، لكن اختيار كاتب القصة القصيرة لهذه اللحظة لا يكون بفصلها أو عزلها عن سياق اللحظات التي ظهرت فيها ، بل بدمجها فيها ، وتجميع كل هذه اللحظات واستقطابها فى لحظة واحدة . فمن خلال جودة الالتقاط ، ثم براعة التشكيل الفنى لها يستطيع الكاتب أن يوفر لها استمرارية أو امتداداً وشمولاً وديمومة وانتظاماً فى الإطار الكلى الذي ظهرت فيه ، وفى نفس الوقت راحة من خلالها استقبلها الخالص وجوهريتها وذاتيتها .

ان هذا لا يتم بين يوم وليلة كما يتصور البعض ، إن ابداع القصة القصيرة مثله مثل كل ابداعات الانسان ، عمل مجهود وشاق ويحتاج الى عديد من الخبرات والمهارات والقدرات والعمليات الابداعية العامة والخاصة ، بدءاً من مراقبة الواقع ورصد سكوناته وجوهراته واستيعابها وتمثيلها ومعالجتها داخليا ومحاولة تنظيمها ، والاندھاش لما فيها من وهن وجليل

وفصـور ، الى اختيار الجانب الصالح للعمل الفنى فيها ، وعن طريق الضبط الدقيق للزاوية التى سينم السقاط مادة العمل وافكاره وهاديات من خلالها ، ثم تخيل ما يجب أن يكون عليه العمل ومحاولة اختيار الشكل الفنى المناسب ، فالفن كما يقول « فيشر » هو « تشكيل » هو اعطاء الاشياء شكلا ، والشكل وحده هو الذى يجعل من الانتاج عملا فنيا ، وليس الشكل أمرا عارضا أو طارئا ، أو ثانويا ، وقوانين الشكل وأصوله الاصطلاحية إنما هى تجسيد لسيطرة الانسان على المادة وهى وسيلة للمحافظة على الخبرة البشرية ، ونقلها للأجيال القادمة ، كما أنها وسيلة للمحافظة على المنجزات السابقة ، انها النظام الضرورى للفن والحياة (٢) ويقول أيضا . « وما نسميه شكلا إنما هو تجميع للمادة بصورة معينة ، ترتيب معين لها ، حالة نسبية من حالات استقرارها ، والمضمون يتغير بلا انقطاع ، بهدوء وببطء أحيانا ، وبقوة وعنف أحيانا أخرى ، وهو يصطدم بالشكل فيفجره ويخلق أشكالا جديدة ، يجد المضمون الجديد فيها ، لفترة من الزمن ، مجالا للاستقرار مرة أخرى » (٣) « فكل مثير أو منبه يحاول الكاتب صياغة شكل فنى مناسب له يستثير بداخله احساسات وأفكار خاصة ، وقد تأتى التنبيهات الابداعية فجأة ثم تتبلور بعد ذلك وقد تكون نتيجة لتراكم خبرات وأفكار وأحاسيس ومطامح عديدة مر بها الكاتب أو تعرض لها ، وكذلك الاسلوب الفنى الخاص بقصة ما قد يأتى فجأة متكاملا منتظما لكنه فى حاجة الى بعض عمليات الصقل والتعديل ، وقد يأتى شيئا فشيئا وعلى مهل ويتغير ويتطور عبر الزمن وفى الحالتين يستخدم الكاتب اللغة وهى أداة تشكيلية ومادتها ، واللغة بطبيعتها الحال ليست هى الكلمات المفردة فقط بل هى الاسلوب المتكامل المعبر عن الحالات والانفعالات والأفكار ، هى الكلمات والجمل والفقرات وحروف الجر ، والضمائر وحروف العطف ، هى الايقاع والموسيقى ، هى السرعة والبطء ، هى الحرارة والبرودة فى الكلمات والتعبيرات ، هى التشكيل الجمالى وطريقة العرض ، هى العلاقات الدلالية الجديدة للتركيبات اللغوية ، هى العلاقات الداخلية بين الجوانب المختلفة للغة ثم العلاقات الخارجية بين هذه الجوانب والعالم الخارجى الذى أتت منه والذى تعود اليه ، واستخدام اللغة بطريقة ابداعية يتم عن طريق الاستخدام الجديد والمبتكر للامكانيات اللغوية الموجودة ، ثم عن طريق قدرته على تطوير هذه الامكانيات وخلق امكانيات لغوية جديدة تفيد فى عمليات الاتصال الانسانى .

وخلال محاولات التشكيل الفنى يقوم المبدع بمحاولات شاقة وعنيفة ومن خلال الصراع ومحاولة التغلب على عوامل الاحباط والاعاقة والغلق والتعطل ذهنى والانفعالى كى يصل الى الشكل الأكثر مناسبة أو البناء

الفنية المناسبة التى يتفاعل فيها الشكل والمضمون فى مكون واحد ، ان ابداع الكاتب يظهر بمقدار تمكنه من صياغة أفكاره ومشاعره ووجهة نظره تجاه العالم والحياة بأسلوب أكثر أصالة وجدة ، فالاسلوب كما يشير « مارسيل بروست » هو خاصية من خصائص الرؤية ، أنه العالم الخاص الذى يراه كل منا ولا يراه أحد سواه ، أنه المتعة التى يتيحها لنا الفنان ، ان يجعلنا نرى عالما اضافيا . بعد ذلك يقيم الفنان عمله ويعدل فيه ويقيمه مرة أخرى بل مرات عديدة ثم يطور أفكاره ويحاول من خلال عمليات التنظيم الإدراكى المختلفة والتى تتم بينه وبين عمله قبل كتابته وأثناءها وبعدها أن يصل به الى أجود وأنسب حالاته ، أى أكثرها أصالة . ان كاتب القصة القصيرة المبدع يستقطب الصدق ، ويستقطر الدلالة ، يعمق الواقع ، ويرسخ قيما جديدة تعمل على تقدم الانسان وتزيد وعيه بذاته وواقعه .

وقد أوضحت النتائج السابقة أنه لا يمكننا أن ننظر الى أية عملية ابداعية الا فى ضوء العمليات الأخرى المحيطة بها والسابقة عليها والتالية لها ، كما أنه لا يمكننا أن ننظر الى العملية ابداعية بمعزل عن المبدع ذاته ، سمات شخصيته ، ثقافته ، وقضاياها التى يتبناها ، رؤيته للواقع ، وكيفية تشكيله لمادته ، وأيضا فكرته أو أفكاره عن الأدب الجيد والأدب الردى ، بالإضافة الى ما سبق فانه لا يمكننا أن ننظر الى العملية ابداعية والمبدع الا فى اطار ثقافى وحضارى يتحرك المبدع من خلاله ويؤدى دوره سلبيا كان هذا الدور أو ايجابيا .

وخلال العملية ابداعية يلعب الانتباه ثم الادراك دورهما الهام والكبير فى امداد المبدع بمثيراته أو مواد عمله ، فالعين والأذن والحواس الأخرى تلعب دورا هاما فى توصيل المثيرات الحسية ذات الطبيعة الحافزة للعملية ابداعية ، ويكون انتباه المبدع ثم ادراكه لهذه المثيرات فى حالة منقبضة عندما نقارنها بانتباه وادراك الآخرين لها ، فالمبدع يلتقط هذه المثيرات ويدمجها ويعايشها ويتعامل معها تعامل ابداعيا ثم يحاول صياغة وتشكيل عمله الفنى وفقا لها ، وتعمل الحواس بطريقة انتقائية ، فليس كل ما تتلقاه يصلح مادة للعمل ، كثير من الأشياء يخزن فى الذاكرة : وملامح الأشخاص ، طرائق كلامهم وتعبيرات وجوههم ، اشارات ايديهم وأعضائهم الأخرى تفاعلات البشر ومواقفهم ، وتغيرات الطبيعة والمجتمع ، ثم يحاول المبدع بعد ذلك تنظيم ما تلقاه وانتبه اليه وادركه وتنبه الى وجود خلل أو عدم نظام أو نقص فيه ، يحاول تنظيمه بطريقة جديدة ، المبدع لا يقبل الأمر الراهن ، ولا يمر بالأشياء مر الكرام ، ان المتبع - كما يقول أدونيس -

« يثبت الأشكال أو تجسيدات الفكر ، بينما يعود المبدع باستمرار الى ما قبل التشكل ، الى ينبوع في تفجراته الأصلية ، الأول يطيل أمد المكنم ، أما الثاني فيخلق اكتمالا جديدا (٤) » .

« والتفكير الأصيل ينزع الى القيام بعمليات اعادة تنظيم أكثر من كونه انعكاسا للخبرات الإدراكية السابقة » (٥) ومن أجل تحقيق عمليات التنظيم الإبداعي للمدركات يلجأ الكاتب الى عديد من العمليات ، كالخيال ، وفيه يتم تصور موضوع القصة ومثيرها في سياق مختلف ، في سياق أكثر تنظيما واكتمالا من ذلك الذي واجهه المبدع في الواقع وأدرك قصوره ، « وخلال عمليات الخيال يقوم الكاتب بعمل شديد الدقة والتعقيد ، فهو يحلل ويختار ماهو جوهري وله معنى ، وما هو مثير للاهتمام ان هذا العمل يتضمن تحليلا خاصا لظاهرة معطاء ثم قيام بتركيبها بعد ذلك » (٦) . فالخيال وسيلة داخلية جيدة لتمثيل المشكلة ومحاولة البحث عن حل لها ، ولذلك فهو وسيلة هامة في كل الفنون (٧) أيضا يلجأ المبدع خلال محاولته لتنظيم مدركاته بطريقة إبداعية الى عمليات الإدراك والاحساس ، التذوق ، الفهم ، المضاهاة ، التحليل ، التركيب ، الاستدلال ، الاستقراء والتخطيط ، التذكر ، الحذف ، الاضافة ، التحوير ، والقراءة ، التأمل ، التجول في الواقع لاستكشاف أسرارهِ والتعرف على أبعاده وخباياه ، وخلال ذلك يحاول المبدع بشق الطرق وبتأثير من عوامل الأصالة والمرونة ومواصلة الاتجاه ، والحماسية للمشكلات ، وغيرها من العوامل الإبداعية أن يتحرر من أسر الأنماط المتجمدة والقوالب المغلقة ، أنه ينفذ الى أعماق الظواهر المعطاة لاكتشاف دلالاتها وامكانياتها ، ومدى قابليتها للتطوير والامتداد « فما لا شك فيه أن موهبة الفنان تكمن في قدرته على أن يدرك ما يدور حوله في الحياة بطريقة أعمق من بقية البشر ، انها قدرته على أن يشعر ويلاحظ ما لا يشعر به أو يلاحظه الآخرون ، انها قدرته على النفاذ الى ما وراء سطح الظواهر والوقائع ، انها القدرة التي تمكن الفنان من فهم الظواهر المعقدة والعمليات التي تكشف من خلالها عن نفسها » (٨) أيضا أوضحت النتائج أن عملية الإبداع في القصة القصيرة تحتاج الى قدر كبير من التركيز الإبداعي باعتباره البعد العرضي أو المستعرض لعامل مواصلة الاتجاه ، وهناك تمييز عام للشاعر ستيفن سبندر بين نوعين من التركيز ، فبعض الكتاب يكتبون أعمالهم بطريقة مباشرة وعندما تكتب فانها نادرا ما تحتاج الى المراجعة ، أما البعض الآخر فيكتبون عدة نسخ ، وعلى مراحل بحيث أنهم عندما يصلون الى النهاية تكون علاقة النسخة الأولى بالنسخة الأخيرة علاقة طفيفة ، وقد ضرب سبندر مثلا لذلك بتمييزه بين اثنين من كبار الموسيقيين العالميين - باعتبار أن الموسيقى تحتاج الى كتابة وتاليف أيضا

منها في ذلك مثل الأدب ، وإن اختلفت رموز الكتابة وطريقتها في الحالتين - هما موزارت وبينهوفن ، فالأول كان يكتب بسرعة وبطريقة مباشرة ، وأثناء رحلاته ، وخلال تعامله مع عديد من المشكلات ، يكتبها - أي سيمفونياته - كاملة غير منقوصة ، أما بينهوفن فقد كان يكتبها شذارات متفرقة من الموضوعات في مفكرته ويحتفظ بها بجانبه ويكملها عبر السنين ، وغالبا ما كانت أفكاره الأولى غير بارعة ، لكنه كان قادرا على أن يصنع منها أشياء عظيمة بعد ذلك ، والفرق بين الأسلوبين أن الأول يكون قادرا على أن تسير الأعماق بطريقة خاطفة وبمجهود خارق سريع ومتواصل ، أما الثاني فهو يحفر طبقة وراء طبقة أعماق ، فأعماق ، والمسئول عن أي من الحالتين هو الرؤية الفنية التي ترى وتواصل حتى تصل للهدف ، وهذا هو منطق العمل الفني (٩) .

ومواصلة الاتجاه - كعامل إبداعي - يتضمن هذين النوعين من التركيز الإبداعي ، أو التعاملات الإبداعية المكثفة والممتدة ، وقد أوضحت النتائج أن إبداع القصة القصيرة يتم على هذين المحورين فهو يتم من خلال التركيز الإبداعي ، ومن خلال مواصلة الاهتمام واستمرار الانتباه ومتابعة الهدف وبطريقة واضحة وجادة خلال كل الفترات والعمليات التي تتكون منها حياة المبدع وعمليات الإبداع . وقد اتضح من النتائج أن التركيز الإبداعي ليس عملية عقلية فقط أو دافعية فقط ، بل هو كس ما سبق في مكون واحد ، وكما يذكر فينيك فان الفصل بين التفكير والدافعية هو أمر غير ممكن ، فنحن لا يمكننا أن نتقدم في فهمنا للتفكير دون دراسة مكثفة ومستمرة للشروط الدافعية التي تغير مجراه وتحدد طابعه الخاص (١٠) .

اتفقت نتائج الدراسة الحالية أيضا مع نتائج الدراسات المصرية السابقة عن الإبداع في الشعر ، وفي لرواية والمسرحية (١١ ، ١٢) من حيث تأكيدها على أنه أثناء الإبداع تأتي الفكرة أو الصورة الكلية أولا ثم تكتمل التفاصيل بعد ذلك ، كما أن حركة الإبداع لا تتقدم جزءا بل تمضي من كل إلى كل ، وأيضا أكدت هذه الدراسات أهمية العديد من العمليات الإبداعية التي تضمنتها الدراسة الحالية كتكوين الأطار ومواصلة الاتجاه وعمليات التقييم والتعديل وأيضا الجانب الاجتماعي الذي اهتمت به هذه الدراسات اهتماما كبيرا وواضحا ، وقد ظهر هذا الجانب كعامل مستقل ومتميز في الدراسة الحالية ، فتربية الأديب وظروف حياته ثقافية ومعرفته الدقيقة بواقعة ومدى تطوره ، ووعيه بحركة التاريخ وما يعتمل في باطن المجتمع من صراعات بين القوى المختلفة السائدة فيه ، ووعيه بموقع مجتمعه من المجتمعات الأخرى ، ثم وعيه بدوره كمبدع وبقدرته على تغييره الواقع

واعادة تشكيكه ، كل ذلك له أهميته الكبيرة أثناء الابداع . « وحركة الابداع لا تتم الا بهذه الحركة نحو الآخر » (١٣) .

« ليست وظيفة الفن أن يدخل الأبواب المفتوحة ، بل أن يفتح الأبواب المغلقة ، لكن اكتشاف الفنان للحقائق الجديدة لا يتم لحسابه الخاص وحده ، بل يتم من أجل الآخرين أيضا ، من أجل كل من يريدون أن يعرفوا طبيعة العالم الذي يعيشون فيه ، من أين أنوا ، وإلى أين يذهبون ، أن الفنان ينتج من أجل الجماعة » (١٤) والأديب عميق الحس لا يستطيع الا أن يكتشف لتوتره وانفعاله أسبابا انسانية مصدرها القوى الاجتماعية المتناقضة والمتصارعة ، وهو لا يستطيع في هذه الحالة أن يرد أسباب الأحداث التي تقع له أو لغيره لقدر غامض يصب المصائب على فريق من البشر ، ويمنح الخبرات لفريق آخر ، وينتفي من عمله بالضرورة ، تفسير الفعل الانساني بالقدر أو المصادفة أو الحظ ، فهو مؤمن بالضرورة بالسببية ، وبأن المواقف الانسانية ليست الا ردود فعل لأفعال انسانية » (١٥) وعلاقة الفنان بمجتمعه ، بالبيئة الخاصة التي يعيش فيها ، والزمن الذي يعيش فيه ، لا يجب أن ننظر اليها في ضوء حقيقة أن المجتمع الذي يعيش فيه الفنان يشكل أفكاره ، وأنه هو الهدف الذي يوجه اليه هذا الفنان عمله بل يجب أن ننظر اليها أيضا في ضوء استجابة الكاتب المباشر للمتطلبات الجمالية لعصره ، والمتطلبات الجمالية للعصر والمجتمع الذي يكون الفنان على وعى بهما ، بطريقة أو بأخرى ، يكون لها تأثير لا يمكن انكاره على فهمه الجمالي وطبيعة عمله (١٦) .

والانتظام والاكتمال في الأعمال الفنية العظيمة ، كما يقول لوكاتش lukaco يعنى القدرة على أحداث التكامل بين الوعي الانساني الخاص بالفنان والمضمون الاجتماعي في شكل يتضمن الكثير من الحقائق الجوهرية عن العلاقات الانسانية (١٧) .

الابداع اذن يبدأ من الآخرين وينتهى بهم واليههم ، وفي حركة دياكتيكية مستمرة ، « كما أن التقبل لفردية المبدع من جماعة سيكولوجية أو حتى من فرد واحد يمثل سندا نفسيا للشخص المبدع ، وهو الذي يكمن وراء استمرار المبدعين من العلماء والفلاسفة والفنانين ، وأصحاب الدعوات الاصلاحية — بل وكذلك لأنبياء — في أداء رسالتهم ، رغم وجود أنواع من المناخ العام المعارض لهم » (١٨) . أن دور الفن كما يقول « جمال الغيطاني » « هو اعادة خلق العالم من خلال تمثيل الواقع التاريخي والتجربة الانسانية التي لها وحدتها المتكاملة » .

والقصة القصيرة باعتبارها اليوم من الملامح الهامة للانتاج الابداعي. الانساني ، وباعتبارها كما يقول « أوكونور » صوت العصر ، وقادرة على التعبير عن الوعي الحاد بالتفرد الانساني « (١٩) هي ليست شكلا أو فنا محددا قبالا بطريقة منعسفة لا يصح الخروج على قواعدها التي أرسيت في وقت ما ، بل هي تعبير عن اللحظة الحضارية والتاريخية التي يعيشها الانسان ، ومن خلال هذا التعبير الابداعي تظهر أفكاره ومشاعره واهتماماته وهمومه ، وما تعبر عنه القصة القصيرة في عالم متقدم تكنولوجيا قد يختلف عما تعبر عنه في عالم نام أو متخلف ، وما تعبر عنه في عالم مليء بالصراعات. قد يختلف عما نعبر عنه في عالم مستقر أو متوازن أو غائب عن وعيه ، وهذا صحيح بالنسبة للمجتمع الواحد في مراحل زمنية مختلفة من تاريخه، انها تعبير مركز وسريع ولكنه عميق عن واقع الانسان وحياته ، وعالمه الداخلي والخارجي ، وما يوازيها في الشعر هو التركيز الغنائي Lyric Concentration في مقابل الامتداد الملحمي Epic Expansion ان كاتب القصة القصيرة المبدع يتصف بحساسية متفوقة في التقاط المثيرات من الواقع ، كما تتوفر لديه القدرة المتطورة على المعالجة الفنية للمواقف والخبرات ، وهو بالاضافة الى امتلاكه للثقافة الواسعة والامام بجزئيات الحياة وعمومياتها ، فانه تكون لديه القدرة على تحويل التجارب العريضة الى خلاصة مركزة شديدة التكشف عميقة الدلالة ، فالفنان المبدع ينتج فنا غير متجمد أو متابع بل فنا متطورا ومشعا ، وهو يأخذ بيد قارئه ويجعله يتحرك من حالة التأثير الى القدرة على التأثير ، انه يبرز لنا واقعنا كما رآه ببصيرته وقدرته على النفاذ ، ويكشف لنا بأعماقه ومكوناته ، ويرينا ما قد نعجز عن رؤيته أو ملاحظته ، ثم يوحى لنا بما يجب أن يكون. عاياه واقع الانسان .

٢ - القصة القصيرة : فن التجريد التعبيري :

لعلنا نتذكر ماسبق أن ذكرناه نقلا عن «أوكونور» في بداية هذا الفصل عن أن الفرق بين القصة القصيرة والرواية ليس فرقا في الطول ، بل انه فرق بين القصص الخالص والقصص التطبيقي ، ويمكننا أن نجد في كلمتي « الخالص » و « التطبيقي » أو بطريقة أدق في كلمة « الخالص » فقط ، كالجوهر الخالص المميز للقصة القصيرة ، أنها بين الفنون الأدبية مثل اللوحة التجريدية التعبيرية بين الفنون التشكيلية ، فالقصة القصيرة أقرب الى عالم التجريد بمعنى انها تشتمل على الخصائص الأساسية الجوهرية المنتقاة المصفاة التي أحسن فرزها وتصنيفها وانتقاؤها واصطفاؤها من بين العناصر موضوع القص أو موضوع الحكاية ، لكن هذا التجريد لا يصل الى مراتب

الالغاز والغموض والابهام والتعظيم ، فالقاص الجيد يضع نصب عينيه الجانب الآخر من العملية الابداعية ألا وهو التواصل مع القارئ ، ومن ثم أضيف الى الجانب الرمزي التجريدي « الخالص » من القصة القصيرة ذلك الجانب التعبيري الاليحائي ، واذا صح أن نقول ان التجريد مبعنه العقل ، وأن التعبير مبعنه الادراك والانفعال والحركة ، فانه يمكننا القول حينئذ أن القصة القصيرة هي ذلك الفن النثري الذي يجمع بين الشعر والدراما ، بين التجريد والتعبير ، بين الرمز والكشف ، وبين العقل والانفعال بطريقة جعلت له خصوصيته الفاتكة بين الفنون الادبية بشكل عام .

يستند الفن التجريدي الى افتراض أساس مؤداه بأن القيم الجمالية الخاصة موجودة في الأشكال والألوان ، وأنها مستقلة تماما عن موضوع اللوحة أو التمثال ، وهذه وجهة من النظر قديمة وقد ظهرت - نتيجة لها - الفنون ذات الطبيعة شبه السحرية وكذلك الزخرفية أو التزيينية الحالصة ، وقد انتشرت هذه الوجهة من النظر أيضا في العالم الاسلامي حين كان تمثيل الجسم الانساني محرما وقد أدى التأثير « المحرر » للكاميرا بالمصور الى أن يهمل واجبه الاجتماعي كمسجل للأشياء والوقائع ، وفي نفس الوقت ، وفي نهاية القرن التاسع عشر تم اعتبار الانطباعية بمثابة النهاية المهمة للطبيعية ، وقد أدى ذلك الى تزايد التأكيد على القيم الشكلية فظهرت التكعيبية والتجريدية التعبيرية (عند كاندنسكي مثلا) والتجريدية الهندسية (عند كازيمير مالفيتش وموندريان مثلا) وكذلك الحركة البنائية والتاشيه (جاكسون بولوك مثلا) .

وهذه الحركة الأخيرة تشتمل على هؤلاء الرسامين التعبيريين الذين لم يروا أى سحر للوحة أكثر من سحر اللمسات القوية الناتجة عن ألوان وكشافات لونية مختلفة ، وبحيث لا تتمازج هذه الألوان مع خلفية اللوحة بل تتمايز عنها . أى تتجرد عنها ومنها .

الفن التجريدي ليس مرادفا لفن اللاموضوع Nonobjective Art أى الفن الذى لا يوجد به موضوع محدد ، ويمكن أن نجد جذور هذا الفن فى محاوره فيليبوس للفيلسوف الاغريقى الشهير افلاطون حيث قال فى هذه المحاوره « أننى لا أقصد بجمال الأشكال ما يتوقعه معظم الناس أو يقصدونه ، كجمال الكائنات الحية والصور .. لكن .. الخطوط المستقيمة والسطوح والأشكال الصلبة الناتجة عن هذه الأشكال من خلال المخاريط والمساطر والمربعات .. هذه الأشياء ليست جميلة بشكل نسبي ، كالأشياء الأخرى ، لكنها تكون جميلة دائما ، وبشكل طبيعى ومطلق (٢٠) .

والتعبيرية التجريدية ، أو التجريدية التعبيرية كما قد تسمى أحيانا ، هي مزيج من الفن التجريدي والفن التعبيري وقد عرفها دي كونيغ De Kooning بأنها الفن الذي يحتفظ بالنمط الهادي لضربات الفرشاة التي تنتشر عبر اللوحة دون ذروة خاصة أو تأكيد معين مع الاحتفاظ بطريقة الانطباعيين الخاصة بالنظر الى الأشياء والمناظر ثم تركها (٢١) انها مزيج من البعد عن الموضوعات الطبيعية ، من خلال التجريد الخاص لخصائصها الأساسية أو أشكالها الجوهرية المهيمنة) ، ومن الاقتراب أيضا من هذه الموضوعات ، من خلال التعبيرات عن الانفعالات والحركات والتفاعلات الأساسية الخاصة بها .

ان كلمة مجرد Abstract قد تستخدم باعتبارها كلمة مقابلة أو أو عكس كلمة عياني أو مجسم Abstract أى باعتبارها سير الى أفكار عامة كالحب والعدل أو تعبيرات مثل « الجمال هو الحقيقة » أو « جمال الحقيقة » . الخ وذلك بدلا من اشارتها الى خصائص طبيعية ممدوسة محسوسة ، كما فى أشياء كالأحجار والمنازل والجبال وغيرها ، كما قد يستخدمها البعض باعتبارها تشير - خاصة فى الفن - الى الجوانب غير التمثيلية Nonrepresentational من الأشياء وقد عرفنا خلال عرضنا لنظرية الجشطالت فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، أنه حتى فى الموضوعات غير التمثيلية - كالدائرة التى يرسمها الطفل مثلا ، هناك تمثيل لموضوع ما ، وان الحدود بين التمثيل واللاتمثيل ليست بنفس الحدة التى يظنها البعض ، فالموضوعات التمثيلية أو الطبيعية أو العيانية أو المجسمة لها خصائصها التجريدية والرمزية أيضا التى لا تكون متضمنة بشكل مباشر فى الموضوع العياني الممثل مباشرة فى الواقع ، أو بطريقة غير مباشرة فى الذهن ، كذلك الحال بالنسبة للموضوعات المجردة أو الرمزية ، لها بعدها أو جانبها الراقعى العياني المدرك المحدد التى بدونها تدخل هذه الأشياء ساحة الفوضى العقلية أو الغموض . فى مجال الشعر ظهر ما يسمى بالشعر التجريدي Abstract poetry خاصة على يد أديت ستويل E. Sitwell فى قصائد « الواجهة » Facade لديها والتى قالت انها حاولت من خلالها أن تجد أنماطا « صوتية » مماثلة للأنماط غير ذات الموضوع فى الفن التشكيلي والتجريدي (٢٢) وفيما بين هذه الحدود المبهمة ما بين التجريد والتعبير ، أو بين الرمز والعلامة ، يكمن سر الفن وينمو ويرتقى .

أما التعبيرية Expression فهى البحث عن تعبيرية الاسلوب من خلال المبالغات والتعريفات فى الخط واللون ، ويكمن التخلي المتعمد عن

« الطبيعية » naturalism فى فضيل الانطباعيين (أو التأثيريين كما
 قد يسمون) للاستلوب البسيط الذى يجب أن يحمل شحنة وتأثيرا
 انفعاليا كبيرا .

ويقال ان الحركة التعبيرية الحديثة فى فن التصوير المعاصر قد
 ازدهرت نتيجة استخدام فان جوخ للتخطيطات (أى استخدام الخطوط)
 البسيطة لكنها الحادة والعنيفة وكذلك الألوان القوية ، وقد أنتج هذا
 الحركة الوحشية فى فرنسا ، خاصة على يد ماتيس حيث الاهتمام بحوية
 الألوان وقوتها بشكل كبير ، ومن أهم أنصار ومؤيدى هذه الحركة أيضا
 الفنان الكبير تولىز لوتريك (فرنسا) أما ما عدا ذلك فان معظم أنصارها
 من الألمان خاصة لدى جماعتى « القنطرة » Brucke (على يد
 كير شيز ونولده ما بين عامى ١٩٠٥ - ١٩٦٣ « الفارس الأزرق » على يد
 كاندنسكى ومارك وماكى ما بين عامى ١٩١٠ - ١٩١٦ وكذلك بعض الفنانين
 الكبار أمثال بيكمان وانسور ، وكوكوشكا ورولت وسوتين (فى ألمانيا)
 وكذلك النرويجى ادوفاردى مونش الذى يعتبر منه الانفعالى (الهيستيرى)
 أحد الأركان الأساسية لهذه الحركة ، ولقد لعبت طبيعة الموضوعات التى عبر
 عنها هؤلاء الفنانين وكذلك طريقة تخطيطهم وتلوينهم دورا كبيرا فى حركة
 الفن التعبيرى المعاصر (٢٣) خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع
 عشر .

ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن تظهر القصة القصيرة فى أوروبا
 فى نفس الوقت الذى بدأت فيه حركة متزايدة لتصفية الشكل وتخليصه
 من الالتصاق الكبير والمباشر بالطبيعة فى الفن التشكيلي فى النصف الثانى
 من القرن التاسع عشر ، فهل كانت القصة القصيرة تصفية وتلخيصا للعناصر
 الأساسية فى الرواية الطبيعية أيضا ؟

قد يتصور البعض أن هناك تنافرا أو تضادا ما بين الفن وعملية
 التجريد ، خاصة اذا لم ينظر الى هاتين العمليتين بمعناهما العام .

فالفنان يقال عنه أنه يقدم تمثيلات Representations للحالات
 الفردية العيانية أو الواقعية ، أما التجريد فغالبا ما يعرف باعتباره عملية
 تقوم باستخلاص المكونات المشتركة بين عدد من الحالات الخاصة ثم تقوم
 بعرضها فى شكل تجمع أو تشكيل جديد ، وهذا الناتج لعملية الاستخلاص
 لا يمكن تمثيله من خلال مثال واحد فردى عياني أو « واقعى » .

ان التجريد غالبا ما يتم وصفه باعتباره العملية العقلية التى تعمل
 على التجميع والاستخلاص الآلى - فى حالات كثيرة - للمفاهيم المختلفة حول

الأشياء ، بينما تم الاعتقاد بطريقة خاطئة أن العملية الفنية ليست لها علاقة بالتفكير حيث انها تقوم على أساس الادراك والحدس والشعور . .
السخ .

لقد أصبح مصطلح « الفن التجريدى » مصطلحا شائعا ومألوفاً ، وبعيدا عن الحالات المتطرفة ، يبدو أن صفة التجريد هي خاصية مميزة لعديد من الأعمال الفنية الجيدة التى تقوم بعرض الواقع البصرى فى شكل أكثر بساطة ، ان هذا الفن يعرض أنماطا من الموضوعات ، فى معناها العام ، أكثر من عرضه للصور الخاصة بالحالات الفردية لهذه الموضوعات . وهو انجاز تم الوصول اليه من خلال الفهم الجيد لطبيعة التجريد (٢٤) .

ان الطفل مثلا عندما يرسم رأس الانسان على هيئة دائرة لا يكون هذا الرسم بمثابة المحاولة لاعادة انتاج الشكل التخطيطى الخاص لانسان معين ، ولكنه يكون شكلا عاما فى طبيعته للرأس أو للرؤوس بشكل عام ، أى لاستدارتها .

والاستدارة يمكن التفكير فيها بشكل عام باعتبارها مفهوما مجردا . وفى حد ذاتها يمكن نسبتها الى عديد ان لم يكن كل الرؤوس ، ولكن - وفقا للتعريف التقليدى للتجريد - فانه لا توجد رأس محددة يفترض أن تكون هذه الدائرة قادرة على تمثيلها بشكل صحيح بالنسبة للعين ، ومع ذلك فإن الدائرة التى يرسمها الطفل هي أكثر من مجرد علامة تشير الى المفهوم العقلى لدى الطفل ، انها تشير الى أشياء غير محددة أكثر من كونها تشير لأشياء محددة ، أنها صورة عقلية ، صورة يتم قبولها بشكل عام ، وتكون خاصة بتلك الاستدارة المشتركة بالنسبة لكل الرؤوس . وهذا ما يفعله تحديدا كاتب القصة القصيرة المبدع .

ان المستحيل يتم الوصول اليه هنا، فنحن نجد هنا أماما تمثيلا عيانيا للمجرد (على العكس ما هو شائع من اعتبار الفن وكذلك الأشكال الهندسية هي تمثيلات مجردة للأشياء العيانية) . ان الدائرة التى يرسمها الطفل ليست أقل عيانية وفردية من الصورة الفوتوغرافية وذلك لأن هذه الدائرة تحاول تمثيل بعض الرؤوس الخاصة ، كرأس الأب أو الأم أو الأخ أو الأخت مثلا .

لكنها - هذه الدائرة - تكون تمثيلا عقائيا يستبعد العديد من الخصائص الإدراكية المميزة للرأس ويحدد نفسه فقط بشكل يكشف فقط عن الاستدارة بطريقة خالصة ومحددة الوضوح . وهكذا فإن الصفة العامة الخاصة بالاستدارة والتى تشتق أساسا من الحالات - الرؤوس - الفردية، لا يمكن تحديدها فقط من خلال المفهوم ، أى التصور العقلى ، ولكن أيضا من خلال البنية الخاصة التى تحددها (شكل الدائرة) والتى تدرك بشكل أقل

وضوحا في الأشكال الأصلية (الانسانية) ، هذه الاستدارة يتم عرضها على العين في شكل عياني فردى تكون بنيته الخاصة قد تم تجريدتها أو ابعادها عن عديد من التعقيدات الطارئة (أو الاتفاقية) .

وهكذا ، فإن هذه الخصائص البنائية التركيبية الخالصة – رغم انها عيانية – يبدو أنها تعنى بمتطلبات التجريد الحقيقي .

ان هذا الاستخدام المتضاد المتناقض – ظاهريا – للمجرد والعياني مقصود منه توضيح غموض هذه المصطلحات فاذا أطلقنا مصطلح عياني على شيء قابل للدراك فان الدائرة يمكن ادراكها باعتبارها صورة فوتوغرافية لرأس معينة ، ولكن داخل مجال الأشياء المدركة « عيانيا » يتم وصف الدائرة باعتبارها تجريدا لرأس .

في الدراسة الحالية يستخدم مصطلح « تجريد » كى يشير الى الخصائص الأساسية الكلية العامة للأشياء ، بينما يستخدم مصطلح التمثيل على أنه يشير الى التمثيل باعتباره يشير الى الأداء أو التمثيل البصرى أو الحسى المبسط لأشكال المنبه أو تشكيلاته « العيانية » (٢٥) .

والتجريد الفنى كعملية يشتمل على مفارقة مميزة طالما اعتبر المرء التجريد تفصيلا Elaboration عقليا للمادة الإدراكية الخام ، ومن ثم فهو كعملية يمكن أن تؤدي فقط عند المستوى الأعلى من الارتقاء العقلى فى مجال الفن . وربما كان هذا صحيحا أيضا فى مجال سيكولوجية التفكير ، لقد ظهرت الأشكال الفنية عالية التجريد فى أكثر المراحل بدائية ، بينما ظهرت التمثيلات الواقعية فى الفترات الحضارية المتأخرة ، كما فى الفن الهيرينستى ، وأيضا من عصر النهضة ، فالصوا التى يرسمها الطفل ، وكذلك الهندى الأحمر وقطع النحت المصرية القديمة ، كلها تكشف عن درجة عالية من التجريد ، بينما يكون تمثال « داود » لميكل انجلو ، والمواحات التى وجدت فى مدينة بومبى بعد ذلك بعدة قرون ، هى بمثابة التماثل أو التشابه الفوتوغرافى الذى جعل هذه الأعمال تبدو فى حاجة الى بعض التجريد للمحافظة عليها .

يمكن تعريف التجريد كما ذكر صمويل جونسون باعتباره يشير ، ببساطة ، الى الكمية القليلة التى تشتمل على الحق أو القوة الأكبر .

أو قد يعرف التجريد باعتباره – ايتمولوجيا – Etymology (*) النشاط الخاص باختزال الشكل أو (التشكيل) Configuration المركب الى شكل أقل تركيبا كما هو الحال بالنسبة للنظام الذى ينجح فى

اختزال أو انقاص عدد المفاهيم التي كان يحتاجها لوصف وتفسير ظواهر معينة ، أو عندما يتوصل الفنان الى تفضيل أنماط أبسط من تلك التي كان يستخدمها من قبل (٢٦) .

الفن والتخطيط العام :

الأشكال عالية التجريد والتي تمثل المراحل المبكرة من التمثيل ، ليست راجعة دائما الى محاولات التبسيط لأنماط مسبقة أكثر تركيبا ، وقد تظهر في الإدراك وكذلك في التمثيل (بالصور) من خلال أسبقية الأشكال البسيطة والكلية خلال هذه العملية ، ثم أنها يمكن أن تتطور بعد ذلك الى أشكال أكثر تعقيدا مثل تلك الأشكال التي نحتاج اليها خلال التمثيلات الفنية الأكثر عيانية .

ويترتب على ذلك ان الصور الأكثر واقعية لا يجب تفسيرها باعتبارها نسجيلا مباشرا لتصورات ادراكية صادقة في فوتوغرافيتها ، ولكن باعتبارها نتيجة التهذيب والتشذيب المتدرج لأنماط الشكل التي كانت أصلا أكثر تجريدا .

تشتمل الصور سواء في الفن أو داخل العقل - كما يقول ارنهايم - على البنية الجوهرية والخصائص الأساسية للأشياء والوقائع والأشخاص ، ويعطينا الفن العظيم صورا تعمل على انتقاء وتنظيم وإعلاء البنية الأساسية والقوى الأساسية للموضوعات التي تقوم بتمثيلها ، فالإيحائية الموجودة في اللوحات التأثيرية ، أو في اللوحات الصينية المنفذة بالألوان المائية ليست مجرّد أعمال فنية تحتاج الى أن تكتمل من خلال خيال المشاهد ، لكنها بدلا من ذلك تقدم صورا تقوم بتوجيه وإضاءة وتنشيط تفكيرنا ، صورا تكشف عن أشياء أساسية حول أنفسنا وحول العالم ، أما من تعوزه الخبرة والمهارة فنقدم لنا صورا مليئة بالتفاصيل غير الهامة ، محدودة القيمة وغبر مؤثرة ، فالصور اذن في رأى ارنهايم تتسم بأنها منمنحات انبثاقية emergent وابداعية (٢٧) .

الصور اذن ، رغم انها تتضمن تمثيلا قريبا من الواقع ، في المراحل الأولى من عملية التفكير ، فانها بعد ذلك ومن خلال عمليات التفكير الداخلية المختلفة ، التي من أهمها عمليات الخيال ، التي تتضمن في جوهرها حرية التفكير والتلاعب الداخلي بالأفكار والصور ، ومن خلال عمليات التحويل الداخلية المختلفة هذه تتحرك الصور من الخاص والعياني والمحدد الى

العام والمجرد والانسانى ، تتحول الخبرة الخاصة الجزئية الى خبرة عامة كلية فى قلبها يكمن جوهر الفن والابداع .

فى مقالة لها بعنوان « اللغة والتفكير » عام ١٩٤٤ نقول الفيلسوفة وعالمة الجمال الأمريكية الشهيرة سوزان لانجر (*) أن الرمز ليس هو العلامة هذا ما اهمله لعظم علماء النفس والفلاسفة ، فكل الحيوانات الذكية تستخدم العلامات ، كذلك البشر ، فبالنسبة لها ، ولنا ، تستخدم الأصوات والروائح والحركات كعلامات للطعام والخطر ووجود الأشياء وهطول الأمطار وهبوب العواطف ، وأكثر من هذا ، فان بعض الحيوانات لاتهتم فقط بالعلامات أو ننتبه اليها ، بل تقوم أيضا بانتاجها ، فالكلاب تنبح على الأبواب كي يسمح لها بالدخول ، والأرانب تحدث أصواتا مكتومة كي تنادى على بعضها البعض ، ويعد هديل الحمام وعواء الذئب أو زمجرته ، وهو يدافع عن نفسه ضد القتل ، من الأمثلة التى لا لبس فيها على العلامات الدالة على المشاعر والسلوكيات الخاصة لدى الطيور والحيوانات

ويستخدم البشر أمثلة مماثلة من العلامات ، وان كان ذلك يتم بشكل أكثر تفصيلا ، فنحن نتوقف - عند علامات المرور الحمراء ، ونمضى عندما تكون العلامة أو الإشارة خضراء ، ونرد كذلك على النداءات وعلى صوت جرس الباب أو التليفون ونراقب السماء لمعرفة أحوال الطقس وإمكانات المطر أو العواصف ونقرأ التعب أو الرضا فى عيون الآخرين وعلى ملامحهم ، ان هذا يعنى ان العلامة (التى هى ذكاء حيوانى مستخدم عند المستوى الانسانى) هى أى شىء يشير الى وجود أو ظهور أى واقعة أو شىء ، أو شخص ، أو الى تغير ما يحدث فى حالة ما ، أو أمر ما . فهناك علامات على الطقس ، وعلامات على الخطر ، وعلامات تشير الى الخير القادم أو الشر وشيك الوقوع ، وفى كل حالة من هذه الحالات ترتبط العلامة بشكل وثيق بشىء ما تتم ملاحظته ، أو يتم توقعه خلال الخبرة ، انها تمثل دائما جانبا من الموقف الذى تشير اليه ، هذا رغم أن الإشارة أو الاحالة أو المرجع الخاص بالعلامة قد يكون بعيدا فى الزمان أو المكان ، انها ترتبط بمسار تاريخى موضوعى فعلى محدد ويتم تعلمها خلال الخبرة ، كما يتم التصديق عليها من خلال السلوك المناسب .

(*) وافكارها شديدة التأثير بدرجة واضحة بالافكار الأساسية لنظرية الجشطالتي

وكذلك افكار المحلل النفسى الشهير كارل يونج .

وحيث ان الطريق المباشر والضيق الخاص بالعلامات والذي يسمح لمن يسلكه بأن ينسب بيديه أو يرمي أو يصدر أصواتا خاصة هو طريق لا يكفي للانسان الذي يريد أن يتحرك ويفكر ويتواصل بشكل أكثر حرية ، وبطريقة تمكنه من التفكير والتعبير عن قدراته ومواهبه الخاصة ، لذلك خرج الانسان من الدائرة البيولوجية التي تقتصر على العلامات الى الدائرة الانسانية التي تستخدم الرموز ، وتختلف الرموز عن العلامات كما تشير لانجر ، من حيث أنها لا تعلن وجود أو حضور موضوع أو كائن أو حالة معينة أو عدم وجودها ، ولكن من حيث أنها تحضر هذا الشيء الى العقل « أنها ليست مجرد علامة بديلة ، نستجيب لها كما لو كانت هي الموضوع ذاته ، فالرموز تستدعي تصوراتنا الخاصة عن الأشياء ، وليس الأشياء ذاتها كما هو الحال في العلامات ، فالعلامة تجعلنا نفكر أو نستجيب في مواجهة الشيء الذي تدل عليه بينما يجعلنا الرمز نفكر حول الشيء الذي يرمز اليه ، وهنا تكمن الأهمية الكبيرة لرمزية الحياة الانسانية ، أي أنها القوة الخاصة بجعل الحياة الانسانية مختلفة عن أي حياة حيوانية أخرى ، فالعلامة دائما مجسدة أو مغمورة في الواقع ، في حاضر ينشأ عن الماضي الفعلي ويمتد الى المستقبل ، أما الرمز فقد يتحرر كلية من الواقع ، أنه قد يشير الى مجرد فكرة أو موضوع متخيل أو حلم ، ولذلك يخدم الرمز في تحرير التفكير من المنغصات المباشرة الخاصة بالعالم الطبيعي المباشر ، هذا التحرر أو هذه الحرية هي الميزة للفارق الجوهرى بين عالم الانسان وعالم الحيوان . وتمثل الكلمات والصور العقلية الانطباعية وصور الذاكرة رموزا يمكن دمجها والفصل بينها بآلاف الطرائق وتكون النتيجة بنية رمزية يكون معناها هو مركب من كل المعانى الجديرة بالاهتمام وهذا المشكال (*) Kaleidoscope من الأفكار هو الناتج النموذجي البشرى والذي نسميه بتيار التفكير (٢٨) . ان عملية تحويل الخبرة المباشرة الى صور عقلية أو الى ذلك الشكل الفائق من التعبير الرمزي الذي هو اللغة ، هذه العملية سيطرت على العقل البشرى بطريقة كلية بحيث لم تعد فقط مجرد موهبة خاصة ، ولكنها أصبحت أيضا حاجة عضوية مهيمنة ، فكل انطباعاتنا الحسية تترك آثارها على ذاكرتنا ليس باعتبارها فقط علامات تحدد استجاباتنا العملية في المستقبل ، ولكن أيضا باعتبارها رموزا ، صورا عقلية ممثلة للأفكار ، وهذه النزعة الخاصة لتناول الأفكار

(*) (١) المشكال : أداة تحتوى على قطع متحركة من الزجاج الملون ما ان تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية مختلفة الألوان (٢) . المشكال : رسم أو مشهد متغير مختلف الألوان (قاموس المورد) .

أو معالجتها ، لتركيبها وتجريدها ومزجها والامتداد بها من خلال التلاعب - أو اللعب - بالرموز ، هذه النزعة الخاصة هي خاصية انسانية مميزة. وبارزة انها كما لو كانت مميزة لما يفعله مخ الانسان بشكل طبيعي وتلقائي ولذلك فان لانجر تقول ان « الوظيفة العقلية الاولى لا تحكم على الواقع ولكنها تحلم برغباته ٠٠ (٢٩) ولا يوجد لدى الانسان القدرة فقط على التصور ولكن توجد لديه أيضا الحاجة الملحة دائما لوضع التصورات أو التفكير من خلال تصورات ، انه يقوم بنصور ما حدث له وما هو مطلوب منه ، ومن خلال تفكيره الرمزي في الطبيعة وفي ذاته وفي آماله ومخاوفه تتكون لديه حاجة دائمة وملحة للتعبير ، وما لا يستطيع التعبير عنه لا يستطيع تصوره وما لا يستطيع تصوره هو الفوضى التي تملأه بالرعب (٣٠ ، ٣١) . ومن ثم كان بحث الانسان الدائم عن النظام وعن القانون ، وكانت عمليات التحويل الرمزية التي يقوم بها الانسان والتي تخضع لها كل خبراته ليست أكثر من عملية تصور ، أو محاولة للبحث عن تصورات جديدة للعالم ، هذا التصور هو العملية الأساسية التي تقوم عليه العمليات العقلية الانسانية الأساسية الخاصة بالتجريد والخيال في الفن عامة ، وفي القصة القصيرة خاصة ينتقل القاص المبدع من التجسيد الى التجريد ، ثم من التجريد الى التجسيد مرة أخرى ، أنه يجرد المجسد المحسوس في صور وأفكار فنية عامة ، وثم يقوم بجعل الأفكار المجردة (الحرية - الجمال - الخير - الحق ٠٠ الخ) أكثر محسوسية من خلال الفن . التجريد أكثر تحديدا رغم مفارقتة للخصائص التفصيلية للأشياء أو ابتعاده عنها ، التجريد عملية خاصة بعالم الأفكار في مقابل الادراك الذي هي عملية خاصة بعالم المدركات الطبيعية ، من خلال ادراك العالم يتم تحويل الموضوعات بعد تمثيلها وتخزينها الى عالم الأفكار ، هذه الأفكار تتم عليها ومن خلالها عمليات التجريد بكل ما تشتمل عليه من استدلال واستقراء واستنتاج وفرز وتصنيف ومقارنة واستبعاد وتفكير في العناصر المتشابهة أو المختلفة المشتركة أو المتنافرة ، التجريد اذن هو عملية تفكير حول الأفكار ومن خلالها ، تركيز لها واختصار خاص لبنيتها ، جوهر التجريد اذن هو الاختصار ، الاختصار الذي يشتمل فقط في النهاية على كل ما هو جوهري وأساسى ، أما الخيال فيبدو وكأنه يعكس التجريد ، انه مزيد من الاثراء للصور والرموز والعوالم الداخلية ، صور نكون مشتملة على الحركة والأشخاص والمواقع والموضوعات الطبيعية المختلفة المدركة والمتخيلة ، انها كما لو كانت عودة ثانية الى عالم ما قبل التجريد العقلي ، الى العالم الطبيعي مضافا اليه ، الحرية ، حرية الحركة والنحول والفعل التكويني ، ثم التعبير عن النتائج النهائية الذي يلتقطه الفنان نتيجة لكل هذه العمليات الابداعية من خلال دلالات جديدة .

الابداع : كفاءة وتجديد :

فلنا ان ابداع القصة القصيرة يحتاج الى قدر كبير من عمليات التجريد ، هنا نكون الشخصيات محددة الملامح واللغة محددة التفاصيل ، ليس هذا مرتبطا بنوع محدد من أنواع الكتابة المحايدة أو الباردة أو الشيعية كما نسمى أحيانا وليس مرتبطا أيضا بنمط خاص من الكتاب (*) فالأمر مرتبط بجوهر القصة القصيرة الذي يستبعد التفاصيل ويرفض التفصيلات وينأى عن الحشو أو التزييد الذي لا يظهر بسهولة في شكل كبير كالرواية ، لكنه يبرز ساطعا جليا في شكل شديد الرهافة يجمع في قلبه بين التجريد والمعنى ، أو التحديد والدلالة كالقصة القصيرة ، فكيف يقوم الكاتب بعمليات الاستبعاد والتحديد ، أو الاشتغال والتضمين هذر ؟

لعلنا نتذكر تلك الحادثة المشهورة في تاريخ الفن التشكيلي عن بيكاسو وهو ينحت الثور ، وكيف بدأ بنحت شكل الثور الشبيه بشكله الطبيعي ثم ، ومن خلال عمليات حذف متواصلة ، التي كانت هي في واقع الأمر عمليات تجريد وتلخيص للخصائص الجوهرية للحيوان ، انتهى بيكاسو الى نحت الخطوط الخارجية فقط ، الميزة لشكل الثور المجرد ، والشئ المتير للدهشة ، أن هذه الخطوط كانت أكثر جمالا وتعبيرا في بساطتها هذه من شكل الثور المماثل لشكله في الطبيعة ، شكله الفوتوغرافي المرآوي .

ثمة اتفاق بين عدد كبير من دارسي القصة القصيرة كما يشير « صبرى حافظ » معتمدا على « ايان رايد » I. Reid على ضرورة توافر ثلاث خصائص رئيسية في أى عمل أدبي حتى نستطيع أن ندعوه بارتياح : أقصوصة (وهو الاسم الذي يستخدمه صبرى حافظ بدلا من القصة القصيرة) ، وهذه الخصائص هي : وحدة الأثر والانطباع ، لحظة الأزمة ، واتساق التصميم ، وتعتبر وحدة الأثر أو الانطباع من أهم خصائص الأقصوصة وأكثرها وضوحا في أذهان كتابها وقرائها على السواء ، وقد بلور ادجار آلان بو هذا الاصطلاح عام ١٨٤٢ واعتبره الخصاصة البنائية الأساسية للقصة (أو الأقصوصة) والنتاج الطبيعي لوعي الكاتب بحرفته ومهارته في توظيف كل عنصر للأقصوصة لخلق هذا الأثر ، فقصر العمل لا يسمح بأى حال من الأحوال بالتراخي أو الاستطراد أو تعدد المسارات ،

(*) هنجواى وناثالى ساروت وآلان روب جرييه وميشيل بوتور وغيرهم رغم الاختلاف الواضح فيما بينهم .

بل يتطلب قدرا كبيرا من التكثيف والتركيز واستئصال أية زوائد مشنته، ولا يسمح بجملة زائدة أو عبارة مكررة ، أو حتى إيضاح مقبول . ناهيك عن الإيضاحات الممجوجة أو الزاعقة . فالأقصوصة أكبر الأشكال الأدبية اقترابا من كثافة الشعر وتركيزه وتوهجه (٣٢) . أما لحظة الأزمة فهي لحظة الفضة القصيرة الأثيرة ، لحظة الكشف والاكتشاف ، ولذلك سمي جويس هذه اللحظات بالإسراقات أو الكشوف أو الفتوحات بلغة الصوفية . . . ولحظة الأزمة لا تعنى بالضرورة أن تكون لحظة قصيرة ، فقد تستغرق عملية الكشف هذه زمنا طويلا ، ولا تتطلب أن تعنى الشخصية ذاتها حدوث هذا الكشف أو حتى وجوده برغم معاشيتها له ، ولكنها تستلزم أن يدرك القارئ كلا من التوتر الصائغ للأزمة ، والمفارقة التي ينطوى عليها الاكتشاف (٣٣) .

لقد جاء في قاموس المصطلحات الأدبية الذي اشرف عليه سيلفان بارنت S. Barnet وآخرون - كما يذكر رايد - أن معظم كتاب القصة القصيرة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين قد قاموا بالتركيز على شخصية واحدة في حادثة واحدة ، وبدلا من أن يتنبعوا ارتقاء هذه الشخصية وتطورها ، قاموا بكشفها في لحظة خاصة ، وكما لاحظ ثيودور سترأود T. Straud في مقال له بعنوان « منحى نقدي للقصة القصيرة » A Critical essay to a short story ، فإن هذه اللحظة كانت وبشكل متكرر هي اللحظة التي تمر خلالها الشخصية بتغير حاسم في اتجاهها نحو الأشياء أو الأشخاص أو في فهمها لها ولهم . واتساق أو تناغم التصميم هو الخصيصة البنائية الثالثة التي نقودنا في الواقع الى دراسة الملامح والعناصر البنائية المختلفة التي ينهض عليها أو يتكون منها الشكل القصصى من شخصية وحبكة وحدث وزمن . . الخ غير أن

كثيرا من النقاد يربطون تناغم التصميم Symmetry of Design بأحكام الحبكة ، ليس فقط لأن « ادجار آلان بو » الذي صاغ هذا المصطلح قد عنى به تساوق تصميم الحبكة ، ولكن أيضا لأن الحبكة هي أظهر عناصر البناء القصصى تدليلا على تناغم التصميم ، لأنها تعنى في الواقع أسلوب ترتيب الأحداث وفقا للنسق الذي يبرز أو يميع موقفا معينا ، وبالتالي يبلور أقصوصة بعينها ، وترتيب أحداث حبكة ما لا يتطلب أن ينفق هذا الترتيب مع الترتيب الواقعي أو التسلسل الزمني لها وإنما يخضع لمنطق الأقصوصة الداخلي أو بالأحرى لتناغم تصميمها الخاص (٣٤) .

فى وطننا العربى ارتبط ظهور الموجة الجديدة فى الأدب بشكل عام وفى القصة القصيرة بشكل خاص بحركة المنغيرات الجديدة التى أصابت مختلفبنى والهيكل ، ولم يكن الاتجاه نحو التجريب مجرد رغبة فى الانحياز ضد النعاليك الأدبية القديمة فقط ، بل كان توفى الى التعبير عن شكل التحولات الجديدة ومحاولة استيعابها فنيا ، لذلك كانت إنجازات جيل الستينات بمثابة ثورة حقيقية فى مجال التعبير الأدبى ، فعلى يديهم بزغت الأنوار لحساسية جديدة ، كانت جذورها ممتدة منذ بدء ظهور « المدرسة الحديثة » فى القص سنة ١٩٢٥ على أمدى « محمود طاهر لاشين ومحمود خيرى وسعيد والأخوين عبيد وغيرهم » وكانت المقترحات الجديدة التى قدمها أبناء هذا الجيل بمثابة تجسيد فنى للأفكار الجديدة التى أصبحت متغلغلة فى نسيج الواقع الاجتماعى . فتنوعت الأساليب المختلفة للتعبير عن طبيعة هذه الأفكار (٣٥) .

لقد ساهم المبدعون العرب فى الارتقاء بفن القصة القصيرة فى الوطن العربى كى تصل من خلالها ، وبمن جاءوا بعدهم ، الى تلك الرتبة العالية التى تحتلها القصة القصيرة ما بين الأنواع الأدبية الإبداعية فى الوطن العربى .

يبدو لنا ، ونحن فى خاتمة هذا الكتاب ، أن التصور الذى قدمه سلفاتور مادي S. Maduli حول الدافعية الإبداعية ، صحيح بدرجة كبيرة فى حالة القصة القصيرة العربية ، فقد أكد « مادي » أهمية حاجتين إنسانيتين ، أطلق على الأولى منهما اسم « الحاجة الى الكفاءة » Need for Competence وأطلق على الثانية اسم « الحاجة الى الجودة » Need for novelty ، ويقصد بالحاجة الى الكفاءة أن المبدع تستثار دافعيته فى اتجاه أشياء تتيح له ممارسة واستخدام قدراته وإمكاناته فى أفعال تجعله يرى نفسه يقوم بنشاطات خاصة ذات قيمة بالنسبة له وبالنسبة للآخرين أيضا ، ولا يعنى هذا أن يقوم هذا المبدع بما يصفه له الآخرون ، بل ربما كان الأمر عكس ذلك ، أن ما يريده المرء هنا هو بعض الأدلة على أنه يقوم بأشياء تتسم بالامتياز والتفوق ، أن هذا الدافع هو الذى يقود نحو المثابرة فى التطوير والتعبير عن مواهب الفرد وقدراته ، وهذه المثابرة تشكل جانبا من أهم جوانب النشاط الإبداعى ، انها التى تدفع نحو التعديل والتنقيح والتحسين للعمل حتى يصل - هذا العمل - الى أكمل صورة يراها المبدع له ، انها تعنى تجويد الموجود .

أما « الحاجة الى الجودة » فهى ما تجعل الفرد الذى يمتلكها يرى فى غير المؤلف والنادر وغير المتشابه وغير المتوقع اشباعاً خاصة . وليست

الجددة هنا وسيلة لتحقيق المفيد والنافع بقدر ما هي استجابة انفعالية مصحوبة بالدهشة . انها هي التي تتناقض مع السام الذي اعتبره «اللورد بايرون» أشد درجات العذاب الانساني، انها تعنى ايجاد غير الموجود . ان الشخصية المبدعة هي شخصية تمر بتجارب الحاجة الى الكفاءة والحاجة الى الجدة بشكل مكثف وعميق أكثر من أى نوع آخر من الدوافع - كما يذكر مادي - وفي حالة ما اذا كانت الحاجة الى الكفاءة هي السائدة ، والحاجة الى الجدة هي الأضعف ، فان الشخص قد يكون متوجها نحو الحرفية أكثر من توجهه نحو الابتكار ، أما اذا كانت الحاجة الى الجدة هي السائدة ، والحاجة الى الكفاءة هي الأضعف فان الاتجاه النقيض قد يسود (فيتوجه المبدع نحو الابتكار أكثر من اهتمامه بالنواحي الحرفية أو التقنية ، أما اذا ساد الدافع لدى المبدع بشكل كبير ومتوازن فانهما يمتزجان معا لاحداث مركب فريد من الحرفية والابتكار (٣٦) .

في رأينا كما قلنا أن ابداع القصة القصيرة في وطننا العربي قد مر بفترات سادت فيها الحاجة الى الجدة على الحاجة الى الكفاءة أحيانا فظهرت ابداعات عديدة لمبدعين عديدين متأثرة بتشيكوف وموباسان وادجار آلان بو في البداية (خلال الأربعينات والخمسينات من هذا القرن مثلا) ثم بعد ذلك ابداعات شديدة التأثير بهمنجواي وناتالي ساروت وجيمس جويس وآلان روب جرييه وميشيل بوتور وغيرهم من خلال ستينات وسبعينات هذا القرن ، ثم بعد ذلك وخلال الثمانينات ظهر التأثير الواضح لماركيز وبورخيس وميشيما وكاوباتا ، أى التأثير الواضح لأدب أمريكا اللاتينية وأدب اليابان بشكل خاص ، خلال ذلك كان بعض الأدباء يحاولون نحت طريقهم الخاص من خلال العودة الى جذور القصة في انثرات العربى ، من خلال استلهم روح ألف ليلة وليلة أو بعض الكتب التاريخية والصوفية ، بحثا عن المتخيل والغائب فى النص العربى الحاضر ، الذى كان فى حالات كثيرة انعكاسا أو صورة مكررة لنص غربى بارز ، هنا كانت الحاجة للتجديد فى معناها العام هي السائدة ، كراهية للمألوف والمتكرر والممل ورغبة فى التحرر من أسر القوالب والأنماط الجامدة فى التفكير والسلوك والكتابة والحياة . لكن لكل تجديد حدوده كما نعرف، ومن ثم كانت الخطوة الطبيعية لاستنفاذ الكتاب العرب لامكانيات التجديد التى بدا الكتاب الغربيون وكانهم استنفذوها تقريبا فى شكل القصة القصيرة والرواية ، كانت الخطوة الطبيعية التالية هي أن تسود لدى كتابنا (*) الحاجة الى الكفاءة ، هذه الحاجة الحرفية كان لها جانبها الايجابى كما كانت لها جوانبها السلبية ، جانبها الايجابى يتمثل فى ذلك

السعى الغلاب الذى سيطر على كتابنا للتمكن من لغة القص وحرفية القصة القصيرة ، أما الجوانب السلبية فتمثلت فى انغلاق عديد من الكتاب على طريقة واحدة فى الكتابة يكررونها ويجترونها ولا يستطيعون منها فكاكا ، فوقعوا فى أسر النمطية والقوالب المغلقة التى هى ضد الابداع .

ان أشد ما نحتاجه الآن ونحن فى هذه المرحلة من تاريخنا المعاصر أن نقوم بالخطوة التالية ، الخطوة التى تدفعنا بقوة نحو المستقبل ، هذه الخطوة لن تتم الا بذلك المركب الضرورى ما بين التمكن والتجديد ، ما بين الحرفية والابنكار ، ما بين التقنية وحركة العقل المبدع الحرة لاكتشاف كل ما هو مجهول ، هذا ما نحتاجه بشكل ملح تماما الآن فى كل مظاهر حياتنا العربية المعاصرة ، والكتابة الابداعية – متضمنة القصة القصيرة دون شك – هى أحد المظاهر الأساسية لهذه الحياة .

(*) يشعر المؤلف بالحرج فى أن يذكر بعض الأسماء وينسى بعضها الآخر ، كما تنقصه بعض الأسماء من بعض البلاد العربية ، لذلك آثر ألا يذكر الأسماء التى يعرفها خوفا من اتهامه بالتحيز لاتجاه معين فى الكتاب أو لقطر عربى معين دون غيره .

المراجع

مراجع الفصل الأول

- (١) Stein, N. I. *Stimulating Creativity*, Vol. 1, New York Academic Press, p. 13.
- (٢) English, H. B. & English, A. C. *A Comprehension dictionary of Psychological and Psychoanalytical Terms*, New York : Lingman, 1958.
- (٣) Zigler, L. Metatheoretical issues in developmental Psychology, In : M. Marx (ed.) *Theories in contemporary Psychology* New York : Macmillan 1963, p. 340.
- (٤) Ibid, p. 344.
- (٥) حنورة (مصرى عبد الحميد) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الرواية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٦١ .
- (٦) Silverman, R. E. *Psychology*, New Jersey : Prentice-Hall Inc., 1978, p. 276.
- (٧) Ibid.
- (٨) Guilford, J. P. Trait of creativity, In : P. E. Vernon, (ed.) *Creativity*, Harmondsworth : Penguin Books, 1973.
- (٩) Guilford, J. P. Intellectual resources and their Values as seen by scientists, In : C. W. Taylor & F. Barson (eds.) *Scientific creativity, its recognition and development*, New York : John Wiley, Inc., 1963, p. 107.
- (١٠) شلوفسكى (فيكتور) بناء القصة القصيرة والرواية ، فى كتاب : نظرية النهج الشكلى • نصوص الشكلايين الروس (ترجمة ابراهيم الخطيب) بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٢ .
- (١١) Northrop. Frye et. al., *The harper Handbook to Literature*, New York : Harper & Publishers, 1985, p. 442.
- (١٢) Ibid, p. 58.
- (١٣) Ibid, p. 430-433.
- (١٤) Ibid, p. 249.
- (١٥) أبو أحمد (حامد) مقدمة رواية : من قتل مولير ؟ (تأليف ماريو فارغاس يوسا) (ترجمة وتقديم د. حامد أبو أحمد) القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ، ص ٥ - ٦

- (١٦) Maugham, S. Points of View, London : Heinman, 1958, p. 147
- (١٧) Feilbleman, J. K. A behavioral theory of Art, British Journal of Aesthetics, 1963, 1, 3-14.
- (١٨) سوييف (مصطفى) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥ .
- (١٩) جارودي (روجيه) واقعية بلا ضفاف (ترجمة حليم طوسون) القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢٨ .
- (٢٠) Barron, F. Creativity and Personal Freedom, New York : Van Nortrand .Company, 1969, p. 238.
- (٢١) Miller, H. Reflection on Writing, In B. Ghiselin, (ed.) The Creative Process, New York : The New American Library, 1952, p. 178.
- (٢٢) Evans, P. I. Literature and Science, London : Geotge Allen, 1954, p. 98.
- (٢٣) Maugham, Op. Cit., p. 155.
- (٢٤) Cowley, M. (ed.) Writers at work, London : Mercusy Books, 1962, p. 256.
- (٢٥) Abraham, M. H. A glossary of Literary Terms, New York Holt. Rinehart and winston, 1971, p. 158.
- (٢٦) Jones, V. Crealive Writing, London : Teach Yourself Books, 1975, p. 62.
- (٢٧) Encyclopedia Americana, Vol. 24 New York : American Corporation, 1962, p. 746.
- (٢٨) Encyclopedia Britanica, Vol. 20, Chicago, Millian Benton Publisher, 1965, p. 581.
- (٢٩) Encyclopedia Americana, p. 746.
- (٣٠) Buchan., J. Modern Short Stories, London : Thomas Nelson and Sons, 1930, p. 14.
- (٣١) يرميلوف (فلاديمير) أب تشيكوف (ترجمة عبد القادر القط وفؤاد كامل) القاهرة : الهيئة المصرية للتأليف والترجمة ، بدون تاريخ ، ص ٥١ .
- (٣٢) جويو (جاي ماري) مسائل فلسفة الفن المعاصرة (ترجمة سامي الدروبي) ، بيروت : دار اليقظة العربية للتأليف والنشر ، بدون تاريخ ، ص ١٤ .
- (٣٣) أبو عوف (عبد الرحمن) البحث عن طريق جديد للقصة القصيرة المصرية . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ ، ص ٤ .
- (٣٤) جارودي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .
- (٣٥) Newton, E. Art as Communication, British Journal of Aesthetics, 1961, 2, p. 71.

مراجع الفصل الثاني

- Reber, A. The Penguin Dictionary of Psychology, Harmondsworth : Penguin Books, 1987, pp. 577-578. (١)
- Thomson R. The Psychology of thinking, London : English, Language Book Society, 1971, p. 93. (٢)
- English, H. B. & English, A. C. A comprehensive Dictionary of Psychological and Psychoanalytical terms, New York : Longman, 1958, p. 344. (٣)
- Chaplin, J. P. A dictionary for Psychology, New York Dell Publishing Co., Inc., 1975, p. 410. (٤)
- Reber, Asch, p. 165. (٥)
- Wright, D. S. Introducing Psychology, Harmondsworth Penguin Books, 1978, p. 428. (٦)
- McKeller, P. experience and behaviour, Harmondsworth Penguin Books, 1971. (٧)
- Stein, M. I. Stimulating Creativity, Vol. I, New York : Academic Press 1974, p. 13. (٨)
- Barron, F. Creative Person and Creative Process, New York : Holt, Rinhart Winston, 1969, p. 8. (٩)
- Whitfield, R. R. Creativity in Industry, Harmondsworth Penguin Books, 1975, p. 8. (١٠)
- Bolton, N. The Psychology of Thinking, London : Methven & Co., Ltd., 1976, p. 18. (١١)
- Hayes, J. R. Cognitive Psychology, Illinois : The Dorsey Press, 1978, p. 240. (١٢)
- Gollan, S. E. : Psychological Study of Creativity, Psychol-Bulletin, 1963, 69, 549-563. (١٣)
- Torrance, E. P., Rewarding Creative Behavior, Experiments in Classroom Creativity, New Jersey : Prentice Hall, Inc., 1965, pp. 5-7. (١٤)
- Ibid, p. 8. ... (١٥)
- Ibid, pp. 27-28. (١٦)
- Poincaré, H. Mathematical Creation. In B. Chiselin : The Creative Process, New York : The New Amer. Libr. 1952. (١٧)
- Wallas, G. The Art of Thought, In : P. E. Vernon : Creativity : Penguin, p. 91. (١٨)

- Ibid, p. 94. (١٩)
- (٢٠)
- Ray, W. S. The experimenti Psychology of original thinking New
New York : Macmillan, 1969, p. 170.
- Crutchfield, R. The Creative Process, Conference on the (٢١)
creative person, Berkeley ; Univ. of Berkeley 1961 Ch. 6.
- Hayes, Op. Cit., p. 230. (٢٢)
- Guilford, J. P. Creativity, Amer Psychologist, 1950, 5, 444-454. (٢٣)
- Bollon, Op. Cit. ,p. 185. (٢٤)
- Richardson, A. Mental imagery, London : Routledge & Kegan (٢٥)
Paul, 1969, pp. 125-126.
- Hayes, Op. Cit., p. 226. (٢٦)
- Ray, Op. Cit., p. 178. (٢٧)
- Hayes, Op. Cit., p. 238. (٢٨)
- Guilford, 1950. (٢٩)
- Lytton, H. Creativity and Education, London : Routledge (٣٠)
and Kegan Paul, 1971, p. 11.
- Crutchfield, Op. Cit., p. (٣١)
- Vinacke, The Psychology of Thinking, New York : McGraw- (٣٢)
Hill, 1952, p. 248.
- (٣٣) تايسون (مويا) الابتكار في : آفاق جديدة في علم النفس ، تأليف : ب فوس ،
ترجمة فؤاد أبو حطب ، القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٢ ، ص ١٥٧ .
- Crutchfield, Op. Cit., (٣٤)
- (٣٥) لالو (شارل) مبادئ علم الجمال (ترجمة مصطفى ماهر) القاهرة : دار احياء
الكتب العربية ، ١٩٥٩ ، ص ٧٦ .
- Walla , Op. Cit., p. 94. (٣٦)
- Reber, Op. Cit., p. 148. (٣٧)
- Ibid, pp. 488-489. (٣٨)
- Ibid, p. 799.. (٣٩)
- Ibid, p. 640. (٤٠)
- Beber, P., p. 742. (٤١)
- Ibid, p. 573. (٤٢)
- Ibih., P. 673. (٤٣)
- Ibih., p. 131. (٤٤)

- Waelder, H. Psychoanalytic Avenues to Art, In : Hogg (ed.) (٤٥)
Psychology and Visual Arts, Harmondsworth : Penguin Books,
1969.
- Freud, S. Creative Writers and Daydreaming, In P.E. (٤٦)
Vernon (ed.) Creativity, Harmondsworth : Penguin Books, 1973.
pp. 126-136
- Freud, S. Leonardo (Translated by A. Tyson) Harmond fothrth Pen- (٤٧)
guin Books, 1963.
- Freud, S. Dostoevsky and Parricide In. M, Kallich at. al., (٤٨)
(eds.) : Oedipus, Myth and Drama, Newd York : The Odyssey
Press, 1968, pp. 367-368.
- Farisha, B. Relationship Between Creativity and Mental (٤٩)
Imagery : A Ruestion of cognitive Style ? In : A. Sheikh, (ed.)
Imageny, Current theory Research, and application, New York
John Wiley & Sons, 1983, pp. 313-315.
- Freud, S. Dostoevsky and Paracide, In : The Standard edi- (٥٠)
tion of complete Works of Sigmund Frued, London : The Hogarth
Press, 1981, Vol. XXI, pp. 175-199.
- Freud, S. letter from Freud to Theodor Reik, In : Theol (٥١)
Standard edition of Complete Works of Sigmund Freud, Ibid.
pp. 195-196.
- Freud, S. Leonardo, Translated by Alan Tyson, Harmond (٥٢)
Worth : Penguin Books, 1963.
- Frager, P. & Fadiman, J. Personality and Personal Growth (٥٣)
New York : Harper è Raw, 1984, p. 56.
- Cooper, J. C. [An illusrtated Encyclopedia of Traditional (٥٤)
symbols, London : Thames and Hadson, 1978, p. 103.
- English, H. B. & English, A. C. Op. Cit., 303. (٥٥)
- Samuel , M. & Samuels, N. Seeing with mind's eye, Techni- (٥٦)
ques and uses of visualization, New York : Random House, 1982,
p. 30.
- Jung, C. G. Psychology and Literature, In : B. Ghiselin (٥٧)
(ed.) The Creative Process, New York : The New Amer. Libr. 1952,
pp. 208-223. z!
- Jung, Ibid. (٥٨)
- (٥٩) سوييف (مصطفى) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، القاهرة :
دار المعارف ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠ ، ص ٢٠١ .
- (٦٠) يونج (كارل جوستاف) (وتلاميذه) الانسان ورموزه ، ترجمة سمير علي ،
بغداد : منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، سلسلة الكتب المترجمة ، ١٩٨٤ ، مواضع
متفرقة .

- Campell, J. Mythological themes in creative literature and Art, In : J. Campell (ed.) Myths, Dreams and Religion, New York · Dutton, 1970, pp. 138-140. (٦١)
- (٦٢)
- Ibid, p. 359-360. (٦٣)
- Jung, C. G. Word and image, (ed.) By : A. Jaffe, Princeton Univ. Univ. Press, 1979, p. 151.
- (٦٤) يونج (ك · ح) علم النفس التحليلي (ترجمة وتقديم نهاد خياطه) اللاذقية دار الحوار ، ١٩٨٥ ، ص ٢١٢ .
- Jung, 1979, pp. 216. (٦٥)
- (٦٦) ريد (هيربرت) الفن اليوم (ترجمة محمد فحى وجرحس عبده) القاهرة : دار المعارف : ١٩٨١ ، ص ٩٤ .
- (٦٧)
- Rad, H. The meaning of Art, Harmondsworth : Benguin Books, 1963, 71-74.
- Eagleton, T. Literary theory, An Introduction, Oxford : Basil Blacwkell, 1963, pp. 157-158. (٦٨)
- Feder, L. Madness in Lliterature, New Jersey . Princeton Univ. Press 1980, p. 254. (٦٩)
- Ibid, pp. 255-256. (٧٠)
- Ibid, p. 256. (٧١)
- Jung, C. G. The integration of the personality (Translated by : S. Dell) London : Routledge & Kegan Paut, 1963, pp. 7-8. (٧٢)
- Ibid., p. 42. (٧٣)
- Bachelard, G. The Poetics of Reverie (translated by D. Russell). Boston : Paecen Pre's, 1960. (٧٤)
- Encyclopedia Americana, New York : American Corporation, 1962. (٧٥)
- (٧٦) ماورز (أنولك) فلسفة تارويج الفن (ترجمة رمزى عبده جرحس) القاهرة : الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية ، ١٩٦٨ ، ص ١٠١ .
- (٧٧) الغريب (رمزية) التعليم ، دراسة نفسية ، تفسيرية توجيهية ، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨ .
- Arnheim, R. Gestalt and Art, In : J. Hogg (ed.) Psychology and Visual Arts, Pinguin Books, 1969, p. 257. (٧٨)
- Kaffka, K. Principles of Gestalt Psychology, New York Har-court Brace, 1935. (٧٩)

- Hogg, Op. Cit., pp. 78-81. (80)
- Arnheim, Op. Cit., p. 258. (81)
- Reber, Op. Cit., p. 301. (82)
- Ibid, p. 359-360 (83)
- Ibid., p. 377. (84)
- Ibid, p. 79. (85)
- Ibid, p. 564. (86)
- Arnheim, R. Towards A Psychology of Art, A Collected essays, Berkeley and Los Angeles : University of California Press, 1966, p. 31. (87)
- Arnheim, P. Perceptual abstraction and Art, In Arnheim, (88)
ibid, p. 32.
- Ibid, p. 33. (89)
- Vurpilot, E. The Visual world of the child, London : George (90)
Allen & Unwin Ltd, 1976, pp. 124-125.
- Arnheim, R. Art and Visual Perception, Berkeley : Univ. (91)
of California Press, 1954, p. 136.
- Smith, P. & Franklin, M. Symbolic Functioning in child (92)
hood, New Jersey : Lawrence Erlbaum Association Publishers, 1979,
p. 81.
- Brunes, J. S. Representation and Cognitive development In : (93)
M. Roberts & J. Tamburrini (ed.) Child Development 0-5, Edin-
burgh ; Holmes McDaugh Ltd, 1981.
- Wolheim, R. Representation : The Philosophical Contribu- (94)
tion to Psychology, In : G. Butterworth (ed.) The child represen-
tation of the world, New York : Plenum Press, 1979, pp. 181-187.
- Butterworth, Ibid, pp. vii, ix. (95)
- Arnheim, R. 1966, p. 33. (96)
- Ibid.... (97)
- Arnheim, R. Abstract Language and Metaphore, In : R. (98)
Arnheim, 1966, pp. 266-282.
- Ibid. (99)
- Ibid, p. 266. (100)
- Ibid, p. 267. (101)
- Ibid, p. 268-270. (102)

- Harris, D. Children's Drawing als measures of Intelligence and Maturity, New York : Harcourt Brace, 1963, pp. 181-182. (١٠٣)
- (١٠٤) سوييف (مصطفي) ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .
- Arnheim, 1966, p. 269. (١٠٥)
- Ibid, p. 275. (١٠٦)
- Ibid, p. 276. (١٠٧)
- Marks, L. E. Synesthesia and the Arts, In W.R. Grozier & A. Chapman, Cognitive Processes in the perception of Art. Amsterdam; North Holan, 1984, pp. 427-448. (١٠٨)
- Arnold, 1966, p. 279. (١٠٩)
- Ibid, p. 281. (١١٠)
- Arnheim, R. On Inspiration, In : R. Arnheim, 1966, pp. 285-291. (١١١)
- Ibid, p. 287. (١١٢)
- Reber, Op. Cit., pp. 696-697. (١١٣)
- Arnheim, ibid, Inspiration, 1966, p. 288. (١١٤)
- Ibid, pp. 288-289. (١١٥)
- (١١٦)
- Arnheim, R. Picasso' Guernica, the genesis of a painting, London Faber & Faber, 1962, pp. 6-7.
- Reber, Op. Cit., p. 339. (١١٧)
- Arnheim, Op. Inspiration, 1966, p. 289. (١١٨)
- Arnheim, R. Contemplation and Creativity, In : R. Arnheim. § (١١٩)
pp. 292-301.
- Ibid, pp. 295-296. (١٢٠)
- Ibid, p. 297. (١٢١)
- Ibid. (١٢٢)
- Ibid, p. 299. (١٢٣)
- Arnheim, R. Art and Visual Perception, 1954- pp. 135-137. (١٢٤)
- Arnheim, Contemplation and Creativity, pp. 300-301. (١٢٥)
- Arnheim, R. The Gestalt of theory of expression, In : (١٢٦)
R. Arnheim, 1966, pp. 51-73.

- bid, p. 52. (127)
- Ibid, p. 57 (128)
- Ibid., p. 58. (129)
- Ibid. (130)
- Arnheim, R. Visual thinking Perkeley : University of California Press, 1969. (131)
- (132)
- Cofer, C. N. & Appley, M. Motivations, Theory and Research New Delhi : Wilely Eastern limited, 1964, pp. 658-659.
- Frager & Fadiman, Op. Cit., p. 367. (133)
- Ibid, p. 378. (134)
- Reber, Op. Cit., p. 474 (135)
- Hjelle, L. A. & Ziegler, D. J. Personality theories, Basic assumptions, Research, and applications London : 1981, pp. 368-374. (136)
- Ibid, pp. 272-274. (137)
- Frager & Fadiman, Op. Cit., pp. 378-379. (138)
- Cofer & Appley, Op. Cit., pp. 668-670. (139)
- Cofer & Appley, pp. 658-659. (140)
- Frager & Fadiman, Op. Cit., pp. 382-384. (141)
- Maslow, A. H. Motivation and Personality, New York : Harper & Row, Inc. 1987, pp. 158-168. (142)
- Ibid, p. 160. (143)
- Rogers, C. Towards a theory of creativity, In : P.E. Vernon, (ed.) Creativity, Harmond worth : Penguin Books, 1973, p. 143. (144)
- Maslow, Op. Cit. p. 160. (145)
- Ibid. pp. 161-162. (146)
- Ibid, p. 165. (147)
- Ibid, pp. 164-165. (148)
- Ibid, p. 166. (149)
- Ibid. (150)
- H. Jelle & Ziegler, Op. Cit., p. 394. (151)

- Cropley, A. J. S-R. Psychology and Cognitive Psychology, (102)
In : P.E. Vernon, Op. Cit., p. 119.
- Cropley, Ibid, p. 120. (103)
- Bolton, Op. Cit., p. 120. (104)
- Barron, J. Personality and Intelligence, In : R. J. Stenberg (105)
(ed.) Handbook of Human Intelligence, Cambridge Camb. Univ.
Press, 1982, p. 320.
- Reber, Op. Cit., P. (106)
- Musen, P. H. et al., Child Development and Personality, (107)
New York : Harper & Row, 1984, p. 251.
- Forisha, B. Op. Cit., p. 320. (108)
- Samuel, W. Personality, Searching for the sources of Hu- (109)
man Behavior, London : McGraw-Hill, 1981, pp. 29-31.
- Reber, Op. Cit., pp. 612-613. (110)
- Samuel, Op. Cit., pp. 31-34. (111)
- Ibid, p. 397. (112)
- Ibid, p. 401. (113)
- Ibid, p. 402. (114)

مراجع الفصل الثالث

- (١) Bolton, N. The Psychology of thinking, London : Mettwen & Co. Ltd. 1976, p. 183.
- (٢) سوييف (مصطلحي) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠٥ .
- (٣) Wright, D.S. et. al., Introducing Psychology, An experimental approach, Harmondsworth : Penguin Books, 1978, p. 490.
- (٤) Eysenck, H. J. Criterion-analysis, an application of the Hypothetico-deductive Method to factor analysis, Psychol. Rev. 1950, 57. 1, 58-63.
- (٥) Wright, Op. Cit., pp. 490-491.
- (٦) Coan, R. W. Facts, Factors and artifact', the question for Psychological meaning, Psychol, Rev., 1964. 71, 123-140.
- (٧) Ibid.
- (٨) Guilford, J. P. Creative abilities in the arts, Psychol. Rev., 1957, 64, 110-118.
- (٩) Cronbach, L. J. & Mechl, P.E. Construct Validity in Psychological testing. Psychol Bull, 1955, 52, 281-303.
- (١٠) Fruchter, B. Introduction to factor analysis, New York Van Nostrand, 1954, p. 4.
- (١١) Guilford, J. P. Traits of creativity, In : Creativity, ed. By P. E. Vernon, London : Penguin Book', 1973, p. 169.
- (١٢) Coan, op. cit.
- (١٣) Guilford, 1973, p. 172.
- (١٤) Chaplin, J. P. a dictionary for Psychology, New York : Dell Publishing Co., 1975, p. 209.
- (١٥) Walman, B. B. (ed.) Dictionary of Behavioral Science, New York ; Macmillan, 1975.
- (١٦) Garmonsway, G. N. & Simpson, J. The Penguin English Dictionary, Harmondsworth : penguin Books, 1976, p. 648.
- (١٧) Drever, J. a dictionary of Psychology, Harmondsworth : Penguin Books, 1978, p. 104.

- Guilford, J. P. Intellectual resources and their values as seen by scientists, In : C. W. Taylor & F. Barron ; (eds.) Scientific creativity, its recognition and development, New York : Wiley, 1963, p. 105. (18)
- Guilford, J. P. Factorial angle to Psychology, Psychol. Rev. 1971, 68, 1-20. (19)
- Thomson, R. The Psychology of thinking, London : English Language Book Society, 1971, p. 93. (20)
- English, H. B. & English, A. C. A Comprehensive dictionary of Psychological and Psychoanalytical terms, New York : Longman, 1958, p. 344. (21)
- Chaplin, Op. Cit., p. 410. (22)
- Hans, P. (ed.) Encyclopedic world dictionary, Beirut : Librairie du Liban, 1974, p. 1249. (23)
- Walman, Op. Cit., p. 290. (24)
- Maltzman, I. Motivation and direction of thinking, Psychol. Rev. 1962, 4, 457-467. (25)
- Mc Guigan, F. Cognitive Psychophysiology, New Jersey : Prentice Hall, Inc., 1976, pp. 63-79. (26)
- Guilford, 1963, p. 104. (27)
- Kerlinger, F. Foundations of Behavioral Research, New York Holt, Rinhart & Winston, Inc., 1964, p. 32. (28)
- Rayce, J. R. Factors as theoretical constructs, Presented at the third annual meeting of society of Multivariate experimental Psychology, Chicago : 1962. (29)
- Macorquolle, K. & Mechl, P.E. on a distinction between Hypothetical constructs and intervening variables, Psychol. Rev. 1948, 55, 95-107. (30)
- Marx, M. Intervening Variables and Hypothetical constructs, Psychol. Rev. 1961, 58, 235-247. (31)
- Kretch, D. Dynamic systems, Psychological fields and Hypothetical constructs, Psychol. Rev., 1950, 57, 282-290. (32)
- Marx, Op. Cit. (33)
- Eysenck, H. J. Psychology of politics, London : Routledge & Kegan Paul, 1968, ch. 1. (34)
- McGuigan, op, cit., p. 46. (35)
- Royce, op. cit. (36)
- Bridgman, P. W. Some general principles of operational analysis, Psychol. Rev. 1945, 52, 5, 246-240. (37)

- Anastasi, A. Psychological testing, New York : MacMillan (٣٨)
1967, p. 362.
- Ferguson, G. Statistical analysis in Psychology and educa- (٣٩)
tion, New York · McGraw-Hill, 1959, p. 404.
- Richie, A. D. Scientific Method, London : Kegan Paul, 1923, (٤٠)
p. 45.
- Ibid, n. 49. (٤١)
- Guilford, J. P. Some Mi concepts of factors, Psychol. Bull, (٤٢)
1972, 77, 392-396.
- Eysenck, H. J. The Logical Basis of factor analysis. Amer. (٤٣)
Psychologist, 1953, 8, 105-114.
- Guilford, Op. Cil. (٤٤)
- Coan, Op. Ctt., when not to factor analyze, Psychol, Bull. (٤٥)
1952, 49, 26-37.
- (٤٦) تايسون (مويلا) الابتكار · في · فوسى (ب · م) آفاق جديدة في علم النفس
(ترجمة فؤاد أبو حطب) ، عالم الكتب ، المجلد الأول ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٤ .
- (٤٧) جارودى (روجيه) واقعة بلا ضفاف (ترجمة حليم طوسون) القاهرة
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، ص ١٩٧ .
- Miller, H. Reflection on writing, In : B. Ghiselin, (ed.) The (٤٨)
(ed.) The Creative Process, New York : The New American libi-
rary, 1952, p. 185.
- Zervas, G. Conversation with Picasso, In : B. Chi elin (ed.) (٤٩)
The creative process. pp. 55-60.
- Wertheimer, M. Productive thinking, New York : Harper (٥٠)
& Brothers publishers, 1959, P. 236.
- Silverman, R. E. Psychology, New York : Prenticet-Hall, (٥١)
Inc., 1978, p. 304.
- (٥٢) جارودى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .
- (٥٣) من حوار معه ، قامت به سلوى العناني ونشرته ضمن كتابها : موعد ولقاء
القاهرة · دار المعارف سلسلة « اقرأ » ، ١٩٨٢ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .
- McKeller, P. originality in human thinking, British Journal (٥٤)
of seshetics, 1963, 2, 129-147.
- Whitfield, R. R. Creativity in industry. London : Penguin (٥٥)
Book , 1975, p. 20.
- (٥٦) سويف ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .
- Cowley, M. (ed.) Writers at work, London : Mercury Books, (٥٧)
1962.

- (٥٨) Maugham, S. Paints of view, London : Heinman, 1958.
- (٥٩) سوييف ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ .
- (٦٠) سوييف ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .
- (٦١) ميندوزا (بلينيو) احاديث من غابرييل غارسيا ، ماركيز ، (ترجمة : ابراهيم وطفى) دمشق : طلاسى للدراسات والترجمة والنشر ، ١٩٨٦ ، ص ٦٨ .
- (٦٢) حقى (يحيى) انشودة البساطة ، القاهرة : دار الكتاب الجديد ، بدون تاريخ
ص ٩٣ - ٦٤ .
- (٦٣) يوستوفسكى (ك) الوردة الذهبية فى صياغة الأدب . دمشق : دار النشر الوطنية ، بدون تاريخ ، ص ١٦٠ .
- (٦٤) McKeller, op. cit., p. 134.
- (٦٥) برميلوف (فلاديمير) ا. ب. تشيكوف (ترجمة : عبد القادر القط وفؤاد كامل) .
القاهرة : الهيئة المصرية للتأليف والترجمة ، بدون تاريخ ، ص ١٤٥ .
- (٦٦) حقى ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .
- (٦٧) Meghie, A. Pathology of Attention, Harmondsworth : Penguin Books, 1969.
- (٦٨) Bolton, op. cit., pp. 190-196.
- (٦٩) Newton, E. art as communication. British Journal of Aesthetics, 1961, 2, 71-85.
- (٧٠) James, H. Refection on the spails of Paynton. In : B. Ghiselin, the Creative process, 147-156.
- (٧١) ميندوزا ، المرجع السابق ، ص ٥٦ - ٥٧ .
- (٧٢) يوستوفسكى ، المرجع السابق ، مواضع متفرقة .
- (٧٣) Samuel M. & Samuels, N. Seeing with the mind's eye. New York : Random House, 1975, pp. 254-256.
- (٧٤) Stein, M. I. Stimulating Creativity Vol. I., New York : 1974. p. 20.
- (٧٥) Cowley, Op. Cit., p. 263.
- (٧٦) Ghiselin, op. cit., p. 26.
- (٧٧) هكسل (الدوس) هكسل يتحدث عن فئة الروائي ، مجلة « حوار » البيروتية ،
١٩٦٤ ، ٢ ، ٨٢ - ٩٣ .
- (٧٨) Silverman, Op. Cil., p. 272.
- (٧٩) سوييف ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .
- (٨٠) Spender, S. The making of a poem. In : B Khiselin, the Creative process, p. 115.

- (٨١) بروست (مارسيل) بحث عن الزمن المفقود ، في : الرؤيا الابداعية (ترجمة
سعد حليم) القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، سلسلة الألف كتاب (رقم ٨٥٥) ، ١٩٦٦ ،
هامش للمترجم) .
- (٨٢) Stein, M. I. Creativity in free Societies, Craduate Comments,
1961, Vol. V, No. 1.
- (٨٣) فرج (صفوت) القدرات الابداعية والمرضى العقلي ، دراسة للأداء الابداعي لدى
لفصامين ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧١ (نشرت بعد
ذلك بعنوان الابداع والمرضى العقلي) .
- (٨٤) McGuigan, op. cit., p. 60.
- (٨٥) سوييف المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .
- (٨٦) Gardener, J. D., The Individual and Today's World, New
York : A Macfordden, Bortell, 1966, p. 44.
- (٨٧) Spender, Op. Cit., p. 113.
- (٨٨) جوركي (مكسيم) ١٠ ب . تشبكيوف (ترجمة : أحمد القصير) القاهرة مؤسسة
سجل العرب ، ١٩٦٦ .
- (٨٩) Whitfield, op. cit., p. 9.
- (٩٠) فرج ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ .
- (٩١) Samuels & Samuels, op. cit., p. 255
- (٩٢) Thomson, op. cit., p. 19.
- (٩٣) Crutchfield, R. The Creative process, conference on the
Creative person, Berkeley : Univ. of Calif. Insitute of per onality
assessment and Research, 1961, Ch. 6.
- (٩٤) ضياء الشرقاوى : رسالة الى محمد الراوى ، نشرت فى مجلة « القصص »
لصرية ، ضمن مجموعة رسائل لضياء الشرقاوى نشرها وعلق عليها محمد الراوى ، ١٩٧٨ ،
لعدد ١٨ ، ص ١٠٩
- (٩٥) Confield, D. How flint and fire started and grew. In : B.
Ghiselin, The Creative Process, P. 172.
- (٩٦) Whitfield, Op. cit., p. 10.
- (٩٧) Samuels & Samuels, op. cit., P. 256.
- (٩٨) Ibid.
- (٩٩) ميندوزا ، المرجع السابق ، ص ٧٣
- (١٠٠) Stein, op. cit., 1974, p. 22.
- (١٠١) Basson, F. Creativeperson and Creative Process, New York :
Hold, Rinhart, Company, 1968

- Coledidge S. T. Prefatory note to Kubla-Khan, In · B. Ghi- (١٠٢)
pp. 84-85.
- (١٠٣) بورانيلى (فنسنت) ادجار آلان بو ، النصص والشاعر ، القاهرة : دار
النشر للجامعات المصرية ، بدون تاريخ ، ص ٧١ .
- Ghiselin, op. cit., p. 16. (١٠٤)
- (١٠٥) جيد (أندريه) بول فاليرى ، فى · الرؤيا الابداعية ، مرجع سابق ،
ص ٦٩ - ٧٠ .
- (١٠٦) ميندوزا ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .
- (١٠٧) بوستوفسكى ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .
- Ghiselin, op. cit., p. 27. (١٠٨)
- (١٠٩) ميندوزا ، المرجع السابق ، ص ٦١ .
- (١١٠) صدقى (نجاشى) تشيكوف ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٧ ، ص ١٣ .
- Knawlsn, T. S. Originalily, Philadelphia, Lippincott, 1918. (١١١)
- Miller, H. op. cit., pp. 178-185. (١١٢)
- (١١٣) ميندوزا ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .
- Session, The composer and his message, In : B. Ghiselin, (١١٤)
op. cit., p. 49.
- (١١٥) أوكونور (فرانك) الصوت المنفرد ، مقالات فى القصة القصيرة (ترجمة :
محمود الربيعى) القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٣ .
- (١١٦) ميندوزا ، المرجع السابق ، ص ٦١ - ٦٢ .
- (١١٧) الشارونى (يوسف) القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا ، القاهرة ، دار الهلال
١٩٧٧ .
- Jones, V. Creative Writing, London : Teach Yourself Books, (١١٨)
1975, p. 61
- Berlyne, D. E. Conflict arousal and Curiosity, New York : (١١٩)
Mc Graw-Hill, 1960, p. 233.
- Ghiselin, op. cit., p. 25. (١٢٠)
- (١٢١) برتلىمى (جان) بحث فى علم الجمال (ترجمة : أنور عبد العزيز) ،
القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤٦ .
- McGuigan, op. cit., p. 63. (١٢٢)
- Hebb, D. O. Drive and the C.N.S. (Conceptual Nervous sys- (١٢٣)
tem) In : R. J. Harper, et al., (eds.) The cognitive processes, New
Jersey : Prentice-Hall Inc., 1964, pp. 19-31.

- Malmö, R. B. Activation: a neurophysiological approach, (١٢٤)
In : R. J. Harper, et al., Ibid, pp. 32-52.
- Fareley, F. H. Arousal and cognitions : Cognitive Preference arousal and the stimulating — motive, perceptive and motor skills, 1976, 43, 103-108. (١٢٥)
- Koffka, K. Principle of Gestalt Psychology,, New York : (١٢٦)
Harcourt Brace, 1935, p. 648.
- Stein, op. cit., 1961, p. 13. (١٢٧)
- Kafka op. cit., pp. 654-664. (١٢٨)
- (١٢٩) ميندوزا ، المرجع السابق ، ص ٦٣ - ٦٤ .
- Mackinnon, D. W. Creativity, a multifaced phenomenon, (١٣٠)
In : J. D. Raslansky (ed.). Creativity London : Northholdand, publishing company, 1970, p. 21.
- (١٣١) سوييف ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

مراجع الفصل الرابع

- Reber, A. The Penguin Dictionary of Psychology, Harmonds-
worth : Penguin Books, 1987, pp. 343-344. (١)
- Harawitz, J. I. Image Formation and Cognition, New York:
Azpleton-Centurey, 1978, p. 3. (٢)
- Sutherland, M. B Everyday imagining and education, Lon-
don Rautledge & Kegan Paul, 1971, p. 76. (٣)
- Reber. Op. Cit., p. 345. (٤)
- Shone, R. Creative Visualization, Northamptonshire. Thor-
sons Publishers, 1984, pp. 4-8. (٥)
- Nasr, J. Developmental Psychology, A Psychological Ap-
proach, New Jer ey : Prentice-Hall, Inc., 1970, p. 380. (٦)
- Paivio. A. Psychological Processes in the comprehension
of Metaphor, In : A. Ortony (ed.) Metaphar and laught, Cambridge:
Cambridge Univ. Press, 1979, p. 157. (٧)
- Marks, L. E. Synthesia and Arts In : W. Grozier & A. (٨)
Chapman, (eds.) Cognitive Processes in the Perception of Art,
New York : North. Holand, 1984.
- Nash, Op. Cit., p. 381. (٩)
- Plaget, J. & Inhelder, B. The Child's conception of Space (١٠)
In : H. Gruber & J. Vonech (ed). The essential of Piaget, In
interpretative reference and Guide, Cadbridge : Cambridge Univ.
Press 1979, pp. 501-2.
- Arnheim, R. Visual thinking, Berkeley : Univ. of California (١١)
Press, 1969.
- Mayer, R. thinking, Problem Solving, Cognition, New York : (١٢)
Freeman and Company, 1983, pp. 273-277.
- (١٣)
Richardsm, A. Mental Imagery, London, London : Routledge & Kegan
Paul, 1969.
- Paivio, A. Imagery and Language In : S. J. Segal (ed.) (١٤)
Imagery Current Cognitive approaches, New York : Academic
Press. 1971.
- Horowitz, Op. Cit. (١٥)

- Piaget, J. & Inhelder, B., Op. Cit. (16)
- Reber, Op. Cit., p. 32. (17)
- Torrance, E. P. Guiding Creative Talent, New Delhi . Pren- (18)
tice Hall of India, 1969, pp. 85-90.
- Nash, Op. Cit., p. 381. (19)
- Sutherland, Op. Cit., p. 76. (20)
- Sutherland, Ibid, pp. 81-91. (21)
- Richardson, Op. Cit., pp. 2-3. (22)
- Richardson, 1969. (23)
- Marks, Op. Cit. (24)
- Horawilz, Op. Cit., pp. 6-28. (25)
- Paivio, Op. Cit., 1971. (26)
- Begg, I. Imagery and Language, In : A. A. Sheikh, (ed.) (27)
Imagery, Current Theory, Research and Application, New York:
John Wiley & Sons, 1983, pp. 291.-296.
- Lindaver, M. S. Imagery and the Arts. In . A. A. Sheikh (28)
(ed.), Ibid, pp. 244-245.
- Samuels. M. & Samuels, N. Seeing with the mind's eye, the (29)
history, Uses, and technique of Visualization, New York . A
Random House, 1982, p. 240.
- Ibid, pp. 240-241. (30)
- Gerard, R. W. The Biological Bases of imaginatiton, In : (31)
B. Ghiselin, The Creative Process, New York : The New American
Library, 1952, p. 237.
- Samuels & Samuel, Op. Cit., p. 245. (32)
- Einstein, A. A Letter to Jacques Hadamard, In : B. Ghiselin (33)
- Mozart, W. A Letter, In B. Ghiselin (ed.) Op. Cit., p. 45. (34)
- Lawrence, D.H. Making Pictures, In : Ghiselin, Op. Cit., (35)
p. 72.
- Moore, H. Notes on Sculpture, In: B. Ghiselin, Op. Cit., p. 74. (36)
(ed.) Op. Cil., p. 43 .
- Coleridge, S. Prefatory notes to Kubla-Khan, In : B. Ghi- (37)
selin, Op. Cit., p. 85.
- Lindaver, Op. Cit., pp. 469-470. (38)

Lindaver, Ibid, pp. 485-587. (٢٩)

Forisha, B. Relationship Between Creativity and Mental (٤٤)
imagery : A Question of Cognitive Style ?. In : A. A. Sheikh,
Op. Cit., pp 311-313.

(٤١) رولان بارت ، النقد والحقيقة ، نقلا عن : سمير الحاج شاهين ، مقدمة ترجمته
لناشيد مالدورور للوثر يامون ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢ ،
ص ٢٤ .

Thomson, R. The Psychology of Thinking : London, English (٤٢)
Language Books Society, 1971, pp. 196-200.

مراجع الفصل الخامس

- (١) فيشر (أرنست) ، ضرورة الفن (ترجمة : أسعد حليم) ، القاهرة : الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٧١ ، ص ٩٤ .
- (٢) سويكف (مصطفى) ، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ .
- (٣) حنورة (مصرى عبد الحميد) ، الأسس النفسية للإبداع الفني في الرواية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ .
- (٤) حنورة (مصرى عبد الحميد) ، الأسس النفسية للإبداع الفني في المسرحية ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ .
- (٥) Shapiro, R. J. The criterion problem, In : P. E. Vernon, (ed.) Creativity, Harmondsworth ; Penguin Books, 1973, 257-269.
- (٦) Barron, F. Creative Vision and expression in writing and Painting, conference on the creative person, Berkeley : Univ. of California, Institute of personality assessment and Research, 1961, ch. 2.
- (٧) Barron, F. Creativity and personal freedom, New York : Holt, Rinhart and Winston, Inc., 1969, p. 238.
- (٨) Shapiro, op. cit., p. 258.
- (٩) بلوك (هاسكل) ، سالنجر (هيرمان) ، الرؤيا الإبداعية و ترجمة أسعد حليم ، القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، سلسلة الألف كتاب (رقم ٨٥٥) ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٠ .
- (١٠) Shapiro, op. cit., p. 261.
- (١١) Barron, op. cit., 1961.
- (١٢) ميندوزا (بلينيو) أحاديث مع غابرييل غارثيا ماركيث ، (ترجمة : إبراهيم وطفى) (دمشق : طلاسى للدراسات والترجمة والنشر) ، ١٩٨٦ .
- (١٣) Best, J. W. Research in education, New Delhi, Prentic-Hall of India, 1977, p. 157.
- (١٤) Openheim, A. N. Questionnaire design and attitude measurement, London : Heinman, 1970.
- (١٥) Maccoby, E. E. & Maccoby, N. The interview a tool of Social science, In : Handbook of Social Psychology, In : G. Lindzey : (ed.) Handbook of Social Psychology, Cambridge : Addison Wesley: Publishing Company, Inc., 1954, 449-487.

- Oppenheim, ibid, p. 38. (١٦)
- Oppenheim, ibid, p. 38. (١٧)
- Guilford J. P. Fundamental statistics in Psychology and education, New York : McGraw-Hill, 1956. (١٨)
- (١٩) هيئة بحث تعاطي الحشيش ، تعاطي الحشيش ، التقرير الأول (كتيب مصطلحي
سوييف) ، القاهرة : مشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناائية ، ١٩٦٠
- (٢٠) حنورة ، مرجع سابق ، ١٩٧٩ .
- (٢١) حنورة ، مرجع سابق ، ١٩٨٠ .
- Ebel, R. L. Must all test be valid In : G. Bracht et al (eds.) Perspective in educational and Psychological measurement, New Jersey : Prentice Hall, Inc., 1972, pp. 83-84. (٢٢)
- Cronbach, L. J. Validation of educational measures, In G. Bracht et al., Ibid, p. 89. (٢٣)
- Cronbach, L. J. & Meehl, P. E. Construct validity in Psychological testing Psychol. Bull, 1955- 52, 281-303. (٢٤)
- Cronbach, op. cit., p. 100. (٢٥)
- Ebel, op. cit., pp. 83-84. (٢٦)
- Cronbach, op. cit., p. 101. (٢٧)
- Kerlinger, F. Foundations of Behavioral Research, New York Holt, Rinhart & Winston, Inc., 1964, p. 449. (٢٨)
- Guilford, Op. Cit., 1956, pp. 462-470. (٢٩)
- Gronbach & Mechl, op. cit. (٣٠)
- (٣١) هيئة بحث تعاطي الحشيش ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ .
- (٣٢) سوييف ، المرجع السابق ، ص ٣٧٩ .
- Oppenheim, op. cit., p. 32. (٣٣)
- Keslinger, op. cit., p. 468. (٣٤)
- Maccoby & Maccoby, op. cit., p. 451. (٣٥)
- Kerlinger, op. cit., p. 469. (٣٦)
- Maccoby & Maccoby, op. cit., pp. 452-454. (٣٧)
- (٣٨) سوييف ، المرجع السابق ، ص ٤٤٢ .
- (٣٩) حنورة ، مرجع سابق ، ١٩٧٩ .

- (٤٠) حنورة ، مرجع سابق ، ١٩٨٠ .
- (٤١) سويف ، المرجع السابق ، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .
- (٤٢) حنورة ، مرجع سابق ، ١٩٧٩ .
- (٤٣) حنورة ، مرجع سابق ، ١٩٨٠ .
- Best, op. cit., p. 129. (٤٤)
- Mar den, G. Content analysis studies of therapeutic In- (٤٥)
terviews, 1954 to 1964, Psychol. Bull, 1956, 63, 298-321
- Berelson, B. Content analysis, In : G. Findzey (ed.) op. cit., (٤٦)
p. 489
- Berelson; ibid, p. 488. (٤٧)
- Ibid., p. 508. (٤٨)
- Bolton, N. The Psychology of thiking London : Methuen (٤٩)
& Co., Ltd, 1986, p. 181.
- Burt, G. Critical notes, In : P. E. Vernon (ed.) Creativity, (٥٠)
Harmondsworth, Penguin Books, 1973, pp. 203-216.
- Crutchfield, R. The Creative Process, conference on the (٥١)
Creative person, op. cit., ch. 6.

مراجع الفصل التاسع

- (١) أركونور (فرانك) ، الصوت المنفرد : مقالات في القصة القصيرة (ترجمة محمود الربيعي) القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ ، ص ٢١ .
- (٢) فيشر (أرنست) ، ضرورة الفن (ترجمة : أسعد حليم) القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ ، ص ١٦٤ .
- (٣) بروسست (مارسيل) ، بحثا عن الزمن المفقود في : (الرؤيا الإبداعية) تأليف : بلوك « هاسكل » ، سالنجر « هيرمان » (ترجمة : أسعد حليم) القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، سلسلة الألف كتاب (رقم ٨٥٥) ، ١٩٦٦ ، ص ٨٧ .
- (٤) أدونيس (على أحمد سعيد) الثابت والمتحول ، المجلد الأول ، بيروت : دار العودة ، ١٩٧٤ ، ص ٦٩ .
- (٥) McKeller, P. Originality in human thinking, British Journal of Aethetics.
- (٦) Krapetchenko, M. The creative Individuality and the development of Literature, Moscow : Progress Publishers, 1977, p. 9.
- (٧) Richardson, A. Mental imagery, London : Routledge & Kegan Paul, 1969, P. 123.
- (٨) Krapetchenko, op. cit., pp. 8-9.
- (٩) Corpendor, S. The making of a poem, In: B. Ghisellin, (ed.) The Creative process, New York : The New American Library, 1952, pp. 114-115.
- (١٠) سوييف (مصطفى) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠ .
- (١١) حنورة (مصرى عبد الحميد) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الرواية : القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ .
- (١٢) حنورة (مصرى عبد الحميد) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى المسرحية : القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ .
- (١٣) سوييف ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .
- (١٤) فيشر ، المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .
- (١٥) بدر (عبد المحسن طه) حول الأدب والواقع ، دراسة تطبيقية ، القاهرة : دار الفكر ، ١٩٧١ ، ص ٩ .

- Krapetchenko, op. cit., p. 45. (١٦)
- Luckacs, G. Writer and Critic, London : Merlin Press Ltd, 1870. p. 10. (١٧)
- (١٨) السيد (عبد الحليم) السبباقي النفسي الاجتماعي للإبداع ، رسالة دكتوراه قدمت الى كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥٣ (نشرت بعد ذلك بعنوان) : الأسرة وإبداع الأبناء ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠ .
- (١٩) أوكونور ، المرجع السابق .
- Buchanm J. Modern Short stories, London : Thomas Nel on and Sons Ltd, 1930. (٢٠)
- Murray, L. A dictionary of Art & Artists, Harmondsworth : Penguin Books, 1981. (٢١)
- Ibid. (٢٢)
- Ibid (٢٣)
- Arnheim, R. Towards a Psychology of Art : Collected Essays Berkeley : University of California Press, 1966, p. 27. (٢٤)
- Ibid, pp. 25. (٢٥)
- Ibid, p. 31. (٢٦)
- Ibid, p. 31. (٢٧)
- Langer, S. Language and Thought, 1944. In : L. Bernard Taaard a Liberal education, New York : Wiley, 1972. (٢٨)
- Ibid. (٢٩)
- Ibid. (٣٠)
- (٣١) حافظ (صبرى) ، خصائص القصص القصصية البنائية ومجالياتها ، فصول ، ١٩٨٢ ، المجلد الثاني ، العدد الرابع ، ص ٢٧ .
- (٣٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
- Reid, I. The Short Story, London : Methuen, 1977. (٣٣)
- (٣٤) حافظ ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .
- (٣٥) كشييك (محمد) علامات التحديث في القصة القصيرة ١٩٢٥ - ١٩٨٠ ، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة (سلسلة الموسوعة الصغيرة) ١٩٨٨ ، ص ٨٠ - ٨١ .
- Maddi, S. Motivational aspects of creativity, Journal of of Personality, 1965, 3, 330-347. (٣٦)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم : بقلم الدكتور مصطفى سوييف	٢ —
نصيبدير	٦ —
الفصل الأول : القصة القصيرة ودراسات الابداع ١٥	٣٣ —
مقدمة :	١٧
لماذا العملية الابداعية ؟	٢٢ —
ما القصة القصيرة ؟	٢٩ —
تعقيب	٣٣
الفصل الثاني : عملية الابداع فى ضوء النظريات	
السيكولوجية الحديثة	١٧٠ — ٣٥
تعريف المصطلحات الأساسية	٤٤ — ٣٧
اولا : الاطار الاستبطانى	٤٨ — ٤٤
ثانيا : نظرية التحليل النفسى	٥٣ — ٤٩
١ — المفاهيم الأساسية	
(الشعور — عقدة أوديب — اللاشعور	
الكبت — العملية الأولية — العملية	
الثانوية — اللاشعور الجمعى)	
٢ — فرويد والابداع	٧٨ — ٥٤
٣ — يونج والابداع الفنى	٨٥ — ٧٨
٤ — التحليل النفسى والسريرية	٩٠ — ٨٥
٥ — تعقيب عام على نظرية التحليل النفسى	٩١ — ٩٠
ثالثا : نظرية الجشططت والابداع الفنى	١٢٤ — ٩١
مقدمة	٩٣ — ٩١
١ — المفاهيم الأساسية	٩٥ — ٩٣
(الجشططت — الاستبصار —	
التشاكل — الاتزان — الجشططت	
الجيد)	
٢ — الادراك والتمثيل	٩٩ — ٩٥
٣ — المفاهيم التمثيلية	١٠٧ — ١٠٠
٤ — الالهام	١١٤ — ١٠٧
٥ — الابداع والتأمل	١٢٤ — ١١٤
خاتمة	١٢٧ — ١٢٥

رابعاً : الابداع وتحقيق الذات	١٢٨	-
مقدمة	١٢٨	- ١٢٩
١ - ماسلو وتحقيق الذات	١٢٩	- ١٣١
٢ - مدرج الحاجات الانسانية	١٣١	- ١٣٦
٣ - تحقيق الذات	١٣٦	- ١٤١
٤ - الابداع وتحقيق الذات	١٤١	- ١٤٦
٥ - مسنويات الابداع	١٤٦	- ١٤٩
الخلاصة	١٤٩	- ١٥٠
خامساً : الأساليب المعرفية والابداع	١٥٠	- ١٥٦
سادساً : تصالح النظريات المختلفة : حالة همنجواي	١٥٦	- ١٧٠
الفصل الثالث : الصور العقلية والخيال الابداعي	١٧١	- ٢٠٠
(الصورة - التفكير بالصور -		
التخيل - الخيال - موقع الصور		
والخيال في المخ)		
تاريخ دراسات الصور العقلية والخيال	١٧٧	- ١٨٠
الصور العقلية واللغة	١٨٠	- ١٨٥
الصور العقلية والخيال والابداع	١٨٥	- ١٩٢
الصور العقلية لدى هرمان ملفيل : نموذج		
تطبيقات	١٩٢	- ١٩٤
خاتمة	١٩٥	- ١٩٩
الفصل الرابع : العملية الابداعية، في القصة		
القصيرة (تصور خاص)	٢٠١	- ٢٣٩
القسم الأول : نحو البحث عن منطق لاستخدام		
التحليل العامل (كأسلوب احصائي) في		
تحليل العملية الابداعية	٢٠٣	- ٢١٣
القسم الثاني : العملية الابداعية	٢١٣	- ٢٣٨
١ - العمليات الدافعية	٢١٣	- ٢١٦
٢ - عمليات الاعداد الأول	٢١٦	- ٢١٧
٣ - عمليات المراقبة والالتقاط	٢١٧	- ٢٢٣
٤ - عمليات الاعداد الثاني	٢١٩	- ٢٢٣
٥ - عمليات التركيز	٢٢٣	- ٢٢٥
٦ - عمليات الاقتراب من الأفكار	٢٢٥	- ٢٢٦
٧ - عمليات الغلق (صعوبات التفكير)	٢٢٦	- ٢٢٨
٨ - عمليات الاسترخاء أو الابتعاد المؤقت	٢٢٨	- ٢٣٠
٩ - عمليات مجيء الأفكار ووضوحها	٢٣٠	- ٢٣١
١٠ - عمليات الاعداد الثالث	٢٣١	

٢٣٣	٢٣٢	٠	٠	٠	٠	٠	١١- عمليات التنفيذ
٢٣٤	٢٣٣	٠	٠	٠	٠	٠	١٢- عمليات التقييم أو النقد الذاتي
	٢٣٤	٠	٠	٠	٠	٠	١٣- عمليات التعديل
	٢٣٥	٠	٠	٠	٠	٠	١٤- حالة السيطرة
٢٣٦	٢٣٥	٠	٠	٠	٠	٠	١٥- العمليات اللا ارادية
							١٦- العمليات الاجتماعية (خاصة الجماعة
٢٣٨	٢٣٧	٠	٠	٠	٠	٠	السيكولوجية
٢٣٩	٢٣٨	٠	٠	٠	٠	٠	١٧- تعقيب عام
٢٧٦	٢٤١						الفصل الخامس : منهج الدراسة الحالية وخطواتها
٢٤٨	٢٤٣	٠	٠	٠	٠	٠	أولا : اختيار عينة البحث الحالي
٢٥٣	٢٤٨	٠	٠	٠	٠	٠	مسككة المحك
٢٧٢	٢٥٣	٠	٠	٠	٠	٠	ثانيا : الأدوات
٢٧٦	٢٧٢	٠	٠	٠	٠	٠	ثالثا : الاجراءات
٣٠٨	٢٧٧						الفصل السادس : أهم نتائج هذه الدراسة :
٢٩٢	٢٧٩	٠	٠				القسم الأول : العوامل أو التركيب
٣٠٨	٢٩٣	٠					القسم الثانى : العمليات أو التحليل
							الفصل السابع : تحليل مسودة قصة قصيرة
							(قراءة فى قصة «طبله السحور» للكاتب :
٣٣٤	٣٠٩	٠	٠	٠	٠	٠	عبد الحكيم قاسم)
٤١٢	٣٣٥	٠					الفصل الثامن : حوارات حول القصة والابداع
							(حوارات مع ادوار الخراط و ابراهيم عبد المجيد
							وجمال الغيطانى وسعيد الكفراوى
							وعبد جبير ، ويوسف أبو ريه ،
							ومحمود الوردانى وحسين عيد)
٤٣٤	٤١١	٠	٠	٠	٠	٠	الفصل التاسع : مناقشة وتعليق
٤١٩	٤١٣	٠	٠	٠	٠	٠	فن الالتقاط والبدال
٤٢٥	٤١٩	٠	٠				القصة القصيرة : فن التجريد التعبيرى
٤٢٨	٤٢٥	٠	٠	٠	٠	٠	الفن والتخطيط العام
٤٢٨	٤٢٩	٠	٠	٠	٠	٠	الابداع : كفاءة وتجديد
٤٦٤	٤٣٥	٠	٠	٠	٠	٠	المراجع
٤٧٠	٤٦٥	٠	٠	٠	٠	٠	المحتوى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/٥٢٨٣

ISBN 977 - 01 - 3088 - 5

يتناول هذا الكتاب موضوعا بالغ الأهمية سواء بالنسبة لعلماء النفس ، أو الأدباء ، أو النقاد ، أو القراء عامة وهو موضوع الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة ، وقد تناول المؤلف في هذا الكتاب النظريات النفسية الأساسية التي تعاملت مع موضوع الإبداع ، مثل نظرية التحليل النفسي ونظرية الجشطلت ونظرية تحقيق الذات كما عرض تصوره الخاص لعملية الإبداع في ضوء مجموعة من المراحل المتتابعة والمتفاعلة في نفس الوقت ، وقام بجمع مجموعة من البيانات الهامة من مجموعة من كُتّاب القصة من أعمار واتجاهات فنية مختلفة ، وأجرى حوارات تزخر بالمعلومات عن الإبداع في القصة القصيرة مع عدد من المبدعين المصريين ، ثم عرض وناقش في النهاية بعض الأفكار الخاصة والهامة حول جوهر الإبداع في الفن عامة وفي القصة القصيرة خاصة .